أعلام المسلمين

٩٦



عبد الستار الشيخ

دار القلم

دمشق

أعلام المسلمين
٩٦



أبو بكر الصديق رضي الله عنه

خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم

و ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾

بقلم
عبد الستار الشيخ

دار القلم
دمشق


أبو بكر الصديق رضي الله عنه
خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم
و ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾



الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم ـ دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية ـ بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير ـ جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

هذا الرجل

●● **قال الله تعالى:**

ـ ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠].

ـ ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ [التوبة : ٤٠].

ـ ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل : ١٧ ـ ٢١].

ـ ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢].

* * *

●● **قال رسول الله ﷺ:**

ـ «ما ظَنُّكَ يا أبا بكر باثنينِ اللهُ ثالثُهما».

ـ «إنَّ الله بَعَثَني إليكم ، فقلتُم: كذبتَ ، وقال أبو بكر: صَدَقَ ،

وواساني بنفسه ومالِه ، فهل أنتم تارِكو لي صاحبي؟ فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟».

ـ «إنَّه ليس من الناس أحدٌ أَمَنَّ عَليَّ في نفسه وماله من أبي بكر بن أبي قُحافة ، ولو كنتُ مُتخِذاً من الناس خليلاً لاتَّخَذتُ أبا بكر خليلاً ، ولكنْ خُلَّةُ الإسلام أفضَلُ ، سُدُّوا عني كل خَوْخَةٍ في هذا المسجد غيرَ خَوْخَة أبي بكر».

ـ «ما لأحدٍ عندنا يدٌ إلا وقد كافَيْنَاه ، ما خَلا أبا بكر ؛ فإنَّ له عندنا يداً يُكافِيه الله بها يومَ القيامة».

ـ «أبو بكر وعمر من هذا الدِّين كمنزلة السمع والبصر من الرأس».

ـ «إنَّ أهلَ الدرجات العُلى لـيَـرَاهُم مَنْ تحتَهم كما ترون النجمَ الطالعَ في أفقِ السماء ، وإنَّ أبا بكر وعمر منهم ، وأنْعَمَا».

ـ «أبو بكر وعمر سيِّدا كهولِ أهل الجنة من الأولين والآخرين ، إلا النبيين والمرسلين».

ـ «إنْ يُطعِ الناسُ أبا بكر وعمر فقد أَرْشَدُوا».

* * *

●● قال أبو بكر رضي الله عنه:

ـ (**أما بعدُ**: أيها الناس: فإنّي قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم ، فإن أحسنتُ فأَعينوني ، وإنْ أسأتُ فقوِّموني ، الصدقُ أمانة ، والكذبُ خيانة والضعيفُ فيكم قوي عندي حتى أُرِيحَ عليه حقَّه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يَـدَعُ قومٌ

الجهادَ في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيعُ الفاحشة في قوم قطُّ إلا عَمَّهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله ، فإذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم).

- (والّـذي لا إلـه إلا هـو ، لـو جَـرَّتِ الكِـلاب بـأرجـلِ أزواج رسول الله ﷺ ما رددتُ جيشاً وجَّهه رسول الله ﷺ ، ولا حَلَلْتُ لواءً عقده رسول الله ﷺ).

- (واللهِ لو مَنَعُوني عِقالاً ممَّا كانوا يُعطون رسول الله ﷺ ، ثم أَقبل معهم الشجر والمَدَر والجن والإنس؛ لجاهدتُهم حتى تلحقَ روحي بالله! إن الله لم يفرِّق بين الصلاة والزكاة ثم جمعهما).

- (والذي نَفْسِي بيدِه لَقرابةُ رسول الله ﷺ أَحَبُّ إليَّ أنْ أصِلَ من قرابتي).

- (واللهِ ما تركتُ الدارَ والمالَ والأهلَ والعشيرةَ إلا ابتغاءَ مرضاةِ الله ومرضاة رسوله ، ومرضاتِكم أهلَ البيت).

- (يا عائشة. . . أَمَا إنَّا منذُ وُلِّينا أمرَ المسلمين لم نأكلْ لهم ديناراً ولا درهماً ، ولكنّا قد أكلنا من جَرِيش طعامهم في بطوننا ، ولَبِسنا من خَشِنِ ثيابهم على ظهورنا ، وليس عندنا من فيءِ المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي ، وهذا البعير الناضِح ، وجَرْد هذه القَطِيفة ، فإذا مِتُّ فابْعَثِي بهنَّ إلى عمرَ وابْرَئي منهنّ).

* * *

المقدمة

اللهم لك الحمدُ في الأولىٰ ، ولك الحمدُ في الآخرة ، ولك الحمدُ حتىٰ ترضىٰ ، ولك الحمدُ إذا رضيتَ ، سبحانك لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ علىٰ نفسك .

وأزكىٰ صلوات الله وتسليماته علىٰ معلِّم الناس الخير ، وهادي البشرية إلىٰ الرشد ، ورحمته المُهداة للعالمين ، ونعمته المُسداة للناس أجمعين ، سيدنا محمد ﷺ ، وعلىٰ خلفائه الراشدين الهادين المهديين وآله وصحبه أجمعين ، الذين آمنوا به وصدَّقوه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه ، وحملوا الراية من بعده مشرِّقين ومغرِّبين؛ حتىٰ تحقق قولُه تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف : ٩] .

وبعد : فإن مولدَ رسول الله محمد ﷺ لم يكن مولد إنسان ، بل مولد إنسانية .

وروح النبي ﷺ وأخلاقه وشمائله وآثاره وتعليماته بقيت في قلوب أصحابه يتحركون بها ويعملون بوحيها ويوجِّهون العالم ويصوغونه بها ، فلقد كانوا جيلاً فذّاً لم تشهد البشرية له مثيلاً؛ صُلبَ المعدن مضيءَ البصيرة قويم السلوك جيّاش العواطف ثابتَ القلب منوَّر الفكر ، جمع

بين الصرامة والكرامة ، وأخذ الكتاب بقوة ، وخدم الإيمان بعزم ، وانتصب لحرب الجبابرة ببأس شديد ، فأزال عروشاً ودكَّ إمبراطوريات ، وأنار الحياة وأنشأ الحضارة الحق.

والصحابة رضوان الله عليهم هم نَخَائل[1] البشر ولُبَابهم ، والخلفاء الأربعة همُ مُصَاصة الصحابة ، والصديق مُصاصة المصاصة.

وإن الرجل الذي يأتي بعد النبي ﷺ ويسمَّىٰ خليفةَ رسول الله ﷺ ويتولىٰ قيادة الأمة من بعده؛ يجب أن يكون صورة صادقة عنه وقريبة جدّاً منه ، ليملأ الفراغ الكبير الذي تركه الرسول ﷺ بعد لحاقه بالرفيق الأعلىٰ ، ويكون عهدُه استمراراً شامخاً لهدي النبوة ، ويتمثل المواقف الضخمة التي تكافئ ميراث عصر الرسالة ، ويقيم دولة ويؤسس مجتمعاً يضاهي ما شيده المربي الأعظم ﷺ ، لأنه يمثِّل أضوأَ النجوم التي كانت تدور في فَلَك شمس النبوة ، وأكثَرها أَلَقاً وأشدَّها اتباعاً وأقدَرَها علىٰ أداء الأعمال الضخام. ويُثْبِت بذلك أنه أطيبُ ثمار الصنعة النبوية ، حيث ترشّحت إلىٰ روحه وقلبه ونفسه وعزماته سيرةُ سيد المرسلين وهديه ، في أيام مكة ، وليال الهجرة وفجرها ، ومشاهد المدينة وغزواتها ، والأعمال الكبار في المجتمع المدني. . . وهكذا كان أبو بكر.

إنه الرجل الذي اختارته الأقدار ليكون ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠] ، واختاره النبي ﷺ ليكون إمامَ المسلمين في حياته، وأجمع المهاجرون والأنصار علىٰ أنه الخليفة القائم بعده، ليصيغ

---

(١) أي: خلاصتهم وأفضلهم وأطيبهم.

الصفحة الأولىٰ من التاريخ الإسلامي ، ويكتب الصفحات المشرقة من العصر الذهبي لعهد الخلفاء الراشدين الذي يمثل الانعكاسَ الحقيقي والامتداد المناسب لعصر الرسالة ، ويكوِّن حِقبة فريدة في بؤرة التاريخ الإنساني ، والتي (كان الإسلام كما أُنزل في الكتاب والسنة هو لُحمتها وسَدَاها ، وهو الباعث على كل عمل قامت به في أي اتجاه اتجهت إليه)[١] .

وفي الحق أن الباحث في شخصية الصدِّيق ليَحارُ ويأخذهُ البَهْرُ إذا أراد أن يحيط بها ويعرِض لها صورة تحليلية؛ فهي كالشمس يحسّ حرارتها ويرىٰ ضوءَها ويشهد نفعها ، لكنه لا يستطيع أن يُحصي عناصرَ تكوينها! فسيرته سيرة طفرات عباقرة الرجال ، وعظمته كالحلقة المفرغة لا يُعرف أين بدأت ولا أين انتهت . سموّ مفطور ، وكمال منشور ، وفضل منظور ، وسَمْت مشهور ، مغذَىٰ التقىٰ ، ومُرَاح الهدىٰ ، ومثوىٰ الإخلاص ، وكَهْف الإيمان ، وملجأ الأمة إذا ادلهمّت أمورها ، ومأرِز الدين عند تفاقم الخطوب . لَمّ شَعَثَ المؤمنين ، وشتَّتَ شمل المنافقين ، وقهر المرتدين ، وأعزَّ الله به الدين ، وأيَّد به اليقين ، وشدَّ به أَزْرَ سيد المرسلين[٢] .

ولم أجدني أتهيَّب من الكتابة عن رجل مثلَ ما تهيبتُ من تسطير هذه الصفحات المشرقة عن صدِّيق الأمة وخليفة رسول الله ﷺ! ولم أدرِ ماذا أكتب في التقديم لهذا الكتاب ، وماذا أَدَع ، والعبارات تتزاحم علىٰ قلمي ، والأعمال الجليلة تدَّافَع كل منها يريد أن يتقدم علىٰ غيره ، والمواقف الكبار تحيِّر الفكر؛ ماذا يَـدَع منها ، وماذا يختار! .

---

(١) انظر : من قضايا الفكر الإسلامي المعاصر ، ص ٧١ .

(٢) انظر : حياة رجالات الإسلام ، ص ١٥ ـ ١٦ .

بماذا نقدِّم هذه السيرة الحافلة للرجل الذي زكّاه ربه سبحانه وتعالىٰ ، واحتفىٰ به النبي ﷺ ، وأثنىٰ عليه بما لم يُثْنِ علىٰ أيٍّ من أصحابه؛ وكلُّهم جليل رفيع .

أبو بكر الذي قال الله تعالىٰ فيه : ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وقال : ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وبشَّره بقوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل : ٢١] .

ووصفه النبي ﷺ بأنه أمنُّ الناس عليه في نفسه وماله ، وأنه أحبّ الرجال إليه ، وأنه أرحمُ أمته بأمته ، وشبَّهه بإبراهيم وعيسىٰ ، وأمر بسدِّ الأبواب الشارعة في المسجد إلا بابه .

وقدَّمه للصلاة فقال : «**مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس**» . . ولما سمع صوت عمر يصلي قال : «**لا ، لا ، لا ، ليصلِّ للناس ابنُ أبي قحافة**» .

وعندما غاضَبَه عمر غضب ﷺ له وقال : «**فهل أنتم تاركو لي صاحبي**» .

وكان يُفاخِر به أمام عامة الصحابة ويقول : «**كنتُ وأبو بكر وعمر ، وفعلتُ وأبو بكر وعمر ، وانطلقت وأبو بكر وعمر**» وقال : «**أومن به أنا وأبو بكر وعمر**» ، وقال عنهما : «**هذان السمع والبصر**» ، وأمر الناس بالاقتداء بهما فقال : «**اقتدوا باللذَيْن من بعدي**» وأشار إلىٰ أبي بكر وعمر» .

وبشَّره بالجنة في غير ما حديث ، وأنه يُدعىٰ من أبوابها الثمانية .

وطمأنَه يوم الغار فقال: «**لا تحزن إن الله معنا**» ، وقال له مبشراً: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!**» .

ورشَّحه للخلافة بعده وهَمَّ أن يكتب له بذلك كتاباً ، ثم تركه لأنه علِمَ أن الأمة لن تختلِف عليه فقال: «**معاذ الله أن يختلف المؤمنون في أبي بكر**»! .

فماذا بقي لكاتبٍ أن يقوله بعد هذا الثناء العريض والفضل الممدود؟! .

رجلٌ قد عُرف قبل الإسلام وعند دخوله فيه وإبَّان خلافته بأرفع مكارم الأخلاق ، وأجلِّ شمائل العظماء ، الرجل الذي امتدحه سيد القارَة (ابنُ الدَّغِنَة) ووَبَّخَ غطارفةَ قريش كيف يُخرجونه من مكة؛ فقال: (أَتُخرِجون رجلاً يكْسِبُ المعدومَ ، ويَصِلُ الرَّحِمَ ، ويَحمِلُ الكَلَّ ، ويَقْرِي الضيفَ، ويُعين علىٰ نوائب الحق؟!) ، وهي نفس الصفات التي وصفت بها أمُّ المؤمنين خديجةُ رسولَ الله ﷺ في مطلع الرسالة! .

أبو بكر الذي دخل الإسلام وصَدَّق بالنبي ﷺ أولَ ما دعاه ما تلبَّثَ ولا تلعثم ، وما قال الرسول ﷺ شيئاً إلا قال أبو بكر: (إن كان قال فقد صدق)! وبقي علىٰ أرفع سير الصديقين طيلة سِني الدعوة ، وهاجر معه ﷺ الهجرة المباركة التي سطَّر القرآن الكريم جلالها ، ووضع نفسه وماله وأهله أجمعين في خدمة الدعوة حتىٰ قال النبي ﷺ: «**ما لأحدٍ عندنا يدٌ إلا وقد كافَيْنَاهُ ، ما خَلا أبا بكر ، فإنَّ له عندنا يداً يُكافِيه الله بها يومَ القيامة**» .

ولازَمَ النبيَّ ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة لم يفارقه في سفر ولا حضر ، ولا سلم أو حرب ، وشهد معه كل المشاهد ، وله فيها المواقف المشهورة ، وأنابَهُ عنه في إقامة الحج مثلما قدَّمه في الصلاة ، توطئةً لإمامة المسلمين وقيادتهم من بعده.

حتىٰ إذا جاء أجلُ رسول الله ﷺ ولَحِقَ بربِّه ، طاشت عقول الصحابة ، حتىٰ القوي الجَلْد عمر نادىٰ في الناس: إن رسول الله ﷺ لم يمت! فجاء الصدِّيق وجاء معه اليقين ، فاعتلىٰ صدر الأحداث فاشرأبَّتْ إليه الأعناق وأُلقيت إليه الأسماع ، فأيقظهم أجمعين وأعلن بأن محمداً ﷺ قد مات؛ فاستنقذ المسلمين من محنة خطيرة ، وثَبَّت الله المؤمنين براسخ إيمان الصدِّيق.

انتقل بعدها إلىٰ موقف لا يقل عنه جلالة وخطورة ، حيث اجتمع الأنصار في السقيفة فأُلقيت الخطب الحامية ، وقيلت الكلمات الحادّة ، فتكلم الصديق الذي نزلت عليه السكينة يوم الغار ، فتنزلت عليه الآن وعمَّت الجميع ، وما استطاع الخلافُ أن يتجاوز باب السقيفة ، وما خرجوا منها إلا وقد بايعوا البيعة الخاصة ، ليبايعوا من الغد في المسجد النبوي البيعة العامة.

وابتدأ المرحلةَ الثانية من حياة الرسالة لتواجهه المِحن الكبار ، فيتجلّد لها ويتلقاها بإيمان الصديقين وقلب الراسخين وعقل أفذاذ الرجال؛ حيث اضطرب الناس في بعث أسامة وإمارته ، فبرز الصدِّيق لسابقِ عهده وقال: والله لا أَحلُّ لواءً عقده رسول الله ﷺ بيده ، ولو أن الطير تخطَفنا ، والسباع حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرَّت بأرجل

أمهات المؤمنين؛ لأجهزنَّ جيش أسامة! فأنفذ الجيش لمهمته فكان في ذلك كل الخير والبركة.

وواجهتْه مسألةُ ميراث النبي ﷺ فثبت لها كذلك، وأبىٰ إلا أن يتولىٰ ما كان رسول الله ﷺ يتولاه، ويعمل به مثل عمله فيه، وأرضىٰ فاطمة وعليّاً بلينٍ من القول والمال الجزيل الذي أَذِنَ به كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، واجتاز تلك المحنة القاسية.

وفي ذات الوقت انقلبت الجزيرة العربية ناراً واشتعلت بأدعياء النبوة، وارتدت معظم القبائل العربية؛ فلم يبقَ علىٰ الإسلام سوىٰ المدينة ومكة والطائف، وحاول الصحابة أن يُثْنوا أبا بكر عن عزمه في حربهم، وأن يقبل منهم الصلاة دون الزكاة! فقال قولته المدوية السائرة: أَيُنقص الدين وأنا حيّ؟! والله لَو منعوني عِقالاً كانوا يؤدّونه إلىٰ رسول الله ﷺ لقاتلتُهم علىٰ مَنْعه! وقاد أوائل الزحوف بنفسه، ثم جيَّش لهم أحد عشر جيشاً، فثبَّت الله بهم الدين في كل الجزيرة.

ثم نظر إلىٰ دولتي الفرس والروم فرمىٰ إليهما بذراعيه القويتين، وبعث جيوش الفتح والهداية فقاتلوا علىٰ جبهتين أعظمَ دولتين، فكتب بذلك السطور الأولىٰ من نعيهما، وكان أولَ من فتح أبواب العراق وبلاد الشام لتحريرها من الطاغوت ودخول أهلها في دين الله.

وجمع القرآن الكريم في مصحف واحد، فأكرم الله الأمة بحفظ كتابها في الصدور وفي السطور، مثلما أكرمها بتثبيت دينها ونشر رسالتها، حتىٰ استلم عمر الراية من بعده فتابع المسيرة.

هذا الرجل يعمل كل هذه الأعمال في (٢٧) شهراً، وتراه مع هذا كله

يصعد المنبر ليلقي أول خطبة له ، فيقول: (لقد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم ، إنْ أحسنتُ فأَعينوني ، وإنْ أسأتُ فقوِّموني)!.

ويتولىٰ الخلافة ويترك تجارته ليتفرغ لشؤون الحكم ـ وكان من كبار التجار ـ فيفرض له (مجلس الشورىٰ) راتباً مقداره (ثلاثة آلاف درهم في السنة) مع دابة يركبها ، وبعير يسقي عليه بستانه ، وعبد يخدمه ، وعباءتين يلبسهما ، وشاة يأكلها هو وأهله وأضيافه!.

وعندما ودَّع الخلافة ووَدَّع الدنيا أوصىٰ بأن يُباع بستانه ويُردّ ثَمنُه إلىٰ بيت مال المسلمين عوضاً عن نحو (٨ آلاف درهم) تقاضاها رواتب إبان حكمه ، وعندما دخلوا بيت المال بعد وفاته وجدوا خيشة فنفضوها فوجدوا فيها درهماً واحداً!.

هذا الخليفة تراه في أيام خلافته يبادر عمرَ بنَ الخطاب قبل الفجر إلىٰ عجوز عمياء في أطراف المدينة فيخدمها ويصلح شأنها ويقدم لها ما تحتاجه.

وتأتيه جواري الحي فيحلُب لهن أغنامهن ، ويلاطفهن فيقول: (أُرْغِي أم أُصَرِّح؟) أي: تُرِدْن أن أحلُب برغوة أم بدون رغوة؟!.

فارتفع الصديق بتلك الأعمال والمزايا إلىٰ سماء العظمة الإسلامية ، فكان وزير أعظم المرسلين ، وأول الخلفاء الراشدين ، يتحدث فيصغي إليه الزمان بسمعه ، وينادي فتلبي الدنيا طيعة.

هذه قبسات من أنوار سيرة أبي بكر أترك القارئ يتلو صحائفها ليرىٰ مبادئ الإسلام حية تتحرك في الزمان والمكان والعالمين ، ويشهد صنعةَ

رسول الله ﷺ وأعمال الجيل الذي رباه ، ويسعد مع البشرية عندما تولىٰ أمرها هذا القوي الأمين.

بيد أن ما نكتبه عن سير رجالات الإسلام ، وبخاصة الخلفاء الراشدين وعهودهم ، لا نؤرِّخ فيه لسيرة رجل وأعماله بمفرده ، بل نؤرِّخ لتاريخ جيل وعهد أمة ، ونستعرض مقومات عصر وأسس دولة وركائز حضارة ، مثّلَتْ أحفلَ حِقب تاريخنا بأجلِّ الأعمال ، وأفضلِ تطبيق ، وأحسنِ أداء في ترجمة مبادئ الإسلام وأهدافه وغاياته.

إننا نؤكد أن هذه الصفحات هي: (**تاريخ الأمة لا تاريخ حكامها فحسب**)[1].

وهذه الأمجاد هي أمجادٌ تُحسب للحاكم وللأمة معاً ، والدور التطوعي للأمة فيه يحتاج إلىٰ إبراز وتسجيل ، فإنه لولا هذه الرغبة الذاتية المنبعثة من الإيمان ما كان يستطيع حاكم أن يقوم بنشر الدعوة ، ولا الجهاد لإعلاء كلمة الله[2].

هذا ما أؤكد عليه في هذه التقدمة ، وبسطت القول فيه في هذا الكتاب وغيره.

والذي نلحُّ عليه دوماً أن الرجل الفذ ـ أبا بكر أو غيره ـ مهما أوتي من الإيمان واليقين والثبات والشجاعة والذكاء والسجايا والفضائل والعزمات؛ فإنه لن يستطيع أن يصنع التاريخ بنفسه! وسيدُ أولي العزم من

(١) هذه الجملة عنوان فصل في كتاب: من قضايا الفكر الإسلامي المعاصر ، لمحمد قطب ، ص٨٣.

(٢) المرجع السابق ، ص٨٨.

الرسل ﷺ قد أيده الله بنصره وبالمؤمنين الذين عزَّروه ونصروه ، فأتمَّ عليه النعمة ونصر به الدين .

وهكذا أبو بكر الصديق قد أيَّده الله تعالىٰ بجماعات من أولي الأيدي والأبصار من أكابر الصحابة والقادة الفاتحين والولاة النجباء والعلماء الحكماء ، ونصره بالمهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، فحقَّقَ الله علىٰ يديه تلك المعجزات الكبار في الزمن اليسير .

وإنما يبرز دورُه علىٰ من سواه ـ وهو بارز مميَّز بلا ريب ـ لأنه قائد الأمة وقطب الرحىٰ ومحور الأحداث ومحط الأنظار وموئل الأخبار وبؤرة تاريخ عصره .

ولا نبالغ فندَّعي شَططاً ونزعم كما زعم غيرنا : أن أبا بكر هو الميزان الذي تُمتحن عليه العقائد ، وأنه باب المهاجرين والأنصار ، وباب الكتاب والسنة ، وباب رسول الله ﷺ ومفتاح الوصول إليه ، وباب القبول بين يديه[1] ! فنُضاهي بذلك أصحابَ الأهواء ممن عَصَم الله أهلَ السنة من ضلالاتهم ! .

ونشير ثانياً إلىٰ أن هذا الكتاب ليس قصةَ رجلٍ غَبَر ، ولا روايةَ عهد مَضَىٰ ، بل هو عرض وتوثيق وتحليل لِحِقْبة هي أجلّ وأعظم وأفضل وأزهىٰ عصور تاريخ الأمة بعد عصر الرسالة ، لذا أكّدنا فيه علىٰ ترجمة مبادئ الإسلام وتعاليمه وتطبيقها في حياة الفرد والجماعة والمؤسسة والدولة والراعي والرعية ، وتناولنا بالتحليل والترتيب بنيان الدولة ومؤسساتها والسياسة الداخلية مع الرعية والخارجية مع البلاد المفتوحة

---

(١) انظر : أبو بكر الصديق ، للدكتور حامد الخليفة : ١/١٨ ، ١٨٧ ، مثلاً ! .

والدول المحيطة ونشر الرسالة وتحقيق عالمية الدعوة والدولة. مع التأكيد علىٰ الجوانب الهامة والمبادئ الرشيدة التي طبقها الصديق في حروبه وفتوحاته بما سبق به البشرية في تطبيق قوانين الحرب وحفظ الدماء والأعراض والأموال والممتلكات وحرية الدين والفكر.

وأَجَبْنا في هذا الكتاب عن كثير من الإشكالات ، وحَلَلْنا ما حدث في ذلك العهد من معضلات ، وأَزَلْنا اللُّبْس والغموض عما جرى فيه من مشكِلات مع بيان وجه الحق فيها ، بالخبر الصادق الثابت ، والحجة الواضحة والبرهان المقنع والنقد الهادف وغربلة الروايات ونفي الدخيل منها.

وألمحنا إلى جوانب الأسوة والقدوة التطبيقية والتربوية في حياة الصديق في البحث عن الحقيقة ونصرتها والتزامها ، وأدواره المتنوعة في الحياة وهو يقوم بأعمال: المؤمن الداعية ، والوزير المستشار ، والحاكم القائد ، والفاتح المجاهد ، والأب المربي المعلم ، والسياسي القانوني ، والزاهد العابد الورع التقي النقي.

ونبَّهنا بين الفينة والأخرى على أخبار واهية ، وأحاديث باطلة ، واجتراءات ومجازفات من هذا الكاتب أو ذاك ، وغايتُنا في ذلك وجه الله تعالىٰ وبيان الحق وإعطاء الصورة المثلىٰ للجيل القرآني الفريد والعهد الزاهر الذي خَلَف عهدَ النبوة بأرقىٰ وأجل وأطيب الثمرات.

وعمدتُنا في كتابنا هذا ـ وفيما كتبناه من قبل ـ كتب السنة الأصول التي لها المقام الأول ، وشروحها وفي هامتها «فتح الباري» ، ثم كتب التاريخ والتراجم المتقدمة ، ويليها كتب المتأخرين وبخاصة النقاد كابن تيمية والذهبي وابن كثير ، والعماد الثالث هو النظرة العادلة المنصفة

للصحابة الكرام وأنهم جيلُ الرسالة وحَمَلة القرآن وخلفاء النبي ﷺ على دينه والأمناء علىٰ الوحي وحملة الرسالة من بعده! فَلَهُم في قلب كل مؤمن التقديرُ والتبجيل والتنزيه عن الصغائر التي يتصارع عليها غيرهم ، وتبرئتُهم من كل ريب أو شبهة ، وإعذارُهم فيما بدر منهم وحَمْلُه على السلامة والصدق وحسن النية والقصد وإرادة وجه الله ، ونبرأ إلى الله من كل من أساء إليهم بقصد أو بدون قصد ، كما نبرأ إليه من فلتات الفكر وزلات القلم إن وقع منا ذلك.

والكتابة عن أبي بكر الصديق شرفٌ للمرء يرفع بها من نفسه عندما يؤهِّلها للحديث عن أعظم رجل من أتباع الأنبياء والمرسلين ، وهي قُربىٰ يتقرَّب بها المسلم إلى الله ويرجو منه سبحانه قبولها ، وحقٌّ واجب نؤديه إلىٰ ذلكم الرجل الذي أكرم الله به البشرية عموماً وبلاد المسلمين خصوصاً؛ حيث حمل إليهم الرسالة وفتح لهم كتابها الكريم ليدَّبَّروا آياته ويدخلوا في دين الله طائعين ، **ومتعة يعيشها القلب وتنعم بها النفس** ، ويتأنق في مغانيها الفكر ليملي علىٰ القلم كلمات الصدق والأمانة والسمو والكرامة والرحمة والحرية ليسطرها في تاريخه المعطار.

ولقد كان **أستاذي الفاضل محمد علي دولة** ـ بارك الله في عمره وولده ومكتبته دار القلم ـ يريد أن يكتب عن أئمة الإسلام الأربعة الكبار الخلفاء الراشدين الهادين المهديين، فآثَرني علىٰ نفسه بذلك، وعَهِد إليَّ وانتدبني إلىٰ القيام بهذه المهمة الجليلة الشاقة ـ فلَهُ مني وافر الشكر وعظيم الامتنان والاعتراف بالفضل لحسنِ ظنه بي وإكرامه لي بهذا العمل الباذخ! ـ وقد صادف ذلك مني رغبة ، ولاقى في نفسي عزيمة، واعتبرتُها تكرمة وشرفاً ساقه الله إليَّ ، فلبَّيت طائعاً ، ومشيت إلى هذا العمل الضخم

مستبشراً ، وخضتُ في لُججه صابراً ، وكابدتُ في البحث والدرس والتدقيق والتمحيص والنقد والتحليل محتسباً ، راجياً من الله المعونة، وآملاً منه القبول، ومتطلعاً إلىٰ أن أكون حققت المأمول.

فكان هذا الكتاب هو الحلقة الأولى في سلسلة الخلفاء الراشدين الأربعة ، والتي تنتظم في السلسلة الكبرى (أعلام المسلمين) لتتبوأ ذروة سنامها برجالها لا بما كتبته ، وتختم بهم (المئة الأولىٰ) من مسيرتها الراشدة إن شاء الله تعالى.

فاللهمَّ تقبَّلْ مني هذا العمل واجعله خالصاً لوجهك الكريم ، وتمّمْ لي بالخير ما بدأتُ به ، وانْسَأْ لي في الأَجَل لأكمل كتابة سِيَرٍ موسعةٍ للخلفاء الراشدين وعهدهم المبارك ، واغفر لي سهوات القلم وكبوات الفكر ، إنك خير مسؤول ، وأكرم مجيب ، إليك أسعى ، وإليك مآب.

عبد الستار الشيخ



الباب الأول

نبعة الصديق ونشأته وأسرته ومكونات شخصيته

- أخباره الشخصية.
- نشأته ومنزلته في قريش وعلاقته بالنبي ﷺ قبل البعثة.
- أسرته ومعاشه.
- مكونات شخصيته وخصائصه ومزاياه.

* * *



الفصل الأول

أخباره الشخصية

أولاً: اسمه ونسبه ونسبته:

عبد الله بن أبي قُحافة ـ واسمه عثمان ـ بن عامر بن عَمْرو بن كعب بن سَعْد بن تَيْم بن مرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهر ، القرشي ، التّيْمي نسبة إلى تَيْم بن مُرّة.

يلتقي هو ورسول الله ﷺ عند مرة بن كعب ، بين كل واحد منهما وبينه ستة آباء[1].

ثانياً: كنيته:

يكنى أبا بكر ، وهو مشهور بها أكثر من شهرته باسمه ، وخاطبه بها رسول الله ﷺ والصحابة حتى غلبت على اسمه.

وهي من البَكْر: الفَتِيّ من الإبل بمنزلة الغلام من الناس ، والجمع: بِكار وأَبْكُر وبُكُور.

(١) طبقات ابن سعد: ٣/١٦٩؛ تاريخ خليفة ، ص ١٠٠؛ المعرفة والتاريخ: ١/٢٣٨؛ ابن عساكر ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ ، ١٠٤؛ نسب قريش ، ص ٢٧٥؛ جمهرة أنساب العرب ، ص ١٣٦.

وقد سمّت العرب (بَكراً) ، وهو أبو قبيلة عظيمة[1] .

ثالثاً: ألقابه:

١ ـ عتيق:

لُقِّب (عَتيقاً) لِعتقه من النار كما ثبت في الحديث الصحيح ، ولعِتَاقة وجهه؛ أي: حسنه وجماله ، وطيبِ أصله ، وطهارة نسبه ، وأنه لم يكن في نسبه شيء يُعاب .

ولأنه عتيق: قديم في الخير .

وقد سمَّاه به قبل الإسلام: أبوه ، وسمَّتْه به أمه ، كما قال طلحة بن عبيد الله: (كانت أمُّه لا يعيش لها ولد ، فلما ولدَتْه استقبلتْ به البيت وقالت: اللهم ، إن هذا عَتيقك من الموت ، فهَبْه لي) .

فلما عاش أبو بكر ، وشَبَّ سُمِّي (عتيقاً) ، كأنه أُعتق من الموت[2] .

وسمَّاه به في الإسلام: النبي ﷺ ، وبشَّره بالعِتق من النار .

فتواطأت تسمياتهم جميعاً على أنه (عتيق) ، وهو ـ رضي الله عنه ـ متصف بكل معاني هذه الكلمة الجليلة .

عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: (كان اسمُ أبي بكر

---

(١) لسان العرب ، لابن منظور؛ الاشتقاق ، لابن دريد .
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٧٠؛ المعرفة والتاريخ: ١/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩؛ تاريخ الطبري: ٣/ ٤٢٥؛ صفة الصفوة: ١/ ٢٣٥؛ تهذيب الأسماء: ٢/ ١٨١؛ ابن عساكر ، ص ٩٦ ، ٩٨ ـ ١٠٤ ، ١٠٩ ـ ١١٢؛ الإصابة: ٢/ ٣٣٤ .

عبدَ الله بن عثمان ، فقال له النبي ﷺ : **«أنتَ عَتيقُ الله من النار»** فسُمِّي عَتيقاً[1] .

٢ ـ الصِّدِّيق:

وهذا اللقب الباذخ أصبح علَماً على سيدنا أبي بكر ، ولازمه أتم الملازمة فلا يُذكر اسمه إلا مقروناً بالصديق ، حلاّه به رسول الله ﷺ في مواقف عديدة ، وكان علي رضي الله عنه يحلف أن الله تعالى هو الذي سمَّى أبا بكر على لسان رسوله ﷺ صدِّيقاً ، وأجمعت الأمة على تسميته بالصديق ، وامتدحه الشعراء بذلك .

وقد استحق أبو بكر هذا اللقب الرفيع (الصِّدِّيق) لأن شعاره الدائم منذ دَلَف إلى دوحة الإسلام وآمن بنبيه ﷺ هو قوله بيقين ثابت كالجبال الرواسي : (إنْ كان قال فقد صَدَق) .

والتصديق بكل ما يقوله الرسول ﷺ ويخبر به ويفعله ويوجِّه إليه ويأمر به؛ كان دأبُ الصديق : في مسيرة الدعوة بمكة ، وعند الإسراء ، ويوم الهجرة ، وأيام محن الغزوات ، ويوم الحديبية ، وعند الوفاة النبوية ، وساعة بعث أسامة ، وأيام الردة ، وفي الفتوحات .

لقد شُيِّدت حياته ومواقفه على ذلك (التصديق) الفذ الذي لم يضارعه فيه أحد! .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٨٦٤) واللفظ له؛ وبنحوه الطبراني في الكبير (٧)؛ والبزار (٢٤٨٣)؛ وابن عساكر ، ص ٩٨ ـ ٩٩ ، وغيرهم؛ وصححه شعيب الأرنؤوط ، والألباني في الصحيح(١٥٧٤) ، وصحيح الجامع (١٤٨٢) .
وفي الباب عن عائشة عند الترمذي (٣٦٧٩)؛ والفسوي : ١/ ٢٣٩؛ والحاكم : ٢/ ٤١٥ ، ٣/ ٣٧٦ ، وهو ضعيف ، ويشهد له الحديث السابق .

عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : (لمَّا أُسري بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى ، أصبح يتحدَّث الناس بذلك ـ فارتدَّ ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه ـ وسعى رجال من المشركين بذلك إلى أبي بكر فقالوا: هل لك إلى صاحبك ، يزعمُ أنه أُسْرِي به الليلة إلى بيت المقدس! قال: أوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم! قال: لئنْ كان قال ذلك لقد صَدَق ، قالوا: أو تصدِّقُه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يُصْبح؟! قال: نعم ، إني لأصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدِّقُه بخبر السماء في غَدوة أو رَوْحة. فلذلك سُمِّي أبو بكر الصديق)[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن نبيَّ الله ﷺ صَعِد أُحُداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ، فرجَفَ بهم ، فضربه برِجْله ، وقال: «اثبتْ ، **فإنما عليك نبيٌّ وصدِّيقٌ وشهيدان**»)[2].

وعن حُكَيم بن سعد قال: سمعت علياً يقول ويحلِفُ لأنزل الله اسمَ أبي بكر من السماء: الصديق[3].

---

(١) أخرجه الحاكم: ٣/ ٦٢ ، ٧٦ ـ ٧٧؛ وابن عساكر ، ص ١٤٥ ـ ١٤٦ ، وهو عند عبد الرزاق في حديث طويل جدّاً (٩٧١٩)؛ وصححه الحاكم وأقره الذهبي؛ وجوَّد السيوطي إسناده في تاريخ الخلفاء ، ص ٢٩ ـ ٣٠. وانظر التعليق في: ص ١١٦ ، حاشية رقم (١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٥)؛ والنسائي في الكبرى (٨٠٧٩)؛ وابن حبان (٦٨٦٥)، وغيرهم.

(٣) أخرجه الطبراني؛ والحاكم: ٣/ ٦٢؛ وابن عساكر ، ص ١٦٦ ، وغيرهم ، وقال الهيثمي في (المجمع: ٩/ ٤١) والحافظ في (الفتح: ٨/ ٥٦٦ في أول مناقب أبي بكر): رجاله ثقات؛ وقال السيوطي في (تاريخ الخلفاء ، ص ٣٠): سنده جيد صحيح.

وقال أبو مِحْجن الثَّقَفي الصحابي الشاعر البطل:

وسُمِّيتَ صدِّيقاً وكلُّ مهاجرٍ سِواكَ يُسمَّى باسمِه غيرَ مُنكرِ
سبقتَ إلى الإسلام واللهُ شاهدٌ وكنتَ جليساً في العريش المشهَّرِ[1]

وأنشد راوية العرب الأصمعي:

ولكنِّي أحبُّ بكلِّ قلبي وأعلمُ أن ذاكَ من الصوابِ
رسولَ الله والصِّدِّيقَ حبّاً به أرجو غداً حُسْنَ الثوابِ[2]

٣ ـ الأواه:

قال إبراهيم النَّخَعي: (كان أبو بكر يُسمَّى الأَوّاه لرأفتِه ورحمته)[3].

وهو لقب يدل على الخشية والرقة والإخبات والتضرع والإنابة وكثرة البكاء والتسبيح والدعاء.

رابعاً: صفاته الخِلْقية وحِلْيته:

كان الصديق رجلاً نحيفاً، أبيضَ البشرة، قليلَ لحم الوجه، ناحلَ الخصر، بهيَّ الطلعة، حسنَ الثغر، وقد شاب في الإسلام، وكان يصبغ ويغيِّر شيبه.

●● عن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أم المؤمنين عائشة: (أنها نظرتْ إلى رجلٍ من العرب مارٍّ وهي في هَوْدَجها، فقالت: ما رأيتُ رجلاً أشبَه بأبي بكر من هذا، فقلنا: صفي

---

(١) الاستيعاب: ٢/ ٢٣٧؛ أسد الغابة: ٣/ ٢٠٦.
(٢) أبو بكر الصديق، للطنطاوي، ص ٤٩.
(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٧١.

لنا أبا بكر ، فقالت: رجل أبيض ، نحيف ، خفيف العارِضَيْن ، أجْنَأ لا يَستمسك إزاره يسترخي عن حَقْوَيْه ، معروقُ الوجه ، غائرُ العينين ، ناتئ الجبهة ، عاري الأشاجِع).

وفي رواية عنها: أنه (كان مقرون الحاجب).

وقال قيس بن أبي حازم: (دخلتُ مع أَبي على أبي بكر ، وكان رجلاً نحيفاً خفيفَ اللحم أبيضَ).

وذكر الزهري في صفته أنه: (كان أبيضَ يُخالِط بياضَه الصفرةُ ، جعداً ، حسنَ القامة ، حَمْشَ الساقين ، قليل اللحم ، حسنَ الثغر)[1].

●● عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما: (أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ جرَّ ثوبه من الخُيلاء ، لم يَنظر الله إليه يوم القيامة» ، قال أبو بكر: يا رسول الله ، إن أحدَ شِقَّيْ إزاري يسترخي إلا أن أتعاهدَ ذلك منه ، قال النبي ﷺ: «**إنك لستَ ممَّن يصنَعُ ذلك خُيلاءَ**»)[2].

وفي حديث الهجرة عن أنس رضي الله عنه: (وأبو بكر شيخٌ يُعرَفُ ، ونبيُّ الله ﷺ شابٌّ لا يُعْرَف)[3].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/١٨٨؛ ابن عساكر ، ص ١١٦ ـ ١١٧. **العارض**: صفحة الخد. **أجنأ**: أي في ظهره انحناء يسير. **الحقو**: الخصر. **معروق الوجه**: لحم وجهه قليل. **الأشاجع**: هي مفاصل الأصابع ، أي: كان اللحم عليها قليلاً. **حمش الساقين**: دقيق الساقين.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٥) وأطرافه؛ وأبو داود (٤٠٨٥)؛ والنسائي في الكبرى (٩٦٣٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٩١١) ، وغيره ، وسيأتي مطولاً في فصل هجرة أبي بكر.

وقوله: (**أبو بكر شيخ**): يريد أنه قد شاب، وقوله: (**يُعرف**): أي لأنه كان يمرُّ على أهل المدينة في سفر التجارة، بخلاف النبي ﷺ في الأمرين فإنه كان بعيدَ العهد بالسفر من مكة، ولم يَشب، وإلا ففي نفس الأمر كان هو عليه الصلاة والسلام أسنَّ من أبي بكر[1].

وهذا يعني أن أبا بكر قد شاب وعمره نحو خمسين سنة.

وعن أنس رضي الله عنه قال: (قدِمَ النبي ﷺ وليس في أصحابه أَشْمَطُ غيرَ أبي بكر، فغَلَفها بالحِنَّاء والكَتَم).

وقال أنس أيضاً: (قَدِمَ النبي ﷺ المدينةَ، فكان أسنَّ أصحابه أبو بكر، فغَلَفها بالحِنَّاء والكَتَم حتى قَنَأَ لونُها)[2].

فغَلَفها: المراد اللحية. **وقنأ لونها**: أي اشتدت حمرتُها. **والحِناء**: نبت معروف يصبغ الشعر أحمر. **والكَتَم**: نبات يُصبغ به الشعر ليكسر بياضَه أو حُمرته إلى الدُّهْمة، ولا يُصبغ به الشعر أسودَ، بل يجعله مائلاً إلى السواد[3].

●● قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (ثلاثة من قريش أصبَحُ الناس وجوهاً، وأحسنُها أخلاقاً، وأثبتُها حياءً، إنْ حدَّثوك لم يَكذبوك، وإنْ حدّثتَهم لم يُكذِّبوك: أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح)[4].

---

(١) الفتح: ٩/ ١٤٣ شرح الحديث (٣٩١١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩١٩، ٣٩٢٠).

(٣) الفتح: ٩/ ١٥٠؛ تكملة فتح الملهم: ٤/ ٣٢٧.

(٤) الحلية: ١/ ٥٦، الطبراني في الكبير: ١/ ٥٧. **أصبح**: من الصباحة وهي الجمال.

وعن جعفر بن محمد الصادق ، عن أبيه محمد الباقر : (أن أبا بكر الصديق تختَّم في اليسار).

وكان نقش خاتم أبي بكر : (نِعم القادرُ اللهُ)[1] .

خامساً: صفاته الخُلقية وسجاياه ومؤهِّلاته:

اتفقت أقوال واصفي أبي بكر وعارفيه ودلائل أعماله في الجاهلية والإسلام على أنه يتمتع بأرفع الخصال وأجمل الأفعال وأجلّ الأعمال.

كان رضي الله عنه أليفاً ودوداً ، حسنَ المعاشرة ، حييّاً رقيقاً ، مشهوراً بالصدق ، عالماً بأنساب قومه ، وكان مطبوعاً على أفضل الشمائل التي تتألف الناسَ فيألفونه وتميل إليه قلوبهم. كما نأى بعقله ونفسه عما يشين سيرته من الانحطاط بالانحناء للأصنام ، أو يخدش مروءته بمعاقرة الخمر وأرجاس الجاهلية.

لقد طُبع الصديق على التواضع ولِينِ الجانب مع العزة والأَنَفة إذا ما ديس عرينُه ، فلم يتعالَ على أحد قط في جاهلية ولا في إسلام ، بل زاده إسلامه تواضعاً ورفعة ، ثم كان في خلافته أظهرَ منه تواضعاً قبل توليه الخلافة.

ولم يكن تألّفُه الناسَ محضَ مجاملة باللسان مما يستسهله معظم

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٢١١؛ ابن عساكر ، ص ٤١٤ .

المشهورين بالتودد والمجاملة ، ولكنها كانت ألفة النجدة والكرم والسخاء[1].

وصفه ابن الدَّغِنَة بما عَلِمَه منه قبل الإسلام ، عندما أراد الصديق أن يخرج من مكة ويسيح في الأرض ، فقال: (إنَّ مِثلَكَ يا أبا بكر لا يَخرجُ ولا يُخْرَجُ؛ إنك تُكْسِبُ المعدومَ ، وتَصِلُ الرَّحِمَ ، وتحملُ الكَلَّ ، وتَقْرِي الضَّيف ، وتُعين على نوائب الحقّ!)[2].

وعلَّق الحافظ ابن حجر على هذا فقال: (وَصَفَه ابن الدَّغِنَة بنظير ما وصفَتْ به خديجةُ النبيَّ ﷺ لما بُعث ، فتواردا فيهما على نعت واحد من غير أن يتواطأا على ذلك ، وهذا غاية في مدحه؛ لأن صفات النبي ﷺ منذ نشأ كانت أكمل الصفات)[3].

وكانت فيه حِدَّة يُغالبها ولا يستعصي عليه أن يَكبح جماحها ، ووَصَف بها نفسه فقال في خطبة من أوائل خُطَبه بعد مبايعته بالخلافة: (واعلموا أن لي شيطاناً يعتريني ، فإذا رأيتُموني غضبتُ فاجتنبوني لا أؤثِّر في أشعاركم وأبْشاركم)[4].

إلا أنها كانت حِدَّة تنمُّ على سرعة التأثر فيه ، فإذا لم تكن غضباً يغالبه ويكبحه فهو سريع التأثر إلى الرحمة والرفق في جملة أحواله ، يميل إلى

---

(١) عبقرية الصديق ، ص ٣٣.
(٢) أخرجه البخاري (٣٩٠٥)؛ وابن حبان (٦٨٦٨) ، في حديث الهجرة الطويل ، وسيأتي: ص ١٣٥ وما بعدها.
(٣) الإصابة: ٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦.
(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ ٢١٢.

الحزن والأسى ، ويعطف على الحزين والأسوان ، أو كان كما وصفته ابنته الصديقة عائشة رضي الله عنها : (كان غزيرَ الدمعة ، وَقيذَ الجوانحِ ، شَجِيَّ النَّشيج)[1].

ولما قال النبي ﷺ في مرضه : «**مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس**» ، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : (إن أبا بكر رجلٌ أَسِيفٌ ، إذا قام في مقامِك لم يَستطعْ أن يصلِّي بالناس)[2].

●● ذكر ابن إسحاق وغيره : (أن أبا بكر كان رجلاً مَأْلَفاً لقومه ، محبَّباً سهلاً ، وكان أنسبَ قريش لقريشٍ ، وأعلمَ قريش بما كان فيها من خيرٍ أو شرٍّ ، وكان رجلاً تاجراً ، ذا خُلُق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحدٍ من الأمر ؛ لعلمِه وتجارته وحسن مجالسته)[3].

واشتهر بالصدق في الجاهلية والإسلام ، فكان (ضامنَ) قريش المقبول الضمان ، لا يَعِد أحداً إلا وفى وصدق الدائنَ والمدينَ . ووُكلت إليه الديات والمغارم ، فلم يكن يحمل شيئاً منها إلا اطمأن إليه الناس ، فإن احتملها أحد غيره خذلوه ولم يصدِّقوه[4].

وما امتُحِن صدقُه في شيء إلا كان صدقُه أثبتَ وأقوى ، فعندما خَطَب النبي ﷺ ابنته عائشة ، حين ذكرتْها له خَوْلة بنت حَكيم ، وكان

---

(١) ابن عساكر ، ص ٥٠٦ ؛ عبقرية الصديق ، ص ٣٣ . **وقيذ الجوانح** : محزون القلب . **شجي** : حزين . **النشيج** : الصوت معه توجع وبكاء .

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٤) ، وسيأتي مطولاً .

(٣) سيرة ابن هشام : ١/ ٢٥٠ ؛ ابن عساكر ، ص ١٢٤ .

(٤) ابن عساكر ، ص ٤٤٨ ؛ عبقرية الصديق ، ص ٣٤ .

المُطْعم بن عديّ قد خطبها قبل ذلك لابنه ، ف أتت خولة أبا بكر فذكرتْ له رغبة النبي ﷺ ، فقال لها : (انتظري ، وخرج . قالت أم رُومان : إنَّ مُطعم بن عدي قد كان ذكرها على ابنه ، فو الله ما وَعَد وعداً قط فأخلَفَه لأبي بكر . فدخل أبو بكر على مطعم بن عدي وعنده امرأته أم الفتى ، فقالت : يا ابنَ أبي قحافة ، لعلك مُصْبٍ صاحبَنَا مُدْخِلَه في دينك الذي أنت عليه إن تزوَّج إليك؟! قال أبو بكر للمطعم بن عدي : أَقَوْلَ هذه تقول؟ قال : إنها تقول ذلك . فخرج من عنده وقد أذهبَ اللهُ عز وجل ما كان في نفسه من عِدَتِه التي وَعَده)[1] .

هكذا التزم الصديق بوعده ، وصَدَق في معاملته ، ولم يخدِش أخلاقه الرفيعة ، بل تحلَّل من موعدته على الطريقة اللائقة بأفذاذ الرجال ، على ما في نسب الرسول ﷺ الباذخ من شرف ، وما في قلب أبي بكر من إعزاز له يفوق كل إعزاز .

وروى ابن عساكر عن مالك بن أنس رضي الله عنه : (أن رجلاً دعا أبا بكر الصديق في الجاهلية إلى حاجة له استصحبه إليها ، فمرَّ به في طريق غير التي يمرّ فيها ، فقال له أبو بكر : أين تذهب؟ هذه الطريق! فقال : إن فيها ناساً نستحيي منهم أن نمرَّ عليهم ، فقال أبو بكر : أتدعوني إلى طريق يُستحيا منها؟! ما أنا بالذي أصاحبك . فأبى أن يتبعه)[2] .

●● ورحمته ورقته وحياؤه من ثوابت أخلاقه الأصيلة وشمائله الحميدة ، وقد جاءت ببيانها النصوص الثابتة ، وصدقتها الأيام والأعمال .

---

(١) أخرجه أحمد : ٦/ ٢١٠ ـ ٢١١ . مُصْبٍ صاحبَنَا : أي تردّه عن دِينه .
(٢) ابن عساكر ، ص ٤٤٧ .

ثبت عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر**» ، ووصفته ابنته عائشة بأنه: (رجل أسيف) ، وذكره عبد الله بن عمر بأنه أحد ثلاثة رجال هم أحسن قريش أخلاقاً وأثبتها حياء.

ورحمتُه هي رحمة الرجال الكبار المقتدرين لا الضعفاء المخذولين.

ورقَّتُه رقة المُخبتين في محاريب العبادة والإحسان ، فإذا كانت المواقف الصعبة كانوا هم الرجال.

وحياؤه حياء الأبطال الذين ينهضون بالأعمال الجليلة ويغضُّون الطَّرْف عن الهَنَات ، وليس الانطواء والاضطراب والانكسار.

●● وكان في جاهليته وإسلامه وقوراً جميلَ الهدي حسنَ السَّمْت ، يغار على مروءته ويتجنب ما يريب.

عن عائشة رضي الله عنها: (أن أبا بكر لم يقل شعراً في الإسلام قط حتى مات ، وأنه قد كان حرَّم الخمر هو وعثمان في الجاهلية)[1].

وقالت أيضاً: (والله لقد ترك أبو بكر شُربَ الخمر في الجاهلية ، وما ارتاب أبو بكر في الله منذ أسلم)[2].

وعن أبي العالية الرِّياحي قال: (قيل لأبي بكر الصديق في مَجْمع من أصحاب رسول الله ﷺ: هل شربتَ الخمر في الجاهلية؟ فقال: أعوذ بالله! فقيل: ولِمَ؟ قال: كنتُ أصونُ عِرْضي وأحفظ مروءتي؛ فإنَّ من شرب الخمر كان مضيّعاً في عِرْضه ومروءته. قال: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ،

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٢٣٩) ، وصححه الألباني؛ وذكره الحافظ في الفتح: ٩/ ١٥١ (٣٩٢١) وعزاه للفاكهي.

(٢) ابن عساكر ، ص ٤٤٦.

فقال: «صدق أبو بكر، صدق أبو بكر»، مرتين)[1].

●● وحيث تاهت العقول في زحمة الخرافة، وسعى الناس لعبادة الأصنام المنحوتة بأيديهم، فإن أبا بكر قد حَبَاه الله فطرة سليمة وقلباً يقظاً وعقلاً قارحاً، وحَمَاه من الوقوع في حمآت الجاهلية وآلهتها المزعومة، فلم يسجد لصنم قط.

قال أبو بكر رضي الله عنه في مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ: (ما سجدتُ لصنم قطّ، وذلك أنّي لما ناهزتُ الحُلم أخذني أبو قحافة بيدي فانطلق بي إلى مخْدَعٍ فيه الأصنام، فقال لي: هذه آلهتُك الشمُّ العوالي، وخلاَّني وذهبَ، فدنوتُ من الصنم وقلت: إني جائع فأطعمني! فلم يجبني، فقلت: إني عارٍ فاكسني! فلم يجبني، فألقيت عليه صخرة، فخرَّ لوجهه)[2].

فكان أبو بكر واحداً من ذلك الرعيل الفذّ الذي عَنَاه النبي ﷺ في قوله: **«الناس معادنُ كمعادنِ الفضّة والذهب، خِيارُهم في الجاهلية خِيارهم في الإسلام إذا فَقُهُوا»**[3].

* * *

---

(١) ابن عساكر، ص ٤٤٦، وأبو نعيم في معرفة الصحابة: حديث (١٠٣)، وهو مرسل.

(٢) أبو بكر الصديق، للطنطاوي، ص ٦٧.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٨٣)؛ ومسلم (٢٦٣٨).

الفصل الثاني

نشأته ومنزلته في قريش
وعلاقته بالنبي ﷺ قبل البعثة

●● ولد أبو بكر رضي الله عنه في بيت أبيه أبي قحافة ، ونشأ في حَجْر أبوين لهما في قومهما العز والكرامة ، مما جعله يترعرع كريمَ النفس رفيع المكانة في قومه بني تَيْم .

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت : (تذاكر رسول الله ﷺ وأبو بكر ميلادهما عندي ، فكان رسول الله ﷺ أكبرَ من أبي بكر) .

وقالت رضي الله عنها : (كان رسول الله ﷺ أكبرَ من أبي بسنتين وشيء)[(١)] .

وعن المُطَّلب بن عبد الله بن حَنْطَب قال : (ولد أبو بكر بمكة بعد الفيل بسنتين وأربعة أشهر إلا أياماً)[(٢)] .

والنسابة على شبهِ اتفاق أن سيدنا رسول الله ﷺ ولد عام الفيل ، فالفرق بين سنَّيْهما عامان وأشهر يَفْرَع بهما النبيُّ ﷺ أبا بكر .

وهذا الفرق في المعاصرة لا يمثِّل شيئاً ، فأبو بكر تنسَّم نسيم الحياة

---

(١) ابن عساكر ، ص ١١٣ ، ١١٥ .

(٢) ابن عساكر ، ص ٥٧٦ .

في الزمن الذي تشرفت فيه الدنيا بوجود المصطفى ﷺ ، وعاش في البلد الذي عاش فيه ، والبيئة التي نشأ فيها ، فنَهدَ وشبَّ في مكة حول البيت الحرام ، في بيت قرشي ، في بيئة عامة على أفسد ما تكون ، وأحط ما عرف الناس من نظام اجتماعي وكيان خلقي ، هي الجزيرة العربية وما تعجُّ به من قبائل متنافرة متناحرة ، عاشت على سفك الدماء ، ونهب الأموال ، يعبدون الأوثان ، ويعتقدون الخرافات ، ويطوفون بالبيت عرايا ، ويدمنون الخمر ، ويئدون البنات خوف العار ، ويقتلون الأبناء خشية الإملاق ، ويستقسمون بالأزلام ، ويذبحون للأصنام ، ويلعبون الميسر ، ويتطيرون ويتشاءمون ، يستوي في ذلك منهم السيد والمسود ، انغمسوا في حمأتها ، واتخذوها شعارهم ، فتأصَّلَتْ في نفوسهم ، فدافعوا عنها دفاعهم عن حياتهم.

نشأ أبو بكر رضي الله عنه في مكة أم القرى ، والعرب على ما هم عليه ، فلم يكن أبو بكر كأحدهم يشهد مجالسهم ، ويقترف آثامهم ، ويأتي منكراتهم ، ويَدِين بأباطيلهم ، ويعتقد خرافاتهم ، ويأبه لتُرَّهاتهم... كلا ، ولكنه كان خَلْقاً وحده وأمةً في نفسه: رأى أن الخمر تنقص العقل فحرَّمها على نفسه ، وامتنع عن شربها تعزُّزاً وتكرماً. ورأى أن السجود لهذه الأصنام بلادة في الفطرة فترفَّع عنها. ورأى أن وأْدَ البنات سَوْءة في المروءة وَوَهْنٌ في العِرض فلم يأته مطلقاً. ورأى أن قتل الأولاد خشية الإملاق عجز عن الكسب من أشرف طرائقه فأبى أن يفعله. ورأى في جميع ما عليه قومه من سيِّئ الخِصال ومنكَر الخِلال مَطْعناً في رجولته ومغمزاً لإنسانيته ، فاعتزلهم إلا في المحامد والمكارم[1].

(١) حياة رجالات الإسلام ، ص ١٧ ـ ١٩ ، باختصار.

وكان رجلاً مَألَفاً لقومه ، محبَّباً سهلاً ، ذا خُلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ؛ لعلمه وتجارته وحسنِ مجالسته[1] ، وأضحى أنفَ قومه ومن وجهاء قريش ، يُلقون إليه السمع ويُمضون له الأمر.

ذكر ابن عبد البر وابن عساكر وغيرهما : أن أبا بكر رضي الله عنه كان في الجاهلية وجيهاً رئيساً من رؤساء قريش وأهل مشاورتهم ، وكان أحدَ عشرةٍ من قريش اتصل لهم شرفُ الجاهلية بشرف الإسلام. ومن شرفه في الجاهلية أنه كانت إليه الأَشْناق - **والأشناق**: الدِّيَات والمَغرم - فكان إذا احتمل شيئاً ، فسأل فيه قريشاً صدَّقوه وأمضَوا حَمَالته وحَمَالةَ مَن نهض معه وأعانه ، وإن احتملها غيره خذلوه ولم يصدِّقوه[2]!.

●● وأنصت أبو بكر رضي الله عنه إلى دعوة الحنفاء الذين نأوا عن عبادة الأصنام ، وبشَّروا بمجيء (نبي هذه الأمة) وألقى سمعه إلى الكلمات الرطبة المؤمنة التي كان يردِّدها ورقةُ بن نوفل وقَسّ بن ساعدة وزيد بن عَمْرو بن نُفيل ، وتأثر بها كثيراً ، وزاده استمساكاً بموقفه في هجران وثنية قومه وأخلاقهم الرديئة.

وصحب (محمدَ بن عبد الله) ﷺ قبل البعثة ، وعلِمَ صدقه وأمانته وحسن سجاياه وكرم أخلاقه وبُغْضَه للأصنام وترفعه عن أخلاق

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام : ١/ ٢٥٠.
(٢) الاستيعاب : ٢/ ٢٣٧ ؛ ابن عساكر ، ص ٤٤٨ ؛ تهذيب الأسماء : ٢/ ١٨٣ ؛ الإصابة : ٢/ ٣٣٥.

الجاهلية. ولازمه وأصبح خِدْناً له، وكان معه حين ذهب مع عمه إلى الشام واجتمع بالراهب بَحيرا[1].

وعُرِف أبو بكر رضي الله عنه في قريش كلها بصحبته للنبي ﷺ قبل البعثة، فكانت تقول له: اسمع ما يقول صاحبك. ومن أمثلة ذلك ما وقع عند حادثة الإسراء.

ورأى أبو بكر رضي الله عنه محمد بن عبد الله ﷺ من بين لِدَاته[2] وأقرانه من شباب قريش أكملَهم وأزكاهم، فصادقه ولازمه وجعله قدوته، ومحمد ﷺ أكمل الخليقة نفساً، وأعظمهم خُلُقاً، وأكبرهم قلباً، وأطهرهم روحاً، وأجلُّهم أدباً، وأصدقُهم حديثاً، فطرة الله التي فطره عليها؛ فتآلفا وتحابا، وأخذ أبو بكر من أخلاق محمد ﷺ ما اتسعت له فطرته، وتهيأ له استعداده، وهذا هو سر ما اشتهر عن أبي بكر من مشابهته لبعض أخلاق النبي ﷺ قبل النبوة، والتي وصفه بها ابن الدَّغِنَة بقوله: (إنك تُكْسِب المعدومَ، وتصِلُ الرحم، وتحمِل الكَلَّ، وتَقْري الضيف، وتُعين على نوائب الحق).

وسيد القارَة ابن الدَّغِنَة نوَّه بِذكر بعض مناقب أبي بكر، وهي صفات من أفخر مفاخر العرب، وأفضل فضائل الإنسانية، وهذه الأوصاف النبيلة هي نفسها التي وصفت بها أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها النبي ﷺ في مبدأ الدعوة.

---

(١) ابن عساكر، ص ٩٥؛ البداية والنهاية: ٣/ ٢٧.

(٢) لِدَاتِه: جمع، مفرده: لِدَةٌ، وهو من كان في مثل سنِّه وعمره، تقول: أنا وفلان لِدتان، يعني في سِنٍّ واحدة، وعمر واحد.

ذاكم أبو بكر الصديق رضي الله عنه نسيجُ وَحْدهِ في طيب أرومته ، وطهارة نشأته ، وألمعية فكره ، وجلالة صحابته ، ورفعة قدوته وأسوته . . . نشأ أكرم ما ينشأ الرجال ، صنعه الله على عينه ، فانفلت من أغلال بيئته ، وتسامى عن عادات قومه ، فنشأ فيهم أريباً ، نبيلاً ، حكيماً ، عاقلاً ، كريماً ، عطوفاً[1] .

أكرمه الله تعالى بصحبة أصفى الخلق ﷺ سريرة ، وأطهرهم نفساً ، فكانت تلك الصداقة صَيْقَلَ نفسه ، ومغنَى أُنسه ، وأعظم الدوافع إلى الإسراع بتصديقه عندما أعلن في الناس أنه نبي هذه الأمة .



(١) حياة رجالات الإسلام ، ص ٢١ ، ٢٤ .

الفصل الثالث

أسرته ومعاشه

أولاً: والده:

أبو قحافة عثمان بن عامر بن عَمرو بن كعب بن سَعْد بن تَيْم بن مرة بن كعب بن لؤي ، القرشي التَّيْمي.

أسلم عام الفتح ، وكان قد كُفَّ بصره.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: (لمَّا وقف رسول الله ﷺ بذي طُوى ، قال أبو قحافة لابنةٍ من أصغر ولده: أي بُنَيَّةُ ، اظهري بي على أبي قُبَيْس ، قالت: وقد كُفَّ بصرُه ، قالت: فأشرفتُ به عليه ، فقال: أي بُنَيَّة ، ماذا ترين؟ قالت: أرى سواداً مجتمعاً ، قال: تلك الخيل ، قالت: وأرى رجلاً يسعى بين يدي ذلك مُقبلاً ومدبراً ، قال: أي بنية ذلك الوازع ، يعني الذي يأمر الخيل ويتقدَّم إليها ، ثم قالت: قد والله انتشر السَّوَاد ، قالت: فقال: قد والله إذن دُفِعَتِ الخيلُ ، فأسرعي بي إلى بيتي ، فانحطَّتْ به ، وتَلَقَّاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته. قالت: وفي عنق الجارية طَوْقٌ من وَرِقٍ ، فتلقَّاها رجل فيقتطعه من عنقها. قالت: فلما دخل رسول الله ﷺ مكة ودخل المسجد ، أتى أبو بكر بأبيه يقودُه ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «**هَلاَّ تركتَ الشيخَ في بيته حتى أكونَ**

أنا آتيهِ فيه؟» قال أبو بكر: يا رسول الله ، هو أحقُّ أن يمشيَ إليك من أن تمشيَ إليه أنت. قالت: فأجلَسَه بين يديه ، ثم مَسَح صدره ، ثم قال له: **«أسْلِمْ»** ، فأَسْلَمَ. قالت: فدخل به أبو بكر وكأن رأسَه ثَغَامةٌ ، فقال رسول الله ﷺ: **«غَيِّروا هذا من شعره»**[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (جاء أبو بكر بأبي قُحَافةَ إلى رسول الله ﷺ يومَ فتح مكة ، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: **«لو أقررتَ الشيخ في بيته لأتيناه»** ، تكرمةً لأبي بكر ، قال: فأسلمَ ورأسُه ولحيتُه كالثَّغامة بيضاء ، فقال رسول الله ﷺ: **«غَيِّروهما ، وجَنِّبوه السَّوَادَ»**)[2].

وفي هذا الموقف أدب نبوي رفيع وتوجيه كريم إلى احترام الكبير وتوقيره ، كما أن فيه وفاءً وتكرمةً لصاحبه الجليل أبي بكر بمزيد التبجيل لأبيه رضي الله عنه ، وفيه كذلك رغبته ﷺ بالدعوة إلى الله ودخول الناس في الإسلام ، وبرّ الابن بأبيه متمثلاً في حرص الصديق على هداية أبي قحافة واستنقاذه من الكفر.

---

(١) أخرجه ابن إسحاق: ٢/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦ ، واللفظ له؛ وأحمد: ٦/ ٣٤٩؛ وابن سعد: ٥/ ٤٥١؛ وصححه ابن حبان (٧٢٠٨)؛ والحاكم: ٣/ ٤٦ ، وذكر الحافظ في الإصابة: ٢/ ٤٥٣ طرفاً من رواية ابن إسحاق ، وصححها. **ذو طوى**: واد من أودية مكة ، وهو اليوم في وسط عمرانها ومن أحيائه العتيبية. **أبو قبيس**: هو الجبل المشرف على الكعبة من مطلع الشمس ، وهو اليوم مكسو بالبنيان. **الثغامة**: نبت أبيض الثمر والزهر يُشَبَّه بياض الشيب به.

(٢) أخرجه أحمد: ٣/ ١٦٠؛ وأبو يعلى (٢٨٣١)؛ وصححه ابن حبان (٥٤٧٢)؛ والحاكم: ٣/ ٢٤٤ ، ووافقه الذهبي؛ وبأخصر منه عن جابر عند مسلم (٢١٠٢).

توفي أبو بكر في حياة أبيه ، فورثه أبوه وردَّ نصيبه على ولد أبي بكر ، ثم توفي أبو قحافة بعده بستة أشهر بمكة سنة (١٤هـ) ، وعمره (٩٧) سنة.

ثانياً: والدته:

أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تَيْم بن مرة ، القرشية التَّيْمية.

أسلمت قديماً ، ورسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم[١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (أسلمتْ أم أبي بكر ، وأم عثمان ، وأم طلحة ، وأم الزبير ، وأم عبد الرحمن بن عوف ، وأم عمار بن ياسر)[٢].

وفي قصة إلحاح أبي بكر رضي الله عنه على النبي ﷺ أن يَظهروا بإسلامهم في مكة ، فناله أذى شديد من قريش ، ثم ذهب من بيته وهو يتكئ على أمه وأم جميل بنت الخطاب وتوجَّه إلى رسول الله ﷺ في دار الأرقم ، فقال رضي الله عنه: (بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ليس بي إلا ما نال الفاسق[٣] من وجهي ، وهذه أمي برَّةٌ بوالديها ، وأنت مبارك ، فادْعُها إلى الله وادعُ الله لها ، عسى أن يستنقذَها بك من النار. فدَعَا لها

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٢١٠ ـ ٢١١ ، ٥/ ٤٥٢؛ الإصابة: ٢/ ٤٥٤.
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير: ١/ ٥١؛ وهو في مجمع الزوائد: ٩/ ٢٥٩؛ والإصابة: ٤/ ٤٢٩.
(٣) يعني: عتبة بن ربيعة.

رسول الله ﷺ ، ثم دعاها إلى الله عز وجل ، فأسلمتْ)[١].

هذا مقام الصدِّيق في أضيق المواقف ، والبلاء قد نزل به حتى غُشي عليه؛ لا ينسى الدعوة إلى الله وبرَّه بأمه ، والتلمس بين يدي النبي ﷺ أن يدعو أم الخير إلى الإسلام ويدعو الله لها بالهداية ، فيلبي النبي الكريم ﷺ استجابة لأمر الله تعالى وتلبيةً لرغبة صِدِّيقه الأكبر ، فتكون أم الخير من الرعيل الأول المبارك الذي حمل راية الدعوة في أيامها الأولى.

ثالثاً: أخواه معتق وعُتيق:

قالت عائشة رضي الله عنها: (إن أبا قحافة كان له ثلاثة أولاد ، فسمَّى واحداً عَتيقاً ، والثاني مُعْتَقاً ، والثالث عُتيقاً ـ أي: بالتصغير ـ)[٢].

وقال عُمارة بن غزية: (سألتُ عبد الرحمن بن القاسم عن اسم أبي بكر الصديق ، فقال: عَتيق ، وكانوا إخوة ثلاثة بني أبي قحافة: عَتيق ومُعْتَق وعُتيق)[٣].

قال ابن حزم: (ولدُ أبي قحافة: أبو بكر الصديق رضي الله عنه واسمه عبد الله ، خليفة رسول الله ﷺ ، وعُتيق ومُعتق ، لا عقِب لهما)[٤].

ولم أقف لهما على ترجمة أو خبر ، والذي يظهر أنهما ماتا صغيرين ، كما يُفهم ذلك من الخبر الذي قدّمناه أن أم أبي بكر كانت

---

(١) ابن عساكر ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ وستأتي القصة بتمامها.
(٢) الإصابة: ٢/ ٣٣٤.
(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٢٥.
(٤) جمهرة أنساب العرب ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

لا يعيش لها ولد ، فلما ولدته استقبلتْ به البيت وقالت: اللهم إن هذا عَتيقك من الموت ، فهَبْه لي[1].

رابعاً: أخواته:

١ ـ أم فروة:

صحابية ، زوَّجها أبو بكر من الأشعث بن قيس الكندي ، وولدت له.

٢ ـ أم عامر:

صحابية ، تزوجها عامر بن أبي وقاص ، فولدت له صفية.

٣ ـ قُريبة:

صحابية ، تزوجها قيس بن سعد بن عبادة ، ولم تلد له شيئاً.

ذكر ابن سعد الثلاث في الصحابيات اللواتي أسلمن وبايعن ، وتابعه الحافظ في «الإصابة»[2].

خامساً: أزواجه:

١ ـ قُتيلة بنت عبد العزى القرشية العامرية:

من بني عامر بن لؤي ، ولدت له عبد الله وأسماء[3].

وكان أبو بكر طلقها في الجاهلية ، والراجح أنها لم تسلم.

---

(١) انظر: ص ٢٦ حاشية (٢).

(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٤٩؛ الإصابة: ٤/ ٣٧٩ ، ٤٥٠ ، ٤٦٠.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٦٩ ، ٨/ ٢٤٩؛ تاريخ الطبري: ٣/ ٤٢٥.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: (قدِمَتْ عليَّ أمِّي وهي مشركةٌ في عهد رسول الله ﷺ ، فاستفتيتُ رسول الله ﷺ؛ قلتُ: إن أمِّي قدِمَتْ وهي راغبة ، أفَأَصِلُ أمِّي؟ قال: «**نعم ، صِلِي أمَّكِ**»)[1].

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: (قدِمَتْ قُتيلة بنت عبد العزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر ، وكان أبو بكر طلّقها في الجاهلية ، بهدايا: زبيب وسمن وقَرَظ ، فأبَتْ أن تَقْبل هديتها أو تُدخِلَها إلى بيتها ، وأرسلتْ إلى عائشة: سلِي رسول الله ﷺ ، فقال: «**لِتُدخلْها ، ولتقبلْ هديَّتَها**». قال: وأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ إلى قوله: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩])[2].

فأمُّ أسماء قدِمَتْ عليها طالبةً برَّ ابنتها لها ، خائفةً من ردِّها إياها خائبة ، راغبة في القرب من ابنتها والتودد إليها والمكافأة في شيء تأخذه وهي على شركها ، فاستأذنت أسماء النبي ﷺ في أن تصلها ، ولو كانت راغبة في الإسلام لم تحتَجْ إلى إذن في صِلتها لشيوع التألُّف على الإسلام من فعل رسول الله ﷺ وأمره ، فلا يحتاج إلى استئذانه في ذلك.

فالله سبحانه وتعالى لا يمنع المسلمين من البر والإحسان وفعل الخير

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٢٠) وأطرافه؛ ومسلم (١٠٠٣) ، وابن حبان (٤٥٢) ، وغيرهم.

(٢) أخرجه ابن سعد: ٨/ ٤٥٢؛ والحاكم: ٢/ ٤٨٥ ـ ٤٨٦ ، وصححه ووافقه الذهبي.

إلى الكفار الذين سالموهم ولم يقاتلوهم في الدين كالنساء والضَّعَفة منهم ، كصلة الرحم ونفع الجار والضيافة ، لذلك قال ﷺ لأسماء: «صِلِي أمك»[1].

٢ ـ أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس:

من كِنانة ، اختُلِفَ في اسمها فقيل: زينب ، وقيل: دعد.

تزوجها عبد الله بن الحارث بن سَخْبرة الأَزْدي ، وقدِم بها مكة فحالَفَ أبا بكر قبل الإسلام ، وتوفي عنها بعد أن ولدت له الطفيل.

فَخَلَف عليها أبو بكر الصديق ، وولدتْ له: عبد الرحمن وعائشة أم المؤمنين.

أسلمتْ رضي الله عنها قديماً وبايعت وهاجرت.

وذكر ابن سعد أنها توفيت في عهد النبي ﷺ سنة ست من الهجرة ، وتابعه جماعة من الأئمة ، وهو غلط ، والصحيح أنها توفيت في عهد عثمان ، وقد أسند البخاري (حديث الإفك) من رواية مسروق عنها ، وقد أوضح ذلك الحافظ مؤيداً بالأدلة[2].

---

(١) انظر شرح الحديث وقصة أسماء مع أمها في: الفتح: ٧/ ٦٢ ـ ٦٤ (٢٦٢٠)؛ تفسير القرطبي: ١٨/ ٥٣ ـ ٥٥؛ التفسير المنير: ٢٨/ ١٣٥.

(٢) انظر: هدي الساري، ص ٣٧٣، طبعة أخرى، ص ٥٨٩؛ الفتح: ٩/ ٤٣٣ شرح الحديث (٤١٤٣)؛ الإصابة: ٤/ ٤٣٢ ـ ٤٣٤، تهذيب التهذيب ١٢/ ٤٩٤ ـ ٤٩٥، وقد لخصتُ ذلك في كتابي: أعلام الحفاظ والمحدثين: ٣/ ٢٩٩ ـ ٣٠١.

٣ ـ أسماء بنت عُمَيْس بن معد بن الحارث بن تَيْم الخَثْعَمِيَّة:

صحابية جليلة من عِلْيَـة النساء ومن المهـاجرات الأُوَل ، أسلمت قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم.

هاجر بها زوجها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة ، ومات عنها شهيداً في غزوة مؤتة.

فتزوَّجها بعده أبو بكر رضي الله عنه ، وحَجَّتْ معه حجة الوداع مع النبي ﷺ ، وولدت لأبي بكر ابنه محمداً وقت الإحرام بذي الحُليفة.

توفي عنها الصديق ، وتقدَّم إليها أن تغسِّله ، ففعلت.

ثم تزوجها علي بن أبي طالب ، وولدت له ، وعاشت بعده.

عن عامر الشعبي قال: (تزوَّج علي بن أبي طالب أسماء بنت عُميس ، فتفاخر ابناها: محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر ، فقال كل واحد منهما: أنا أكرمُ منك ، وأبي خيرٌ من أبيك. فقال لها علي: اقضي بينهما يا أسماء ، قالت: ما رأيتُ شاباً من العرب خيراً من جعفر ، ولا رأيتُ كهلاً خيراً من أبي بكر. فقال علي: ما تركتِ لنا شيئاً ، ولو قلتِ غير الذي قلتِ لمقتُّك. فقالت أسماء: إن ثلاثةً أنت أخسُّهم لخيار)[1].

---

(١) أخرجه ابن سعد: ٨/ ٢٨٥؛ وذكره الذهبي في: السير: ٢/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧ ، وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات؛ وأورده الحافظ في الإصابة: ٤/ ٢٢٦ من رواية ابن السكن ، وصححه. وترجمتها عند ابن سعد: ٨/ ٢٨٠ ، وفي كتب الصحابة.

٤ ـ حَبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زهير الخزرجية الأنصارية:

صحابية أسلمت وبايعت النبي ﷺ.

توفي عنها أبو بكر رضي الله عنه وهي حامل، فولدت له ابنته أم كلثوم[١].

٥ ـ أم بكر:

لا يُعرف اسمها وكأنّه كنيتُها المذكورة، وهي امرأة من (كَلْب) تزوجها أبو بكر ثم طلَّقها، فتزوجها أبو بكر شدَّاد بن الأسود.

عن الصديقة عائشة رضي الله عنها: (أن أبا بكر رضي الله عنه تزوَّج امرأةً من كَلْب يُقال لها: أمُّ بكر، فلما هاجر أبو بكر طلَّقها، فتزوجها ابنُ عمِّها هذا الشاعرُ الذي قال هذه القصيدة رثَى كفارَ قريش).

أخرجه البخاري، وساق أربعة أبيات من القصيدة التي رثَى فيها شدادُ بن الأسود قتلى المشركين ببدر، وساق ابن هشام القصيدة تامة[٢].

وأبو بكر شَدَّاد بن الأسود، ويُقال له: ابن شَعُوب، قال تلك الأشعار في الكفر، ثم أسلم، وجزم بصحبته غيرُ واحد؛ منهم الحافظ وترجم له في «الإصابة».

---

(١) طبقات ابن سعد: ٨/ ٣٦٠؛ الإصابة: ٤/ ٢٦١.

(٢) البخاري (٣٩٢١)؛ السيرة، لابن هشام: ٢/ ٢٩؛ البداية والنهاية: ٣/ ٣٤١ـ٣٤٢.

سادساً: أولاده:

١ ـ عبد الرحمن:

شقيق عائشة ، أمهما أم رُومان ، وكان أسنَّ أولاد أبي بكر .

تأخَّر إسلامه فشهد بدراً وأُحداً مع المشركين ، ودعا إلى البراز يوم بدر ، فقام إليه أبوه ليبارزه ، فقال له النبي ﷺ: «متِّعْنا بنَفْسك»! ثم منّ الله عليه بالإسلام ، فأسلم في هدنة الحديبية ، وكان اسمه عبد الكعبة فغيَّره النبي ﷺ فسمَّاه عبد الرحمن .

صحِبَ النبي ﷺ ، وحَسُن إسلامه ، وكان أحدَ الأبطال الميامين ومن أشجع رجال قريش وأرماهم بسهم ، حضر (معركة اليمامة) مع خالد بن الوليد فقتل سبعة من كبار بني حَنيفة منهم (مُحَكَّم اليمامة) ، وشهد فتوح الشام وله فيها مواقف هائلة ، وكان ينادي في أَتون المعركة : أنا عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق .

وكان رجلاً صالحاً ، لم تُجرَّب عليه كذبةٌ قط ، وتوفي سنة (٥٦هـ) قبل أخته عائشة ، وكانت وفاته بجبل (حُبشي) جنوب مكة على بُعد (١٠كم) منها ، فحُمل إلى مكة ودُفن فيها ، فلما بلغ عائشةَ خبرُه خرجت حاجَّة فوقفت على قبره وبكت عليه[١]! .

٢ ـ عبد الله:

شقيق أسماء ، أمهما قُتيلة .

---

(١) ترجمته في : سير أعلام النبلاء : ٢/ ٤٧١ ـ ٤٧٣ ؛ تهذيب الكمال : ١٦/ ٥٥٥ ـ ٥٦٠ ؛ وكتب الصحابة ؛ وفتوح الشام ، للواقدي ، في مواضع عديدة .

أسلم قديماً ، وهو الذي كان يأتي رسولَ الله ﷺ وأباه في الغار بزادهما وأخبار قريش ، قالت السيدة عائشة في حديث الهجرة الطويل: (يَبِيتُ عندهما عبدُ الله بن أبي بكر ، وهو غلامٌ شابّ ثَقِفٌ لَقِنٌ ، فَيَدَّلِجُ من عندِهما بِسَحَرٍ ، فيصبحُ مع قريش بمكة كبائتٍ ، فلا يَسمع أمراً يُكتادان به إلا وَعَاهُ حتى يأتيهما بخبرِ ذلك حين يختلِطُ الظلام)(١).

وهذا عمل فذّ من شاب في مقتبل عمره ، يقتضي حيطة وحذراً وذكاء وقريحة وجرأة وفداء.

شهد رضي الله عنه الفتح وحُنيناً والطائف ورُمي فيها بسهم فَجُرح ثم اندمل جرحه ثم انْتُقِضَ ، فمات في خلافة أبيه في شوال سنة (١١هـ) ، وصلى عليه أبوه(٢).

٣ ـ محمد:

ولدته أسماء بنت عُميس بذي الحُلَيفة وهي شاخصة إلى الحج في حجة الوداع.

نشأ في حَجْر علي بن أبي طالب لأنه كان تزوَّج أمَّه بعد وفاة أبي بكر وكان ممن ألَّبَ على الشهيد عثمان بن عفان! وشهد مع علي (الجمل) و(صِفِّين) ، ثم أرسله إلى مصر أميراً عليها سنة (٣٧هـ) ، وقُتل بها(٣).

---

(١) البخاري (٣٩٠٥) ، وسيأتي مطولاً.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٤١؛ الإصابة: ٢/ ٢٧٤ـ٢٧٥ ، وغيرها من كتب الصحابة.

(٣) تهذيب الكمال: ٢٤/ ٥٤١ ـ ٥٤٣؛ سير أعلام النبلاء: ٣/ ٤٨١ ـ ٤٨٢؛ الإصابة: ٣/ ٤٥١.

٤ ـ أسماء:

ذات النِّطاقين بنت الصديق وزوج الزبير بن العوام ، وُلدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة ، وتوفِّيت بُعيد مقتل ابنها عبد الله بن الزبير سنة (٧٣هـ) ، فعاشت مئة سنة ، وقد كُفَّ بصرُها بأخرةٍ.

أسلمت قديماً جدّاً، وهاجرت وهي حامل بابنها عبد الله وولدته بقُباء.

كانت من عِلْية النساء وأجرأهن قلباً، حضرت مع زوجها الزبير معركة اليرموك، وكانت سخية النفس معروفة بالجود، لا تدخر شيئاً، على سَنَن أبيها رضي الله عنهما. وترجمتها مشهورة في كتب الصحابة وغيرها[١].

٥ ـ عائشة:

الصديقة الطاهرة بنت الصديق الأكبر ، وزوج سيد الخلق ﷺ ، وأم المؤمنين وأعلم نساء الإسلام.

ترجمتها مشهورة جدّاً ، وقد لَخّصتُ أطرافها في كتابي «أعلام الحفاظ»[٢].

ولدت سنة (٧ق.هـ) ، وتوفيت سنة (٥٧هـ) ، ليلة سبع عشرة من رمضان بعد الوتر ، ودُفنت بالبقيع.

٦ ـ أم كلثوم:

أمها حبيبة بنت خارجة ، كانت حاملاً بها عندما توفي أبو بكر ، وكان

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٨٧ ـ ٢٩٦.

(٢) أعلام الحفاظ والمحدثين: ٢/ ١٥٣ ـ ٢١٤.

يظنُّها بنتاً فكانت كما ظنَّ ، وأوصى بها ابنته عائشة[1] .

سابعاً: خصيصة لأبي بكر وآله:

قال علماؤنا: لا يعرف أربعة متناسلون بعضهم من بعض صحبوا رسول الله ﷺ إلا آل أبي بكر الصديق ، وهم: عبد الله بن أسماء بنت أبي بكر بن أبي قحافة ، فهؤلاء الأربعة صحابة.

فعبد الله بن الزبير ، وأمه أسماء ، وأبوها الصديق ، وجدها أبو قحافة ، أربعتهم صحابيون[2] .

وأيضاً: أبو عَتيق محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر له رؤية.

فأبو عتيق بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي قحافة كلهم رأى النبي ﷺ[3] .

وقد انتظم الإسلام في بيت أبي بكر وآله . .

فأبوه أبو قحافة أسلم عام الفتح ، وأمه أم الخير أسلمت قديماً.

وزوجاته الثلاث: أم رومان وأسماء بنت عميس وحبيبة ، صحابيات.

وأولاده: عبد الرحمن وعبد الله وأسماء وعائشة كلهم صحابة ، ومحمد له رؤية.

---

(١) انظر: ص ٧٢١ من هذا الكتاب.
(٢) تهذيب الأسماء: ٢/ ١٨١؛ أسد الغابة: ٣/ ٢٢١؛ سير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٨٨؛ الإصابة: ٣/ ٤٥٣.
(٣) تهذيب الأسماء: ٢/ ١٨١؛ الإصابة: ٣/ ٤٥٣.

وسبطه عبد الله بن الزبير صحابي ، وحفيده أبو عتيق له رؤية .

وهذا معدود في مناقبه[1] ، فبيتُه من بيوت الإيمان الشامخة التي تشع بالهدى والخير والمفاخر .

ثامناً: مواليه:

١ ـ بلال بن رباح:

مؤذن رسول الله ﷺ ، من السابقين الأولين الذين عُذِّبوا في الله ، وأحدُ سبعةٍ أظهروا إسلامهم بمكة .

عذَّبه المشركون وصَهَروه في الشمس ، فهانَتْ عليه نفسه وصبر وكان يقول : أحدٌ ، أحد! فاشتراه أبو بكر وأعتقه .

عن قيس بن أبي حازم قال : (اشترى أبو بكر بلالاً وهو مدفون في الحجارة بخمس أواقٍ ذهباً ، فقالوا : لو أبيتَ إلا أوقيةً لبعناكَهُ ، قال : لو أبيتم إلا مئة أوقية لأخذتُه!)[2] .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : (كان عمر يقول : أبو بكر سيِّدُنا ، وأعتَقَ سيِّدَنا ـ يعني : بلالاً ـ)[3] .

أخباره كثيرة مشهورة ، توفي سنة (٢٠هـ) ، ودفن بباب الصغير بدمشق .

---

(١) الأسامي والكنى ، للحاكم الكبير : ٢/ ٩٧ ـ ٩٨؛ الفتح : ٨/ ٥٦٦ ، فضائل الصحابة ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة وغيره ، انظر تخريجه : ص ١٢٠ حاشية (٢) في هذا الكتاب .

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٥٤)؛ وابن سعد : ٣/ ٢٣٣ .

٢ ـ عامر بن فهيرة:

أحد السابقين إلى الإسلام، وكان ممن يعذَّب في الله.

كان للطُّفيل بن عبد الله بن سَخْبرة أخي عائشة لأمِّها أم رومان، فاشتراه الصديق وأعتقه.

خرج مع النبي ﷺ وأبي بكر يوم الهجرة، وشهد بدراً وأُحداً، واستشهد يوم بئر مَعُونة سنة (٤هـ).

٣ ـ سعد:

صحابي، وكان يخدم النبي ﷺ[1].

عن الحسن البصري، عن سَعْد مولى أبي بكر، وكان يخدِم النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يعجبه خدمتُه، فقال: «**أبا بكر، أعتِقْ سعداً**»، فقال: يا رسول الله، ما لنا ماهِنٌ غيرُه، فقال رسول الله ﷺ: «**أعتق سعداً، أتتكَ الرجال، أتتك الرجال**» يعني السَّبْي[2].

٤ ـ أبو القاسم:

صحابي شهد خيبر.

عن أبي الجَهْم، عن أبي القاسم مولى أبي بكر الصديق قال: (لمَّا فُتحت خيبر، أكلنا من الثوم، فقال النبي ﷺ: «**مَن أَكلَ من هذه البَقْلة الخبيثة فلا يقربنَّ مسجدَنا حتى يُذهب ريحها من فيهِ**»)[3].

---

(١) تهذيب الكمال: ١٠/ ٣١٤؛ الإصابة: ٢/ ٣٧.

(٢) أخرجه أحمد: ١/ ١٩٩، وصححه أحمد شاكر. **ماهِنٌ**: أي خادم.

(٣) ذكره الحافظ في الإصابة: ٤/ ١٥٧، وعزاه لابن أبي خيثمة؛ وانظر: مجمع الزوائد: ٢/ ١٧.

٥ ـ شديد:

حاجب أبي بكر ومولاه ، أدرك النبي ﷺ ، وهو الذي أحضر عهد أبي بكر في استخلافه عمر .

عن قيس بن أبي حازم قال : (رأيتُ عمر وبيده عَسِيبُ نخلٍ وهو يُجلس الناسَ ، يقول : اسمعوا لقول خليفة رسول الله ﷺ ، فجاء مولى لأبي بكر يُقال له : شديد؛ بصحيفة فقرأها على الناس ، فقال : يقول أبو بكر : اسمعوا وأطيعوا لِما في هذه الصحيفة ، فوالله ما أَلَوْتُكم . قال قيسٌ : فرأيتُ عمر بعد ذلك على المنبر)[١] .

ترجم له الحافظ في «الإصابة» في القسم الثاني (من أدرك النبي ﷺ) ، ورجَّح أحمد شاكر أن لشديد صحبةً ، وقوله له وجاهة[٢] .

٦ ـ كثير بن عبيد التيمي:

تابعي ، روى عن أبي هريرة وعائشة وغيرهما .

ترجم له البخاري في «تاريخه» ، وابن حبان في ثقات التابعين[٣] .

٧ ـ عمرو:

ذكر شاهداً في كتاب أبي بكر إلى أهل نجران يجدد لهم عهد رسول الله ﷺ[٤] .

---

(١) أخرجه أحمد : ١/ ٣٧؛ والطبري في تاريخه : ٣/ ٤٢٩ ، وصححه أحمد شاكر .
(٢) الإصابة : ٢/ ١٦٠ ؛ مسند أحمد ، بتحقيق أحمد شاكر : ١/ ١٣٥ حديث (٢٥٩) .
(٣) التاريخ الكبير : ٧/ ٢٠٦؛ الثقات : ٥/ ٣٣٢؛ الإصابة : ٣/ ٣٠١ ـ ٣٠٢ .
(٤) تاريخ الطبري : ٣/ ٣٢٢ .

٨ ـ صفية:

أم محمد بن سيرين[١].

تاسعاً: دار أبي بكر وسكنه:

ـ في مكة: كان في دار أبيه أبي قحافة.

ـ وفي المدينة: كان له داران.

فلما هاجر الصديق نزل على خارجة بن زيد، وتزوج ابنته (حبيبة)، واتخذ له مسكناً هناك بالسُّنْح حيث منازل بني الحارث بن الخزرج.

والسُّنْح: مكان في عوالي المدينة النبوية على ميل من مسجد رسول الله ﷺ.

ولمَّا أقطع النبيُّ ﷺ الدورَ بالمدينة جعل لأبي بكر موضع داره عند المسجد[٢]، وفيه كانت زوجتاه أم رومان وأسماء بنت عميس.

وذكر عمر بن شَبَّة أن دار أبي بكر التي أَذِنَ النبي ﷺ له في إبقاء الخَوْخة فيها إلى المسجد كانت ملاصقة للمسجد النبوي، ولم تزل بيد أبي بكر حتى احتاج إلى شيء يعطيه لبعض من وفد عليه، فباعها، فاشترتها منه حفصة أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم، فلم تزل بيدها إلى أن أرادوا توسيع المسجد في خلافة عثمان، فطلبوها منها ليوسعوا بها المسجد، فامتنعت وقالت: كيف بطريقي إلى المسجد؟ فقيل لها: نعطيك داراً أوسع منها، ونجعل لك طريقاً مثلها، فسلّمتْ ورضيت[٣].

---

(١) المعارف، ص ١٧٧، ٤٤٢.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٧٥.

(٣) الفتح: ٨/ ٥٧٤ شرح الحديث (٣٦٥٤).

ومعظم إقامته كانت بداره الملاصقة للمسجد النبوي حيث يلازم رسول الله ﷺ ويشهد معه صلواته وساعاته ومجالسه ، ويتردَّد إلى منزله بالسُّنْح عند زوجه حَبيبة وأصهاره، بل إنه في مرض وفاة النبي ﷺ استأذنه أن يذهب إلى السنح ، فأذِن له ، فأتاه الناعي يخبره بوفاة سيد الخلق ﷺ .

عاشراً: عمله وتجارته:

اشتهر أبو بكر في الجاهلية والإسلام بعمله في التجارة ، وكان يسافر تاجراً إلى الشام واليمن ، وكان رأس ماله أربعين ألف درهم ، وعمل بالتجارة بزازاً يبيع الثياب بمكة وهو في مرحلة الشباب.

وقدم تاجراً إلى بصرى من الشام في الجاهلية والإسلام[(١)].

بل خرج تاجراً في عهد النبي ﷺ ، فعن أم سَلَمة : (أن أبا بكر خرج في تجارة إلى بُصْرى قبل موت النبي ﷺ بعام ، ومعه نُعيمان وسُوَيْبط بن حَرْملة ، وكانا شهدا بدراً) ، الحديث بطوله[(٢)].

وبقي كذلك حتى استُخلف ، فعن عطاء بن السائب قال: (لمَّا استُخلف أبو بكر أصبح غادياً إلى السوق ، وعلى رقبته أثوابٌ يتَّجر بها ، فلقيه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح ، فقالا : أين تريدُ يا خليفةَ رسول الله؟ قال: السوق ، قالا : تصنعُ ماذا وقد وليتَ أمر المسلمين؟! قال: فمن أين أُطعم عيالي؟ قالا له: انطلق حتى نفرض لك شيئاً ،

---

(١) ابن عساكر ، ص ٩٤؛ أبو بكر الصديق ، للطنطاوي ، ص ٦٦ ، والصديق أبو بكر ، لهيكل ، ص ٢٤ .

(٢) أخرجه أحمد: ٦/٣١٦؛ وابن ماجه (٣٧١٩) مطولاً ، وفيه دعابة من نعيمان؛ وذكره الحافظ في الفتح: ٦/ ٩٢ (٢٠٧٠) وسكت عليه.

فانطلق معهما ، ففرضوا له كل يوم شَطْر شاة)[1].

هكذا الرجال ، وهكذا صنعة رسول الله ﷺ لأصحابه ، فمع حبِّ النبي ﷺ للصديق الذي لا يدانيه حب ، ومع ملازمة أبي بكر له ﷺ وحرصه على عدم مفارقته؛ لم يفرِّط في حق أهله واكتساب الرزق من عمل يده ، بل بقي كذلك عندما أضحى خليفة المسلمين ، ولم يجد غَضَاضة أن يضع على عاتقه ثوباً من القماش ويتجه إلى السوق ليتجر ويوفر على المسلمين (راتب الخليفة)! إنها عظمة النفوس والعفة والتواضع ، فحيًّا الله أولئك الرجال.

* * *

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٨٤؛ وذكره الحافظ في الفتح: ٦/ ٩٢ وقال: مرسل ، رجاله ثقات.

الفصل الرابع
مكونات شخصيته وخصائصه ومزاياه

أولاً: توطئة وإجمال:

الذي نذهب إليه في الكتابة عن العظماء ـ ورأسهم أبو بكر الصديق ـ أن نوفيهم حقهم من التوقير ، لأنهم أهل لكل تبجيل واعتراف بالجميل.

لكن إبراز خصائص الرجل الذي نكتب عنه لا يحملنا على الحيف على غيره والتقليل من مكانة الرجال الكبار الذين عاصروه والتفوا حوله وحملوا الراية والرسالة معه.

كما لا يجوز الجَوْر بحال من الأحوال على الأمة كافة في إنجاز الأعمال الكبار ، حتى ليبدو للقارئ أن (الرجل القائد) مثال فذ لا يُضارعه أحدٌ في كل مفردة من صفاته ، وأنه هو الذي يدير الأحداث ويصنع التاريخ! فإن أي رجل مهما أوتي من مِنح ربانية وهبات مركوزة وملكات مذخورة ، فلن يحقق الإنجازات الضخام ما لم تشدّ على يمينه سواعد أفراد الأمة مشهورها ومغمورها.

●● لقد جمع الله سبحانه لأبي بكر الصديق من الخصائص والمزايا ومنحه من المَلَكات وحَبَاه من الصفات ما تفرَّق في كثير من أفذاذ الرجال على مر التاريخ.

وفي مجموع الأخبار الصادقة ما يزيدنا يقيناً بمكانة الصديق في الإسلام وقبله ، ويزيدنا إيماناً بما حَبَاه الله به من المزايا السامية التي جعلت منه رجلَ الإسلام الأول في كل موطن من مواطن البطولة والتفاني في سبيل الخير والحق[1] .

ويعجب الباحث كيف اجتمعت في نفس الصديق المزايا الخُلقية جمعاء من أبلغها في الرقة إلى أعرقها في الشدة ، فكانت نفسه كالبحر يَلين حتى يغترف الطفل من مائه ويلهو بحصاه ، ويشتدّ حتى يجتاحَ المدن ويدكَّ الجبال! وكانت بعدُ كالبحر في عظمته ، وجلاله وعمقه وسعته ، لا يدري ما تكنُّ من السجايا والفضائل إلا مَن عرف ما يحوي البحر من الدرر والجواهر[2] .

والمعهود في طبائع الوجود ، جرياً مع سُنن الله تعالى ، أن للإنسان في حياته أطواراً يتنقل في مراحلها حتى ينتهي إلى ما قُدِّر له . بيد أن هذا القانون الطبعي على شموله لا ينطبق على حياة العبقريين من أفذاذ الرجال ، وقادة الإصلاح ، ومُثُل الإنسانية الفاضلة ، فالقانون الروحي عند هؤلاء قائم على (قانون الطفرة) التي هي أخص خصائص العبقريين في العالم ، منذ أُتيح للعبقرية الإنسانية توجيه الحياة وجهة الخير والإصلاح[3] .

●● فأبو بكر قد ركز الله تعالى فيه جملة ضخمة من السجايا النبيلة ،

---

(١) حياة رجالات الإسلام ، ص ٥٦ .

(٢) أبو بكر الصديق ، للطنطاوي ، ص ٣٠٧ .

(٣) حياة رجالات الإسلام ، ص ٤٠ ـ ٤١ ، مقتطفات .

والشمائل الجليلة، والأخلاق الرفيعة، والصفات الفاضلة، والقيم الإنسانية، التي عُرف بها في الجاهلية بين غَطَارفة قريشٍ وعامَّتِها، شأن أقرانه من سادات مكة وأشرافها... وما هي إلا دورة الفَلَك حتى أشرقت شمس النبوة في بطحاء مكة، ونهض الإسلام بأبي بكر ومزاياه وخصائصه، (وإذا به يَثِب إلى طور العبقرية وثباً يَفصله عن ماضيه، ويرتفع به إلى سماء العظمة الإسلامية، فيصبح سيدَ المؤمنين، ووزيرَ أعظم المرسلين، ثم أول الخلفاء الراشدين، يتحدث فيُصغي إليه الزمن بسمعه، وينادي فتلبي الدنيا طيّعة، وتتكشف نفسه عن خصائص لم تبدُ منه أيام فتوة شبابه، يؤمن بدعوة الإسلام فيرجح إيمانه بإيمان أهل الأرض)[1].

ثانياً: أبرز خصائص ومزايا الصِّدِّيق:

فلنلق نظرة فاحصة على سيرة الصديق نتعرف من خلالها على أبرز الخصائص والمزايا التي امتاز بها هذا الرجل العظيم.

١ ـ تفكيره العاقل منذ صغره:

روى أبو بكر أنه لما ناهزَ الحُلم أخذه أبوه إلى بيت الأصنام ليعبدها على دين قومه، وخلاَّه وذهب، قال أبو بكر: (فدنوتُ من الصنم وقلتُ: إني جائع فأطعمني، فلم يجبني! فقلت: إني عارٍ فاكسني، فلم يجبني! فألقيتُ عليه صخرة، فخرَّ لوجهه)[2].

هذا الفتى الأريب النجيب نشأ في مجتمع يستقسمون فيه بالأزلام

---

(١) حياة رجالات الإسلام، ص ٤٢.

(٢) مرّ: ص ٣٧ في هذا الكتاب.

ويسجدون للأصنام ، فرأى بعقله الوقاد وقريحته الثاقبة أن السجود للأصنام بلادة في الفطرة فترفع عنها ، بل وهشَّم رأسها وأرغم أنفها ، وانفلت من أغلال بيئته وتسامى عن عادات قومه ، فنشأ فيهم أريباً نبيلاً حكيماً عاقلاً .

٢ ـ حصافته ونفاذ بصيرته:

وأظهرتْ مواقف أبي بكر في الجاهلية وفي الإسلام في ظلال النبوة وبعد ذلك إبَّان خلافته؛ عن امتيازه بحَصَافة الرأي ورجاحة العقل وجودة الفكر وإحكام التدبير ، يعدُّ للأمور أقرانَها وينزل الأحداث منازلها ، ويَطُبُّ المشكلات بأنجع العلاجات ، ويتفوق على التحديات وشدائد الأزمات .

قبل إشراق شمس الرسالة كان يسمع بأخبار نبي يُـنتظر في هذه الأمة ، ويتردَّد إلى الحُنفاء مثل وَرقة بن نوفل وقَسّ بن ساعدة وزيد بن عَمْرو بن نُفيل ، ويودِع ذاكرته أقوالهم وأشعارهم . وضَمَّ إليها أشباهها من الأخبار التي تترامى إليه أثناء أسفاره في تجارته إلى الشام واليمن . ويتأمل في صديقه وخليله محمد بن عبد الله فيجده قد فَرَعَ قومَه بكل المحامد ، وما إنْ يخبره أن الله تعالى أرسله حتى يبادر إلى تصديقه والإيمان به .

وقُبيل وفاة النبي ﷺ قال: «**إنَّ الله خيَّر عَبْداً بين الدنيا وبين ما عند الله ، فاختار ما عند الله**» ، فبكى أبو بكر وقال: فديناكَ بآبائنا وأمهاتنا! فعجب الصحابة من موقف الصديق وقوله ، قال أبو سعيد الخُدْري: فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر ، وكان أبو بكر هو أعلمَنا به[1]!.

(١) تركتُ تخريج الأحاديث هنا تخفيفاً ، وستأتي تامة مع تخريجها في مواضعها .

وعند وفاة رسول الله ﷺ تتوهَّج حصافة أبي بكر ، ويوقظ جمهورَ الصحابة الذين طاشتِ المصيبة بعقولهم وأفئدتهم ، ويتلو عليهم قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

ولمّا اشتبكت الآراء يوم السقيفة حول استخلاف رجل على الناس ليقود الأمة بعد النبي ﷺ؛ برزت عبقرية الصديق فأنزل الناسَ منازلهم واعترف لهم بفضائلهم ، ثم احتجَّ على الجميع بأن الناس لا يَعرفون (رئاسة المسلمين) إلا لهذا الحي من قريش ، ودلّل لرأيه بالنقل والعقل .

وفي الأيام الأولى من خلافته جاءته السيدة فاطمة الزهراء تطلب ميراثها من أبيها ﷺ ، فتلطَّف إليها الصديق وذَكَر حبَّه وتقديمَه النبيَّ ﷺ وآلَه على نفسه وآله هو ، وأخبرها بقول رسول الله ﷺ : «**إنّا لا نُورَثُ ، ما تركناهُ صدقةٌ**» .

وما إنْ مات رسول الله ﷺ حتى ارتدت معظم الحواضر والقرى وأصبحت الأرض كافرة ، فأراد الصحابة من الصديق أن يتألَّفهم ، (فاستنبط من العلم بدقيق نظره ورصانة فكره ما لم يشاركه في الابتداء به غيره)[1] ، وبرز على الصحابة بحصافة رأيه ونفاذ بصيرته ، فكان التدبير السديد بمقاتلتهم حتى لا يُنتقص من الدين شيء .

وفي عام الحديبية وقد أمضى النبي ﷺ الصلح ، فقال عمر رضي الله عنه : فيمَ نعطي الدَّنيَّة في ديننا؟! وجاء إلى أبي بكر في ذلك ، فأجابه

(١) شرح صحيح مسلم ، للنووي : ١/ ٢٤٤ ، ٦/ ٣٨٣ .

الصديق بمثل جواب رسول الله ﷺ ، (وهذا من الدلائل الظاهرة على عظيم فضله ، وبارع علمه ، وزيادة عرفانه ، ورسوخه في كل ذلك ، وزيادته فيه كله على غيره رضي الله عنه)[1].

٣ـ علومه وخبرته واتساع مداركه:

وامتاز الصديق بتقدُّمه في علم الأنساب وتاريخ قريش وأيامها وبيئتها الفكرية والأخلاقية والاجتماعية والجغرافية وما يحيط بالجزيرة من أديان وثقافات ، وساعده على ذلك أسفاره في تجاراته في طول الجزيرة وعرضها ومحيطها ، وجاء الإسلام فنمى تلك الخصائص وزادها أَلَقاً ووسَّع آفاقها ومداركها.

ولقد ذكر المؤرخون الثقات أن رجال قومه كانوا يأتونه ويألَفُونه لعلمه وتجارته وحسنِ مجالسه ، فينهلون من علمه ويَصدرون عن رأيه.

وحسبك ما علمه من أخبار الحُنفاء وحفظه لأقوالهم وأشعارهم ، وما سمعه من علماء أهل الكتب السالفة في الشام واليمن.

وقد صدَّقت وقائع السيرة النبوية هذه المزية في أبي بكر عندما كان النبي ﷺ يَعرض دعوته على القبائل ، والصديق بين يديه يُسائلهم عن أنسابهم وأصول قبائلهم وأخبارهم.

ولما دخل النبي ﷺ مكة عام الفتح ، رأى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخُمُر ، فتبسَّم إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وقال: «**يا أبا بكر ، كيف قال حسان بن ثابت؟**» فأنشده أبو بكر:

عَـدِمْنـا خيلَنـا إنْ لـم تَـرَوْهـا ... تُثِيـرُ النَّقْـعَ مـوعـدُهـا كَـدَاءُ

---

(١) شرح صحيح مسلم ، للنووي: ١/ ٢٤٤ ، ٦/ ٣٨٣.

يُنـــازِعـــنَ الأعنَّـــةَ مُصغيـــاتٍ على أكتـافهـا الأَسَـل الظِّمـاءُ
تظـــلُّ جيـــادُنـــا متمطِّـــراتٍ يُلَطِّمُهـــنَّ بـــالخُمُـــرِ النســـاءُ

فقال رسول الله ﷺ: «**ادخلوا من حيث قال حسان**»(١).

ومن أبرز الأدلة على اتساع علومه وعمق مداركه مواقفُه في حياة النبي ﷺ وبعدَ وفاته وفي أيام خلافتِهِ ، ومن ذلك: أن رسول الله ﷺ بعثه سنة (٩هـ) ليقيم للناس حجَّهم ويعلِّمهم مناسكَهم ، ومكانتُه في مجالس النبي ﷺ وأنه كان يفتي في عهده ، وتقديم الرسول ﷺ له ليؤُم الناس في الصلاة بقوله: «**مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس**» ولا يتقدم إلا أعلمُ الصحابة وأقرؤهم ، وموقفُه عند وفاة النبي ﷺ ، وأنه مات كما ماتت الرسل من قبله ، وما استحضره في السقيفة من آيات وأحاديث في فضائل الأنصار وأن الأئمة من قريش ، واحتجاجه على فاطمة الزهراء بأن النبي ﷺ لا يُورَث.

كما تجلَّت معرفتُه بجغرافية البلدان وحجم القبائل ومراكزها ، والأعداء وعددهم وعدّتهم؛ في عقده أحدَ عشر لواء لأحد عشر جيشاً لوأدِ حركة الردة ، وتحديد وجهة كل منها ، كذلك سياسته في فتوحات الشام والعراق وأمره خالد بن الوليد أن يبدأ من جنوب العراق بينما يبدأ عياض بن غَنْم من شماله ويجتمعان بالحِيرة التي هي قلب العراق والمؤدية إلى فتح المدائن دار أهل فارس وعاصمة إمبراطوريتهم.

كذلك فإن كُتبه إلى المرتدين وقادة الفتوحات والولاة على البلدان

---

(١) أخرجه الحاكم: ٣/ ٧٢ وصححه ، ووافقه الذهبي؛ وساق ابن هشام قصيدة حسان بطولها: السيرة: ٢/ ٤٢١ ـ ٤٢٤.

وخطبه الكثيرة ، كلها تبرهن على علم واسع وإدراك راسخ .

زِدْ على ذلك خبرته بالرجال من قادة الفتوحات والولاة والأمراء، حتى قال عمر ـ وحسبك به ـ: رحم الله أبا بكر لقد كان أعلمَ بالرجال مني! .

٤ ـ ألمعيته وحَدْسُه في استقراء الأحداث واستشراف المستقبل:

ويوضح ذلك مواقف كثيرة في حياته المليئة بالإنجازات الكبار ، ففي مكة حيث تضجّ بالشرك والوثنية ، وما سمعه من أخبار المتحنِّفين وعلماء أهل الكتاب عن اقتراب مجيء نبي هذه الأمة ، وما عَلِمه من صفات محمد ﷺ استقراً من خلال ذلك أن خليله محمداً هو ما تواطأت عليه الأخبار والمبشِّرات والنبوءات ، فسارع إلى تصديقه.

وفي أيام الهجرة كان يرى تكالبَ قريش على شخص النبي ﷺ وأنَّ قَتْلَه يعني انطفاء شعلة التوحيد ، فجنَّد كل أفراد أسرته لحمايته وإنجاح حدث الهجرة الضخم . . وفي الغار استبرأَهُ من كل ما يمكن أن يؤذي الرسول ﷺ وكان يخشى عليه قريشاً أن ينظر أحدُهم إلى موضع قدمهفيراهما! وفي الطريق كان يمشي أمامه ليقيه شرَّ الرَّصَد ، ويمشي خلفه ليحميه من الطلب.

وفي صلح الحديبية أيقظ الصحابيَّ الملهم عمر بأن يَلزم غَرْزَ النبي ﷺ في إمضاء الصلح.

وعند وفاة رسول الله ﷺ طلب إليه الأصحاب رضي الله عنهم جميعاً أن يُرجئ بَعْثَ أسامة ، فتأبَّى عليهم وأنفذه إلى وجهته ، فظهر للناس الخير الكثير في رأي الصديق وعزمه على إنفاذه.

وأيام الرِدَّة حيث جاءت وفود من قبائل عديدة يطلبون إعفاءهم من الزكاة ، وقد رأوا قلَّة المسلمين بالمدينة ، فاستقرأ الصديق في وجوههم الخسَّة وفي قلوبهم الغدر ، فجعل على أنقاب المدينة حراساً من الصحابة وقال للمسلمين : (إن الأرض كافرة ، وقد رأى وفدُهم منكم قِلَّة . . . فاستعِدّوا وأَعِدُّوا)[1] . . ولم يخطئ أبا بكر حَدْسُه ، فلم يَلبث أهلُ المدينة إلا ثلاث ليالٍ ، حتى طَرَقَهم مانعو الزكاة ليلاً ليكسروا عزمتهم على القتال .

وأعماله وتوجيهاته في الفتوحات من أمثلة ألمعيته وحسنِ استقرائه للأحداث .

وفي آخر عمره استخلف عبقريَّ الإسلام عمر ، ورضي المسلمون بذلك ، وكان يستقرئ فيه كل الخير في متابعة المسيرة التي خطَّ سطورَها النبي ﷺ ، فصدَّقتِ الأيام والأحداث رؤية أبي بكر على نحو فذ .

وغير ذلك من الأدلة التي جاءت في ثنايا هذا الكتاب .

٥ ـ ذاكرته الحادة وذكاؤه المتوقِّد:

وكان الصِّدِّيق يستقبل أحداث الحياة الجليلة ويلقي إليها سمعه المرهف ، ويستوعبها بذهنه الوقَّاد ، ويودعها ذاكرته الحادة . . .

من ذلك ما يذكره أنه عندما كان في اليمن في تجارة له ، وقد اجتمع بشيخ من الأزد عالمٍ قد قرأ الكتب ، وعَلِم منه خبر النبي المنتظر ، وبعد أن قضى شأنه هناك ، جاء ليودِّع الشيخ ، فقال له : أحاملٌ أنت مني أبياتاً قلتُها في ذلك النبي؟ فقال أبو بكر : نعم ، فكان مما قاله :

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٤٥ .

وأنتَ وربِّ البيت تلقى محمداً بعامِك هذا قد أقامَ البَراهِنا
فحيٍّ رسولَ الله عنِّي فإنني على دينه أحيا وإنْ كنتُ واكِنا
فيا ليتَني أدركتُه في شَبيبتي فكنتُ له عبداً أو إلاَّ العُجاهِنا[1]

قال أبو بكر: فحفظتُ وصيّته وشعره، وقدِمتُ مكة وقد بُعث النبي ﷺ.

وفي أحد مجالس رسول الله ﷺ ومعه أصحابه وفيهم أبو بكر سأل النبي ﷺ: «**مَن منكم يحفظ كلامَ قَسّ بن ساعدة في سوق عُكاظ؟**» فقال أبو بكر: إني أحفظه يا رسول الله، كنتُ حاضراً يومها في سوق عكاظ، ومن فوق جمله الأَوْرَق وقف قَسٌّ يقول: أيها الناس اسمعوا وعُوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، إنَّ مَن عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آتٍ، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعِبَراً، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لن تغور، ليل داجٍ، وسماء ذات أبراج، يقسم قسٌّ بالله قسماً لا ريب فيه أن لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا! ثم أنشأ يقول:

في الذاهبين الأوّليـ ـنَ من القرون لنا بصائِرْ
لمّا رأيتُ موارداً للموت ليس لها مصادِرْ
ورأيتُ قومي نحوَها يَمضي الأكابر والأصاغرْ
أيقنتُ أنّي لا مَحَا لةَ حيث صار القوم صائِرْ[2]

وغير ذلك مما حفظه في الجاهلية من أقوال أميَّة بن أبي الصَّلت

---

(١) ابن عساكر، ص ١١٩ ـ ١٢٠. **واكناً**: جالساً. **العُجاهِن**: الطبَّاخ.
(٢) البداية والنهاية: ٢/ ٢٣٠ ـ ٢٣١، ٢٣٤.

وزيد بن عَمْرو بن نُفيل وورقة بن نوفل ، وأثبتته ذاكرته ووعاه قلبه ، وكان أحدَ دوافعه للإسراع إلى الإسلام واتباع النبي ﷺ .

وشهدتْ أيامُه مع رسول الله ﷺ براهين كثيرة على ذكائه المتوقد وحافظته الباهرة ، وحسبك ما ظهر منه يوم وفاة النبي ﷺ وفي سقيفة بني ساعدة .

٦ ـ دماثةُ خلقه ووقارُه ومروءتُه:

وهذا مما اشتَهر به في الجاهلية والإسلام ، فكان سيداً مبجَّلاً ، محبَّباً سهلاً ، حسنَ المجالسة ، يألفُه الناس ويأوون إليه ويغشَون مجالسه .

ولم تكن سيادته في قومه لِما يملك من البأس والسطوة ، بل بما كان يمتاز به من دماثة الخلق ، ولينِ الجانب ، ونُبل الصفات ، والترفع عن خوارم المروءة ، وتجنُّب فلتات الطبع واللسان ، والتنزّه عن كل ما يخلّ بسيادته ومكانته .

عُرف ذلك منه في تنزهه عن شرب الخمر وعبادة الأوثان ومقارفة أوضار الجاهلية ، ومصاحبته خيرة الرجال وفي مقدمتهم محمد بن عبد الله ﷺ . . ثم ترقّى في الإسلام في مدارج كمال هذه الشمائل ، فأوى إلى كهفه عِلْيةُ شباب قريش الذين أسرعوا بدعوته إلى الإسلام ، من أمثال: عثمان وطلحة وأبي عبيدة ، كما كان عمر بعبقريته ينصت لرأيه ويركن إليه .

٧ ـ رحمته الغامرة:

وليس ثمَّة أكثر من الدلائل التي تشهد على تمكُّن هذا الخُلق وبروز

هذه الخَصِيصة في شخصية أبي بكر.

انظر إليه وهو يمرُّ بالضعفاء من المسلمين الذين صَبَّت عليهم قريش صنوف العذاب، فيسرع إلى إعتاقهم واحداً تلو الآخر، حتى أعتق سبعة من السابقين إلى الإسلام.

وفي غزوة بدر يشير على النبي ﷺ بشأن الأسرى فيقول: يا رسول الله! هؤلاء بنو العَمِّ والعَشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذَ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديَهُم الله فيكونوا لنا عضُداً[1].

وفي عام الحديبية حيث أجمعتْ قريش على صَدِّ النبي ﷺ وأصحابه عن البيت، فقال ﷺ: «**أَشِيروا أيها الناس عليَّ، أترونَ أن أميلَ إلى عيالِهم وذَرَاريِّ هؤلاء الذين يريدون أن يَصدُّونا عن البيت، فإنْ يأتونا كان الله عز وجل قد قطع عَيْناً من المشركين، وإلا تركناهم مَحْرُوبين؟**» قال أبو بكر: يا رسول الله! خرجتَ عامداً لهذا البيت لا تريدُ قتلَ أحدٍ ولا حربَ أحدٍ، فتوجَّهْ له، فمن صَدَّنا عنه قاتلناه. قال: «**امضُوا على اسم الله**»[2].

ولمَّا شيَّع جيشَ أسامة أوصاه قائلاً: (لا تخونوا ولا تغلُّوا ولا تغدِروا ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقِروا نخلاً ولا تحرِّقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٣)؛ والترمذي (٣٨٠١)؛ وأحمد: ١/ ٣٠ ـ ٣١؛ وابن حبان (٤٧٩٣)، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (٤١٧٨، ٤١٧٩)، وغيره.

شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلةٍ ، وسوف تمرُّون بأقوام قد فرَّغوا أنفسهم في الصَّوامع ، فدَعُوهم وما فرَّغوا أنفسَهم له»[1].

تلك هي الرحمة الغامرة المتمثلة في شخص الصديق التي تتطلبها ضرورات الحياة والدعوة الإسلامية لتكون وسيلة لها إلى الخير ، تقودها إليه بلطف المحبة وسحر الإخلاص. وإلى هذا يشير قول النبي ﷺ: «**أرحمُ أمَّتي بأمتي أبو بكر**».

ومواقفه كانت تمشياً مع طبيعته الرحيمة ، لأنه لم يكن في حياته يرمي إلى غَلَبة الحروب وظَفَر المعارك فحسب ، ولكنه كان يرمي إلى غلبة العقيدة وسموِّ الفكرة ، فإذا تحقق هذا بغير أن تُسفك في سبيله قطرة دم؛ كان أحبَّ إلى نفسه وأرضى[2].

٨ ـ حبه الخير له وللناس وسبقه إليه:

وهو خلق رفيع من أجلِّ شمائل أبي بكر ، وخَصْلة أصيلة من أبرز خصائصه ومزاياه ، قد شاعت ثمراتُها في حياته طولاً وعرضاً وعمقاً.

وأجلُّ مظاهرها حبُّه هدايةَ الناس إلى الإسلام ونشره بينهم ، وأَوْلى الخَلْق بذلك أهله وأقاربه ، لذا رأيناه شديد الحرص على إسلام أمه وأبيه كما تقدم بيانه ، وكذلك أولاده ومواليه ، وشبان مكة الذين كانوا يغشون مجلسه.

وامتد حبُّه للخير إلى المشركين ، فأشار على النبي ﷺ بالإبقاء على أسرى بدر وقبول الفداء ، وكذلك كان رأيه فيمن صدُّوهم عن البيت

(١) تاريخ الطبري: ٣/٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٢) حياة رجالات الإسلام ، ص ٦٩.

الحرام ، فأخرج الله من أصلاب هؤلاء وأولئك من كانوا مشاعل الحق والهداية في العالمين.

وأخلاقه الرفيعة في الصدقةِ والنفقة والعتق وخدمة العجائز وربّات الحِجَال وبذلِ الخير للعامة والخاصة؛ أمثلة أخرى على هذا الخلق.

وتأمَّل موقفه من مِسْطح بن أُثاثة وقد وقع في الطاهرة أم المؤمنين عائشة ، فتغضّب عليه غيرةً على شرفه وعرضه ، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ . . . ﴾ [النور: ٢٢] ، فاستأنف بذل الخير له والنفقة عليه!.

٩ ـ سخاؤه وجوده وكرم نفسه:

وهذه الخَلّة مكمِّلة لسابقتها ، وهي بارزة في شمائل الصديق بروز الضوء مع الشمس ، وهي إحدى سماوات أبي بكر التي طار إليها فذّاً على أجنحة العبقرية الوادعة ، وصنيعُه في بذل المال لم يُسَامه فيه أحد من الناس ، وحاول عبقري الإسلام عمر أن يسابقه في ذلك ، ولكنه ألقى له الاعتراف بالسبق وأنه في ميدانه لا يُبارى ، فقال: ما سابقتُ أبا بكر إلى خير قطُّ إلا سبقني إليْه![١].

فلقد كان رضي الله عنه من أغنياء قريش ، فأهلَكَ ماله في سبيل الله ، وأنفق على رسول الله ﷺ والدعوة إلى الله مالَه كله ، وإذا ما سأله النبي ﷺ: «**ماذا أبقيتَ لأهلك؟**» أجابه بيقين الصديقين: تركتُ لهم الله ورسوله.

---

(١) انظر: حياة رجالات الإسلام ، ص ٤٢ ـ ٤٣.

١٠ ـ يقظة الضمير والنفس اللوامة:

وكان لأبي بكر حظ وافر من الملكة الروحية؛ وهو ما نسميه اليوم بيقظة الضمير، ومناط الضمير أن يرعى الإنسان حق غيره، وأن يحسن ولا يسيء. وهي خَصْلة كانت ملحوظة في أبي بكر من أيام الجاهلية قبل أن يَدين بالدين الذي يأمر بالخير وينهى عن الشر، ويدعو إلى اتباع الحق واجتناب الباطل، فلما جاء هذا الدين بنى منه على أساس قديم، وبلغتْ به نفسُه قُصارى ما تبلُغه نفس طيبة من رعاية حقوق الناس[١].

ذات يوم جرتْ بينه وبين عمر رضي الله عنهما مقاولةٌ، فأسرعَ إليه أبو بكر بكلام أغضَبَ فيه عمرَ، ثم ندم واعتذر إليه فلم يقبل منه، فأسرعِ إلى النبي ﷺ ولَحِق به عمر، فتمعَّر وجهُ رسول الله ﷺ، حتى أشفَقَ الصديق أن يكون من النبي ﷺ إلى عمر ما يكره، فجَثَا بين يديه ﷺ فقال: (يا رسولَ الله! واللهِ أنا كنتُ أظلَمَ ـ مرتين ـ)!.

وكانت للصديق أرض مجاورة لأرض ربيعة الأَسْلَمي، فاختلفا في عِذْق نخلة، كل منهما يرى أنه في حدّه، فكان بينهما كلام، فقال له أبو بكر كلمة ثم ندم، فقال: ردَّ عليَّ مثلَها حتى تكون قصاصاً، فأبى ربيعة، فأتى النبيَّ ﷺ، فقال له: «**ما لكَ وللصدِّيق؟**» ـ وذكر القصة ـ، فقال: «**أجَلْ فلا تردَّ عليه، ولكن قل: غفر الله لك يا أبا بكر**»، ففعل ربيعة، فولى أبو بكر وهو يبكي!.

ومرَّ به النبي ﷺ وهو يلعنُ بعضَ رقيقه، فالتفتَ إليه وقال: «**لعَّانين**

---

(١) عبقرية الصديق، ص ٣٥.

وصدِّيقين؟ **كلاَّ وربِّ الكعبة»**! فأعتقَ أبو بكر يومئذ بعضَ رقيقه ، ثم جاء إلى النبي ﷺ فقال: لا أعود!.

ورآه أسلمُ مولى عمر آخذاً بطرف لسانه وهو يقول: إنَّ هذا أوردني الموارد.

١١ ـ إيمانه العميق الراسخ:

وهذه الخَصيصة هي أبرزُ خصائصه وأروعُ روائع الإيمان في نفسه ، قد بزَّ فيها كل المسلمين حتى إن إيمانه لو وُزن بإيمان أهل الأرض لرجح بهم!.

فقلبُه وروحه وعقله كلها كانت خالصة لله ولدينه ، قد بلغ من مراتب الإيمان ذروة ذراها وعليا مراتبها ، وحسبك دليلاً على ذلك ما تنزل فيه من قرآن كريم ، وما زكَّاه به النبي ﷺ من الأحاديث الجليلة الكثيرة ، وشهد له المحفوظون من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجلٌ يَسوقُ بقرةً ، فأراد أن يركبَها ، فقالت: إنَّا لم نُخلَقْ لهذا ، إنما خُلِقنا لِيُحرثَ علينا**» فقال مَن حوله: سبحانَ الله! سبحانَ الله! قال رسول الله ﷺ: «**آمنتُ به أنا وأبو بكر وعمر**» ، وما هُما ثَمَّ.

قال العلماء: إنما قال ﷺ: «**آمنتُ به أنا وأبو بكر وعمر**» ـ مع أنهما ليسا في ذلك المجلس ـ ثقةً بهما ، لعلمه بصدقِ إيمانهما، وقوة يقينهما ، وكمالِ معرفتهما لعظيم سلطان الله وكمال قدرته[1].

وحسبك أن النبي ﷺ يضمه إليه ويقرنه بنفسه الشريفة في الإيمان ،

(١) شرح صحيح مسلم ، للنووي: ٨/ ١٧٠.

وهي منزلة كالسماء علوّاً، وكالجبال رسوخاً!.

وإنك لتجدُ في الصديق روحَ النبوة في الثقة التي لا يدانيها ريب، واليقين الذي لا يتطرَّق إليه شك، والإخلاص الذي لا تحوم في حماه شبهة، ويتغلغل في نفسه هذا الإيمان فيملك عليه روحه وعقله، فلا يحيى إلا به، ولا يفكر إلا فيه، فكان إيمانه عند نفسه أعظمَ من نفسه، وماله وولده.

والإيمان العميق الصادق الثابت قد مَلَك على أبي بكر مشاعرَه كلَّها في جميع أطوار حياته منذ اللحظة التي أضاء الله تعالى فيها شعلة الهداية في قلبه على يدي رسوله ﷺ، فكان هذا الإيمان الراسخ الشامخ هو ركيزةَ خصائصه، ومنطلقَ مواقفه، ووقودَ حركاته، وحِجازَ سكناته، وسماءَ تفكيره، وهادي أقواله وأفعاله، ودليلَه الخِرِّيت في مدلهمّات الأمور وفدائح المِحن ومشتبكات الأحداث، يهديه في معتركات الحياة إلى أسلم النتائج وأجمل العواقب لنفسه ودينه والمسلمين، كما سيتجلى لنا بهاؤه في صحائف سيرته التي جلاّها هذا الكتاب.

١٢ ـ الصديقية:

ومن أجلِّ ثمرات ذلك الإيمان العميق العميم: التصديقُ التام العام الراسخ الدائم بكل ما جاء به الرسول ﷺ أو قاله أو فعله أو أمر به أو وجَّه إليه أو حضَّ عليه، وأضحى شعارُه منذ اللحظة التي آمن فيها بالله وصدّق رسولَه: (إن كان قال فقد صدق)! مَن شاء فليبحث وليفكر ولينظر ولينتظر، أما أبو بكر فحسبُ رسول الله ﷺ أن تنفرج شفتاه الكريمتان عن كلمة، أو يحرك لسانه بقول؛ فإذا الصديق يكون منه التصديق الذي ليس كمثله تصديق، واليقين الذي لا يعلوه يقين.

قال ذلك وثَبَت عليه صبيحةَ حادثة الإسراء.

وقالَه وفعَله في أيام الهجرة، وفي نصرته النبيَّ ﷺ ونفقته عليه، واستمر عليه في كل مشاهده وغزواته معه ﷺ.

وتألَّقت الصدِّيقية عندما ألمع النبي ﷺ باقتراب أجله.

وعند وفاته ﷺ حيث طاشت أحلام أولي النُّهى.

وكذلك شهد الناس بل التاريخ والدنيا صديقية الصديق في أيام الردّة، وبعث أسامة، والإبقاء على عمَّال النبي ﷺ...

١٣ ـ ثبات جَنانه ورباطة جأشه:

كثيرون هم الرجال الذين يتصفون بهذه الصفة الجليلة، أما أبو بكر فهو معها وفيها من نمط آخر فذ!.

وهذه الخَصِيصة المركوزة في نفس الصديق كانت ملاصقة له في جميع أطوار حياته ومختلف مواقفه، لكنها تبرز وتتجلى للقريب والبعيد والساذج والأريب في أوقات الشدائد وعند الملمّات.

وأنت تَلْمح ثباتَ قلبه ورباطةَ جأْشِه وسكينةَ نفسه وسدادَ فكره في ساعات الهجرة العصيبة، وهو يدرك الخطر المَهول الذي يتربَّص بمن يصحب رسول الله ﷺ حيث تترصَّده السيوف المرهفة وتطارده الفرسان المارقة التي تحلَّبت أشداقُها للفوز بالجائزة الكبرى التي رصدتْها قريش لمن يأتي بالنبي ﷺ وصاحبه! ثم ما كان منه في الغار ليس هَلَعاً ولا خوفاً إنما خشي على نفس رسول الله ﷺ، فطَمْأَنه ﷺ، وأنزلَ الله سكينته عليه.

وترى كذلك ثباتَ قلبه في غزوة بدر، حيث ينافح عن النبي ﷺ

لا يخشى سيوف المشركين الباترة. وثباتَه في جماعة قليلة مع رسول الله ﷺ في أحد، حيث فرَّ الكثيرون عندما اضطربت الأمور وانقلبت موازين النصر. وأيضاً في حُنين حينما فوجئ المسلمون بالكمائن من هوازن، فكان الصديق مع الثابتين حول النبي ﷺ.

وتتأكد لك القوة النفسية له في تلك الساعة العصيبة والمصيبة الجليلة عندما فُجع المسلمون بوفاة رسول الله ﷺ! مع أنه كان أجدرَ الناس بالأسى والاضطراب لفقدِ النبي ﷺ الذي لم يفارقه طيلةَ ثلاث وعشرين سنة إلا حيث لا يمكن أن يجتمع رجلان! بَيْدَ أن الصديق كان (البوصلة) التي وجَّهت المسلمين كل المسلمين إلى الاتجاه الصحيح، وقال بصوته المحزون: ليس ما يقول ابنُ الخطاب شيئاً، لقد مات رسول الله ﷺ!. ثم تلا الآيات فأيقظَ الغافلين وثبَّت المضطربين في موقف يَدَعُ الحليمَ حيران.

إنها قوة خارقة من جهة، وعجيبة من جهة أخرى، جاءت من رجل عُرف بالرقة والرحمة، فكيف وقد فقدَ أحبَّ الخَلْق إليه الذي كان ملءَ قلبه وسمعِه وبصره، ونورَ روحه؟! أَترى هؤلاء الذين أُصيبوا بما أصيبوا في صادقِ حزنهم على رسول الله ﷺ كانوا يبلغون معشارَ ما كان ينطوي عليه قلبُ الصدِّيق من الحزن على فراق الحبيب[1]؟!.

إنه القلب الثابت والفؤاد الرَّزين الذي يواجه الحقائق بثبات وحزم وعزم، وينأى بصاحبه أن يُذهله نبأٌ فاجع أو تطيش به مصيبة كبرى!.

وتأمَّلْ مرةً بعد مرة تلك (القوة النفسية الباهرة) في أيام الردَّة التي

---

(١) حياة رجالات الإسلام، ص ٧٧.

وصفتها الصدِّيقة الألمعية أم المؤمنين عائشة بقولها: (والله لقد نزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضَها ، وصار أصحابُ محمد ﷺ كأنهم مِعزى مَطيرة في حُشّ في ليلة مَطيرة بأرض مُسْبِعة ، فو الله ما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي بحظها وغنائها وفضلها)[١].

أما الجبال فَلْتضطربْ ولتُهدّ ، ولكن نفس أبي بكر ـ معجزة الله في النفوس ـ لم تعرف الحيرة ولا الجزع ، فقلبُه أثبتُ من الجبال ، وجأشُه لا تُقْلِقه الأرض الممتلئة بالسباع ، فقابَلَ الردَّة بأحزم ما تُقابَل به من مبدئها إلى منتهاها.

انظر الحوادث الجليلة الفاجعة المتلاحقة في أيام قليلة: موت النبي ﷺ ، ويوم سقيفة بني ساعدة ، ووقوع الردّة ، ماذا عساها تفعل بالمسلمين ودولتهم؟!.

إن قوة الإيمان إذا صادفَتْ رجولية حرّكت الجبال الرواسي ، ولو أن ما نزل بالمسلمين في أول خلافة الصديق نزل بأعظم الدول وأقواها لعَصَف بها ، ولكن أبا بكر انتهض للأمر فجدَّد الدين وأرسى قواعده ووجَّه الجيوش بعد ذلك للفتح والهداية[٢].

١٤ ـ صلابته وعزيمته وحزمه عند الشدائد والملمّات والأخطار:

وثبات الجَنَان يُنشئ الصلابة والحزمَ والعزم ، وفي ساعات العسرة وخلال الأزمات الحازِبة كان إيمان أبي بكر يُخرِج خَبْأَه الباهر فيملأ الزمان والمكان والأنفس روعة.

---

(١) **لهاضها**: لكسرها. **الحش**: البستان. **مسبعة**: تكثر فيها السباع.

(٢) حياة رجالات الإسلام ، ص ٨٦.

وصلابةُ أبي بكر وعزيمتُه الصادقة وحزمه الفذّ يتجلى واضحاً فيما شهدَتْه أيامُ خلافته من ضبطه للأمور ، وجدِّه في حفظ البَيْضَة ومجاهدة المُشاقِّين وتسيير دفَّة الإسلام وسط الخطوب المظلمة وأمواج الفتن المتلاطمة ، حتى أرساها إلى مرفأ السلامة والأمن ، ولم يَلحق بربِّه حتى أعاد الإسلامَ أقوى ما كان شوكةً ، وأمنَعَ ما كان جانباً ، وأثبتَ ما كان أساساً. وكل ذلك بثباته أمام الأخطار ، واستصغاره الخُطوب ، وتصميم عزيمته ، ومضائه على الحق[1].

تأمَّلْ صلابته وعزيمته الأخّاذة عند وفاة رسول الله ﷺ ، وهو يقول لعمر الرجل الجَلْد الصلب الحازم الشديد: (على رِسْلِك أيها الحالف)! فسكت عمر ، وتكلم أبو بكر فقال: (ألاَ مَنْ كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت)!.

تلك هي الكلمة القوية السديدة الباهرة التي عبَّرت عن صلابة ذلكم الرجل الذي عُرف في أغلب أحواله بالرقة والرحمة ، لأن الموقف الآن يتطلب صلابة وجلادة مع هول الفاجعة وجَلَل الرُّزْء.

ولم يُوشِك الموقف أن يهدأ حتى تكاد الفتنة تعود جَذَعةً ، ويكاد الاضطراب يتفاقم في أمر آخر جليل الخطر؛ حيث اجتمع الأنصار في (سقيفة بني ساعدة) يريدون أن يبايعوا أحدَهم ليتولّى أمرَ المسلمين بعد رسول الله ﷺ ، فاستنقذ أبو بكر المسلمين من شرّ مستطير ، ووقف بصلابته وحزمه وجلالته وعلمه فأبانَ للجميع أن أمرَ الخلافة في المهاجرين من قريش!.

---

(١) الخلفاء الراشدون ، للنجار ، ص ٢٩.

وعندما أراد المسلمون أبا بكر على أن يوقف زحفَ جيش أسامة ولا يُنْفذه لوجهه ، فلم يَكد يسمع تلك المقالة حتى قال : (والذي نفسُ أبي بكر بيده لو ظننتُ أن السباعَ تخطفني لأنفذتُ بَعْثَ أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ ، ولو لم يبقَ في القرى غيري لأنفذتُه)! .

وتأتي أحداث الردّة لتُضيف بُعْداً آخر أكثر جلالة وأعظمَ دلالةً على صلابة الصديق ، ويعبِّر عن ذلك قوله : (والله لو منعوني عِقالاً مما كانوا يُعطون رسول الله ﷺ ، ثم أقبَلَ معهم الشجرُ والمَدَر والجنُّ والإنس؛ لجاهَدْتُهم حتى تلحق روحي بالله)! وقال : (إنه قد انقطع الوحي وتمَّ الدين ، أيُنْقص وأنا حيّ؟!) .

١٥ ـ الشجاعة والجرأة وخوض الغمرات:

وكانت شجاعته كفاءةَ صِدْقه ، سواء منها شجاعة الرأي وشجاعة القتال . فلما أسلَمَ لم يُبالِ أن يعلن إسلامه وأن يجهر بصلاته ودعائه ، يصيبه في ذلك ما يصيب . ولما وَجَب القتال كان هو أقربَ المقاتلين إلى رسول الله ﷺ في كل غزوة وكل مأزق من مآزق الجِلاَد ، وانهزم كثير من الشجعان في بعض الملاحم الحازبة ، ولم تُذكر له قطُّ هزيمة في ساعة من ساعات الشدة ، ولا ثَبت نفرٌ قطُّ حيث يَصعب الثبات إلا كان هو أول الثابتين[١] .

ومواقفه في مكة أيام محن الدعوة ، وفي الغزوات ، وأيام حروب الردة ، وخروجه بنفسه إلى ذي القَصَّة؛ من أبرز البراهين على شجاعته وجرأته واستخفافه بالغمرات يخوضها غير هيَّاب ولا وَجِل .

(١) عبقرية الصديق ، ص ٣٤ ـ ٣٥ .

وحسبك ما وصفه به علي بن أبي طالب ـ وهو ليث الوغى ـ بأنه أشجع الناس.

١٦ ـ الاتباع الكامل والاقتداء التام الدائم بالنبي ﷺ:

من الأسرار التي تنطوي عليها شخصية أبي بكر، والأُسس التي شُيِّدت عليها عبقريته، وتكمن وراءَ كل رأي يرتئيه أو قرار حاسم يُبرمه: الاتباعُ الكامل لرسول الله ﷺ في هَدْيه وأوامره، وهو من أطيب ثمرات التصديق به ﷺ.

والمتتبِّع لحياته رضي الله عنه يرى هذه الميزة متفردة في شخصيته ومواقفه، كما أنه يتفرد بها عن الصحابة الذين كان التصديقُ والاتباعُ محورَ حركاتهم وسكناتهم وأعمالهم في خدمة الإسلام ونصرته.

خطب الصديق في أول ساعات استخلافه فقال: (إن الله اصطفى محمداً على العالمين، وعَصَمه من الآفات، وإنما أنا متبع ولست بمبتدعٍ)[1].

ومن أبرز المواقف التي تبرهن على استمساك الصديق بهدي النبي ﷺ واستعصامه بأمره وتوجيهاته: موقفُه من إنفاذ بعثِ أسامة، فقد قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي توفي فيه: «**أَنْفِذوا جيشَ أسامة**»، ولمّا أشار الصحابة على أبي بكر بإرجاء إنفاذ الجيش لاحتياجهم إليه فيما دَهَاهُم من أمور المرتدين، وقف وقفته الشامخة وقال: (واللهِ لا أحلُّ عقدةً عقدها رسول الله ﷺ، ولو أنَّ الطيرَ تخطَفُنا، والسِّباع من حول

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٤.

المدينة ، ولو أنَّ الكلابَ جرَّت بأرجل أمهات المؤمنين؛ لأجهزنَّ جيشَ أسامة)[1].

ولمَّا أرسلت السيدة فاطمة الزهراء إلى أبي بكر تسألُه ميراثَها من رسول الله ﷺ ، ممَّا أفاءَ الله عليه بالمدينة وفَدَك وما بقي من خُمس خيبر ، قال: (إن رسول الله ﷺ قال: «**لا نُورَثُ ، ما تركنا صدقةٌ ، إنما يأكلُ آلُ محمد ﷺ في هذا المال**» ، وإني والله لا أغيِّر شيئاً من صدقةِ رسول الله ﷺ عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله ﷺ ، ولأعملنَّ فيها بعمل رسول الله ﷺ).

وفي موقفه من المرتدين قال: (والله لو منعوني عِقالاً كانوا يعطونه رسول الله ﷺ ، لقاتلتُهم عليه).

وعندما استقبل خلافته أقرَّ جميع ولاة النبي ﷺ على ولاياتهم.

وبَلَغ به الاتباع أنه بعد وفاة النبي ﷺ قال لعمر: (انطلِقْ بنا إلى أم أيمن نزورها ، كما كان رسول الله ﷺ يزورها).

والإيمان الراسخ في قلب الصديق ضاعَفَ عنده التأسِّي بالنبي ﷺ فأصبح من عناصر الوجود الحاسمة القاهرة في شخصيته ، والتي أعطَتْه تلك القوة الروحية التي لا سلطانَ لشيء في الحياة عليها ، والتي لا تعرف الضعف ولا التردّد ، ولا يَغلبها لذلك غالب[2]!.

وإنك لتلمس تلك القوة الروحية وكأنها أمر مادي تقع عليه الحواس ، وكانت من الدعائم الراسخة في بنيان دولة الخلافة في عهده ،

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٥؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٠٤.
(٢) الصديق أبو بكر ، لهيكل ، ص ١٣ ، بتصرف.

والتي بهرت التاريخ والمؤرخين في حروب الردة وفتوح العراق والشام وما فيها من أعمال عظام في ومضة من عمر التاريخ الطويل.

١٧ ـ صفات قيادية بارزة نادرة:

جمع أبو بكر شروط الزعامة الإسلامية والتي يمكن جمعها في كلمتين: الجهاد والاجتهاد.

والجهاد: هو بذلُ الوسع وغاية الجهد لنَيْل أكبر مطلوب، طاعة لله ورضوانه، والخضوع لحكمه والاستسلام لأوامره.

والاجتهاد: القدرة على القضاء الصحيح في النوازل والحوادث التي تعرض في حياة المسلمين وفي العالم وفي الأمم التي يحكمها، وفي المسائل التي تفاجئ وتتجدد[١].

ونشير إلى رؤوس الصفات المحورية والأخطر شأناً في قيادة الدولة وسياسة الأمة، والتي كانت بارزة بجلاء في شخصية الصديق، مع ملاحظة أن سياقها في ترتيبها هنا لا يعني أولية السابق على اللاحق:

١ ـ فقه رفيع لرسالة الحكم والخلافة.

٢ ـ الزهد بالقيادة مع الأهلية.

٣ ـ الشورى كانت ركناً مضيئاً في حياته وأعماله.

٤ ـ القدرة على التخطيط البارع.

٥ ـ وضوح الغاية والهدف والسعي لتحقيقه برويّة وثبات.

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١٤٤ ـ ١٤٦، باختصار.

٦ ـ سبقه الأحداث وسرعة الاستجابة لها ، والتفاعل معها بما يكافئ حجمها وخطورتها.

٧ ـ الخليفة في صدر الأحداث في السلم والحرب ، والعسر واليسر ، والليل والنهار.

٨ ـ الحزم والعزم والحسم بعد المشورة وإعداد العدَّة.

٩ ـ الشدة واللين ، والصلابة والهوادة ، حسب الموقف.

١٠ ـ قائد أصيل يعمل لدينه وأمته ووطنه بإخلاص تام وجهد متواصل.

وعظمة شخصية الصديق في قيادته إبان خلافته تتصل بعظمته في صحبة الرسول ﷺ أوثق اتصال ، فهو قد أُشرب أثناء هذه الصحبة روح الدين الذي جاء به النبي ﷺ ، وأدرك مقاصده وأغراضه كاملة إدراك إلهام لا يتطرق إليه الخطأ ولا الريب[١].

وعظمة شخصيته رضي الله عنه تدعو للإجلال والإكبار ، وحسبك أن تتلو ما حدث في عهده من أعمال ضخام في زمن قصير ؛ لتدرك أيَّ رجل امتنَّ الله به على الأمة ليسوسها في أصعب حِقَب تاريخها بعد مصاعب الدعوة في بدء البعثة ، ولتوقن أيَّ رجل كان ذاك الذي امتدحه الله تعالى في قوله: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠] ، وأصرَّ النبي ﷺ أن يؤم الناس في الصلاة مشيراً إلى إمامته الأمة في شؤون الحياة.

---

(١) الصديق أبو بكر ، لهيكل ، ص ١٣.

وما كتبته في هذا الفصل هو ومضات كاشفة استنبطتها وجمعت بين أطرافها بعد أن استوفيت البحث والكتابة عن سيدنا أبي بكر ، وستأتي مبسوطة موسعة مع الأمثلة الكثيرة والشواهد الناطقة في ثنايا الكتاب.

* * *

الباب الثاني

مع رسول الله ﷺ في مكة المكرمة
(من الإسلام إلى الهجرة)

- إسلامه ودوره في البلاغ ونشر الدعوة.
- صحبته النبي ﷺ وحبه له والدفاع عنه.
- إنفاقه الأموال في سبيل الله ونشر الدعوة.
- الهجرة المباركة (مقدمات وأحداث ومواقف وثمرات).

* * *



الفصل الأول
إسلامه ودوره في البلاغ ونشر الدعوة

أولاً: البدايات:

لم يكن إسلام أبي بكر فلتةً عابرة ولا تقليداً مستسلماً ، بل نتيجة رحلة عاقلة ومعرفة مستبصرة لِما يسمعه ويراه ويدور حوله ، في بيئته القريبة ومحيطه البعيد؛ فالرجل كان يمتاز بجملة من الخصائص والمَلَكات العقلية والنفسية والروحية والحياتية تكفل له أن يَزِن الأمور والحقائق والأحداث الكبار بميزانها المستقيم.

فهو عندما أعلن إسلامه كان قد اكتمل له سنُّ الرجولية ، واستوى على قمة مرحلة النضج ، وسلَخ من عمره سبعاً وثلاثين سنة ، وسَبَر أغوار العقائد المنتشرة في مكة وفيافي الجزيرة العربية وأطرافها ، وعَلِم عن كَثَب ما يقوله ويردِّده ويتمناه أعلام الأديان المنتشرة في هاتيك البقاع. ومكّنه من ذلك خصائصُه ومواهبه الشخصية ورحلاته المتلاحقة في أسفاره التجارية في الجزيرة وأطرافها حتى اليمن وبلاد الشام.

يقول أبو بكر: (كنت جالساً بفناء الكعبة ، وكان زيد بن عَمْرو بن نُفيل قاعداً ، فمرَّ به أمية بن أبي الصَّلْت ، فقال: كيف أصبحتَ يا باغيَ الخير؟ قال: بخير ، قال: هل وجدتَ؟ قال: لا ، ولم آلُ من طلب ، فقال:

كــلُّ ديــنٍ يــومَ القيــامــة إلا مـا قضَـى الله فـي الحنيفيّة بـور

أَمَا إن هذا النبي الذي يُنتظر منّا أو منكم أو من أهل فلسطين.

قال: ولم أكن سمعتُ قبل ذلك بنبي يُنتظر ولا يُبعث، فخرجت أريد ورقة بن نوفل - وكان كثير النظر في السماء، كثيرَ همهمة الصدر - قال: فاستوقفتُه، ثم اقتصصت عليه الحديث، فقال: نعم يا ابن أخي، أبَى أهل الكتب والعلماء إلا أن هذا النبي الذي يُنتظر من أوسط العرب نسباً، ولي علم بالنسب، وقومك أوسط العرب نسباً. قال: قلت: يا عمّ، وما يقول النبي؟ قال: يقول ما قيل له: ألا إنه لا ظلمَ ولا تظالم. قال: فلما بُعث رسول الله ﷺ آمنتُ وصدّقْتُ)[1].

وفي خبر طويل رواه ابن عساكر وغيره، عن عبد الله بن مسعود، عن أبي بكر: (أنه خرج إلى اليمن قبل أن يُبعث النبي ﷺ، قال: فنزلتُ على شيخ من الأَزْد عالمٍ قد قرأ الكتب، وعَلم من عِلْم الناس علماً كثيراً، فلما رآني قال: أحسبك حِرْميّاً[2]، قلت: نعم أنا من أهل الحَرَم... قال: أجدُ في العلم الصحيح الزكي الصادق أن نبيّاً يُبعث في الحَرَم، يعاونه على أمره فتى وكَهْل، فأما الفتى فخوَّاضُ غمراتٍ ودفّاع مُعْضِلات، وأما الكهل فأبيض نحيفٌ، على بطنه شامة وعلى فخذه اليسرى علامة، وما عليك أن تريني ما سألتُك، فقد تكاملَتْ لي فيك الصفة إلا ما خَفِي عليّ.

---

(١) ابن عساكر، ص ١٢٣؛ أسد الغابة: ٣/٢٠٦ - ٢٠٧؛ تاريخ الخلفاء، ص ٣٤ - ٣٥.

(٢) هكذا ترد النسبة إلى (الحرم) على خلاف القياس.

قال أبو بكر: فكشفتُ له عن بطني، فرأى شامة سوداء فوق سُرَّتي، فقال: أنت هو ورب الكعبة! وإني متقدِّم إليك في أمر فاحذَرْه، قلت: وما هو؟ قال: إياك والميلَ عن الهدى، وتمسَّكْ بالطريقة الوسطى، وخَفِ الله فيما خوَّلك وأعطاك.

قال أبو بكر: فقضيتُ باليمن أَرَبي، ثم أتيتُ الشيخ لأودِّعه، فقال: أحاملٌ أنت مني أبياتاً قلتُها في ذلك النبي؟ قلت: نعم...) فذكر أبياتاً[1].

وغير ذلك من الأخبار[2] التي تواطأت على أن نبيّاً قد أظَلَّ زمانُه يبعث في العرب، وتجمع إشاراتها على أنه محمد بن عبد الله ﷺ.

وفي مقابلها كان عند الصديق حقائق توازيها في الأهمية والدلالة وتربو عليها في الثبوت واليقين، هي ما يعلمه عن كَثَب من شمائل خليله وصديق عمره محمد بن عبد الله.

فقد كان أبو بكر يرى محمداً ﷺ من بين لِدَاتِه وأقرانه من شباب قريش أكملهم وأزكاهم، فصادقه ولازمه وجعله قدوته. ومحمد ﷺ أكملُ الخليقة نفساً، وأعظمهم خُلُقاً، وأكبرهم قلباً، وأطهرهم روحاً، وأجلُّهم أدباً، وأصدقُهم حديثاً، فطرةَ الله التي فطره عليها، فتآلفا وتحابّا[3].

---

(١) ابن عساكر، ص ١١٩ ـ ١٢٠؛ أسد الغابة: ٣/٢٠٧ ـ ٢٠٨، وتقدم ذكر بعض الأبيات، ص ٧١.
(٢) انظر: ابن عساكر، ص ١١٨.
(٣) حياة رجالات الإسلام، ص ١٩.

وكان يرى فيه ﷺ مثلاً أعلى وقدوة تعدو إلى الثقة التي لا يخالجها شكٌّ ، وذلك لأنه ـ كما ذكر ابن إسحاق ـ قد صاحَبَ رسول الله ﷺ قبل البعثة ، وكان يعلم مِن صِدْقه وأمانته وحسنِ سَجيَّته وكرمِ أخلاقه ، ما يمنعُه من الكذب على الخَلْق ، فكيف يكذب على الله! ولهذا بمجرَّد ما ذكر له أن الله أرسله ، بادر إلى تصديقه ولم يتلعثم[1] .

ثانياً: إسلامه:

تلك الإرهاصات في حياة أبي بكر رسَّخَتْ عنده ما تحقَّقَه من محمد بن عبد الله ﷺ في سِني صداقته الطويلة وملازمته له وإعجابه الباهر به ، فلقد وجده أصفى الناس سريرةً وأطهرهم نفساً ، فكان ذلك صَيقَلَ نفس الصديق ومَغنى أنسه ومرهفَ حسه ، فلم يَكَدْ يَعرض عليه صديقه وصفيُّ نفسه أنه مرسَل من عند الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ حتى أجاب إلى الإيمان فلم يتلجلج ، وأسرع إلى الإسلام فلم يتخلَّج[2] .

روى ابن إسحاق وغيره: أن رسول الله ﷺ قال: «**ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كَبْوَةٌ وتردُّد ونظرٌ ، إلا أبا بكر ، ما عَتَم عنه حين ذكرتُه له ، وما تردَّد فيه**»[3] .

---

(١) البداية والنهاية: ٣/ ٢٧ .

(٢) حياة رجالات الإسلام ، ص ٢٥ .

(٣) أخرجه ابن هشام: ١/ ٢٥٢؛ وابن عساكر ، ص ١٣٣؛ وابن الأثير في أسد الغابة: ٣/ ٢٠٦؛ وعزاه ابن الأثير في جامع الأصول: ٨/ ٥٨٥ لرَزِين. عَتَم: تلبَّثَ وأبطأ.

وقال النبي ﷺ: «**إنَّ الله بَعَثني إليكُم، فقلتُم: كذبتَ، وقال أبو بكر: صَدَقَ، وواساني بنفسه ومالِهِ، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟!**»[1].

وهذا واضح الدلالة في أن أبا بكر بادرَ إلى الإسلام وتصديقِ رسول الله ﷺ بما أُرسل إليه دون تلعثُم ولا تباطؤ.

آمَنَ الصديق رضي الله عنه لحظة دُعي إلى الإيمان، لم يتلبَّث لينظر، ولم يتوقَّف ليفكِّر ويعزم، ولم يتردَّد ليستشير ويستهدي، لأن دلائل صدق النبي ﷺ كانت متوافرة لديه، وكامنة في حنايا نفسه، ممتزجة بحسِّه وشعوره، تملأ قلبه وعقله وروحه[2].

هكذا كان أبو بكر في أول لحظة من دخوله رياض الإسلام، وعلى ذلك بقي طيلة حياته مع النبي ﷺ وفي سِني خلافته، لا يتلعثَم ولا يتردد في المواقف الصعبة والخطوب الداهمة، لأن لديه من إيمانه كشافاً يُميط الحُجب، ويخترق لبَّ الحقائق في مُعتاص المشكلات، فيسبق لعلاجِها مؤيَّداً ببراهين التوفيق لإيمان الصديقين.

ثالثاً: سرور النبي ﷺ بإسلامه:

ولم يكُ شيءٌ أبهجَ لنفس رسول الله ﷺ من إسراع أبي بكر في استجابته لدعوته، فعن أم المؤمنين عائشة قالت: (خرج أبو بكر الصديق يريد رسولَ الله ﷺ، وكان له صديقاً في الجاهلية، فلقيه، فقال: يا أبا القاسم! فُقِدْتَ من مجالس قومك، واتهموك بالعيب لآبائها وأمهاتها، فقال رسول الله ﷺ: «**إني رسول الله، أدعوكَ إلى الله جل وعز**» فلما فرغ

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦١) في حديث طويل سيأتي.
(٢) محمد رسول الله ﷺ، لمحمد الصادق عرجون: ١/ ٥٢٦.

رسول الله ﷺ من كلامه أسلم أبو بكر، فانطلق عنه رسول الله ﷺ، وما بين الأخشبين أحدٌ أكثر سروراً منه بإسلام أبي بكر)[1].

رابعاً: أول من أسلم:

●● وبذلك كان أبو بكر أولَ من أسلم من الناس خارج بيت النبوة، وإلى هذا ذهب جمهور أهل السنة وأئمة الإسلام، وفي طليعتهم حَبر الأمة ابن عباس.

عن الشعبي قال: (سألتُ ابنَ عباسَ: من أول من أسلم؟ فقال: أما سمعتَ قول حسان:

إذا تذكَّرْتَ شَجْواً من أخي ثقةٍ ... فاذْكُرْ أخاكَ أبا بكر بما فَعَلا

خيرَ البريَّة أتقاها وأعدلَها ... بعدَ النبيِّ وأوفاها بما حَمَلا

الثانيَ التاليَ المحمودَ مَشْهَده ... وأوّلَ الناس منهم صدَّقَ الرُّسُلا)[2]

بل هناك ما هو أقوى من ذلك إسناداً، فقد ثَبَتَ عن أبي بكر: أنه قال بسبقه إلى الإسلام في ملأ من الصحابة يوم السقيفة.

عن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: (ألستُ أحقَّ الناس بهذا الأمرِ، ألستُ أوَّلَ مَن أسلَمَ، ألستُ صاحبَ كذا، ألستُ صاحبَ كذا؟!)[3].

---

(١) ابن عساكر، ص ١٣٥، ١٣٨، ١٤١؛ البداية والنهاية: ٣/ ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) أخرجه الحاكم: ٣/ ٦٤؛ والطبري في تاريخه: ٢/ ٣١٤؛ وابن عساكر، ص ١٢٩ ـ ١٣٠؛ ومن طريق آخر عند الفسوي: ٣/ ٢٦٣.

(٣) أخرجه ابن حبان (٦٨٦٣) واللفظ له؛ والترمذي (٣٦٦٧)؛ وصححه الألباني، وقال شعيب الأرنؤوط: رجاله ثقات.

وهذا إجماع من الصحابة رضي الله عنهم على ذلك ، فلم يعترض أحد منهم على قول أبي بكر هذا ، فهو معلوم مشهور عندهم .

وقال يوسف بن يعقوب بن الماجِشون : (أدركتُ أَبي ومشيختَنا : محمد بن المُنْكَدِر ، وربيعة بن أبي عبد الرحمن ، وصالح بن كَيْسان ، وسعد بن إبراهيم ، وعثمان بن محمد الأَخْنَسي ؛ وهم لا يشكّون أن أولَ القوم إسلاماً أبو بكر)[١] .

وأشار ابن كثير إلى حديث البخاري : عن النبي ﷺ قال : «**إنَّ الله بَعَثني إليكم ، فقلتُم : كذبتَ ، وقال أبو بكر : صَدَق**» ، وعقَّب عليه فقال : وهذا كالنص على أنه أولُ من أسلم رضي الله عنه[٢] .

●● وقال آخرون : أول من أسلم خديجة رضي الله عنها .

وقال زيد بن أرقم وجماعة : أول من أسلم علي رضي الله عنه .

وذهب فريق آخر إلى أن أول من أسلم زيد بن حارثة رضي الله عنه[٣] .

قال ابن كثير : (والجمعُ بين الأقوال كلها : أن خديجةَ أولُ من أسلم من النساء ، وأول من أسلم من الموالي زيد بن حارثة ، وأول من أسلم من الغلمان علي بن أبي طالب ، فإنه كان صغيراً دون البلوغ على

---

(١) ابن عساكر ، ص ١٣٢ ، صفة الصفوة : ١/ ٢٣٧ ؛ البداية والنهاية : ٣/ ٢٨ ؛ الإصابة ٢/ ٣٣٥ . وانظر : ابن سعد : ٣/ ١٧١ ـ ١٧٢ ؛ والترمذي (٣٧٣٥) ؛ وابن عساكر ، ص ١٢٨ ـ ١٣٢ .

(٢) البداية والنهاية : ٣/ ٢٧ .

(٣) السيرة ، لابن هشام : ١/ ٢٤٥ ـ ٢٤٩ ؛ تاريخ الطبري : ٢/ ٣٠٩ ـ ٣١٨ ؛ البداية والنهاية : ٣/ ٢٦ ـ ٢٨ ؛ سبل الهدى والرشاد : ٢/ ٤٠٢ ـ ٤٠٧ .

المشهور ، وهؤلاء كانوا إذ ذاك أهلَ البيت ، وأول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، وإسلامه كان أنفعَ من إسلام مَن تقدَّم ذِكْرهم، إذ كان صدْراً معظَّماً ، ورئيساً في قريش مكرَّماً ، وصاحبَ مال ، وداعية إلى الإسلام ، وكان محبَّباً مأْلَفاً ، يبذل المال في طاعة الله ورسوله)[1] .

وقال الحافظ ابن حجر : (اتفق الجمهور على أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال)[2] .

والقول بأسبقيةِ السيدة خديجة وبناتها من سيدنا رسول الله ﷺ إلى الإسلام وأسبقية علي وزيد ، لا يُعارض قولَ جمهور العلماء من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومَن جاء بعدهم من الأئمة بأسبقيةِ الصديق أبي بكر جميعَ البشر إلى ساحة الإيمان برسول الله ﷺ والتصديق برسالته؛ لأن إسلامَ أسرةِ رسول الله ﷺ: زوجه وبناته ، وابن عمه علي ، ومولاه زيد ـ كان إسلامَ الفطرةِ النقية الطاهرة التي وُلِدت في مهد الإيمان ، ونشأت في أحضان النبوة .

أما إسلامُ أبي بكر فكان إسلامَ أولِ رجل حرٍّ مكلَّف ، مدعوٍّ إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ ، والتصديق برسالته ، وكان إسلامُه إسلامَ أول رجل حرٍّ مكلَّف بلَّغه النبي ﷺ رسالةَ ربه ، فهو إسلامُ استجابة لدعوة النبي ﷺ وتبليغه رسالته؛ فأبو بكر رضي الله عنه كان أول مبلَّغ بالرسالة ، وأولَ مدعوٍّ إلى الإسلام ، فأسرعَ إلى تصديق النبي ﷺ دون تلبُّثٍ أو تردُّد .

---

(١) البداية والنهاية : ٣/ ٢٦ .

(٢) الفتح : ٩/ ١٧ شرح الحديث (٣٨٥٧) .

فهو رضي الله عنه فحلُ المِلَّة ، وإمامُ الأمة ، وسيد المسلمين ، وأفضلُ أتباع الأنبياء والمرسلين ، الصديق الأعظم ، آمَنَ بالله ورسوله ، وصدَّق برسالة ربه لحظةَ أن دُعي إلى الإسلام دون سؤالٍ أو توقُّف أو حاجةٍ إلى نظر ، فكان أولَ البشر مدعوّاً إلى الإيمان ، وكان أولَ الناس استجابةً إلى الإسلام ، لم يسبقْه إليه أحد قط[1] .

كان الصديق إذن أولَ رجل من شرفاء العرب دان بالإسلام بعد نبيه ﷺ ، دان به سريعاً ، وكُتب له في اللحظة الأولى أن يكون ثانيَ اثنين حين يكون النبي ﷺ هو أول الاثنين ، فكان ثانيَ اثنين في الإسلام ، وثانيَ اثنين في غار الهجرة ، وثاني اثنين في العريش يوم بدر[2] . . .

وبهذا الطريق في فهم الروايات والأوضاع يصح قول جمهور المسلمين : إن أبا بكر الصديق كان أول الناس إسلاماً[3] .

خامساً: ثمرات إسلامه المباركة:

●● وأبو بكر رضي الله عنه هو المؤمن القوي الذي لم يعرف التاريخ له نظيراً في قوة إيمانه ، وشدة دفاعه عن رسول الله ﷺ ، وتفديته بروحه وبذله نفسَه ومالَه في سبيل عقيدته وإسلامه ، عَرف الحق فلم يستطع كتمانه ، فكان أول من جَهر به على سمع الملأ من طغاة الوثنية[4] .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (كان أولَ مَن أظهرَ إسلامَه

---

(١) محمد رسول الله ﷺ ، لمحمد الصادق عرجون : ١/ ٥١٤ ـ ٥١٨ ، بتصرف .
(٢) عبقرية الصديق ، ص ٧٤ .
(٣) محمد رسول الله ﷺ ، لعرجون : ١/ ٥١٧ ـ ٥١٨ .
(٤) المرجع السابق : ١/ ٥٢٣ .

سبعةٌ: رسول الله ﷺ ، وأبو بكر ، وعمَّار ، وأمُّه سُمَيَّة ، وصُهيبٌ ، وبلالٌ ، والمقدادُ ، فأمَّا رسول الله ﷺ فمَنَعَهُ الله بعمِّه أبي طالب ، وأما أبو بكر فمَنَعَه الله بقومه ، وأما سائرهم فأخذَهم المشركون ، وألْبسوهم أدراعَ الحديد ، وصَهَرُوهم في الشمس. . .)[1].

وبقي بمكة طوال مقامه بها يعمل لدينه ، ولا يعمل لنفسه إلا ما ليس له عنه غنى من طلب المعاش ، حيث يرعى تجارته في حدود ما تحتاج إليه من جهد العارف بمداخلها ومخارجها ، وينفق جُلَّ وقته في صحبة رسول الله ﷺ ، وفي حماية الضعفاء الذين أسلموا ، وفي دفع أذى المشركين عنهم ، وفي دعوة من تلينُ قلوبهم للإسلام ، ويجاهد في سبيل الدعوة إلى دين الله ، ويتلقى عن النبي ﷺ ما يوحي الله إليه لينشره في الناس ، ويبذل من طيب أخلاقه ومن حُرِّ ماله كل ما يستطيع بذلَه ، لخير من أسلم ، ولهداية من لم يسلم.

●● ومنذ أسلم الصديق ملأ دينُهُ عليه نفسَه وقلبه وفكره ووقته ومالَه ، وأُشربت روحه ذلك ، فانطلق يدعو إليه ، وكان دائبَ العمل له مستمر الحركة عميم البركة ، قد حقَّق على وجه فذّ معاني قوله سبحانه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وأَوْلى الناس بهذا الخير أهل بيت الرجل ، فتوجَّه أبو بكر إلى أهله يدعوهم إلى الله تعالى ، فأسلمت زوجتُه أم رومان ، وابنته أسماء[2] ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٥٠)؛ وابن حبان (٧٠٨٣)؛ والحاكم: ٣/ ٢٨٤ ، وغيرهم، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وحسنه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٢) وما يذكره البعض أن عائشة أسلمت في بدء الدعوة ، هو غلط محض ، لأنها ولدت في السنة السادسة للبعثة.

وابنه عبد الله ، وأمه أم الخير ، وخادمه عامر بن فُهيرة ، وأما أبوه أبو قحافة فأسلم عام الفتح كما تقدم.

وكان الصديق مطبوعاً على الحماسة لِما يعتقد فيه الخير والصلاح ، يبدو ذلك من إسراعه إلى التبشير بالإسلام ساعة أن اهتدى إليه ، فدخل في الدين على يديه نخبة من أسبق الصحابة وأخلصهم للنبي ﷺ وأعظمهم أثراً بعد ذلك في قيام الدولة الإسلامية(١).

فانتَهض رضي الله عنه إلى الدعوة يحمل لواءها في ظل رسول الله ﷺ، مشمِّراً في تبليغها ، بعد أن أظهر إسلامه على الملأ ، فجعل يدعو مَن يثقُ به من بيوتات قومه ، فأجاب دعوته واستجاب له في غير تردُّد أو توقف خمسةُ نفر ، كانوا عُمُد الدعوة وركائزَ تبليغ الرسالة(٢).

فأسلم بدعوته عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، جاء بهم إلى رسول الله ﷺ فرادى ، فعَرض عليهم الإسلام ، وقرأ عليهم القرآن ، وأنبأهم بحق الإسلام ، فأسلموا بين يديه.

ثم جاء بعثمان بن مَظْعُون ، وأبي عبيدة بن الجراح ، وأبي سَلَمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم ، فأسلموا كذلك(٣).

فكان هؤلاء الميامين أولَ ثمرة من ثمار الصديق ، والدعامات الأولى

---

(١) عبقرية الصديق ، ص ٦٩ ـ ٧٠.
(٢) محمد رسول الله ﷺ ، لعرجون: ١/ ٥٣٠ ـ ٥٣١ ، باختصار.
(٣) السيرة النبوية ، لابن هشام: ١/ ٢٥٠ ـ ٢٥٢؛ ابن عساكر ، ص ١٢٤ ، ١٣٥؛ البداية والنهاية: ٣/ ٢٩ ـ ٣٠.

التي قام عليها صرحُ الدعوة، والعدَّة الأولى في تقوية جانب الرسول ﷺ، وكانوا أكبر السادة وأكبر القادة في عصر النبوة ثم بعد ذلك في سنوات الخلافة الراشدة.

ولم يكتفِ الصديق في الدعوة والبلاغ بالكلمة والحجة، بل أنفق أمواله في سبيل نشر الإسلام، وشارك الضعفاء والمضطهدين بخلقه النبيل وإنفاقه الجزيل، فراحَ يبذلُ مالَه في استنقاذ العبيد المعذبين وإخراجهم من الرقِّ والاستعباد والعذاب الأليم، إلى ظلال الحرية ورياض الإسلام، فاشترى بلالاً وعامر بن فُهيرة والنَّهدية وغيرَهم من الرجال والنساء، فدخلوا أحراراً كراماً في دين الله، وانضموا إلى ركب الدعوة التي جَمعت أشرفَ شرفاء مكة وعِلْية بيوتاتها والعبيدَ المحرَّرين، حيث التقى الجميع على قدم المساواة في ظلال الإسلام العظيم.

فكان لإسلام أبي بكر ودعوته إلى الله أطيب الثمار وأعظمها بركة، واختاره الله سبحانه منذ لحظات الدعوة الأولى ليجمع بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال والدعوة إلى الله بهما معاً، وليكون بعد رسول الله ﷺ أعظمَ داعية إلى دعوة الحق ورسالة الإسلام.

●● ولم تتوقف دعوة الصديق إلى الإسلام على ما سبق ذكره، بل كان رديف النبي ﷺ في دعوته العامة للقبائل.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (لمّا أمر الله عز وجل نبيَّه ﷺ أن يَعرض نفسه على قبائل العرب، خرج وأنا معه وأبو بكر إلى مِنًى، حتى دَفَعْنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدَّم أبو بكر فسلَّم ـ وكان أبو بكر مقدَّماً في كل خير، وكان رجلاً نسَّابة ـ فقال: ممَّن القوم؟ قالوا: من ربيعة، قال: وأيُّ ربيعة أنتم؟..)، فذكر الحديث

بطوله ، وفيه قال: (ثم انتهينا إلى مجلس عليه السكينةُ والوقار ، وإذا مشايخُ لهم أقدار وهيئات ، فتقدَّم أبو بكر فسلَّم ، فقال لهم: ممن القوم؟ قالوا: من بني شَيْبان بن ثَعْلبة ، فالتفتَ إلى رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنتَ وأمي ، ليس بعد هؤلاء من عزٍّ في قومهم ، وكان في القوم: مَفروق بن عَمْرو ، وهانئ بن قَبيصة ، والمثنَّى بن حارثة ، والنعمان بن شَريك. وكان أقربَ القوم إلى أبي بكر مفروقُ بن عمرو ، وكان مفروق قد غَلَب عليهم بياناً ولساناً ، وكانت له غديرتان تسقطان على صدره ، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر ، فقال له أبو بكر: كيف العددُ فيكم؟ فقال له: إنا لنزيدُ على الألف ، ولن يُغلب ألف من قلَّة. فقال له: فكيف المَنعةُ فيكم؟ فقال: علينا الجُهد ولكل قوم جَدّ. قال أبو بكر: فكيف الحربُ بينكم وبين عدوِّكم؟ فقال مفروق: إنا أشدُّ ما نكون غضباً حين نَلْقىٰ ، وإنا أشدُّ ما نكون لقاءً إذا غضبنا ، وإنا لنؤثِر الجيادَ على الأولاد ، والسلاح على اللِّقَاح ، والنصرُ من عند الله ، يديلنا مرة ويُديل علينا مرة ، لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إنْ كان بَلَغكم أنه رسول الله ، فها هو ذا...) ، ثم دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، وقرأ عليهم القرآن ، وفي آخر الحديث: (ثم نَهَض رسول الله ﷺ قابضاً على يد أبي بكر ، ثم دَفَعْنا إلى مجلس الأوس والخزرج ، فما نهضنا حتى بايعوا رسول الله ﷺ). قال علي: (وكانوا صُدقاء صُبَراءَ ، فسُرَّ رسول الله ﷺ من معرفة أبي بكر بأنسابهم)[1].

---

(١) أخرجه الحاكم؛ وأبو نعيم في «الدلائل»؛ والبيهقي في «الدلائل»؛ وذكره ابن كثير بطوله في البداية والنهاية: ٣/ ١٤٢ ـ ١٤٥؛ والصالحي في سبل الهدى والرشاد: ٢/ ٥٩٦ ـ ٥٩٨؛ والكاندهلوي في حياة الصحابة: ١/ ١٠٠ ـ ١٠٣؛ =

وستمر أمثلة أخرى في ثنايا الكتاب تبين حرص أبي بكر الدؤوب على الدعوة إلى الله تعالى وهداية الناس إلى الإسلام.

* * *

= وذكر الحافظ طرفاً منه في الفتح: ٩/ ٩٢، قبل شرح الحديث (٣٨٨٩)، وحسَّن إسناده.

الفصل الثاني

صحبته النبي ﷺ وحبه له ودفاعه عنه

أولاً: صحبة طويلة مباركة:

لا نزاعَ بين أهل العلم بحال النبي ﷺ وأصحابه أن مصاحبة أبي بكر له كانت أكمل من مصاحبة سائر الصحابة[1]، فقد صَحِب الصديقُ رسول الله ﷺ من حين أسلم إلى أن توفي ﷺ، فلم يفارقه في حضر ولا سفر، إلا فيما أذن له النبي ﷺ في الخروج فيه من حج وغزو، وهاجر معه وترك عياله وأولاده رغبة في الله ورسوله، وشهد معه المشاهد كلها، وكان من تمام نعمة الله تعالى عليه أنه حينما توفي دُفن بجوار حبيبه وخليله ﷺ.

قال الزَّمَخْشريّ: (إن أبا بكر كان مُضافاً لرسول الله ﷺ إلى الأبد، فإنه صحبه صغيراً وأنفق عليه ماله كبيراً، وحمله إلى المدينة براحلته وزادِه، ولم يزل يُنفق عليه ماله في حياته، وزوَّجه ابنته، ولم يزل ملازماً له سفراً وحضراً، فلما توفي دُفن في حجرة عائشة أحبِّ النساء إليه ﷺ)[2].

---

(١) منهاج السنة: ٤/ ٦٠٢.

(٢) خصائص العشرة الكرام البررة، ص ٤١.

وعَقدت الحياة بين الصدِّيق وبين حبيبه رسول الله ﷺ أوثق أواصر الحب ، وسَرَتْ له منه نفحات الإنسانية وغيث الهداية الإلـهية ، فارتفع إلى سماء الإسلام ، فكان أول الناس إيماناً ، وأسبقهم إسلاماً ، وأرسخهم يقيناً ، وأعمقهم حبّاً للنبي ﷺ ، وأشجَعَهم دفاعاً عنه ، وأجلَّهم متابعة له واتباعاً لهديه.

وخلال تلك الصحبة الطويلة المباركة انطبعت في فؤاد أبي بكر وروحه أرفع معاني الإسلام وأروع هدايات النبوة وأخلاق سيد المرسلين.

(انطوى أبو بكر على الإسلام ، لأنه رأى في مرآة آدابه حقيقة نفسه ، ولقِي في سماحته عناصرَ فطرته ، وانطوى الإسلام على أبي بكر؛ لأن شخصيته كانت صورة حية لأرفع تعاليمه وأسمى معاني روحانيته ، فسِيط[1] الإيمانُ بلحمه ودمه ، وامتزج بروحه وعقله ، فباع الصدِّيق نفسه لله سَمْحاً بها رضيّاً ، وغَدَتْ حياته فداءً لرسول الله ﷺ ، ولدين الله ، وغدا مالُه ـ وما هو بقليل المال ـ رفداً في سبيل الله ، وغدا أهلُه وولده ووطنه قرباناً لرضاء الله.

أوذي رضي الله عنه حتى كادت نفسُه تتلَفُ ، فلم يكن له همٌّ في نفسه وحياته ، وإنما كان همّه الأعظم في عافية رسول الله ﷺ وسلامته ، لأن في سلامة الرسول وعافيته حياةَ الإنسانية وتخليصَها من عار الوثنية ، فإن يَهْلِك أبو بكر فإنما هو رجل واحد من الناس يموت كما يموت الناس ، وإن يُصَب رسول الله ﷺ فإنما هو الحق ، والخير ، والهدى ، والنور ،

(١) خلِط ومُزِج.

والبر ، والرحمة ، والعدل ، والإحسان ، تُمحى من سجل الحياة ، فيذوي عودُها ، ويجفّ ماؤها!.

هكذا كان أبو بكر يقدِّر حياته إلى جانب حياة رسول الله ﷺ ، وهكذا أدرك أبو بكر مهمة رسول الله ﷺ في بَعْثته رحمة للوجود)[1].

ثانياً: حبٌّ غامر يؤكِّده فداءٌ بالنفس والنفيس واتباعٌ شامل عميم:

قد عُلِمَ بالتواتر المعنوي: أن أبا بكر كان محبّاً للنبي ﷺ مؤمناً به ، من أعظم الخلق اختصاصاً به ، أعظم مما تواتر من شجاعة عنترة ومن سخاء حاتم ومن موالاة عليّ ومحبَّته له[2].

●● من تلك المواقف الرائعة والتضحيات الجسيمة: ما رواه عروة بن الزبير قال: (سألتُ عبدَ الله بن عَمْرو بن العاص: أخبِرْني بأشدِّ شيءٍ صَنَعَه المشركون بالنبي ﷺ؟ قال: بينا النبي ﷺ يصلي في حِجْر الكعبة ، إذ أقبل عُقبة بن أبي مُعَيْط فوضع ثوبَه في عُنقه فخَنَقَهُ خَنْقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بِمَنْكِبه ودفَعَه عن النبي ﷺ ، قال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ [غافر: ٢٨])[3].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة

---

(١) حياة رجالات الإسلام ، ص ٣٤ ـ ٣٥ ، بتصرف.
(٢) منهاج السنة النبوية: ٤/ ٦٢٦.
(٣) أخرجه البخاري (٣٨٥٦)؛ وأحمد ٢/ ٢٠٤؛ والبغوي (٣٧٤٦) ، وبأطول منه: ابن إسحاق في السيرة: ١/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠؛ وابن حبان (٦٥٦٧)؛ وأحمد: ٢/ ٢١٨ ، وغيرهم.

حتى غُشِي عليه ، فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم ، أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله؟! فتركوه ، وأقبلوا على أبي بكر)[1].

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: (أنهم قالوا لها: ما أشدَّ ما رأيتِ المشركين بَلَغوا من رسول الله ﷺ؟ فقالت: كان المشركون قعدوا في المسجد يتذاكرون رسول الله ﷺ وما يقول في آلهتهم ، فبينما هم كذلك ، إذ أقبلَ رسول الله ﷺ ، فقاموا إليه بأجمعهم ، فأتى الصريخُ إلى أبي بكر ، فقالوا: أدركْ صاحبك! فخرج من عندنا وإن له لغدائرَ أربع ، وهو يقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر:٢٨]؟! فلَهَوا عن رسول الله ﷺ ، وأقبلوا على أبي بكر ، قالت: فرجَع إلينا أبو بكر ، فجعل لا يمسُّ شيئاً من غدائره إلا جاءَ معه ، وهو يقول: تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام!)[2].

زاد ابن إسحاق في رواية أخرى: (لقد رَجَع أبو بكر يومئذٍ وقد صَدَعوا فَرْق رأسه ، ممَّا جَبَذُوه بِلِحْيته ، وكان رجلاً كثيرَ الشعر)[3].

هذا هو الحبّ الغامر ، وتلكم هي التضحية ، وذاكم هو الفداء ، وهذه هي الشجاعة والبطولة وثبات الجَنَان النابض بالإيمان الراسخ!

---

(١) أخرجه أبو يعلى والبزار؛ والحاكم: ٣/ ٦٧ وصححه ووافقه الذهبي؛ وذكره الحافظ في الفتح: ٩/ ١٦ شرح الحديث (٣٨٥٦) وصحح إسناده؛ وهو في مجمع الزوائد: ٦/ ١٧.

(٢) أخرجه أبو يعلى؛ وذكره الحافظ في الفتح: ٩/ ١٦ وحسَّن إسناده؛ وهو في مجمع الزوائد: ٦/ ١٦ ـ ١٧.

(٣) السيرة النبوية: ١/ ٢٩٠. **صَدَعوا**: شقّوا. **الفَرْق**: حيث يتفرق الشعر من مقدَّم الجبهة إلى وسط الرأس.

رجل واحد يتحدى أمة الشرك التي تلاطم عتوُّ كبرائها على نفس النبي ﷺ إرادةَ إتلافها! فأسرع الصديق الأكبر يخوض معركة الصراع بين الإيمان والكفر، والحق مع الباطل، لا يأبَهُ بجمعهم، ولا يلتفت إلى جبابرتهم، ولا يتلجلج أمام بطشهم، ولا يحسب حساباً للآلام والجراح والعذاب، ما دام في ذلك الذَّوْد عن الرسول ﷺ ودفْعُ أي لون من الأذى يصل إلى نفسه الشريفة، فكان أبو بكر أسبقَ الصحابة وأوَّلهم في هذا الميدان الجليل، تماماً كما كان وسيكون الأول في كل خير ومكرمة وفضل.

هذه الشجاعة والتضحية التي طار إليها الصديق في آفاق سماوات سوابقه، فبذل نفسه دون حياة رسول الله ﷺ، وفي سبيل الدعوة الإسلامية في شتى مظاهرها، فكان المثل الأعلى في الدفاع عن العقيدة وحرية الفكر، ومناهضة الشرك الأحمق والتقليد البليد.

ولقد عبَّر عن ذلك ليثُ المشاهد علي بن أبي طالب، وأعلن ذلك في علياء الصدق إبان خلافته.

عن محمد بن عَقيل، عن علي رضي الله عنه: (أنه خَطَبهم فقال: يا أيها الناس، مَنْ أشجعُ الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين، فقال: أمَا إنِّي ما بارزني أحد إلا انتصفتُ منه، ولكن هو أبو بكر! إنَّا جعلنا لرسول الله ﷺ عَريشاً، فقلنا: مَن يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يَهْوي إليه أحدٌ من المشركين؟ فو الله ما دنا منا أحدٌ إلا أبو بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ، لا يَهْوي إليه أحد إلا أهوى إليه، فهذا أشجعُ الناس.

قال: ولقد رأيتُ رسول الله ﷺ وأخذتْه قريش، فهذا يحادُّه، وهذا

يُتَلْتِله ، ويقولون : أنتَ جعلتَ الآلهة إلٰهاً واحداً؟! فو الله ما دنا منا أحدٌ إلا أبو بكر ، يضرب هذا ، ويجاهد هذا ، ويُتلتل هذا ، وهو يقول : ويلكم ، أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟! .

ثم رفع عليٌّ بُرْدة كانت عليه فبكى حتى اخضلَّت لحيتُه ، ثم قال : أنشدُكم الله ، أمؤمنُ آل فرعون خيرٌ أم هو؟ فسكتَ القوم ، فقال علي : فوالله ، لساعةٌ من أبي بكر خيرٌ من ملءِ الأرض من مؤمن آل فرعون ، ذاكَ رجل يكتُم إيمانَه ، وهذا رجل أعلن إيمانه)[1] .

●● وأعظم دلائل الحب لرسول الله ﷺ اتباعُ هَدْيه والاقتداءُ به والتزام أوامره واجتناب نواهيه ، والمسابقة إلى تحقيق توجيهاته ورغباته .

وأبو بكر قد بَلَغ في ذلك شأواً لا يُلحق فيه ، وحلَّق في سماء الاتباع لكل ما أحب النبي ﷺ أو أراده أو رغَّب فيه أو أَمر به أو أشار إليه أو عمل به ، وقد تقدم ذِكر طرف من ذلك[2] ، وستأتي فقرة كاملة[3] لإضاءة هذا الجانب الكبير في حياة الصديق .

ثالثاً: إلحاحه على رسول الله ﷺ في إظهار الدعوة:

عن القاسم بن محمد بن أبي بكر ، عن الطاهرة أم المؤمنين عائشة قالت : (لمَّا اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فكانوا ثمانيةً وثلاثين رجلاً ،

---

(١) أخرجه البزار (٧٦١)؛ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية : ٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢؛ والهيثمي في المجمع : ٩/ ٤٧ وقال : فيه من لم أعرفه؛ والحافظ في الفتح : ٩/ ١٦ ـ ١٧ ، وسكت عليه . **يحاده** : يغاضبه ويعاديه ويخالفه . **يتلتله** : تلتله : حرَّكه وقلقله وزعزعه من مكانه وزلزله .

(٢) انظر : ص ٨٤ ـ ٨٦ في هذا الكتاب .

(٣) انظر : ص ٢٢٨ ـ ٢٣٢ في هذا الكتاب .

ألحَّ أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: «**يا أبا بكر، إنَّا قليل**»، فلم يزل أبو بكر يُلحُّ على رسول الله ﷺ حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرَّق المسلمون في نواحي المسجد، كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيباً، ورسول الله ﷺ جالس، وكان أولَ خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله، وثار المشركون على أبي بكر فضربوه في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووُطِئ، ودنا منه الفاسق عُتْبة بن ربيعة وجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه، ونَـزَا على بطن أبي بكر، وأثَّر على وجهه حتى ما يُعرف أنفُه من وجهه! وجاءت بنو تَيْم تتعادى، فأخلى المشركون عن أبي بكر، وحَمَلت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكّون في موته، ورجعت بنو تيم فدخلوا المسجد فقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلنَّ عتبة! وجاؤوا إلى أبي بكر، فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلِّمون أبا بكر حتى أجاب، فتكلم آخرَ النهار، فقال: ما فَعَل رسول الله ﷺ؟ فمسّوا منه بألسنتهم وعَذَلوه! ثم قاموا، وقالوا لأمِّه أم الخير بنت صخر: انظري أن تطعميه أو تسقيه. فلما خَلَت به وألَحَّت عليه، جعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: والله، ما لي علم بصاحبك! قال: فاذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب ـ أخت عمر ـ فَسَليها عنه..

فخرجتْ حتى جاءت أم جميل، فقالت: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله، فقالت: ما أعرف أبا بكر، ولا محمد بن عبد الله، وإن تحبِّي أن أمضي معك إلى ابنك فعلتُ، قالت: نعم.

فمضَتْ معها حتى وَجدت أبا بكر صريعاً دَنِفاً، فرنَّت أم جميل وأعلنت بالصياح، وقالت: إن قوماً نالوا منك هذا لأهل فسق وكفر،

وإني لأرجو أن ينتقم الله لك ، قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالت: هذه أمك تسمع ، قال: فلا عينَ عليك منها ، قالت: سالم صالح ، قال: فأين هو؟ قالت: في دار الأرقم ، قال: فإن لله عليَّ أَليَّةً أن لا أذوقَ طعاماً أو أشربَ شراباً أو آتي رسول الله ﷺ.

فأمهلتا حتى إذا هدأت الرِّجل وسكن الناس ، خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه على النبي ﷺ ، فأكبَّ عليه رسول الله ﷺ ، وأكبَّ عليه المسلمون ، ورَقَّ له رسول الله ﷺ رقةً شديدة. وقال أبو بكر: بأبي أنت وأمي ، ليس بي من بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أمي برَّة بوالديها ، وأنت مبارك ، فادْعُها إلى الله ، وادْعُ الله لها ، عسى الله أن يستنقِذها بك من النار. قال: فدَعَا لها رسول الله ﷺ ، ثم دعاها إلى الله ، فأسلمتْ.

فأقاموا مع رسول الله ﷺ في الدار شهراً ، وهم تسعة وثلاثون رجلاً ، وكان حمزة بن عبد المطلب أسلم يوم ضُرب أبو بكر)[1].

هذا موقف كثير الدلائل ، جليل الآثار ، جمّ الدروس ، عظيم العِبر ، قد أضاء الصديق به دروباً كثيرة في مسيرة الإسلام وحياة الدعاة وحَمَلة الرسالة الخالدة:

ـ لقد كان أبو بكر أول من ألحَّ على رسول الله ﷺ بإظهار الإسلام وإعلانه ، وذلك قبل إسلام عمر رضي الله عنهما ، وإن كان الناس يظنون

---

(١) ابن عساكر ، ص ١٣٥ ـ ١٤٣؛ البداية والنهاية: ٣/ ٣٠ ـ ٣١؛ سبل الهدى والرشاد: ٢/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩. نزا: وثب. دَنِفاً: دَنِف المريض: اشتدَّ مرضه وأشفى على الموت. فرنَّت: الرنَّة: الصيحة الحزينة. **فلا عينَ**: العين هي الجاسوس. **الأليَّة**: اليمين.

أن عمر أول من ظهر وأول من ضرب المشركين وضربوه ، لِما اشتهر من سيرة عمر وما اختفى من سيرة أبي بكر . على أنك لا تزنُ عمر بواحد من الصحابة إلا رجح به غير أبي بكر . ولم يزل أبو بكر السَّبَّاق إلى كل خير كما قال عمر وعلي رضي الله عنهم أجمعين .

ـ وفيه الحب الغامر العميق الثابت الدائم لنفس رسول الله ﷺ ، فهو لم يذكر آلامه المُمِضّة ، ولم يشتغل بما ناله من بلاء ، ولم يأسف على ما فاته من احترام قريش إياه وإجلالهم قدره ، ولم يكن يعنيه إلا رسول الله ﷺ ، فهو لم يكد يفيق من غشيته لشدّة ما ناله حتى يسأل مُلْحِفاً : ما فعل رسول الله؟ وهو يخشى أن تكون قد أصابتْه أذية ، أو حاق به مكروه .

ـ وفيه الإخلاص الذي ليس بعده إخلاص ، والإيمان الذي لا تزلزله الحوادث ، ولا يلعب به الطمع ، وما كان الصديق يبتغي من رسول الله ﷺ مالاً ، فهو رب أربعين ألف درهم ، ولم يكن يطمع بالجاه والمجد ، فقد كان سيداً في قريش ، وما كان يريد شيئاً من الدنيا ، وما هو إلا الإيمان العجيب ، والسمو بالنفس عن الرهبة والرغبة والعواطف والميول والفناء في الحق ـ وهو أعلى مراتب العظمة والبطولة[1] .

ـ وفيه البر الصادق بوالدته ، فهو لم ينسَ ـ والبلاء يُحيط به ـ أن يدعو إلى الله والدين الذي اعتنقه ، وأَوْلى الناس بذلك أمه ، فتحقق له رجاؤه فأكرمه الله تعالى بإسلامها في أوائل أيام الدعوة . فهو بهذا الموقف يبدؤه

(١) أبو بكر الصديق ، للطنطاوي ، هامش ص ٥٨ ـ ٥٩ .

بدعوة إلى الله ويختمه بدعوة إلى الله ، وبين البدء والختام أعمال جليلة وتضحيات جسام.

ـ وفيه الجرأة والشجاعة مع التوكل الرفيع والاعتصام بجلال الله سبحانه ، حيث يصرُّ الصديق على إفشاء الإسلام وإظهاره وسط طغيان الشرك الطامي ، ولا يأبَه ببأْوِ الوثنية وتجبُّر غطاريف قريش ، فإن الإيمان الذي خالطتْ بشاشتُه القلوبَ لا يَحْفِل بكيدِ العبيد ، ما دام يأوي إلى ركن شديد.

(وفي هذه القصة غير ما قدَّمناه ضروبٌ من مفاخر الصديق الإسلامية:

ـ ففيها أن رؤساء المشركين كانوا يرون في أبي بكر شخصية خطيرة عليهم في مؤازرة رسول الله ﷺ ، وذلك لِما يعرفونه عنه من محاسن الشِّيَم وجليل المناقب ، وسعة الثراء ، ورفيع المكانة ، والشهرة في أحياء العرب؛ مما سيكون له أعظم الأثر في نشر الدعوة الإسلامية ، فكانوا يخصُّونه بأقصى ألوان الأذى ليفتنوه عن دينه ، ولكن هيهات للباطل أن يصمد طويلاً لسطوة الحق وقوة الإيمان!.

ـ وفيها إبانةٌ عن مكانة أبي بكر في قومه بني تَيْم ، وشرفه عندهم ، وعظيم منزلته بينهم ، فقد غضبوا حميَّةً له ، وأقسموا إنْ وقع به شيء ليقتُلُنَّ به عتبة ، وهو من هو في سادة قريش ورؤساء المشركين.

ـ وتتجلَّى فيها خصائص الإيمان الصدِّيقي ، وتظهر معجزة الحب الذي ينسى أمرَّ الآلام؛ فأبو بكر لم يكد يسمع بعافية رسول الله ﷺ حتى ينسى ما حلَّ به ، ويتحامَل على نفسه وعلى أمِّه ليرى رسول الله ﷺ

ويطمئن عليه ، فيرقّ له رقة شديدة ، ويكبّ عليه يقبّله ، ويقبّله المسلمون!.

موقف تعجز أبرعُ الأقلام وأبْينُها ، وأنطقُ الألسنة وأفصحُها ، عن كشف سرائره العاطفية ، وآياته الوجدانية البالغة ، ولكنه مُعَبِّر عن نفسه بصورته وآثاره ، وحسبك أنه سَرَتْ منه نفحةٌ إلى قلب أمِّ الصديق ، وقد جاءت تُسنِد ولدَها ليرى حبيبه ، وهي مشركة ، وعادت معه بدعوة رسول الله ﷺ تمشي في فِجَاج الخُلْدِ إلى عليين!)[١].

وفي أيام الهجرة تتجلّى صور أخرى راسخة في فؤاد التاريخ ، تُخبر كلما أراد المؤمنون والمطلعون أن يَستكْنِهوا معالمَ الحبّ الصدِّيقي لصاحب الرسالة العظمى ، وهي مواقف تُملي على كل مسلم كيف يكون الحبُّ للنبي ﷺ ، كما سنشير إلى ذلك في (الفصل الرابع من هذا الباب)[٢].

رابعاً: مع رسول الله ﷺ صبيحة الإسراء:

عن عروة بن الزبير ، عن عائشة رضي الله عنها قالت: (لمَّا أُسْرِي بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى ، أصبح يتحدَّث الناس بذلك ـ فارتدَّ ناسٌ ممَّن كانوا آمنوا به وصدَّقوه ـ وسَعَوا بذلك إلى أبي بكر ، فقالوا: هل لكَ إلى صاحبك ، يزعمُ أنه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس! قال: أَوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم ، قال: لئنْ كان قال ذلك لقد صَدَقَ ، قالوا: أَوَ تصدِّقُه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يُصبح؟! قال:

---

(١) حياة رجالات الإسلام ، ص ٣١ ـ ٣٣ ، باختصار.

(٢) انظر هذا الفصل اعتباراً من: ص ١٣٠ من هذا الكتاب.

نعم ، إني لأصدِّقُه فيما هو أبعدُ من ذلك ، أُصدِّقُه بخبرِ السماء في غدوةٍ أو روحةٍ. فلذلك سُمِّي أبو بكر : الصديق)[1].

وهذا الموقف من الصديق جارٍ على طبيعته وفطرته وإيمانه الذي لم يكن إيمان صدفة أو فلتة أو عاطفة أو تقليد ، بل إيمان القلب والعقل والمعرفة والفهم الثاقب ، فهو قد عرف محمداً ﷺ منذ يَفَاعه وإلى أن اختاره الله نبيّاً رسولاً ، وآمن به وصدَّقه واتبعه ، وألقى إليه السمع المستبصر والتصديق الراسخ لكل ما يخبر به ﷺ وما يوحى إليه على لسان جبريل من السماء غدوّاً وعشيّاً ، فكيف يتوقف عن تصديقه في هذا الخبر ، وأيُّ بأسٍ في أن يَذهب الله سبحانه بنبيه ﷺ إلى بيت المقدس في بعض ليلة ثم يعود إلى بيته بمكة؟!.

إن الزمان والمكان والبُعد والقُرب من قوانين المادة وقيود البشر بها ، وهو رضي الله عنه قد آمن بالله تعالى الذي بيده ملكوت السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، فما الأزمان والآماد والمسافات والأبعاد أمام مشيئته وقدرته؟! كل ما يريده الصديق هو الاستثبات من أن رسول الله ﷺ قد قال ذلك ، فإن كان قاله فقد صدق!.

هذه الكلمة أضحت منهجاً واضحاً ومبدأ راسخاً في حياة الصديق ،

---

(١) أخرجه الحاكم وغيره؛ وانظر تتمة تخريجه ص ٢٨ حاشية (١) في هذا الكتاب. وجملة (فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه) منكَرة باطلة ، فما كان أحدٌ من المسلمين بمكة يرتدُّ عن دينه ، ولم يذكر أحد من كتاب السيرة اسمَ رجل واحد ممن ارتد ، على كثرة تتبُّعِهم وأهميةِ الحدث. ثم هو مناقض لحديث أبي سفيان مع هرقل : (وسألتُكَ : أَيرتدُّ أحدٌ سَخْطةً لدينه بعد أن يَدخل فيه ، فذكرتَ : أنْ لا). أخرجه البخاري (٧).

وهي جديرة بأن تجعل له في تاريخ الإسلام المكان الذي أَنزله فيه النبي ﷺ في قوله: «**لو كنتُ متَّخذاً من الناس خَليلاً لاتخذتُ أبا بكر، ولكنْ صحبة وإخاء**».

وهي كلمة تُريكَ حكمة الله تعالى ومزيدَ فضله ونعمته ومنّته على أبي بكر، في أن يختاره رسول الله ﷺ صفيّاً له، وصاحباً في الغار والهجرة والمشاهد، وإماماً للناس في حياته، ثم خليفة من بعده، وضجيعاً له في قبره... وقد كان له ذلك المكان المتفرد في التاريخ وفي قلوب المؤمنين.

تلك الصحبة المباركة صنعتْ من أبي بكر رجلاً فذّاً بين الصحابة وفي التاريخ الإنساني، وجعلتْ منه ذلك الخليفة الذي أدهش معاصريه ودارسيه في مواقفه أيام خلافته، وتلك العظمة الفارعة تتصل بأيام الصحبة بحبل وثيق، وترتشف حتى الارتواء من مواقفها التربوية ومَعِينها الذي لا ينضب.

هذه نفحات من حياة الصديق في صحبة النبي ﷺ، فكيف كانت سيرته في بذل المال ـ وهو شقيق الروح ـ وإنفاقه في سبيل دعوته؟ لنتابع المشهد في الفصل التالي.

* * *

الفصل الثالث

إنفاقه الأموال في سبيل الله
ونشر الدعوة

إنفاقُ أبي بكر أموالَه في سبيل الله ونصرة الدعوة وخدمة رسول الله ﷺ أصيلٌ في نفسه أصالةَ صدقه وبذله روحه وأهله دون النبي ﷺ ودعوته ، وصنائعُه في هذه السبيل تكافئ تضحياته بنفسه التي أوضحناها قريباً ، لم يُسَامِه في ذَيْنك الميدانين اللاحبين أحد من الناس حتى فاروق الإسلام عمر! .

وبذلُ المال في ساعات العُسْرة وعند الملمَّات يبرهن على النفس الحانية والروح الشفافة والإحساس المرهف والإيمان الراسخ. . . وإنفاقُ الدراهم القليلة عند اشتباك المِحن يَعدل أضعافَ ما ينفقه المرء في ساعات الرخاء.

والصديق قد حاز الفضيلتين! .

فما قيمةُ مال لا يَعرف المسلم فيه حقَّ المنعم به ، ولا يتسنَّى فيه مواساة الفقراء والمساكين والمضطهدين ، ولا يُعان به على نوائب الحق؟! .

إن حلاوة الإيمان تجعل المال في جانب العقيدة الصحيحة لا يَزِنُ

عند صاحبها شيئاً ، وكذلك كان أبو بكر ، وكذلك كان المؤمنون الصادقون في صدر الإسلام. ولقد أصابَ ابن الدَّغِنَة كبدَ الحقيقة ، ونَطق القدر على لسانه ـ وهو على شِرْكه ـ عندما قال في الصديق: (إنك تَـكْسِبُ المَعدومَ ، وتُعين على نوائب الحقّ).

أولاً: عتقه العبيد وتحريره الأرقاء:

●● رأت قريش عودَ الدعوة الإسلامية يشتد بما ينضم إلى دوحتها من رجالات قريش وشبَّانها وعُبدانها ، فتورَّمت لذلك آنافُ جبابرة الوثنية ، (فعَدَوْا على مَن أسلم واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه ، فوثبتْ كلُّ قبيلة على مَن فيها مِن المسلمين ، فجعلوا يحبسُونهم ويعذِّبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرَمْضَاء مكة إذا اشتد الحر ، مَن استَضعفوا منهم ، يَفْتنونهم عن دينهم)[١].

ونَهَد واهبُ الحريات شيخُ الصحابة الوقور ، الذي عُرِف بين قومه بأنه يَكْسِب المعدومَ ، ويَحمل الكَلَّ ، ويُعين على نوائب الحق ، ويَسيل قلبُه رقة ورحمة على الضعفاء والأرقاء ، فأنفق جزءاً كبيراً من ماله في شراء العبيد ، وعَتَقَهم لله وفي الله ، قبل أن تنزل التشريعات الإسلامية المرغِّبة في العِتْق ، والواعدة عليه أجزلَ الثواب ، ذلكم المحرِّر للعبيد هو صديق هذه الأمة[٢].

عن أم المؤمنين عائشة: (أن أبا بكر أَعْتَقَ سبعة ، كلُّهم يُعذَّب في الله)[٣].

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام: ١/ ٣١٧.
(٢) السيرة النبوية ، لأبي شهبة: ١/ ٣٤٥.
(٣) ابن عساكر ، ص ١٥٧.

وعن عروة قال: (أسلم أبو بكر وله أربعون ألفاً، فأنفقها في سبيل الله، وأعتق سبعة كلهم يُعذَّب في الله: أعتق بلالاً، وعامر بن فهيرة، وزِنِّيرة، والنَّهْدية وابنتها، وجارية بني المُؤمَّل، وأم عُبَيْس)[1].

وكان بلالٌ مولى لبعض بني جُمَح، فكان أميّة بن خَلَف يبالغ في تعذيبه، حتى مرَّ به أبو بكر فاشتراه وأعتقه.

عن قيس بن أبي حازم قال: (اشترى أبو بكر بلالاً وهو مدفونٌ بالحجارة بخمس أواقٍ ذهباً، فقالوا: لو أبيتَ إلا أوقيةً لبعناكَهُ، فقال: لو أبيتُم إلا مئةَ أوقيةٍ لأخذتُه!)[2].

والأوقية تساوي (١١٩) جراماً، فيكون الصديق اشتراه بـ (٥٩٥) جراماً من الذهب.

ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب، **بلال** سابعهم:

- **عامر بن فُهيرة**: شهد بدراً، واستشهد يوم بئر معونة.
- **وأم عُبَيْس**.
- **وزِنِّيرة**: رومية الأصل، من السابقات إلى الإسلام، وكان أبو جهل يعذِّبها.

---

(١) المعرفة والتاريخ: ٣/ ٢٦٣؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٧/ ٤٧٣؛ ابن عساكر، ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/ ٤٤٨؛ وأبو نعيم في الحلية: ١/ ٣٨؛ وابن سعد: ٣/ ٢٣٢، ٧/ ٣٨٥؛ وذكره الحافظ في الفتح: ٨/ ٧٠٧ شرح الحديث (٣٧٥٤) وصححه.

أعتقها أبو بكر ، فأُصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش: ما أذهبَ بصرَها إلا اللاَّت والعزَّى ، فقالت: كَذَبوا وبيتِ الله ، ما تضرُّ اللات والعزى ولا تنفعان ، فردَّ الله إليها بصرها[١] .

ـ وأعتق **النَّهديَّة وابنتَها**: وكانتا لامرأة من بني عبد الدار ، فمرَّ بهما وقد بعثَتْهما سيدتهما بطحَين لها ، وهي تقول: والله لا أُعْتِقكما أبداً ، فقال أبو بكر: حِلّ[٢] يا أم فلان ، فقالت: حِلّ ، أنتَ أفسدْتَهما فأعتِقْهما ، قال: فبكم هما؟ قالت: بكذا وكذا ، قال: قد أخذتهما وهما حُرَّتان ، أَرْجِعا إليها طحينَها ، قالتا: أو نَفْرُغ منه يا أبا بكر ثم نردّه إليها؟ قال: وذلك إنْ شئتما!.

ـ ومرَّ **بجارية بني مؤمَّل** ، وعُمر بن الخطاب يعذِّبها لتترك الإسلام ـ وهو يومئذٍ مشركٌ ـ وهو يضربها ، حتى إذا ملَّ قال: إني أعتذرُ إليك ، إني لم أترُكْكِ إلا ملالة! فتقول: كذلك فعل الله بك. فابتاعها أبو بكر ، فأعتقها[٣] .

ـ **وأبو فُكَيْهة**: مولى صفوان بن أميّة بن خَلَف ، أسلم قديماً ، فربط أميَّة بن خَلَف في رِجْله حبلاً ، فجرَّه حتى ألقاه في الرَّمْضَاء ، وجعل يخنقه ، فجاء أخوه أُبَيُّ بن خلف فقال: زِدْه! فلم يزل على ذلك حتى ظنَّ أنه مات ، فمرَّ به أبو بكر الصديق فاشتراه وأعتقه[٤] .

---

(١) الإصابة: ٤/ ٣٠٥؛ السيرة ، لابن هشام: ١/ ٣١٨.

(٢) **حل**: تحللي من يمينك واستثني فيها.

(٣) السيرة النبوية ، لابن هشام: ١/ ٣١٨ ـ ٣١٩؛ سبل الهدى والرشاد: ٢/ ٤٧٦ ـ ٤٧٨ ، ٤٨٠ ـ ٤٨٣.

(٤) الإصابة: ٤/ ١٥٥.

●● عن قيس بن أبي حازم: (أن بلالاً قال لأبي بكر: إنْ كنتَ إنما اشتريتَني لنفسِك فأَمسِكْني، وإنْ كنتَ إنما اشتريتَني لله فَدَعْنِي وعملَ الله)[1].

وكان ذلك في خلافة أبي بكر، كما وقع صريحاً في رواية ابن سعد: (قال بلال لأبي بكر حين توفي رسول الله ﷺ).

وفي رواية عن قيس قال: (اشترى أبو بكر بلالاً بخمس أواقٍ ثم أَعتقه. قال: فقال له بلال: يا أبا بكر، إنْ كنتَ إنما أَعتقتني لِتتَّخذني خادماً فاتخذني خادماً، وإنْ كنتَ إنما أعتقتني لله فَدَعْني فأعمل لله! فبكى أبو بكر، ثم قال: بل أعتقتُك لله)[2].

وإنما قال بلال رضي الله عنه هذا لأنه استأذن أبا بكر أن يتركه ليلحق بالشام ويجاهد هناك في سبيل الله ويشارك في شرف الفتوحات، فتلطَّف إليه الصديق أن يبقى في المدينة النبوية ليصدحَ بصوت التوحيد في الأذان، ويُبقي في سمائها ذكرى رسول الله ﷺ وصلواته بالمسلمين، فلبَّى بلال رجاءه، ثم خرج في خلافة عمر. وثمّة رواية تقول: إن أبا بكر أذِن له، فخرج لوجهه إلى الشام[3].

وأبو بكر رضي الله عنه كان يقصد في عمله هذا وجه الله سبحانه، ويستنقذ الضعفاء والمعذَّبين من براثن اضطهاد المشركين، فالعبيد

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٥٥)؛ وابن سعد: ٧/ ٣٨٦.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة: ٧/ ٥٣٨، وإسناده صحيح.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد: ٣/ ٢٣٦؛ سير أعلام النبلاء: ١/ ٣٥٦؛ الفتح: ٨/ ٧٠٧ ـ ٧٠٨ شرح الحديث (٣٧٥٥)؛ حياة الصحابة: ١/ ٤٥٦.

والمستضعفون من الناس يستنزلون غيثَ قلوب الرحماء وذوي النفوس الرقيقة والإيمان الرفيع والإنسانية النبيلة ، والصديق يتبوأ ذُروة سَنَام هذه الشمائل ، فأهْلَكَ ماله في هذه السبيل ، ليضمَّ إلى ركب الدعوة ثلَّة من البسطاء ويرتفع بإنسانيتهم التي أرغمتْها بالتراب عُنْجهيّة قريش ، وليحقق في عمله هذا المبدأ السامي الذي رفع لواءه النبي ﷺ في قوله: «**ابْغُوني الضُّعفاءَ ، فإنكم إنَّما تُرْزَقون وتُنصَرون بِضُعَفائِكم**»[1].

لله درُّك أيها الصديق ما أرسخَ إيمانَك ، وما أرفعَ شمائلك ، وما أرقَّ مشاعرك ، وما أكثر سوابقَكَ؛ حيث أقررتَ عينَ رسول الله ﷺ وأعينَ الضعفاء ، وسبقتَ للخيرات قبل نزول التشريعات بها ، وسبقتَ العالم المعاصر بأربعة عشر قرناً قبل أن ينادي بتحرير العبيد وحقوق الإنسان.

كان رضي الله عنه يفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى ، لا يريد مَحْمَدة ولا ثناءً ولا جزاءً ولا شكوراً ولا جاهاً ولا دنيا ، وعندما عبَّر له أبوه عن النظرة الشائعة عند الناس وفي الجاهلية بأن يُعتق أناساً أقوياء مرموقين يمنعونه ويرفدون الدعوة ويقوون جانبها ، أجابه بأنه يبتغي بذلك وجه ربه سبحانه.

عن عبد الله بن الزبير قال: (قال أبو قحافة لأبي بكر: أراكَ تُعْتِق رقاباً ضِعافاً ، فلو أنك إذ فعلتَ ما فعلتَ أعتقتَ رجالاً جُلْداً يمنعونك ويقومون دونك! فقال أبو بكر: يا أبتِ إني إنما أُريد ما أُريد لله

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٩٤)؛ والترمذي (١٧٠٢)؛ والنسائي في الصغرى: ٦/٤٦؛ والكبرى (٤٣٧٣)؛ وابن حبان (٤٧٦٧)؛ والحاكم: ٢/١٤٥، وغيرهم؛ وقال الترمذي: حسن صحيح ، وصححه الحاكم ، والألباني وشعيب الأرنؤوط.

عز وجل ، فيُتحدَّث أنه ما نزلتْ هذه الآياتُ إلا فيه وفيما قال له أبوه: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ إلى قوله عز وجل: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل: ٥ ـ ٢١][(١)].

قال ابن كثير: (وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، حتى إن بعضهم حكى الإجماعَ من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها)[(٢)].

وانظر قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ ، وقوله في شأن الصديق: ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾؛ لترى كيف كان الله تبارك وتعالى حَفِيّاً بالنبي ﷺ وبصاحبه أبي بكر رضي الله عنه!.

ثانياً: مال أبي بكر بين يدي رسول الله ﷺ:

عن الزهري ، عن سعيد بن المسيِّب قال: (كان رسول الله ﷺ يقضي في مال أبي بكر كما يقضي في مال نفسه)[(٣)].

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: (كانت يدُ النبي ﷺ

---

(١) أخرجه ابن إسحاق في السيرة: ١/٣١٩؛ والطبرى في تفسيره (٣٧٤٩٠)؛ والواحدي (٨٥٥)؛ والبزار (٢٢٨٩)؛ والحاكم: ٢/ ٥٢٥ ـ ٥٢٦؛ وابن عساكر ، ص ١٦٠ ـ ١٦٢ ، من وجوه فيها ضعف وبعضها مراسيل ، وبعضها يشد بعضاً وبمجموعها يرتقي الحديث للحسن، وقد صححه الحاكم.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤/٦١٩. وانظر ما سيأتي في هذا الكتاب: ص ٣٤٧ ـ ٣٥٠.

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢٠٣٩٧)؛ وأحمد في الفضائل: ١/ ٧٢ ، وهو مرسل ، ومراسيل سعيد قوية.

في مال أبي بكر ويدُ أبي بكر واحدةً حين حَجّا)[1].

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: (أَنفقَ أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ أربعين ألفاً)[2].

فكان النبي ﷺ يَرى أن مالَ أبي بكر مالُه، ولم يعطِ هذه المنزلة لأحدٍ من أصحابه سوى أبي بكر.

روي: أنه ﷺ لمَّا قدِم المدينة وأراد بناءَ المسجد الشريف، قال: «**يا بني النجار ثامِنوني بحائِطكم**»، قالوا: لا نطلب ثَمنه إلا من الله، فأبى ﷺ ذلك، وابتاعها بعشرة دنانير أدّاها من مال أبي بكر رضي الله عنه، وكان خرج من مكة بماله كله[3].

وقال عروة بن الزبير: (أسلَم أبو بكر وله أربعون ألفاً، فأنفقها في سبيل الله)[4].

وقال زيد بن أَسْلَم: (كان أبو بكر معروفاً بالتجارة، لقد بُعث النبي ﷺ وعنده أربعون ألف درهم، فكان يُعْتِق منها ويقوِّي المسلمين، حتى قدِمَ المدينة بخمسة آلاف درهم، ثم كان يفعل فيها ما كان يفعل بمكة)[5].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ١/ ٣٣.

(٢) أخرجه ابن حبان(٦٨٥٩)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

(٣) سبل الهدى والرشاد: ٣/ ٥٠٠ ـ ٥٠١؛ شرح المواهب، للزرقاني: ١/ ٣٦٤؛ حياة رجالات الإسلام، ص ٤٣ ـ ٤٤.

(٤) أخرجه الفسوي: ٣/ ٢٦٣؛ وابن سعد بأخصر منه: ٣/ ١٧٢.

(٥) أخرجه ابن سعد: ٣/ ١٧٢؛ وابن عساكر، ص ١٥٩.

وفي حديث الهجرة الطويل ـ وسيأتي بتمامه ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت: (فحَبَس أبو بكر نفسَه على رسول الله ﷺ ليصحبَه، وعَلَف راحلتين كانتا عنده ورقَ السَّمُر أربعة أشهر)، وعندما أخبره النبي ﷺ أنه أُذِن له في الخروج والهجرة إلى المدينة، قال أبو بكر: (فَخُذْ بأبي أنتَ يا رسول الله إحدى راحلتيَّ هاتينِ، قال رسول الله ﷺ: «**بالثَّمَن**»).

وعن عبَّاد بن عبد الله بن الزبير، عن جدَّته أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: (لمَّا خَرج رسول الله ﷺ وخَرج أبو بكر معه، احتَمَل أبو بكر مالَه كلَّه معه، خمسةَ آلاف درهم أو ستة آلاف درهم، فانطَلَق بها معه)[١].

ثالثاً: أبقيت لهم الله ورسوله:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (أَمَرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدَّقَ، فوافَقَ ذلك مالاً عندي، فقلتُ: اليومَ أسبِقُ أبا بكر، إنْ سبقتُه يوماً، فجئتُ بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أبقيتَ لأهلكَ؟**» قلت: مثلَه. قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما أبقيتَ لأهلكَ؟**» قال: أبقيتُ لهم اللهَ ورسولَه! قلتُ: لا أُسابقك إلى شيء أبداً)[٢].

وروي أن هذه المسابقة إلى الخير كانت في غزوة تبوك، حيث حضَّ

---

(١) انظر الحديث بتمامه مع تخريجه: ص ١٥٢ حاشية (١) في هذا الكتاب.

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٧٨)؛ والترمذي (٣٦٧٥) وقال: حسن صحيح؛ والحاكم: ١/ ٤١٤ وصححه ووافقه الذهبي؛ والدارمي (١٦٦٠)؛ وابن أبي عاصم في السنة (١٢٤٠). (إنْ): نافية بمعنى ما.

النبي ﷺ على الصدقة ، فجاء الصديق بماله كله وهو (أربعة آلاف درهم)[1].

قال الحافظ: (قال الطبري وغيره: قال الجمهور: مَن تصدَّق بمالِه كلِّه في صحة بدنه وعقله حيث لا دَيْنَ عليه وكان صبوراً على الإضاقة ، ولا عيالَ له ، أَوْ له عيالٌ يصبرون أيضاً: فهو جائز ، فإن فُقِد شيءٌ من هذه الشروط كُرِه)[2].

قلت: قد أقرَّ رسول الله ﷺ أبا بكر على صدقَته بماله كله ، ولكن أين مثل الصديق في رسوخ إيمانه وعميق يقينه وتمام توكله؟! ثم أين مثل أولاده في متابعة أبيهم على نهجه وإقرار عينه بما يفعله في نفسه وماله؟!.

رابعاً: الرسول ﷺ يعلن منَّة أبي بكر عليه إظهاراً لفضيلته:

عن ابن عباس قال: (خَرج رسول الله ﷺ في مرضِه الذي مات فيه عاصِباً رأسَه بِخِرْقةٍ ، فقعدَ على المِنبر ، فحمدَ الله وأثنَى عليه ، ثم قال: **«إنه ليسَ من الناسِ أحدٌ أَمَنَّ عليَّ في نفسه ومالِه من أبي بكر بن أبي قُحافة ، ولو كنتُ متَّخذاً من الناسِ خَليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً ، ولكنْ خُلَّةُ الإسلام أفضلُ ، سُدُّوا عنِّي كل خَوْخَةٍ في هذا المسجد غيرَ خوخةِ أبي بكر»**)[3].

وقوله: «**أمنَّ**» أفعل تفضيل من المنِّ بمعنى العطاء والبذل ، بمعنى:

---

(١) مغازي الواقدي: ٣/ ٩٩٠ ـ ٩٩١؛ سبل الهدى والرشاد: ٥/ ٦٢٨ ـ ٦٢٩.

(٢) الفتح: ٤/ ٤٧٨ ، كتاب الزكاة ، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى.

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٧) ، وغيره ، وسيأتي مع تمام تخريجه: ص ٣٥٧ حاشية (٢) في هذا الكتاب.

إنه أبذل الناس لنفسه وماله ، لا من المنة التي تفسد الصنيعة.

وشرحه الداوودي على أنه من المنة ، وقال: تقديره: لو كان يتوجه لأحد الامتنان على النبي ﷺ لتوجه له. والأول أولى[1].

وهذا من تواضع رسول الله ﷺ أن يقول مثل ذلك في أبي بكر ، وإظهاره محامده أمام الناس ، ويؤيده ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما لأحدٍ عندنا يدٌ إلاّ وقد كافَيْنَاهُ ، ما خَلاَ أبا بكر ، فإنَّ له عندنا يداً يُكافِيه اللهُ بها يومَ القيامة. وما نَفَعني مالُ أحدٍ قطُّ ما نَفَعني مالُ أبي بكر ، ولو كنتُ متَّخِذاً خليلاً لاتَّخذتُ أبا بكر خَليلاً ، ألاَ وإنَّ صاحبَكم خليلُ الله**»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما نَفَعَني مالٌ قطُّ ما نَفَعني مالُ أبي بكر**» ، فبَكَى أبو بكر رضي الله عنه وقال: ما أَنا ومالي إلا لَكَ!.

زاد أحمد في رواية: (فبكى أبو بكر وقال: وهَلْ نَفَعني الله إلا بكَ ، وهل نفعني الله إلا بك ، وهل نفعني الله إلا بك؟!)[3].

وفي حديث أبي الدرداء في قصة مغاضبة أبي بكر وعمر ، قال النبي ﷺ: «**إنَّ الله بَعَثني إليكم ، فقلتُم: كَذَبْتَ ، وقال أبو بكر: صَدَقَ ،**

---

(١) الفتح: ٨/ ٥٧٢ (٣٦٥٤)؛ وشرح صحيح مسلم ، للنووي: ٨/ ١٦٧.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٦١) وقال: حديث حسن غريب ، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٩٤)؛ والنسائي في الكبرى (٨٠٥٦)؛ وأحمد: ٢/ ٢٥٣ ، ٣٦٦؛ وابن أبي عاصم في السنة (١٢٢٩)؛ وابن حبان (٦٨٥٨) ، وغيرهم ، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

وواسَاني بنَفْسِه وماله ، فهلُ أنتُم تاركُو لي صاحبي؟!»[(١)].

والمراد بالمواساة أن صاحبَ المال يجعلُ يدَه ويدَ صاحبه في ماله سواء[(٢)].

وعن ابن عباس رفَعَه: «**ما أحدٌ أعظمَ عندي يداً من أبي بكر: واساني بنفسه ومالِه ، وأنكحني ابنته**» أخرجه الطبراني.

وفي حديث مالك بن دينار عن أنس رفعه: «**إنَّ أعظمَ الناسِ علينا منّاً أبو بكر: زوَّجني ابنتَه، وواساني بنفسه، وإن خيرَ المسلمين مالاً أبو بكر: أَعتق منه بلالاً ، وحَمَلني إلى دار الهجرة**» أخرجه ابن عساكر[(٣)].

وهذه الأحاديث من أعظم الأصول في مناقب أبي بكر وفضائله ، حيث أَظهر النبي ﷺ منزلةَ أبي بكر في نفسه ومكانه في الإسلام ، وألقى في جموع أصحابه تلك الكلمة الخالدة في تعريفهم مكانة الصديق متمثّلة في هذه الإضافة التشريفية في قوله: «**فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟!**» الدالَّة على سرِّ عظمة الصديق ، وفاقاً لقول الله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠][(٤)].

* * *

(١) أخرجه البخاري وغيره ، وسيأتي بتمامه: ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ حاشية (٢) في هذا الكتاب.

(٢) الفتح: ٨/ ٥٩١ (٣٦٦١).

(٣) ابن عساكر ، ص ١٥٣ ، وذكر هذه الأحاديث الحافظ في الفتح: ٨/ ٥٧٢ (٣٦٥٤) وسكت عليها ، وحديث ابن عباس في صحيح الجامع (٥٥١٧).

(٤) حياة رجالات الإسلام ، ص ٤٦.

الفصل الرابع

الهجرة المباركة

مقدمات وأحداث ومواقف وثمرات

أولاً: مقدمات في إرادة أبي بكر الهجرة إلى الحبشة وموقف سيد القارَة:

عن عائشَة رضي الله عنها قالت: (لَمْ أَعْقِلْ أَبَويَّ قَطُّ إلاَّ وهُما يَدِينَانِ الدِّينَ، ولَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إلاَّ يَأْتِينَا فِيهِ رسول الله ﷺ طَرَفَي النَّهَارِ، بُكْرَةً وعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتُلِيَ المُسْلِمُونَ، خَرجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِراً قِبَلَ الحَبَشَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الغِمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ، وَهوَ سيِّد القَارَةِ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرجَني قَوْمي، فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسيحَ في الأرضِ فَأَعْبُدَ رَبِّي.. قالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: إنَّ مِثْلك لا يَخْرُجُ ولا يُخْرَجُ، فإنَّكَ **تَكسِبُ المَعدومَ، وتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَقري الضَّيْفَ، وتُعينُ على نَوَائِبِ الحَقِّ**، وأَنا لكَ جارٌ، فارْجعْ فاعْبدْ ربَّكَ بِبلادِكَ.

فارْتَحَلَ ابنُ الدَّغِنَةِ، فرَجَعَ مع أَبي بَكْرٍ، فطَافَ في أَشْرَافِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فقَالَ لَهُمْ: إنَّ أَبَا بكرٍ لا يَخْرُجُ مِثْلُهُ ولا يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رجُلاً يَكْسِبُ المَعْدُومُ، ويَصِلُ الرَّحِمَ، ويَحْمِلُ الكَلَّ، ويَقْري

الضَّيْفَ ، ويُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ؟! .

فأنْفَذَتْ قُرَيْشٌ جِوَارَ ابْنِ الدَّغِنَةِ ، وآمَنُوا أَبَا بكْرٍ ، وقالُوا لابنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أَبَا بكْرٍ فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ في دَارِهِ ، فَلْيُصَلِّ ، ولْيَقْرَأْ ما شَاءَ ، ولا يُؤْذِينَا بذلِكَ ، ولا يَسْتَعْلِنْ بِهِ ، فإنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا ونِسَاءَنَا.

قال ذلك ابْنُ الدَّغِنَةِ لأبي بَكْرٍ ، فَطَفِقَ أَبُو بَكْرٍ يَعْبُدُ رَبَّهُ في دَارِهِ ، ولا يَسْتَعْلِنُ بالصَّلاةِ ، ولا القِرَاءَةِ في غَيْرِ دَارِهِ ، ثمَّ بدا لأبي بَكْرٍ ، فابْتَنى مَسْجِداً بِفِنَاءِ دَارِهِ وبَرَزَ ، فكانَ يُصَلِّي فِيهِ ، ويَقْرَأُ القُرْآنَ ، فَيتقصَّفُ عَلَيْهِ نِسَاءُ المُشْركينَ وأَبْنَاؤُهُمْ ، يَعْجَبُونَ ويَنْظُرُونَ إِلَيْه ، وكانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلاً بَكَّاءً ، لا يَمْلِكُ دَمْعَهُ حِينَ يَقْرَأُ القُرْآنَ.

فأفْزَعَ ذلكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ المُشْرِكينَ ، فَأَرْسَلُوا إلى ابنِ الدَّغِنَةِ فَقَدِمَ عَلَيهِمْ ، فَقَالُوا لَهُ: إنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ في دَارِهِ ، وإنَّهُ جاوَزَ ذلكَ ، فابْتَنى مسْجِداً بِفناءِ دَارِهِ ، وأَعْلَنَ الصَّلاَةَ والقِراءَةَ ، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا ونساءَنا ، فَأْتِـهِ ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ في دَارِهِ فَعَلَ ، وإِنْ أبى إلاَّ أَنْ يُعْلِنَ ذلكَ ، فَسَلْهُ أَنْ يَـرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ ، فَإِنَّا كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ ، ولَسْنَا مُقِرِّينَ لأبي بَكْرٍ الاستعْلانَ.

قالَتْ عائِشَةُ: فَأَتى ابْنُ الدَّغِنَةِ أَبَا بَكْرٍ ، فَقَالَ: قَدْ عَلِمْتَ الَّذي عَقَدْتُ لكَ عَلَيْه ، فَإِمَّا أَنْ تَقْتَصِرَ عَلَى ذلكَ ، وإمَّا أَنْ تَرُدَّ إليَّ ذِمَّتي ، فإنِّي لا أُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ العَرَبُ أنِّي أُخْفِرْتُ في رَجُلٍ عَقَدْتُ لَهُ. قالَ أَبُو بكرٍ: إنِّي أَرُدُّ إليكَ جِوَارَكَ ، وأَرْضَى بِجوارِ اللهِ. .

ورسول الله ﷺ يَوْمَئِذٍ بمكَّةَ ، فَقالَ رسول الله ﷺ: «**قَدْ أُريتُ دَارَ**

هِجْرَتِكُمْ ، رَأَيْتُ سَبْخَةً ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لابَتَيْن» ، وهُمَا الحرَّتان ، فهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ المَدِينَةِ حين ذَكَرَ ذلِكَ رسول الله ﷺ ، ورَجَعَ إلى المَدِينَةِ بَعْضُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ إلى أرْضِ الحَبَشَةِ ، وتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجراً ، فَقالَ لَهُ رسول الله ﷺ: «عَلَى رِسْلِكَ ، فإنِّي أرْجُو أنْ يُؤْذَنَ لي» ، قالَ أَبُو بَكْرٍ: هَلْ تَرْجُو ذلكَ بأبي أنْتَ؟ قالَ: «نَعَمْ». فَحَبَسَ أبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ على رسول الله ﷺ لِيَصْحَبَهُ ، وعَلَفَ رَاحِلَتين كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ أرْبَعَةَ أَشْهُرٍ)[١].

وفي هذا الحديث ضروب من العلم ، وفنون من الفضائل ، وكثير من الدروس والعبر[٢]:

١ ـ أول ما يَبْدَهُنا في صدر الحديث من حال النبي ﷺ مع أبي بكر وآل بيته ، ومداومة زيارته لهم طرفي النهار في أشد الأوقات عليه وأحرجها ، وذلك يشير إلى ما ذكرناه من اختصاص النبي ﷺ أبا بكر بمودَّته وصداقته قبل النبوة ، فلما جاء الله بأمره إلى رسوله الكريم وقاومته قريش أشد المقاومة ، لم يجدْ في هذا الحرج متنفَّساً إلا بيتَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٩٧) واللفظ له ، وأطرافه في (٤٧٦)؛ وعبد الرزاق (٩٧٤٣)؛ وأحمد: ٦/١٩٨؛ وابن حبان (٦٢٧٧) و(٦٨٦٨)؛ والبيهقي في الدلائل: ٢/ ٤٧١ ـ ٤٧٤ ، وغيرهم.
برك الغماد: موضع بينه وبين مكة خمس ليال مما يلي ساحل البحر. **القارة**: قبيلة مشهورة من بني الهُون ، يُضرب بهم المثل في الرمي ، قال الشاعر: قد أنصف القارة من راماها.

(٢) الإصابة: ٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦؛ الفتح: ٩/ ١١٩ ـ ١٢١ (٣٩٠٥)؛ حياة رجالات الإسلام ، ص ٢١ ـ ٢٢.

أخيه وصاحبه وحبيبه وصفيِّ شبابه أبي بكر يُفْضي إليه ببعض سرّه.

٢ ـ وفيه أن الأذى اشتدَّ بأبي بكر مع مكانته في قومه، فخرج مهاجراً بدينه. وكلما ارتفعتْ منزلةُ الرجل وسادَ في قومه وازداد خطره فيهم واتسع سلطانه في الناس وأثره في المجتمع؛ أصبح مصدرَ قلقٍ على عقائد الوثنية وحُماة الباطل، فيؤجِّج عندهم المناوأة والمقاومة والتنكيل والتعذيب... وهكذا كان شأن أبي بكر.

٣ ـ وفيه أن سيد القارَة ابن الدَّغِنَة أنكر أن مِثل أبي بكر يَخْرج أو يُخْرج من بلده، وأفزعه ذلك معلِّلاً له بذِكْر بعض مناقب أبي بكر، وهي صفات من أفخر مفاخر العرب، وأفضل فضائل الإنسانية. ومن ألطفِ ما في ذلك وأبدعِه أن هذه الأوصاف النبيلة هي نفسها التي وَصفت بها أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها النبي ﷺ في مبدأ الدعوة.

قال ابن حجر في «الإصابة»: (ومن أعظم مناقب أبي بكر أن ابن الدَّغِنَة سيد القارة لمَّا ردَّ إليه جواره بمكة وصفَه بنظير ما وَصفتْ به خديجةُ النبيَّ ﷺ لما بُعث، فتواردا فيهما على نعتٍ واحد من غير أن يتواطأا على ذلك، وهذا غايةٌ في مدحه، لأن صفات النبي ﷺ منذ نشأ كانت أكمل الصفات).

٤ ـ وفيه أن أبا بكر كان مشهوراً معروفاً بين قبائل العرب بالمكارم والفضائل، متصفاً بجِماع الخير والبرّ، حتى إن قريشاً لم تكذب بجوار ابن الدغنة حينما أنكر عليهم إخراجه.

٥ ـ وفيه إبانةٌ عن أثر الإيمان في نفس الصديق ورسوخه أول ما نزل في قلبه، فاستهان بكل التضحيات في سبيله: مِن تحمُّل الأذى، وخَدْش المكانة الرفيعة، والهجرة وترك الوطن والأهل والولد.

٦ ـ وفيه بيان رقَّة أبي بكر وشفافية نفسه وامتزاج خلجات قلبه مع آيات القرآن وهو يتلوها ، حيث لا يملك عينيه من البكاء إذا قرأ القرآن ، لِما يفتح الله عليه من جلائل أسراره ، حتى لقد اشتهر بذلك وعرفَتْه منه قريش واشترطت على ابن الدَّغِنة أن يأمره أن يصلي في بيته معلِّلة ذلك بقولها : فليعبدْ ربَّه في داره ولا يستعلِنْ ؛ فإنا نخشى أن يَفتن نساءنا وأبناءنا ! .

٧ ـ وفيه بيان فعل القرآن الكريم وأثر الإخلاص في تلاوته في أقسى القلوب وأشدها إعراضاً ، حتى إن نساء المشركين وأبناءهم جعلوا يتقذَّفون على أبي بكر يعجبون منه ، وحتى خَشي عليهم منه صناديدُهم .

٨ ـ وفيه تتجلَّى ثقةُ أبي بكر رضوان الله عليه بربِّه عز وجل ، وردُّه جوار ابن الدَّغِنة ، وركونه إلى حماية الله تبارك وتعالى ، ورضاؤه بجواره الكريم .

٩ ـ وفيه أن الهجرة فعل إيجابي كريم ورجولية سامقة ، حيث يضحِّي المؤمن بكل شيء في سبيل حرية العقيدة والعبادة والفكر ، ولو اقتضى ذلك تركَ الأهل والوطن .

ثانياً: الهجرة: أحداث ومواقف:

●● اشتد الأذى بالصديق رضي الله عنه كما اشتد بسائر المؤمنين ، فهاجروا هجرة الفتح والنصر المؤزَّر إلى يثرب ـ حيث المنعة والقوة ـ في سبيل الله ، بإذن من النبي ﷺ ، بعد أن وطَّأ لهم أواصرَ الإخاء مع البَهاليل من الأنصار . وبقي أبو بكر مع نفر قليل من الصحابة بمكة ، فكان ذلك دافعاً لصناديد الكفر إلى اشتداد ضَغينتهم على المؤمنين ،

وقسوتهم في ألوان الأذى بهم خشية أن يَلحقوا بإخوانهم ، وصرفوا أكبر هَمِّهم إلى أبي بكر ، وتفننوا في إيذائه ، ومنعوه القيام بحقوق ربه ، فخشي أن يتحرك له قومه عصبيةً لحميَّتهم فيتفاقم الخطر في غير عائدة على عقيدته ودينه(١).

وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذنُ رسول الله ﷺ في الهجرة ، فيقول له النبي ﷺ : «**لا تعجَلْ ، لعلّ الله أن يجعلَ لك صاحباً**» ، فطمع أبو بكر أن يكون هو صاحبه(٢).

وهذا مظهرٌ من أعظم مظاهر حفاوة النبي ﷺ بالصديق ، واختصاصه بنفسه دون غيره من سائر الناس . وهو أيضاً مظهر من مظاهر تعلُّق نفسِ الصديق بالنبي ﷺ ، وإرادة ملازمته في غدواته وروحاته(٣).

ويروي لنا الإمام البخاري تفاصيلَ الحدث الضخم في حديث طويل ـ قدَّمْنا شطرَه في الفقرة السابقة ـ عن عائشة رضي الله عنها قالت :

(وتَجهَّزَ أبُو بَكْر قِبَلَ المَدينة ، فَقَالَ لَهُ رسول الله ﷺ : «**عَلَى رِسْلكَ ، فإنِّي أَرْجُو أنْ يُؤْذَنَ لي**» .

فقالَ أبُو بكْرٍ : وهَلْ تَرْجُو ذلك بأَبي أنْتَ؟ قالَ : «**نعم**» .

فحَبَسَ أبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلى رسول الله ﷺ ليَصْحَبَهُ ، وعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ ، وهوَ الخَبَطُ ، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ .

قالَ ابْنُ شِهَابٍ : قالَ عُرْوَةُ : قالَتْ عائِشَةُ : فَبَيْنَما نَحْنُ يَوْماً جُلوسٌ في

---

(١) حياة رجالات الإسلام ، ص ٤٧ ـ ٤٨ .
(٢) السيرة ، لابن هشام : ١/ ٤٨٤؛ تاريخ الطبري : ٢/ ٣٦٩ .
(٣) حياة رجالات الإسلام ، ص ٤٨ .

بَيْتِ أَبي بَكْرٍ في نَحْرِ الظَّهيرَةِ ، قالَ قائِلٌ لأبي بَكْرٍ : هذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَقَنِّعاً ، في سَاعَةٍ لَمْ يكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : فِدَاءٌ لَهُ أَبي وأُمِّي ، واللهِ ما جاءَ بِهِ في هذِهِ السَّاعةِ إلاَّ أَمْرٌ .

قالَتْ : فَجَاءَ رسول الله ﷺ فاسْتَأْذَنَ ، فَأُذِنَ لهُ فَدَخَلَ ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ لأبي بَكْرٍ : «**أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ**» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : إنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ ، بَأبي أَنْتَ يَا رسُولَ اللهِ ، قالَ : «**فَإنِّي قَدْ أُذِنَ لي في الخُرُوجِ**» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : الصَّحابَةَ بأَبي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ رسول الله ﷺ : «**نَعَمْ**»[1] .

قالَ أَبُو بَكْرٍ : فَخُذْ ـ بَأبي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ ـ إحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ ، قالَ رسول الله ﷺ : «**بالثَّمَنِ**» .

قالَتْ عائِشَةُ : فجهزْنَاهُما أَحَثَّ الْجِهَازِ ، وصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً في جِرَابٍ ، فَقَطَعَتْ أَسْماءُ بِنْتُ أَبي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا ، فَرَبَطتْ به على فَمِ الجِرَابِ ، فبذلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ .

قالَتْ : ثُمَّ لَحِقَ رسول الله ﷺ وأَبُو بَكْرٍ بغَارٍ في جَبَلِ ثَوْرٍ ، فكَمَنَا فيه ثَلاثَ لَيَالٍ ، يَبِيتُ عِنْدَهُما عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبي بَكْرٍ ، وَهو غُلامٌ شَابٌّ ، ثَقِفٌ لَقِنٌ ، فَيَدَّلِجُ مِنْ عِندِهما بسَحَرٍ ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بمَكَّةَ كَبَائت ، فَلا يَسْمَعُ أَمْراً يُكتَادَانِ بِهِ إلاَّ وَعاهُ ، حَتَّى يَأْتِيَهُما بِخَبَرِ ذلكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلامُ ، ويَرْعى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ مَوْلَى أبي بَكرٍ مِنْحَةً من غَنَمٍ ، فيُرِيحُها عَلَيْهِمَا حينَ تذهَبُ سَاعَةٌ مِنَ العِشَاءِ ، فيبِيتَانِ في رِسْلٍ ، وهو لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا ورَضِيفِهِمَا ، حتَّى يَنْعِقَ بهَا عامِرُ بنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ ، يَفْعَلُ

(١) وفي السيرة ، لابن هشام : ١/ ٤٨٥ زيادة : قالت عائشة : (فو اللهِ ما شعرتُ قطُّ قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيتُ أبا بكر يبكي يومئذ) .

ذلكَ في كُلِّ لَيلَةٍ منْ تِلْكَ اللَّيالي الثَّلاثِ ، واسْتَأجَرَ رسول الله ﷺ وأَبُو بكْرٍ رَجُلاً مِنْ بَني الدِّيلِ ، وَهو مِنْ بَني عَبد بْنِ عَدِيّ ، هَادِياً خِرِّيتاً ، والخِرِّيتُ : المَاهِرُ بالْهِدَايةِ ، قَدْ غَمَسَ حِلْفاً في آلِ العَاصِ بنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ ، وهو عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ ، فَأَمِنَاهُ فَدَفعَا إلَيهِ راحِلتَيهِمَا ، ووَاعدَاهُ غارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثلاثِ ليالٍ ، فأتاهما براحِلَتَيْهِما صُبْحَ ثلاثٍ ، وانْطَلَقَ مَعَهُمَا عامِرُ بنُ فُهَيْرَةَ ، والدَّلِيلُ ، فَأَخَذَ بهِمْ طريقَ السَّواحِلِ)[1] .

ويتابع أبو بكر وصف الأحداث والوقائع التي جرت لهم في تلك الأيام التاريخية والمواقف الفذة ، التي سطرها في نصرة رسول الله ﷺ وخدمته وإعزاز دينه وحمل رسالته ، فيروي البراء بن عازب فيقول :

(اشترى أبو بكر من عازب رحْلاً بثلاثة عشرَ دِرْهماً ، فقالَ أبو بكرٍ رضي الله عنهُ لِعازبٍ : مُرِ البَرَاء فَلْيَحْمِلهُ إلى أَهْلي ، فقالَ لَهُ عازبٌ : لا ، حَتَّى تُحدِّثَني كيفَ صَنَعْتَ أنتَ ورسولُ الله ﷺ حينَ خَرجْتُما منْ مكةَ ، والمُشركون يطلُبُونكمْ ، فقالَ : ارْتَحَلْنا مِنْ مكةَ ، فأحيَيْنَا ليلَتَنا حتى أظهرنا وقامَ قائمُ الظَّهيرةِ ، رَمَيْتُ بِبَصري هَلْ نَرَى ظلاًّ نَأْوي إليه ، فإذا أنا بصخْرةٍ فانْتَهَيْتُ إليها ، فإذا بقيَّةُ ظِلِّها ، فسوَّيْتُهُ ، ثُمَّ فَرَشْتُ لرسول الله ﷺ ، ثُمَّ قلتُ : اضْطَجِعْ يا رسولَ الله ، فاضْطَجَعَ ، ثُمَّ ذَهَبْتُ أَنْظُرُ هَلْ أرى منَ الطَّلبِ أحداً ، فإذا أنا براعِي غَنَمٍ يَسُوقُ غَنَمهُ إلى الصخرة ، يُريدُ منها مثلَ الذي أريدُ ـ يعني الظِّلَّ ـ فسألته فقلتُ : لِمَنْ أنتَ يا غلامُ؟ قالَ الغلامُ : لِفُلانٍ ، رجلٍ مِنْ قريشٍ ، فعرفتُهُ ، فقلتُ : هَلْ في غَنَمِك من لَبَنٍ؟ قالَ : نعم ، فَقُلْتُ : هل أنتَ حالِبٌ لي؟ قال :

---

(١) هذا لفظ البخاري (٣٩٠٥) ، وسبق تخريجه : ص ١٣٢ في هذا الكتاب.

نَعَمْ ، فأَمرتُهُ ، فاعْتَقَل شاةً مِنْ غنمِهِ ، وأمرتُهُ أنْ يَنْفُضَ عنها من الغُبارِ ، ثُمَّ أمرتُهُ أن يَنْفُضَ كفَّيه ، فقالَ هكذا ، فَضَرَبَ إحدى يَدَيْه على الأخرى ، فحلبَ لي كُثْبَةً مِنْ لَبنٍ ، وقدْ رَوَيْتُ معي لرسول الله ﷺ إدَاوةً ، على فمِها خِرْقةٌ ، فَصَبَبْت على اللَّبن حتى بَرَدَ أسفلُهُ.

فانتهيتُ إلى رسول الله ﷺ ، فوافقتُهُ قد استيقَظَ فقلتُ: اشْرَبْ يا رسولَ الله ، فشربَ ، فقلتُ: قدْ آنَ الرَّحيلُ يا رسول الله ، فارتَحَلْنا والقوم يطلبونَنا ، فلمْ يُدْرِكْنا أحدٌ منهمْ غير سُراقةَ بن مالك بن جُعْشُمٍ على فرسٍ لهُ ، فقلتُ: هذا الطلبُ قَدْ لَحِقَنا يا رسولَ الله ، قال: فَبَكَيْتُ ، فقالَ ﷺ: «**لا تَحْزَنْ ، إنَّ اللهَ مَعَنا**» فلمَّا دَنا منا ، وكانَ بينَنَا وبينَهُ قِيدُ رُمْحَينِ أو ثلاثةٍ ، قلتُ: هذا الطَّلَبُ يا رسولَ الله قَدْ لَحِقَنا ، فَبَكَيتُ لَهُ ، قالَ: «**ما يُبْكيكَ؟**» قلتُ: أَمَا واللهِ ما عَلى نَفْسِي أبكي ، ولكنْ أبكي عليكَ ، فدعا عليه رسول الله ﷺ ، وقالَ: «**اللهُمَّ اكفِنَاهُ بما شئتَ**» قالَ: فَساخَتْ بِهِ فرسه في الأرضِ إلى بَطْنها ، فوثَبَ عنها ثُمَّ قالَ: يا محمَّدُ ، قد علمتُ أنَّ هذا عملك ، فادْعُ الله أنْ يُنجيني مما أنا فيه ، فوالله لأعَمِّيَنَّ على مَنْ ورائي مِنَ الطَّلَبِ ، وهذه كِنانتي فخذ منها سَهْماً ، فإنكَ سَتَمرُّ على إبلي وغَنَمي في مكان كذا وكذا ، فخُذ منها حاجَتَك ، فقالَ رسول الله ﷺ: «**لا حاجَةَ لنا في إبلِكَ**» ، ودعا لَهُ رسول الله ﷺ ، فانْطَلَقَ راجعاً إلى أصحابه.

وَمَضَى رسولُ الله ﷺ حتى أتينا المدينة لَيلاً ، فتنازَعه القومُ أيُّهم يَنزلُ عليهِ رسول الله ﷺ ، فقالَ رسول الله ﷺ: «**إنِّي أنزلُ اللَّيلَةَ على بَني النَّجَّارِ أَخْوالِ عَبْدِ المُطَّلبِ ، أكرِمُهُمْ بذلكَ**» ، فخرجَ النَّاسُ حينَ قَدِمنا المدينةَ في الطُّرقِ وعلى البيوت مِنَ الغلمانِ والخدمِ يقولُونَ: جاءَ

محمدٌ ، جاءَ رسول الله ﷺ ، فلما أصبحَ انْطَلَقَ ، فَنَزلَ حيثُ أُمِرَ)[1] .

ويكمل أنس بن مالك تبيانَ جانب آخر من هذا الحدث الجليل ، وكيف وصل الركب الميمون إلى المدينة المنورة ، فيقول :

(أقبلَ نَبيُّ الله ﷺ إلى المَدينَةِ وهوَ مُردفٌ أبا بَكرٍ ، وأبُو بَكرٍ شَيخٌ يُعرَفُ ، ونَبيُّ الله ﷺ شَابٌّ لا يُعرفُ ، قالَ : فَيلَقى الرَّجُلُ أبَا بَكرٍ فيقُولُ : يَا أبا بَكرٍ ، مَنْ هذا الرَّجُلُ الذي بَين يَديكَ؟ فيَقُولُ : هذا الرَّجُلُ يَهديني السَّبيلَ . قالَ : فيحسِبُ الحَاسِبُ أنَّهُ إنَّما يعني الطَّريقَ ، وإنَّما يعني سبيلَ الخيرِ . فالْتَفتَ أبُو بَكرٍ فإذا هُو بِفارسٍ قدْ لحقَهُمْ ، فقَالَ : يَا رَسُول اللهِ! هذا فارسٌ قَدْ لحِقَ بنا . فالتَفتَ نَبيُّ الله ﷺ فقَالَ : «**اللَّهمَّ اصْرَعْهُ**» فصَرعَهُ الفَرَسُ ، ثُمَّ قامَتْ تُحَمْحِمُ ، فقالَ : يا نَبيَّ اللهِ ، مُرني بِمَا شِئتَ ، قالَ : «**فَقِفْ مَكانَكَ ، لا تَتْرُكَنَّ أحداً يَلْحَقُ بنَا**» قالَ : فكانَ أوَّلَ النَّهَارِ جاهِداً على نَبيِّ الله ﷺ ، وكانَ آخِرَ النَّهارِ مسْلَحَةً لَهُ .

فنَزلَ رَسُولُ الله ﷺ جانِبَ الحَرَّةِ ، ثمَّ بَعثَ إلى الأنْصارِ فجاؤُوا إلى نبيِّ الله ﷺ وأبي بَكْر فسَلَّمُوا عَليهِمَا ، وقالُوا : ارْكَبَا آمِنَينِ مُطَاعَيْنِ . فرَكِبَ نَبيُّ الله ﷺ وأبُو بَكرٍ ، وحَفُّوا دُونَهُما بالسِّلاحِ ، فَقِيلَ في المَدينَةِ : جَاءَ نَبيُّ اللهِ ، جاء نبيُّ الله ﷺ ، فَأَشْرَفوا ينظرونَ ويقولون : جاءَ نبيُّ الله ، جاءَ نبيُّ الله . فأقبلَ يسير ، حتى نزلَ جانبَ دارِ أبي أيوب)[2] .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٥) وأطرافه في (٢٤٣٩)؛ ومسلم (٢٠٠٩) بعد الحديث (٣٠١٤)؛ وابن سعد: ٤/ ٣٦٥ ـ ٣٦٧؛ وأحمد: ١/ ٢ ـ ٣؛ والفسوي في المعرفة والتاريخ: ١/ ٢٣٩ ـ ٢٤١؛ وابن حبان (٦٢٨١) و(٦٨٧٠) وهذا لفظه ، والبيهقي في الدلائل: ٢/ ٤٨٤ ، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩١١) واللفظ له؛ وأحمد: ٣/ ٢١١.

وعن أنس ، عن أبي بكر رضي الله عنه قال: (قلتُ للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أنَّ أحدَهم نظر تحت قدمَيْه لأبصَرَنا ، فقال: «**ما ظَنُّكَ يا أبا بكر باثنينِ اللهُ ثالثُهما؟!**»)[(١)].

●● عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ . .﴾ [الأنفال: ٣٠] ، قال: (تشاورتْ قريشٌ ليلةً بمكة ، فقال بعضهم: إذا أصبح فأَثْبِتوه بالوَثاق ، يريدون النبيَّ ﷺ ، وقال بعضهم: بل اقْتُلوه ، وقال بعضهم: بل أَخْرِجوه ، فأَطْلَع اللهُ عز وجل نبيَّه على ذلك. فبات عليٌّ على فراش النبي ﷺ تلك الليلة ، وخرج النبي ﷺ حتى لَحِقَ بالغار ، وبات المشركون يحرُسون عليّاً ، يَحْسِبونه النبي ﷺ ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوا عليّاً ردَّ الله مكرهم ، فقالوا: أينَ صاحبُك هذا؟ قال: لا أدري. فاقتصُّوا أثرَه ، فلما بَلَغوا الجبل اختَلط عليهم الأمر ، فصَعَدوا في الجبل ، فمرُّوا بالغار فرأوا على بابه نَسْجَ العنكبوتِ ، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسجُ العنكبوت على بابه. فمكث فيه ثلاث ليال)[(٢)].

وذكر ابن إسحاق وموسى بن عُقْبة: أن النبي ﷺ وصاحبه انتهيا إلى الغار ليلاً[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٣) واللفظ له؛ ومسلم (٢٣٨١)؛ والترمذي (٣٠٩٦)؛ وأحمد: ١/ ٤؛ وابن حبان (٦٢٧٨)؛ و(٦٨٦٩) ، وغيرهم.

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٩٧٤٣) في حديث طويل؛ وأحمد: ١/ ٣٤٨؛ وحسنه ابن كثير في البداية والنهاية: ٣/ ١٨١؛ والحافظ في الفتح: ٩/ ١٢٦ (٣٩٠٥).

(٣) السيرة النبوية ، لابن هشام: ١/ ٤٨٦؛ البداية والنهاية: ٣/ ١٧٩ ، ١٨٣.

وخرجا من خَوْخَة[1] في ظهر بيت أبي بكر يوم الإثنين ، وكَمنا في الغار ثلاث ليال ، ووصلا المدينة النبوية يوم الإثنين من شهر ربيع الأول ، وذهب الكثيرون إلى أن وصولهما في الثاني عشر منه.

قال الحاكم: تواترت الأخبار أن خروجه ﷺ كان يوم الإثنين ، ودخوله المدينة كان يوم الإثنين[2].

وقال ابن كثير: والظاهر أن بين خروجه ﷺ من مكة ودخوله المدينة خمسة عشر يوماً[3].

ثالثاً: مواقف صِدِّيقية:

في هذه الأحاديث من ضروب التدبير والإعداد ، والبطولة والفداء والتضحية ، والأدب والمعرفة؛ ما يجعلنا نقف معها لنزيدها تبييناً وتوضيحاً ، لتكون للمؤمنين تبصرة وذكرى ، وللعاملين منار هداية وإرشاد ، وللمصلحين خير أسوة.

كان أبو بكر رضي الله عنه قد حَبَس نفسه على رسول الله ﷺ انتظاراً لصحبته في هجرته ، بعد أن قال له ﷺ: «**على رِسْلِك ، فإني أرجو أن يُؤْذَن لي**» ، وأعدَّ الصديق لهذا الحدث من العدَّة ما يليق بخطورته وجلالته ، فعَلَف راحلتين نَجيبتين كانتا عنده ورق السَّمُر أربعة أشهر

---

(١) هي باب صغير في ظهر البيت.

(٢) انظر الأقوال في تاريخ الهجرة خروجاً من مكة ودخولاً المدينة في: الفتح: ٩/ ١١٤ ـ ١١٥ ، ١٢٥ ـ ١٢٦ ، ١٣٥ ، مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

(٣) البداية والنهاية: ٣/ ١٩٠ ، وانظر: ص ١٧٧.

لتصبرا على وَعْثاء السفر. واستنفر أهلَ بيته وأعدَّ لكل مهمته: **فابنُه عبد الله** يتنطَّس الأخبار وما تَكيد قريش به النبي ﷺ وصاحبه، فيبيت عندهما ثم يخرج مع السَّحَر إلى مكة ولا يفطن به أحد. **وعامر بن فُهيرة** يرعى غنمه ويُعفِّي آثارَ عبد الله، ويريح عليهما ليشربا من اللبن. **وأسماء** تجهز لهما الطعام، وكتم الخبر عن كل أحد غيرهم.

ـ واحتمل معه مالَه كلَّه لينفقه على النبي ﷺ وعلى نفسه، تقول أسماء: احتمل أبو بكر ماله كله معه: خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف، فانطلق بها معه.

ـ وكان الصديق يدرك مخاطر الهجرة مع رسول الله ﷺ، حيث عَلِم شدة وطأة قريش وحَنَقها على الذين سبقوا بالهجرة إلى المدينة، وسعيها في مَنْع من استطاعت مَنْعَه لتُبقيه في مكة وتنكِّل به، وأعدَّت لكل مهاجر من الأرصاد والعيون كفاءَ قدْره.

وقد علم أبو بكر أن ملأ الكفر اجتمع في دار النَّدوة يأتمرون بالنبي ﷺ ليقتلوه، فمن يصحبه في هجرته سيكون له نفس المآل، لأن قريشاً ستملأ السهل والجبل بفرسانها، وتقتفي الخُطا والآثار للظفر بالنبي المهاجر! وبقي الصديق يتهلَّل لتلك الصحبة وينتظرها بغِبْطة، بقي كما هو شأنه دائماً ثابتَ الجَنَان، مُقدماً على بذل كل شيء في سبيل دينه، وشاعت البهجة في أنحاء نفسه موقناً أن له الشرف الباذخ بأن يصحب رسول الله ﷺ في هذه المرحلة الفاصلة من تاريخ الرسالة.

إنه يعلم أن تلك الصحبة تعني الوقوفَ بين فَكَّي المَنيَّة، كذلك فإنه يوقن يقيناً لا يخامِره الرَّيب أن النبي ﷺ ناجٍ بحماية الله وعصمته حتى يَبلُغَ

الكتابُ أجلَه . . . لذا تلقَّى خبر الصحبة في الهجرة بالفرح كأنما يُبشَّر بالفوز والسلامة ، كما قالت عائشة : (فو الله ما شعرتُ قطُّ قبلَ ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح ، حتى رأيتُ أبا بكر يومئذ يبكي من الفرح)[1] !.

ـ وهذه الأحاديث تنشُر لأبي بكر خفايا قلبه ، وتُعلن ظواهر أعماله ، والتي تجلَّت في خوفه على النبي ﷺ وإشفاقاته عليه ، خشية أن يمسه مكروه أو يصيبه أذى .

عن أنس قال : (لمَّا كان ليلةُ الغار ، قال أبو بكر : يا رسول الله! دَعْني فلأدخل قَبْلك ، فإن كانتْ حيَّة أو شيء كانت بي قبلك ، قال : **«ادخل»**. فدخل أبو بكر ، فجعل يلتمس بيديه فكلما رأى جُحْراً جاء بثوبه فشَقَّه ثم أَلْقَمه الجُحْر ، حتى فعل ذلك بثوبه أجمع . قال : فبقي جُحْر ، فوَضَع عَقِبه عليه ، ثم أدخلَ رسول الله ﷺ)[2] !.

ومن مرسَل محمد بن سيرين : (أن أبا بكر ليلةَ انطَلَق مع رسول الله ﷺ إلى الغار ، كان يمشي بين يديه ساعة ، ومن خلفه ساعة ، فسألَه ، فقال : أذكُر الطَّلَبَ فأمشي خلفك ، وأذكُر الرَّصَد فأمشي أمامك! فقال : **«لو كانَ شيءٌ أحببتَ أن تُقتل دوني؟»** قال : إي والذي بعثك بالحق . فلما انتهيا إلى الغار ، قال : مكانَكَ يا رسول الله حتى أَسْتبرِئ لك الغار ، فاستبرَأه)[3] .

---

(١) تاريخ الطبري : ٢/ ٣٧٨ .

(٢) الحلية : ١/ ٣٣ ؛ صفة الصفوة : ١/ ٢٤٠ .

(٣) أخرجه البيهقي في «الدلائل» ؛ والحاكم : ٣/ ٦ وصححه ووافقه الذهبي ؛ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية : ٣/ ١٨٠ ؛ والحافظ في الفتح : ٩/ ١٢٧ (٣٩٠٥) .

وذكر أبو القاسم البغوي من مرسَل ابن أبي مُلَيْكَة نحوه ، وذكر ابن هشام من «زياداته» عن الحسن البصري بلاغاً نحوه[1] .

وفي «مغازي عروة بن الزبير» في قصة الهجرة قال : (وأتى المشركون على الجبل الذي فيه الغار الذي فيه النبيُّ ﷺ ، حتى طَلَعوا فوقه ، وسمع أبو بكر أصواتهم ، فأقبل عليه الهَمُّ والخوفُ ، فعند ذلك يقول له النبي ﷺ : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ ، ودعَا رسول الله ﷺ : فنزلَتْ عليه السكينة ، وفي ذلك يقول الله عز وجل : ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾)[2] .

وفي الطريق وقد لَحِق بهم سُراقة بن مالك ، يقول أبو بكر : (فقلتُ : هذا الطَّلَب قد لَحِقنا يا رسول الله! قال : فبَكَيْتُ! فقال ﷺ : «**لا تحزنْ ، إنَّ الله مَعَنا**» . فلما دنا منّا وكان بيننا وبينَه قِيد رُمحينِ أو ثلاثةٍ ، قلتُ : هذا الطلب يا رسول الله قد لَحِقنا ، فبكيتُ له ، قال : «**ما يُبْكيكَ؟**» قلتُ : أمَا والله ما على نفسي أبكي ، ولكن أبكي عليك! فدَعَا عليه رسول الله ﷺ ، وقال : «**اللهمَّ اكْفِناهُ بما شئتَ**») .

والصِّدِّيق يفعل هذا كله فدًى للنبي ﷺ ، ولم يكن له همٌّ في حياته ونفسه ولو تَلِفتْ وأُزهقت ، وإنما كان همُّه الأعظم في عافية رسول الله ﷺ وسلامته ، فإن يَهلِك أبو بكر فإنما هو رجل واحد يموت كما يموت الناس ، وإن يُصَبْ رسول الله ﷺ فإنما هو الحق والخير والهدى والنور والرحمة والعدل ، تُمحى من سجلِّ الحياة! .

---

(١) البداية والنهاية : ٣/ ١٧٩ ـ ١٨٠ ؛ الفتح : ٩/ ١٢٧ .

(٢) الفتح : ٨/ ٥٦٩ (٣٦٥٣) ، ويؤيده الحديث المتقدم ص ١٤٠ حاشية (١) في هذا الكتاب .

ومضَى الصديق في هجرته إلى الله تعالى رفيقاً لرسول الله ﷺ ، يرتادُ له المنازل إذا حَلَّ ، ويَخْبُر له خبر الطريق إذا ارتحل ، ويسهر عليه إذا نام ، ويخدُمه إذا استيقظ ، ويردُّ السائلين عنه بألطف جواب ، حتى يأمَنَ عليه الطَّلَب ، وينجو وإياه من الدَّرَك ، فراراً بدين الله من وجه البغي والعدوان[1].

ـ **وانظر تلك الآداب الصديقية مع مقام النبوة:**

● فعندما جاء رسول الله ﷺ في نَحْر الظهيرة ليخبر الصديق خبر الهجرة ، قال أبو بكر : (فداءٌ له أبي وأمي ، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمرٌ) ، فجاء ﷺ فقال له : «**أَخْرِجْ مَن عندك**» فقال أبو بكر : (إنما هُمْ أهلُكَ بأبي أنت يا رسول الله) قال : «**فإني قد أُذِن لي في الخروج**» فقال أبو بكر : (الصحابةَ بأبي أنت يا رسول الله؟) قال ﷺ : «**نعم**» ، قال أبو بكر : (فَخُذْ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتيَّ هاتين).

في موقف واحد يُفدّي أبو بكر رسول الله ﷺ بأبيه وأمه أربع مرار! .

(وفي هذا الخبر يتمثل فنٌّ من فنون أدب الخِطاب ، وأدبُ الحب الروحاني ، فما يكاد أبو بكر يخاطب رسول الله ﷺ إلا وهو في خطابه يفديه بأبيه وأمه تعظيماً لقدْرِه العظيم! فأين منا هذه القدوة فيما ابتدعناه في أساليبنا المتحدثة عن رسول الله ﷺ وأصحابه ، حتى أصبح أقربُنا إلى التأسي مَن (يصلعم) أو يكتفي مشيراً إلى هذه (الصلعمة) بحرف (ص)؟! فما أحوجَ المسلمين إلى إشعار قلوبهم في كل لحظة بعظمة النبي ﷺ ، وإيقاظها بلهج الألسنة وخط الأقلام اقتداءً بأعرف الناس بقدر الحياة

---

(١) حياة رجالات الإسلام ، ص ٥٤ .

وأوزنهم للحظات الأزمان! أين نحن من الحياة وقد زعمنا أننا نكتفي بالإشارة إلى الصلاة على النبي ﷺ بهذه (الصلعمة) الجوفاء حرصاً على (الوقت) و(المداد) و(الورق)، بالنسبة إلى بُناة مجدِ الإسلام وواضعي أساس أعظم دولة في العالم؟! وما كانوا يرون في ترداد ذِكرهم لرسول الله ﷺ وإظهار تعظيمه بالصلاة عليه إلا أشرفَ حافزٍ لهم على تناول أسباب السيادة العادلة بإيمانهم)[1].

● وتأمَّلْ هذا الموقف حيث يهيِّئ أبو بكر مكاناً لراحة النبي ﷺ، ويسعى ليأتيه من اللبن ما يشربُه؛ يقول: (رميتُ ببصري هل نرى ظِلاً نأوي إليه، فإذا أنا بصخرة فانتهيتُ إليها، فإذا بقيَّةُ ظِلِّها، فسوَّيتُه، ثم فرشتُ لرسول الله ﷺ، ثم قلت: اضْطجِعْ يا رسول الله، فاضْطَجَع).

وعندما طلب من الراعي أن يَحلِب له الشاة، يقول: (أمرتُه فاعتَقَل شاة من غنمه، وأمرتُه أن يَنفُض عنها الغبار، ثم أمرتُه أن ينفض كفَّيْه، فقال هكذا ـ فضرب إحدى يديه على الأخرى ـ فحَلَب لي كُثْبة من لبن، وقد رَوَيْتُ معي لرسول الله ﷺ إداوةً، على فمها خِرقة، فصببت على اللبن حتى بردَ أسفلُه، فانتهيتُ إلى رسول الله ﷺ فوافقْتُه قد استيقظ، فقلت: اشربْ يا رسول الله، فشرب رسول الله ﷺ حتى رضيتُ)[2].

● وعندما نزل النبي ﷺ في بني عَمْرو بن عوف (أصابتِ الشمس

---

(١) حياة رجالات الإسلام، ص ٥٠ ـ ٥١.

(٢) ابن حبان (٦٨٧٠)؛ وابن سعد: ٤/ ٣٦٥ ـ ٣٦٦، وقد تقدم الحديث بتمامه: ص ١٣٩ حاشية (١) في هذا الكتاب.

رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى ظَلَّلَ عليه بردائِه ، فعَرَف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك)[1] .

إن القلم ليأخذُه البَهْرُ من جلالة هذه المواقف ، وماذا عساه أن يكتب ، وما عسى الفكر أن يُملي عليه حول هذا الحب العظيم والأدب الباهر؟! .

إن الصِّدِّيق قد هيّأ للحبيب أقصى ما يمكن أن يقتدر عليه امرؤ من أساليب الراحة في بيئة قاسية وظلام الصحراء وهجير حرِّها ومطاردة سفهائها للمهاجرَيْنِ العظيمَيْنِ! فيسوِّي له الأرض ، ويَفرش له فروة كانت معه لتكون له وِطاء ، ويظلِّل عليه بردائه إذا آذاه حرُّ الشمس . . . فللّه درُّ أبي بكر وكرم نفسه إذ يجعل ثيابه وِطاءً للنبي ﷺ وظِلاً له! .

ثم إذ هو يأتي رسول الله ﷺ بما يَشربه من الحليب ، يأمر ذلك الغلام بأن ينفض ضَرْع الشاة من الغبار ، ثم يأمره أن ينفض كفَّيْه أيضاً .

(وكان قد أعد إداوة مطهَّرة نظيفة محصَّنة من التلوث بالغبار ، وجعل على فمها خِرقة لتصفية اللبن مما عسى أن يكون قد عَلِق به أثناء الحَلْب من الشعر والقذر والتراب ، وأعدَّ ماء طيباً ليبرِّد به اللبن ، فصبَّ منه على اللبن حتى برد أسفله ، وانطلق به إلى النبي ﷺ وهو في مضجعه في ظل الصخرة ، فقدَّم له الإداوة ، وطلب إليه ﷺ أن يشرب ، فشرب حتى رضي أبو بكر ، ثم تلطَّف إليه بأدب الخطاب فقال للنبي ﷺ : قد آن الرحيل يا رسول الله؟ قال : «بلى» فارتحلوا)[2] .

---

(١) البخاري (٣٩٠٦) .

(٢) محمد رسول الله ﷺ ، لمحمد الصادق عرجون : ٢/ ٥٣٦ ـ ٥٣٧ ، باختصار .

رابعاً: تتمة حديث الهجرة:

عن عروة بن الزبير ، عن أبيه : (أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في رَكْبٍ مِنَ المسلمينَ ، كانُوا تجاراً قافِلينَ مِنَ الشأم ، فكَسَا الزُّبَيْرُ رسول الله ﷺ وأبَا بَكْرٍ ثِيابَ بَياضٍ ، وسَمِعَ المُسْلِمونَ بالمَدينَةِ بمخْرَجِ رسول الله ﷺ مِنْ مَكَّةَ ، فكانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَداةٍ إلى الحَرَّة ، فينْتظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُم حرُّ الظَّهيرةِ ، فانْقلَبُوا يَوْماً بعدما أطالُوا انتِظَارَهُمْ ، فلمَّا أوَوْا إلى بُيُوتِهم ، أَوْفى رَجُلٌ مِنْ يهُودَ على أُطُمٍ مِنْ آطامِهم ، لأمْرٍ ينظُر إليه ، فبَصر برسول الله ﷺ وأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يزُولُ بهمُ السَّرابُ ، فَلَمْ يمْلِكِ اليَهُودِيُّ أنْ قالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : يَا مَعَاشِرَ العَرَبِ ، هذَا جدُّكمُ الَّذي تَنْتَظِرونَ ، فَثارَ المُسْلِمُونَ إلى السِّلاح ، فتَلَقَّوا رسول الله ﷺ بِظَهْرِ الحَرَّةِ ، فَعَدَلَ بِـهِمْ ذَاتَ اليَمين ، حتَّى نَزَلَ بِهِمْ في بَني عَمْرو بنِ عَوْفٍ ، وذلكَ يَوْمَ الإثنين مِنْ شَهْرِ رَبيعِ الأوَّل ، فقَامَ أَبُو بَكْرٍ للنَّاس ، وجَلَسَ رسول الله ﷺ صَامِتاً ، فطَفِقَ مَنْ جاءَ مِنَ الأنْصَارِ ـ مِمَّنْ لَمْ يَـرَ رسول الله ﷺ ـ يُحيِّي أبَا بَكْرٍ ، حتَّى أَصَابَتِ الشَّمْسُ رسول الله ﷺ ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكرٍ حتَّى ظَلَّل عَليهِ برِدَائِـهِ ، فعَرَف النَّاس رسول الله ﷺ عِندَ ذَلِكَ ، فَلَبِثَ رسول الله ﷺ في بني عمرو بنِ عَوْفٍ بِضْعَ عشرةَ ليلةً ، وأُسِّسَ المَسجِدُ الَّذي أُسِّس على التَّقْوَى ، وصَلَّى فيهِ رسول الله ﷺ . ثُمَّ رَكِبَ رَاحِلته ، فسارَ يَمْشي مَعهُ النَّاسُ حتَّى بَرَكَتْ عِندَ مَسجِدِ الرسولِ ﷺ بالمَدينَةِ ، وهُوَ يُصلِّي فيهِ يوْمئذ رجالٌ مِنَ المُسْلمينَ ، وكانَ مِرْبَداً للتَّمْرِ ، لِسُهَيْلٍ وسهْلٍ غُلامَينِ يتيمينِ في حَجْر أَسْعَدَ بْنِ زرَارَة ، فقَالَ رسول الله ﷺ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ : **«هذَا إنْ شاءَ اللهُ المنزلُ»** ثُمَّ دَعَا رسول الله ﷺ الغُلامَيْنِ فسَاوَمهما بالمِرْبَدِ ليتَّخِذَهُ مسْجِداً ، فقَالا : لا ،

بَل نَهَبُهُ لَكَ يا رَسولَ اللهِ ، فأَبَى رَسُولُ الله ﷺ أن يَقْبَلَه منهما هبةً ، حتى ابتاعه منهما ، ثم بناهُ مسجداً»[1].

خامساً: البيت البكري ودوره في الهجرة:

أراد الله سبحانه لأبي بكر أن يحوز الشرف من أطرافه ، ويفوز بالأجر من جميع أبوابه ، وينال الثناء من الله ورسوله والمؤمنين؛ فاصطفاهُ الله عز وجل ليكون له الدور الأبرز في هذا الحدث الجليل من مسيرة الدعوة ، فجعل نفسه ومالَه كله وأهلَ بيته جميعاً في خدمة النبي ﷺ وتيسير كل سُبل الإعداد والنجاح للهجرة المباركة.

وما قيمة الأهل والولد إنْ لم يستجيبوا لدعوة الحق ولم يؤازروا في سبيل الله؟! إن حلاوة الإيمان جعلت آل أبي بكر يقفون في جانب الدعوة التي تتعرض إلى مخاطر مخوفة ، وقدَّموا تضحيات ومفاخر جليلة تليق بجلالة الهجرة.

لقد شَرُف البيت البكري بالمشاركة الرائعة في الهجرة ، وقام كل فرد بدور خطير ، فتشابكت خيوط الأدوار لتنسج حِجازاً قويّاً لا يمكن للعدو اختراقه لإبطال الهجرة أو عرقلة مسيرتها المباركة. وتآخَتْ أعمالُ الشاب مع الفتاة مع الطفلة مع الخادم في تناغم بديع للمحافظة على حياة المهاجرَيْن الجليلين ، وتذليل الصعوبات وتوفير عوامل النجاح لهما في غايتهما العظيمة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٦) عن عروة مرسلاً؛ ووصله الحاكم: ٣/ ١١ عن عروة أنه سمع الزبير. والمسجد الذي أُسس على التقوى والمشار إليه هنا هو مسجد قُبَاء.

ـ **فعبد الله بن أبي بكر**: شاب (ثَقِفٌ لَقِنٌ) حاذِق سريع الفهم ذكي فَطِن، قام بدور (الجاسوس) على قريش، و(رجل الأمن) الصادق لصالح الدعوة، فكان يجلس إلى الملأ من قريش ويُنصت إلى ما يكيدونه ويأتمرون به بالنبي ﷺ وصاحبه الصديق، ثم يأتي مع حلول الظلام إلى الغار ويبثُّ الأخبار للرسول ﷺ، فإذا كان السَّحَر أَدْلَج إلى مكة فيكون مع أهلها في الصباح وكأنه بات معهم، لا يشعر به أحد وقد أدى هذه المهمة الجليلة بنجاح فذ، لم يَستَرِب به أحد من أهل مكة.

ـ **وعامر بن فُهيرة مولى أبي بكر**: كان يرعى في رُعْيان أهل مكة، فإذا أمسى أراحَ عليهما غنمَ أبي بكر، فاحتلبا وذبحا، فإذا غدا عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة، اتَّبَع عامر بن فهيرة أثَـرَهُ بالغَنَم، حتى يُعفِّي عليه[1].

ـ وأما دور المرأة المسلمة فيتجلَّى في روائع عمل السيدة اللبيبة **أسماء** رضي الله عنها: فهي قد هيَّأَتْ للمهاجرَين المسافرَين ما يحتاج إليه المسافر، على وجه الإسراع كما يعبِّر عنه قول عائشة: (أحثَّ الجِهَاز)، وصنعتْ لهما الزاد، وجاء في بعض الروايات أن فيه شاة مطبوخة، ونظرتْ شيئاً تربط به فمَ الجراب فلم تجده، فعمدتْ إلى نطاقها فشقَّتْه نصفين، فشدَّت بأحدهما الزاد وانتطقَتْ بالآخر، فعُرفت على مر التاريخ بـ(ذات النطاقين)! وهي صورة رمزية بارعة تدل على سرعة بديهة تناسب السرعة في إنجاز الحدث، وتضحية في سبيل الله ولو كان بما لا يملك الإنسان سواه وهو نطاقه!.

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٣٧٩.

(وبذلك كَتبتْ في بياضِ التاريخ سطراً خالداً أضاف إلى اسمها اسماً جديداً كان من مفاخرها إلى مفاخر آل الصديق في الإسلام.

وينشُر التاريخ فضيلةً أخرى للسيدة الجليلة أسماء الصديقة، فهي كانت ممن اطلع على سرِّ الهجرة، وكانت مقدّرة تمام التقدير خطورة موقف المهاجرين في تلك الساعة الحرجة، فلم تفقد من شجاعتها شيئاً)[1].

قالت: (لمّا خَرج رسول الله ﷺ وأبو بكر، أتانا نَفَر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجتُ إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنتَ أبي بكر؟ قلتُ: لا أدري والله أين أبي! فرفع أبو جهل يدَه، وكان فاحشاً خبيثاً، فلَطَم خدِّي لطمةً طرح منها قُرْطي!)[2].

وهي بهذا تُسفِر عن شجاعة باهرة تقف في وجه الملأ من قريش الذين طار الحقد بقلوبهم وأطاش بأحلامهم، وعبَّر عن سفههم وطيشهم موقفُ ذلك الباغي الأحمق أبي جهل بفعله الشائن حيث يَلطم فتاة لينفِّس من حَنَقِهِ على أبيها وعلى رسول الله ﷺ! وهكذا الجاهلية دائماً في مصاولتها للحق، لا ترعوي عن البطش بأهل الحق ومن يَلوذ بهم من شيوخ ونساء وولدان!.

والموقف الشامخ الآخر لهذه المرأة العظيمة هو قيامُها بأعباء الأسرة والمعاش، فتحلّ محلّ أبيها، وتنفي عن سمعته كلَّ ما يعكّر صفوها من

---

(١) حياة رجالات الإسلام، ص ٥٣.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام: ١/ ٤٨٧؛ تاريخ الطبري: ٢/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

شبهة تقصير؛ إذ يترك عياله بلا مال ولا نفقة ولا معيل، فتقف موقف عقلاء الرجال في أحلك الظروف، ولو احتالت على أقرب الناس منها وأجلِّهم عندها.

تقول رضي الله عنها وأرضاها: (لمَّا خَرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر معه، احتمَل أبو بكر مالَه كله معه، خمسةَ آلاف درهم أو ستة آلاف، فانطلَق بها معه، قالت: فدخل علينا جدِّي أبو قحافة، وقد ذَهَب بصره، فقال: والله إني لأُرَاه قد فَجَعَكم بمالِه مع نفسِه! قالت: قلتُ: كلا يا أبتِ! إنه ترك لنا خيراً كثيراً. قالت: فأخذتُ أحجاراً فوضعتُها في كوَّة في البيت الذي كان أبي يضع مالَه فيها، ثم وضعتُ عليها ثوباً، ثم أخذتُ بيدِه، فقلت: يا أبتِ، ضَعْ يدَك على هذا المال، قالت: فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أَحْسَن، وفي هذا بلاغٌ لكم. ولا واللهِ ما تركَ لنا شيئاً، ولكني أردتُ أن أُسَكِّن الشيخَ بذلك!)[1].

إن عبقرية الإيمان التي انفرجت عن مثل هذه الحكمة والفطنة لتدعو الإنسان إلى الإقرار بأن ذلك الموقف من مُتَنَزَّل الإلهام والتوفيق... وما ذلك بعجيب، فهذه المرأة بنت الصديق!.

إن أبا بكر قد ورَّث أبناءه اليقين الذي أفاءَهُ الله عليه، وزَرَع في قلوبهم إيماناً كشفت الأحداث الجسام أنه راسخ كالجبال، لا تُزلزله

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق: ١/ ٤٨٨؛ وأحمد: ٦/ ٣٥٠؛ وذكره الهيثمي في المجمع: ٦/ ٥٩ وقال: رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع؛ وصححه شعيب الأرنؤوط في هامش سير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٩٠.

عاتيات المحن ولا تُقلِقُهُ الابتلاءات ، فكان ابنُه مثالَ الفداء والفطنة ، وكانت ابنته مضربَ القدوة في الذكاء والشجاعة والحنكة ، والنساء شقائق الرجال.

أما الطاهرة عائشة رضي الله عنها فكانت آنذاك طفلة صغيرة قد ناهزت السابعة ، فهي تعين أختها أسماء في تهيئة الجهاز للنبي ﷺ وصدِّيقه رضي الله عنه.

سادساً: ثمرات طيبة ودروس راسخة في ضمير التاريخ:

في حادثة الهجرة دروس بارعة وعبر جليلة وثمرات مباركة تمخضت عنها مجريات أحداثها ومواقف النبي ﷺ وصاحبه وآل بيته:

١ ـ في مطالع خبر الهجرة أبرعُ تصوير وأدقّه لمكانة أبي بكر وآله عند رسول الله ﷺ ، فإنه لم يَكد يأتيه الإذن من الله تعالى بالهجرة ، حتى يذهب إلى بيت صاحبه في ساعة لم يكن يجيئهم فيها ، ويأمره أن يخلو إليه بإخراج مَنْ عنده ليسرَّ إليه أمراً هو أخطر ما عرض لامتحان الدعوة ، فيجيبه أبو بكر بأنْ لا عينَ عليك ، لأن هؤلاء الذين عندي إنما هم أهلك الذين يشاركونني في فدائك بأنفسهم ، فيقول رسول الله ﷺ: «**فإني قد أُذِن لي في الخروج**» ، فيطلب الصديق في لهفة الصحبة ، فيُجاب بما يقرّ عينَه[1].

٢ ـ إرادةُ النبي ﷺ أن تكون هجرته متمحِّضةً إلى الله تعالى ، وفي هذا تعظيم شأن الهجرة ، فالصديق يقول له: (فَخُذْ بأبي أنتَ يا رسول الله إحدى راحلتيَّ هاتين) ، فيقول ﷺ: «**بالثمن**»!.

---

(١) حياة رجالات الإسلام ، ص ٥٠.

وفي رواية: (فقال رسول الله ﷺ: «**إني لا أركبُ بعيراً ليس لي**»، قال: فهي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي! قال: «**لا، ولكن ما الثَّمنُ الذي ابتعتَها به؟**» قال: كذا وكذا، قال: «**قد أخذتُها به**»، قال: هي لك يا رسول الله)[1].

وسُئل بعض علماء المغرب عن امتناعه ﷺ من أخذ الراحلة مع أن أبا بكر أنفق عليه ماله، فقال: أحبَّ أن لا تكون هجرته إلا من مال نفسه[2].

وقال العلامة القسطلاَّني: (فإن قلتَ: فلِمَ لَمْ يقبلْها إلا بالثمن وقد أنفق عليه أبو بكر من ماله ما هو أكثر من هذا فقبِل؟ أُجيب بأنه إنما فعل ذلك لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله رغبة منه عليه السلام في استكمال فضل الهجرة إلى الله، وأن يكون على أتم الأحوال)[3].

٣ ـ وفي أخبار هذا الحدث الإعداد الدقيق والتخطيط البارع والأخذ بالأسباب، كما يتجلى ذلك في فعل النبي ﷺ وصدِّيقه:

ـ فرسول الله ﷺ خرج وقت الهاجرة ليخبر أبا بكر، حيث الناس في هدأة من الحركة والسعي، فلا يكاد يكون في الطريق أحد.

ـ وخرج ﷺ (متقنِّعاً) زيادة في التعمية والاحتياط حتى لا تعرفه العيون والجواسيس عندما يأتي بيت أبي بكر.

ـ السرية التامة في الخبر والخروج، حيث طلب النبي ﷺ إلى

---

(١) البخاري (٣٩٠٥)؛ السيرة، لابن هشام: ١/ ٤٨٧.

(٢) الفتح: ٩/ ١٢٥.

(٣) حياة رجالات الإسلام، ص ٥٠، وانظر: محمد رسول الله ﷺ: ٢/ ٥٢١ـ٥٢٢.

الصديق أن يخرج من عنده ، فأخبره رضي الله عنه أن أهله مؤتمنون على حفظ الأسرار .

ـ الخروج تحت جنح الظلام ومن (خَوْخة) ـ باب خلفي ـ في بيت الصديق حتى لا يشعر بهما أحد .

ـ الاختباء في الغار ، ثم الانطلاق نحو المدينة ، وتنكُّب الجوادّ المعروفة إلى مسالك غير معبَّدة ولا مطروقة .

ـ التدبير التام من أبي بكر ، والذي تمثَّل في أعمال ابنه عبد الله وابنته أسماء ومولاه عامر بن فُهيرة .

٤ ـ ليس في هذا العمل النبوي والصديقي الخشية على النفس من أحد ، فالله عز وجل قد تكفَّل بحماية نبيه ﷺ حتى يبلِّغ رسالته ، ولا كان خوفاً من حادث يتوقعه ، وإنما كان تعليماً وتدريباً وهداية ودلالة للأمة لتقتفي أثره مع ما ينتظرها من شدائد الدعوة وأخطار الجهاد في سبيل تبليغ الرسالة[(١)] .

٥ ـ ويتجلى في هذه الأخبار دستور المؤمنين المخلصين إذا احتوشَتْهم بيئات شملها الفساد في كيانها العقيدي والخُلقي والاجتماعي ، حتى لم يَعدْ لصيحة الحق فيها أثر ، وتضطهد دعاة الحق ، وتؤذي المصلحين ، وتسدُّ في وجوههم سُبل الإرشاد؛ فليتجه المصلحون إلى بيئات طيبة تعمرها فِطَرٌ مكتنزة الحيوية ، دفّاعة الخُطا إلى الحق والخير ، ليستنبتوا ثَمَّ بذور الإيمان ويبنوا دولته[(٢)] .

---

(١) محمد رسول الله ﷺ : ٢/ ٤٥٥ .

(٢) حياة رجالات الإسلام ، ص ٥٢ .

٦ ـ منقبة المناقب الصديقية تتجلى في قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾، وقوله ﷺ له: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!**».

وهذه المنقبة الفريدة للصديق لم يشركه فيها غيره [1]، ولم يسمُ إليها أولو الأيدي والأبصار، حيث يقول عالم الأسرار: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [2]!.

وأبو بكر كان ثاني اثنين في الغار وقبله وبعده:

ـ فهو ثاني اثنين في الإسلام والإيمان ومناصرة النبي عليه الصلاة والسلام.

ـ وثاني اثنين في الدعوة إلى الله وإظهار الإسلام والجهر به.

ـ وثاني اثنين في الابتلاء والصبر على لأْواء المِحن.

ـ وثاني اثنين في المنزلة من قلوب المؤمنين، وحتى عامة قريش.

ـ وثاني اثنين في الهجرة النبوية والإعداد لها بكل ما يقتضيه الإعداد.

ـ وثاني اثنين في الغار بنص التنزيل الحكيم.

ـ وثاني اثنين في دخول المدينة النبوية صحبةَ رسول الله ﷺ.

ـ وثاني اثنين في عَريش بدر.

ـ وثاني اثنين في إمامة المسلمين في صلاتهم في حضور النبي ﷺ.

ـ وثاني اثنين بالعلم بالله تعالى ومعرفة مرامي حديث النبي ﷺ التي لم يتفطن لها غيره من الصحابة.

---

(١) الإصابة: ٢/ ٣٣٥.

(٢) الحلية: ١/ ٢٨.

ـ وثاني اثنين في النفقة في سبيل الله والدعوة إليه وخدمة نبيه ﷺ .

ـ وثاني اثنين في وزن الأمة ورجحانه بها .

ـ وثاني اثنين في التصدي لحركات الارتداد عن دين الله .

ـ وثاني اثنين في نشر الإسلام وتجهيز جيوش الفتح .

ـ ثمَّ ثاني اثنين في الوفاة والدفن في الحجرة الشريفة .

●● لقد كانت تحفة ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ مدَّخَرة لأبي بكر دون الجميع ، فهو الثاني في الإسلام ، والثاني في بذل النفس والعمر ، لمّا وقى الرسول ﷺ بماله ونفسه جُوزي بمواراته معه في رَمْسِه تخليداً لخَصِيصة الصدِّيقية ، وإلى هذه الخصيصة يشير أبو مِحْجن الثقفي في قوله :

وسُمِّيتَ صِـدِّيقاً وكـلُّ مهـاجرٍ   سواكَ يُسمَّى باسمِه غيرَ مُنكرِ

سبقتَ إلى الإسلام واللهُ شاهدٌ   وكنتَ جليساً بالعريش المُشهَّرِ

وبالغارِ إذ سُمِّيتَ بالغار صاحباً   وكنـتَ رفيقـاً للنبـيِّ المُطهَّـرِ

وإليها يشير ما يرويه ابن عبد البر في «الاستيعاب» : (أن رجلاً من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ قال في مجلس فيه القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق : والله ما كان لرسول الله ﷺ من موطِن إلا وعليٌّ معه فيه! فقال القاسم : يا أخي لا تحلِفْ ، قال : هلمَّ ، قال : بلى ، ما لا تردُّه ، قال الله تعالى : ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾)[1] .

قال سفيان بن عيينة : عاتب الله المسلمين جميعاً يوم عاتبهم في نبيه ﷺ ، غير أبي بكر وحده فإنه خرج من المعاتبة . ثم قرأ : ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ

---

(١) الاستيعاب : ٢/ ٢٣٧ ، ٢٣٩ ؛ حياة رجالات الإسلام ، ص ٣٦ .

﴿ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ [التوبة : ٤٠][1].

٧ ـ لطائف قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ :

●● قول النبي ﷺ لصدِّيقه : «إنَّ الله معنا» ، يدلُّ على أنه موافق لهما بالمحبة والرضا فيما فعلاه ، وهو مؤيِّد لهما ومُعين وناصرٌ.

وهذا صريح في مشاركة الصديق للنبي ﷺ في هذه المعيَّة التي اختصَّ بها الصديق ، لم يشركه فيها أحد من الخلق.

والمقصود هنا : أن قول النبي ﷺ لأبي بكر : «إن الله معنا» هي معيَّة الاختصاص ، التي تدل على أنه معهم بالنصر والتأييد والإعانة على عدوِّهم ، فيكون النبي ﷺ قد أخبر أن الله ينصرني وينصرك يا أبا بكر على عدونا ، ويعيننا عليهم.

ومعلوم أن نصرَ الله نصرُ إكرام ومحبَّة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [غافر : ٥١] ، وهذا غاية المدح لأبي بكر؛ إذ دل على أنه ممن شهد له الرسول ﷺ بالإيمان المقتضي نصر الله مع رسوله ﷺ[2].

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ ﴾ ، لا يختصُّ بمصاحبته في الغار ، بل هو صاحبه المطلق الذي كمُل في الصحبة كمالاً لم يشركه فيه غيره ، فصار مختصّاً بالأكملية من الصحبة.

---

(١) ابن عساكر ، ص ١٨٦ ؛ أسد الغابة : ٣/ ٢١٣ ؛ تاريخ الخلفاء ، ص ٥٠ .
(٢) منهاج السنة النبوية : ٤/ ٥٩٧ .

فقد تبيَّن أن النبي ﷺ خَصَّه دونَ غيره ، مع أنه قد جعل غيره من أصحابه أيضاً ، لكنه خصَّه بكمالِ الصحبة؛ ولهذا قال من قال من العلماء: إن فضائل الصديق خصائص ، لم يشركه فيها غيره[1].

وقد نوَّه النبي ﷺ بهذه (الصحبة الخاصة) ، فذكرها بإضافة التكريم والتشريف والاختصاص ، فقال في حديث مغاضبة عمر لأبي بكر رضي الله عنهما: «**فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟!**» ، أخذاً من قول الله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾.

ولا شك أن الإضافة في الآية الكريمة والحديث الشريف إضافة تخصيص تدل على منزلة من الصحبة أجلّ وأرفع من مطلَق الصحبة العامة الثابتة بفضلها وشرفها لسائر الصحابة رضي الله عنهم[2].

●● وحسب الصديق شرفاً وفضلاً أن الله تعالى نظمه في سلك المعية الخاصة: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، فهو رضي الله عنه قد خشي أن يبصر الكفار بالنبي ﷺ ، وأشفق أن ينطفئ نور النبوة ، فأحس سيد الوجود ﷺ منه بذلك ، فألقى إليه درة من لآلئ يقين النبوة وسكينتها: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، فتنزلت عليه السكينة[3].

قال العارف شمس الدين بن اللبان: (وتأَمَّلْ قولَ موسى عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢] ، وقولَ نبيِّنا ﷺ

---

(١) منهاج السنة النبوية: ٤/ ٦١٧.

(٢) محمد رسول الله ﷺ: ١/ ٥٢٥.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٥١٤ _ ٥١٥ ، بتصرف.

للصديق: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فموسى خُصَّ بشهود المعيَّة ولم يتعدَّ منه إلى أتباعه، ونبينا تعدَّى منه إلى الصديق، ولم يقل: «معي»؛ لأنه أمدَّ أبا بكر بنوره فشهد سرَّ المعية، ومن ثم سرى سرُّ السكينة على أبي بكر، وإلا لم يثبت تحت أعباء هذا التجلي والشهود، وأين معية الربوبية في قصة موسى عليه السلام من معية الإلـٰهية في قصة نبينا ﷺ!)[1].

سابعاً: تتمات في حديث الهجرة:

لمّا استقرَّ النبي ﷺ وصاحبه رضي الله عنه في المدينة المنورة، بعث رسول الله ﷺ من منزل أبي أيوب زيدَ بن حارثة وأبا رافع وأعطاهما بعيرين وخمسمئة درهم إلى مكة، فقدِما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ، وسَوْدة بنت زَمْعَة زوجته، وأسامة بن زيد. وكانت رقية بنت رسول الله ﷺ قد هاجر بها زوجها عثمان بن عفان قبل ذلك. وحَبَس أبو العاص بن الربيع امرأته زينب بنت رسول الله ﷺ. وحمل زيد بن حارثة امرأته أم أيمن مع ابنها أسامة بن زيد.

وخرج عبد الله بن أبي بكر بأم رومان وأختيه عائشة وأسماء، حتى قدموا جميعاً المدينة، ورسول الله ﷺ يبني المسجد وأبياتاً حول المسجد، فأنزلهم في بيت لحارثة بن النعمان[2].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (لمَّا قدِمَ رسول الله ﷺ المدينة وُعِك

---

(١) حياة رجالات الإسلام، ص ٣٥.

(٢) طبقات ابن سعد: ١/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨، ٨/ ٦٢، ١٦٥ ـ ١٦٦؛ تاريخ الطبري: ٢/ ٤٠٠؛ البداية والنهاية: ٣/ ٢٠٢.

أبو بكر وبلال ، قالت: فدخلتُ عليهما ، فقلتُ: يا أبتِ كيف تَجِدُكَ؟ ويا بلالُ كيف تجدُك؟.

قالت: فكان أبو بكر إذ أخذَتْه الحمَّى يقول:

كلُّ امرئٍ مُصَبَّحٌ في أهلِهِ والموتُ أدْنَى من شِراك نَعْلِهِ

وكان بلالٌ إذا أقلعَ عنه الحمى يرفَعُ عَقِيرتَه ويقول:

ألاَ ليتَ شِعْري هلْ أبيتنَّ ليلةً بوادٍ وحولي إذْخِرٌ وجَليلُ

وهل أرِدَنْ يوماً مياه مَجَنَّةٍ وهل يَبْدُوَنْ لي شَامَةٌ وطفيلُ

قالت عائشة: فجئتُ رسول الله ﷺ فأخبرتُه ، فقال: «**اللهمَّ حَبِّبْ إلينا المدينة كحُبِّنا مكةَ أو أشدَّ ، وصَحِّحْها ، وبارِكْ لنا في صاعِها ومُدِّها ، وانْقُلْ حُمَّاها فاجعَلْها بالجُحْفَةِ**»[1].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٣٩٢٦) واللفظ له ، وأطرافه في (١٨٨٩)؛ والنسائي في الكبرى (٤٣٥٧) و(٧٤٧٧)؛ ومالك: ٢/ ٨٩٠؛ وأحمد: ٦/ ٥٦ ، ٦٥ ، ٨٣ ، ٢٢٢؛ وابن حبان (٣٧٢٤) و(٥٦٠٠)؛ وابن هشام في السيرة: ١/ ٥٨٨ـ٥٨٩، وغيرهم. قوله: (**بواد**): أي وادي مكة. (**إذخر وجليل**): نبتان من الكلأ ، طيبا الرائحة يكونان بمكة وأوديتها ، لا يكادان يوجدان في غيرها. (**مجنة**): تقع بمر الظهران قرب جبل يقال له: الأصفر ، وهو بأسفل مكة ، وهي سوق للعرب. (**شامة وطفيل**): جبلان بقرب مكة على نحو ثلاثين ميلاً منها. (**الجحفة**): موضع بين مكة والمدينة ، يقع شرق رابغ على مسافة (٢٢كم) ، وهو ميقات أهل مصر والشام إن لم يمروا على المدينة.



الباب الثالث

مع رسول الله ﷺ في المدينة المنورة وبناء الدولة

- مع النبي ﷺ في عبادته ومجالسه وغدواته وروحاته .
- جهاده ومشاهده مع رسول الله ﷺ .
- مواقف كبرى ومعالم بارزة .

* * *



الفصل الأول

مع النبي ﷺ في عبادته ومجالسه وغدواته وروحاته

أولاً: صحبة طويلة دائمة مباركة:

صحِب أبو بكر سيدنا رسول الله ﷺ صحبةً تامة كاملة ليست لأحدٍ من الصحابة رضي الله عنهم، ولا لواحد من أتباع الأنبياء والمرسلين. ولازمَه أتمَّ الملازمة من بداية مشرق الرسالة وإلى آخر ساعاته ﷺ في هذه الدنيا!.

فكان معه في مكة المكرمة في عسره ويسره، وعند الاستسرار بالدعوة والجهر بها، وفي أيام عَرْضه نفسَه الشريفة على القبائل ودعوته الناس إلى الله، وفي أحرج ساعات الدعوة أيام الهجرة، وفي المدينة المنورة منذ وطئت قدماه ترابها الطاهر، وفي غدواته وروحاته، ومجالسه، وصلواته وحجه واعتماره، وجهاده وغزواته، وسفره وحضره، وفي بيته وشؤون أهله، ويَسْمُر معه في أمور المسلمين، ويدخل ويخرج معه ويده في يده...

(ولا نزاعَ بين أهل العلم بحالِ النبي ﷺ وأصحابه أن مصاحبة أبي بكر له كانت أكملَ من مصاحبة سائر الصحابة، من وجوه: أحدها أنه

كان أدومَ اجتماعاً به ليلاً ونهاراً، وسفراً وحضراً، كما في الصحيحين: عن عائشة رضي الله عنها قالت: (لم أعقِلْ أبويَّ قط إلا وهما يَدينان الدين، ولم يمضِ علينا يومٌ إلا ورسول الله ﷺ يأتينا فيه طَرفي النهار).

فكان النبي ﷺ في أول الأمر يذهب إلى أبي بكر طرفي النهار، والإسلام إذ ذاك ضعيف، والأعداء كثيرة، وهذا غاية الفضيلة والاختصاص في الصحبة.

وأيضاً فكان أبو بكر يَسْمُر عند النبي ﷺ بعد العشاء، يتحدث معه في أمور المسلمين دون غيره من الصحابة.

وأيضاً فكان النبي ﷺ إذا استشار أصحابه أول من يتكلم أبو بكر في الشورى، وربما تكلم غيره، وربما لم يتكلم غيره، فيعمل برأيه وحده، فإذا خالفه غيره اتبع رأيه دون رأي من يخالفه)[1].

(وأيضاً: ففي المواضع التي لا يكون فيها مع النبي ﷺ من أكابر الصحابة إلا واحد، كان يكون هو ذلك الواحد، مثل سفره في الهجرة، ومقامه يوم بدر في العريش: لم يكن معه فيه إلا أبو بكر، ومثل خروجه إلى قبائل العرب يدعوهم إلى الإسلام، كان يكون معه من أكابر الصحابة أبو بكر، وهذا الاختصاص في الصحبة لم يكن لغيره باتفاق أهل المعرفة بأحوال النبي ﷺ.

والمقصود هنا: بيان اختصاصه في الصحبة الإيمانية بما لم يشركه مخلوق، لا في قدرها ولا في صفتها ولا في نفعها؛ فإنه لو أُحصي الزمان الذي كان يجتمع فيه أبو بكر بالنبي ﷺ، والزمان الذي كان

---

(١) منهاج السنة النبوية: ٤/ ٦٠٢ ـ ٦٠٣.

يجتمع به فيه عثمان أو علي أو غيرهما من الصحابة ، لوُجِدَ ما يختص به أبو بكر أضعافَ ما اختصَّ به واحد منهم ، لا أقول ضِعْفَه!)[1] .

وقد نبَّه النبي ﷺ على لبِّ ذلك وأشادَ به وأكْثَرَ من ذِكْره مغتبطاً به ، كما جاء عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم قال: (كنتُ أُكثِّرُ أسمَعُ رسول الله ﷺ يقول: «**جئتُ أنا وأبو بكرٍ وعمرُ ، ودخلتُ أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجتُ أنا وأبو بكر وعمر**»).

وفي رواية: «**كنتُ وأبو بكر وعمر ، وفعلتُ وأبو بكر وعمر ، وانطلقتُ وأبو بكر وعمر**»[2] .

وهذه الصحبة المستديمة جعلت أبا بكر يمتزج بروحه وقلبه وخواطره ومشاعره ويقينه وإيمانه وعقله؛ بالنبي ﷺ ودعوته وأقواله وأفعاله وأمنياته ومراميه ومشاعره وإشاراته ، حتى تطابقت أو كادت مع كل ما يحب رسول الله ﷺ ويرجوه ويسعى إليه ويتمناه.

ومن أبرع الأخبار في ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: (صلَّى رسول الله ﷺ صلاة الصبح ، ثم أقبلَ على الناس فقال: «**بَيْنا رجلٌ يسوقُ بقرةً إذ ركِبَها فضربَها ، فقالت: إنَّا لم نُخلَقْ لهذا ، إنما خُلِقنا للحَرْث**»! فقال الناس: سبحان الله ، بقرةٌ تتكلَّمُ؟! فقال: «**فإني أُومِنُ بهذا أنا وأبو بكر وعمر**» ، وما هُما ثَمَّ. «**وبينما رجلٌ في غَنَمِه إذ عَدَا الذئب فذَهَب منها بشاةٍ ، فطَلَب حتى كأنه استنقذَها منه ، فقال له الذئب: هذا استنقَذْتَها منِّي ، فمَنْ لها يومَ السَّبُع ، يومَ لا راعيَ لها**

---

(١) منهاج السنة النبوية: ٤/٦١٦ـ٦١٧، ٦١٩.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٧)؛ ومسلم (٢٣٨٩) ، وغيرهما؛ وسيأتي بتمامه في مناقب الصديق.

غيري؟» فقال الناس: سبحان الله، ذئب يتكلَّم؟! قال: «**فإني أُومِنُ بهذا أنا وأبو بكر وعمرُ**»، وما هُما ثَمَّ)[1].

قال العلماء: إنما قال النبي ﷺ ذلك ثقةً بصاحبيه أبي بكر وعمر، لعلمه بصدق إيمانهما، وقوة يقينهما، وكمال معرفتهما لعظيم سلطان الله وكمال قدرته[2].

ثانياً: مع رسول الله ﷺ في عبادته:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (اشتكى رسول الله ﷺ، فصلَّيْنَا وراءَه وهو قاعدٌ، وأبو بكر يكبِّر، يُسْمِعُ الناسَ تكبيرَهُ)[3].

وعن جابر قال: (بينا النبي ﷺ يخطُبُ يومَ الجمعة، وقدِمَتْ عِيرٌ المدينةَ، فابْتَدَرَها أصحابُ رسول الله ﷺ، حتى لم يبقَ معه ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً، فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نَفْسي بيدِه، لو تَتَابعتُم حتى لا يَبقى منكم أحدٌ؛ لسَالَ لكم الوادي ناراً**»! فنزلتْ هذه الآية: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ [الجمعة: ١١]. وقال: في الاثني عشر الذين ثَبَتُوا مع رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر)[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧١)، وأطرافه في (٢٣٢٤)؛ ومسلم (٢٣٨٨)؛ والنسائي في الكبرى (٨٠٥٧) و(٨٠٦٠)؛ والترمذي (٣٦٧٧) و(٣٦٩٥)، وغيرهم.

(٢) شرح مسلم، للنووي: ٨/ ١٧٠.

(٣) أخرجه مسلم (٤١٣)؛ وأبو داود (٦٠٦)؛ والنسائي في الكبرى (٥٤٠)؛ وابن ماجه (١٢٤٠)، وغيرهم.

(٤) أخرجه البخاري (٩٣٦) وأطرافه؛ ومسلم (٨٦٣)؛ والترمذي (٣٣١١)؛ وابن حبان (٦٨٧٦) و(٦٨٧٧) واللفظ له، وغيرهم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (صلَّى بنا النبيُّ ﷺ الظهرَ ركعتينِ ثم سلَّمَ، ثم قام إلى خشبةٍ في مقدَّم المسجد، ووضَع يدَه عليها، وفي القوم يومئذٍ أبو بكر وعمر فهابا أنَ يُكلِّماه، وخرج سَرَعانُ الناس، فقالوا: قَصُرَتِ الصلاةُ، وفي القوم رجل كان النبي ﷺ يَدْعُوه ذا اليَدينِ، فقال: يا نبيَّ الله، أَنسِيتَ أم قَصُرَتْ؟ فقال: «**لم أنسَ، ولم تَقْصُرْ**»، قالوا: بل نسيتَ يا رسول الله، قال: «**صَدَقَ ذو اليدين**»، فقام فصلَّى ركعتين ثم سلَّمَ، ثم كبَّرَ فسَجَد مثلَ سجودِه أو أطولَ، ثم رفع رأسَه وكبَّر، ثم وَضَعَ مثلَ سجودِه أو أطولَ، ثم رفَعَ رَأْسَه وكبَّر)[1].

وعن سَهْل بن سعد رضي الله عنه قال: (بَلَغ رسول الله ﷺ أن بني عَمْرو بن عوف بقُبَاءٍ كان بينهم شيءٌ، فخرج يُصلِحُ بينهم في أناسٍ من أصحابه، فحُبِسَ رسول الله ﷺ، وحانت الصلاة، فجاء بلالٌ إلى أبي بكر رضي الله عنهما فقال: يا أبا بكر، إنَّ رسول الله ﷺ قد حُبِس وقد حانتِ الصلاة، فهل لك أن تَؤُمَّ الناسَ؟ قال: نعم إنْ شئتَ. فأقام بلال الصلاة، وتقدَّم أبو بكر رضي الله عنه فكبَّر للناس، وجاء رسول الله ﷺ يَمشي في الصفوف يَشُقُّها شَقّاً حتى قام في الصف، فأخذَ الناس في التَّصْفيح ـ قال سَهْلٌ: التصفيحُ هو التَّصفيقُ ـ قال: وكان أبو بكر رضي الله عنه لا يَلتفِتُ في صلاته، فلما أكثَر الناسُ التفَتَ، فإذا رسول الله ﷺ، فأشار إليه يأمُرُه أن يصلي، فرَفَعَ أبو بكر رضي الله عنه

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٥١) واللفظ له، وأطرافه في (٤٨٢)؛ ومسلم (٥٧٣)؛ وأبو داود (١٠٠٨)؛ والترمذي (٣٩٩)؛ والنسائي في الصغرى: ٣/٢٢؛ والكبرى (٥٧٧)، وغيرهم.

يدَهُ فحمِدَ الله[1] ، ثم رجع القَهْقَرى وراءَهُ حتى قام في الصف ، وتقدَّمَ رسول الله ﷺ فصلى للناس. فلما فَرَغَ أقبَلَ على الناس فقال: «**يا أيها الناس ، ما لَكُم حين نابَكُم شيءٌ في الصلاة أخذتُم بالتَّصفيح ، إنما التصفيحُ للنساء ، مَن نابَهُ شيءٌ في صلاته فَلْيَقُلْ: سبحانَ الله**» ثم التفتَ إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال: «**يا أبا بكر ، ما مَنَعكَ أن تصلي للناس حين أشرتُ إليكَ؟**» قال أبو بكر: ما كانَ يَنبغي لابنِ أبي قُحافَةَ أن يصلِّي بين يدي رسول الله ﷺ!)[2].

ولم يكن بلالٌ مجتهداً في الإشارة على أبي بكر بأن يَؤُمَّ المسلمين ، بل فعل ذلك عن أمرِ رسول الله ﷺ ، ففي رواية ابن حِبَّان وغيره: (كان قتالٌ بين بني عَمْرو بن عوف ، فأتاهم النبي ﷺ ليُصلِحَ بينهم وقد صلَّى الظهرَ ، فقال لبلالٍ: «**إنْ حضرتْ صلاةُ العصرِ ولم آتِ ، فَمُرْ أبا بكرٍ فَلْيُصلِّ بالناس**». . .).

ففي هذه الأحاديث فضائل جمَّة لأبي بكر ، ودلائل واضحة على دوام ملازمته النبي ﷺ ، وأنه الرجل الثاني بعده ، فهو الذي يبلِّغ عنه التنقلات في الصلاة حيث عجز صوته ﷺ عن ذلك لمرضه ، وثَبت معه في طائفة من المؤمنين وقد انفضَّ الناس للعِير والتجارة ، وأمره أن ينوب

---

(١) وفي رواية للبخاري: (فرفع أبو بكر رضي الله عنه يديه فحمد الله على ما أمره به رسول الله ﷺ من ذلك).

(٢) أخرجه البخاري (١٢١٨) واللفظ له ، وأطرافه في (٦٨٤)؛ ومسلم (٤٢١)؛ وأبو داود (٩٤٠)؛ والنسائي في الكبرى (٥٢٩)؛ وفي الصغرى: ٢/٧٧ـ٧٩ ، ٨٢ـ٨٣ ، ٣/٣ـ٤؛ وابن حبان (٢٢٦٠) و(٢٢٦١) ، وغيرهم.

عنه في إمامة المسلمين حيث تأخر ﷺ للإصلاح بين قبيلتين من الصحابة ، وأكرمه النبي ﷺ بذلك ونوّه به وفخّمه بمخاطبته بكنيته وأبرز جلالة صاحبه في كل ذلك ، وأكّده بأنه أشار عليه وأمره أن يثبت في مكانه إماماً ليقتدي به ﷺ ، وهي مفخرة المفاخر ودرَّة المكارم وتاج الفضائل! ولذلك حمد اللهَ أبو بكر وأعلن ذلك بالإشارة بيديه وهو في الصلاة ، وأقرّه النبي ﷺ على ذلك. لكن الصديق كان في كل هذا ملازماً أرفع آداب المؤمنين في رحاب جلالة النبوة وهيبة رسول الله ﷺ ، والحب الغامر له والاقتداء به والمثول بين يديه على أتم آيات الإجلال والتواضع.

فهو رضي الله عنه هابَ النبيَّ ﷺ أن يكلّمه في شأن سَهوه ، وهل قُصِرت الصلاة أم لا؟ وأبى أن يتقدَّم بين يديه فيصلي به إماماً ، وقال: (ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ) ، وفي العبارة تواضع آخر؛ فقد استعمل خطابَ الغيبة مكان الحضور ، إذ كان حدّ الكلام أن يقول أبو بكر: ما كان لي ، فعَدَل عنه إلى قوله: ما كان لابن أبي قحافة ، لأنه أدلّ على التواضع من الأول[1].

وكان ملازماً للنبي ﷺ ومزاملاً له في حجة الوداع ، صحبة ابنتيه: عائشة أم المؤمنين وأسماء ذات النطاقين ، وأخذ عنه المناسك.

روت أسماء قالت: (خرجنا مع رسول الله ﷺ حُجَّاجاً ، حتى إذا كنا بالعَرْج ، نزل رسول الله ﷺ ونزلنا ، فجلست عائشة رضي الله عنها إلى جنب رسول الله ﷺ ، وجلستُ إلى جنب أبي بكر ، وكانت زمالة أبي بكر وزمالة رسول الله ﷺ واحدةً مع غلام لأبي بكر ، فجلس أبو بكر

(١) الفتح: ٣/ ٧٢ شرح الحديث (٦٨٤).

ينتظر أن يطلُع عليه ، فطلع وليس معه بعيره ، قال : أين بعيرُك؟ قال : أضللتُه البارحة ، قال : فقال أبو بكر : بعير واحد تُضلّه؟! قال : فطَفِق يضربه ، ورسول الله ﷺ يتبسَّم ، ويقول : «**انظُروا إلى هذا المُحْرِم ما يصنَعُ!**» فما يزيد رسول الله ﷺ على أن يقول : «**انظروا إلى هذا المُحرم ما يصنع**» ، ويتبسَّم)[1] .

ثالثاً: مع النبي ﷺ في غدواته وروحاته وأسفاره:

●● كان ﷺ يعلن غِبْطَته بصحبة أبي بكر وملازمته له في غدواته وروحاته ، فيقول : «**جئتُ أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ، . . .** » .

وملازمته رضي الله عنه للنبي ﷺ ليست لتزجية الوقت والترفيه عن النفس ، بل كل ساعة كانت فيها عبادة وطاعة وأعمال خير وبناء أمة وتأسيس دولة. . . يزور ﷺ أصحابه في أبياتهم ويبرِّك عليهم ويتفقد أحوالهم ويعلِّمهم ويمسح آهاتهم ويُعيل فقيرهم ويعود مريضهم ويؤلِّف بين قلوبهم ، فيكون الصديق معه في جميع ذلك.

من ذلك ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : (توفِّي أبي وعليه دَينٌ ، فَعَرضْتُ على غُرمائه أن يأخذوا التمر بما عليه فأبَوا ، ولم يروا أن فيه وفاءً ، فأتيتُ النبيَّ ﷺ فذكرتُ ذلك له ، فقال : «**إذا جَدَدْتَه فوضَعْتَه في المِرْبَد آذنتَ رسول الله ـ ﷺ**» . فجاء ومعه أبو بكر وعمر ،

---

(١) أخرجه أبو داود (١٨١٨)؛ وابن ماجه (٢٩٣٣)؛ وأحمد: ٦/ ٣٤٤؛ وحسَّنه الألباني. **العرج**: واد من أودية الحجاز ، جنوب المدينة على مسافة (١١٣كم). **زِمالة**: أي مركوبُهما وأداتُهما وما كان معهما في السفر.

فجلس عليه ودعا بالبَرَكَةِ ، ثم قال : «**ادْعُ غُرَماءَكَ فأوْفِهم**» . . .)[1] .

وعن جابر أيضاً قال : (مَرِضْتُ فأتاني رسول الله ﷺ يَعودُني هو وأبو بكر معه ، وهما ماشيان ، . . .) الحديث[2] .

وعن عِتْبَانَ بن مالك : (أنه أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسولَ الله! إني أنكرتُ بَصَري ، وأنا أصلِّي لقومي ، فإذا كانت الأمطارُ سالَ الوادي الذي بيني وبينهم ، لم أستطعْ أن آتي مسجدَهم فأصلِّي لهم ، فوَدِدْتُ يا رسولَ الله أنك تأتي فتصلي في بيتي فأتَّخِذُهُ مُصلًّى ، فقال : «**سأفعلُ إن شاء الله**» . قال عِتبانُ : فغَدا عليَّ رسول الله ﷺ وأبو بكر حين ارتفع النهار ، فاستأذَنَ النبي ﷺ ، فأذنتُ له ، فلم يجلس حتى دخل البيت ، ثم قال لي : «**أينَ تُحِبُّ أن أصلِّي من بيتك؟**» فأشرتُ إلى ناحية من البيت ، فقام النبي ﷺ فكبَّر فصَفَفْنا ، فصلَّى ركعتين ثم سلَّم ، . . .)[3] .

●● وتقدم مفصَّلاً خبرُ صحبته النبيَّ ﷺ في أيام الهجرة ، وما أَبرزَ الصديق فيها من أسمى آيات الحبّ له ﷺ وخوفه عليه وتفديته له بنفسه ، وخدمته وإيثاره على نفسه ، وإظهار كل ألوان الأدب والتبجيل له ﷺ .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٠٩) وأطرافه في (٢١٢٧)؛ والنسائي في الكبرى (٦٤٣٠)؛ والصغرى : ٦/ ٢٤٤؛ وأبو داود (٢٨٨٤)؛ وابن ماجه (٢٤٣٤)؛ وابن حبان (٦٥٣٦) ، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (١٩٤) وأطرافه؛ ومسلم (١٦١٦)؛ وابن ماجه (٢٧٢٨) واللفظ له ، وغيرهم.

(٣) أخرجه البخاري (٥٤٠١) واللفظ له ، وأطرافه في (٤٢٤)؛ ومسلم (٣٣) بعد الحديث (٦٥٧)؛ والنسائي في الكبرى (٨٦٥)؛ والصغرى : ٢/ ٨٠ ، ٣/ ٦٤ ـ ٦٥؛ وابن حبان (٢٢٣) ، وغيرهم.

وفي غزوة خيبر قسم رسول الله ﷺ سُهمانها على أصحابه ، وكانت (حصون الكَتيبة) خمسَ الله ورسوله ، فقسمها بين قرابته وبين نسائه ، وبين رجال المسلمين ونساء أعطاهم منها ، وقسم لأبي بكر مئة وَسْق[(١)] .

وكان رضي الله عنه يفيض قلبه رحمة وشفقة على المسلمين ، ويتصدع فؤاده لمصابهم وآلامهم ، ويَهتبِل منزلته من قلب النبي ﷺ لتفريج كربات الناس والإشفاق عليهم ، وهكذا شأن المؤمن الغيور على دينه وأمته وما ينزل بالمسلمين من كوارث وملمَّات! .

عن ابن عباس رضي الله عنهما : (أنه قيل لعمر بن الخطاب : حدِّثْنا من شأنِ العُسْرة ، قال : خرجنا إلى تبوكَ في قَيْظٍ شديد ، فنزلنا منزلاً أصابَنا فيه عطشٌ ، حتى ظننَّا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إنْ كان الرجلُ ليذهَبُ يلتمِسُ الماءَ ، فلا يرجِعُ حتى يظنَّ أن رقبتَه ستنقطع ، حتى إنَّ الرجل لَينحرُ بعيرَه فيعصِرُ فَرْثَه فيشربُه ويجعلُ ما بقي على كَبِده! فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله! قد عوَّدَكَ الله في الدعاء خيراً ، فادْعُ لنا ، فقال : «أَتُحبُّ ذلك؟» قال : نعم . قال : فرَفَعَ يديه ﷺ ، فلم يرْجِعْهما حتى أَظَلَّتْ سحابةٌ ، فسَكَبَتْ ، فملؤوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظرُ ، فلم نجدْها جاوزتِ العَسْكَرَ!)[(٢)] .

ويروي عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حادثة أخرى في تلك

---

(١) السيرة ، لابن هشام : ٢/ ٣٥١ . **الوسق** : يساوي (١٣٠)كغ .

(٢) أخرجه ابن حبان (١٣٨٣)؛ والحاكم : ١/١٥٩ ، وصححه ووافقه الذهبي؛ وجوَّد ابن كثير إسناده في البداية والنهاية : ٥/ ٩ ، ٦/ ٩٢ ـ ٩٣ .

الغزوة ، فيقول : (قمتُ من جوف الليل ، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فرأيتُ شعلةً من نار في ناحية العسكر ، فاتَّبعتُها أنظر إليها ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذو البِجَادَيْن المُزني قد مات ، وإذا هم قد حَفَروا له ، ورسول الله ﷺ في حفرته ، وأبو بكر وعمر يُدَلِّيانه إليه ، وهو يقول : «أَدْنِيا إليَّ أخاكما» ، فدَلَّيَاه إليه ، فلما هيَّأه لشِقِّه قال : «اللهمَّ إني أمسيتُ راضياً عنه ، فارضَ عنه»! قال : يقول عبد الله بن مسعود : يا ليتَني كنتُ صاحبَ الحفرة!)[1] .

تأمَّلْ هذا المشهد : الرسول العظيم ﷺ يَسهر مع وزيريه الجليلين على حفظ المسلمين ، ويقومون معاً ليدفنوا أحدَ الصحابة الأبرار بأيديهم الطاهرة في جوف الليل .

هذه جلالة النبوة والتربية الفذة والرحمة الغامرة والقيادة الباهرة ، حيث يقوم رسول الله ﷺ وأجلُّ أصحابه بشؤون المسلمين ، لا كما يفعل الشراذم ممن ينامون ملءَ عيونهم والحرس يحيطون بهم من كل جانب ، فيكونون عذاباً على أمة محمد ﷺ! .

رابعاً : مع النبي ﷺ في بيته :

كثيراً ما كان الصديق يدخل بيتَ النبي ﷺ ، لحبِّه العميق له ، وجلالته عنده ، ومكانه من ابنته أم المؤمنين عائشة ، وعدمِ صبره على فراقه ، والبحث معه في شؤون الإسلام والمسلمين ، وقضاءِ حوائجه ، وتنفيذ أوامره ، ومؤازرته ومواساته ، والتأدب بآدابه ، وأخذ العلم

(١) السيرة ، لابن هشام : ٢/ ٥٢٧ ـ ٥٢٨ ؛ الرقة ، لابن قدامة ، ص ٢٣٣ ؛ البداية والنهاية : ٥/ ١٨ .

عنه، والاقتداء به في قوله وفعله وهَدْيه مع أهله وآل بيته... وكان في كل ذلك يحرص أتمَّ الحرص على مراعاة جانب النبي ﷺ وخاطره ومشاطرته كل ما قد يعكِّر صفوَ حياته أو يؤرِّق نفسه.

●● عن النعمان بن بَشير قال: (استأذَنَ أبو بكر رحمة الله عليه على النبي ﷺ، فسَمِع صوتَ عائشة عالياً، فلما دخل تناولَها لِيَلْطُمَها، وقال: ألاَ أَراكِ ترفعينَ صوتكِ على رسول الله ﷺ؟! فجعل النبي ﷺ يَحجِزه، وخرج أبو بكر مُغضباً! فقال النبي ﷺ حين خرج أبو بكر: «**كيف رأيتِني أنقذتُكِ من الرجُلِ؟**» قال: فمكث أبو بكر أياماً، ثم استأذَنَ على رسول الله ﷺ، فوجدهما قد اصطَلَحا، فقال لهما: أَدْخِلاني في سِلْمِكُما كما أَدْخلتُماني في حَرْبِكُما، فقال النبي ﷺ: «**قَدْ فَعَلْنا، قد فَعَلْنا**»)[1].

وعن جابر بن عبد الله قال: (دخل أبو بكر يستأذِنُ على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً ببابه لم يُؤْذَنْ لأحدٍ منهم، قال: فأَذِنَ لأبي بكر فدَخَل، ثم أَقبل عمرُ فاستأذَنَ فأُذِنَ له، فوجدَ النبيَّ ﷺ جالساً، حوله نساؤه، واجماً ساكتاً، قال: فقال: لأَقولَنَّ شيئاً أُضحك النبيَّ ﷺ، فقال: يا رسول الله! لو رأيتَ بنتَ خارجةَ[2]، سألَتْني النفقةَ، فقمتُ إليها فوَجَأْتُ عُنقَها! فَضَحِكَ رسول الله ﷺ، وقال: «**هنّ حولي كما ترى**

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٩٩)؛ والنسائي في الكبرى (٨٤٤١) و(٩١١٠)؛ وأحمد: ٤/ ٢٧٢، ٢٧٥؛ وصححه الحافظ في الفتح: ٨/ ٥٩٣ شرح الحديث (٣٦٦٢).

(٢) هي حبيبة زوج أبي بكر، وعند أحمد في مسنده: (فقال عمر: يا رسول الله! لو رأيت بنت زيد...)، وهي عاتكة بنت زيد زوج عمر، فيكون أبو بكر وعمر قالا ذلك، يريدان ملاطفة النبي ﷺ.

يسألنني النفقةَ» ، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأُ عنقَها ، فقام عمر إلى حفصة يجأُ عنقَها ، كلاهما يقول: تسألْنَ رسول الله ﷺ ما ليس عنده؟! فقُلنَ: واللهِ لا نسألُ رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده) الحديث[1].

وفي هذين الحديثين الكثير الطيب من مكارم أخلاق النبي ﷺ كما لا يخفى ، وفيهما فضائل جمَّة ومواقف جليلة لأبي بكر؛ منها:

- تقدُّمه على سائر الصحابة في دخوله على النبي ﷺ حيث لم يُؤذن لغيره حاشا عمر.

- وحرصُه على هناءة عيش النبي ﷺ مع أزواجه.

- وإشفاقُه عليه وملاطفته له ومضاحكته للتخفيف عنه حيث قال: (لأقولن شيئاً أضحك النبي ﷺ).

- وحسنُ تربيته لابنته ، والموالاة في تأديبها والترقي بها إلى مدارج الكمال ، وتنبيهها إلى مراعاة جانب الرسول ﷺ في نفسه ونفقته ، وتعليق قلبها بالآخرة ، وشدّتُه عليها إذ رفعتْ صوتها بين يدي النبي ﷺ.

- وقيامُه بالإصلاح بين الزوجين حين وجد ما يعكِّر صفوَ حياتهما.

وفي رواية أحمد: أن النبي ﷺ نهى أبا بكر وعمر عن ضربهما عائشة وحفصة ، وهو اللائق بمكارم أخلاقه ﷺ.

●● ومن مواقف أبي بكر مع ابنته الصدِّيقة عائشة في بيت النبوة وعلى مشهد منه ﷺ ، ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: (دخل عليَّ

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٧٨)؛ والنسائي في الكبرى (٩١٦٤)؛ وأحمد: ٣/٣٢٨ ، ٣٤٢.

رسول الله ﷺ ، وعندي جاريتان تُغنِّيان بِغناءِ بُعَاثٍ ، فاضْطجَعَ على الفراش وحوَّلَ وجْهَه . ودخل أبو بكر فانتهرني وقال : مِزمارةُ الشيطانِ عند النبي ﷺ؟! فأقبَلَ عليه رسول الله عليه السلام فقال : «**دَعْهُما**» . فلما غَفَل غَمزتُهما ، فخرجتا) .

وفي رواية عنها : قالت : (دخلَ أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنّيَان بما تقاوَلَتِ الأنصار يومَ بُعَاثٍ ، قالت : وليستا بِمُغَنِّيَتَيْن ، فقال أبو بكر : أَمَزاميرُ الشيطانِ في بيتِ رسول الله ﷺ؟! وذلك في يوم عيد ، فقال رسول الله ﷺ : «**يا أبا بكر! إنَّ لكل قومٍ عيداً ، وهذا عيدُنا**»)[1] .

وقول عائشة : (وليستا بمغنيتين) معناه : ليس الغناء عادتهما ، ولا هُما معروفتان به .

قال القُرطبي : (قولها : (ليستا بمغنيتين) أي : ليستا ممن يعرف الغناء كما يعرفه المغنيات المعروفات بذلك ، وهذا منها تحرُّز عن الغناء المعتاد عند المشتهرين به ، وهو الذي يحرك الساكن ويبعث الكامن ، وهذا النوع إذا كان في شعر فيه وصفُ محاسن النساء والخمر وغيرهما من الأمور المحرمة؛ لا يُختلف في تحريمه)[2] .

---

(١) أخرجه البخاري (٩٤٩) و(٩٥٢) واللفظ له ، وأطرافه في (٩٤٩)؛ ومسلم (٨٩٢) ، والنسائي في الكبرى (١٨٠٨)؛ والصغرى : ٣/ ١٩٥ ـ ١٩٧ ، وابن ماجه (١٨٩٨)؛ وأحمد : ٦/ ٣٣ ، ٨٤ ، ٩٩ ، ١٢٧ ، ١٣٤؛ وابن حبان (٥٨٧٦) و(٥٨٧٧) .

(٢) الفتح : ٣/ ٤٩٨ (٩٤٩)؛ وانظر : شرح النووي لصحيح مسلم : ٣/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣؛ فتح الملهم : ٤/ ٣٨٠ ـ ٣٨١ .

وأبو بكر دخل بيت النبي ﷺ فوجده مغطى بثوبه فظنَّه نائماً ، فتوجَّه بالإنكار على ابنته ، لِما تقرَّر عنده من منع الغناء واللهو ، فأوضح له رسول الله ﷺ الحال ، وعرَّفه الحكم مقروناً ببيان الحكمة بأنه يوم عيد ، أي يوم سرور شرعي ، فلا يُنْكَر فيه مثل هذا ، كما لا يُنكَر في الأعراس.

وأما التفافه ﷺ بثوبه : ففيه إعراضٌ عن ذلك ، لكون مقامه يقتضي أن يرتفع عن الإصغاء إلى ذلك . . لكن عدم إنكاره دالٌّ على تسويغ مثل ذلك على الوجه الذي أقرَّه إذ لا يُقِرّ على باطل ، والأصل التنزه عن اللعب واللهو.

وفي قول أم المؤمنين في آخر الحديث : (فلما غَفَل غمزتُهما ، فخرجتا) دلالةٌ على أنها مع ترخيص النبي ﷺ لها في ذلك ، راعَتْ خاطرَ أبيها وخشيتْ غضبَه عليها فأخرجتهما . واقتناعها في ذلك بالإشارة فيما يظهر ، للحياء من الكلام بحضرة من هو أكبر منها[1]! .

●● وبلغت آداب الصديق الرفيعة مع النبي ﷺ في دخوله عليه واطلاعه على أمور حياته ، أنه يحافظ على أسراره أتمَّ المحافظة ، ولو كان يبدو للمرء أنه ليس من الأسرار مما قد يفكر به الإنسان أو يعتزم فعله .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : (أن عمر بن الخطاب حين تأيَّمتْ حفصةُ بنت عمر من خُنَيْس بن حُذافة السَّهمي ـ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ فتوفي بالمدينة ـ فقال عمر بن الخطاب : أتيتُ عثمانَ بن عفان فعرضتُ عليه حفصة ، فقال : سأنظر في أمري ، فلبثتُ لياليَ ، ثم

---

(١) الفتح : ٣/٤٩٨ ـ ٤٩٩ .

لقيني فقال: قد بدا لي أن لا أتزوجَ يومي هذا. قال عمر: فلقيتُ أبا بكر الصديق، فقلت: إنْ شئتَ زوّجتُك حفصة بنت عمر، فصَمَتَ أبو بكر فلم يَرْجِعْ إليَّ شيئاً، وكنتُ أوجَدَ عليه منّي على عثمانَ! فلبثتُ لياليَ، ثم خَطَبها رسول الله ﷺ، فأنكحتُها إياه. فلقيني أبو بكر فقال: لعلَّكَ وجَدْتَ عليَّ حين عَرضتَ عليَّ حفصة فلم أَرْجِعِ إليك شيئاً؟ قال عمر: قلت: نعم، قال أبو بكر: فإنه لم يمنعْني أن أرجع إليك فيما عرضتَ عليَّ إلا أني كنتُ علمتُ أن رسول الله ﷺ قد ذكرَها، فلم أكن لأفشيَ سِرَّ رسول الله ﷺ، ولو تركَها رسول الله ﷺ قبلْتُها)[١].

ولعلّ اطلاعَ أبي بكر على أن النبي ﷺ قَصَد خطبة حفصة كان بإخباره له ﷺ، إما على سبيل الاستشارة، وإما لأنه كان لا يَكتم عنه شيئاً مما يريده حتى ولا ما في العادة عليه غَضَاضة وهو كون ابنته عائشة عنده، ولم يمنعه ذلك من إطلاعه على ما يريد لوثوقه بإيثاره إياه على نفسه[٢].

والصدِّيق في هذا الصنيع قد جرى على خير سُنّة يجري عليها أمناءُ الأسرار، وحقق بذلك مصلحتين جليلتين:

أولاهما: حفظُ سرّ النبي ﷺ وما قد يبدو له في العدول عما عزم عليه، فيكون فيه شيء من الحرج للرسول ﷺ مع واحد من جِلَّة أصحابه رضي الله عنهم وهو عمر.

وثانيتهما: حفظ كرامة عمر ومنزلته، فهو لو علِم بما ذكره

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٢٢)، وأطرافه في (٤٠٠٥)؛ والنسائي في الكبرى (٥٣٤٣)؛ والصغرى: ٦/ ٧٦ ـ ٧٧؛ وأحمد: ١/ ١٢، ٢/ ٢٧؛ وابن سعد: ٨/ ٨١ ـ ٨٢؛ وابن حبان (٤٠٣٩).

(٢) الفتح: ١١/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣ (٥١٢٢).

النبي ﷺ ، ثم إنه ﷺ قد غيَّر رأيه ، فقد يشعر عمر بالانكسار والغضاضة في ذلك . فآثَرَ الصديق أن يُلام هو باديَ الرأي ولا يترتب شيء على إفشاء ذلك السر ، فكان من ذلك كل الخير له ولعمر ولحفصة[1] .

وعن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما : (أن أصحاب الصُّفَّة كانوا أناساً فقراء ، وأن النبي ﷺ قال مرَّةً : «مَن كان عنده طعامُ اثنين **فَلْيذهَب بثالثٍ ، ومن كان عنده طعامُ أربعة فليذهبْ بخامس أو سادس**» ، أو كما قال ، وأن أبا بكر جاء بثلاثة ، وانطلَق النبيُّ ﷺ بعشرة ، وأبو بكر ثلاثة ، قال : فهو أنا وأبي وأمي ، ـ ولا أدري هل قال : امرأتي؟ ـ وخادمي بين بيتنا وبين بيت أبي بكر ، وأن أبا بكر تعشَّى عند النبي ﷺ ، ثم لبِث حتى صلى العشاء ، ثم رجع فلبث حتى تعشى رسول الله ﷺ ، فجاء بعدما مضَى من الليل ما شاء الله) الحديث .

وفي رواية : (وإنَّ أبا بكر تعشَّى عند النبي ﷺ ، ثم لَبِثَ حتى صُلِّيتِ العشاءُ ، ثم رَجَع فلبِثَ حتى نَعسَ رسول الله ﷺ ، فجاء بعدما مضَى من الليل ما شاء الله)[1] .

فهذا الحديث يدلُّ على أن أبا بكر أحضَر أضيافَه إلى منزله ، وأمر أهله أن يضيفوهم ، ورجع هو إلى النبي ﷺ وتعشى عنده ، ثم لبث حتى صلى العشاء ، ثم تأخر عند النبي ﷺ إلى أن مضى من الليل ما شاء الله ، ونَعَس النبي ﷺ وقام لينام ، فرجع أبو بكر حينئذٍ إلى بيته[2] .

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٨١) ، وأطرافه في (٦٠٢)؛ ومسلم (٢٠٥٧)؛ وللحديث تتمة في بيان كرم الصديق وجوده، ستأتي ص ٢٨٩ حاشية (١) في هذا الكتاب .

(٢) الفتح : ٨/ ٤٩٣ شرح الحديث (٣٥٨١) .

وفي هذا دليل ظاهر على ما كان عليه الصديق من الحب للنبي ﷺ ، والانقطاع إليه وإيثاره في ليله ونهاره على الأهل والأولاد والضيفان وغيرهم[١].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ لا يزالُ يَسْمُر عند أبي بكر الليلةَ في الأمر من أمور المسلمين ، وإنَّه سَمَر عنده ذاتَ ليلةٍ وأنا معه)[٢].

خامساً: في مجالس رسول الله ﷺ:

وكان أبو بكر حريصاً أتمَّ الحرص على ملازمة مجالس النبي ﷺ ، يتأدب بآدابه ، وينهل من مَعين هَدْيه ، ويحمل عنه العلم ، وينفِّذ أوامره ، ويسارع إلى تلبية رغباته ، ويستقبل الوفود والغرباء. وكان رسول الله ﷺ به حَفيّاً ، يُظهر منزلته للناس ويعلي من شأنه بما هو أهل له ، وقد عرف الصحابة له ذلك فقدَّموه لتقديم النبي ﷺ له ، ولجلالته وأحقيته بالإكرام والتبجيل.

●● عن مجمِّع بن يعقوب الأنصاري، عن أبيه، قال: (إنْ كانت حلقةُ رسول الله ﷺ لَـتَشتبِكُ حتى تصير كالإسوار ، وإن مجلس أبي بكر منها لفارغٌ ما يَطمع فيه أحدٌ من الناس، فإذا جاء أبو بكر جلس ذلك المجلس، وأقبل عليه النبي ﷺ بوجهه ، وألقى إليه حديثه ، وسمع الناس)[٣].

(١) شرح صحيح مسلم ، للنووي: ٧/ ٢٦٧.

(٢) أخرجه ابن حبان (٢٠٣٤) واللفظ له؛ والترمذي (١٦٩) وحسنه؛ وأحمد: ١/ ٢٥ ـ ٢٦ ، ٣٤؛ وصححه أحمد شاكر وشعيب الأرنؤوط.

(٣) أخرجه ابن عساكر ، ص ٢٢٥ ، وقال: هذا مرسل.

وعن ثابت البُنَانيِّ ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أنَّ رسول الله ﷺ كان يَخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوسٌ ، فيهم أبو بكر وعمر ، فلا يَرْفَعُ إليه أحدٌ منهم بصرَه إلا أبو بكر وعمر ، فإنهما كانا يَنظران إليه ويَنظر إليهما ، ويتبسَّمانِ إليه ويتبسَّمُ إليهما)(١).

عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: (أنه قدِمَ رَكْبٌ من بني تَميم على النبي ﷺ ، فقال أبو بكر: أمِّرِ القعْقَاعَ بنَ مَعْبَد بن زُرارة ، قال عمر: بل أمِّرِ الأقرعَ بن حابس ، قال أبو بكر: ما أردتَ إلا خِلافي ، قال عمر: ما أردتُ خلافَك! فتمارَيا حتى ارتفعتْ أصواتُهما! فنزل في ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١] حتى انقضَتِ الآية)(٢).

عن طارق بن شهاب ، عن أبي بكر رضي الله عنه قال: (لمَّا نزلت: ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ. . . ﴾ الآية ، قال أبو بكر: قلتُ: يا رسولَ الله! آلَيْتُ لا أكلِّمك إلا كأخِي السِّرار)(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٦٨) واللفظ له؛ والطيالسي (٢٠٦٤)؛ وأحمد: ٣/ ١٥٠؛ وأبو يعلى (٣٣٨٧) و(٣٤٨٩)؛ والبغوي (٣٨٩٨)؛ وحسنه شعيب الأرنؤوط في تعليقه عليه؛ وحسنه عبد القادر الأرنؤوط في تعليقه على جامع الأصول: ٨/ ٦٢٩.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٦٧) وأطرافه؛ والترمذي (٣٢٦٦)؛ والنسائي في الكبرى (٥٩٠٤) و(١١٤٥٠)؛ وفي الصغرى: ٨/ ٢٢٦؛ وأحمد: ٤/ ٦؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٣٥).

(٣) ذكره الحافظ في الفتح: ١/ ٦٦٩ ـ ٦٧٠ (٤٨٤٥) ، وسكت عليه؛ وأخرجه =

وقوله: (**كأخي السِّرار**): أي كالمناجي سرّاً؛ حيث يخفض صوته ويُبالغ حتى يحتاج إلى استفهامه عن بعض كلامه[1].

وهذا أدب طبعي من الصديق، والتزام تام بتوجيهات القرآن الكريم، وإجلال رفيع لمقام النبوة.

وقد عرف الصحابة رضي الله عنهم منزلة أبي بكر عند النبي ﷺ، فكانوا يجلُّونه ويوقِّرونه ويقدِّمونه على أنفسهم، ويعبِّر عن ذلك هذا الموقف من الفاروق عمر، الذي يرويه أنس بن مالك فيقول:

(أتانا رسول الله ﷺ في دارنا، فاستسقى، فحَلَبْنا له شاةً، ثم شُبْتُه من ماء بئري هذه، قال: فأعطيتُ رسول الله ﷺ، فشَرِب رسول الله ﷺ، وأبو بكر عن يساره، وعمر وِجَاهَهُ، وأعرابيٌّ عن يمينه، فلما فرغ رسول الله ﷺ من شُرْبه، قال عمر: هذا أبو بكر يا رسول الله، يُرِيه إيَّاه، فأعطى رسول الله ﷺ الأعرابيَّ، وترك أبا بكر وعمر، وقال رسول الله ﷺ: «**الأيْمَنُونَ، الأيمنون، الأيمنون**» قال أنس: فهي سُنَّةٌ، فهي سنة، فهي سنة).

وفي رواية: (فقال عمرُ ـ وخافَ أن يُعطِيَه الأعرابيَّ ـ: أَعْطِ أبا بكر يا رسول الله عندك، فأعطاه الأعرابيَّ الذي عن يَمينه، ثم قال: «**الأيمنَ فالأيمنَ**»)[2].

= الحاكم: ٣/٧٤ وفيه ضعف نبَّه عليه الذهبي، وأخرجه ابن عساكر عن أبي هريرة، ص ٢٩٩.

(١) الفتح: ١٧/١٠٣ (٧٣٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٥٢) وأطرافه؛ ومسلم (٢٠٢٩)، وغيرهما.

وقد بيَّن النبي ﷺ أن السنة تقديم الأيمن ، ولو كان الأفضل على الجهة اليسرى ، ولا يلزم من ذلك حطُّ رتبة الأفضل ، وكان ذلك لفضل اليمين على اليسار[1] .

●● ومن جلالة الصديق ومكانته عند رسول الله ﷺ وعند أصحابه وعامة الناس : أنه كان بمثابة (رئيس التشريفات) ، إذا قدِم الوجهاء والوفود على النبي ﷺ حرص على تعجيل البشرى بقدومهم ليُدخل السرورَ على قلبه ﷺ ، وكـان يوجِّههم إلى آداب المقابلـة مع مقام النبوة ، ويعلِّمهم كيف يسلِّمون ، ويأمرهم بالسَّكينة والوَقار عند رسول الله ﷺ[2] .

وعندما جاء وفدُ ثَقيف ودنَوا من المدينة ، لَقَوا المُغيرة بنَ شعبة يرعى في نَوْبته رِكابَ أصحاب رسول الله ﷺ ، فلما رآهم المغيرة وَثَب يشتدّ ليبشِّر النبيَّ ﷺ بقدومهم عليه ، فلقيه أبو بكر الصديق فأخبره عن رَكْب ثقيف أنهم قدِموا يريدون البيعة والإسلام ، فقال أبو بكر للمغيرة : أقسمتُ عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله حتى أكون أنا الذي أحدِّثه ، ففعل المغيرة ، فدخل أبو بكر على رسول الله ﷺ فأخبره ، فَسُرَّ بقدومهم[3] .

ومن آدابه رضي الله عنه في مجالسه مع النبي ﷺ حرصُه على إدخال

---

(١) الفتح : ١٢/٦٢٨ (٥٦١٢).
(٢) أبو بكر ، للطنطاوي ، ص ٢٣٠ .
(٣) طبقات ابن سعد : ١/٣١٣؛ السيرة ، لابن هشام : ٢/٥٣٩ ـ ٥٤٠؛ تاريخ الطبري : ٣/٩٨ .

السرور على قلبه ﷺ ، من ذلك ما روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت :

(كان النبي ﷺ جالساً مع أصحابه ، وبجنبه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، فأقبل العباس رضي الله عنه ، فأوسَعَ له أبو بكر ، فجلس بين النبي ﷺ وبين أبي بكر ، فقال النبي ﷺ لأبي بكر : «**إنما يَعرف الفضلَ لأهل الفضلِ أهلُ الفضل**»)[1] .

* * *

---

(١) حياة الصحابة : ٢/ ٤٤٤ .

الفصل الثاني

جهاده ومشاهده مع رسول الله ﷺ

جاهد أبو بكر بلسانه ويده وماله ، فنالَ خيرات الجهاد في سبيل الله من أطرافها؛ فهو أولُ مَن أظهرَ الإسلام بمكة قبل أن يَبلغ المسلمون أربعين نفساً ، وأُوذي في ذلك أذى شديداً ، ولقي من الضرب والتنكيل ما أشفى به على الهلاك ، وتحمَّل الأهوال في سبيل الدعوة إلى الله في ظل رسول الله ﷺ ، وجاهد بماله فأنفقه كله نصرةً لله ورسوله ودعوةً لدينه وتثبيتاً لأركانه ، ونافَحَ عن النبي ﷺ بيده ونفسه ، وخاض معارك الإسلام وغزواته فما تخلَّف عن واحد من المشاهد معه ﷺ ، وكان صاحب الراية غيرَ مرَّة.

وكان رضي الله عنه أشجعَ الناس بعد رسول الله ﷺ ، (والشجاعة تُفَسَّر بشيئين: **أحدهما**: قوةُ القلب وثباتُه عند المخاوف ، **والثاني**: شدَّة القتال بالبدن ، بأن يَقتل كثيراً ، ويقتل قتلاً عظيماً. والأول هو الشجاعة ، وأما الثاني فيدلّ على قوة البدن وعمله).

وثباتُ القلب والإقدامُ على المكاره هي الخصلة التي يُحتاج إليها في أمراء الحرب وقوّاده ومُقدَّميه ، وإن لم يَقتلوا بأيديهم كثيراً من الأعداء ، فالنبي ﷺ هو أكمل الناس في الشجاعة ، ولم يقتل بيده إلا أبيّ بن خلَف.

(فإذا كانت الشجاعةُ المطلوبة من الأئمة شجاعةَ القلب ، فلا ريب أن أبا بكر كان أشجعَ من عمر ، وعمرُ أشجَعَ من عثمان وعلي وطلحة والزبير . وهذا يعرفه من يعرف سيرهم وأخبارهم؛ فإن أبا بكر رضي الله عنه باشَرَ الأهوالَ التي كان يباشرها النبي ﷺ من أول الإسلام إلى آخره ، ولم يَجبُن ولم يحرج ولم يفشل، وكان يقدِم على المخاوف : يقي النبي ﷺ، يجاهد المشركين تارة بيده وتارة بلسانه وتارة بماله ، وهو في ذلك كله مُقْدِم ، وكان يوم بدر مع النبي ﷺ في العريش ، مع علمه بأن العدو يقصدون مكان رسول الله ﷺ ، وهو ثابتُ القلب ، ربيطُ الجأش ، يُظاهِر النبيَّ ﷺ ويعاونه)[1] .

وله في أيامه مع رسول الله ﷺ مواقف بَلَغ فيها قمةَ الذروة من الشجاعة النفسية والثبات والصبر[2] .

شهد مع رسول الله ﷺ بدراً وأُحداً والخندق والحُديبية والمشاهدَ كلها ، ودَفَع النبي ﷺ إليه رايتَه العظمى يوم تبوك وكانت سوداءَ ، وكان فيمن ثَبَت مع النبي ﷺ يوم أحد ويوم حنين حين ولَّى الناسُ ، ولم يختلِف أهل السِّير في أن الصديق رضي الله عنه لم يتخلَّف عن رسول الله ﷺ في مشهدٍ من مشاهده كلها[3] .

أولاً: في غزوة بدر:

كان للصديق يوم بدر مواقف جليلة؛ كل واحد منها يُعتبر مفخرةً

(١) منهاج السنة النبوية : ٤/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨ .
(٢) محمد رسول الله ﷺ : ٣/ ٦٠٧ .
(٣) طبقات ابن سعد : ٣/ ١٧٥ ؛ صفة الصفوة : ١/ ٢٤٢ ؛ أسد الغابة : ٣/ ٢١٢ .

ينافس عليها أكارم الرجال: فكان مع النبي ﷺ في الشورى لملاقاة قريش وحربها ، ومعه في استطلاع خبر القوم ، ومعه في العريش يحرسه وينافح عنه ويقاتل إلى جنبه ، ثم في ختام المعركة له الشورى بشأن الأسرى.

لمّا جاء النبيَّ ﷺ خبرُ مسير قريش ليمنعوا عِيرهم ، استشار ﷺ الناس ، فقام أبو بكر فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المِقداد بن عَمْرو فقال: يا رسول الله! امضِ لِما أراكَ الله فنحن معك ، والله لا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكن اذهَبْ أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سِرتَ بنا إلى بَرْك الغِماد لجالدنا معك من دونه حتى تَبْلُغَه! فقال له رسول الله ﷺ خيراً ، ودعا له به(١).

وركب ﷺ هو وأبو بكر يستطلعا خبر قريش ، حتى وقفا على شيخ من العرب ، فسأله رسول الله ﷺ عن المسلمين وعن قريش ، فكان مما قاله هذا الشيخ: بَلَغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذي أخبرني صَدَقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذي فيه قريش(٢).

وأخذ كل من الفريقين موقعه من أرض بدر ، وتهيأ الناس للقتال ،

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام: ١/ ٦١٥؛ سبل الهدى والرشاد: ٤/ ٤٢؛ وبنحوه عند مسلم (١٧٧٩)؛ والنسائي في الكبرى (٨٢٩٠)؛ وابن حبان(٤٧٢١) ، عن أنس بن مالك.

(٢) السيرة ، لابن هشام: ١/ ٦١٦؛ سبل الهدى والرشاد: ٤/ ٤٣ ـ ٤٤.

فقال سعد بن معاذ رضي الله عنه: (يا رسولَ الله! ألاَ نبني لك عَريشاً تكون فيه ، ونُعِدّ عندك ركائبك ، ثم نلقَى عدوَّنا ، فإن أعزَّنا الله تعالى وأَظْهَرنا على عدوِّنـا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلستَ على ركائبك فلَحِقتَ بمن وراءنا من قومنا ، فلقد تخلَّف عنك أقوامٌ ـ يا نبيَّ الله ـ مـا نحن بأشدَّ لك حبّاً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلَّفوا عنك ، يمنعُك الله بهم ، يُناصحونك ويجاهدون معك! فأثنى رسول الله ﷺ عليه خيراً ، ودعا له بخير. ثم بُني لرسول الله ﷺ عَريشٌ على تلٍّ مشرِف على المعركة ، فكان فيه هو وأبو بكر ليس معهما غيرهما)[1].

عن محمد بن عَقيل ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (أنه خَطبهم فقال: يا أيها الناسُ ، مَن أشجعُ الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين ، فقال: أمَا إني ما بارزني أحدٌ إلا انتصفتُ منه ، ولكنْ هو أبو بكر! إنا جعلنا لرسول الله ﷺ عَريشاً ، فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يَهوي إليه أحدٌ من المشركين؟ فوالله ما دَنَا منَّا أحد إلا أبو بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ ، لا يَهوي إليه أحد إلا أهوى إليه ، فهذا أشجعُ الناس)[2].

ورسول الله ﷺ أشجَعُ الناس قاطبةً ، وأثبتُهم جَناناً ، وأربطُهم جأْشاً ، فكان إذا حَمِي الوَطيس واحمرَّتِ الحَدَق ، كان أقربَ الناس إلى العدو ، وإن أبطال الصحابة ليَحتمون به ﷺ.

---

(١) السيرة ، لابن هشام: ١/ ٦٢٠ ـ ٦٢١ ، تاريخ الطبري: ٢/ ٤٤٠ ـ ٤٤١؛ سبل الهدى والرشاد: ٤/ ٤٩. **العريش**: شبه الخيمة يستظل به.

(٢) تقدم مطولاً: ص ١٠٩ ـ ١١٠ حاشية (١) في هذا الكتاب.

(ولكن كان بقاؤه في العريش في حرب منظمة ، وإشرافه على المعركة؛ لحكمة تقتضيها القيادة العامة ، وتستلزمها المصلحة ، والقائد العام اليوم لا يكون إلا بعيداً عن ساحة المعركة ، لأنه إذا تقدَّم لم يكن إلا رجلاً من الرجال ، لا يتوقف عليه نصر ولا هزيمة ، أما إذا ابتعد فهو الجيش كله)[1].

وأعدَّ الرسول ﷺ العدّة ، وهيأ الأسباب ، وسمَّى الأبطال للمبارزة والنزال ، واشتد أوار المعركة ، والنبي ﷺ يرى أصحابه في قلَّتهم وتكالبِ الكفر عليهم ، فيلجأ إلى الله في عليائه ـ كما هو حاله في كل وقت من عسر ويسر ـ ويستغيث به سبحانه ، ويَستنزل النصر من عنده كما وعَدَه.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: حدَّثني عُمر بنُ الخطاب ، قال: (لمَّا كان يومُ بَدْرٍ ، نَظَر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألفٌ ، وأصحابُهُ ثلاثُمئةٍ وتسعةَ عشر رجلاً ، فاستقبل نبيُّ الله ﷺ القِبْلَةَ ، ثم مدَّ يديه فجعلَ يَهتِفُ بربِّه: «**اللهمَّ أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَني ، اللهمَّ آتِ ما وعدتَني ، اللهمَّ إنْ تَهْلِكْ هذه العصابةُ من أهلِ الإسلام لا تُعبدْ في الأرض**»! فما زال يهتِفُ بربِّه مادّاً يديه ، مستقبلَ القبلَة ، حتى سَقَطَ رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاهُ على مَنْكِبيه ، ثم التزَمَهُ من ورائه ، وقال: يا نبيَّ الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك! فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ

(١) أبو بكر ، للطنطاوي ، ص ١٢٠.

﴿ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩]، فأمدَّه الله بالملائكة[(١)].

● ولنا هنا وقفات وعِبر جليلة:

الأولى: هذا الموقف يدلُّ على كمالِ يقين الصدِّيق، وثقته بوعد الله، وثباتِه وشجاعته شجاعة إيمانية زائدة على الشجاعة الطبيعية.

وكان حالُ رسول الله ﷺ أكملَ من حاله، ومقامُه أعلى من مقامه، ولم يكن الأمر ـ كما ظنَّه بعض الجهال ـ أن حالَ أبي بكر أكملُ ـ نعوذ بالله من ذلك! ـ ولا نقصَ في استغاثة النبي ﷺ ربَّه في هذا المقام. وذلك الدعاء والاستغاثة كان أعظمَ الأسباب التي نزل بها النصر، ومقامُ أبي بكر دون هذا، وهو معاونة الرسول والذبُّ عنه، وإخباره بأنَّا واثقون بنصر الله تعالى[(٢)].

الثانية: قال الخطَّابي: لا يجوزُ أن يتوهَّم أحدٌ أن أبا بكر كان أوثقَ بربِّه من النبي ﷺ في تلك الحال، بل الحامل للنبي ﷺ على ذلك شفقتُه على أصحابه وتقوية قلوبهم، لأنه كان أولَ مشهد شهده، فبالَغَ في التوجه والدعاء والابتهال لتسكُنَ نفوسُهم عند ذلك، لأنهم كانوا يعلمون أن وسيلته مستجابة، فلما قال له أبو بكر ما قال، كَفَّ عن ذلك، وعَلِم أنه استُجيب له، بما وجده أبو بكر في نفسه من القوة والطمأنينة، فلهذا عقَّب ﷺ بقوله: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥][(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٣) واللفظ له؛ والترمذي (٣٠٨١)؛ وأحمد: ١/ ٣٠ ـ ٣١؛ وابن حبان (٤٧٩٣)؛ والبغوي (٣٧٧٧)، وغيرهم.

(٢) منهاج السنة النبوية: ٤/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩، باختصار.

(٣) الفتح: ٩/ ١٩٩، شرح الحديث (٣٩٥٣)؛ شرح السنة: ١٣/ ٣٨١؛ وانظر: البداية والنهاية: ٣/ ٢٧٢.

الثالثة: رقَّةُ أبي بكر رضي الله عنه على النبي ﷺ لِما رأى من نَصَبِه في الدعاء والتضرُّع حتى سقط رداؤه عن مَنْكِبيه، فقال له: لِم تتعب نفسك هذا التعب واللهُ قد وعدك بالنصر؟! فكان رضي الله عنه رقيقَ القلب شديد الإشفاق على النبي ﷺ[1].

الرابعة: شجاعة الصديق الباهرة وثباتُ جَنانه ورباطةُ جَأْشه، حيث وقف يحمي الرسول ﷺ في العريش، وهو يعلم حَنَقَ المشركين على النبي ﷺ واستهدافَهم نفسه الشريفة وحرصَهم على قتله، والسيوفُ الباترة تلهث وراءه والسهام الطائشة تتناوشه من كل مكان... فلا يأبَهُ بكل ذلك ولا يَلتفت إليه ما دام هو قائماً لحماية النبي ﷺ وحفظه.

الخامسة: اقتبس أبو بكر في العريش موقفاً فذّاً ودرساً بليغاً من حقائق الإيمان ورسوخ اليقين والركون إلى الله سبحانه واللجوء إليه في مدلهمَّات الأمور وعند تكالب الأعداء، فرسخ في فؤاده ضياءُ تلك الضراعة الأوّاهة المستغيثة من النبي ﷺ وهو يستنزل النصر ويطلب المدد الإلـٰهي.

إن كثيراً من الناس يغيب عن أذهانهم جلالةُ الدعاء وخطورة التعلق بالله سبحانه عندما يثور نَقْعُ المعركة وتلتمع السيوف ويُجلجل صَليلُها، بَيْدَ أن القلوب الحية لا تغفل لحظة عن الركن الشديد الذي يأوي إلى كَنَفِه الربانيون عند احتدام الأزمات.

ولقد أفاءَ هذا الموقفُ على الصديق من اليقظة والنباهة والقوة والاستعصام بالحق؛ ما مزَّق الغشاوة وبدَّد كل المخاوف والمخاطر:

---

(١) أبو بكر، للطنطاوي، ص ١٢٠ـ١٢١، حاشية.

إبَّان وفاة النبي ﷺ ، وعند تكالب المرتدين على المسلمين ـ فلم تلِنْ له قناة ، ولم يُخطئ له حَدْس ، ولا خابَ له رجاء.

●● وهنـاك على أرض بدر، وفي ساعاتها القليلـة في العدد، الجليلة في الأثر ، والتي سطّرتْ أبرزَ معالم صراع الحق مع الباطل في تاريخ الإنسانية عموماً و تاريخ الإسلام خصوصاً، ولا تزال مشاعلها تضيء للمسلمين جيلاً إثر جيل. . . هناك تأتي تلك البشرى للصديق الأكبر.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ ولأبي بكر: «**مع أحدِكما جبريلُ ومع الآخَر ميكائيلُ ، وإسرافيلُ مَلَكٌ عظيمٌ يَشهد القتالَ ويكون في الصف**»[1].

ونزل رسول الله ﷺ إلى أرض المعركة وقاتل أشدَّ القتال ، حتى قال البطل الكَرَّار علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (لقد رأيتُنا يومَ بَدْر ونحن نَلُوذُ برسول الله ﷺ ، وهو أقربُنا إلى العدو ، وكان من أشدّ الناس يومئذٍ بأساً)[2].

وكان معه أبو بكر ، وهناك كان ابنه عبد الرحمن بن أبي بكر مع المشركين لا يزال على دين قومه ، فلم تمنع عاطفةُ الأبوة أبا بكر من أن يُقاتِل ابنَه الذي لم يَـتُب إلى رشده ولم يؤمن بالله ورسوله يومذاك.

أخرج الحاكم والبيهقي: (أن عبد الرحمن دَعَا إلى البِراز يوم بدر ،

---

(١) أخرجه أحمد: ١/ ١٤٧؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٤٦٩؛ وابن سعد: ٣/ ١٧٥ ـ ١٧٦؛ وابن أبي عاصم في السنة (١٢١٧)؛ والحاكم: ٣/ ٦٨ ، وصححه ووافقه الذهبي؛ وصححه أحمد شاكر، والألباني في الصحيحة (٣٢٤١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/ ٤٧٠؛ وأحمد: ١/ ٨٦ ، وصححه أحمد شاكر.

فقام إليه أبوه أبو بكر رضي الله عنه ليبارزه ، فذُكر أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر : «متِّعْنا بنفسك»![1].

فهذا الموقف من أبي بكر هو آية الآيات في باب البطولة والتضحية ، حيث يبرز لابنه ويستأذِنُ النبيَّ ﷺ في الخروج! ولكن أبا بكر هو القائد الثاني لجيش الإسلام ، يحتاج المسلمون إلى رأيه وعقله المدبِّر ، فلم يأذَنْ له القائد الأعظم ، وأشعره بالحاجة إليه ؛ فقال : «متِّعْنا بنَفْسك»[2].

ولم تَغِب شمس يوم الجمعة السابع عشر من رمضان حتى أنزل الله على المسلمين النصر المبين ، وأسفرت المعركة عن (٧٠) قتيلاً من المشركين و(٧٠) أسيراً منهم ، فاستشار النبي ﷺ أصحابه بشأن الأسرى ، وكان رأي الصديق أخذ الفِدية يتقوى بها المسلمون ، ورجاءَ أن يهديهم الله إلى الإسلام[3].

ثانياً: في أُحد وحمراء الأسد:

في غزوة أُحد عندما خالفَ الرماةُ أمرَ النبي ﷺ ، وحاقَتِ الهزيمة بالمسلمين ، ثَبَت رسول الله ﷺ فما يزول عن موقفه ، ولم تَزُل قدمُه شبراً واحداً ، وإنه لفي وجه العدو ، وثبتتْ معه عصابة من المهاجرين والأنصار ، منهم: أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأبو دُجانة ، وسعد بن معاذ ، ومحمد بن مَسْلَمة[4].

---

(١) المستدرك : ٣/ ٤٧٤ ؛ السنن الكبرى، للبيهقي : ٨/ ١٨٦ ، من طريق الواقدي .
(٢) حياة رجالات الإسلام ، ص ٥٧ .
(٣) انظر تفصيل ذلك : ص ٢١٨ ـ ٢١٩ من هذا الكتاب .
(٤) طبقات ابن سعد : ٢/ ٤٢ ؛ سبل الهدى والرشاد : ٤/ ٢٩٢ .

وتُحدِّث أم المؤمنين عائشة عن أبيها فتقول: (كان أبو بكر إذا ذَكَر يومَ أُحد قال: ذلك اليوم كلُّه لطلحة! ثم أنشأ يحدِّث ، قال: كنتُ ممن فاءَ إلى رسول الله ﷺ يوم أُحد ، فرأيتُ رجلاً يقاتل مع رسول الله ﷺ دونه ويحميه ، قلتُ: كُنْ طلحةَ ، حيث فاتني ما فاتني ، فقلتُ: يكون رجلاً من قومي[1] أحب إليَّ ، وبيني وبين رسول الله ﷺ رجل لا أعرفه ، وأنا أقربُ إلى رسول الله ﷺ منه ، وهو يخطَف المشيَ خطفاً لا أخطفه ، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح ، فانتهيتُ إلى رسول الله ﷺ ، وقد كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُه ، وشُجَّ وجْهُه ، وقد دَخَل في وَجْنَتيه حَلْقتان من حَلَق المِغْفَر ، فقال رسول الله ﷺ: «**عليكما صاحبَكما**» يريد طلحةَ ، وقد نَزَف الدم فتركناه ، وذهبتُ لأنزِع ذلك من وجه رسول الله ﷺ ، فقال أبو عبيدة: أقسمتُ عليك بحقي لَمَا تركتني ، فتركتُه ، وكَرِه أن يتناولها بيده فيؤذي رسول الله ﷺ ، فأَزَمَّ عليها بفِيه ، فاستخرج إحدى الحلْقتين ، ووقعت ثَنِيَّتُه مع الحلْقة! وذهبتُ لأصنعَ ما صنعَ ، فقال: أقسمتُ عليك بحقي لما تركتَني ، ففعل كما فعل في المرة الأولى ، فوقعتْ ثَنِيَّتُه الأخرى مع الحلقة! فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هَتَماً ، فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ. ثم أتينا طلحةَ في بعض تلك الحُفَر ، فإذا به بضعٌ وسبعون ـ أو أقل أو أكثر ـ من طعنةٍ وضربةٍ ورميةٍ ، وإذا قد قُطعت إصبعُه ، فأصلحنا من شأنه)[2].

---

(١) لأن أبا بكر وطلحة من بني تَيْم.

(٢) أخرجه الطيالسي ، ص٣؛ وابن سعد: ٣/ ٤١٠؛ والحاكم: ٣/ ٢٦٦ ، ٣٧٦؛ وهو في البداية والنهاية: ٤/ ٢٩ ـ ٣٠؛ وسبل الهدى والرشاد: ٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦. وهو خبر ضعيف. قوله: (**يخطف**): أي يسرع. (**أَزَمَّ**): عَضَّ. (**هَتَماً**): الأهتم: من انكسرت ثناياه من أصلها وانقلعت.

وقد كان مردة المشركين من قريش حريصين على قتل النبي ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر لمكانتهما وجلالتهما ، وهذا ما يعبر عنه موقف أبي سفيان بعد انتهاء المعركة.

ففي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: (قال أبو سفيان: أَفِي القوم محمدٌ؟ ثلاث مرات ، فنَهاهُمُ النبي ﷺ أن يُجيبوه. ثم قال: أَفي القوم ابنُ أبي قُحافة؟ ثلاث مرات. ثم قال: أفي القوم ابنُ الخطاب؟ ثلاث مرات. ثم رَجَع إلى أصحابِه فقال: أمَّا هؤلاء فقد قُتلوا. فما مَلَكَ عمرُ نفسَه فقال: كذبتَ والله يا عدوَّ الله ، إنَّ الذين عَدَدْتَ لأحياءٌ كلّهم ، وقد بقي لك ما يَسُوءُك!)[1].

ورغم الجراحات الأليمة والمُصاب الجَلل الذي نزل بالمسلمين في نبيهم وشهدائهم ، فقد انطوت عزيمة رسول الله ﷺ وعزائم أصحابه على الشجاعة الباهرة التي تؤكد ثبات القلب ورباطة الجأش ورسوخ القدم؛ فأذَّن مؤذن النبي ﷺ في الناس بطلب العدو ، وأن لا يَخرج معهم إلا من حضر بالأمس وقعة أحد ، يريد بذلك إشعار قريش بقوة جيش المسلمين.

فلبى الرجال الذين صنعهم رسول الله ﷺ ، وهم يكمدون جراحهم ويعالجون قروحهم ويكتمون آلامهم! وههنا تكون البطولة والشجاعة والرجولة والمروءة والنُّصرة.

وكان أبو بكر الصديق في مقدمة هؤلاء الميامين النبلاء ، فهو رضي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٣٩) وأطرافه؛ والنسائي في الكبرى (٨٥٨١)؛ وابن سعد: ٢ / ٤٧؛ وابن حبان (٤٧٣٨) ، وغيرهم.

الله عنه وأرضاه يسجل في كل ساعة من عمر الدعوة مواقف ومشاهد ومآثر ومفاخر.

عن عروة بن الزبير، (عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢]، قالت لعروة: يا بنَ أُختي، كان أبواكَ منهم: الزبير وأبو بكر، لمَّا أصابَ رسول الله ﷺ ما أصاب يومَ أُحدٍ، وانصرف عنه المشركون، خاف أن يرجعوا، قال: «مَن يذهبُ في إثْرِهم» فانتَدَب منهم سبعون رجلاً، قال: كان فيهم أبو بكر والزبير)[1].

ثالثاً: في بني النَّضير وبني المُصْطلِق (المريسيع) والخندق وبني لحيان:

ـ وشهد أبو بكر مع النبي ﷺ غزوة يهود بني النَّضير، وكانت مقدماتها أن النبي ﷺ خرج إليهم يستعينهم في دية رجلين قتلهما عَمْرو بن أمية الضَّمري، وكان ﷺ في جماعة قليلة من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد بن معاذ، فأظهروا له حسن الاستعداد والاستجابة، ثم ائتمروا به وعزموا على الغدر. وكان ﷺ جالساً إلى جنب جدار لهم، فاتفقوا على أن يصعد أحدهم على سطح البيت ويلقي على النبي ﷺ صخرة فيقتله! فجاءه الخبر من السماء، فقام سريعاً وتوجه إلى المدينة، وأرسل إلى بني النضير يأمرهم بالخروج من جواره، ثم حاصرهم وأجلاهم[2].

(١) أخرجه البخاري (٤٠٧٧)؛ واختصره مسلم (٢٤١٨)؛ وابن ماجه (١٢٤).

(٢) السيرة، لابن هشام: ٢/١٩٠؛ تاريخ الطبري: ٢/٥٥١؛ سبل الهدي والرشاد: ٤/٤٥١ ـ ٤٦٣.

ـ وشهد أيضاً غزوة بني المُصْطَلِق (وهي المُرَيْسِيع):

وبنو المُصْطَلِق بطْن من خُزاعة، وقد بَلَغَ النَّبي ﷺ أنهم يجمعون له يريدون غزوَ المدينة، وقائدُهم الحارث بن أبي ضِرار أبو جُويرية بنت الحارث التي تزوجها النبي ﷺ بعد هذه الغزوة وأصبحت من أمهات المؤمنين، فلما سمع ﷺ بتدبيرهم، بادرهم فخرج إليهم في (سبعمئة) من أصحابه، واستخلَف على المدينة أبا ذر الغِفَاري، ودَفَع راية المهاجرين إلى أبي بكر الصديق، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة.

ولقيهم رسول الله ﷺ على ماء لهم يُقال له: (المُرَيْسيع)، من ناحية قُدَيد إلى الساحل، فتزاحَفَ الناس واقتتلوا، فهزم اللهُ بني المصطلق، وقُتل من قُتل منهم، ونفَّلَ رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم[1].

ـ وفي شوال من سنة خمس للهجرة تألَّبت الأحزاب على المسلمين فكانت غزوة الخندق، وكان للصديق شرف شهودها، وشارك في حفر الخندق، ولم يتأخر عن العمل فيه أحد من المسلمين.

وكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ينقلان التراب في ثيابهما ـ إذ لم يجدا مَكَاتِل ـ من العجلة، وكانا لا يفترِقان في عمل ولا مسير ولا منزل[2].

ـ وشهد أبو بكر مع النبي ﷺ غزوة بني لِحْيَان:

وبنو لِحْيان هم الذين غدروا بعاصم بن ثابت بن أبي الأَقْلَح وإخوانِه

(١) السيرة، لابن هشام: ٢/٢٩٠؛ ابن سعد: ٢/٦٣ ـ ٦٥؛ البداية والنهاية: ٤/١٥٦.

(٢) سبل الهدى والرشاد: ٤/٥١٦.

أصحاب (سَرِيّة الرَّجِيع) ، ولم يَـزَل النبي ﷺ عازماً على الاقتصاص منهم حتى جمادى الأولى من سنة ست للهجرة. فخرج في مئتي راكب من أصحابه بعد أن استخلف على المدينة ابنَ أمّ مَكْتوم ، واتبع طريقة التعمية ، فسَلَك طريق الشام ليُرى أنه لا يريد بني لحيان ، فلما وصل إلى منازلهم هربوا ، وتمنَّعوا في رؤوس الجبال.

فأقام ﷺ يوماً أو يومين وبَعث السَّرايا في كل ناحية فلم يقدِروا على أحد ، ثم خرج حتى أتى عُسْفانَ ، فبعث أبا بكر في عشرة فوارس لتسمع به قريش فيذعرَهم ، فأتوا الغَميم ثم رجعوا ولم يلْقَوا أحداً. ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وهو يقول: «**آيبون تائبون عابدون لربِّنا حامدون**» وغاب عن المدينة أربع عشرة ليلة[1].

رابعاً: مع رسول الله ﷺ في الحديبية[2]:

عن عروة بن الزبير ، عن المِسْوَر بن مَخْرَمةَ ومروان بن الحَكَم ، يصدِّقُ كلُّ واحد منهما حديثه حديثَ صاحبه ، قالا:

(خَرَجَ النبيُّ ﷺ زمَنَ الحُدَيبية في بِضْع عَشْرَة مِئةٍ مِنْ أصحابِهِ حتَّى إذا كانوا بذي الحُليفةِ ، قلَّدَ رسول الله ﷺ وأَشعَرَ ، ثُمَّ أحرمَ بالعُمرةِ وبعثَ بينَ يديه عَيناً لهُ رجلاً مِنْ خُزَاعَةَ يَجِيئُهُ بخبرِ قريشٍ ، وسارَ رسول الله ﷺ

(١) السيرة ، لابن هشام: ٢/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠؛ ابن سعد: ٢/ ٧٩؛ السيرة النبوية ، لأبي شهبة: ٢/ ٣٢٢. **عسفان**: بلد على مسافة (٨٠كم) من مكة شمالاً على طريق المدينة. **والغميم**: موضع يقع على يسار طريق الصادر من عسفان على مسافة (١٦كم).

(٢) **الحديبية**: تقع الآن على مسافة (٢٢كم) غرب مكة على طريق جدة ، ولا تزال تعرف بهذا الاسم.

حتّى إذا كان بغَدِيرِ الأَشطاطِ قريباً من عُسفَانَ ، أتاهُ عينهُ الخُزاعيُّ ، فقالَ : إني تَرَكْتُ كعبَ بنَ لؤي ، وعامِرَ بنَ لؤي قد جَمَعُوا لكَ الأحابيشَ ، وجمعوا لكَ جموعاً كثيرةً ، وهم مقاتِلوكَ وصادُّوكَ عن البيتِ الحَرامِ ، فقالَ النبيُّ ﷺ : **«أشيرُوا عليَّ ؛ أتَرَوْنَ أنْ نَمِيلَ إلى ذَرَارِي هؤلاءِ الَّذينَ أعانوهُمْ فنُصِيبَهمْ ، فإن قَعَدُوا ، قعدوا موتورين محزونين ، وإن نَجَوْا يكونوا عنقاً قطعها اللهُ ، أمْ تَرَوْنَ أن نَؤُمَّ البيتَ ، فمن صدَّنا عنهُ ، قاتلناهُ؟»** .

فقالَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضوانُ اللهِ عليه : اللهُ ورسولُه أعلمُ ، يا نبيَّ اللهِ إنما جِئنا مُعتمرينَ ، ولم نجئْ لِقتَالِ أحَدٍ ، ولكِنْ مَنْ حالَ بيننا وبَيْنَ البيتِ قاتلناهُ ، فقالَ النبيُّ ﷺ : **«فَرُوحُوا إذاً»** .

قال الزهري في حديثه : وكان أبو هريرة يقولُ : ما رأيتُ أحداً أكْثَرَ مُشَاوَرَةً لأصحابِـهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ)[1] .

وعزمَتْ قريشٌ على أن يمنعوا النبيَّ ﷺ وأصحابَه من دخول مكة عَنْوَةً ، وقال ﷺ : **«والذي نَفْسِي بيده لا يَسألونني خُطَّةً يُعظِّمُونَ فيها حُرُماتِ اللهِ إلا أعطيتُهم إيّاها»**[1] .

وأرسلَتْ قريش من يُفاوِض رسول اللهِ ﷺ على ذلك .

فجاء أبو مسعود عروة بن مسعود الثَّقَفي ، فكان مما قاله لرسول الله ﷺ في مشهد من أصحابه فيهم أبو بكر : (أيْ محمد ، أرأيتَ إن استأصَلْتَ أمرَ قومِك ، هل سمعتَ بأحدٍ من العرب اجتاحَ أهلَه

---

(١) هذه أطراف من حديث سيأتي تخريجه : ص ٢٠٣ حاشية (١) في هذا الكتاب .
غدير الأشطاط : موجود تلقاء الحديبية .

قَبْلَك؟ وإنْ تكن الأُخرى ، فإني والله لا أرى وجوهاً ، وإني لأرى أشْوَاباً من الناس خَلِيقاً أن يفِرُّوا ويَدعُوكَ! فقال له أبو بكر: امْصُصْ بَظْرَ اللاَّتِ ، أنحنُ نَفِرُّ عنه وندَعُه؟! فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر! قال: أَمَا والذي نفسي بيده ، لولا يدٌ كانت لك عندي لم أَجْزِكَ بها لأَجبتُك)[(١)].

ثم جاء الحُلَيس بن عَلْقمة ، ثم مِكْرَز بن حَفْص ، ثم سُهَيل بن عَمْرو وهو الذي كتب كتاب الصلح مع رسول الله ﷺ.

وشَقَّ ذلك على المسلمين لأنهم صُدُّوا عن البيت ، ولِمَا رأَوْا ـ فيما ظَهر لهم ـ من حَيْفٍ عليهم في شروط الصلح!.

قالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: (فأَتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقّاً؟ قالَ: «**بَلَى**» قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلى الحَقِّ وعَدُوُّنَا على الْبَاطِلِ؟ قالَ: «**بَلَى**». قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا إذاً؟ قالَ: «**إِنِّي رَسُولُ اللهِ ، ولَسْتُ أعْصِيهِ ، وهوَ نَاصِري**» قُلْتُ: أوَ لَيْسَ كنْتَ تُحَدِّثُنا أَنَّا سنأتي البَيْتَ فنَطُوفُ بِهِ؟ قالَ: «**بلى ، فأخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ العامَ؟**» قال: قُلْتُ: لا ، قالَ: «**فإنَّك آتِيهِ ومُطَّوِّفٌ بهِ**» قالَ: فأَتَيْتُ أَبَا بَكرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَلَيْسَ هذَا نَبِيَّ اللهِ حقّاً ، قالَ: بَلَى ، قُلْتُ: أَلَسْنَا على الحَقِّ وعَدُوُّنَا عل البَاطِلِ؟ قالَ: بَلى ، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا إذاً؟ قالَ: أيُّها الرَّجُلُ ، إنَّهُ لرسول الله ﷺ ، ولَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ ، وهوَ نَاصِرُهُ ، فاسْتَمْسِكْ بغَرْزِهِ ، فوَاللهِ إنَّهُ عَلى الْحَقِّ ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كانَ يُحدِّثُنَا أَنَّا سَنأْتي البَيْتَ ونَطوفُ

---

(١) هذا طرف من حديث سيأتي تخريجه: ص ٢٠٣ حاشية (١) في هذا الكتاب.

بِهِ؟ قالَ: بَلَى ، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تأْتِيهِ العَامَ؟ قُلْتُ: لا ، قالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ ومطَّوِّفٌ بِهِ.

قال الزُّهرِيُّ: قال عُمَرُ: فعَمِلْتُ لذلكَ أعْمَالاً).

فلما فَرَغَ من قضيَّة الكتابِ ، قال رسول الله ﷺ لأصحابِه: «**قُوموا فَانْحَرُوا ثم احْلِقُوا**»[1].

وفي هذا الحدث الجليل وقفات رائعة للصديق ، تؤكد مزاياه المتفردة ، وخصائصه المتميزة ، وملكاته الباهرة ، ومنزلته المتقدمة عند النبي ﷺ وأصحابه وأعدائه:

١ ـ لقد كان أبو بكر رأسَ المستشارين الذين يقدِّمون الرأيَ والنصح والمشورة بين يدي رسول الله ﷺ ، فلا يتقدَّم عليه أحد في ذلك.

فما كان في الصحابة مَن يتكلَّم بالشورى قبله ، والنبي ﷺ كان يَصْدُر عن رأيه وحده في الأمور العظيمة ، وإنه كان يبدأ الكلام بحضرة النبي ﷺ معاونةً لرسول الله ﷺ ، كما كان يفتي بحضرته وهو يقرُّه على ذلك ، ولم يكن هذا لغيره[2].

فإنه لمَّا جاءه ﷺ جاسوسُه بُدَيْل بن وَرْقاء الخُزاعيُّ ، وأخبره أن قريشاً قد جمعوا له الأحابيش ليصدُّوه عن البيت ، قال ﷺ: «**أَشِيروا عليَّ**» ، فينصت الناس ويتكلم أبو بكر ، ويقدِّم بين يدي مشورته أدبَه

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) ، والأطراف في (٢٧١١ ، ٢٧١٢)؛ وعبد الرزاق (٩٧٢٠)؛ وأحمد: ٤/ ٣٢٨ ـ ٣٣١؛ وابن حبان (٤٨٧٢) ، وغيرهم؛ وأخرج النسائي طرفاً منه في السنن الكبرى (٨٧٨٩).

(٢) منهاج السنة النبوية: ٤/ ٦١٢.

الرفيعَ مع مقام النبوة ، فيقول: (الله ورسوله أعلم) ، ثم يقول: (يا نبيَّ الله ، إنما جئنا معتمرين ، ولم نَجِئ لقتال أحد ، ولكنْ من حالَ بيننا وبين البيت قاتلناه) ، فقال النبي ﷺ: «فَرُوحوا إذاً».

فساروا بأمر النبي ﷺ على رأي أبي بكر.

٢ ـ وهذه المشورة من حُسن سياسة الصديق وفَضْل رأيه ، تمشياً مع طبيعته الرحيمة ، لأنه لم يكن في حياته يرمي إلى غَلَبة الحروب وظَفَر المعارك فحسب ، ولكنه كان يرمي إلى غلبة العقيدة ، وسموِّ الفكرة ، فإذا تحقق هذا بغير أن تُسفك في سبيله قطرةُ دم كان أحبَّ إلى نفسه وأرضى. وقد أيَّده الله تعالى في رأيه ، فكان في رسل قريش إلى رسول الله ﷺ رجلٌ من كنانة ، وهم قوم يعظِّمون البُدْنَ ، ولا يَصدُّون مَن أَمَّ البيت الحرام ، فاستقبله المسلمون يلبُّون ، والهَدْي يُساق بين أيديهم ، فقال: سبحانَ الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدّوا عن البيت! فكان هذا أولَ النصر للمسلمين ، وأولَ الفشل والفرقة لأحابيش المشركين.

٣ ـ وعندما جاء عروة بن مسعود الثقفي ، رأى من حبِّ الصحابة لنبيِّهم ﷺ وإعظامهم له وإخلاصهم لدينهم وعقيدتهم؛ ما بَهَر فؤادَه وخَلَب لُبَّه وصرح لقريش بذلك! لكنه أراد أن لا يُطمع المسلمين وأن يتهدَّدهم لعله يُخيفهم، فقال: (إني والله لا أَرى وجوهاً، وإني لأَرى أَشْواباً من الناس خليقاً أن يفرُّوا ويَـدَعُوك).

فلم يملك أبو بكر رضي الله عنه نفسه إذ سمع عروة يطعن في إخلاص المؤمنين لعقيدتهم وهي أعزّ ما لديهم ، فانتهض يردُّ عليه ردّاً يَغمز عقله ورجولته ويسخر منه ليفلَّ من حدَّة غروره ، مُنكِراً عليه أشدَّ الإنكار زعمَه أن المؤمنين يفرُّون عن نبيهم ، وقد رأى عروة بعد ذلك من تعظيم

الصحابة للنبي ﷺ ما كان مؤيّداً لردِّ أبي بكر عليه ، ولكن عروة لم تشأْ له عُنْجُهيَّتُه أن يترك ردَّ أبي بكر حتى يعلم صاحبه ، فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر ، قال: أما والذي نفسي بيده لولا يدٌ كانت لك عندي لم أَجْزِك بها لأجبتُك[١]!.

وفي هذا اعتراف من عروة بسيادة أبي بكر ومكانته وأياديه البيضاء بالخير عند عامة الناس وكبرائهم من أمثال عروة هذا. وقد ذكر أهل المغازي والسير أن عروة كان تحمَّل بديةٍ ، فأعانه أبو بكر بعَشْر قلائص من الإبل[٢].

٤ ـ ولمَّا أُبرِم الصلح ونَفَذَت القضيَّة ، اشتدَّ ذلك على المسلمين ، فكيف يكون ذلك وهم في عنفوان قوَّتهم وقد بدأ الانحلال في عدوِّهم ، وهم يرضَون شروطاً تُفرض عليهم؟! واغتاظَ من ذلك جمهور الناس ، وعزَّ عليهم ، حتى على مثل عمر وعلي وسَهل بن حُنَيف[٣].

هنا تتجلى مراتب الإيمان ، وتظهر درجات النفوس المؤمنة ، وفقاً لفيض الله تعالى عليها.

إن شأن النبوة فوق قوانين الحياة؛ فالنبي ﷺ رضي شروطَ المعاهدة لأنه يعلم ما انطوت عليه من تدبير الله تعالى ، ورضي لرضائه صدِّيقُه رضي الله عنه لأنه يعلم ما انطوى عليه رضاءُ رسول الله ﷺ من حِكَم وآيات! وغمر أبا بكر فيضُ النبوة فسَمَا به إلى ساحة الشهود ، فرضي كل

---

(١) حياة رجالات الإسلام ، ص ٦٩ ـ ٧٠ ، بتصرف.
(٢) الفتح: ٧/ ٢٢٩ ، شرح الحديث المتقدم.
(٣) منهاج السنة النبوية: ٤/ ٦١٣.

الرضا بما رضي به رسول الله ﷺ[1].

هكذا شأن الصديق في كل أمر يَـقضي به النبي ﷺ ويرضاه ويُمضيه أنه يقول: (إن كان قال فقد صدق).

في ساعات العُسرة، وخلال الأزمات العظمى، وعند حَيْرة ألباب أُولي النُّهى؛ كان إيمان الصديق يُخرِج خَبْأَه الباهر، فيملأ القلوب والعقول والنفوس والزمان والمكان روعة وجلالاً!.

٥ ـ وموقف فاروق الإسلام المحدَّث المُلهَم عمر عندما جاء إلى رسول الله ﷺ وقال له: (ألستَ نبيَّ الله حقاً؟ قال: «بلى» . . .)، ثم جاء إلى أبي بكر فتلقى منه الجواب نفسه!.

ولم يكن سؤال عمر رضي الله عنه وكلامه المذكور شكّاً، بل طلباً لكشف ما خفي عليه، وحَثّاً على إذلال الكفار وظهور الإسلام؛ كما عُرف من خُلقه رضي الله عنه وقوَّتِه في نصرة الدين وإذلالِ المُبطِلين[2].

٦ ـ وفيه يظهر بروزُ الصديق على عامة الصحابة رضي الله عنهم، وأن قلبه كان على قلب رسول الله ﷺ، وأنَّه لم يكن فيهم أعظم إيماناً وموافقة وطاعة لله ورسوله منه[3]، فإن عمرَ لم يذكر أنه راجع أحداً في ذلك بعد رسول الله ﷺ غيرَ أبي بكر الصديق، وذلك لجلالة قَدْره وسعة علمه عنده.

وفي جواب أبي بكر لعمر بنظير ما أجابه النبي ﷺ سواء؛ دلالةٌ على

---

(١) حياة رجالات الإسلام، ص ٧١، باختصار.
(٢) شرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/٣٨٣، الحديث (١٧٨٥).
(٣) منهاج السنة النبوية: ٤/٦١٢.

أنه كان أكملَ الصحابة وأعرفَهم بأحوال رسول الله ﷺ ، وأعلمَهم بأمور الدين ، وأشدَّهم موافقة لأمر الله تعالى[1] .

وهو أيضاً من أبْـيَنِ الأمور دلالةً على موافقة الصدِّيق للنبي ﷺ ، ومناسبته له ، واختصاصه به قولاً وعملاً ، وعلماً وحالاً ؛ إذ كان قوله من جنس قوله ، وعمله من جنس عمله[2] .

لقد كان جواب رسول الله ﷺ وأبي بكر من مشكاة واحدة ، وليس وراء ذلك درجة في الفضل ورسوخ الإيمان ، وقد حقق الله تعالى لنبيِّه ﷺ وصدِّيقه وعدَهما فجاء الفتح المبين[3] .

خامساً: في غزوة خيبر:

في سنة سبع من الهجرة غزا رسول الله ﷺ يهودَ خيبر ، فلجؤوا إلى حصونهم ، وشهد أبو بكر تلك الغزوة وكان في طليعة المجاهدين ، فبعثه النبي ﷺ برايته ـ وكانت بيضاء ـ إلى بعض حصون خيبر ، فقاتل قتالاً شديداً ، ثم رجع ، ولم يكن فتحٌ ، وقد جهد . ثم بعث الغد عمر بن الخطاب ، فأخذ الراية ، فقاتل قتالاً شديداً هو أشد من القتال الأول ، ثم رجع ، ولم يكن فتح ، وقد جهد . فقال رسول الله ﷺ: «**لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَه ، يفتحُ الله على يديه**» ، فبعث عليّاً ففتح الله على يديه[4] .

---

(١) الفتح : ٧/ ٢٣٨ .
(٢) منهاج السنة النبوية : ٤/ ٦١٣ .
(٣) حياة رجالات الإسلام ، ص ٧٣ .
(٤) السيرة ، لابن هشام : ٢/ ٣٣٤؛ تاريخ الطبري: ٣/ ١٢؛ البداية والنهاية: ٤/ ١٨٦؛ سبل الهدى والرشاد: ٥/ ١٩٣ .

سادساً: في فتح مكة:

كان سبب هذه الغزوة المباركة أنه بعد صلح الحُديبية دخلت (خُزاعة) في عهد رسول الله ﷺ ، ودخلت (بنو بكر) في عهد قريش. وبعد نحو عامين من الصلح غدرتْ قريشٌ بالعهد ونقضَتْه؛ حيث أعانت بني بكر على بني خزاعة ـ حلفاءِ النبي ﷺ ـ بالرجال والسلاح تحت جُنْح الليل ، فقتلوا منهم ما قتلوا.

وجاء عَمْرو بن سالم الخُزاعي مسرعاً إلى المدينة فأخبر النبيَّ ﷺ بنقض قريش العهدَ ، واستنصره على بني بكر ، فقال ﷺ: «**نُصِرتَ يا عَمرو بنَ سالم**».

وأدركت قريش مَغَبَّة غدرِها ونقضِها العهدَ ، فأرسلَتْ أبا سفيان إلى المدينة ليؤكّد العهد ويزيدَ في المدة.

فذهب أبو سفيان إلى أبي بكر فكلَّمه ، وقال: تكلِّمُ محمداً ـ ﷺ ـ ، أو تُجِير أنت بين الناس ، فقال أبو بكر: جِوَاري في جوار رسول الله ﷺ.

فأتى عمرَ بنَ الخطاب ، فكلّمه بمثلِ ما كلَّم به أبا بكر ، فقال: أنا أشفَعُ لكم عند رسول الله ﷺ؟! فواللهِ لو لم أجدْ إلا الذَّرَّ لجاهدتُكم به ، ما كان من حِلْفنا جديداً فأَخْلَقَه الله ، وما كان منه متيناً فقطَعَه الله ، وما كان منه مقطوعاً فلا وَصلَهُ الله! فقال أبو سفيان: جُوزِيت من ذِي رحم شرّاً.

ولم يلبث رسول الله ﷺ أن أخذ يتجهز للخروج إلى مكة ، وأذَّن في الناس بالتجهيز ، وأخفى مقصده إلا عن بعض خاصته كالصدِّيق ، وكان غرضه ﷺ أن يَبغتَ قريشاً في عُقْر دارها من غير أن تأخذ أهبتها ، حرصاً

منه أن لا تُراق الدماء في البلد الحرام. فلما تجمعت الجموع وتهيَّأت للمسير أخبرهم بمقصده، وقال: «**اللهمَّ خُذِ العيونَ والأخبار عن قريش حتى نبغتَها في بلادها**»[1].

وسار الجيش إلى مكة حتى وصل (ذا طُوَى)[2]، ففرَّق النبي ﷺ الجيش فرقاً، ليدخلوا مكة من مداخل عدَّة، ودخل هو ﷺ من أعلاها من (كَدَاء)[3] في كتيبته الخضراء وهو على ناقته (القَصْواء) بين أبي بكر وأسيد بن الحضير[4].

عن ابن عُمر رضي الله عنهما قال: (لَّما دخلَ رسولُ الله ﷺ عامَ الفتح، رأى النساء يَلطمن وجوهَ الخيل بالخُمر، فتبسَّم إلى أبي بكر رضي الله عنه وقال: «يا أبا بكر! كيف قال حسان بن ثابت؟» فأنشده أبو بكر:

عَدِمْنَا خيلَنا إنْ لم تَرَوْها ... تُثيرُ النَّقْعَ موعدُها كَداءُ
يُنازِعْنَ الأعنَّةَ مُصغياتٍ ... على أكتافها الأَسَلُ الظِّماءُ
تظلُّ جيادُنا متمطِّراتٍ ... يُلَطِّمُهنَّ بالخُمُرِ النساءُ

فقال رسول الله ﷺ: «**ادخلوا من حيث قال حسان**»)[5].

---

(١) السيرة، لابن هشام: ٢/ ٣٩٤ ـ ٣٩٧؛ سبل الهدى والرشاد: ٥/ ٣٠٤ ـ ٣١٥؛ السيرة النبوية، لأبي شهبة: ٢/ ٤٣٧.

(٢) من أودية مكة، وهو اليوم وسط عمرانها، ومن أحيائه: العتيبة.

(٣) يسمى اليوم (ريع الحَجُون)، يدخل طريقة بين مقبرتي المعلاّة، ويفضي من الجهة الأخرى إلى حي العتيبة.

(٤) طبقات ابن سعد: ٢/ ١٣٥.

(٥) سبق تخريجه: ص ٦٨ حاشية (١) في هذا الكتاب.

وفي هذه الغزوة أتمَّ الله النعمة على أبي بكر؛ حيث أسلم أبوه أبو قُحافة[1].

سابعاً: في حُنَين:

وشهد أبو بكر مع رسول الله ﷺ غزوة حُنين، وكان فيمن ثَبَت معه حين ولى الناس منهزمين.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (لمَّا استقبلْنا وادي حُنين، انحدرنا في وادٍ من أودية تِهامة أجوفَ حَطُوط، إنما ننحدر فيه انحداراً، قال: وفي عَمَاية الصُّبح، وقد كان القوم كمنوا لنا في شعابه وأَحْنائه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيؤوا وأعدُّوا، فوالله ما راعَنا ونحن منحطُّون إلا الكتائب قد شَدَّت علينا شدَّة رجل واحد، وانهزم الناس راجعين، فاستمروا لا يَلوي أحدٌ منهم على أحد.

وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: «**أينَ أيها الناس؟ هَلُمُّوا إليّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله**»! قال: فلا شيءَ، احتَمَلتِ الإبل بعضها بعضاً، فانطلق الناس، إلا أن مع رسول الله ﷺ رَهْطاً من المهاجرين والأنصار وأهلِ بيته غير كثير.

وفيمن ثبت معه ﷺ: أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته عليٌّ بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وابنه الفَضْل بن العباس وأبو سفيان بن الحارث ورَبيعة بن الحارث، وأيمن بن عبيد وهو ابن أم أيمن، وأسامة بن زيد) الحديث[2].

---

(١) انظر: ص ٤٣ ـ ٤٤ في هذا الكتاب.

(٢) أخرجه ابن هشام عن ابن إسحاق في السيرة: ٢/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣؛ ومن طريقه أحمد: ٣/ ٣٧٦، وإسناده صحيح، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث. قوله: =

وأَمَر النبيُّ ﷺ عمَّه العباس ـ وكان صَيِّتاً ـ أن ينادي: يا معشر الأنصار، يـا معشر أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة! فنادى، فأقبَلوا كأنهم الإبل إذا حنَّت على أولادها، يقولون: يا لبيك يـا لبيك! فحملوا على المشركين، فأشرف رسول الله ﷺ فنظر إلى قتالهم فقال: «**الآن حمِيَ الوَطيس، أنا النبي لا كَذِب، أنا ابن عبد المطلب**».

قال جابر: واجتَلَد الناس، فوالله ما رجعتْ راجعةُ الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مُكتَّفين عند رسول الله ﷺ[1].

ثامناً: في حصار الطائف:

وكان الصديق رضي الله عنه مع النبي ﷺ في غزوة الطائف، حيث حاصرها المسلمون، ورأى النبي ﷺ رؤيا، فيما رواه ابن إسحاق قال: (بَلَغني أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر الصدِّيق وهو محاصِرٌ ثَقيفاً: «**يا أبا بكر، إني رأيتُ أني أُهْديتْ لي قَعْبَـةٌ مملوءة زُبْداً، فنَقَرها ديك فَهراقَ ما فيها**» فقال أبو بكر: ما أظن أن تُدرِك منهم يومَك هذا ما تريد يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «**وأنا لا أرى ذلك**»)[2].

وفي هذه الغزوة رُمي عبد الله بن أبي بكر بسهم كان سببَ موته،

= **أجوف**: متسع. **حطوط**: منحدر. **عماية الصبح**: ظلامه قبل أن يتبين. **أحنائه**: جوانبه.

(1) طبقات ابن سعد: ٢/ ١٤٩ ـ ١٥٢؛ تاريخ الطبري: ٣/ ٧٤ ـ ٧٥، البداية والنهاية: ٤/ ٣٢٦؛ الفتح: ٩/ ٦١١ ـ ٦١٢، الأحاديث (٤٣١٤ ـ ٤٣٢٢).

(2) السيرة، لابن هشام: ٢/ ٤٨٤؛ تاريخ الطبري: ٣/ ٨٤ ـ ٨٥. **قَعْبة**: قَدَح.

لكنه اندمَلَ جرحه ثم انتقض بعد وفاة النبي ﷺ ، فمات عبد الله في خلافة أبيه سنة (١١هـ) .

تاسعاً: في غزوة تبوك:

وفي رجب من سنة (٩هـ) كانت غزوة تَبُوك ، وذلك أن رسول الله ﷺ علِم بعزم الروم على غزو المسلمين ، فبادر إلى مبادأتهم بذلك .

وقام ﷺ يحثُّ على النفقة والبذل في سبيل الله ، فحمل الناس صدقات كثيرة ، وكان أولَهم أبو بكر فجاء بماله كله أربعة آلاف درهم ، فقال له النبي ﷺ : «**هل أبقيتَ لأهلك شيئاً؟**» فقال : أبقيتُ لهم الله ورسوله[١] ! .

وأَوْعَب مع الرسول ﷺ جيشٌ عَرَمْرم قوامه (٣٠٠٠٠) صحابي ، فعقد ﷺ الرايات ودفع الألوية ، وأعطى (رايته العظمى) ـ وكانت سوداءَ ـ لأبي بكر[٢] .

عاشراً: سرايا أبي بكر:

١ ـ في ذات السلاسل[٣]:

يحدث الصحابي رافع بن عَميرة الطَّائيُّ ـ وهو رافع بن أبي رافع ـ فيقول : (لمَّا أسلمتُ ، خرجتُ في تلك الغزوة التي بعث فيها رسول الله ﷺ عَمْرو بنَ العاص إلى ذات السَّلاسِل ، فقلت : والله لأختارنَّ لنفسي صاحباً ، قال : فصحبتُ أبا بكر ، فكنتُ معه في رَحْله ، وكانت

---

(١) سبق بتمامه مع تخريجه : ص ١٢٦ ، حاشية (٢) في هذا الكتاب .
(٢) طبقات ابن سعد : ٣/ ١٧٥ ، تهذيب الأسماء واللغات : ٢/ ١٨٤ .
(٣) تقع على وجه التقريب في شمال السعودية في منطقة تبوك .

عليه عباءة له فَدَكيَّة ، فكان إذا نزلنا بَسَطها وإذا ركبنا لبسها ، ثم شَكَّها عليه بخِلالٍ له ، قال: وذلك الذي له يقول أهلُ نجدٍ حين ارتدوا كفَّاراً: نحن نبايعُ ذا العباءة! قال: فلما دَنَوْنَا من المدينة قافلين، قلتُ: يا أبا بكر! إنما صحبتُك لينفعَني الله بك ، فانصحني وعلِّمْني ، قال: لو لم تسألْني ذلك لفعلتُ ، قال: آمُرك أن توحِّدَ الله ولا تُشركَ به شيئاً. . .) الحديث[1].

وفي رواية أخرى عند الطبراني: (قال أبو بكر: أَتحفظُ أصابعَكَ الخمس؟ قلت: نعم ، قال: تشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة إن كان لك مال ، وتحج البيت ، وتصوم رمضان ، حفظتَ؟ فقلت: نعم ، قال: وأُخرى: لا تأَمَّرَنَّ على اثنين! قلت: وهل تكون الإمْرة إلا فيكم أهل المَدَر؟! قال: يوشِك أن تفشوَ حتى تبلغَك ومن هو دونك ، إن الله عز وجل لمَّا بعث نبيَّه ﷺ دخل الناس في الإسلام ، فمنهم من دخل فهداه الله ، ومنهم من أكرهه السيف فهم عوَّاذ الله عز وجل وجيران الله وفي خِفَارة الله. إن الرجل إذا كان أميراً ، فتظالم الناسُ بينهم ، فلم يأخذْ لبعضِهم من بعض؛ انتقم الله منه! إن الرجل منكم لَـتُؤخذ شاةُ جاره ، فيظلُّ ناتئَ عضلتِهِ غضباً لجاره ، والله من وراء جاره)[2].

---

(١) السيرة ، لابن هشام: ٢/ ٦٢٤ ـ ٦٢٥؛ ابن عساكر ، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦؛ سبل الهدى والرشاد: ٦/ ٢٦٤ ـ ٢٦٦؛ وأخرج أحمد: ١/ ٨ طرفاً منه ، وصححه أحمد شاكر. **فدكية**: نسبة إلى فدك بلدة بخيبر. **شكَّها بخلال**: أي جمع بين طرفيها بخلال من عود أو حديد.

(٢) قال الهيثمي في (المجمع: ٥/ ٢٠٢): رواه الطبراني ورجاله ثقات. قوله: =

●● **وفي هذا الموقف من أبي بكر وصاحبه رافع فوائد وعِبر غُرَر :**

١ ـ ظهور شمائل الصدِّيق وخلاله الرفيعة لمن يصحبه ، فالسفر يسفر عن أخلاق الرجال ، وقد كان رافع ألمعيّاً إذ توسم في أبي بكر فصحبه في تلك السرية ذهاباً وإياباً .

٢ ـ وفيه حكمة أبي بكر في الدعوة إلى الله ورأفته بحديثي العهد بالإسلام ، وتركيزه على أسس الإسلام وأركانه ، واستبطانه ما كان عليه عامة الناس من البساطة ، فقال لرافع : أتحفظ أصابعك الخمس؟ وهي لفتة بارعة إلى أن أمور الإسلام الكبرى ليست بالكثيرة ولا بالثقيلة ، فهي تعد على الأصابع ، وهذا يشبه أسلوب النبي ﷺ في قوله : «**بني الإسلام على خمس**» فعدد عليه الصدِّيق رؤوس الأمر .

٣ ـ وفيه أيضاً حرص أبي بكر رضي الله عنه على الدعوة إلى الله تعالى ، حيث قال لرافع : لو لم تسألني لبادرتك وقلت لك .

٤ ـ وفيه التنبيه على خطورة الإمارة وأنها أمانة ومسؤولية ومغرم ، وليست تشريفاً ولا مغنماً ، ومن لم يأخذها بحقها ويؤدي الذي عليه فيها ؛ كانت يوم القيامة خزياً وندامة .

٥ ـ ونبَّه الصدِّيق على خطورة الظلم وسوء عاقبته في الدنيا والآخرة ، ولفَتَ نظر رافع إلى أن الرجل لا يقبل أن يظلم جاره بشاة ، فكيف يقبل أن يظلم الناس في أنفسهم وأهليهم وأموالهم؟! فكذلك الله تعالى إذا تظالم الناس ولم يتناصفوا بينهم انتقم من الظالمين شر انتقام .

= **عُوّاذ الله** : لائذون بالله ومحتمون به . **خفارة الله** : ذمة الله . **ناتئ عضلته** : منتفخ عضلته غضباً لجاره .

٦ ـ وفيه كذلك أن الإمارة والحكم وشؤونه تكون في علية الناس وأشرافهم وأمنائهم والمتقدمين منهم في شمائلهم وأعمالهم ، فإذا فسد الحال آلت إلى الرَّعَاع ومن لم تؤهلهم ملكاتهم إليها ، وذلك من اضطراب الموازين.

●● وفي هذه السرية كان لأبي بكر موقف آخر جليل:

عن بُرَيْدة بن الحُصَيْب قال: (بعث رسول الله ﷺ عَمْرو بن العاص في غزوة ذات السَّلاسِل ، وفيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، فلما انتهوا إلى مكان الحرب أمرهم عمرو أن لا يُورُوا ناراً ، فغضب عمر وهَمَّ أن ينالَ منه ، فنهاه أبو بكر رضي الله عنه وأخبره أنه لم يستعمله رسول الله ﷺ عليك إلا لعلمِه بالحرب ، فهَدَأ عنه عمر رضي الله عنه)[1].

وهذا يتسق مع هدي أبي بكر وسيرته في تسليمه المطلق لأمر النبي ﷺ وفعله ، وحكمته في اختيار عمرو أميراً للسرية ، لكفاءته وحسن تدبيره.

٢ ـ سريته إلى بني فَزَارَة:

عن سَلَمة بن الأَكْوَع قال: (غزونا فَزارةَ وعلينا أبو بكر ، أَمَّرهُ رسول الله ﷺ علينا ، فلما كان بيننا وبين الماء ساعة ، أَمَرنا أبو بكر فعرَّسْنَا ، ثم شَنَّ الغارة ، فوَرَد الماءَ ، فقَتل مَنْ قَتل عليه وسَبَى . . .) الحديث[2].

* * *

---

(١) أخرجه الحاكم: ٣/ ٤٢ ـ ٤٣ ، وصححه وأقرَّه الذهبي؛ وذكره الحافظ في الفتح: ٩/ ٦٧٩ شرح الحديث (٤٣٥٨)، وعزاه لإسحاق بن راهويه والحاكم.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٥٥)؛ وأبو داود (٢٦٩٧)؛ وابن ماجه (٢٨٤٠ ، ٢٨٤٦)؛ وابن سعد: ٢/ ١١٨ ، وابن حبان (٤٨٦٠) ، وغيرهم.

الفصل الثالث
مواقف كبرى ومعالم بارزة

أولاً: الشورى:

●● الشورى مبدأ ضخم وركن جليل في بنيان الدولة الإسلامية ، أكَّد عليه القرآن الكريم في قوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

فقد أمرت هذه الآية الكريمة النبي ﷺ بالتزام مبدأ الشورى على الرغم من أن الهزيمة ـ في أُحد ـ جاءت في أعقاب شورى النبي ﷺ لأصحابه ، وبسبب غير مباشر منها! ولكن هذه الهزيمة لا يجوز لها أن تبرِّر تجاوزَ هذا المبدأ أو هذا التشريع ، أو الانتقاص منه ، فضلاً عن تكريس نقيضه! بحجة الواقع الذي أفرزه أو انبنى عليه[١] .

والمشاورة أصل كل خير تناله الأمة من قادتها ، فهي مبدأ اجتماعي شرعه الله في رسالة الإسلام ليكون منهجاً للمجتمع المسلم في مستقبل حياته ، لأن الرأي المردَّد للنقاش والبحث أنظفُ وأصفى من رأي الفرد مهما يكن قد أوتي من رجاحة التفكير[٢] .

---

(١) في ظلال القرآن : ١/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣ ؛ مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه ، ص ٩٩ .
(٢) محمد رسول الله ﷺ : ٣/ ٦٢٤ .

وقد كان أبو بكر مقدَّماً في الشورى عند رسول الله ﷺ ، وما كان أحد من الصحابة يتكلم بالشورى قبله ، وإن النبي ﷺ كان يَصدر عن رأيه وحده في الأمور العظيمة ، وإنه كان يبدأ الكَلام بحضرة النبي ﷺ معاونة له ﷺ ، ولم يكن هذا لغيره[1].

عن عبد الرحمن بن غَنْمٍ الأَشْعريِّ رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «**لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتُكما**».

وفي رواية: «**لو أنكما تتفقانِ على أمرٍ واحدٍ ما عصيتُكما في مشورة أبداً**»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (في قوله عز وجل: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ قال: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما)[3].

وقال سعيد بن المسيِّب: (كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه من النبي ﷺ مكانَ الوزير ، فكان يشاوره في جميع أموره)[4].

١ ـ في غزوة بدر:

●● من أمثلة ذلك ما حدث في مطلع غزوة بدر: حيث استشار

---

(١) منهاج السنة النبوية: ٣/ ٦١٢.

(٢) أخرج الرواية الأولى: أحمد: ٤/ ٢٢٧؛ وأخرج الثانية: أسد بن موسى في «فضائل الصحابة»؛ والفسوي في «المعرفة» كما ذكر الحافظ ، وقال: بسند لا بأس به ، ولم يُشِر لرواية أحمد ، فلعله لم يستحضرها. انظر: الفتح: ١٧/ ١٩٧ ، الاعتصام ، باب قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾.

(٣) أخرجه الحاكم: ٣/ ٧٠ ، وصححه ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه الحاكم: ٣/ ٦٣.

رسول الله ﷺ أصحابه في مواجهة قريش ، فكان أبو بكر أول من تكلم؛ فقال وأحسن ، ثم عمر رضي الله عنهما[1] .

وفي نهاية المعركة كانت هناك قصة الأسرى: هل يُقتلون أو يُقبل منهم الفداء؟ .

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث غزوة بدر: (فلما أَسَروا الأُسَارى ، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «**ما ترونَ في هؤلاء الأُسَارى؟**» فقال أبو بكر: يا نبيَّ الله! هم بنو العَمِّ والعَشيرة ، أَرى أن تأخذ منهم فِديةً ، فتكونُ لنا قوةً على الكفار ، فعسى الله أن يَهديَهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترى يا بنَ الخطاب؟**» قلت: لا والله يا رسول الله! ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكنِّي أَرى أن تُمكِّنَّا فنضربَ أعناقهم ، فتمكِّنَ علياً من عَقيل فيضربَ عُنقَه ، وتمكِّنّي من فلانٍ ـ نَسيباً لعمر ـ فأضربَ عنقَه ، فإن هؤلاء أئمةُ الكفر وصناديدُها! فَهَوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يَهْوَ ما قلتُ.

فلما كان من الغدِ جئتُ ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدَيْنِ يبكيان ، قلتُ: يا رسول الله! أخبرني من أيِّ شيء تبكي أنتَ وصاحبُك ، فإن وجدتُ بكاءً بكيتُ ، وإن لم أجدْ بكاءً تباكَيْتُ لبكائِكما! فقال رسول الله ﷺ: «**أبكي للذي عَرَضَ عليَّ أصحابُكَ من أخذِهم الفداءَ ، لقد عُرِضَ عليَّ عذابُهم أدنى من هذه الشجرة**» ـ شجرةٍ قريبةٍ من نبي الله ﷺ ـ. وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ

---

(١) سبق ص ١٨٩ حاشية (١) في هذا الكتاب.

أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٩] فأحَلَّ الله الغنيمة لهم)[١].

وتوجيه الحديث في الاستشارة انصرف إلى الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما باعتبارهما أفضلَ الصحابة رأياً، وأنفذَهم في حلِّ المعضِلات فكراً، وأقربَهم إلى رسول الله ﷺ منزلة، فكانا منه السمع والبصر، وأعمقَهم معرفةً بأسباب الحوادث، وأحكَمَهم سياسةً في الوصول إلى وضع الأمور في مواضعها، وألزمَهم وجوداً في مجالس رسول الله ﷺ ومحاوراته واستشاراته، فقلَّما غابا عن حادث مهمٍّ، فرأيُهما معبِّر أكملَ تعبير عن رأي المجتمع المسلم في جانبيه: الرحيم الرؤوف، والشديد القوي الأمين، وقلّما خرجتْ آراء أفراد المجتمع المسلم وجماعاته عن رأيهما[٢].

والمشورة من الشيخين تمثِّل مذهبين يأخذان بطرفَي الحياة: أحدهما يمثل الرحمة المطلقة في شخص الصديق رضي الله عنه، والآخر يمثل أشدَّ ألوان القسوة على أعداء الحق في شخص عمر بن الخطاب رضي الله عنه. والصديق والفاروق وزيرا الإسلام في حياة نبيه الأكرم صلوات الله عليه، وهما خليفتاه بعد مفارقته الحياة الدنيا إلى الرفيق الأعلى. وكل من المذهبين ضرورة اجتماعية لا غنى للإنسانية عنها في أي عصر من عصورها[٣].

---

(١) تقدم صدر الحديث مع تخريجه: ص ١٩١ ـ ١٩٢، حاشية (١) في هذا الكتاب.

(٢) محمد رسول الله ﷺ: ٣/ ٥١٨ ـ ٥١٩.

(٣) حياة رجالات الإسلام، ص ٦٣. وانظر: تفسير القرطبي: ٨/ ٤٥ ـ ٥١؛ منهاج السنة النبوية: ٣/ ٥٩٦ ـ ٥٩٨؛ البداية والنهاية: ٣/ ٢٩٦ ـ ٢٩٨.

فاختار النبي ﷺ من الرأيين ما جَبَله الله عليه مما ترتَّب عليه خيرٌ كثير للإسلام والمسلمين ، لأن الإبقاءَ بعد القدرة على القهر والتنكيل والقتل من أكرم مكارم الأخلاق وتحبيب الإيمان إلى القلوب. وقد كانت نتيجة ذلك أنْ حمل هؤلاء الأسرى وذريَّاتُهم لواءَ الدعوة إلى الله ، وكان منهم كثير ممَّن فتحوا البلاد وأنقذوا العباد ، واهتدى بهم الضُّلَّال ، وأُقيمت موازين العدالة والإخاء والمساواة ، وقادوا الإنسانية إلى آفاق حضارة مؤمنة ، لا يُظلم في ظلِّها أحد.

ولم يكن ما كان من قَبيل أن النبي ﷺ هويَ رأياً فاختاره ، ولم يهوَ رأياً فتركه ، وإنما كان من قَبيل السياسة الحكيمة التي تزرع في النفوس المودَّة والمحبة[1].

٢ ـ في الحديبية:

في حديث الحديبية الطويل: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (ما رأيتُ أحداً أكثرَ مشاورةً لأصحابه من رسول الله ﷺ)[2].

وكان النبي ﷺ إذا استشار أصحابه أول من يتكلَّم أبو بكر في

---

(١) محمد رسول الله ﷺ: ٣/ ٥١٩. وقد جنح هنا قلم الدكتور هيكل فأساء القول وقال بالظن ، فزعم أن مشركي قريش سَعَوا إلى أبي بكر ليشفع لهم عند النبي ﷺ ، لِيَمُنَّ عليهم أو يُفاديهم ، فوعدهم خيراً! وأنه أقام نفسه شفيعاً لهم ، فأخذ يُليِّن قلبَ النبي ﷺ ويدفعُ حججَ عمر! وهو كلام لا دليل عليه ولا برهان ، ويعارض صحاحَ الأحاديث ، وفيه إساءة للصديق ، وحاشاه من أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ مراعاة لهوى المشركين!. انظر: الصديق أبو بكر ، ص ٣٦.

(٢) تقدم: ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ في هذا الكتاب.

الشورى ، وربما تكلم غيره ، وربما لم يتكلم غيره ، فيعمل برأيه وحده ، فإذا خالفه غيره اتَّبع رأيه دون رأي من يخالفه[1] .

وهنا موقف آخر من المواقف الكبرى التي يستشير فيها رسول الله ﷺ أصحابه ، فيتقدم الصديق بالرأي ، فيأخذ به النبي ﷺ .

ففي مسيره ﷺ إلى الحديبية ، لمَّا شاور أصحابه في أن يُغِير على ذُريّة الذين أعانوا قريشاً من الأحابيش ، أو يذهب إلى البيت الحرام فمن صدَّه قاتله . فأشار عليه أبو بكر الصديق بتركِ القتال ، والاستمرار على ما خرج له من العمرة ، حتى يكون بدء القتال منهم ، فرجع إلى رأيه[2] .

قال ﷺ : **«أَشِيروا أيها الناسُ عليَّ ؛ أَتَرونَ أن أميل إلى عيالهم وَذَراريِّ هؤلاء الذين يريدون أن يَصدُّونا عن البيت ، فإنْ يأتونا كان الله عز وجل قد قَطَع عَيْناً من المشركين ، وإلاَّ تركناهم محرُوبين؟»** قال أبو بكر : يا رسول الله ، خرجتَ عامداً لهذا البيت لا تُريد قتلَ أحدٍ ولا حربَ أحدٍ ، فتوجَّهْ له ، فمن صَدَّنا عنه قاتلناه قال : **«امْضُوا على اسمِ الله»**[3] .

٣ ـ في غزوة خيبر:

أشار الحُبَاب بن المنذر رضي الله عنه على النبي ﷺ بقطع النخيل حتى يُجبر اليهود على الاستسلام والنزول من حصونهم ، فرضي ﷺ بذلك ، وأسرعَ المسلمون في قطع النخل ، فجاءه أبو بكر فقال :

---

(١) منهاج السنة النبوية : ٤/ ٦٠٣ .

(٢) الفتح : ٧/ ٢١٩ شرح الحديث (٢٧٣١) .

(٣) الفتح : ٩/ ٤٤٣ شرح الحديث (٤١٧٨ ، ٤١٧٩)، وانظر ما تقدم : ص ٢٠٠ ـ ٢٠٢ في هذا الكتاب .

(يا رسول الله! إن الله عز وجل قد وعدكم خيبَر ، وهو مُنْجزٌ ما وعدك ، فلا تقطع النخل) ، فأمرَ فنادى منادي رسول الله ﷺ فنهَى عن قطع النخل[1].

٤ ـ في يوم حُنَيْن:

وفي هذه الغزوة يظهر موقفٌ جليل آخر للصديق ، حيث يبدأ بالكلام بحضرة النبي ﷺ ، ويُفتي بحضرته وهو يقرُّه على ذلك ، ولم يكن هذا لغيره.

عن أبي قَتادة الأنصاريِّ ثم السَّلَمي رضي الله عنه أنه قال: (خَرَجْنا معَ رسول الله ﷺ عامَ حُنَيْنٍ ، فلمَّا التقَيْنا كانَتْ للمسلمين جَوْلَةٌ ، قالَ: فرأيتُ رَجُلاً من المُشركين قد عَلا رجُلاً من المُسلمين ، قال: فاستدبَرْتُ حَتَّى أتَيْتُهُ مِنْ وَرائِهِ ، فضَربْتُهُ على حَبْلِ عاتِقِه ضربةً ، فقطَعْتُ منهُ الدِّرْعَ ، قالَ: فَأَقْبَلَ عَليَّ ، فضَمَّني ضَمَّةً وجَدْتُ منها ريحَ الموتِ ، ثم أدركَه الموتُ ، فأرسَلني ، فَلحِقْتُ عُمرَ بنَ الخَطَّابِ ، فقُلْتُ لَهُ: ما بالُ الناس؟ فقالَ: أمرُ اللهِ.

قالَ: ثُمَّ إنَّ الناسَ قد رَجَعُوا ، فقالَ رسول الله ﷺ: **«مَنْ قَتَلَ قتيلاً لَهُ عليه بيِّنَةٌ فلَه سَلَبُهُ»** قال أبو قتادة: فَقُمْتُ ، ثُمَّ قُلتُ: مَنْ يَشْهَدُ لي؟ ثُمَّ جَلَسْتُ ، ثُمَّ قالَ رسول الله ﷺ: **«مَنْ قَتَلَ قتيلاً لَهُ عليه بيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ»** ، فَقُمْتُ ثُمَّ قُلتُ: مَنْ يَشْهَدُ لي؟ ثُمَّ جَلَسْتُ ثُمَّ قالَ الثالثة ، فقُمْتُ ، فقالَ رسول الله ﷺ: **«ما لكَ يا أبا قتادة؟»** ، فاقْتَصَصْتُ عليهِ القِصَّة ، فقالَ رَجُلٌ من القومِ: صَدَقَ يا رسولَ اللهِ ، وسَلَبُ ذلك القَتيلِ عندي ، فأَرْضِهِ

(١) مغازي الواقدي: ٢/ ٦٤٤.

مِنِّي ، فقالَ أبو بكرٍ : لاها اللهِ إذاً لا يَعمِدَ إلى أَسَدٍ مِنْ أُسْدِ اللهِ يُقاتِلُ عن اللهِ وعن رسولِهِ فيُعْطِيكَ سَلَبَهُ! فقال رسول الله ﷺ: «**فأَعْطِهِ إيَّاهُ**».

فقال أبو قتادة: فأعطانيه ، فَبِعْتُ الدِّرْعَ ، فابتعتُ منه مَخْرَفاً في بني سَلِمَة ، فإنَّه لأوَّلُ مالٍ تأَثَّلْتُه في الإسلام)[1].

ومعنى (**لاها الله إذاً**): لا والله حينئذٍ ، لا يعمد رسول الله ﷺ إلى رجل كأنه أسد في الشجاعة ، يقاتل عن دين الله ورسوله ، فيأخذ حقه ويعطيكه بغير طيبة من نفسه[2].

والمخرف: البستان.

وهذا الموقف غاية في الجلالة والرفعة التي يتبوؤها الصديق عند النبي ﷺ ، فهو يزجر ذلك الرجل ويردَعُه ، ويُفتي بحضرته ﷺ ، ويُقسم بين يديه ، وهو ﷺ يصدِّقه ويقرُّه ويُمضي رأيَه على ملأ من أصحابه ، وهي خصوصية وشرف لأبي بكر ، تترسخ أصولها وتزداد شموخاً في كل موقف وكل يوم.

ثانياً: إمارة الحج:

ولَّى رسول الله ﷺ عَتَّاب بن أَسِيد إمرة مكة ، فحجَّ المسلمون

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٢١) ، وأطرافه في (٢١٠٠)؛ ومسلم (١٧٥١)؛ وأبو داود (٢٧١٧)؛ ومالك: ٢/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥؛ وابن حبان (٤٨٠٥) واللفظ له ، و(٤٨٣٧) ، وغيرهم.

(٢) الفتح: ٩/ ٦٢٥ (٤٣٢١). وقد أطالَ الحافظ وأجادَ وبلَغ المُراد في الاستشهاد لعبارة أبي بكر: (لاهَا اللهِ إذاً) ، والردِّ على مَن غلَّطوا العبارة وخطَّؤوا الأثبات من الرواة. انظر: الفتح: ٩/ ٦٢١ ـ ٦٢٥.

والمشركون جميعاً في سنة (٨هـ) ، وكان المسلمون مع عتَّاب لكونه الأمير .

وفي سنة (٩هـ) بَعث النبي ﷺ أبا بكر أميراً على الحج ، وكان بعثه بعد انسلاخ ذي القعدة ، وحجَّ في ذي الحجة من سنة تسع ، وأعلن الصديق أنه : **لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عُريان** .

ثم كانت (حَجَّة الوَدَاع) في سنة عشر من الهجرة .

وبَعث الرسول ﷺ عليَّ بن أبي طالب بسورة براءة ليقرأها على الناس في الموسم ، تحت إمرة أبي بكر .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : (بَعثني أبو بكر الصدِّيق في الحجَّة التي أمَّره عليها رسول الله ﷺ ، قبل حَجَّةِ الوداع ، في رَهْطٍ يؤذِّنُون في الناس يومَ النَّحر : لا يَحُجُّ بعدَ العامِ مشركٌ ، ولا يَطوفُ بالبيت عُرْيانٌ) . لفظ مسلم .

وزاد البخاري في رواية : (فنَبذَ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام ، فلم يَحُجَّ عامَ حجَّة الوَدَاع الذي حَجَّ فيه النبي ﷺ مُشْرِكٌ)[١] .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : (أن النبيَّ ﷺ حين رجع من عُمرة الجِعْرَانةِ ، بَعث أبا بكر على الحج ، فأقبَلْنا معه ، حتى إذا كنَّا بالعَرْج ثَوَّبَ بالصُّبْح ، ثم استوى ليُكبِّر ، فسمع الرَّغْوَةَ خلْفَ ظَهْره ،

(١) أخرجه البخاري (٣١٧٧) ، وأطرافه في (٣٦٩)؛ ومسلم (١٣٤٧)؛ وأبو داود (١٩٤٦)؛ والنسائي في الكبرى (٣٩٣٤)؛ وفي الصغرى : ٥/ ٢٣٤ . وانظر : البداية والنهاية : ٥/ ٣٦ ـ ٣٩؛ تفسير ابن كثير : ٢/ ٤١٢ ـ ٤١٦ . والمراد بالتأذين : الإعلام ، وهو اقتباس من قوله تعالى : ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ [التوبة : ٣] . انظر : الفتح : ١٠/ ٢٥٤ (٤٦٥٦) .

فوَقَف عن التكبير، فقال: هذه رَغوةُ ناقةِ رسول الله ﷺ! لقد بدا لرسول الله ﷺ في الحجِّ، فلعلَّه أن يكونَ رسول الله ﷺ، فنصلي معه! فإذا عليٌّ عليها، فقال له أبو بكر: أَميرٌ أم رسولٌ؟ فقال: لا، بَلْ رسولٌ، أرسلني رسول الله ﷺ بـ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ أقرؤها على الناس في مواقف الحج.

فقدِمْنَا مكَّةَ، فلما كان قبل التَّروية بيومٍ، قام أبو بكر فخَطَب الناسَ، فحدَّثهم عن مناسِكِهم، حتى إذا فَرَغ، قام عليٌّ فقرأ على الناس ﴿بَرَآءَةٌ﴾ حتى خَتَمَها.

ثم خرجنا معه، حتى إذا كان يومُ عَرفةَ، قام أبو بكر فخَطَب الناسَ فحدَّثهم عن مناسِكهم، حتى إذا فَرغ، قام عليٌّ فقرأ على الناس ﴿بَرَآءَةٌ﴾ حتى ختمها.

ثم خرجنا معه، ثم كان يوم النَّحر، فأَفَضْنَا، فلما رجع أبو بكر، خَطَب الناسَ فحدَّثهم عن إفاضَتِهم وعن نحْرِهم وعن مناسِكهم، فلما فَرَغ، قام عليٌّ فقرأ على الناس ﴿بَرَآءَةٌ﴾ حتى ختمها.

فلما كان يومُ النَّفْر الأول، قام أبو بكر فخطب الناس، فحدَّثهم كيف يَنْفِرون وكيف يَرْمُون، فعلَّمَهُم مناسِكَهم، فلما فَرَغ، قام عليٌّ فقرأ ﴿بَرَآءَةٌ﴾ على الناس حتى خَتَمَها)[1].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٣٩٧٠)؛ وفي الصغرى: ٥/٢٤٧ ـ ٢٤٨؛ والدارمي (١٩١٥)؛ وابن خزيمة (٢٩٧٤)؛ وابن حبان (٦٦٤٥)؛ والبيهقي في الدلائل: ٥/٢٩٧ ـ ٢٩٨، وذكره الحافظ في الفتح: ١٠/٢٥٧ (٤٦٥٥) وسكت عليه.

وعن المُحرَّر بنِ أبي هريرة ، عن أبيه قال: (كنتُ مع عليٍّ بن أبي طالب حين بَعثَه رسول الله ﷺ إلى أهلِ مكةَ بـ ﴿ بَرَآءَةٌ ﴾ ، قال: ما كنتُم تُنادُونَ؟ قال: كنَّا نُنادي: إنَّه لا يَدخلُ الجنة إلا نفسٌ مؤمنةٌ ، ولا يطوفُ بالبيتِ عُرْيانٌ ، ومَنْ كان بينَه وبين رسول الله ﷺ عهدٌ فأجَلُه ـ أو أمدُهُ ـ إلى أربعةِ أشهر ، فإذا مضتِ الأربعةُ الأشهرُ ، فإنَّ اللهَ بريءٌ من المشركين ورسولُه ، ولا يَحُجُّ بعدَ العامِ مشركٌ ، فكنتُ أنادي حتى صَحِلَ صَوْتي)[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (بَعثَ النبيُّ ﷺ بـ ﴿ بَرَآءَةٌ ﴾ مع أبي بكر ، ثم دعاه فقال: «**لا يَنبغي لأحدٍ أن يُبلِّغَ هذا إلا رجلٌ من أهلِ بيتي**» ، فدَعَا عليّاً فأعطاهُ إيَّاها)[2].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (لمَّا نزلَتْ عشرُ آيات من ﴿ بَرَآءَةٌ ﴾ على النبي ﷺ ، دعا النبيُّ ﷺ أبا بكر ، فبَعَثَه بها ليقرأها على أهل مكة ، ثم دَعاني النبيُّ ﷺ فقال لي: «**أَدْرِكْ أبا بكر ، فحيثُما لَحِقْتَهُ فَخُذِ الكتابَ منه فاذْهَبْ به إلى أهل مكة فاقرأهُ عليهم**». فلَحِقْتُه بالجُحْفَةِ ، فأخذتُ الكتابَ منه ، ورجع أبو بكر إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! نزلَ فيَّ شيءٌ؟ قال: «**لا ، ولكنَّ جبريلَ جاءني فقال: لن**

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٣٩٣٥)؛ وفي الصغرى: ٥/ ٢٣٤؛ وأحمد: ٢/ ٢٩٩؛ وابن حبان (٣٨٢٠)؛ والحاكم: ٢/ ٣٣١ وصححه ووافقه الذهبي؛ وصححه الألباني في صحيح النسائي: ٢/ ٦٢٠ ـ ٦٢١. ومعنى (صَحِلَ): بَحَّ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٩٠) وقال: حسن غريب ، وحسَّنه الألباني.

يؤدِّيَ عنك إلا أنت أو رجلٌ منك»)[1].

قال ابن كثير: (وليس المراد أن أبا بكر رضي الله عنه رجع من فَوْره، وإنما رجع بعد قضائه المناسك التي أمَّره عليها رسول الله ﷺ، كما جاء مبيَّناً في الرواية الأخرى)[2].

وقال ابن تيمية: (بعث النبي ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم، وأردَفَه بعليٍّ، فقال لعليٍّ: أميرٌ أم مأمورٌ؟ فقال: بل مأمور. فكان أبو بكر أميراً عليه، وعليٌّ معه كالمأمور مع أميره: يصلي خَلْفه، ويُطيع أمرَهُ، وينادي خَلْفَه مع الناس بالموسم: ألاَ لا يَحُجَّ بعد العام مشركٌ، ولا يَطُوف بالبيت عُريان.

وإنما أردفه به لينبِذَ العهدَ إلى العرب، فإنه كان من عادتهم أن لا يَعقد العقود ويَنبذها إلا السيد المطاع، أو رجلٌ من أهل بيته، فلم يكونوا يَـقبلون نقضَ العهود إلا من رجل من أهل بيت النبي ﷺ)[3].

وقال ابن كثير: (بعثَ رسول الله ﷺ عليّاً رضي الله عنه بعد أبي بكر الصديق، ليكونَ معه، ويتولَّى عليٌّ بنفسه إبلاغَ البراءة إلى المشركين نيابةً عن رسول الله ﷺ، لكونه ابنَ عمِّه من عَصَبتِهِ)[4].

وخرج مع أبي بكر في تلك الحَجَّة ثلاثُمئة من الصحابة، وبعث معه رسول الله ﷺ بعشرين بَدَنةً قلَّدها وأَشْعَرها بيده، عليها ناجِيَة بن جُندُب

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند: ١/ ١٥١، وحسنه أحمد شاكر.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤١٤. وانظر: الفتح: ١٠/ ٢٥٨.

(٣) منهاج السنة النبوية: ٤/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

(٤) البداية والنهاية: ٥/ ٣٧.

الأَسْلمي ، وساق أبو بكر خمسَ بَدَنات[1] .

ومن الصحابة الكرام الذين كانوا معه: علي بن أبي طالب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وجابر بن عبد الله ، وأبو هريرة ، رضي الله عنهم.

فأقام الصدِّيق للناس حجَّهم ، وعلَّمهم مناسكهم ، ونَبَذ إلى المشركين عهدهم ، وأعْلَمَهم أن لا يَحجوا بعد عامهم هذا ، فقطع بذلك دابر الشرك وتلويث الحج بمساوئه. وحَجَّ رسول الله ﷺ بعد ذلك بعام في السنة العاشرة حَجَّة الوداع ، ولم يحج في تلك الحَجَّة مشرك ، ولله الحمد.

ثالثاً: الاتباع التام للنبي ﷺ:

قبل نبوَّة سيدنا رسول الله ﷺ رأى فيه أبو بكر من بين لِدَاته وأقرانه من شباب قريش أكملَهم وأزكاهم ، فصادَقَه ولازمه وجعله قدوته؛ لأنه كان أكملَ الخليقة نفساً ، وأعظمهم خُلقاً ، وأكبرَهم قلباً ، وأطهرَهم روحاً ، وأجلَّهم أدباً ، وأصدَقهم حديثاً ، وامتلأ به أبو بكر إعجاباً ، لِما فُطر عليه من الحق والخير والاستقامة. فكان محمد بن عبد الله ﷺ جديراً بالإعجاب ، خَليقاً بالاتباع ، فاتخذ منه أبو بكر إماماً وهادياً.

وعندما أكرمه الله تعالى بالنبوة وأرسله إلى العالمين بشيراً ونذيراً ، كان الصدِّيق أسرعَ الخلق إلى الإيمان به والتصديق برسالته واتباع هَدْيه ،

---

(١) طبقات ابن سعد: ١٦٨/٢ ، تاريخ الطبري: ١٢٢/٣؛ البداية والنهاية: ٣٩/٥؛ الفتح: ٦٩١/٩ شرح الحديث (٤٣٦٣) ، ٢٥٤/١٠ شرح الحديث (٤٦٥٦).

وأصبح منهجه الذي لا يَريم عنه: الاتباع التام لكل ما يقوله ﷺ، ويأمر به، ويفعله، ويشير إليه، ويحضّ عليه، ويتمنَّاه، ويرغِّب فيه، ويوجِّه إليه. فكان ذلك دأْبه في عباداته وأخلاقه وأقواله وأفعاله، في عُسره ويُسره، وسفره وحضره، في عهد النبوة بمكة وفي أيام الهجرة وبعدها في عصر النبوة بالمدينة، وفي أيام خلافته... حتى إن الأقدار كانت تُجري على لسانه أقوالاً تطابِق كلمات النبي ﷺ، فقولُه مثل قولِه، وعملُه مثل عملِه، وفعلُه مثل فعلِه.

ولْنُضِئ هذا الجانب الفذّ من حياة الصديق بالأمثلة والشواهد والمواقف:

●● ففي صلاته: كان يفتتح صلاته بالجهر بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ويَقصر الصلاة في السفر فيصلي ركعتين، ولا يتطوّع في السفر اقتداءً به ﷺ، ويسجد في الصلاة إذا قرأ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ و﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، وكان يعجِّل الظهر، فتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن ذلك: (ما رأيتُ أحداً كان أشدَّ تعجيلاً للظهر من رسول الله ﷺ، ولا من أبي بكر، ولا من عمر)[1].

وكان ينزل بالمُحَصَّب يوم النَّفْر، لأن النبي ﷺ فعله، ورَمَل في حجِّه اقتداءً بالرسول ﷺ، وكان لا يَصوم يومَ عرفة بعرفة كما سَنَّ النبي ﷺ.

ويمشي أمام الجنازة عند تشييعها، اتباعاً لهدي النبوة.

---

(١) أخرجه أحمد: ٦/١٣٥؛ والترمذي (١٥٥) وحسنه، وصححه أحمد شاكر.

وهذه أمثلة سقناها في ميدان العبادات[1].

●● وفي الساعة الأولى من إسلام أبي بكر رضي الله عنه ، لمَّا أخبره النبي ﷺ أن الله تعالى اختاره للناس رسولاً؛ آمن **لِلَحْظتِه ما تلبث ولا تريث ، واتبعه أتمَّ الاتباع ، وصدَّقَه أرفعَ التصديق.**

ـ وعندما أرجف المشركون برسول الله ﷺ صبيحةَ ليلة الإسراء ، وأسرعوا إلى أبي بكر فأخبروه مستغربين مستنكرين ، ما تلكَّأ لحظة عن تصديق النبي ﷺ في خبره ، وقال قولته السائرة: إنْ كان قال فقد صَدَق!.

ـ واتَّبع النبي ﷺ وثبتَ معه في أقسى الظروف وأحلكِ الأزمات في أيام الهجرة المباركة ، وفي وقعتي أُحد وحُنين ، وكان ممن استجاب لله والرسول من بعد ما أصابه القَرْح فخرج معه ﷺ إلى حمراء الأسَد.

ـ وفي صلح الحُديبية برزت فضيلةُ الاتباع في أجلى صورها وأجلِّ معانيها ، وظهر فيها تقدُّمُه على غيره في ذلك ، فهذا يَناظِر رسول الله ﷺ ليردَّه عن أمره ، وهذا يأمره النبي ﷺ ليمحوَ اسمَه فلا يمحوه ، وهذا يقول: لو أستطيع أن أردَّ أمرَ رسول الله ﷺ لرددْتُه ، وهو يأمر الناس بالحَلْق والنَّحر فيتوقَّفون[2]!.

أما الصدِّيق فكان على سَنَنِ النبي ﷺ في كل شيء ، حتى توافقَتْ كلماتُه مع كلماتِه عندما قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: (أيُّها الرجلُ ، إنه لرسول الله ﷺ ، وليس يَعصي ربَّه ، وهو ناصِرُه ،

---

(١) وكل ذلك وارد في الأحاديث الصحاح ، تركت تخريجها تخفيفاً.

(٢) منهاج السنة النبوية: ٤/ ٦١٣.

فاستمسِكْ بِغَرْزِه ، فوالله إنَّه على الحق)[1] .

●● وفي مستهل خلافته خطب الناسَ فقال : (إن الله اصطفى محمداً على العالمين ، وعَصَمه من الآفات ، وإنما أنا متَّبع ولستُ بمبتدعٍ ، فإن استقمتُ فتابِعوني ، وإن زِغتُ فقوِّموني)[2] .

ـ ولمَّا توقَّفَ الصحابة رضي الله عنهم في إنفاذ جيش أسامة ، وقف الصديق وقال بصوت مُجَلْجِل : (والله لا أحلُّ عقدةً عقَدها رسول الله ﷺ ، ولو أن الطير تَخْطَفنا ، والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرَّتْ بأرجلِ أمهات المؤمنين ؛ لأُجهزنَّ جيشَ أسامة!) . وقال : (والذي نفسُ أبي بكر بيدِهِ ، لو ظننتُ أن السِّباع تخطَفُني ؛ لأنفذتُ بَعْثَ أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ ، ولو لم يبقَ في القرى غيري لأنفذتُه)[3] .

ـ وبمثلِ تلك الصلابة كان موقفه من المرتدين ، فإنه رضي الله عنه آلَى على نفسه أن لا يَدَعَ شيئاً كان يصنعُه رسول الله ﷺ إلا صنعه .

قال : (واللهِ لأقاتلنَّ مَنْ فَرَّق بين الصلاة والزكاة ، فإنَّ الزكاة حقُّ المال . والله لو مَنَعُوني عِقالاً كانوا يؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتُهم على مَنْعِه)[4] .

ـ وفي المحنة القاسية مع السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها وأرضاها ، وقد جاءت أبا بكر تطلب ميراثها من رسول الله ﷺ ، فقال

---

(١) سبق بتمامه : ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ في هذا الكتاب .
(٢) ابن عساكر ، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧ ؛ البداية والنهاية : ٦/ ٣٠٣ .
(٣) البداية والنهاية : ٦/ ٣٠٤ .
(٤) صحيح مسلم (٢٠) .

رضي الله عنه وأرضاه: (إن رسول الله ﷺ قال: «**لا نُورَثُ ، ما تركْنَا صدقةٌ ، إنما يـأكلُ آلُ محمد ﷺ في هذا المال**». وإني والله لا أُغَيِّر شيئاً من صَدَقة رسول الله ﷺ عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله ﷺ ، ولأعملَنَّ فيها بما عَمِل به رسول الله)[1] .

●● كما نلاحظ أن أبا بكر كان يقتدي برسول الله ﷺ في اختيار الولاة والأمراء ، لهذا نجده قد أقرَّ جميعَ عمال النبي ﷺ الذين توفي ﷺ وهم على ولاياتهم ، ولم يعزل أحداً منهم إلا ليعيِّنه في مكان آخر أكثر أهمية من موقعه الأول ويرضاه ، كما حدث لعمرو بن العاص رضي الله عنه[2] .

ـ وكَتب رسول الله ﷺ كتابَ الصدقة ، فلم يُخرِجْه إلى عماله حتى قُبض، فقَرَنه بسيفه ، فعَمِل به أبو بكر حتى قُبض ، ثم عمل به عمر حتى قُبض[3] .

ـ وعندما طلب الفاروق من أبي بكر أن يعزل خالد بن الوليد ، أجابه بحزم: ما كنتُ لأَشِيم سيفاً سلَّه الله على الكافرين[4] .

ـ وكان يسوِّي بين الناس في العطاء: الحر والعبد ، والذكر والأنثى ، والصغير والكبير فيه سواءٌ. ويعطي المؤلَّفة قلوبهم[5]. كل ذلك اقتداء بالنبي ﷺ .

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٥٩) ، وغيره ، وستأتي القصة بتمامها وتفصيلها.
(٢) الولاية على البلدان ، ص ٧٦ .
(٣) سنن أبي داود (١٥٦٨).
(٤) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٧٩ . **أشيم**: أغمد.
(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ ٢١٣ ؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢٢١ .

رابعاً: مع النبي ﷺ في أيامه الأخيرة:

حدثت في الأيام الأخيرة من حياة سيدنا رسول الله ﷺ مع أصحابه الكرام رضي الله عنهم أحداثٌ جِسام ومواقف كبار؛ كان لها أثر كبير وخطير في رسم معالم حياتهم بعد وفاته ﷺ، كذلك رسَّخَتْ مفاهيمَ أصيلةً في بنيان دولة الخلافة الراشدة، وأبرزَتْ اجتهاداتٍ واختلافاتٍ؛ أثَّرَتْ في مسيرة الحكم فيما بعد. وتساوقت جميعُها لتحطَّ رحالَها في صعيد الوئام والوفاق وانطلاق الرجال الذين صنعهم محمد رسول الله ﷺ؛ ليكسروا فقارَ الرِّدَّة، ويثبِّتوا الإسلامَ في جزيرة العرب، ثم لينطلقوا بضياء الرسالة فيبدِّدوا بها ظلماتِ الفرس والروم، ويبسطوا أجنحة الإسلام وحضارته وقِيمَه.

وقد كانت في تلك الأيام إرهاصاتٌ وإيماءات بقُرْبِ أجَلِ النبي الحبيب ﷺ، اسْتَكْنَهَ أبو بكر مرماها، ثم تلاه الصحابة في فَهْم مغزاها. وكان فيها ترشيح للرجل الذي سيقود المسيرة المباركة بعد لحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى.

●● عن أبي سعيد الخُدْريّ رضي الله عنه: (أنَّ رسول الله ﷺ جلس على المِنبر، فقال: «**إنَّ عبداً خيَّـرَهُ الله بين أن يُؤتيَـهُ من زَهرة الدنيا ما شاءَ وبين ما عندَه، فاختارَ ما عندَهُ**»! فبكى أبو بكر وقال: فَدَيْناكَ بآبائنا وأمهاتنا! فعَجِبْنَا له، وقال الناس: انظُروا إلى هذا الشيخ، يُخْبِر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خيَّرَه الله بين أن يؤتيَهُ من زَهرة الدنيا وبين ما عنده، وهو يقول: فديناكَ بآبائنا وأمهاتنا! فكانَ رسولُ الله ﷺ هو المُخَيَّرَ، وكان أبو بكر هو أَعْلَمَنا به.

وقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ مِن أَمَنِّ الناسِ عَليَّ في صُحبتِه ومالِهِ أبا بكر ، ولو كنتُ متَّخِذاً خليلاً من أمتي لاتَّخَذْتُ أبا بكر ، إلا خُلَّةَ الإسلام. لا يَبْقَيَنَّ في المسجدِ خَوْخَةٌ إلا خوخة أبي بكر**» لفظ البخاري.

وفي رواية لأحمد: (فلم يفطَن لها أحدٌ من القوم إلا أبو بكر ، فقال: بأبي أنت وأمي ، بل نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا! قال: ثم هَبَط رسول الله ﷺ عن المِنْبر ، فما رُئيَ عليه حتى الساعة)[1].

وفي رواية جُنْدُب بن عبد الله البَجَليِّ أن هذه الخطبة كانت قبل وفاة رسول الله ﷺ بخمسِ ليالٍ[2].

واستشعر الصديق بنور فؤاده وشفافيةِ روحه وألمعيةِ فهمه أن النبي ﷺ إنما أراد نفسَه الشريفة ، فبكى حزناً على فراقه وانقطاعِ الوحي وغيره من الخير دائماً.

وإنما قال النبي ﷺ: «**إن عبداً**» وأَبْهَمه ، لينظرَ فَهْمَ أهل المعرفة ونباهةَ أصحاب الحذق[3] ، ففهمها أبو بكر ، وتعجَّبَ الصحابة لبكائه وتفديته النبي ﷺ بالنفس والأولاد والأموال ، فكان هو أعلَمَهم برسول الله ﷺ وبمراده من كلامه. وأقرّه النبي ﷺ على ذلك الفهم ، ففي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٤) ، وأطرافه في (٤٦٦)؛ ومسلم (٢٣٨٢)؛ والترمذي (٣٦٦٠)؛ وابن سعد: ٢/ ٢٢٧؛ وأحمد: ٣/ ٩١؛ وابن حبان (٦٥٩٣) ، و(٦٥٩٤) و(٦٨٦١) ، وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٢)؛ والنسائي في الكبرى (١١٠٥٨)؛ وابن حبان (٦٤٢٥) ، وغيرهم.

(٣) شرح مسلم ، للنووي: ٨/ ١٦٧؛ تكملة فتح الملهم: ٥/ ٣٦؛ وانظر: الفتح: ٨/ ٥٧ (٣٦٥٤).

إحدى الروايات: (قال: «**لا تبكِ يا أبا بكر**»).

●● وفي أيام مرضِ رسول الله ﷺ قدَّم أبا بكر ليصلِّي بالناس إماماً، ورفض أن يؤمَّ المسلمين أحدٌ غيره، وهذا كالنص على أن أبا بكر هو الذي سيخلُف النبيَّ ﷺ في إمامة الأمة وقيادتها بعد أن يلحق الرسول ﷺ بربِّه.

عن عبد الله بن زَمْعَة رضي الله عنه قال: (لمَّا اسْتُعِزَّ برسول الله ﷺ، وأنا عنده في نَفَرٍ من المسلمين، دعاه بلالٌ للصلاة، فقال: «**مُروا مَنْ يصلِّي بالناس**»، قال: فخرجتُ فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائباً، فقال: قُمْ يا عمر فَصَلِّ بالناس، قال: فقام، فلما كبَّر عمرُ سمع رسول الله ﷺ صوته، وكان عمر رجلاً مُجْهِراً، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**فأينَ أبو بكر؟ يأبَى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون**»! قال: فبعث إلى أبي بكر، فجاء بعد أن صلَّى عمر تلك الصلاة، فصلَّى بالناس. قال عبد الله بن زمعة: قال لي عمر: وَيْحَكَ! ماذا صنعتَ بي يا بنَ زمعة؟! والله ما ظننتُ حين أمرتَني إلا أن رسول الله ﷺ أمرَك بذلك، ولولا ذلك ما صلَّيتُ بالناس، قال: قلتُ: والله ما أمرني رسول الله ﷺ، ولكن حين لم أرَ أبا بكر رأيتُكَ أحقَّ مَن حَضَر بالصلاة).

وفي رواية: قال ابن زمعة: (خَرج النبي ﷺ حتى أَطْلَع رأسَه من حُجرته، ثم قال: «**لا، لا، لا، لِيصلِّ للناس ابنُ أبي قُحافة**»، يقول ذلك مُغْضَباً!)[1].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٦٠) و(٤٦٦١)؛ وأحمد: ٤/ ٣٢٢؛ وابن أبي عاصم في السنة (١١٦٠ ـ ١١٦٢)؛ والفسوي: ١/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤؛ وابن هشام في السيرة: =

وعن عُبيد الله بن عبد الله قال: (دخلتُ على عائشةَ فقلتُ لها: ألا تَحدِّثينني عن مرضِ رسول الله ﷺ؟ قالت: بلى ، ثَقُلَ النبيُّ ﷺ فقال: «**أصلَّى الناسُ؟**» قلنا: لا ، وهم ينتظرونك يا رسول الله! قال: «**ضَعُوا لي ماءً في المِخْضَبِ**» ، ففعلنا ، فاغتسل ، ثم ذَهَبَ لِيَنُوءَ فأُغْمِيَ عليه ، ثم أفاق فقال: «**أَصلَّى الناس؟**» قلنا: لا ، وهم ينتظرونك يا رسول الله! فقال: «**ضَعُوا لي ماء في المِخْضَب**» ، ففعلنا ، فاغتسل ، ثم ذهب لِينُوءَ فأُغمي عليه ، ثم أفاق فقال: «**أصلَّى الناس؟**» قلنا: لا ، وهم ينتظرونك يا رسول الله! فقال: «**ضَعُوا لي ماءً في المِخْضَب**» ، ففعلنا ، فاغتسل ، ثم ذهب لينُوءَ فأُغمي عليه ، ثم أفاق فقال: «**أصلَّى الناسُ؟**» قلنا: لا ، وهم ينتظرونك يا رسول الله! قالت: والناس عُكوفٌ في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء الآخِرة. قالت: فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي بكر أن يصلِّي بالناس ، فأتاه الرسول فقال: إنَّ رسول الله ﷺ يأمُرك أن تصلي بالناس ، فقال أبو بكر ـ وكان رجلاً رقيقاً ـ: يا عمرُ صَلِّ بالناس ، قال: فقال عمر: أنتَ أحقُّ بذلك. قالت: فصلَّى بهم أبو بكر تلك الأيامَ.

ثم إنَّ رسول الله ﷺ وَجَد من نفسِه خِفَّةً ، فخرج بين رجلين أحدُهما العباس ، لصلاةِ الظهر ، وأبو بكر يصلي بالناس ، فلما رآه أبو بكر ذَهَب ليتأخَّرَ ، فأومأَ إليه النبيُّ ﷺ أن لا يتأخّر ، وقال لهما: «**أَجْلِساني إلى جَنْبه**» ، فأَجْلَسَاه إلى جَنْب أبي بكر. وكان أبو بكر يصلِّي وهو قائمٌ

= ٢/٦٥٢؛ وصححه الألباني ، والرواية الأولى لأحمد ، والثانية لأبي داود. **استُعِزّ بالمريض**: إذا غلب على نفسه من شدة المرض. **مُجْهِراً**: أي صاحبُ جهْرٍ ورفْعٍ لصوته.

بصلاة النبي ﷺ ، والناسُ يصلُّون بصلاة أبي بكر ، والنبيُّ ﷺ قاعدٌ.

قال عُبيد الله: فدخلتُ على عبد الله بن عباس ، فقلتُ له: ألا أَعرِضُ عليك ما حدَّثتني عائشةُ عن مرضِ رسول الله ﷺ؟ فقال: هاتِ ، فَعَرَضْتُ حديثها عليه ، فما أنكر منه شيئاً ، غيرَ أنه قال: أَسَمَّتْ لك الرجلَ الذي كان مع العباس؟ قلتُ: لا ، قال: هو عليٌّ).

وفي رواية: عن الأسْود بن يزيد ، عن عائشة رضي الله عنها قالت: (لمَّا ثَقُلَ رسول الله ﷺ ، جاء بلال يُؤْذِنُهُ بالصلاة ، فقال: «**مُرُوا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناس**» قالت: فقلتُ: يا رسول الله! إنَّ أبا بكر رجلٌ أَسِيفٌ ، وإنه متى يَقُمْ مَقامَكَ لا يُسْمِع الناسَ ، فلو أَمَرْتَ عمرَ! فقال: «**مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس**» ، قالت: فقلتُ لحفصةَ: قُولي له: إن أبا بكر رجلٌ أَسِيفٌ ، وإنَّه متى يَقُمْ مَقامَك لا يُسمع الناسَ ، فلو أمرتَ عمر! فقالت له ، فقال رسول الله ﷺ: «**إنكنَّ لأنتنَّ صواحِبُ يوسُفَ ، مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس**» قالت: فأَمَرُوا أبا بكر يصلِّي بالناس. قالت: فلما دخل في الصلاة وَجَدَ رسول الله ﷺ من نَفْسِه خِفَّةً ، فقام يُهَادَى بين رجُلَيْن ، ورجْلاه تخُطَّان في الأرض ، قالت: فلما دخل المسجدَ سمعَ أبو بكر حِسَّه ، وذَهَب يتأخَّرُ ، فأوْمَأ إليه رسول الله ﷺ: قُمْ مكانَكَ. فجاءَ رسول الله ﷺ حتى جلسَ عن يسار أبي بكر ، قالت: فكان رسول الله ﷺ يصلِّي بالناس جالساً ، وأبو بكر قائماً ، يقتدي أبو بكر بصلاة بالنبي ﷺ ، ويقتدي الناس بصلاة أبي بكر)[1]. لفظ مسلم.

---

(١) أخرجه البخاري (١٩٨) وأطرافه؛ ومسلم (٤١٨)؛ والنسائي في الكبرى (٩٠٩ ، ٩١٠)؛ وفي الصغرى: ٢/٩٩ ـ ١٠٢؛ وأحمد: ٦/٢٥١؛ وابن حبان (٢١١٦) وفيه تخريجه عند كثير من الأئمة. **المخضب**: إناء نحو المركن=

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (فجاءَ النبيُّ ﷺ حتى جَلَس ، وقام أبو بكر عن يمينه ، وكان أبو بكر يأتمُّ بالنبيِّ ﷺ ، والناس يَأْتمُّون بأبي بكر. قال ابن عباس: وأَخَذَ النبي ﷺ من القراءة من حيثُ بَلَغ أبو بكر).

وفي رواية: (واستفتح من الآية التي انتهى إليها أبو بكر)[(١)].

وقد روى هذا الحديث أيضاً: علي بن أبي طالب ، وأبو موسى الأشعري ، وابن مسعود ، وابن عمر ، وأبو سعيد الخدري ، وسالم بن عُبيد الأشجعي ، وأم المؤمنين حفصة ، وهو حديث متواتر ، وقد ساق طرقه السيوطي في «الأحاديث المتواترة».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (واستخلافه ﷺ للصديق في الصلاة متواتر ثابت في الصحاح والسنن والمسانيد من غير وجه)[(٢)].

●● وقوله ﷺ: **«يأبَى الله ذلك والمسلمون»**: أي: إن الله تعالى يأبى والمسلمون أن يتقدَّم في الصلاة أحدٌ على جماعة فيهم أبو بكر ، حيث هو أكبرهم قَدْراً ومنزلة وعلماً ، فإن التقدم عليه في مثل الصلاة التي هي أكبرُ أعمال الإسلام وأشرفُها مما يأباه الله والمسلمون.

وفيه نوعُ دلالة على خلافة أبي بكر رضي الله عنه ، لأن هذا القول

= الذي يغسل فيه. **لينوء**: أي يقوم وينهض. **يهادى بين رجلين**: أي يمشي بينهما متكئاً عليهما.

(١) أخرجه أحمد: ١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢ ، ٣٥٦ ، واللفظ له؛ وابن ماجه (١٢٣٥)؛ وصححه أحمد شاكر ، وحسنه الألباني.

(٢) منهاج السنة النبوية: ٤/ ٦٩٥.

يُعلم منه: أن المراد به ليس نفيَ جواز الصلاة خلفَ عمر، كيف وهي جائزة خلفَ غيره من آحاد المسلمين ممن هو دون عمر؟! وإنما أراد به الإمامةَ التي هي الخلافة والنيابة عن النبي ﷺ[1].

ومعنى قول أم المؤمنين عائشة عن أبيها: (رجلُ أَسِيفٌ) أي: شديد الحزن والبكاء، من الأسف وهو الحزن.

وقد جاء مفسَّراً في روايات أخرى: (إن أبا بكر رجلٌ أَسِيفٌ إنْ يَقُمْ مقامَكَ يبكِ ولا يَقْدِر على القراءة)، (إن أبا بكر رجلٌ رقيقٌ إذا قرأ القرآن لا يملك دَمْعَه)[2].

وإنما فعلَتْ ذلك رضي الله عنها كما قالت: (لقد راجعتُ رسول الله ﷺ في ذلك، وما حَمَلَني على كثرةِ مراجعتِه إلاَّ أنه لم يَقَعْ في قلبي أنْ يُحِبَّ الناسُ بعدَه رجلاً قام مَقامَهُ أبداً، وإلاّ أني كنتُ أَرى أنه لن يقومَ مَقامَهُ أحدٌ إلا تشاءَمَ الناسُ به، فأردتُ أن يَعْدِلَ ذلك رسول الله ﷺ عن أبي بكر)[3].

وهذا الفعل من السيدة الطاهرة عائشة دالٌّ على فرط ذكائها، ولطافة حسها، وحسن تقديرها، وقوة فطنتها؛ على أن ذلك الأمر هو الجد كل الجد في ذلك الموقف العصيب وذلك البلاغ الخطير. **ونَفَع أعظَم النفع في إظهار إصرار النبي ﷺ على تقديم الصديق**، واتفاق المسلمين في

---

(١) جامع الأصول: ٨/ ٥٩٤ ـ ٥٩٥.

(٢) المرجع السابق: ٨/ ٥٩٨ ـ ٥٩٩.

(٣) البخاري (٤٤٤٥)؛ ومسلم (٤١٨) (٩٣)؛ وابن سعد: ٢/ ٢١٧؛ وابن حبان (٦٨٧٤).

حضرته ﷺ على ذلك؛ «**يأبى الله ذلك والمسلمون**»[1].

وقوله ﷺ: «**إنكنَّ صواحبُ يوسُف**»: المراد أنهنَّ مثلُ صواحب يوسف في إظهار خلافِ ما في الباطن. وهذا الخِطاب وإن كان بلفظ الجمع فالمرادُ به واحدٌ وهي عائشة فقط، كما أن «صواحب» صيغة جمع والمراد زَليخا فقط.

ووجْهُ المشابهة بينهما في ذلك أن زَليخا استدعَت النسوة وأظهرتْ لهنَّ الإكرامَ بالضيافة، ومرادها زيادة على ذلك وهو أن ينظرنَ إلى حُسْن يوسفَ ويَعْذِرنها في محبَّتِه، وأن عائشة أظهرتْ أن سببَ إرادتها صرفَ الإمامة عن أبيها كونه لا يُسْمِع المأمومين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك وهو أن لا يتشاءم الناس به، وقد صَرَّحتْ هي فيما بعد ذلك به[2].

●● عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أنَّ أبا بكر كان يصلِّي لهم في وَجَع النبيِّ ﷺ الذي تُوفِّي فيه، حتى إذا كان يومُ الإثنين وهم صفوفٌ في الصلاة، فكشفَ النبي ﷺ سِتْرَ الحُجرة ينظرُ إلينا وهو قائمٌ كأنَّ وجْهَهُ ورقةُ مُصْحفٍ، ثم تبسَّمَ يضحكُ، فهَمَمْنا أن نَفتتنَ من الفَرح برؤيةِ النبي ﷺ! فنكَصَ أبو بكر على عَقِبَيْه لِيَصلَ الصفَّ، وظنَّ أن النبي ﷺ خارجٌ إلى الصلاة، فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتِمُّوا صلاتكم، وأرْخَى السِّتر، فتُوفِّي من يومِه).

وفي رواية: (أنَّ المسلمين بَيْنَا هُمْ في صلاة الفجر من يومِ الإثنين،

---

(١) عبقرية الصديق، ص ١٩ ـ ٢٠.

(٢) الفتح: ٣/ ٤٦ ـ ٤٧ شرح الحديث (٦٦٤).

وأبو بكر يصلِّي لهم ، لم يَفْجَأْهم إلا رسولُ الله ﷺ قد كشفَ ستر حُجرة عائشة ، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة، ثم تبسَّم يضحك. . .)[1] .

قوله: (**كأنَّ وجْهَه ورقةُ مُصْحَف**): كناية عن الجمال البارع ، وحُسن البَشَرة، وصفاء الوجه واستنارته، وأنه موقَّر معظَّم محبوبٌ في القلوب.

وقوله: (**ثم تبسَّم**): سببُ تَبسُّمِه ﷺ فرحُه بما رأى من اجتماعهم على الصلاة ، واتباعهم لإمامهم ، وإقامتهم شريعتهم ، واتفاق كلمتهم ، واجتماع قلوبهم ، ولهذا استنار وجهه ﷺ على عادته إذا رأى أو سمع ما يَسرُّه يستنير وجهه[2] .

●● وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: (فَتَح رسول الله ﷺ باباً بينه وبين الناس ، أو كَشَف سِتْراً ، فإذا الناس يصلُّون وراءَ أبي بكر ، فَحمِدَ اللهَ على ما رأى من حُسْنِ حالِهم ، ورجاءَ أن يَخْلُفَه الله فيهم بالذي رآهم)[3] .

وعن مسروق ، عن عائشة رضي الله عنها: (أنَّ أبا بكر صلَّى بالناس ورسول الله ﷺ في الصف)[4] .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٠) وأطرافه ، و(٤٤٤٨)؛ ومسلم (٤١٩)؛ وأحمد: ٣/ ١١٠ ، ١٦٣ ، ١٩٦ ؛ وابن سعد: ٢/ ٢١٦؛ وابن حبان (٦٦٢٠)؛ وغيرهم.

(٢) شرح صحيح مسلم ، للنووي: ٢/ ٣٧٩؛ فتح الملهم: ٣/ ٢٤٢.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٥٩٩)؛ وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه: ١/ ٢٦٧ .

(٤) أخرجه الترمذي (٣٦٢)؛ والنسائي في الكبرى (٨٦٣)؛ وفي الصغرى: ٢/ ٧٩؛ وأحمد: ٦/ ١٥٩ ؛ وابن خزيمة (١٦٢٠)؛ وابن حبان (٢١١٩)؛ وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

وعن الأسود ، عن عائشة رضي الله عنها: (أن النبي ﷺ صلَّى خَلْفَ أبي بكر)[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (آخِرُ صلاةٍ صلاَّها رسول الله ﷺ مع القومِ ، صلَّى في ثوبٍ واحدٍ مُتَوشِّحاً به ، خَلْفَ أبي بكر)[2].

فحديثا عائشة وأنس هذان يدلاّن على أن أبا بكر رضي الله عنه صلى إماماً ، وتقدَّم في الحديث الآخر: (فكان أبو بكر يأتمُّ بالنبي ﷺ ، والناس يأتمُّون بأبي بكر).

وأجاب ابن حِبَّان عن ذلك بأنه ليس بين الأحاديث تعارض ، فرسول الله ﷺ صلى في عِلَّتِه صلاتين في المسجد جماعة ، لا صلاةً واحدةً ، في إحداهما كان مأموماً ، وفي الأخرى كان إماماً[3].

وذكر الحافظ: أن من العلماء مَن سَلَك الترجيح فقدَّم الرواية التي فيها أن أبا بكر كان مأموماً للجزم بها ، ومنهم مَن سلك عكسَ ذلك ورجَّح أنه كان إماماً ، ومنهم من سلك الجمع فحملَ القصة على التعدد؛ ويؤيِّده اختلافُ النقل عن الصحابة غير عائشة ، فحديث ابن

---

(١) أخرجه الفسوي: ١/ ٤٥٢؛ والبيهقي في الدلائل: ٧/ ١٩٢؛ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ٥/ ٢٣٤ وقال: إسناده جيد ولم يخرجوه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٣)؛ والنسائي في الكبرى (٨٦٢)؛ وفي الصغرى: ٢/ ٧٩؛ وأحمد: ٣/ ١٥٩؛ وابن حبان (٢١٢٥) ، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح ، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٣) صحيح ابن حبان: ٥/ ٤٨٨ حديث (٢١١٩).

عباس فيه: أن أبا بكر كان مأموماً، وحديث أنس فيه: أن أبا بكر كان إماماً[1].

قلت: وحملُ الأحـاديثِ على التعدُّد أَولى لقوَّة الطرفين، والله أعلم.

●● عن محمد بن قيس قال: (اشتكى رسول الله ﷺ ثلاثةَ عشر يوماً، فكان إذا وجدَ خِفَّةً صلَّى، وإذا ثَقُل صلَّى أبو بكر)[2].

وذكر الزُّهْري عن أبي بكر بن أبي سَبْرة: (أن أبا بكر صلى بهم سبعَ عشرة صلاة). وقال غيره: عشرين صلاة، فالله أعلم[3].

●● **وكان رسول الله ﷺ قد عقد لأسامة بن زيد لواءً**، وجيشُه معسكِر بالجُرْف، فلما كان يوم الإثنين أصبح النبي ﷺ مُفيقاً، فجاءه أسامة، فقال: «**اغدُ على بركة الله**». فودَّعه أسامة، ورسول الله ﷺ مُفِيقٌ، وجعل نساؤه يتماشطن سروراً براحته.

ودخل أبو بكر رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله! أصبحتَ مُفيقاً بحمد الله، واليومُ يوم ابنةِ خارجة، فَأْذَنْ لي، فأَذِنَ له، فذَهَب إلى السُّنْح، وركب أسامة إلى معسكَره.

وفي رواية ابن هشام: قال أبو بكر: (يا نبيَّ الله! إني أَراكَ قد أصبحتَ

(١) الفتح: ٣/ ٥٠ شرح الحديث (٦٦٤).
(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٨١؛ المعرفة والتاريخ: ١/ ٤٥٠؛ السنن الكبرى، للبيهقي: ٨/ ١٥٢.
(٣) البداية والنهاية: ٥/ ٢٣٥.

بنعمةٍ من الله وفضل كما نُحبُّ ، واليوم يوم بنت خارجة ، أفآتيها؟ قال: «**نعم**»[1].

وهذا من الصديق من كمال إيمانه وحبِّه للنبي ﷺ وإشفاقِه عليه وطاعته له ، فما ذهب إلى أهله حتى اطمأنَّ على أن النبي ﷺ قد بَرِئَ وبَلَّ من مرضه ، وأكَّد ذلك باستئذانه ﷺ.

وبينا أبو بكر عند أهله في السُّنْح ، توفَّى اللهُ نبيَّه ﷺ ، وألحقه إلى جواره في الرفيق الأعلى.

عن الصدِّيقة عائشةَ رضي الله عنها وأرضاها قالت: (إنَّ من نِعَمِ الله عليَّ أنَّ رسول الله ﷺ توفِّي في بيتي وفي يومي وبين سَحْرِي ونَحْري ، وأنَّ الله جَمعَ بين ريقي وريقِه عند موته: دخلَ عليَّ عبدُ الرحمن وبيدِه السِّواكُ ، وأنا مُسندة رسول الله ﷺ ، فرأيتُه ينظر إليه ، وعرفتُ أنه يحبُّ السواكَ ، فقلتُ: آخذُه لك؟ فأشار برأسه: أنْ نعم ، فتناولتُه فاشتدَّ عليه ، وقلتُ: أُلَيِّنُه لكَ؟ فأشار برأسه: أنْ نعم ، فَلَيَّنْتُه ، فأمرَّهُ ، وبين يديه رَكْوة ـ أو: عُلْبة ـ فيها ماءٌ ، فجعل يُدخِل يديه في الماء فيمسحُ بهما وجْهَه ، يقول: «**لا إلـه إلا اللهُ ، إنَّ للموتِ سكراتٍ**»! ثم نَصَبَ يده فجعل يقول: «**في الرفيقِ الأعلى**» ، حتى قُبض ومالَتْ يدُه)[2].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ ٢١٥؛ سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٥٤؛ البداية والنهاية: ٥/ ٢٤٤؛ حياة الصحابة: ١/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥. **بنت خارجة**: هي حَبيبة زوجة أبي بكر.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٤٩) واللفظ له ، وأطرافه في (٨٩٠)؛ والنسائي في الكبرى (٧٠٦٥)؛ وأحمد: ٦/ ٤٨ ، ٢٠٠؛ وابن حبان (٧١١٦) ، وغيرهم. **والسَّحْر**: الرئة. أي: مات ﷺ ورأسه على صدرها.

ولم يَشهد أبو بكر الصديق تلك اللحظاتِ الأخيرة التي عالَج فيها رسول الله سكرات الموت ، حتى إنَّ الخادمَ الأمينَ أنس بن مالك يصفُ حالَ السيدة البتول فاطمة الزهراء؛ فيقول: (لمَّا تغشَّى رسول الله ﷺ الكَرْبُ ، كان رأسُهُ في حَجْر فاطمةَ ، فقالت فاطمةُ: وَا كَرْباهُ لِكَرْبِكَ اليومَ يا أبتاهُ! فرَفَع رأسَه ﷺ وقال: «**لا كَرْبَ على أبيكِ بعد اليوم يا فاطمةُ**». فلما توفِّي ، قالت فاطمة: وَا أبتاهُ أجابَ ربّاً دعاهُ ، وَا أبتاهُ مِن ربِّه ما أدناهُ ، وا أبتاهُ إلى جنَّة الفِردوس مأواهُ ، وا أبتاهُ إلى جِبريلَ أنْعَاهُ! قال أنس: فلما دفنَّاه ، مررتُ بمنزل فاطمة ، فقالت: يا أنسُ ، أطَابَتْ أنفسُكم أن تَحْثُوا على رسول الله ﷺ التُّرابَ!)[1].

ولم يَسمع الصديق أيضاً تلك الكلمات الأخيرة التي نطق بها الفم الشريف ، ولا رَمَقَتْ عيناهُ النظرةَ الأخيرة التي ألقاها النبي ﷺ على أصحابه وآله رضي الله عنهم.

(وهذا في نظرنا يَحمل في باطنه سرّاً من أسرار الصدِّيقيَّة كان بتدبير الله الحكيم ، فما كان الصديق الحبيب ليُطيقَ أن يشهد ما شهد الذين وَصَّبُوا رسول الله ﷺ من الشدة. وما كان ليستطيعَ أن يسمع من رسول الله ﷺ كلمة الوداع الأبدية ، وهو مذخور للمؤمنين يحمل عنهم ما يَرزؤهم من فادح الخَطْب وكارثِ الأحداث ، فغيَّبه الله في تلك الساعة ليستجمَّ في صدره الإيمانُ ، حتى يلقى عاطفةَ حبِّ شخص النبي ﷺ

(١) أخرجه البخاري (٤٤٦٢)؛ وابن حبان (٦٦٢٢) واللفظ له؛ وأحمد: ٣/ ٢٠٤؛ وابن سعد: ٢/ ٣١١؛ وابن ماجه (١٦٣٠)؛ والبيهقي في الدلائل: ٧/ ٢١٢ ـ ٢١٣.

بجلائل العقل وجلال الإيمان ، ويردَّ على المؤمنين ما فقدوا من روحانيتهم)[1].

وأرسل الصحابة الصحابيَّ سالم بن عبيد إلى السُّنْح ليُخبِر أبا بكر بالحادث الجلل ، فذهب إليه يقطع الأرض وثباً.

قال سالم بن عُبيد ـ وكان من أهل الصُّفَّة ـ: (لمَّا توفِّي النبي ﷺ قال عمر: لا يتكلَّم أحدٌ بموته إلا ضربتُه بسيفي هذا ، فسَكَتُوا ، وكانوا قوماً أُمِّيين لم يكن فيهم نبي قبله. قالوا: يا سالمُ ، اذهَب إلى صاحب النبي ﷺ فادْعُه.

قال: فخرجتُ ، فوجدتُ أبا بكر قائماً في المسجد ، قال أبو بكر: مات رسول الله ﷺ؟ قلت: إن عمر يقول: لا يتكلَّم أحدٌ بموتِه إلا ضربتُه بسيفي هذا! فوضع يده على ساعدي ، ثم أقبل يمشي حتى دخل ، قال: فوسَّعُوا له حتى أتى النبيَّ ﷺ ، فأكَبَّ عليه حتى كاد أن يَمَسَّ وجهُهُ وجْهَ النبي ﷺ ، حتى استبانَ له أنه قد مات ، فقال أبو بكر: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]. . قالوا: يا صاحبَ رسول الله ﷺ ، أمات رسول الله ﷺ؟ قال: نعم ، قال: فعَلِمُوا أنه كما قال)[2].

وتتابع أم المؤمنين عائشة روايةَ الحدث الفاجع ، فتخبر: (أن أبا بكر رضي الله عنه أقبلَ على فرسٍ من مسكنه بالسُّنْح ، حتى نزل ، فدخل المسجدَ ، فلم يكلِّم الناسَ حتى دخل على عائشة ، فتيمَّمَ رسول الله ﷺ

---

(١) حياة رجالات الإسلام ، ص ٧٦. وَصَّبوا: مَرَضُوا.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٧٠٨١)؛ والترمذي في الشمائل (٣٧٩)؛ وصححه الألباني في مختصر الشمائل.

وهو مُغَشّى بثوب حِبَرةٍ ، فكَشَفَ عن وجهه ، ثم أكَبَّ عليه فقَبَّلَه وبكى ، ثم قال : بأبي أنت وأمي ، والله لا يَجمعُ الله عليك مَوْتَتَيْنِ ، أمَّا الموتةُ التي كُتِبت عليك فَقَدْ مُتَّها)[1] .

وفي حديث طويل : تقول عائشة أيضاً : (ثم جاء أبو بكر ، فرفعتُ الحِجابَ ، فنظر إليه فقال : إنَّا لله وإنا إليه راجعون ، مات رسول الله ﷺ! ثم أتاهُ من قِبَل رأسه ، فحَدَرَ فاهُ ، وقبَّلَ جبهتَه ، ثم قال : وا نبيَّاهُ! ثم رفَعَ رأسه ، ثم حَدَر فاهُ ، وقبَّل جبهتَه ، ثم قال : وَا صفيَّاهُ! ثم رفع رأسه ، وحَدَرَ فاهُ ، وقبَّل جبهته ، وقال : وَا خليلاه! مات رسول الله ﷺ . . . ثم سَجَّاه بالثوب ، ثم خرج)[2] .

وعن ابن عمر : (فوَضَع فاهُ على جَبين رسول الله ﷺ ، فجعل يُقبِّلُه ويبكي ، ويقول : بأبي وأمي طِبْتَ حيّاً وميتاً)[3] .

ومعنى : (**لا يَجمع الله عليك موتتين**) : هو على حقيقتِه ، وأشار بذلك إلى الردِّ على مَن زعم أنه سيحيا فيقطع أيدي رجال؛ لأنه لو صحَّ ذلك لَلَزِم أن يموت موتة أخرى ، فأخبر أنه أكرمُ على الله من أن يجمع عليه موتتين ، كما جمعهما على غيره كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ، وكالذي مرَّ على قرية[4] .

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٥٢ ، ٤٤٥٣) واللفظ له ، وأطرافه في (١٢٤١ ـ ١٢٤٢)؛ والنسائي في الكبرى (١٩٨٠)؛ وفي الصغرى : ٤/ ١١؛ وأحمد : ٦/ ٢٢٠؛ وابن سعد : ٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦؛ وانظر : ابن حبان (٦٦٢٠) .

(٢) أخرجه أحمد : ٦/ ٢٢٠؛ وابن سعد : ٢/ ٢٦٥ . حَدَر فاه : أمَالَه .

(٣) الفتح : ٩/ ٧٩٤ شرح الحديث (٤٤٥٤) ، وعزاه لابن أبي شيبة .

(٤) الفتح : ٤/ ١٨٨ شرح الحديث (١٢٤١ ، ١٢٤٢) .

ويوضحه ما جاء في رواية ابن سعد: (والله لا يَجمع الله عليك الموتتين ، لقد مِتَّ الموتة التي لا تموت بعدها)[1].

١ـ وقد كان هول المصيبة عظيماً:

●● عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أصابَ أحدَكم مصيبةٌ ، فليذْكُر مصيبتَه فيَّ ، فإنها أعظمُ المصائب**».

وعن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ قال: «**يا أيها الناسُ! أيُّما أحد من الناس ، أَوْ مِن المؤمنين ، أُصيب بمصيبةٍ؛ فَلْيَتَعَزَّ بمصيبتِه بي عن المصيبة التي تُصيبه بغَيْري ، فإنَّ أحداً من أمتي لن يُصاب بمصيبةٍ بعدي أشدَّ عليه من مُصِيبتي**»[2].

ويصوِّر أنس بن مالك ـ الذي خَدَمَ النبيَّ ﷺ عشر سنين ـ هولَ المصيبة فيقول: (لمَّا كان اليومُ الذي دخل رسول الله ﷺ فيه المدينةَ ، أضاءَ منها كلُّ شيء ، فلما كان اليومُ الذي مات فيه ، أَظْلَمَ منها كلُّ شيء ، وما نَفَضْنا عن النبيِّ ﷺ الأيدي ، وإنا لفي دفنِه ، حتى أَنْكَرْنا قلوبَنا!)[3].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ ٢٦٨.

(٢) أخرج حديث ابن عباس: ابن عدي في الكامل: ٥/ ١٧٤ ترجمة (١٣٣١)؛ وأخرج حديث عائشة ابن ماجه (١٥٩٩)؛ وصححه الألباني بشواهده في الصحيحة (١١٠٦) ، وصحيح الجامع (٣٤٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦١٨)؛ وابن ماجه (١٦٣١)؛ وابن حبان (٦٦٣٤)؛ والبغوي (٣٨٣٤)؛ وأحمد: ٣/ ٢٢١ ، وقال الترمذي: حديث غريب صحيح ، وقال ابن كثير في (البداية والنهاية: ٥/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤): إسناده على شرط الصحيحين.

وجاء مثله عن أبي سعيد الخُدْري[1].

هكذا يصوِّر لنا هذان الصحابيان الجليلان تلك الساعة الرهيبة ، وهم لسان حال ومقال كل الأصحاب رضي الله عنهم وأرضاهم.

(أرهبُ ساعةٍ في تاريخ الإسلام ، بل في تاريخ الوجود ، ساعةٌ أَظلَمَ فيها الكون ، وأسدل على الحياة رداء من الحزن الباخِع ؛ تلك هي الساعة التي ودَّع فيها المصطفى سيدُ الوجود صلوات الله عليه هذه الحياة إلى الرفيق الأعلى ، فانقطع لموته ما لم ينقطع لموت أحدٍ من الأنبياء قبله ، فطاشَتْ من هَوْل الخَطْب العقول ، وخرست الألسن ، وصُمَّت الآذان ، وغارت الأبصار ، واختلجت البصائر ، وانحلَّت القوى ، وذَرَّ قَرْنُ الشر ، وانقطع واردُ الخير ، ومُنع خبر السماء ، وأظلمت الدنيا في وجوه المؤمنين ، واشْرَأَبَّت أعناق المنافقين).

(يا لَهول الحدث الجلل! روح الحياة يُفارق الحياة؟ ثم يحيى الناس من بعده؟! أي حياة هذه التي يحيونها؟! إنها حياة العصب والدم واللحم ، وا رحمتا للمؤمنين ، فقدوا النور والخير ، والبر والرحمة ، ونَـزَحت من بين أيديهم منابعُ العرفان والهداية ، وانقطعت صلة السماء بالأرض ، ولم يَعُدْ لجبريل الأمين موطئ بينهم!.

أجَلْ ، كان امتحاناً مريراً ، فوجئ به المؤمنون فَسَلَّ أرواحهم من أبدانهم ، وخَلَع قلوبهم من صدورهم ، وأضفَى عليهم الذهولَ والحيرة)[2].

---

(١) أخرجه البزار بسند جيد ، كما في الفتح: ٩/ ٧٩٧ (٤٤٦٢).
(٢) حياة رجالات الإسلام ، ص ٧٤ ـ ٧٥ ، باختصار.

●● ولم يصدِّق عمر الفاروق ـ وهو الشديد الصلب ـ أن رسول الله ﷺ قد مات ، ويتأوّلُ قولَه تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] ، ويظنُّ أن النبي ﷺ سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها(١) .

وسَلَّ سيفَه ، وقام في الناس خطيباً فقال : (لا أَسْمَعَنَّ أحداً يقول : إنَّ محمداً ﷺ قد مات ، إنَّ محمداً ﷺ لم يَمُتْ ، ولكنْ أرسلَ إليه ربُّه كما أرسَلَ إلى موسى ، فَلَبِثَ عن قومه أربعين ليلةً) .

وقال في خطبته : (إني لأرجو أن يُقطِّعَ رسول الله ﷺ أيدي رجالٍ وأرجُلَهم يَزْعُمون أنه مات)(٢) .

وأَخذ أكثرُ القوم بقول عمر ، ولم يقدر أحدٌ من أصحاب رسول الله ﷺ أن يردَّ على عمر قولَه ، وذَهَبَتْ بهم الحَيْرةُ كل مذهب(٣) .

فمن للناس بمن يكشف عنهم هذا الكَرْب الفادح ، ويحمل معهم هذا العبءَ القاتل؟ أين صاحبُ رسول الله؟ أين الصديق؟ أين عَيْلم المؤمنين؟ أين أرسخُ الناس إيماناً؟ إنهم أحوجُ ما يكونون إليه في هذه الساعة المدلهمة(٤) .

---

(١) السيرة النبوية ، لابن هشام: ٢/ ٦٦١؛ تاريخ الطبري: ٣/ ٢١١ .

(٢) أخرجه ابن سعد: ٢/ ٢٦٦؛ وابن حبان (٦٦٢٠) في حديث طويل ، وصححه شعيب الأرنؤوط .

(٣) ممن قال: إن النبي ﷺ مات: العباس بن عبد المطلب والمغيرة بن شعبة . انظر: مسند أحمد: ٦/ ٢٢٠؛ طبقات ابن سعد: ٢/ ٢٦٧؛ سنن الدارمي (٨٣)؛ البداية والنهاية: ٥/ ٢٤١ .

(٤) حياة رجالات الإسلام ، ص ٧٥ .

هنا يتواجه الرجلان الكبيران أبو بكر وعمر ، لا مواجهةَ المتبارين فما كانا يختلفان ولا في المزاح ، بل مواجهة المتنافسين على (درجة الامتياز) في السباق إلى رضا الله.

تواجها يوم قُبض رسول الله ﷺ ، ويوم السَّقيفة ، ويوم بعث جيش أسامة ، ويوم الردَّة ، وكلها نوازل نزلت بالمسلمين ، وفي النوازل الثقال تُوزَن أقدار الرجال ، فكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه وعن عمر أثبتَ في الشدائد ، وأشجعَ في اقتحام الأهوال ، وأكثر علماً بالله ، وكان هو الأرجح في الميزان[1].

وجاء أبو بكر وجاء معه اليقين وجاءت السكينة ، فكان برداً وسلاماً على القلوب ، وكان هدًى للأفئدة ، لم يَذهب الحزن بلبِّه ، ولم تُنْسِه المصيبةُ على شدتها ما عَرف من الحق ، فقام في الصحابة ذلك المقام العظيم ، وتلا عليهم قول الله عز وجل ، فعادوا إلى أنفسهم ، فعلموا أن الذي يقول أبو بكر هو الحق ، وعلموا أن أبا بكر أعلمُ الناس وأسماهم نفساً ، وأربطُهم جأشاً ، وأنفذُهم بصيرة[2].

في هذه اللحظات الذاهلة والفاجعة المزلزلة يكون (الثبات الصدِّيقي) والإيمان العُلوي الموصول بقيُّوم السموات والأرض ، حيث يُزيل أبو بكر الدَّهَشَ عن القلوب ، والغشاوة عن العيون ، والذهول عن العقول.

ولنستمع إلى الخبر الجليل ، ولنتأمل المشهد المثير والموقف الخطير ، الذي يرويه البخاري وغيره...

---

(١) أبو بكر ، للطنطاوي ، ص ١٠.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥١.

قال الزُّهري: حدثني أبو سَلَمة، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (أنَّ أبا بكر خَرج وعمرُ يكلِّم الناسَ، فقال: اجلسْ يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناسُ إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعدُ، مَن كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبدُ الله فإن الله حيٌّ لا يموت، قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال: والله لكأنَّ الناس لم يَعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقَّاها منه الناس كلُّهم، فما أَسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.

فأخبرني سعيد بن المسيِّب: أن عمر قال: واللهِ ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكر تلاها فَعَقِرتُ حتى ما تُقِلُّني رِجْلَايَ، وحتى أهويتُ إلى الأرض حين سمعتُه تلاها، علمتُ أن النبي ﷺ قد مات)[1].

وفي حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (فقال عمر: وإنها لفي كتاب الله؟! ما شَعرتُ أنها في كتاب الله!)[2].

وفي هذا الموقف بيان رُجْحان علمِ أبي بكر على عمر فمن دونه، وكذلك رُجْحَانه عليهم لثباته في مثل ذلك الأمر العظيم[3].

وقال القرطبي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٥٤) واللفظ له، وأطرافه في (١٢٤١، ١٢٤٢)؛ وابن حبان: ١٤/ ٥٨٨ ـ ٥٨٩ حديث (٦٦٢٠)؛ والبيهقي في الدلائل: ٧/ ٢١٥ ـ ٢١٦؛ وابن سعد: ٢/ ٢٧٠.

(٢) مسند أحمد: ٦/ ٢٢٠؛ طبقات ابن سعد: ٢/ ٢٦٧.

(٣) الفتح: ٨/ ٥٩٧ (٣٦٦٧).

﴿قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾ [آل عمران: ١٤٤]: (هذه الآية أدلُّ دليل على شجاعة الصديق وجراءته ، فإن الشجاعة والجرأة حدُّهما ثبوت القلب عند حلول المصائب ، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ ، فظهرت عنده شجاعته وعلمه ، قال الناس: لم يَمُتْ رسول الله ﷺ ، منهم عمر ، وخرس عثمان ، واستخفى علي ، واضطرب الأمر ، فكشفه الصديق بهذه الآية)(١).

أيُّ رجل في بُرْدَي الصديق؟ وأي إيمان بين جَنْبيه؟ إن القلم ليعجز عن القول ، وإلا فما عساه أن يقول؟ الصدِّيق رفيق الغار ، وبِكر الإسلام ، وأحبُّ الناس إلى رسول الله ﷺ وأعرفُهم بقدره ، وأصدقهم في حبه ، ورسول الله ملءُ قلبه وسمعه وبصره ، ونور روحه ، أترى هؤلاء الذين أُصيبوا بما أُصيبوا في صادقِ حزنهم على رسول الله ﷺ كانوا يَبلغون معشار ما كان ينطوي عليه قلب الصديق من الحزن على فراق الحبيب؟ ولكنه امتحان الإيمان يَجوزُه الصديق ليسمو إلى قيادة الأمة تثبيتاً لِما بنى رسول الله ﷺ(٢).

لقد كان موقف أبي بكر رضي الله عنه في هذه النازلة القاصمةِ للظهور المُحشرجةِ للصدور موقفاً بَلَغ قمة الذروة من الشجاعة النفسية والثبات والصبر ، والعلم بالله تعالى ومجاري أقداره في غيبه ، ومعرفته بحقيقة الرسول ، وعلمه بمكانه في بشريته وروحانيته ، وإدراكه لِما يتطلبه الموقف من التجلّد لعظيماتِ الأحداث ، والسرعة في اتخاذ الموقف الحاسم ، والعمل لحفظ الدين ووقاية المسلمين شرَّ جائحات الفتن ،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٤/٢١٨.

(٢) حياة رجالات الإسلام ، ص ٧٧.

وجامحات النوازل ، ومزالق الأفكار .

وهذه الشجاعة هي التي يحتاج إليها قادة الأمم في حربهم وسلمهم ، لأن شجاعة القلب تحمل على الثبات في مواطن الشدائد وشدائد الأزمات[1] .

وثبَّت الله المؤمنين براسخ إيمان الصديق ، فما كادوا يرون هدوءَ الصديق الأعظم وقوة يقينه وثباته ، وتذكيرهم بقانون الله تعالى في بشرية محمد ﷺ ، ويعلمون أن الله تعالى قد اختار لصفيِّه ما عنده من تجليات القُرب على ما عندهم ؛ حتى ثابوا إلى رشدهم وأفاقوا من ذهولهم[2] . . . وأصبحوا كما وصفهم ابن عباس في حديثه : (يتلون قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ الآية ، والله لكأنّ الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلُّهم ، فما أَسمع بشراً من الناس إلا يتلوها) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (فما كانت من خُطبتِهما[3] من خطبةٍ إلا نَفَع الله بها : لقد خَوَّفَ عمرُ الناسَ وإنَّ فيهم لنفاقاً فردَّهُم الله بذلك . ثم لقد بَصَّرَ أبو بكر الناسَ الهدى ، وعرَّفَهم الحقَّ الذي عليهم ، وخرجوا به يتلون : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٤])[4] .

---

(١) محمد رسول الله ﷺ : ٣/ ٦٠٦ ـ ٦٠٧ ، ٦١٠ ، مقتطفات .
(٢) حياة رجالات الإسلام ، ص ٧٨ ـ ٧٩ ، بتصرف .
(٣) أي : من خطبتي أبي بكر وعمر .
(٤) أخرجه البخاري (٣٦٦٩ ، ٣٦٧٠) .

٢ ـ وفاة النبي ﷺ وغسله ودفنه والصلاة عليه، ومواقف صدِّيقية:

كان ابتداء مرضه ﷺ في بيت أم المؤمنين ميمونة ، فاستأذن أزواجَه أن يمرض في بيت السيدة عائشة ، وقال: «**إني قد اشتكيتُ ، وإني لا أستطيع أن أدور بينكنَّ فائذَنَّ لي فَلأكُنْ عند عائشة**»[١] ، فأَذِنَّ له ، فدخل بيتها يوم الإثنين ، ومات يوم الإثنين الذي يليه في بيتها ورأسه على صدرها رضي الله عنها وأرضاها.

وكانت مدة مرضه (١٣) يوماً ، على رأي الأكثر ، وكانت وفاته يوم الإثنين بلا خلاف ، والجمهور على أنها في الثاني عشر من شهر ربيع الأول بعد الزوال[٢].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (لمَّا أرادوا غَسْلَ النبيِّ ﷺ قالوا: والله ما ندري أنُجَرِّدُ رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرِّد موتانا ، أم نغسِّله وعليه ثيابُه؟! فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النومَ حتى ما منهم رجلٌ إلا وذَقْنُه في صدره ، ثم كلَّمَهم مكلِّمٌ من ناحية البيت لا يدرون مَن هو: أنِ اغسلوا النبيَّ ﷺ وعليه ثيابُه. فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسَّلوه وعليه قميصُه ، يَصبُّون الماء فوق القميص ، ويَدْلُكُونه بالقميص دون أيديهم. وكانت عائشة تقول: لو استقبلتُ من أمري ما اسْتَدْبَرتُ ما غَسَّله إلا نساؤه)[٣].

---

(١) مسند أحمد: ٦/ ٢١٩؛ وانظر: البخاري: (٤٤٣٨) و(٤٤٤٦)؛ وشرحها في الفتح: ٩/ ٧٨٧ ، ٧٨٩.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد: ٢/ ١٩١ ، ٢٧٢ ـ ٢٧٣؛ تاريخ الطبري: ٣/ ١٩٩ ـ ٢٠٠ ، ٢١٧؛ البداية والنهاية: ٥/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥؛ الفتح: ٩/ ٧٧٦.

(٣) أخرجه أبو داود (٣١٤١) واللفظ له؛ وأحمد: ٦/ ٢٦٧؛ وابن هشام في =

واختلف الأصحاب في مكان دفنه ﷺ ، فحَسَم أبو بكر الخلاف بما حفظه من سُنّة النبي ﷺ .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : (لمَّا قُبض رسول الله ﷺ اختَلَفوا في دفْنِه ، فقال أبو بكر : سمعتُ من رسول الله ﷺ شيئاً ما نَسِيتُه ، قال : «**ما قَبَضَ اللهُ نبيّاً إلا في الموضع الذي يُحِبُّ أن يُدْفَنَ فيه**» ، ادْفِنُوه في موضع فراشه)[1] .

فَرُفِع فراشُ النبي ﷺ الذي تُوفِّي عليه ، ثم حُفِر له تحته[2] .

وعن عائشة قالت : (ما عَلِمنا بدفنِ رسول الله ﷺ حتى سَمعنا صوتَ المَسَاحي من جوف الليل ، ليلة الأربعاء)[3] .

وهذا هو الصحيح المشهور الذي عليه الجمهور أن النبي ﷺ توفِّي يوم الإثنين ، فمكث بقيتَه ويومَ الثلاثاء بكماله ، ودُفن ليلة الأربعاء[4] .

وأما الصلاة عليه ﷺ ، فرجع الصحابة في ذلك أيضاً إلى أبي بكر .

= السيرة : ٢/ ٦٦٢ ؛ وابن حبان (٦٦٢٧) و(٦٦٢٨) ؛ والحاكم : ٣/ ٥٩ ـ ٦٠ ، وصححه الذهبي في تاريخ الإسلام ـ السيرة ، ص ٥٧٥ ، وحسنه الألباني .

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٠١٨) ؛ وفي الشمائل (٣٧٢) ؛ والبغوي (٣٨٣٢) ؛ وصححه الألباني في صحيح الترمذي : ١/ ٢٩٨ ؛ وأحكام الجنائز ، ص ١٧٤ (٨٩) . وانظر : موطأ مالك : ١/ ٢٣١ ؛ وطبقات ابن سعد : ٢/ ٢٩٣ .

(٢) ابن ماجه (١٦٢٨) ؛ ابن سعد : ٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣ ؛ ابن هشام : ٢/ ٦٦٣ . وانظر : البداية والنهاية : ٥/ ٢٦٦ ـ ٢٦٩ .

(٣) تاريخ الطبري : ٣/ ٢١٣ ، ٢١٧ ؛ طبقات ابن سعد : ٢/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤ ؛ السيرة ، لابن هشام : ٢/ ٦٦٤ ؛ البداية والنهاية : ٥/ ٢٧٠ .

(٤) البداية والنهاية : ٥/ ٢٧١ .

أخرج النسائي في حديث طويل: عن سالم بن عبيد في قصة وفاته ﷺ ودخول أبي بكر عليه، وفيه: (قالوا: يا صاحبَ رسول الله ﷺ! أماتَ رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: فعلِمُوا أنه كما قال. قالوا: يا صاحبَ النبي ﷺ، هل نصلِّي على النبي ﷺ؟ قال: نعم، قالوا: وكيف نصلي عليه؟ قال: يَدخل قومٌ فيُكبِّرون ويَدْعُون، ثم يخرجون، ويجيءُ آخرون. قالوا: يا صاحبَ النبي ﷺ! هل يُدفَن النبي ﷺ؟ قال: نعم، قالوا: وأين يُدفَنُ؟ قال: في المكان الذي قبض الله فيها روحه، فإنه لم يقبض روحَه إلا في مكان طيِّبة، قال: فعلِمُوا أنه كما قال)[1].

وعن ابن عباس في حديث طويل قال: (فلما فَرَغُوا من جِهازه يومَ الثلاثاء، وُضِع على سريره في بيته. ثم دخل الناس على رسول الله ﷺ أَرْسالاً، يُصلُّون عليه، حتى إذا فرغوا أَدْخَلوا النساءَ، حتى إذا فرغوا أَدخلوا الصِّبيان، ولم يَؤُمَّ الناسَ على رسول الله ﷺ أحدٌ)[2].

قال ابن كثير: (وهذا الصنيعُ وهو صلاتُهم عليه فُرادى لم يؤمَّهم أحدٌ: أمرٌ مجمعٌ عليه لا خلاف فيه)[3].

ولقد حزن أبو بكر على رسول الله ﷺ حزناً لا يَلحقه في شدته حزن، وكان مصابه فيه أوجعَ ما يصيب حبيباً في حبيبه وآثر الخلق عنده، وأفدحَ ما ينال صديقاً في أصدق صديق كان له في الحياة[4].

---

(١) السنن الكبرى (٧٠٨١).

(٢) ابن ماجه (١٦٢٨)؛ السيرة، لابن هشام: ٢/ ٦٦٣؛ تاريخ الطبري: ٣/ ٢١٣، **أرسالاً**: جماعة بعد جماعة.

(٣) البداية والنهاية: ٥/ ٢٦٥.

(٤) محمد رسول الله ﷺ: ٣/ ٦٠٨، ٦١٠.

ووقف وقفة المتصبِّر المستسلم لقضاء الله تعالى ، ورثى حبيبه المصطفى ﷺ ، فقال:

ويـا عَيْـنِ فـابْكـي ولا تَسْـأَمـي   وحُـقَّ البكـاءُ علـى السيِّـدِ
علـى خيـرِ خِنْـدفَ عنـد البـلا   ءِ أَمْسَـى يُغَيَّـبُ فـي المُلْحَـدِ
فصلَّـى المَليـكُ ولـيُّ العبـادِ   وربُّ البـلادِ علـى أحمـدِ
فكيـفَ الحيـاةُ لفقـدِ الحبيـبِ   وزَيْـنِ المَعـاشِرِ فـي المَشْهـدِ؟!
فليـتَ الممـاتَ لنـا كلِّنـا   وكنَّـا جميعـاً مـع المهتـدِي![1]

* * *

وبوفاةِ رسول الله ﷺ طُويتْ صفحاتٌ مشرقة ومواقف جليلة كانت للصديق في ظلاله ﷺ وأنوار توجيهاته وهَدْيه وكَنفِ رعايته وحبِّه لصاحبه الكبير . .

فَلْنفتحْ صفحات أخرى نتلو فيها أمجاداً خالدة سطَّرها أبو بكر في كتاب سيرته المليء بجلائل الأعمال . . .

* * *

(١) طبقات ابن سعد: ٢/٣١٩ ، وانظر: ٢/٣٢٠. خِنْدف: خَنْدَف الرجلُ: أسرعَ ، يريد أنه ﷺ يُسرع للنجدة والإغاثة عند وقوع المصاب والبلاء. انظر: لسان العرب: ٩/٩٨.

الباب الرابع

عبادة الصديق وأخلاقه
وعلمه ومناقبه ومكانته

- عبادته وأخلاقه .
- علمه وقطوف من خطبه ، وشذرات من كلامه ، ونماذج من تعبيره للرؤيا .
- خصائصه وأولياته وفضائله ومكانته

* * *



الفصل الأول

عبادته وأخلاقه

أكرم الله أبا بكر بجملة كبيرة من الأخلاق الكريمة والسجايا الجليلة والفعال الحميدة ، التي عُرف بها بين الناس قبل الإسلام ، ولمَّا أشرقت شمس الرسالة في مكة المكرمة وكان النبي ﷺ قبل ذلك خليل أبي بكر وصديقه ، فبادر إلى الإيمان به وتصديقه ، وصَحِبه ثلاثاً وعشرين سنة طيلة عمر الدعوة المباركة؛ فنَفَث ﷺ في روح صديقه الأكبر مكارمَ أخلاق النبوة ، ونَهَل أبو بكر من رسول الله ﷺ ما اتسعتْ له فطرته وتهيَّأت له نفسُه وتطلّعت إليه روحه وطمحت إليه ملكاته؛ فتجلَّت فيه أرفَعُ النماذج البشرية للتربية النبوية ، حتى كان يُشْبه النبيَّ ﷺ في كثير من أخلاقه وعبادته وشمائله وخلاله ، وعُرف بذلك واشتَهر به في الملأ ، وكان مطمحُ الرفعاء من الصحابة أن يقتربوا من مساواته في ذلك ، حتى صرح الفاروق عمر ـ وهو هو ـ أنه ما سابقه إلى خير إلا سبقه أبو بكر .

أولاً: عنوان أخلاقه ومفتاح عبادته:

ولعل أبرز (عنوان) أخلاق الصديق و(مفتاح) عبادته وخصاله وشمائله ونبضات قلبه وأشواق روحه وآمال نفسه ـ ما جاء في الأحاديث الثلاثة التالية :

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه : (أنَّ رسول الله ﷺ قال : «مَنْ أَنْفَقَ

زَوْجَيْنِ في سبيل الله نُودي من أبواب الجنة: يا عبدَ الله هذا خيرٌ ، فمن كان من أهل الصلاة دُعِيَ من باب الصلاة ، ومَن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد ، ومَن كان من أهل الصيام دُعي من باب الرَّيَّان ، ومَن كان من أهل الصَّدَقة دُعي من باب الصدقة» فقال أبو بكر رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما على مَن دُعي من تلك الأبواب مِن ضَرورةٍ ، فهل يُدْعَى أحدٌ من تلك الأبواب كلِّها؟ قال: «**نعم ، وأرجو أن تكون منهم**»[1].

والمراد بـ «**الزَّوْجَين**»: إنفاقُ شيئين من أي صنف من أصناف المال من نوع واحد ، مثل: فرسين أو بعيرين أو عبدين.

«**في سبيل الله**»: أي في طلب ثواب الله ، وهو على العموم في جميع وجوه الخير ، وهو أعمُّ من الجهاد وغيره من العبادات.

والمعنى: كل عاملٍ يُدعى من باب العمل الذي كان الغالب عليه في عمله وطاعته[2] ، وقد جاء ذلك صريحاً من وجه آخر عن أبي هريرة: «**لكلِّ أهل عملٍ بابٌ من أبواب الجنة يُدْعَون منه بذلك العمل**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٧) واللفظ له ، وفيه أطرافه؛ ومسلم (١٠٢٧)؛ والترمذي (٣٦٧٤)؛ والنسائي في الكبرى (٢٢٣١)؛ وفي الصغرى: ١٦٩/٤ ، ٥/٩ ـ ١٠ ، ٦/٢٢ ـ ٢٣ ، ٤٧ ـ ٤٨؛ وأحمد: ٢/٢٦٨؛ وابن حبان (٣٠٨ ، ٣٤١٨ ، ٣٤١٩ ، ٤٦٤١ ، ٦٨٦٦) ، وغيرهم.

(٢) الفتح: ٥/٥٨٣ شرح الحديث (١٨٩٧) ، ٨/٥٩٥ ـ ٥٩٦ (٣٦٦٦)؛ شرح مسلم ، للنووي: ٤/١٢٦ ـ ١٢٧.

(٣) أخرجه أحمد: ٢/٤٤٩؛ وابن أبي شيبة: ٧/٤٧٧؛ وصححه الحافظ في الفتح: ٨/٥٩٥ (٣٦٦٦).

وأبواب الجنة ثمانية كما جاء صريحاً في بعض الروايات ، وقد وقع في الحديث ذكر أربعة منها ، وبقي من الأركان الحجُّ فله باب بلا شك ، وأما الثلاثة الأخرى ، فمنها باب الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، ومنها الباب الأيمن وهو باب المتوكلين الذي يدخل منه من لا حسابَ عليه ولا عذاب ، وأما الثالث فلعلَّه باب الذِّكر ، ويحتمل أن يكون باب العلم[1] .

قوله: (ما على مَن دُعي من تلك الأبواب من ضَرورةٍ ، فهل يُدعى أحدٌ من تلك الأبواب كلِّها؟ قال: «**نعم ، وأرجو أن تكون منهم**») :

قال ابن حبَّان: «**عسى**» من الله واجبٌ ، و«**أرجو**» من النبي ﷺ حقٌّ[2] .

ووقع في حديث ابن عباس عند ابن حبان في نحو هذا الحديث التصريحُ بالوقوع لأبي بكر ، ولفظه قال: «**أَجَلْ ، وأنتَ هو يا أبا بكر**»[3] .

لأنه رضي الله عنه كان جامعاً لهذه الخيرات كلِّها ، وأما التعبير بعنوان «الرجاء» في الحديث ، فقيل: إنه خَرج مخرجَ الأدب مع الله تعالى؛ إذ لا يجبُ عليه سبحانه شيء ، وهو سبحانه أكرم من أن يُخلف رجاءَ رسول الله ﷺ[4] .

---

(١) الفتح: ٨/ ٥٩٥ ـ ٥٩٦؛ شرح صحيح مسلم ، للنووي: ٤/ ١٢٧ .
(٢) صحيح ابن حبان: ٨/ ٢٠٨ حديث (٣٤١٩) .
(٣) ابن حبان (٦٨٦٧)؛ الفتح: ٨/ ٥٩٦ .
(٤) فتح الملهم: ٥/ ٩٨ .

قال الحافظ: (في الحديث إشعارٌ بقلَّةِ مَن يُدعى مِن تلك الأبواب كلها، وفيه إشارة إلى أن المراد ما يُتَطوَّع به من الأعمال المذكورة لا واجباتها، لكثرة من يجتمع له العمل بالواجبات كلها، بخلاف التطوعات فقَلَّ من يجتمع له العمل بجميع أنواع التطوعات، ثم من يجتمع له ذلك إنما يُدعى من جميع الأبواب على سبيل التكريم له، وإلا فدخوله إنما يكون من باب واحد، ولعله الباب الذي يكون الأغلب عليه، والله أعلم)[1].

٢ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: «مَن أصبحَ منكمُ اليومَ صائماً؟» قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا. قال: «فَمَن تَبع منكمُ اليومَ جنازةً؟» قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا. قال: «فَمن أطعم منكُم اليومَ مِسْكيناً؟» قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا. قال: «فمن عادَ منكمُ اليومَ مريضاً؟» قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا! فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعنَ في امرئ إلا دخلَ الجنَّةَ»)[2].

لقد كان الصديق مطبوعاً على عمل الصالحات والسَّبْق إلى الخيرات، فهو على تعبُّد وتقوى وأعمال برٍّ في الليل والنهار، فها هو ذا يُبادر بزوغَ الفجر بأنواع من الأعمال الجليلة، فيُعلي همَّة نفسه متطلِّعاً إلى باب الريّان فيصبح صائماً، ويتفقد إخوانه وجيرانه فيسمع بجنازة فيلبي نداء الواجب فيتبعُها مشيِّعاً وينال قيراطين من الأجر، وينظر إلى

(١) الفتح: ٨/٥٩٦.
(٢) أخرجه مسلم (١٠٢٨) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٨٠٥٣)؛ والبخاري في الأدب المفرد (٥١٥)؛ وجاء مفسراً مطولاً عند ابن أبي عاصم في السنة (١٢٤٣)؛ والطبراني: مجمع الزوائد: ٣/١٦٤.

ذوي المَسْغَبة فيجد محتاجاً فيسدّ عَوَزه ، ويسمع بأخ له في الله مريض فيسعى لعيادته. . . تُرى أكان هذا السيد يهدأ عن الحركة والعمل الصالح ، وهو يفعل كل هذه الأعمال الصالحة قبل أن يتنفس الصبح؟!.

٣ ـ وكان أبو بكر وعمر كَفَرَسَيْ رِهَانٍ في مضمار السبق بالخيرات وعمل الصالحات ، ولقد أوضح الفاروق بصراحته المعهودة تقدُّم الصديق عليه في ذلك.

يحدِّث عمر رضي الله عنه فيقول: (كان رسول الله ﷺ لا يزالُ يَسْمُر عند أبي بكر الليلةَ كذاك في الأمر من أمر المسلمين ، وإنَّه سَمَرَ عنده ذات ليلةٍ وأنا معه ، فخرجَ رسول الله ﷺ وخَرجْنا معه ، فإذا رجلٌ قائم يصلِّي في المسجد ، فقامَ رسول الله ﷺ يستمعُ قراءته ، فلما كِدْنا أن نَعْرِفَه ، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أن يقرأ القرآنَ رَطْباً كما أُنزل فَلْيَقرأْهُ على قراءةِ ابنِ أمِّ عبدٍ**». قال: ثم جَلَس الرجلُ يدعو ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «**سَلْ تُعْطَهْ ، سَلْ تُعْطَه**»! قال عمر: قلتُ: واللهِ لأَغدونَّ إليه فلأُبَشِّرنَّه ، فغدوتُ إليه لأُبَشِّره ، فوجدتُ أبا بكر قد سَبَقني إليه فبشَّرَه ، ولا واللهِ ما سَبَقْتُه إلى خيرٍ قطُّ إلا وسَبَقَني إليه!)[1].

وفي موقف آخَر أراد عمرُ أن يسبق أبا بكر في الصدقة ، فسَبَقَه أبو بكر ، فقال عمر: (لا أُسابِقُكَ إلى شيءٍ أبداً)[2].

---

(١) أخرجه أحمد: ١/ ٢٥ ـ ٢٦ ، واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٨٢٠٠)؛ وأبو نعيم في الحلية: ١/ ١٢٤؛ واختصره الترمذي (١٦٩)؛ وابن حبان (٢٠٣٤)؛ وصححه أحمد شاكر وشعيب الأرنؤوط.

(٢) انظر تفصيل الخبر: ص ١٢٦ حاشية (٢) في هذا الكتاب.

ثانياً: صلاته:

حسبُ الصديق جلالةً وسموّاً أنه صلَّى خلف النبي ﷺ طيلة عمر الدعوة ، ما تخلَّف عنه في حَضَر ولا سفر ، بل إنه أمَّ المسلمين في حياة رسول الله ﷺ وعن أمره. وكان مضربَ المَثَل في إقباله على صلاته وخشوعه فيها ورقَّته في قراءته ، حتى إنه فَتن بتلاوته قلوبَ المشركين ، فكان نساؤهم وأبناؤهم يزدحمون عند داره يُنصتون لقراءته ويعجبون منه ، مما أَفزع زعماءَ قريش وتخوَّفوا من إسلام نسائهم وأبنائهم[١].

وفي حديث إمامته الناسَ عندما ذهب النبي ﷺ للإصلاح بين بني عَمْرو بن عوف ، ثم جاء ﷺ والمسلمون يصلُّون خَلْف أبي بكر ، قال سَهْل بن سعد في حديثه: (فأَخذ الناس في التصفيح ، وكان أبو بكر رضي الله عنه لا يَلتفت في صلاته ، فلما أكثَر الناسُ التفتَ ، فإذا رسول الله ﷺ)[٢].

وقال عبد الرزاق الصَّنْعَاني: (أهلُ مكة يقولون: أَخذ ابنُ جُرَيْج الصلاةَ من عطاء ، وأخذَها عطاءٌ من ابن الزبير ، وأخذَها ابن الزبير من أبي بكر ، وأخذها أبو بكر من النبي ﷺ)[٣].

وعن مجاهد ، عن عبد الله بن الزبير: أنه كان يقوم في الصلاة كأنه عُود ، وكان أبو بكر رضي الله عنه يفعل ذلك. قال مجاهد: هو الخشوع في الصلاة[٤].

---

(١) انظر: الحديث ص ١٣٠ وما بعدها في هذا الكتاب.

(٢) انظر الحديث بتمامه: ص ١٧٠ حاشية (٢) في هذا الكتاب.

(٣) أخرجه أحمد: ١/ ١٢ (٧٣) ، وصححه أحمد شاكر.

(٤) حياة الصحابة: ٣/ ١٣٦.

وسأل عمر رضي الله عنه أسماءَ بنت عُمَيْس ـ زوجَ أبي بكر ـ: كيف كان أبو بكر يعبد ربَّه حين يخلو بنفسه؟ فأجابتْه قائلة: كان إذا جاء وقتُ السَّحَر قام فتوضأ وصلى، ثم يظلُّ يصلي، يتلو القرآن ويبكي، ويسجد ويبكي، ويدعو ويبكي، وكنتُ آنئذٍ أشمُّ في البيت رائحة كبدٍ تُشْوى! فبكى عمر رضي الله عنه وقال: أنَّى لابن الخطاب مثلُ هذا؟![1].

هكذا عبادة أولياء الله المتقين المُخْبتين، إن إجلاله ربَّه سبحانه وتوقيره كانا يملآن نفسه روعة، ويملآنها إجلالاً، ويملآنها إخباتاً.

وعن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه: (أنَّ النبي ﷺ خرج ليلةً، فإذا هو بأبي بكر رضي الله عنه يصلِّي يَخْفِضُ من صوته، قال: ومرَّ بعمر بن الخطاب وهو يصلي رافعاً صوته، قال: فلما اجتمعا عند النبي ﷺ، قال: «**يا أبا بكرٍ، مررتُ بك وأنتَ تصلِّي تخفضُ صوتَكَ؟**» قال: قد أَسمعتُ من ناجيتُ يا رسول اللهِ! قال: وقال لعمر: «**مررتُ بك وأنت تصلي رافعاً صوتك؟**» فقال: يا رسول الله! أوقِظُ الوَسْنانَ وأطردُ الشيطان. فقال النبي ﷺ: «**يا أبا بكر ارفَعْ من صوتك شيئاً**»، وقال لعمر: «**اخْفِضْ من صوتك شيئاً**»)[2].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «**أيَّ حينٍ تُوتِرُ؟**» قال: أوّلَ الليل بعد العَتَمَة، قال: «**فأنتَ يا عمرُ؟**» فقال: آخِرَ الليل، فقال النبي ﷺ: «**أمَّا أنت يا أبا بكر فأخذتَ**

---

(١) خلفاء الرسول، ص ١٣٥.

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٢٩) واللفظ له؛ والترمذي (٤٤٧)؛ وصححه الألباني. وأخرج أحمد: ١/١٠٩ (٨٦٥) عن علي نحوه، وصححه أحمد شاكر.

بالوُثْقى ، وأمَّا أنتَ يا عمرُ فأخذتَ بالقوَّة»[1].

وفي رواية عن أبي قتادة: (فقال لأبي بكر: «**أخذَ هذا بالحَزْمِ**» ، وقال لعمر: «**أخذ هذا بالقوة**»)[2].

ثالثاً: حجه واعتماره:

حجَّ أبو بكر رضي الله عنه سنة (٩هـ) عن أمرِ النبي ﷺ أميراً على الناس ، وكان معه ثلاثمئة من الصحابة ، وأقامَ للناس مناسكَهم ، ونبذ إلى المشركين عهودهم ، وأعلنَ البراءة إليهم ، وأعْلَمَهم بأن لا يَحجَّ بعد العام مشركٌ ولا يطوف بالبيت عُريان.

وفي سنة (١٠هـ) حج مع النبي ﷺ حجة الوداع.

وفي خلافته: استعمل على الموسم سنة (١١هـ) عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأقام للناس حجَّهم وعلَّمهم مناسكهم[3].

ثم اعتمر رضي الله عنه في رجب سنة (١٢هـ) ، فدخل مكة ضَحْوة ، فأتى منزلَه ، وأبو قحافة جالس على باب داره معه فتيان أحداثٌ يحدِّثهم ، إلى أن قيل له: هذا ابنُك ، فنهض قائماً ، وعَجِلَ أبو بكر أن يُنيخ راحلته فنزل عنها وهي قائمة ، فجعل يقول: يا أبتِ لا تَقُمْ ، ثم لاقاه فالتزَمَه

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٢٠٢) واللفظ له؛ وأحمد: ٣/٣٠٩ ، ٣٣٠ ، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٣٤)؛ وابن خزيمة (١٠٨٤)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٤٩٩)؛ والحاكم: ١/٣٠١ ، وصححه وأقرَّه الذهبي ، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/١٧٧ ، ١٨٧ ، ٥٨٨؛ تاريخ خليفة ، ص ١١٧؛ ابن عساكر ، ص ٣١٠ ، ٣١١.

وقبَّلَ بين عيني أبي قحافة ، وجعل الشيخ يبكي فرحاً بقدومه.

وجاء إلى مكة: عتَّابُ بن أَسِيد وسُهيل بن عَمْرو وعِكْرِمة بن أبي جهل والحارث بن هشام ، فسلَّموا عليه: سلامٌ عليك يا خليفة رسول الله ﷺ ، وصافحوه جميعاً ، فجعل أبو بكر يبكي حين يذكرون رسول الله ﷺ.

ثم سلَّموا على أبي قحافة ، فقال أبو قُحافة: يا عَتيقُ ، هؤلاء الملأ فأحسنْ صُحْبَتَهم ، فقال أبو بكر: يا أبتِ! لا حول ولا قوة إلا بالله ، طُوِّقْتُ عظيماً من الأمر لا قوة لي به ولا يَدانِ إلا بالله.

ثم دخل ، فاغتسل وخرج ، وتبعَه أصحابه ، فنحَّاهم ثم قال: امشوا على رِسْلِكم. ولقيه الناس يَتَبَهْشون في وجهه ، ويعزُّونه بنبي الله ﷺ ، وهو يبكي! حتى انتهى إلى البيت ، فاضطبع بردائه ثم استلم الركن ، ثم طاف سبعاً ، وركع ركعتين ، ثم انصرف إلى منزله. فلما كان الظهر خرج ، فطاف أيضاً بالبيت ، ثم جلس قريباً من دار النَّدوة فقال: هل من أحدٍ يشتكي من ظُلامة أو يطلب حقّاً؟ فما أتاه أحد ، وأثنى الناس على واليهم خيراً. ثم صلى العصرَ ، وجلس ، فودَّعه الناس ، ثم خرج راجعاً إلى المدينة.

وكان قد استخلف على المدينة عمر بن الخطاب.

فلما كان وقت الحج سنة (١٢هـ) حجَّ أبو بكر بالناس تلك السنة ، وأَفرد الحجَّ ، واستخلَف على المدينة عثمان بن عفان[1].

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/١٨٧؛ ابن عساكر ، ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦؛ تاريخ خليفة ، ص ١١٩؛ صفة الصفوة: ١/٢٥٨ـ٢٥٩.

رابعاً: صرامته في الحق وشدته فيه:

مع الرقة والرحمة التي جُبل عليها طبعُ أبي بكر وفُطرت عليه نفسه الأوَّاهة ، بَيْدَ أن ذلك كان في الميادين التي تستلزم الرأفة والألفة ، وتستوجب الحنوَّ واللِّين ، وتستدعي الوداعة والعطف والملاينة ، لكنها تنقلب صلابة وصرامة وحدَّة وشدة وقوة عارمة؛ إذا كانت الأمور والموا قف فيها أدنى تفريط بحقوق الإسلام ودعوته وواجبات اتباع النبي ﷺ ونصرته ، أو فيها ما يَلوح منه أمارات الاستضعاف أو الاستخفاف بجانب الدين والكرامة والعزة الإيمانية.

ومواقف الصديق في هذه الميادين كثيرة جليلة في مسيرته الطويلة مع الدعوة الإسلامية في مكة والمدينة وإبَّان خلافته المباركة.

- ترى ذلك عندما ألحَّ على الرسول ﷺ أيام الاستسرار بالدعوة ، ليجهروا بدينهم ، فكان ذلك ، ونال المسلمين من الأذى ما يكافئ عزَّتهم بإسلامهم وصبرهم على اللأواء والعذاب ، وكان حظ أبي بكر منه وِزان منزلته من الدعوة ومكانته في قريش.

- وفي حديثه مع (ابن الدَّغِنَة) وقد أجاره في قريش على أن لا يَجهر بصلاته وقراءته القرآن ، حتى لا يَفتن نساءَ المشركين وأبناءهم ، فلم يصبر أبو بكر على هذا ، (فأتى ابنُ الدَّغِنَة إلى أبي بكر فقال: قد علمتَ الذي عاقدتُ لك عليه ، فإمَّا أن تقتصرَ على ذلك وإمَّا أن تَرْجِعَ إليَّ ذمَّتي ، فإني لا أُحِبَّ أن تسمعَ العرب أني أُخْفِرتُ في رجل عقَدتُ له ، فقال أبو بكر: فإني أرُدُّ إليك جوارك ، وأرضى بجوار الله عز وجل)[1].

---

(١) انظر: الحديث ص ١٣٠ وما بعدها في هذا الكتاب.

ـ وفي أيام الهجرة مع النبي ﷺ كانت مواقف أبي بكر في أوج الصرامة والاستمساك بالحق والتضحية بالنفس والأهل والمال، ومضى في صحبة النبي ﷺ لا يَـلوي على شيء، ولا يأبه بمسالك الموت التي تطارده أو تترصَّد له.

ـ وفي غزوة بدر كان ابنه في جانب المشركين، فعزم على مقاتلته، وعمرهُ قد نيَّف على الخمسين، فأمره النبي ﷺ أن يُغمِد سيفَه عن ابنه، فكان في ذلك الخير الكبير حيث أسلم ابنه رضي الله عنه. ولمّا قال لأبيه: لقد رأيتُك يوم بدر فأَعرضت عنك، فقال له أبو بكر بصرامة وصلابة: ولكني لو رأيتُك ما أعرضتُ عنك!.

ـ وفي صلح الحُديبيَة عندما استخفَّ عروة بنُ مسعود بالمسلمين فقال للنبي ﷺ: (إنّي لأرى أَشْواباً من الناس خَليقاً أن يَفِرُّوا عنك ويدَعُوك)! زأرَ الصديق في عَرينه وجابهه بكلمة قاسية قائلاً: (امصُصْ بَظْرَ اللاَّت، أَنحنُ نَفِرُّ عنه ونَدَعه؟!).

ـ وتروي كتب السيرة والتفسير أن أبا بكر الصديق دخل بيت المِدراس على يهود، فوجد منهم ناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يُقال له: فِنْحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حَبْر من أحبارهم يُقال له: أشْيع. فقال أبو بكر لِفِنْحاص: ويحك يا فنحاص، اتقِ الله وأسلِمْ، فوالله إنك لتعلم إنَّ محمداً لرسولُ الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل! فقال فِنحاص لأبي بكر: والله يا أبا بكر، ما بِنا إلى الله من فَقْر، وإنه إلينا لفَقيرٌ، وما نتضرَّع إليه كما يتضرَّع إلينا، وإنّا عنه لأغنياء وما هو عنّا بغَنيٍّ، ولو كان عنا غنيّاً ما استقرضَنا أموالَنا، كما يزعم صاحبكم،

ينهانا عن الربا ويُعْطيناه ، ولو كان عنا غنيّاً ما أعطانا الربا! فغضب أبو بكر ، فضَرب وَجْه فِنحاص ضرباً شديداً ، وقال: والذي نفسي بيده ، لولا العهدُ الذي بيننا وبينكم لضربْتُ رأسَك أي عدوَّ الله! .

فذَهَب فِنْحاص إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا محمد! انظر ما صَنَع بي صاحبُك! فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «**ما حَمَلَكَ على ما صنعتَ؟**» فقال أبو بكر: يا رسول الله! إن عدوَّ الله قال قولاً عظيماً ، إنه زعم أن الله فقير وأنهم أغنياء ، فلما قال ذلك غضبتُ لله مما قال وضربتُ وجْهَه. فجَحَد ذلك فنحاص ، وقال: ما قلتُ ذلك! فأنزل الله تعالى فيما قال فِنْحاص ردّاً عليه وتصديقاً لأبي بكر: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

ونزل في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وما بَلَغه في ذلك من الغضب: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦][(١)].

إن مواقفَ الصديق ليست طوعَ طبعه بل رهن إيمانه ، فهو رحيم ودود ، أليف مَألَف ، رقيق وادع في مواضع ذلك ، فإذا كان ثمَّة استهزاء أو مساس بالإيمان أو استخفاف بالإسلام والمسلمين؛ فعندئذ تعسُر مغالبة الطبع وتبرز الشدة والحدة والصرامة من مكمنها ، وهي آنئذٍ على

---

(١) السيرة ، لابن هشام: ٥٥٨/١ ـ ٥٥٩؛ تفسير ابن كثير: ٥٣٠/١. بيت المدراس: هو البيت الذي يتدارس فيه اليهود كتابهم.

حق وصدق ووئام مع الإيمان ، إذا برزت وحَطّمت كل ما يستهين بها أو يحاول استضعافها[1].

ـ وعلى هذه السبيل من الصرامة والصلابة مشى أبو بكر يوم وفاة النبي ﷺ ، وفي قصة ميراث السيدة فاطمة الزهراء ، وفي إنفاذ جيش أسامة ، ومحاربة أهل الردة.

خامساً: خشيته ورقته وبكاؤه:

إن أصدقَ ما يعبِّر عن هذه السَّجيَّة النبيلة والمسلك الرفيع والطبع الأصيل في أبي بكر؛ قولُ النبي ﷺ: «**أرحمُ أمتي بأمتي أبو بكر**» ، وقوله ﷺ في قصة أسرى بدر: «**وإنَّ مَثَلَك يا أبا بكر كمثَل إبراهيم عليه السلام ، قال:** ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ، **ومَثلُك يا أبا بكر كَمَثَل عيسى ، قال:** ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]».

والرحمة والشدة ، والرقة والصلابة ، والرأفة والحدة ، في الصديق خصلتان متكافئتان وخُلقان متكاملان ، لا تضادّ بينهما ولا تعارُض ، ولا تشاكس ولا تعاند ، بل هما متناغمان في حياته رضي الله عنه ، يستيقظ كل منهما في الوقت الذي يناسبه ، ويعمل في الموقف الذي يتطلبه.

●● عن أبي بكر رضي الله عنه: أنه قال: (يا رسولَ الله! كيف الصَّلاحُ بعد هذه الآية: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] فكلُّ سوءٍ عَمِلْنا جُزِينا به؟ فقال رسول الله ﷺ:

---

(١) انظر: عبقرية الصديق ، ص ٣٨ ـ ٣٩.

«غَفَر الله لك يا أبا بكر ، ألستَ تمرضُ؟ ألستَ تَنصَبُ؟ ألست تحزَنُ؟ ألستَ تُصِيبك اللأْوَاءُ؟» قال: بلى ، قال: «فهو ما تُجزون به»[1].

وعن الضَّحّاك بن مُزاحِم قال: قال أبو بكر يوماً ورأى طيراً واقعاً على شجرة ، فقال: (طُوبى لك يا طير ، والله لَودِدتُ أني كنتُ مثلَك: تقع على الشجر ، وتأكل الثمر ، ثم تطير ، وليس عليك حساب ولا عذاب! والله لَوَددتُ أنِّي كنتُ شجرة إلى جانب الطريق ، مرَّ عليَّ جمل ، فأَخَذني ، فأدخَلني فاه ، فَلاكَني ثم ازدردني ، ثم أخرجني بَعْراً ، ولم أكن بشراً!)[2].

وقال رضي الله عنه: لَودِدتُ أني كنتُ شعرة في جنب عبد مؤمن[3]!.

●● وقد وصفت الصديقة عائشة أم المؤمنين أباها في حديث الهجرة الطويل ، فقالت: (وكان أبو بكر رجلاً بكّاءً لا يَملك عينَيه إذا قرأ القرآن).

وقولها: (بكاء): أي كثير البكاء.

---

(١) أخرجه أحمد: ١/ ١١؛ وابن حبان (٢٩١٠) و(٢٩٢٦)؛ والحاكم: ٣/ ٧٤ ، وغيرهم. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لانقطاعه ، لكن الحديث صحيح بطرقه وشواهده. وأطال في تخريجه وذِكْر طرقِه. **اللأواء**: الشدة وضيق المعيشة.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة: ٨/ ١٤٤؛ والبيهقي في شعب الإيمان: ١/ ٤٨٥؛ وابن عساكر ، ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤. **ازدردني**: ابتلعني.

(٣) الزهد ، لأحمد ، ص ١١٢؛ صفة الصفوة: ١/ ٢٥١.

و(**لا يملك عينيه**): أي لا يطيق إمساكهما عن البكاء من رقة قلبه[١].

وعندما قال النبي ﷺ: «**مُروا أبا بكر فَليصلِّ بالناس**»، قالت عائشة: (إنَّ أبا بكر رجلٌ أَسِيفٌ، وإنه متى يَقُمْ مَقامَكَ لا يُسْمِع الناسَ). وفي رواية عنها قالت: (إن أبا بكر إذا قام في مَقامِك لم يُسْمِع الناس من البكاء). وفي أخرى: (إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا **يملك** دَمْعَه)[٢].

وعن أبي سَرِيحة قال: سمعتُ عليّاً يقول على المِنبر: ألاَ إنَّ أبا بكر أوَّاهٌ منيبُ القلب[٣].

وقال إبراهيم النَّخَعي: كان أبو بكر يُسمَّى الأوَّاه لرأفتِه ورحمته[٤].

●● ومن أمثلة رقة قلبه وبكائه رضي الله عنه؛ ما رواه عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما قال: (لمَّا نزلت ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾، بكى أبو بكر الصديق رحمه الله، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما يُبكيك يا أبا بكر؟**» قال: أبكَتْني يا رسول الله هذه السورة، فقال ﷺ: «**لولا أنكم تُخطئون وتُذْنبون فيغفر الله لكم، لخَلَقَ الله أمةً يُخطِئون ويذنبون فيغفر لهم**»)[٥].

وتتحدث السيدة عائشة عن حُزْن أبيها وبكائه على سيِّد الأَوْس

---

(١) الفتح: ٩/ ١٢٢ شرح الحديث (٣٩٠٥).
(٢) انظر ما تقدم: ص ٢٣٧ ـ ٢٤٠ في هذا الكتاب.
(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٧١.
(٤) المرجع السابق نفسه.
(٥) الرقة، لابن أبي الدنيا (٧٥)؛ وتفسير الطبري: ٣٠/ ٢٧٠؛ والطبراني (١١٥١٢)؛ وتفسير ابن كثير: ٤/ ٦٤٧؛ ومجمع الزوائد: ٧/ ١٤١.

الصحابي الجليل سعد بن معاذ ، فتقول: (فحَضَره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، فو الّذي نفسُ محمدٍ بيده إنّي لأعرفُ بكاءَ عمر من بكاء أبي بكر وأنا في حُجْرتي! وكانوا كما قال الله عز وجل: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩])[(١)].

وكان إذا ذَكَر النبيّ ﷺ ، أو سمع أحداً يذكُره؛ بكى حتى تخنقَه العَبْرة ، لرقّته وفَرْطِ حبّه له ﷺ وحزنه على فراقه.

عن أَوْسَط بن عامر البَجَليِّ قال: (قَدِمتُ المدينةَ بعد وفاة رسول الله ﷺ ، فلقِيتُ أبا بكر يخطُب الناسَ ، وقال: قامَ فينا رسول الله ﷺ عامَ أوّل ، فخَنَقَتْه العَبْرةُ ثلاثَ مرّات. ثم قال: «**يا أيها الناسُ سَلُوا الله المعافاةَ ، فإنه لم يُعْطَ أحدٌ مثلَ اليقين بعد المعافاة ، ولا أَشدَّ من الرِّيبةِ بعدَ الكُفر. وعليكم بالصدق فإنه يَهدي إلى البِرّ وهما في الجنة ، وإيَّاكم والكذبَ فإنَّه يَهدي إلى الفُجور وهما في النار**»)[(٢)].

ومن بارع الأخبار وروائع الشواهد على رقّته ورحمته مواقفُه في بدء الدعوة من العَبيد والضعفاء الذين أسلموا وعُذِّبوا في الله ، فبَذَل لهم مالَه وحرَّرَهم، وهو سعيد تملؤه الغِبْطة، متمشياً مع قلبه الرقيق ونفسه الحانية.

---

(١) أخرجه في حديث طويل: أحمد: ٦/١٤١ ـ ١٤٢؛ وابن سعد: ٣/٤٢١ ـ ٤٢٣؛ وابن حبان (٧٠٢٨) ، وغيرهم؛ وجوَّد ابن كثير إسناده في البداية والنهاية: ٤/١٢٤؛ وصحَّحه الحافظ في الإصابة: ١/٢٧٣ ، ترجمة الحارث بن أوس.

(٢) أخرجه أحمد: ١/٣ ، ٧ ، ٨؛ والنسائي في الكبرى (١٠٦٤٩)؛ ، وابن ماجه (٣٨٤٩)؛ والترمذي (٣٥٥٨)؛ وابن حبان (٩٥٢) ، وغيرهم ، وصححه أحمد شاكر والألباني.

سادساً: دعاؤه وتضرعه:

●● ورافَقَ رقَّةَ الصديق وخشيتَه دعاءٌ متضرِّعٌ وضراعةٌ متبتِّلة في محاريب العبادة آناءَ الليل وأطرافَ النهار، فالقلب خاشع والفؤاد ضارع والروح متشوِّقة إلى رحمات الله تعالى، واليدان مبسوطتان مرفوعتان بالدعاء، واللسان لَهِجٌ بالثناء والابتهال والاستغفار، والإيمان الفذ يَغْمُر النفسَ ويتجلَّى على الجوارح وتصدِّقه الأقوال والأفعال.

(وكان رضي الله عنه يحرص على أن يكون دعاؤه وتسبيحُه على الصيغة التي يأمر بها النبي ﷺ ويرتضيها، إذ ليس للمسلم أن يفضِّل على الصيغة المأثورة في الدعاء والتسبيح والصلاة على النبي ﷺ صيغاً أخرى، مهما كانت في ظاهرها حسنةَ اللفظ، جيدة المعنى، لأن رسول الله ﷺ هو معلِّم الخير، والهادي إلى الصراط المستقيم، وهو أعرف بالأفضل والأكمل)[1].

عن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما: (عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أنه قال لرسول الله ﷺ: علِّمْني دعاءً أدعو به في صلاتي، قال: «**قُل: اللهمَّ إنِّي ظلمتُ نَفْسي ظُلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوبَ إلا أنتَ، فاغفِر لي مغفرةً من عندك وارْحَمْني، إنك أنت الغفور الرحيم**»)[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال أبو بكر: يا رسول الله!

---

(١) أبو بكر الصديق، للطنطاوي، ص ٢٠٨.

(٢) أخرجه البخاري (٨٣٤) وطرفاه؛ ومسلم (٢٧٠٥)؛ والترمذي (٣٥٣١)؛ والنسائي في الكبرى (١٢٢٦)، وفي الصغرى: ٣/ ٥٣؛ وابن ماجه (٣٨٣٥)، وغيرهم.

أخبِرْني ما أقولُ إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ ، قال : «**قُل : اللهمَّ عالمَ الغيبِ والشهادةِ ، فاطرَ السمواتِ والأرضِ ، ربَّ كلِّ شيءٍ ، ومَلِيكَه ، أشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلا أنتَ ، أعوذُ بكَ من شرِّ نَفْسي ، ومن شَرِّ الشيطانِ وشِرْكِه**» .

قال النبي ﷺ : «**قُلْهُ إذا أصبحتَ ، وإذا أمسيتَ ، وإذا أخذتَ مَضْجَعَكَ**»)[1] .

●● **ومن أمثلة أدعيته ومناجاته وتضرعاته إلى الله تعالى :**

روى ابن أبي الدنيا عن أبي بكر : أنه كان يقول في دعائه : (أَسألُكَ تمامَ النعمة في الأشياء كلِّها ، والشكرَ لك عليها حتى ترضَى وبعد الرضا ، والخِيرَةَ في جميع ما يكون فيه الخِيرة ، بجميع ميسور الأمور كلِّها لا بمعسورِها يا كريم)[2] .

وعن الحسن البصري قال : بَلَغني أن أبا بكر رضي الله عنه كان يقول في دعائه : (اللهمَّ إني أسألُكَ الذي هو خير في عاقبة أمري ، اللهمَّ اجعلْ ما تُعطيني من الخير رضوانَكَ والدرجات العُلَى في جنات النعيم)[3] .

وكان يقول في دعائه : (اللهمَّ اجعلْ خيرَ عُمري آخرَه ، وخيرَ عملي خواتمَهُ ، وخيرَ أيامي يومَ لقائِك)[4] .

---

(١) أخرجه ابن حبان (٩٦٢) واللفظ له؛ وأبو داود (٥٠٦٧)؛ والترمذي (٣٣٩٢)؛ والنسائي في الكبرى (٧٦٤٤) وأطرافه؛ وأحمد : ١/ ٩ ، وغيرهم ، وقال الترمذي : حسن صحيح ، وصححه الألباني وأحمد شاكر .

(٢) الشكر ، لابن أبي الدنيا (١٠٩)؛ حياة الصحابة : ٣/ ٣٧٧ .

(٣) حياة الصحابة : ٣/ ٣٧٧ .

(٤) تاريخ الخلفاء ، ص ١٠٣ .

وكان إذا مُدِح قال: (اللهمَّ أنتَ أعلمُ بي منِّي بنَفْسي ، وأنا أعلمُ بنفسي منهم ، اللهمَّ اجعلْني خيراً مما يظنُّون ، واغفِرْ لي ما لا يعلمون ، ولا تؤاخِذْني بما يقولون)[1] .

سابعاً: زهده:

ومن جلائل أخلاقِ أبي بكر وخصالِه الرفيعة زهدُه في متاع الدنيا وزهرتها ، وكان في ذلك من طراز أفذاذ الصالحين القادرين على الدنيا ووفرة نعيمها فترفَّعوا عنها ، لا زهد العاجزين المتواكلين ، وذلكم هو الزهد الحق!.

ولقد اقتدى في هذا بالأسوة العظمى سيِّد الزاهدين رسول الله ﷺ ، الذي لو شاء أن يُجري الله تعالى له الذهب والأموال لفعل ، وخيَّره ربه سبحانه بين أن يكون مَلِكاً أو يكون عبداً رسولاً ، فقال ﷺ: «**لا ، بل عبداً رسولاً**» . .

وكان ﷺ يدعو فيقول: «**اللهمَّ اجعلْ رزقَ آل محمد قُوتاً**». وكان يعيش على الأسودَيْن: التمر والماء . وينام على حَصير حتى يؤثِّر في جنبه الشريف ، ويقول: «**ما مَثَلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائفٍ ، فاستظلَّ تحت ظلِّ شجرةٍ ساعةً من نهار ، ثم راحَ وتركها**»[2]! .

فرأى أبو بكر عيش رسول الله ﷺ هذا فمشى على سَننِه! .

عن زيد بن أَرْقَم رضي الله عنه : (أن أبا بكر رضي الله عنه استَسقى ،

---

(١) ابن عساكر ، ص ٤٤٥ ؛ أسد الغابة : ٣/ ٢١٧ .

(٢) كلها أحاديث صحاح ؛ انظر : ابن حبان (٦٣٤٤ ، ٦٣٤٥ ، ٦٣٥٢ ، ٦٣٦٥) .

فأُتِي بإناءٍ فيه ماءٌ وعسل ، فلما أدناه من فيهِ بكى وأبكى مَن حوله ، فسَكَتُوا وما سكت. ثم عاد ، فبكى ، حتى ظنُّوا أن لا يَـقْدِروا على مساءلته ، ثم مسح وجهه وأفاق ، فقالوا: ما هاجَكَ على هذا البكاء؟ قال: كنتُ مع النبي ﷺ ، وجعل يَدفع عنه شيئاً ويقول: «**إليكِ عنِّي ، إليكِ عنِّي**» ، ولم أرَ معه أحداً ، فقلتُ: يا رسول الله! أراكَ تدفَعُ عنك شيئاً ولا أرى معك أحداً؟! قال: «**هذه الدنيا تمثَّلت لي بما فيها ، فقلتُ لها: إليكِ عنِّي فتَنَحَّتْ وقالت: أَمَا واللهِ لئن انفلتَّ منِّي لا يَنفلتُ مني مَن بعدَك**» فخشيتُ أن تكون قد لحقَتْني ، فذاك الذي أبكاني!)[1].

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: (دخلتُ على أبي بكر رضي الله عنه في مرضه الذي توفِّي فيه ، فسلَّمتُ عليه ، فقال: رأيتُ الدنيا قد أَقبلتْ ولمّا تُقبل ، وهي جائية ، وستتخذون ستور الحرير ، ونضائد الدِّيباج ، وتألَمون ضَجائع الصوف الأَذَريّ كأنّ أحدكم على حسك السعدان ، ووالله لأن يُقدَّم أحدُكم فتُضرب عنقه في غير حدٍّ خيرٌ له من أن يسبح في غمرة الدنيا)[2].

وعندما أضحى خليفة المسلمين ، وجاءت أموال الفتوحات ، لم يَـلتفت إليها بل وزَّعها على الناس ، وبقي هو مع آل بيته كآحاد المسلمين ، وما استطاع (منصب الخلافة) أن يغيِّر شيئاً من منهجه في الزهد الذي مشى عليه طيلة حياته مع النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ١/ ٣٠ ـ ٣١؛ والحاكم: ٤/ ٣٠٩؛ والبيهقي في شعب الإيمان: ٧/ ٣٦٥ (١٠٥٩٦)؛ وابن عساكر ، ص ٤٤٢.

(٢) حلية الأولياء: ١/ ٣٤.

لمّا استُخلِف أصبح غادياً إلى السوق على رقبته أثواب يتَّجِر بها ، فلقيه عمر وأبو عبيدة ، فانطلقا به وفرضوا له راتباً يكفيه وأهلَه. وكان يذهب إلى أهله بالسُّنْح ماشياً على رجليه ، وربما ركب على فرس ، وعليه إزار ورداء[1]!.

وفي مرض موته أَمَر أن يُرَدَّ ما كان عنده إلى بيت مال المسلمين ، قال أنس بن مالك رضي الله عنه : قال أبو بكر : (أَمَا إنِّي قد كنتُ حريصاً على أن أوفِّر للمسلمين فيئَهم ، مع أني قد أصبتُ من اللحم واللبن ، فانظروا ـ إذا رجعتم منِّي ـ ما كان عندنا فأبْلِغُوه عمرَ). قال أنس : (وما كان عنده دينار ولا درهم ، ما كان إلا خادم ولِقْحة ومِحْلَب ، فلما رأى ذلك عمر يُحمل إليه ، قال : يَرحمُ الله أبا بكر ، لقد أتعبَ مَنْ بعدَه!)[2].

ثامناً: ورعه وتحرّيه الحلال وبُعْدُه عن الشبهات:

عندما نتحدث عن ورع الصحابة وتحرِّيهم الحلال ونأيهم عن الشبهات ، فإنما نعني الورعَ الذي فهموه هم واقتبسوه من منبع النور والورع والتقوى ، ذلكم المسلك الفذ والخلق النبيل الذي يصفُه الصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول :

(إنكُم لَتعملُون أعمالاً هي أَدَقُّ في أعينِكم من الشَّعَر ، إنْ كنَّا لنَعُدُّها على عهد النبي ﷺ من المُوبِقات!)[3].

وورع أبي بكر كان مكافئاً لزهدِه وخشيته ومروءته ونُبْلِه.

---

(١) انظر تفصيل ذلك : ص ٥٧٩ ـ ٥٨١ في هذا الكتاب.

(٢) طبقات ابن سعد : ٣/ ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٩٢).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان لأبي بكر غلامٌ يُخْرِجُ له الخَراجَ ، وكان أبو بكر يأكلُ من خَرَاجِه ، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر ، فقال له الغلامُ: أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنتُ تَكهَّنْتُ لإنسانٍ في الجاهلية ، وما أُحسِنُ الكِهَانَةَ ، إلا أَنِّي خَدَعْتُه فلَقِيَني فأعطاني بذلك ، فهذا الذي أكلتَ منه ، فأدخلَ أبو بكر يدَهُ فقاءَ كل شيء في بطْنِه!)[1].

وفي قصة ذكرها عبد الرزاق الصَّنْعاني وصحَّحها الحافظ ، عن ابن سيرين: (أنَّ أصحابَ رسول الله ﷺ نزلوا بأهلِ ماءٍ وفيهم أبو بكر ، فانطلق النُّعيمان فجعل يخطُّ لهم ـ أو قال: يتكهَّنُ لهم ـ ويقول: يكون كذا وكذا ، وجعلوا يأتونه بالطعام واللبن ، وجعل يُرسِل إلى أصحابه ، فقيل لأبي بكر: أتعلَمُ ما هذا؟ إن ما يرسِل به النُّعيمان يخطُّ ـ أو قال: يتكهَّن ـ فقال أبو بكر: ألا أُراني كنت آكلُ كهانةَ النعيمان منذُ اليوم! ثم أَدخل يده في حَلْقه فاستقاءه)[2].

وعن أبي سعيد الخُدْري: (أنهم خرجوا مع رسول الله ﷺ في سفر ، فنزلوا رُفَقَاء ، رُفْقة مع فلان ورفقة مع فلان ، قال: فنزلتُ في رُفْقةِ أبي بكر ، فكان معنا أعرابيٌّ من أهل البادية ، فنزلنا بأهل بيت من الأعراب وفيهم امرأة حامل ، فقال لها الأعرابي: أَيَسرُّكِ أن تلدي غلاماً ، إنْ أعطيتِني شاة ولدتِ غلاماً! فأعطَتْه شاة ، وسَجَع لها أساجيعَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٤٢). **والخَراج**: ما يقرِّره السيد على عبده من مالٍ يؤدّيه إليه كل يوم.

(٢) المصنف (٢٠٣٤٦)؛ الفتح: ٨/ ٧٩٥ ـ ٧٩٦ شرح الحديث (٣٨٤٢). **الكِهَانة**: تعاطي الإخبار عما يكون في المستقبل ، وادعاء معرفة الأسرار.

قال: فذَبح الشاة ، فلما جلس القوم يأكلون ، قال رجل: أتدرون ما هذه الشاة؟ فأخبرهم ، قال: فرأيتُ أبا بكر متبرِّياً مستنتلاً متقيِّئاً)[1].

وعن زيد بن أَرْقَم قال: (كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه مملوك يغلُّ عليه ، فأتاه ليلة بطعام ، فتناول منه لقمة ، فقال له المملوك: ما لكَ كنتَ تسألُني كل ليلة ولم تسألْني الليلة؟! قال: حَمَلني على ذلك الجوعُ ، من أين جئتَ بهذا؟ قال: مررتُ بقوم في الجاهلية فرَقَيْتُ لهم ، فوعدوني ، فلما أن كان اليومُ مررتُ بهم فإذا عرسٌ لهم فأعطوني ، قال: إنْ كِدتَ أن تُهلِكَني ، فأَدْخَلَ يده في حلْقه فجعل يتقيّأ ، وجَعلتْ لا تَخرج! فقيل له: إنَّ هذه لا تَخرج إلا بالماء ، فدعا بِعُسٍّ من ماء ، فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها ، فقيل له: يرحمك الله ، كل هذا من أجلِ هذه اللقمة؟! قال: لو لم تَخرج إلا مع نَفْسي لأخرجتُها ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كلُّ جسدٍ نَبتَ من سُحْتٍ فالنار أَوْلى به**» فخشيتُ أن يَنبت شيءٌ من جسدي من هذه اللقمة)[2].

وأمَّا ورعُه في أموال المسلمين حينما أضحى خليفة ورئيساً للدولة؛ فكان مضربَ المَثَل في ذلك ، وأشادَ به الفاروق عمر وحسبك بشهادته.

---

(١) أخرجه أحمد: ٣/ ٥١؛ وذكره الحافظ في الفتح: ٨/ ٨٩٦ وعزاه ليعقوب بن شيبة في مسنده.
قوله: **متبرياً**: أي انفرد عن أصحابه وخرج إلى البَرّ. **مُسْتَنْتلاً**: اسْتَنْتَل أي تقدَّم ، والنَّتْل: الجَذْب إلى قُدَّام. النهاية: ٥/ ١٣. وجاءت الكلمة في المسند: (مستنبلاً) ، وهو تصحيف!.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ١/ ٣١؛ وابن الجوزي في صفة الصفوة: ١/ ٢٥١ ـ ٢٥٢. **العس**: القَدَح الكبير.

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (أن أبا بكر قال لها وهو يعالج سكرات الموت: أمَا إنَّا منذ وَلينا أمرَ المسلمين لم نأكلْ لهم ديناراً ولا درهماً ، ولكنَّا قد أكلنا من جَرِيش طعامهم في بطوننا ، ولَبِسْنا من خَشِنِ ثيابهم على ظهورنا ، وليس عندنا من فيءِ المسلمين قليلٌ ولا كثيرٌ ، إلا هذا العبد الحبشي وهذا البعير الناضح وجَرْدَ هذه القَطِيفة ، فإذا مِتُّ فابْعَثي بهنَّ إلى عمر وابْرئي منهنَّ! ففعلتُ ، فلما جاء الرسولُ عمرَ بكى حتى جعلَتْ دموعه تسيل في الأرض ، ويقول: رحمَ الله أبا بكر ، لقد أَتْعَبَ مَن بعدَه!)[1].

هذا هو الورع الذي قَبَسه الصديق من هَدْي النبوة ، وبقي عليه حتى آخر لحظة من عمره ، وبَرئَ إلى الله تعالى من (فَلْس واحد) من أموال المسلمين، وشهد له بذلك الصحابة المحفوظون، وأثبته التاريخ الصادق.

فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ لمن خَبطَ في مال الله ، وانتَهب المالَ العام ، وعاثَ فيه فساداً ، والبطونُ الجائعة تشكوه إلى المنتقم الجبار!.

تاسعاً: تواضعه:

ومما جُبل عليه أبو بكر وكان من أخلاقه الأصيلة النبيلة التواضعُ الرفيع وأدبُ التوقير وإلزامُ النفس بما يُعلي فضائلها ويَكبح جماحَها. وقد رسَّخ هذا الخلقَ في نفسه ما رآه من أخلاق رسول الله ﷺ طيلةَ صحبته المباركة ، وقد شهده يومَ فتح مكة يدخلها فاتحاً فَيُطأطِئ رأسَه تواضعاً لله تعالى ورأفة بالناس.

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/١٩٦؛ وانظر أخباراً أخرى في هذا الكتاب: ص ٧٢٤ وما بعدها.

ولئنْ كان يحقُّ لامرئٍ الزهو ، فإن أبا بكر أولُ الجديرين به ؛ لِما له من المناقب والمفاخر والفضائل والمآثر! ولكنْ أنَّى للعُجب أن يتطرّق إليه ، وقد سمع من النبي ﷺ ذمَّه ، ورأى من فعله الطيب ما يقبِّحه وينفِّر منه؟!.

ولقد شهد الصادق المصدوق ﷺ للصديق بالتواضع والإخبات ، وكفى بذلك فخراً. ومشى أبو بكر على هذا الخُلق طيلة صحبة النبي ﷺ ، وفي أيام خلافته ، وحملَ أركانَ دولته وقادة جيوشه عليه ، وأراهم من نفسه أروعَ الأمثلة قولاً وفعلاً.

●● عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما قال: (قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَرَّ ثوبَه خُيلاءَ لم يَنظُر الله إليه يومَ القيامة» فقال أبو بكر: إنَّ أحدَ شِقَّيْ ثوبي يسترخي ، إلاّ أن أتعاهَدَ ذلك منه ، فقال رسول الله ﷺ: «إنكَ لستَ تصنَعُ ذلك خُيَلاءَ»)[1].

وفي حديث صلاته بالناس عن أمرِ النبي ﷺ ، ومجيء النبي ﷺ وإشارته له أن يبقى إماماً ، لكنه استأخَر حتى قام في الصف ، فقال ﷺ: «ما مَنَعَك أن تَثْبُتَ حين أشرتُ إليك؟» فقال: (لم يكن ينبغي لابن أبي قُحافة أن يَؤُمَّ رسول الله ﷺ)![2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٥) وأطرافه؛ وأبو داود (٤٠٨٥)؛ والنسائي في الكبرى (٩٦٣٨)؛ وفي الصغرى: ٨/٢٠٨؛ وأحمد: ٢/١٠٤ ، ١٤٧؛ وابن حبان (٥٤٤٤) ، وغيرهم.

(٢) مسند أحمد: ٥/٣٣٨، وقد سبق الحديث بتمامه مع تخريجه: ص ١٧٠ حاشية (٢) في هذا الكتاب.

وقدِمَ ذو الكَلاَع الحِمْيَرِيُّ من اليمن على أبي بكر ، ومن خَلْفه ومن حوله ألف عبد من الفرسان ، وعلى رأسه التاج ، وعلى حلّته الجواهر المتلألئة ، وبُرْدَتُه تسطع بخيوط الذهب المرصَّع باللآلئ والياقوت والمَرجان ، فلما رأى ما عليه أبو بكر من اللباس والزهد والتواضع والنُّسْك ، وما هو عليه من الوقار والهيبة ـ تأَثَّر ذو الكَلاع ومن معه من السادة ، فذَهَبوا مذهب الصديق ونزعوا ما كان عليهم[١] .

●● وعندما أَمر الصديق بإنفاذِ جيش أسامة ، خرج حتى أتاهم وشَيَّعَهم وهو ماشٍ وأسامة راكب ، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر ، فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله! والله لتركبنَّ أو لأَنزلنَّ! فقال : والله لا تنزلُ ، ووالله لا أركبُ ، وما عَليَّ أن أُغَبِّر قدَميَّ في سبيل الله ساعة! وإنْ رأيتَ أن تُعينني بعمر بن الخطاب فافعل ، فأَذِنَ له[٢] .

ولمّا عَقَد الألوية للجيوش الأربعة التي وجَّهَها لفتح الشام ، وكان يزيد بن أبي سفيان أميرَ أحد تلك الأَرْباع ، خرج أبو بكر مع يزيد يُوصِيه ، وأبو بكر يمشي ويزيد راكب ، فلما فَرغ من وصيَّته قال : أُقرئك السلام وأستودعُك الله . ثم انصرف ومضى يزيد[٣] .

وبعد الانتصارات المدهشة التي سطَّرها سيفُ الله خالد في العراق ، كتب إليه الخليفة العظيم أبو بكر : (فَلْيهنئكَ أبا سليمان النيّة والحُظوة ،

---

(١) مروج الذهب : ٢/ ٣٠٥ ، أبو بكر ، للطنطاوي ، ص ٢١٨ .

(٢) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٢٦؛ البداية والنهاية : ٦/ ٣٠٥؛ حياة الصحابة : ١/ ٤٢٨ .

(٣) موطأ مالك : ٢/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨؛ تاريخ الطبري : ٣/ ٤٠٥ .

فأَتْمِمْ يُتمم الله لك ، ولا يَدخلنَّك عُجْبٌ فتخسر وتُخْذَل ، وإياك أن تُدِلَّ بعملٍ ، فإن الله له المَنّ ، وهو وليُّ الجزاء)[1] .

وكان يَحلُب للحيِّ أغنامهم ، فلمَّا بُويع له بالخلافة قالت جاريةٌ من الحي : الآن لا تُحلب لنا منائحُ دارنا! فسمعها أبو بكر فقال: بلى لَعَمري لأَحلبنَّها لكم ، وإني لأرجو أن لا يغيِّرني ما دخلتُ فيه[2] عن خُلُق كنتُ عليه[3] .

وكان يخدم عجوزاً عمياء ويستقي لها ويقوم بشؤونها وهو خليفة[4]! .

عاشراً: جوده وكرمه ورغبته في الأجر:

وجودُ أبي بكر وسخاؤه وكَرمُ نفسه أمر لا يحتاج إلى مزيد بيان ، وحَسْبه أنه أنفق ماله كله في سبيل الله وخدمة رسول الله ﷺ وإعتاقه العبيد وتحريرهم لوجه الله تعالى .

ومن هذا السبيل كرمُ ضيافتِه ، وبذلُ الخير للأضياف من ذوي الحاجة وغيرهم .

● عن عبد الرحمن بن أبي بكر : (أنَّ أصحاب الصُّفَّة كانوا أناساً فقراءَ ، وأنَّ النبي ﷺ قال : «**مَن كان عنده طعامُ اثنين فَلْيذهَبْ بثالثٍ ، وإنْ أربع فخامس أو سادس**» . وأن أبا بكر جاء بثلاثةٍ ، وانطَلَق النبي ﷺ

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/ ٣٨٥ ، ٤٠٧ ؛ البداية والنهاية : ٦/ ٣٥٢ .
(٢) يعني : الخلافة وشؤون الحكم .
(٣) طبقات ابن سعد : ٣/ ١٨٦ ؛ ابن عساكر ، ص ٤٣٥ .
(٤) ابن عساكر ، ص ٤٣٤ .

بعَشَرة. قال: فهو أنا وأبي وأمي ـ فلا أدري قال: وامرأتي ـ وخادم بيننا وبين بيت أبي بكر. وإنَّ أبا بكر تعشَّى عند النبيِّ ﷺ، ثم لَبِث حيث صُلِّيتِ العشاءُ، ثم رَجَع فلَبث حتى تعشَّى النبي ﷺ، فجاء بعدما مضى من الليل ما شاءَ الله.

قالت له امرأتُه: وما حَبَسَكَ عن أَضيافِك ـ أو قالت: ضَيْفِك ـ؟ قال: أَوَمَا عَشَّيْتيهم؟! قالت: أَبَوا حتى تجيءَ، قد عُرِضُوا فأَبَوْا. قال: فذهبتُ أنا فاختبأتُ، فقال: يا غُنْثَرُ، فجَدَّعَ وسَبَّ! وقال: كُلوا لا هَنيئاً، فقال: والله لا أَطْعَمُهُ أبداً ـ زاد هنا في رواية: فحلَفتِ المرأةُ لا تَطْعَمُه حتى يَطعَمَه، فحَلَف الضيف أو الأضياف أن لا يَطْعَمَه ـ أو: يَطْعَمُوه ـ حتى يَطْعَمَه، فقال أبو بكر: كأنّ هذه من الشيطان، فدَعَا بالطعام فأكل وأكلوا.

وايْمُ اللهِ، ما كنّا نأخذُ من لُقمةٍ إلا رَبَا من أسفلها أكثَرُ منها، قال: يعني حتى شَبِعوا، وصارت أكثَرَ ممَّا كانت قبلَ ذلك، فنَظر إليها أبو بكر فإذا هي كما هي أو أكثَرُ منها فقال لامرأتِه: يا أُخْتَ بني فِراسٍ ما هذا؟! قالت: لا وَقُرَّةِ عَيْني، لَهِي الآنَ أكثرُ منها قبل ذلك بثلاثِ مرَّاتٍ! فأكل منها أبو بكر وقال: إنَّما كان ذلك من الشيطان ـ يعني يمينَه ـ ثم أَكل منها لُقمةً، ثم حَمَلها إلى النبي ﷺ فأصبحتْ عندَه) لفظ البخاري.

وفي رواية عند مسلم: قال عبد الرحمن بن أبي بكر: (فلما أَمسيتُ جئنا بِقِرَاهُم، قال: فأَبَوْا، فقالوا: حتى يجيءَ أبو مَنزلنا فيطعمَ معنا، قال: فقلتُ لهم: إنه رجلٌ حَديدٌ، وإنكم إن لم تفعلوا خِفتُ أن يُصيبني منه أذًى).

وفي أخرى: (فلمَّا أصبحَ غدا على النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله!

بَـرُّوا ، وحَنِثْـتُ ، قــال : فــأخبـرَه ، فقــال : «**بـل أنـتَ أَبَـرُّهـم وأَخْيَرُهُم**»[1] .

وفي هذا الحديث مآثر جليلة ومناقب رفيعة لأبي بكر رضي الله عنه ، ومن ذلك :

١ ـ مداومتُه على صحبة النبي ﷺ والتباحث في أمور المسلمين .

٢ ـ جوده وكرمه حيث ذهب بثلاثة أضياف من فقراء المسلمين .

٣ ـ حرصه على المبالغة في إكرامهم والإسراع في تقديم ضيافتهم ، وحدَّته وتشنيعه على أهله وولده حينما ظن أنهم قصَّروا في خدمتهم .

٤ ـ جواز سبِّ الوالد لابنه على سبيل التأديب والتمرين على أعمال الخير .

٥ ـ حرصه على الأجر واتباع هدي النبوة في حِنْثه باليمين والكفارة حيث رأى ما هو خير منها .

٦ ـ كرامة له في البركة بطعامه حيث أكلوا ولم يَنقص منه شيء .

٧ ـ ثناءُ رسول الله ﷺ على فعل الصديق حيث قال له : «**بل أنتَ أبرُّهم وأخيرُهم**» .

● وفي قصة إسلام أبي ذر الغِفَاريِّ وإخباره النبي ﷺ بأنه مَكَث ثلاثين

(١) أخرجه البخاري (٦٠٢) وأطرافه؛ ومسلم (٢٠٥٧)؛ وأبو داود (٣٢٧١)؛ وابن حبان (٤٣٥٠)؛ وغيرهم. قوله: (**عرضوا**): أي عرض عليهم الطعام. (**يا غنثر**): هو السفيه أو الجاهل أو اللئيم. (**فجدَّع**): أي دعا عليه بالجدع ، وهو قطع الأذن أو الأنف أو الشفة .

ليلة ليس له طعام إلا ماء زمزم! قال أبو ذر:

(فقال أبو بكر: يا رسولَ اللهِ! ائْذَنْ لي في طعامه الليلة. فانطلَق رسول الله ﷺ وأبو بكر، وانطلقتُ معهما، ففتح أبو بكر باباً، فجعل يَقْبِض لنا من زبيب الطائف، وكان ذلك أولَ طعامٍ أكلتُه بها)[1].

● وفي حديث الإفْك: وقد كان مِسْطَح بن أُثَاثَةَ ممن شارك في الكلام فيه، قالت عائشة رضي الله عنها: (ثم أَنزل الله بَراءتي، فقال أبو بكر الصديق ـ وكان يُنفِقُ على مِسْطَح بنِ أثاثةَ لقرابتِه منه وفقرِه ـ: واللهِ لا أُنفِق على مِسْطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال! فأنزل الله: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]! قال أبو بكر الصديق: بلَى واللهِ، إنِّي لأُحِبُّ أن يغفرَ الله لي. فرَجَعَ إلى مِسْطحٍ النفقةَ التي كان يُنفِق عليه، وقال: واللهِ لا أَنْزِعُها منه أبداً!)[2].

حادي عشر: تأديبه نفسه وكظمه غيظه:

كانت في أبي بكر رضي الله عنه حِدّة يُغالِبها ولا يَستعصي عليه أن يَكبح جِماحها، وقد وصف نفسه بها، ووصفه بها أقربُ الناس إليه وأصدقُهم في وصفه، فقال في أوائل خُطبه عند توليه الخلافة: (واعْلَموا

(١) أخرجه مطولاً: مسلم (٢٤٧٣)؛ وأحمد: ٥/ ١٧٤؛ وابن حبان (٧١٣٣).
(٢) أخرجه البخاري (٤١٤١)، وأطرافه في (٢٥٩٣)؛ ومسلم (٢٧٧٠)؛ والنسائي في الكبرى (٨٨٨٢)؛ وأحمد: ٦/ ١٩٧؛ وابن حبان (٤٢١٢)، وغيرهم.

أنَّ لي شيطاناً يَعتريني ، فإذا رأيتموني غضبتُ فاجتنبوني ، لا أُؤثِّر في أشْعارِكم وأبْشارِكم!)[1].

وفي حديث السَّقيفة يقول عمر: (أَردتُ أنْ أتكلَّمَ ، وكنتُ قد زَوَّرْتُ مقالةً أعجبَتْني أُريد أن أُقدِّمَها بين يدي أبي بكر ، وكنتُ أُداري منه بعضَ الحَدّ ، فلما أردتُ أن أتكلّم قال أبو بكر: على رِسْلِك ، فكرِهتُ أن أُغضِبَه)[2].

وهذه الحِدَّة كانت مهيمَناً عليها بإيمانه الراسخ ويقظتِه الحاضرة ونفسه التوَّاقة إلى كل خير ، فإذا حَدَث وانفلتَتْ في موقف مُغضِب؛ كان الصديق سريعَ الفَيء إلى كبحها وردِّها إلى صوابها.

وفي الجانب الآخر قد أكسَبتْه صلابةً وثباتاً في مُدْلَهمّات الخطوب ومصاعب الأحداث ، كما بَرهن على ذلك في حياته الحافلة بالأعمال العظام والمواقف الكبار.

●● عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: (كنتُ جالساً عند النبي ﷺ ، إذ أَقبلَ أبو بكر آخِذاً بطَرَفِ ثوبه حتى أَبْدَى عن رُكْبتِه ، فقال النبي ﷺ: «**أمَّا صاحبُكم فقد غامَرَ**[3]»! فَسَلَّمَ ، وقال: إني كان بيني وبين ابنِ الخطاب شيءٌ ، فأسرعتُ إليه ثم نَدِمتُ ، فسألتُه أن يغفِرَ لي فأبَى عليَّ ، فأقبلتُ إليك! فقال ﷺ: «**يغفرُ الله لك يا أبا بكر**» ثلاثاً. ثم إنَّ عمر ندِمَ ،

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٢١٢؛ تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٤.
(٢) أخرجه البخاري (٦٨٣٠) ، وسيأتي مطولاً.
(٣) **غامر**: أي خاصَمَ ، والمعنى: دخل في غَمرة الخصومة ، **والغامر**: الذي يرمي بنفسه في الأمر العظيم كالحرب وغيره.

فأتى منزلَ أبي بكر فسأل: أَثَمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا ، فأتى إلى النبيِّ ﷺ فسلَّمَ ، فجعلَ وجْهُ النبي ﷺ يَتَمَعَّرُ[١] ، حتى أَشْفَقَ أبو بكر فجَثَا على ركبتَيْهِ فقال: يا رسولَ الله! واللهِ أنا كنتُ أظلَمَ ، مرتين! فقال النبي ﷺ: «**إنَّ اللهَ بعثَني إليكم ، فقلتُم: كَذَبْتَ ، وقال أبو بكر: صَدَقَ ، وواساني بنفسِه ومالِه ، فهل أنتم تاركُو لي صاحبي؟!**» مرتين ، فما أُوذِي بعدَها). لفظ البخاري.

وفي رواية أخرى للبخاري: (فاتَّبَعَه أبو بكر يسأله أن يستغفرَ له ، فلم يفعلْ ، حتى أَغْلَقَ بابَهُ في وجْهِهِ!).

وفي رواية أبي نُعيم: (حَتى أَشْفَقَ أبو بكر أن يكونَ من رسول الله ﷺ إلى عمرَ ما يكره ، فلما رأى ذلك أبو بكر جَثَا على ركبتيه. . .)[٢].

وعند الطبراني: من حديث ابن عُمر رضي الله عنهما: (فقال رسول الله ﷺ: «**يَسألُكَ أخوك أن تستغفرَ له فلا تفعل؟!**» فقال: والذي بَعَثَك بالحق نبيّاً ، ما مِن مرَّة يسألُني إلا وأنا أستغفرُ له ، وما من خَلْق الله أحبُّ إليَّ بعدك منه. فقال أبو بكر: وأنا والذي بَعَثك بالحقِّ ما من أحدٍ بعدكَ أحبّ إليَّ منه!)[٣].

(وهذا الحديث من أعظم الأصول في منقبة أبي بكر وفضيلتِه ، وفيه

---

(١) **يتمعّر**: أي تذهب نَضارتُه من الغضب.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦١) و(٤٦٤٠)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٧٠٩)؛ وأبو نعيم في الحلية: ٩/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤؛ وأخرجه مختصراً بدون القصة ابن أبي عاصم في السنة (١٢٢٣).

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع: ٩/ ٤٤ ـ ٤٥ ، وقال: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح ، وذكره الحافظ في الفتح: ٨/ ٥٩١ شرح الحديث (٣٦٦١).

من فنون العلم ضُروبٌ: فأنت ترى فيه كيف صوَّر ما بين الشيخين ، وكيف رجع كل منهما ليترضَّى صاحبه ، وكيف أن نفس أبي بكر لم تحتمِل غضبَ أخيه عمر حتى أذهلَه ذلك بعضَ الشيء فرفع ثوبه حتى كَشَف عن ركبتَيْه ، وكيف أن عمر أدرك أنه اشتدَّ إذ لم يَغفر لأبي بكر هفوته فطافَ يسألُ عنه ليتراضيا ، وكيف أن أبا بكر سارعَ إلى الملجأ الأعلى ليستغفر له وليُصلح بينهما ، وكيف أظهر النبي ﷺ منزلة أبي بكر في نفسه ومكانَه في الإسلام بما ظهر عليه من دلائل التغيُّر في وجهه الشريف ، وكيف خشِي أبو بكر من عواقب غضب النبي ﷺ فترضَّاه ، ثم هذه الكلمات الخالدات التي ألقاها النبي ﷺ في جموع أصحابه في تعريفهم مكانة الصديق ، ثم هذه الإضافة التشريفية في قوله: «**فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟!**» الدالَّة على سرِّ عظمة الصديق؛ وفاقاً لقول الله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠])[(١)].

وفيه أيضاً فضلُ أبي بكر على جميع الصحابة. وفيه ما طُبِع عليه الإنسان من البشرية حتى يحملَه الغضب على ارتكاب خلاف الأَوْلى ، لكن الفاضل في الدين يُسرع الرجوعَ إلى الأَولى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وفيه أن غيرَ النبيِّ ولو بَلَغ من الفضل الغايةَ ليس بمعصوم[(٢)].

ـ ووقع لأبي بكر مع رَبيعة بن كَعْب الأَسْلَمِيِّ قصةٌ نحو هذه ، فذكر

---

(١) حياة رجالات الإسلام ، ص ٤٦.

(٢) الفتح: ٨/ ٥٩٢.

ربيعة في حديثه قصة فقره ونكاحه ، ثم قال :

(إنَّ رسول الله ﷺ أَعطاني بعد ذلك أرضاً ، وأعطى أبا بكر أرضاً ، وجاءت الدنيا ، فاختَلفنا في عَذْقٍ[1] نخلةٍ ، فقلتُ أنا : هي في حَدِّي ، وقال أبو بكر : هي في حدّي! فكان بيني وبين أبي بكر كلامٌ ، فقال أبو بكر كلمةً كرهتُها ، ونَدِم فقال لي : يا ربيعة ، رُدَّ عليَّ مثلها حتى تكون قِصاصاً ، قال : قلتُ : لا أفعلُ ، فقال أبو بكر : لَتقولنَّ أو لأَستعدينَّ عليك رسول الله ﷺ ، فقلت : ما أنا بفاعل! قال : ورَفَضَ الأرضَ ، وانطلَق أبو بكر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ ، وانطلقتُ أتلوه. فجاء ناسٌ من أَسْلَم ، فقالوا لي : رحمَ الله أبا بكر ، في أيِّ شيء يَستعدي عليك رسول الله ﷺ وهو قال لك ما قال؟! فقلتُ : أَتـدرونَ ما هذا؟ هذا أبو بكر الصديق ، هـذا ثاني اثنين ، وهذا ذو شَيْبـة المسلمين ، إيَّاكم لا يَلتفت فيراكم تنصروني عليـه فيغضَبُ ، فيأتي رسول الله ﷺ فيغضبُ لغضبه ، فيغضبُ الله عز وجل لغضبهما ، فيهلِك ربيعة! قالوا : ما تأمُرنا؟ قال : ارجعوا.

قال : فانطلق أبو بكر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ ، فتبعتُه وحدي ، حتى أتى النبيَّ ﷺ ، فحدَّثَه الحديثَ كما كان ، فَرَفَع إليَّ رأسَه فقال : «**يـا ربيعة ، ما لَك وللصدِّيق؟**» قلتُ : يـا رسول الله! كـان كذا كـان كذا ، قال لي كلمةً كرهتُها ، فقـال لي : قُلْ كما قلتُ حتى يكون قِصاصاً ، فأَبَيْتُ ، فقال رسول الله ﷺ : «**أَجَلْ ، فلا تردَّ عليه ، ولكنْ قُلْ : غَفَرَ الله لك يا أبا بكر**» فقلتُ : غفر الله لك يا أبا بكر ، فولّى

---

(١) **العَذْق** : النخلةُ بِحَمْلها.

أبو بكر رضي الله عنه وهو يبكي)[1].

وفي هذا الحديث ألوانٌ أخرى من آداب الصحابة رضي الله عنهم ، وفضائل أبي بكر الصديق ، وتأكيد النبي ﷺ على منزلته من قلبه وقلوب المؤمنين.

كلمةٌ عابرة هيِّنة ندَّتْ من لسان أبي بكر فلتةً ، ليست هي من فُحش القول لأنه ما أُثر عنه شيء من هذا حتى في الجاهلية ، لكنها أرَّقَتْ قلبه الرقيق وأقلقتْ نفسه الأوَّاهة ، فزُلزل من أجلها وأبى إلا القِصاص حتى لا تخدِش أخلاقه التي ما عُرف عنها إلا السمو والنُّبل ، ولا تخدِش منزلته وهو الرجل الثاني في الإسلام بعد النبي ﷺ ، ولأنها أيضاً أصابت موجعاً من أخيه المسلم ، فتململ منها ضميره. ولمّا لم يجدْ من ربيعة ما يبرِّد عليه وَقْدةَ هفوته ، سارع إلى النبي ﷺ ليقضي في الأمر ، ويزيح عنه الغُمَّة ، وينال العفو من صاحب الحق!.

واعجَبْ كذلك من الموقف المقابل الذي سطَّره ربيعة بأرفع مكارم الأخلاق الإسلامية ، فلم يردَّ على الصديق بفَلْتَةٍ لسان مماثلة ، ترفُّعاً منه عن اللَّمَم وإعلاءً لمكانة أبي بكر وتحاشياً أن ينال منها ولو بكلمة ، وهذا من أرفع شِيَم الرجال ، ومن أجلّ معاقد الطاعة للنبي ﷺ في حفظ منزلة

(١) أخرجه أحمد: ٤/ ٥٨ ـ ٥٩؛ وابن عساكر ، ص ٤٠٦ ـ ٤١٠؛ وأبو يعلى والطبراني؛ وذكره الحافظ في الفتح: ٨/ ٥٩٢ وسكت عليه؛ وحسنه السيوطي في تاريخ الخلفاء ، ص ٥٦؛ وقال الهيثمي في (المجمع: ٤/ ٢٥٧): رواه أحمد والطبراني ، وفيه مبارك بن فضالة وحديثه حسن ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح؛ وعزاه ابن كثير في البداية والنهاية: ٥/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦ لأبي يعلى.

الصديق وإجلاله ، مما شاع بين الصحابة أجمعين.

بل سَمَتْ نفسُ ربيعة مرتقى أعلى ، فأنَّبَ قومه عندما قالوا: فيمَ يستعدي عليك النبي ﷺ وهو قد بَدَر منه إليك ما بدر؟ فأفصح لهم برجاحة عقله مؤكداً على منزلة أبي بكر في الإسلام ومن قلب رسول الله ﷺ؛ وحسبه أنه ثاني اثنين! ومشى إلى مجلس النبي ﷺ وحده ، فأثنى ﷺ على موقف ربيعة ، وأكَّد صوابه فيه ، ونهاه عن أن يردّ على أبي بكر ، ثم أمره بالاستغفار له ، ففعل ، فبكى أبو بكر! وهذا من مزيد خشيته وأَوْبَتِه رضي الله عنه وأرضاه.

ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (مرَّ النبي ﷺ بأبي بكر ، وهو يلعنُ بعضَ رقيقه ، فالتفتَ إليه وقال: «**لعَّانين وصدِّيقين؟! كلا وربِّ الكعبة**»! فأَعْتَقَ أبو بكر رضي الله عنه يومئذٍ بعضَ رقيقه ، ثم جاء إلى النبي ﷺ فقال: لا أعودُ)[1].

عن أَسْلَم مولى عمر: (أنَّ عمر بن الخطاب دخل على أبي بكر الصديق وهو يَجْبِذُ لسانَه ، فقال له عمر: مَهْ ، غفر الله لك! فقال أبو بكر: إنَّ هذا أوردَني المواردَ)[2].

وفي رواية: عن أَسْلَم: (أنَّ عمر بن الخطاب اطَّلَع على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ، وهو يمدُّ لسانَه ، فقال: ما تصنعُ يا خليفة

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٣١٩)؛ والبيهقي في شعب الإيمان: ٤/ ٢٩٤ رقم (٥١٥٤) واللفظ له ، وصححه الألباني. وأصله عند مسلم (٢٥٩٧) من حديث أبي هريرة مختصراً.

(٢) أخرجه مالك في الموطأ: ٢/ ٩٨٨؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٥٧٢؛ وأبو نعيم في الحلية: ١/ ٣٣.

رسول الله؟ فقال: هذا أوردني الموارد؛ إن رسول الله ﷺ قال: «**ليس شيءٌ من الجَسدِ إلا يَشكو إلى الله اللسانَ على حِدَّتِه**»[(١)].

●● عن سعيد بن المسيَّب: أنه قال: (بينما رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه، وَقَع رجلٌ بأبي بكر، فآذاه، فصَمَتَ عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانية، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثالثة، فانتصر منه أبو بكر، فقام رسول الله ﷺ حين انتصر أبو بكر! فقال أبو بكر: أَوَجَدْتَ عليَّ يا رسولَ الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نَزل مَلَكٌ من السماء يكذِّبُه بما قال لك، فلما انتصرتَ وَقَعَ الشيطانُ، فلم أكنْ لأجلسَ إذْ وقع الشيطانُ**»)[(٢)].

قال الإمام البَغَوي: الانتصار عن المظالم جائز، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]، ولكنَّ الصبر أجمل؛ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠].

قال إبراهيم النَّخَعي: كانوا يكرهون للمؤمنين أن يُستَذلُّوا، فإذا قدروا عَفَوا[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو يعلى، وابن السني، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وغيرهم؛ وصححه الألباني في الصحيحة (٥٣٥)، وصحيح الجامع (٥٣٩٦)؛ وهو في مجمع الزوائد: ١٠/٣٠٢.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٩٦) و(٤٨٩٧) مرسلاً عن ابن المسيب، ثم مسنداً عن أبي هريرة، واللفظ له؛ وأخرجه مسنداً عن أبي هريرة بأطول منه: أحمد: ٢/٤٣٦، والبغوي (٣٥٨٦)؛ وحسنه الألباني في صحيح أبي داود: ٣/٩٢٥ ـ ٩٢٦، والصحيحة (٢٣٧٦)، وحسنه شعيب الأرنؤوط.

(٣) شرح السنة: ١٣/١٦٤ ـ ١٦٥، باختصار.

وفي هذا درس نبويٌّ فذٌّ للصدِّيق فمن دونه، يَذهب فيه المربي الأعظم ﷺ بصاحبه للترقي في درجات الكمال، وترويض النفس على كظْم الغيظ والعفو عن الجاهلين.

وفيه منقبة بارعة لأبي بكر حيث أرسل الله سبحانه مَلَكاً يُنافح عنه ويردّ على ذلك الجاهل جهالته وسفهه.

وثَمَّة ملمحٌ لطيف يُظهِر واحدةً من شمائل الصديق؛ وهي يقظته الحاضرة، حيث أفزعه قيام النبي ﷺ من المجلس، فأسرع إليه واعتذر عن فعله واستوضح منه هل غضب من موقفه؛ فإن هذا مما لا يطيق وقوعه! فأخبره المربي الحكيم ﷺ بأن منازل الصديقين يجب أن تبقى مستعلية عن درجات آحاد الناس في القول والفعل.

ثاني عشر: حياؤه وغيرته:

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه: (أن أبا بكر رضي الله عنه خَطَبَ الناسَ فقال: يا معشر المسلمين! استحيوا من الله عز وجل، فو الذي نفسي بيده إني لأظلُّ حين أذهب إلى الغائط في الفضاء متقنِّعاً بثوبي، استحياءً من ربي عز وجل)[1].

وعن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما: (أنَّ نَفَراً من بني هاشم دخلوا على أسماءَ بنت عُمَيْس، فدَخل أبو بكر الصديق ـ وهي تحته يومئذٍ ـ فرآهم، فَكَرِهَ ذلك! فذَكَر ذلك لرسول الله ﷺ، وقال: لم أَرَ إلا خيراً، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله قد بَرَّأَها من ذلك**». ثم قام رسول الله ﷺ

(١) حلية الأولياء: ١/ ٣٤؛ تاريخ الخلفاء، ص ٩٥.

على المنبر فقال: «**لا يَدْخُلَنَّ رجلٌ بعد يومي هذا على مُغِيبَةٍ ، إلا ومَعَه رجلٌ أو اثنانِ**»[1] .

والمُغِيبة: هي المرأة التي غاب عنها زوجها ، أي غاب عن منزلها ، سواء كان مسافراً ، أو غاب عن المنزل وهو في البلد .

ثالث عشر: أبو بكر مع أهل بيته:

وأبو بكر داخل بيته هو أبو بكر خارج بيته ، ومواقفه مع الناس مثلُ مواقفه مع أهله الأعلَيْن والأدنَيْن ، فهو في كل ذلك يَصدُر عن ينبوع واحد ونفس واحدة ، قد امتزجت بالإسلام ، وأُشربت بالإيمان ، وفاضت بأنوار الفضيلة والخير والصلاح والهدى والبر والتقوى؛ فحياتُه في صغيرها وكبيرها وليلها ونهارها تصدر عن مَعين واحد وميزان لا يَميط عن الحق والإيمان قِيد شعرة .

فهو بارٌّ بوالديه مبجِّل لهما ، رؤوف بأبنائه ، حريص على أزواجه ، لا يَفتأ يحيطهم أجمعين بكل أصناف الخير والبر والتقوى ، وإذا لزم التأديب والتوجيه فإنه لا يدَّخِر في ذلك وُسْعاً لمن يستحق ذلك .

●● ومن أجلِّ **مظاهر برّه بوالديه** حرصُه على إسلامهما ، لينالا سعادة الدنيا وعزَّ الآخرة ، وقد تقدَّم خبره مع أمه في أيام الدعوة الأولى ، حيث قال للنبي ﷺ: (وهذه أمي بَرَّة بوالديها ، وأنت مبارك ، فادْعُها إلى الله عز وجل وادعُ الله لها ، عسى الله أن يَستنقذها بك من النار . فدَعَا لها

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٧٣)؛ والنسائي في الكبرى (٨٣٣١)؛ وأحمد: ٢/ ١٧١ ، ١٨٦ ؛ وابن حبان (٥٥٨٥).

رسول الله ﷺ ، ثم دعاها إلى الله عز وجل ، وأسلمتْ)[1] .

وفي غزوة الفتح لمّا دخل النبي ﷺ مكة ودخل المسجد الحرام ، أتاه أبو بكر بأبيه يقوده ـ وكان قد عَمِي ـ فأجلَسه بين يديه ﷺ ، فمسح صدره ، ثم قال له : **أَسْلِم** ، فأسْلَم[2] .

وعندما اعتمر الصديق في خلافته سنة (١٢هـ) ، ودخل مكة ضَحْوة ، فأتى منزلَه وأبو قُحافة جالس على باب داره معه فتيان أحداث يحدِّثهم ، إلى أن قيل له : هذا ابنك ، فنهض قائماً ، وعَجِل أبو بكر أن يُنيخ راحلته ، فنزل عنها وهي قائمة ، فجعل يقول : يا أبتِ لا تَقُمْ ، ثم لاقاه فالتزمه وقبَّل بين عيني أبي قحافة ، وجعل الشيخ يبكي فرحاً بقدومه[3] .

انظر إلى هذا البِرِّ النبيل والرأفة الرحيمة بالأبوَّة الواهنة ، أبو بكر خليفة المسلمين يرى أباه الشيخ الكبير ينهض ليتلقَّاه ، فيَعْجَل هو ولا ينتظر أن يُنيخ راحلته فينزل عنها وهي واقفة ، وهو ابن اثنتين وستين سنة ، ويرجو أباه أن لا يقوم إشفاقاً عليه من مشقة النهوض ، ثم يحتضِنُه ويلتزمه ويقبِّل بين عينيْه ، ويُنصت إلى أمره ونصحِه حيث يقول له : يا عَتيق ، هؤلاء الملأ فأَحْسِنْ صحبَتَهم .

●● **وابنه عبد الرحمن** أكبر أولاده ، أسلَم متأخِّراً وحَسُن إسلامه ، وكان على سَنَن أبيه في البطولة والفداء والشجاعة والصلاح ، حتى ذكروا

---

(١) انظر الخبر مطولاً : ص ١١٠ ـ ١١٢ في هذا الكتاب .
(٢) تقدم الخبر مفصلاً : ص ٤٣ ـ ٤٤ في هذا الكتاب .
(٣) طبقات ابن سعد : ٣/ ١٨٧ ؛ وانظر ما تقدم : ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ في هذا الكتاب .

في سيرته أنه لم تُجرَّب عليه كذبة قطُّ!.

وأما ابنه **عبد الله** فكان سرَّ أبيه، وحَسْبه مواقفه الفذة أيام الهجرة، ومن روائع التربية الصديقية قصة عبد الله مع زوجته عاتكة بنت زيد، فهي من أدلّ أخبار هذه الأسرة على شعور أبي بكر بالأبوة والزوجية والواجب في وقت واحد.

فلقد كانت عاتكة من أشهر نساء عصرها بالجمال والعقل والفِطْنة، ففُتِن بها عبد الله وشُغل بها عن مصالحه وشؤونه، فنَصَح له أبوه بطلاقها فطلَّقها! فما زال حتى نَدِم وألحَّ به الندم على فراقها، وقال من شعره فيها:

أعَاتِكُ، لا أنساكِ ما ذَرَّ شارِقٌ ... وما لاحَ نجمٌ في السماء محلِّقُ
أعاتِكُ، قلبي كلَّ يوم وليلةٍ ... لديكِ بما تُخفي النفوس معلَّقُ
لها خُلقٌ جَزْلٌ ورأيٌ ومنصبٌ ... وخَلْقٌ سويٌّ في الحياء مصدَّقُ
ولم أرَ مثلي طلَّقَ اليومَ مثلَها ... ولا مثلَها في غير شيءٍ تُطلَّقُ

فرحمه أبوه وأمره بمراجعتها، فراجعها[1].

ومن مواقف أبي بكر التربوية مع بناته ما ترويه **أم المؤمنين عائشة**، فتقول: (لَبِستُ ثيابي، فَطَفِقْتُ أنظرُ إلى ذَيْلي[2] وأنا أمشي في البيت، وأَلْتَفتُ إلى ثيابي وذيلي! فدخل عليَّ أبو بكر، فقال: يا عائشة، أمَا تعلمينَ أن الله لا ينظرُ إليك الآن؟!).

---

(١) نسب قريش، ص ٢٧٧، الإصابة: ٢/ ٢٧٥؛ عبقرية الصديق، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٢) أي: آخر ثيابها وهي تجرُّ على الأرض.

وعنها رضي الله عنها قالت: (لبستُ مرَّةً دِرْعاً لي جديداً، فجعلتُ أنظر إليه وأُعجب به! فقال أبو بكر: ما تنظرين؟ إن الله ليس بناظر إليك! قلتُ: وممَّ ذاكَ؟ قال: أَمَا علمتِ أن العبد إذا دَخَلَه العُجْبُ بزينةِ الدنيا مَقَتَه ربُّه عز وجل حتى يُفارق تلك الزينة؟ قالت: فنزعْتُه، فتصدَّقتُ به! فقال أبو بكر: عسى ذلك أن يكفِّر عنك)[1].

ويروي البَرَاء بن عازب هذا المشهد الذي رآه من أبي بكر أول مَقْدمه المدينة، يقول البَرَاء: (دخلتُ مع أبي بكر على أهله، فإذا عائشةُ ابنتُه مُضْطجِعةٌ قد أصابَتْها حُمَّى، فرأيتُ أباها يُقبِّلُ خدَّها، وقال: كيفَ أنتِ يا بُنَيَّة؟)[2].

قال الحافظ: (وكان دخول البراء على أهل أبي بكر قبل أن يَنزل الحجاب قطعاً، وأيضاً فكان حينئذٍ دونَ البلوغ وكذلك عائشة)[3].

وقد نشأت عائشة في بيت أبيها على أرفع مكارم الأخلاق، وتدفَّقتْ في عروقها ودمها وروحها سجايا أبيها، فكانت مثلَه في الفهم والذكاء والأدب والسخاء والعلم، وتمَّتْ عليها النعمةُ بانتقالها إلى بيت النبوة، فكانت آثَرَ نساءِ النبي ﷺ عنده، لخصالها الجليلة ومزاياها الفريدة، وكان يُفاخِر نساءَه بها ويقول: «**إنَّها بنتُ أبي بكر!**»[4].

والسيدة الجليلة **أسماء ذات النطاقين** قد سَطَّرت في جَبين التاريخ

---

(١) حلية الأولياء: ١/ ٣٧.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩١٨) واللفظ له؛ وأبو داود (٥٢٢٢).

(٣) الفتح: ٩/ ١٥٠ شرح الحديث (٣٩١٨).

(٤) البخاري (٢٥٨١).

أرفعَ النماذج للتربية الباهرة في بيت أبيها ، في الإيمان والورع والسخاء والنُّبل والشجاعة والفِطْنة والصبر وحسنِ التبعُّل للزوج وروعةِ التربية للأبناء ، وما حَمِدَ الناسُ فضيلةً للمرأة بنتاً وزوجاً ووالدة؛ إلا كانت فيها على أجملها وأسماها وأحقها بالتمجيد والإكبار.

وممَّا يُبرهن لنا عن جميلِ تربيتها وروعةِ نشأتها ما كانت عليه في بيت زوجها ، وصبرها على قساوة الحياة والقيام بأعباء الزوجية والبيت ورعاية شؤون الأسرة المادية والأدبية ، وهي ذات النطاقين وبنت أبي بكر وزوج الزبير بن العوام وأم عبد الله بن الزبير من أعظم رجالات الإسلام!.

تقول أسماء: (تزوَّجَني الزبير وما لَه في الأرض مالٌ ولا مملوكٌ ، غيرُ ناضِح وغيرُ فرسِه ، قالت: فكنتُ أعلِفُ فرسَه ، وأكفيه مُؤْنَتَه ، وأسُوسُه ، وأدقُّ النّوى لناضحِه ، وأعلِفُه ، وأستقي الماء ، وأخْرُزُ غَرْبَه ـ يعني الدَّلْو ـ وَأعْجِنُ ، ولم أكنْ أُحْسِنُ أَخبِزُ ، فَتَخبِزُ لي جاراتٌ لي من الأنصار ، وكنَّ نسوةَ صدقٍ ، وكنت أَنقلُ النَّوى من أرض الزبير التي أقطَعَهُ رسول الله ﷺ على رأسي ، وهي ثُلُثا فَرْسَخ.

قالت: فجئتُ يوماً والنَّوى على رأسي ، فلَقِيَني رسول الله ﷺ ومعه نَفَرٌ من أصحابه ، فدَعَاني ، ثم قال: «إخْ إخْ» ليحملَني خَلْفَه ، قالت: فاستحييتُ أن أمشي مع الرجال ، وذَكرتُ الزبيرَ وغَيْرَتَه ، وكان أغيرَ الناس ، قالت: فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييتُ ، فمضَى. فجئتُ الزبيرَ ، فقلتُ: لَقِيَني رسول الله ﷺ وعلى رأسي النَّوى ، ومعه نفرٌ من أصحابه ، فأناخَ لأركبَ معه ، فاستحييتُ وعرفتُ غَيْرَتَكَ! فقال: واللهِ لَحملُكِ النَّوى كان أشدَّ عليَّ من ركوبِكِ معه.

قالت: حتى أَرسلَ إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادمٍ ، فكَفَتْني سياسة الفرسِ ، فكأنما أَعْتَقَني!)[1] .

هذه السيدة بنتُ السادة وزوج أحد السادات وأم أكابر الرجال كعبد الله وعروة ، تقوم بكل تلك الأعمال في خدمة زوجها وبيتها ، وتنقل النوى على رأسها من مسافة أكثر من (٣كم) ماشية على قدميها! .

هذه أسماء ، وتلك عائشة ، وأولئكم أبناء أبي بكر وهم من خيرة الرجال ، وذلك هو بيت الصديق أكرِم به من بيت بين ما حملت الأرض كلها من بيوت[2] .



---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٢٤)؛ ومسلم (٢١٨٢)؛ والنسائي في الكبرى (٩١٢٥)؛ وابن حبان (٤٥٠٠) واللفظ له ، وغيرهم. **الفرسخ** = ٥٥٤٤ متراً.

(٢) عبقرية الصديق ، ص ١٢٩ .

الفصل الثاني

علمه وقطوف من خطبه وشذرات من كلامه ونماذج من تعبيره الرؤيا

● **توطئة:**

صَحِب أبو بكر رضي الله عنه رسول الله ﷺ منذ مشرق رسالته وحتى آخر ساعاته في الدنيا ، على مدى ثلاث وعشرين سنة ، ولزِمه في سِنِي الدعوة وتأسيس قواعدها بمكة ، وفي بناء الدولة ونزول التشريعات بالمدينة ، وشهد تنزُّلَ الوحي في غدواته وروحاته ، ولازم النبي ﷺ في سفره وحضره ، وغدوِّه ورواحه ، وفي نهاره ويَسْمُر معه في ليله ، ويدخل بيته ، ولم يفارقه في عبادة ولا مشهد ولا غزوة ، وسمع منه أحاديثه وتوجيهاته وأوامره ونواهيه ـ فعَلِم عنه ما فات غيرَه من الأصحاب الكرام ، ورزقه الله تعالى فهماً متفرِّداً وفِطْنة نادرة وذكاءً وقاداً ، وأكرمه سبحانه باستيعاب القرآن وحفظه كله ، وفقه الدين كله ، ودراية بما استوعب من معانيه عن فهم ، وعن سماع ممن نزل عليه القرآن ﷺ.

فكان أبو بكر بحق ـ كما نقل غير واحد من الأئمة ـ أعلمَ الصحابة وأقرأَهم وأفقَهَهم وأبعدَهم غَوْراً في فهم النصوص وتنزيلها على الوقائع والأحداث.

وجَمَع إلى ذلك الفصاحةَ والبيان ، فكان من أفصح وأجلِّ خطباء الصحابة ، كما عُرف بكثرة حفظه للشعر وتمثُّله به ، وكان من أعلم الناس بأنساب العرب ولا سيما قريش ، واشْتَهَر بتعبيره الرؤيا ، وهي خصلة تستوجب شفوف الروح والذهن والحس.

أولاً: أبو بكر أعلم الأمة:

ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس**» ، فقدَّمَ رسول الله ﷺ أبا بكر إماماً للصحابة كلِّهم في الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام العملية.

قال الإمام أبو الحسن الأَشْعري: (وتقديمُه ﷺ له أمرٌ معلومٌ بالضرورة من دين الإسلام ، وتقديمُه له دليلٌ على أنه أعلمُ الصحابة وأقرؤهم؛ لِما ثبت في الخبر المتفق على صحته بين العلماء: أن رسول الله ﷺ قال: «**يَؤُمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا في القراءة سواءً فأعلمُهم بالسُّنَّة ، فإن كانوا في السُّنّة سواءً فأَكْبَرُهم سِنّاً ، فإن كانوا في السنِّ سواءً فأَقْدَمُهم إسلاماً**»[1].

وعلَّق الحافظ ابن كثير على هذا فقال: (وهذا من كلام الأشعري رحمه الله مما ينبغي أن يُكتَب بماءِ الذهب! ثم قد اجتمعت هذه الصفات كلها في الصديق رضي الله عنه وأرضاه)[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٦٧٣)؛ والترمذي (٢٣٥)؛ وأبو داود (٥٨٢ ـ ٥٨٤)؛ والنسائي: ٢/ ٧٦؛ وعبد الرزاق (٣٨٠٨) و(٣٨٠٩)؛ وابن خزيمة (١٥٠٧)؛ وابن حبان (٢١٢٧) ، وغيرهم.

(٢) البداية والنهاية: ٥/ ٢٣٦.

وقال الإمام أبو إسحاق الشِّيرازي في ترجمة أبي بكر: (إمام الأئمة، وخليفة رسول الله ﷺ... قدَّمه رسول الله ﷺ للصلاة بالناس في حياته، وقد قال ﷺ: «**لِيؤُمَّكُم أقرؤكم لكتاب الله عز وجل، فإنْ كنتم في القراءة سواءً فَلْيؤُمَّكم أعلمُكُم بالسُّنَّة...**»، فلو لم يكن أَعْلَمَهم بالسنَّة لمَا قدَّمَه. واجتمعت الأمة بعد رسول الله ﷺ على تقديمه في الخلافة، ولا يُقدَّم في الخلافة إلا إمامٌ مجتهدٌ. وأيضاً فإنه أبَانَ في قتال مانعي الزكاة من قوَّته في الاجتهاد ومعرفتِه بوجوه الاستدلال؛ ما عجز عنه غيره. وأيضاً لم يكن أحدٌ يُفتي بحضرةِ النبي ﷺ غير أبي بكر، ولا يُقْدِمُ على الفُتيا بحضرة رسول الله ﷺ مع عِظَمِ القَدْر وجلالةِ المحلّ إلا الثقةُ بعلمِه والمتحقِّقُ بفضله وفهمه)[1].

ونقل الإمام ابن الجَزَريّ أنه تباحَثَ مع شيخه الإمام ابن كثير في عِلْم الصديق، فقال ابن كثير: (صَحَّ عنه ﷺ أنه قال: «**يَؤُمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله وأكثرُهم قرآناً**»، وتواتر عنه ﷺ أنه قدَّمه للإمامة، ولم يكن ﷺ ليأمرَ بأمرٍ ثم يُخالفه بلا سبب، فلولا أن أبا بكر رضي الله عنه كان متصفاً بما يقدِّمه في الإمامة على سائر الصحابة وهو القراءة لمَا قدَّمَه، وذلك على تقدير: سواء قلنا: المرادُ بالأقرأ الأكثَرُ قراءة كما هو ظاهر اللفظ وذهب إليه أحمد وغيره، أو الأعلمُ كما ذهب إليه الشافعي وغيره).

وأكَّد ابن الجزري أن أبا بكر (أقرأُ الصحابة)، ثم نقل عن الإمام الشافعي قوله: (إنَّ الأفضليَّة في القراءة تستلزمُ الأفضليةَ في العلم،

---

(١) طبقات الفقهاء، ص ١٨ ـ ١٩، باختصار.

وكذلك الأفضلية في العلم؛ إذ كان عندهم الأقرأ هو الأعلم)[1].

وافتتح الذهبي كتابه القيم «تذكرة الحفاظ» بترجمة أبي بكر الصديق، فاعتبره أوَّلَ حفّاظ الإسلام ورأسَ محدِّثي الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين[2].

ونقل السيوطي بعض ما قدَّمناه، ثم قال: (وكان مع ذلك أعلَمَهم بالسُّنَّة، كما رجع إليه الصحابة في غير موضع، يَبرز عليهم بنَقْلِ سُنَن عن النبي ﷺ، يحفظُها هو ويستحضرها عند الحاجة إليها، ليست عندهم، وكيف لا يكون كذلك وقد واظب على صحبة الرسول ﷺ من أول البعثة إلى الوفاة؟ وهو مع ذلك من أذكى عباد الله وأعقلهم)[3].

ثانياً: دلائل سعة علمه ودقة فهمه وشفوف ذهنه:

١ ـ عن ابن عُمر رضي الله عنهما قال: (قال رسول الله ﷺ: «**رأيتُ كأنِّي أُعْطِيتُ عُسّاً مملوءاً لَبَناً، فشربتُ منه حتى تَمَلأتُ، فرأيتُها تجري في عُروقي بين الجلد واللحم، فَفَضَلَتْ منها فَضْلةٌ، فأعطيتُها أبا بكر**»، قالوا: يا رسول الله، هذا علمٌ أعطاكَهُ الله حتى إذا تَمَلأتَ منه، فَضلَتْ فضلةٌ فأعطيتَها أبا بكر؟ فقال ﷺ: «**قد أَصَبْتُم**»)[4].

وقد أورد المحب الطبري في «الرياض النضرة» هذا الحديث في

---

(١) غاية النهاية في طبقات القراء: ١/ ٤٣١.

(٢) تذكرة الحفاظ: ١/ ٢؛ وانظر كتابي: أعلام الحفاظ والمحدثين: ١/ ١٢٥.

(٣) تاريخ الخلفاء، ص ٤٢.

(٤) أخرجه ابن حبان (٦٨٥٤)؛ وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين، إلا أن جعله في مناقب أبي بكر غريب، واتفق الشيخان على إخراجه في مناقب عمر بنحوه عن عبد الله بن عمر.

مناقب أبي بكر ، وقال بإثره : (وقد جاء في الصحيح مثلُ هذا لعمر ، وسيأتي في خصائصه ، ولعل الرؤيا تعددت في ذلك ، وعلى ذلك يُحمل ، فإن الحديثين صحيحان ، وإن كان حديث عمر متفقاً عليه)[1] .

٢ ـ وعن أبي سعيد الخُدْريِّ رضي الله عنه قال : (خطبَ رسول الله ﷺ الناسَ وقال : «**إنَّ الله خَيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختارَ ذلك العبدُ ما عند الله**» . قال : فبكى أبو بكر ، فعَجِبنا لبكائه أن يُخْبِرَ رسول الله ﷺ عن عبدٍ خُيِّرَ ، فكان رسول الله ﷺ هو المُخيَّرَ ، وكان أبو بكر أعلَمَنا)[2] .

٣ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : (لمّا أُخْرِجَ النبيُّ ﷺ من مكة ، قال أبو بكر : أَخْرَجوا نبيَّهم ، لَيَهْلِكُنَّ! فأنزل الله : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج : ٣٩] ، فقال أبو بكر : لقد علمتُ أنه سيكونُ قتالٌ)[3] .

٤ ـ وأرسلَه النبي ﷺ سنة (٩هـ) أميراً على الحج ، فحجَّ بالناس وعلَّمهم مناسِكَهم ، ولم يستعمل غيرَه من الصحابة الكرام لا في الصلاة ولا في الحج ، وإنما يقدِّم النبي ﷺ أعلمَ أصحابه في هذين الركنين العظيمين .

٥ ـ ومن بارعِ الأدلة على سعة علمه وتقدُّمِه على من سواه : موقفُه يوم

---

(١) الرياض النضرة : ١/ ١٥٢ .

(٢) تقدم الحديث بتمامه : ٢٣٣ ـ ٢٣٤ حاشية (١) في هذا الكتاب .

(٣) أخرجه الترمذي (٣١٧١) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٤٢٧٨)؛ وفي الصغرى : ٦/ ٢؛ وأحمد : ١/ ٢١٦؛ وابن حبان (٤٧١٠) ، وغيرهم؛ وحسنه الترمذي؛ وصححه أحمد شاكر والألباني وشعيب الأرنؤوط .

وفاة رسول الله ﷺ؛ فإن الأمة لم تختلِفْ في أمر إلا جاء أبو بكر بفَصْل الخِطاب ، وتلا عليهم الأدلة من كتاب الله تعالى وسُنَّة نبيه ﷺ ، فيُزيل الإشكالَ ، ويَـقطع الاختلاف ، ويتابعه جميع الصحابة وفيهم علماء كبار ومجتهدون عظام وفي مقدمتِهم المُلْهَم عمر ، فبيَّن لهم أن النبي ﷺ قد مات ، وقَطَع النزاع في ذلك .

٦ ـ وقال مخاطباً رسول الله ﷺ وهو مُسجَّى : (والذي نَفْسي بيده ، لا يُذِيقَكَ الله الموتتين أبدا) .

قال الحافظ : (فيه بيانُ رُجْحَان علمِ أبي بكر على عمر فَمَن دونه)[١] .

٧ ـ وبين لهم موضع دفن النبي ﷺ ، واحتج لذلك بحديث : «**ما قَبَضَ الله نبياً إلا في الموضع الذي يُحِبُّ أن يُدْفَنَ فيه**»[٢] .

٨ ـ وبَيَّنَ لهم السنَّةَ في تركةِ النبي ﷺ ، وقال للعباس وفاطمة الزهراء : إن رسول الله ﷺ قال : «**لا نُورَثُ ، ما تركناهُ صدقةٌ**»[٣] .

٩ ـ ومن أبرز الأدلة وأوضحِها على علوِّ كعْبه في العلم : موقفُه الفذ يوم السَّقيفة وخطبتُه الجليلة وبيانُه العالي ، وما احتجَّ به من الأدلة الكثيرة المنيرة التي بهرت الألباب ، حتى قال عمر : (والله ما تركَ كلمةً أعجبتْني في تَزْويري إلا قالَها في بديهتِهِ وأفضلَ ، حتى سكت) .

وفي رواية : (فتكلَّم أبو بكر ، فلم يترك شيئاً أُنزِل في الأنصار ولا ذكره رسول الله ﷺ من شأنهم إلا ذَكَره) .

---

(١) الفتح : ٨/ ٥٩٧ شرح الحديث (٣٦٦٧) .
(٢) انظر ما تقدم : ص ٢٥٦ حاشية (١) في هذا الكتاب .
(٣) سيأتي تفصيل ذلك : ص ٤٧١ ـ ٤٧٥ في هذا الكتاب .

وَبيَّن أن الأئمة من قريش ، وقال مخاطباً الأنصار : (أما بعدُ ، فما ذكرتُم من خير فأنتم أهلُه ، ولن تعرفَ العربُ هذا الأمرَ إلا لهذا الحي من قريش ، وهم أوسط العرب نسباً وداراً)[1] .

فأزالَ الإشكال ، وقطَع النزاع ، وحَسَم الاختلاف ، وخرج الجميع وقد بايعوا له .

١٠ ـ ومن الأدلَّة أيضاً على سعة علمه ودقة فهمه وشفوف ذهنه وبُعد نظره : ما كان من إنفاذه بعثَ أسامة ، حيث توقَّفَ الأصحاب الكرام في ذلك لِما حدث من أمر الردّة ، فأصرَّ أبو بكر على إنفاذ الجيش ، فكان ذلك ، وكان فيه الخير الكثير .

١١ ـ ومنها أيضاً : موقفُه الصلب الشامخ أيام الردَّة .

قال الإمام النَّووي : (استدلَّ أصحابنا على عِظَم علمِه بقوله رضي الله عنه في الحديث الثابت في الصحيحين : أنه قال : واللهِ لأقاتلنَّ مَن فرَّق بين الصلاة والزكاة ، والله لو مَنَعُوني عِقالاً كانوا يؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتُهم على منْعِه) .

وقال في «شرح صحيح مسلم» معلِّقاً على هذا الحديث : (فيه أدلُّ دليلٍ على شجاعة أبي بكر رضي الله عنه ، وتقدُّمِه في الشجاعة والعلم على غيره . . . واستنبط من العلم بدقيقِ نظره ورصانةِ فكره ما لم يُشارِكه في الابتداء به غيره)[2] .

---

(١) الفتح : ٨/ ٥٩٩ شرح الحديث (٣٦٦٨) ، وانظر تفصيل ذلك فيما سيأتي : ص ٤٠٧ ـ ٤١٦ في هذا الكتاب .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات : ٢/ ١٩٠ ؛ شرح صحيح مسلم : ١/ ٢٤٤ .

ومع هذا فقد كان رضي الله عنه على ورع تام في علمه واجتهاده:

أخرج ابن عبد البر عن أبي بكر رضي الله عنه: أنه قال: (أي سماءٍ تُظِلّني، وأيُّ أرضٍ تُقِلُّني، إذا قلتُ في كتاب الله بغيرِ علمٍ)[1].

ثالثاً: القارئ:

ذكر أبو عُبيد القُرَّاءَ من أصحاب النبي ﷺ، فعَدَّ من المهاجرين: الخلفاء الأربعة، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وابن مسعود، وحُذيفة بن اليمان، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبا هريرة، وعبد الله بن السائب، والعبادلة[2].

وقال ابن كثير: (والدليلُ على أن من المهاجرين مَن جَمَعَ ـ أي: حَفِظ ـ القرآنَ: أن الصدِّيق رضي الله عنه قدَّمَه رسول الله ﷺ في مرضه إماماً على المهاجرين والأنصار، مع أنه قال: «**يَؤُمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله**» فلولا أنه كان أقرأَهُم لكتاب الله لما قدَّمَه عليهم، هذا مضمون ما قرَّره الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، وهذا التقرير لا يُدْفَع ولا يُشَكّ فيه)[3].

وترجَم ابنُ الجزري لأبي بكر في كتابه «غاية النهاية في طبقات القراء»، وقرَّرَ أن أبا بكر من حَفَظَة القرآن، وأنه أقرأُ الصحابة، وقال: (وكيف يَسوغ لأحدٍ نفيُ حفظِ القرآن عن أبي بكر رضي الله عنه بغيرِ

---

(١) جامع بيان العلم: ٢/ ٦٤ ـ ٦٥، وبنحوه في تفسير القرطبي: ١٩/ ١٩٣ ـ ١٩٤، تفسير قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾؛ وذكره ابن كثير في مقدمة تفسيره: ١/ ١٣.

(٢) الفتح: ١١/ ٢٦٢ شرح الحديث (٥٠٠٣).

(٣) فضائل القرآن، ص ٤٧.

دليل ولا حجَّة بل بمجرَّد الظنّ ، مع أنه لا يَسوغ لنا ذلك عن آحاد الناس؟!).

وذكر كلاماً طويلاً ، ثم قال: (وأما قولُ القائل: لو كان أبو بكر حَفِظ القرآنَ لنُقِل إلينا ذلك ، وكونُه لم يُنقل دليلٌ على أنه لم يَحفظْه ، وأنه لو كان حَفِظه لقرأَه عليه غيرُه كما قرؤوا على غيرِه ممَّن حَفِظه! فهذا بَيِّنُ الضَّعْفِ ، إذ لا يَلزم من ذلك ما ذُكِر ، وأبو بكر رضي الله عنه لم يكن متصدِّياً لذلك ، ولا طالَتْ أيامه ليؤخَذ عنه)[1].

وقال النَّووي: (وهو من كبار الصحابة الذين حَفِظوا القرآن كلَّه)[2].

وقال الحافظ في شرح حديث قتادة: (سألتُ أنسَ بن مالك رضي الله عنه: مَنْ جَمَعَ القرآنَ على عهد النبي ﷺ؟ قال: أربعةٌ كلُّهم من الأنصار: أُبيُّ بن كَعْب ، ومُعاذ بن جَبَل ، وزيدُ بن ثابتٍ ، وأبو زيد)[3].

قال الحافظ: (والذي يظهر من كثير من الأحاديث أن أبا بكر كان يحفظ القرآن في حياة رسول الله ﷺ؛ فقد تقدَّم في «المبعث» أنه بنى مسجداً بفناء داره ، فكان يقرأ فيه القرآن ، وهو محمول على ما كان نزل منه إذ ذاك ، وهذا مما لا يُرتاب فيه ، مع شدّةِ حرص أبي بكر على تلقي القرآن من النبي ﷺ وفراغِ باله له وهما بمكة ، وكثرةِ ملازمة كل منهما للآخر حتى قالت عائشة كما تقدم في «الهجرة»: إنه ﷺ كان يأتيهم بكرة وعشية. وقد صحح مسلم حديث: «**يؤمُّ القومَ أقرؤهم لكتاب الله**» وتقدم

---

(١) غاية النهاية: ١/ ٤٣٢.
(٢) تهذيب الأسماء واللغات: ٢/ ١٩١.
(٣) البخاري (٥٠٠٣).

أنه ﷺ أمر أبا بكر أن يؤمَّ في مكانه لمّا مرِض؛ فيدلُّ على أنه كان أقرأَهم)[1].

وأَسْنَد الحافظ يعقوب بن سفيان الفَسَوي من طُرق حديثَ: «**يؤمُّ القومَ أقرؤُهم لكتاب الله ، فإن كانوا في القراءة سواءً فأعلَمُهم بالسنّة**» ، وأورده في فضائل أبي بكر الصديق ، بعد سياقه حديثَ مرضِ النبي ﷺ وقوله: «**مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس**»[2].

وهي إشارة من هذا الإمام إلى أن أبا بكر أقرأُ الصحابة وأعلَمُهم بالسنة ، وهذا من دقة فهمه وشفوف ذهنه رحمه الله.

رابعاً: المحدِّث:

عن قَبِيصةَ بن ذُؤَيب: (أنَّ الجَدَّةَ جاءتْ في عهد أبي بكر تَلْتَمِسُ أن تُورَّثَ ، فقال أبو بكر: مَا أجدُ لكِ في كتاب الله شيئاً ، وما علمتُ أن رسول الله ﷺ ذَكَر شيئاً ، وسأسألُ الناسَ العشيَّةَ ، فلما صلَّى الظهرَ ، قامَ في الناس فسألَهم ، قال المُغيرة بن شُعبة: قد سمعتُ رسول الله ﷺ يُعطيها السُّدُسَ ، قال: هل سمع ذلك معك أحدٌ؟ فناداه محمد بن مَسْلَمة فقال: قد سمعتُ رسول الله ﷺ يُعطيها السدس ، فأَنْفَذَ ذلك أبو بكر)[3].

---

(١) الفتح: ١١/٢٦٢.

(٢) المعرفة والتاريخ: ١/٤٤٦ ـ ٤٤٩.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٦٣٠٦) واللفظ له ، وأطرافه في (٦٣٠٥)؛ وأبو داود (٢٨٩٤)؛ والترمذي (٢١٠٠) و(٢١٠١)؛ وابن ماجه (٢٧٢٤)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٠٤٩)؛ وابن حبان (٦٠٣١)؛ والحاكم: ٤/٣٣٨؛ والبغوي (٢٢٢١) ، وغيرهم؛ وقال الترمذي: حديث حسن =

قال الطَّحاوي: (إن أبا بكر لم يكتفِ بشهادة المغيرة عنده بما شهد به مع عدالته عنده، حتى طَلَب منه شهادةَ غيره معه على مثل ذلك؛ طلباً للاحتياط فيما روي عن النبي ﷺ، وإشفاقاً من أن يَدخل فيه ما ليس منه)[1].

وقال الذهبي في صدر ترجمة أبي بكر من «التذكرة»: (كان أوَّلَ من احتاط في قبول الأخبار)، ثم ذكر حديث الجَدّة المتقدم[2].

١ـ روى أبو بكر عن النبي ﷺ.

٢ـ وحدَّث عنه من الصحابة:

١ ـ أنس بن مالك، ٢ـ البَرَاء بن عازِب، ٣ـ بلال بن ربَاح، ٤ـ جابر بن عبد الله، ٥ـ حُذيفة بن أَسِيد الغِفَاريّ، ٦ـ حُذيفة بن اليَمان، ٧ـ حمزة بن عَمْرو الأَسْلَميّ، ٨ـ رافع بن أبي رافع الطائي، ٩ـ رفاعة بن رافع الزُّرَقيُّ، ١٠ـ زيد بن أرْقم، ١١ـ زيد بن ثابت، ١٢ـ زيد بن خالد الجُهَنيّ، ١٣ـ سالم بن عُبيد الأَشْجعي، ١٤ـ سعد بن أبي وقاص، ١٥ـ سَلَمة بن الأكْوَع، ١٦ـ طارق بن أَشْيَم الأَشْجعي، ١٧ـ طارق بن شهاب الأَحْمَسيُّ، ١٨ـ طلحة بن

= صحيح؛ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وقال البغوي: حديث حسن؛ وقال الحافظ في (التلخيص الحبير: ٣/ ٨٢): إسناده صحيح لثقة رجاله، إلا أن صورته مرسل؛ فإن قبيصة لا يصح له سماع من الصديق ولا يمكن شهوده القصة.

(١) شرح مشكل الآثار: ١٥/ ٣١٦.

(٢) تذكرة الحفاظ: ١/ ٢.

عُبيد الله ، ١٩ ـ عائذ بن عَمْرو المُزني ، ٢٠ ـ عبد الله بن بدر بن زيد الجُهني ، ٢١ ـ عبد الله بن أبي حَدْرَد الأَسْلَمي ، ٢٢ ـ عبد الله بن الزبير ، ٢٣ ـ عبد الله بن عباس ، ٢٤ ـ عبد الله بن عُمر ، ٢٥ ـ عبد الله بن عَمْرو ، ٢٦ ـ عبد الله بن مسعود ، ٢٧ ـ عبد الله بن مُغَفَّل المُزَنيُّ ، ٢٨ ـ عبد الرحمن بن أَبْزَى ، ٢٩ ـ ابنه عبد الرحمن بن أبي بكر ، ٣٠ ـ عبد الرحمن بن عوف ، ٣١ ـ عثمان بن عفان ، ٣٢ ـ عُقْبة بن الحارث بن عامر النَّوْفَلي ، ٣٣ ـ عقبة بن عامر الجُهني ، ٣٤ ـ علي بن أبي طالب ، ٣٥ ـ عمر بن الخطاب ، ٣٦ ـ عَمْرو بن حُرَيْث المَخْزومي ، ٣٧ ـ عِمران بن حُصَيْن ، ٣٨ ـ مَعْبَد بن خالد الجُهَني ، ٣٩ ـ مَعْقِل بن سِنان الأشْجعي ، ٤٠ ـ نِيار بن مُكْرَم الأَسْلَمي ، ٤١ ـ أبو أُمامة الباهلي ، ٤٢ ـ أبو بَرْزَة الأَسْلَمي ، ٤٣ ـ أبو سعيد الخُدْري ، ٤٤ ـ أبو الطُّفيل عامر بن واثلة اللَّيْثي ، ٤٥ ـ أبو كَبْشَة الأَنْماري ، ٤٦ ـ أبو موسى الأشعري ، ٤٧ ـ أبو هريرة ، ٤٨ ـ ابنته أسماء بنت أبي بكر ، ٤٩ ـ ابنته عائشة أم المؤمنين.

٣ ـ وروى عنه من التابعين:

١ ـ أَسْلَم مولى عمر بن الخطاب ، ٢ ـ أَوْسَط البَجَليّ ، ٣ ـ جُبَير بن الحُويرث المخزومي ، ٤ ـ جُبير بن نُفَيْر الحضرمي ، ٥ ـ جُنَادة بن أبي أميَّة الأَزْدي ، ٦ ـ حابِس اليَماني الحِمْصِيّ ، ٧ ـ أبو صالح ذكوان السمَّان ، ٨ ـ ربيعة بن عبد الله بن الهُدَيْر ، ٩ ـ سعيد بن المسيِّب ، ١٠ ـ سُويد بن غَفَلَة ، ١١ ـ عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يَغوث ، ١٢ ـ عبد الرحمن بن سعيد بن يَرْبُوع ، ١٣ ـ عبد الرحمن بن عُسَيْلة الصُّنابحي أبو عبد الله ، ١٤ ـ قيس بن أبي حازم ، ١٥ ـ ابنه محمد بن

أبي بكر ، ١٦ ـ مُرَّة بن شَرَاحيل الطَّيِّب ، وخلق سواهم[١].

٤ ـ عدد أحاديثه وسبب قلَّتها:

روت كتب السنَّة لأبي بكر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ (١٤٢) حديثاً ، اتفق البخاري ومسلم منها على ستة ، وانفرد البخاري بأحد عشر ومسلم بحديث.

وحديثُه في دواوين السنة كلِّها.

وسببُ قلَّة رواياته ـ مع تقدُّم صحبته ، وطولِ ملازمته النبيَّ ﷺ ـ أنه تقدَّمتْ وفاتُه قبل انتشار الأحاديث واعتناءِ التابعين بسماعها وتحصيلها وحفظها. وكان الذين في زمانه من الصحابة لا يَحتاج أحدٌ منهم أن يَنقل عنه ما قد شاركه هو في روايته ، فكانوا ينقلون عنه ما ليس عندهم. وكذلك انشغالُه أعظم الشغل بحروب المرتدين من العرب ومانعي الزكاة ، وإرساء قواعد الدولة الإسلامية ، وقيامه بمهام الخلافة الكثيرة ، فلم يتفرغ للجلوس في حلقات العلم ونشره ، وكان على ثقة من أن بين الصحابة مَن يقوم مقامه في فتيا الناس[٢].

خامساً: الفقيه:

●● كان أبو بكر يُفتي بحضرة النبي ﷺ وهو يُقرُّه على ذلك ، ولم

---

(١) جمعت أسماء الرواة عنه من: طبقات ابن سعد ـ مواضع متعددة متفرقة؛ ابن عساكر ، ص٩٣ ـ ٩٤؛ تهذيب الكمال: ١٥/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤؛ تاريخ الخلفاء ، ص ٨٧.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧؛ تهذيب الأسماء واللغات: ٢/ ١٨٢؛ تاريخ الخلفاء ، ص ٤٢؛ كتابي أعلام الحفاظ والمحدثين: ١/ ١٢٥ ـ ١٢٦.

يكن هذا لغيره[١]، ومن ذلك ما تقدم في قصة سَلَب أبي قتادة[٢].

وعن ابن عُمر رضي الله عنهما: (أنه سُئِل: مَن كان يُفتي الناسَ في زمن رسول الله ﷺ؟ فقال: أبو بكر وعمر، ما أعلمُ غيرَهما).

وقال القاسم بن محمد: (كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي يُفْتُون على عهد رسول الله ﷺ)[٣].

وعن محمد بن سيرين قال: (لم يكن أحدٌ بعد النبيِّ ﷺ أَهْيَبَ لما لا يعلم من أبي بكر، ولم يكن أحدٌ بعد أبي بكر أهيبَ لما لا يعلم من عمر! وإن أبا بكر نزلتْ به قضية لم يجدْ لها في كتاب الله أصلاً ولا في السنة أثراً؛ فقال: أجتهدُ رأيي، فإن يكنْ صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمنِّي وأستغفرُ الله)[٤].

وعن ميمون بن مِهْران قال: (كان أبو بكر إذا ورد عليه الخَصْمُ نَظر في كتاب الله، فإنْ وَجد فيه ما يقضي بينهم قضَى به، وإنْ لم يكن في الكتاب، وعَلِم من رسول الله ﷺ في ذلك الأمر سنّةً قضى به، فإن أعْيَاه خَرج فسأل المسلمين، وقال: أتاني كذا وكذا، فهل علمتُم أن رسول الله ﷺ قضَى في ذلك بقضاء؟ فربَّما اجتمع إليه النفر كلُّهم يَذكر من رسول الله ﷺ فيه قضاءً، فيقول أبو بكر: الحمدُ لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبيِّنا، فإنْ أَعياه أن يجدَ فيه من سنة رسول الله ﷺ، جمعَ

---

(١) منهاج السنة النبوية: ٤/ ٦١٢.

(٢) انظر: ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ في هذا الكتاب.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٧٧ ـ ١٧٨؛ جامع بيان العلم: ٢/ ٦٣؛ ابن عساكر، ص ٤٣٩.

رؤوسَ الناس وخيارهم ، فاستشارهم ، فإذا اجتمع رأيُهم على أمر قضَى به)[1] .

وأخرج أبو القاسم البَغَويُّ مثلَه ، وزاد في آخره : (وكان عمر رضي الله عنه يفعل ذلك ، فإن أَعياهُ أن يجدَ في القرآن والسنّة ، نَظر هل كان لأبي بكر فيه قضاء؟ فإن وجد أبا بكر قضَى فيه بقضاء ، قضَى به ، وإلا دعَا رؤوسَ المسلمين فإذا اجتمعوا على أمر قضى به)[2] .

● **نماذج من فقهه:**

ـ قال القاسم بن محمد : (كانت عند عمر بن الخطاب امرأةٌ من الأنصار ، فولدَتْ له عاصمَ بن عمر ، ثم إنه فارَقَها ، فجاءَ عمر قُباءً ، فوجدَ ابنه عاصِماً يلعبُ بفِنَاءِ المسجد ، فأخذ بعَضُدِه فوضعه بين يديه على الدابة ، فأدركَتْه جدَّةُ الغلام ، فنازَعَتْه إياه ، حتى أتيا أبا بكر الصديق ، فقال عمر : ابني ، وقالت المرأة : ابني ، فقال أبو بكر : خَلِّ بينَها وبينَه . قال : فما راجَعَه عمرُ الكلامَ)[3] .

ـ وعن عبد الله بن أبي مُلَيْكة ، عن جدِّه زُهير بن عبد الله بن جُدْعَان الصحابي : (أنَّ رجلاً عَضَّ يدَ رجلٍ فأَنْدَرَ ثَنِيَّتَه ، فأَهْدَرَها أبو بكر رضي الله عنه)[4] .

أَنْدَر ثَنِيَّته : أي أسقَطَها . **فأَهْدَرها** : أي لم يجعل له دِيةً ولا قِصاصاً .

---

(1) أخرجه الدارمي (١٦١)؛ والبيهقي في السنن : ١٠/ ١١٤؛ وابن عساكر ، ص ٤٤٠ ـ ٤٤١ .

(2) تاريخ الخلفاء ، ص ٤٢ ؛ ابن عساكر ، ص ٤٤١ .

(3) موطأ مالك : ٢/ ٧٦٧ ـ ٧٦٨ .

(4) أخرجه البخاري (٢٢٦٦) واللفظ له؛ وأبو داود (٤٥٨٤) .

ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أَشهدُ على أبي بكر أنه قال: السمكةُ الطافيةُ حلالٌ لمن أراد أكْلَها)[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت أبا بكر يقول: (إنَّ الله تعالى ذَبَحَ لكم ما في البحر، فكُلُوه كلَّه، فإنه ذَكيٌّ)[٢].

ـ وقال البخاري: (قال أبو بكر: الجَدُّ أَبٌ. ولم يُذكَر أن أحداً خالفَ أبا بكر في زمانه وأصحابُ النبي ﷺ متوافرون)[٣].

أي: إن الجَدَّ يرِث ما كان يرث الأب عند عدم الأب، والإجماع السكوتي حاصل من الصحابة.

ـ عن أبي اليَسَر كعب بن عَمْرو الأنصاري البدريِّ قال: (أَتَتْه امرأةٌ ـ وزوجُها قد بَعَثَه النبي ﷺ في بَعْثٍ ـ فقالت له: بِعْني بدرهمٍ تمراً، قال: فقلتُ لها ـ وأعجبَتْني ـ: إن في البيت تمراً أطيبَ من هذا، فانطلَقَ بها، فغَمَزها وقبَّلَها، ففَزِع! ثم خرج، فلقي أبا بكر، فقال له: هَلَكتُ! قال: ما شأنُكَ؟ فقصَّ عليه أمره، وقال له: هل لي من توبةٍ؟ قال: نعم، تُبْ ولا تَعُدْ، ولا تُخبرنَّ أحداً. ثم انطلَقَ حتى أتى النبيَّ ﷺ، فقصَّ عليه، فقال: «**خَلَفْتَ رجلاً من المسلمين غازياً في**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة: ٤/ ٦٢١؛ والدارقطني (٤٧٢١)؛ وعلقه البخاري بصيغة الجزم ـ قبل الحديث (٥٤٩٣)؛ وانظر: الفتح: ١٢/ ٤١٧.

(٢) أخرجه الدارقطني (٤٧٢٣)، وانظر: (٤٧١٩، ٤٧٢٤).

(٣) علقه البخاري: كتاب الفرائض، باب ميراث الجد مع الأب والإخوة؛ ووصله الدارمي (٢٩٠٣ ـ ٢٩١٠) عن أبي سعيد الخدري وأبي موسى الأشعري وعثمان وابن عباس كلهم عن أبي بكر، بأسانيد صحيحة كما قال الحافظ في الفتح: ١٥/ ٢٤٥.

سبيل الله بهذا؟!» وظننتُ أني من أهل النار، وأن الله لا يغفر لي أبداً! وأَطْرَقَ عنّي نبيُّ الله ﷺ، حتى نزلَتْ عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، فأرسَلَ إليَّ نبيُّ الله ﷺ، فقرأهنَّ عليَّ)(١).

فالصديق يفتي في عهد النبي ﷺ والقرآنُ ينزل، ويَنصح هذا الصحابيَّ أن يستر على نفسه، لكن لظى الخطيئة يحمله على الإسراع إلى رسول الله ﷺ لعله يجد ما يمحو زلّـته، فيكون ذلك، وينزل التشريع لعامة المسلمين، ثم إن هذا الصحابي الجليل ـ وهو من أهل بدر ـ يحدث بقصته لتكون عبرة للناس، فرضي الله عن صحابة نبينا ما أعظمهم وما أعلى نفوسهم!.

ـ وعن قيس بن أبي حازم قال: (جاء رجلٌ إلى أبي بكر فقال: إنَّ أَبي يريد أن يأخذَ مالي كلَّه يجتاحُه؟! فقال لأبيه: إنما لك من مالِه ما يكفيك، فقال: يا خليفة رسول الله، أليسَ قد قال رسول الله ﷺ: «أنتَ ومالُكَ لأبيكَ؟!» فقال: نعم، وإنما يعني بذلك النفقة)(٢).

سادساً: قطوف من خطبه وكتبه:

كان أبو بكر من أفصحِ الناس وأخطَبِهم، ويحدِّث عمر بن الخطاب عن ذلك في (حديث السَّقيفة) فيقول: (ثم تكلَّمَ أبو بكر فتكلَّمَ أَبْلَغَ الناسِ)، وفي حديث آخر: (أَردتُ أن أتكلَّم، وكنتُ قد زَوَّرْتُ مقالةً

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٧٢٨٦) و(١١١٨٤) واللفظ له؛ والترمذي (٣١١٥) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) تاريخ الخلفاء، ص ٩٦؛ وانظر الحديث المرفوع عند ابن حبان (٤١٠).

أعجبتْني أريدُ أن أقدِّمَها بين يَدَي أبي بكر . . . فتكلَّم أبو بكر ، فكان هو أحلمَ منِّي وأوقَر ، واللهِ ما ترك من كلمة أعجبتْني في تزويري إلا قال في بديهته مثلَها أو أفضلَ منها ، حتى سكت)[1] .

وقال الزبير بن بكَّار: سمعت بعضَ أهل العلم يقول: (خطباءُ أصحابِ رسول الله ﷺ: أبو بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب)[2] .

ـ عن عروة بن الزبير قال: (لمَّا وُلِّي أبو بكر خَطَب الناسَ فحمدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال: أمَّا بعدُ ، أيها الناس قد وُلِّيتُ أمرَكم ولستُ بخيرِكم ، ولكنْ نزلَ القرآن ، وسَنَّ النبيُّ ﷺ السُّنَن ، فعَلَّمَنَا فَعَلِمْنا ، اعْلَمُوا أن أكْيَسَ الكَيْس التقوى ، وأنَّ أحمقَ الحُمْقِ الفجور ، وأنَّ أقواكم عندي الضعيفُ حتى آخذَ له بحقِّه ، وأنَّ أضعَفَكم عندي القويُّ حتى آخذَ منه الحق. أيها الناس ، إنما أنا متَّبعٌ ولستُ بمبتدعٍ ، فإنْ أحسنتُ فأَعِينُوني ، وإنْ زِغْتُ فقوِّموني)[3] .

ـ وعن عبد الله بن عُكَيْم قال: (خطبنا أبو بكر رضي الله تعالى عنه فقال: أما بعد ، فإني أوصيكم بتقوى الله ، وأن تُثنوا عليه بما هو له أهل ، وأن تخلِطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة ، فإن الله تعالى أثنى على زكريا وعلى أهل بيته ، فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ثم اعلموا عبادَ الله أن الله تعالى قد ارتهن بحقه أنفسَكم ، وأخذ على

---

(١) البخاري (٣٦٦٨) و(٦٨٣٠). زَوَّرْتُ: أي هيَّأتُ وحسَّنْتُ.

(٢) تاريخ ابن عساكر ، ص ٤٤٨ ؛ تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣ ، ٦٠ .

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٨٢ ـ ١٨٣ ؛ ابن عساكر ، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧ .

ذلك مواثيقكم ، واشترى منكم القليل الفاني بالكثير الباقي ، وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه ، ولا يُطْفأ نوره ، فصدِّقوا قوله ، وانتصحوا كتابه ، واستبصروا فيه ليوم الظلمة ، فإنما خَلَقكم للعبادة ، ووكَّل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون. ثم اعلموا عباد الله أنكم تغدون وتروحون في أجل قد غُيِّب عنكم علمه ، فإن استطعتم أن تنقضي الآجال وأنتم في عمل الله فافعلوا ، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله. فسابِقوا في مُهَل آجالكم قبل أن تنقضي آجالكم فيردّكم إلى أسوأ أعمالكم ، فإن أقواماً جعلوا آجالهم لغيرهم ، ونسُوا أنفسهم ، فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم ، الوَحَا الوَحَا ، النجاء النجاء ، إنَّ وراءكم طالباً حثيثاً ، مرُّه سريع)[1].

ـ ومن خطبه أيضاً ، أنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (إن الله عز وجل لا يقبل من الأعمال إلا ما أُريد به وجهه؛ فأريدوا الله بأعمالكم ، واعلموا أنَّ ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعةٌ أتيتموها ، وحظ ظفرتم به ، وضرائبُ أدَّيتموها ، وسلفٌ قدمتموه من أيام فانية لأخرى باقية ، لحين فقركم وحاجتكم.

اعتبروا عبادَ الله بمن مات منكم ، وتفكَّروا فيمن كان قبلكم ، أين كانوا أمس ، وأين هم اليوم؟ أين الجبَّارون؟ وأين الذين كان لهم ذِكْر القتال والغلبة في مواطن الحروب؟ قد تضعضع بهم الدهر ، وصاروا رميماً ، قد تُركت عليهم القالات: الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات.

---

(١) الحلية: ١/ ٣٥؛ ابن عساكر ، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩؛ حياة الصحابة: ٣/ ٤٣٠.
الوحا الوحا: أي السرعة السرعة.

وأين الملوك الذين أثاروا الأرض وعَمَروها؟ قد بعدوا ونُسي ذِكْرهم ، وصاروا كلا شيء ، ألا إن الله قد أبقى عليهم التبعات ، وقطع عنهم الشهوات ومضَوا والأعمال أعمالهم ، والدنيا دنيا غيرهم ، وبقينا خَلَفاً بعدهم ، فإن نحن اعتبرنا بهم نجونا ، وإن اغتررنا كنا مثلهم.

أين الوُضَّاء الحسنةُ وجوهُهم ، المعجَبون بشبابهم؟ صاروا تراباً ، وصار ما فرَّطوا فيه حسرة عليهم.

أين الذين بنَوا المدائن وحصَّنوها بالحوائط ، وجعلوا فيها الأعاجيب؟ قد تركوها لمن خَلَفهم ، فتلك مساكنهم خاوية ، وهم في ظلمات القبور ، هل تُحِسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم رِكْزاً؟.

أين من تعرفون من أبنائكم وإخوانكم؟ قد انتهت بهم آجالهم ، فوردوا على ما قدَّموا فحلُّوا عليه ، وأقاموا للشَّقْوة والسعادة فيما بعد الموت.

ألا إن الله ـ لا شريك له ـ ليس بينه وبين أحد من خلقه سبب يعطيه به خيراً ، ولا يصرف عنه به سوءاً ، إلا بطاعته واتِّباع أمره. واعلموا أنكم عبيدٌ مَدِينُونَ ، وأن ما عنده لا يُدرك إلاَّ بطاعته ، أما إنه لا خير بخير بعده النار ، ولا شر بشر بعده الجنة. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم)[1].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥؛ الحلية: ١/ ٣٥ـ٣٦؛ حياة الصحابة: ٣/ ٤٣٢. **تضعضع بهم الدهر**: أي أذلهم. **الوضاء**: جمع الوضيء ، وهو الحسن الوجه. وستأتي نماذج أخرى من خطبه في استخلافه ، وبعث أسامة ، وحروب الردة ، والفتوحات.

سابعاً: شذرات من كلامه:

حسبك أن تعلم معدن القول من نفسه وفكره حين تسمع كلماته:

ـ كقوله في قبول الخلافة: (والله ما كنتُ حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قط، ولا كنتُ فيها راغباً، ولا سألتُها الله في سرٍّ ولا علانية، ولكني أشفقتُ من الفتنة، وما لي في الإمارة من راحة، ولكني قُلِّدتُ أمراً عظيماً ما لي به طاقةٌ ولا يدٌ إلا بتقوية الله عز وجل)[1].

ـ وقوله: (إنَّ أكْيَسَ الكَيْس التقوى، وأحمقَ الحمقِ الفجورُ، ألا وإنَّ الصدقَ عندي الأمانةُ، والكذبَ الخيانةُ)[2].

ـ وقوله: (الصلاة على النبيِّ ﷺ أَمْحَقُ للخطايا من الماء للنار، والسلام على النبي ﷺ أفضلُ من عِتْق الرقاب، وحبُّ رسول الله ﷺ أفضلُ من ضَرْب السيف في سبيل الله عز وجل)[3].

ـ وكان إذا عزَّى رجلاً قال: (ليس مع العزاء مُصيبةٌ، ولا مع الجَزَع فائدة، الموت أهونُ ما قبله، وأشدُّ ما بعده، اذكروا فَقْدَ رسول الله ﷺ تصغُرْ مصيبتُكم، وأعظمَ الله أجرَكم)[4].

ـ وقال يمتدح خالد بن الوليد: (يا معشرَ قريش إنَّ أسَدَكم قد عَدَا على الأَسَد فغَلَبه على خَراذِيله، عَجزتِ النساء أن يلدنَ مثلَ خالد بن الوليد)[5].

---

(١) المستدرك: ٣/ ٦٦؛ السنن الكبرى، للبيهقي: ٨/ ١٥٢؛ حياة الصحابة: ٢/ ٢٠.

(٢) ابن عساكر، ص ٤٠٩.

(٣) حياة الصحابة: ٣/ ٣١٥.

(٤) ابن عساكر، ص ٤٥٠.

(٥) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٥٩؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٤٧. **أسدكم**: يعني خالداً، =

ـ وقال: احرِصْ على الموت تُوهَب لك الحياة.

ثلاث من كنَّ فيه كنَّ عليه: البَغي، والنُّكث، والمَكْر.

كثيرُ القول يُنسي بعضُه بعضاً، وإنما لك ما وُعِي عنك.

الحب والبغض يُتوارَثان[1].

ثامناً: حفظه الشعر وتمثله به:

الذي عليه الثقات أن الصديق لم ينظم الشعر، لكنه تتبع شواهد البيان في كلام البلغاء من الخطباء والشعراء، فكان يروي الشعر ويحفظه، ويراجع النبي ﷺ في الأبيات التي يبدل مواضع كلماتها ليخرجها عن وزنها، وكان ﷺ أحياناً يسأله عن قول حسان أو غيره في المناسبات، وقد قبست عائشة من أبيها ذلك القبس من الشعر والخطب، فلقد كانت مشهورة بذلك[2].

عندما دخل المسلمون مكة فاتحين، تبسَّم النبي ﷺ إلى أبي بكر وقال: «**يا أبا بكر، كيف قال حسان بن ثابت؟**» فأنشده أبو بكر:

عـدِمْنَـا خيلَنَـا إنْ لـم تَـرَوْهَـا ... تُثِيـرُ النَّقْـعَ مـوعـدُهـا كَـدَاءُ

يُنَـازِعْـنَ الأعنَّـة مُصغيـاتٍ ... علـى أكتـافِهـا الأَسَـلُ الظِّمـاءُ

تظـلُّ جيـادُنـا متمطِّـراتٍ ... يُلطِّمُهـنَّ بـالخُمُـرِ النِّسـاءُ[3]

= الأسد: الفرس، والعرب تطلق على فارس اسم الأسد، خراذيله: هي قطع اللحم.

(١) أبو بكر الصديق، للطنطاوي، ص ٣٠٢.

(٢) عبقرية الصديق، ص ١٢٢.

(٣) انظر الخبر بتمامه مع تخريجه: ص ٦٧ ـ ٦٨ حاشية (١).

وقال يمتدح طلحةَ بن عبيد الله وبطولته في غزوة أحد:

حمى نبيَّ الهدى والخيلُ تتبعُه ... حتى إذا ما لَقَوا حامَى عن الدِّينِ

صبراً على الطعن إذ ولَّتْ حُماتُهم ... والناسُ من بين مهديٍّ ومفتونِ

يا طلحةُ بن عبيد الله قد وَجَبَتْ ... لك الجِنان وزُوِّجْتَ المَهَا العِينِ[1]

وقال يرثي النبي ﷺ:

لمّـــا رأيـــتُ نبيَّـــا متجـــدِّلاً ... ضـاقَـتْ علـيَّ بعَـرْضِهـنَّ الـدورُ

وارتعـتُ روعـةَ مستهـام والـهٍ ... والعظـمُ منِّـي واهِـنٌ مكسـورُ

أَعَتِيقُ وَيْحَكَ! إنَّ حِبَّكَ قَدْ ثَوَى ... وبَقِيـتَ منفـرداً وأنـتَ حسيـرُ

يا ليتَني من قبلِ مَهْلِك صاحبي ... غُيِّبْتُ في جَدَثٍ عليَّ صخورُ![2]

وعن ثابت البُنَاني قال: كان أبو بكر يتمثل بهذا البيت:

لا تـزالُ تَنْعَـى حبيبـاً حتـى تكـونَـهُ ... يرجو الفتى الرجا يموت دونه[3]

تاسعاً: علمه بالأنساب:

عن عائشة رضي الله عنها: (أَنَّ حسانَ قال للنبيِّ ﷺ: والذي بَعَثَكَ بالحقِّ لأَفْرِيَنَّهُم بلساني فَرْيَ الأَدِيم! فقال رسول الله ﷺ: «**لا تَعْجَلْ، فإنَّ أبا بكر أعلمُ قريشٍ بأنسابِهَا، وإنَّ لي فيهم نَسَباً، حتى يُلَخِّصَ لكَ نَسَبي**». فأتاه حسانُ، ثم رجَع فقال: يا رسولَ الله! قد لَخَّصَ لي نَسَبَك، والذي بَعَثَكَ بالحقِّ، لأَسُلَّنَّك منهم كما تُسَلُّ الشَّعْرَةُ من العَجينِ!)[4].

---

(١) حياة الصحابة: ١/ ٥٤٧.

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٢٠؛ وانظر ما تقدم: ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ في هذا الكتاب.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٩٨؛ ابن عساكر، ص ٥٥٠.

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٩٠). **لأفرينَّهم فري الأديم**: أي لأمزقنَّ أعراضَهم تمزيق الجِلد.

فهَجَاهم حسان بن ثابت بقصيدةٍ من روائعه ، ويُذكر أنه لمَّا بَلَغ أبا سفيانَ بن الحارث قصيدةُ حسان هذه ، قال : (هذا شِعرٌ لم يَغِبْ عنه ابنُ أبي قحافة)[1] !.

وقد أفاد أبو بكر من هذا العلم في الدعوة إلى الله في الأيام الأولى من دعوة النبي ﷺ الناسَ إلى الإسلام ، حيث كان معه وهو يعرِّفه على قبائل العرب وبطونهم وموازينهم وأهميتهم.

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : (لمَّا أَمر الله رسولَه ﷺ أن يَعرِض نفسَه على قبائل العرب ، خرج وأنا معه وأبو بكرٍ إلى مِنًى ، حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدَّم أبو بكر فسلَّم ، وكان أبو بكر مقدَّماً في كل خير ، وكان رجلاً نسَّابة ، فقال : ممن القوم؟ قالوا : من ربيعة ، قال : وأيُّ ربيعة أنتم أَمِن هامِها أم من لَهازِمها؟[2] قالوا : بل من هامها العظمى! قال أبو بكر : فمن أي هامتها العظمى؟ فقالوا : من ذُهْل الأكبر. قال لهم أبو بكر : منكم عوف بن مُحلِّم الذي يُقال فيه : لا حُرّ بوادي عوف؟[3] قالوا : لا ، قال : فمنكم بِسْطام بن قيس أبو اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا : لا ، قال : فمنكم الحَوْفَزان بن شريك قاتل الملوك وسالبها أنفسَها؟ قالوا : لا ، قال : فمنكم جَسَّاس[4] بن مرة بن ذُهْل حامي الذِّمار ومانعُ الجار؟ قالوا : لا ، قال : فمنكم المُزدلف الحر

---

(١) تكملة فتح الملهم : ٥/ ١٢٧.

(٢) أي : أمن أشرافها أم من أوساطها؟.

(٣) أي : لا سيد فيه يناوئه.

(٤) هو الذي قتل كليب وائل فكان سبباً لحرب طاحنة بين بكر وتغلب دامت (٤٠ سنة) قتل جساس في آخرها!.

صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا ، قال: فأنتم أخوال الملوك من كِنْدة؟ قالوا: لا ، قال: فأنتم أصهارُ الملوك من لَخْم؟ قالوا: لا ، قال لهم أبو بكر: فَلَسْتُم بذُهْل الأكبر ، بل أنتم ذهل الأصغر! . . .) فذكر كلاماً طويلاً وفيه:

(ثم انتهينا إلى مجلس عليه السكينة والوَقار ، وإذا مشايخُ لهم أقدار وهيئات ، فتقدَّم أبو بكر فسلَّم ، فقال لهم: ممَّن القوم؟ قالوا: من بني شَيْبان بن ثَعْلبة ، فالتفتَ إلى رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي ، ليس بعد هؤلاء من عزٍّ في قومهم. . .)[1].

عاشراً: تعبيره الرؤيا ونماذج من ذلك:

عن أبي رَزِين العُقَيْلي رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**الرُّؤيا جزءٌ من سبعين جزءاً من النُّبوَّة ، والرُّؤيا مُعَلَّقةٌ برجْلِ طيرٍ ما لم يُحدِّثْ بها صاحبُها ، فإذا حَدَّثَ بها وَقَعَتْ ، فلا تُحَدِّثْ بها إلا عالماً أو ناصِحاً أو حَبيباً**»[2].

ومعنى «**على رِجْل طائر**»: أي إنها على رِجْلِ قَدَرٍ جارٍ ، وقضاءٍ ماضٍ من خيرٍ أو شرٍّ ، وإنَّ ذلك هو الذي قَسَمه الله لصاحبِها ، من قولهم:

---

(١) تقدم تخريج الخبر: ص ١٠٣ حاشية (١) في هذا الكتاب ، وذكرت هناك حوار الصديق مع بني شيبان، وانظر: أبو بكر الصديق، للطنطاوي، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٠٤٩) و(٦٠٥٠) و(٦٠٥٥) واللفظ له؛ وأبو داود (٥٠٢٠)؛ والترمذي: (٢٢٧٨) و(٢٢٧٩)؛ وابن ماجه (٣٩١٤)؛ وأحمد: ٤/ ١٠؛ والحاكم: ٤/ ٣٩٠؛ والبغوي (٣٢٨١) ، وغيرهم ، وقال الترمذي: حسن صحيح؛ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي؛ وحسنه البغوي؛ وحسنه الحافظ في الفتح: ١٦/ ٢٦٢ شرح الحديث (٧٠٤٦).

اقتَسَموا داراً فطارَ سَهْمُ فلان في ناحيتها: أي وَقَع سهمُه وخَرج ، وكل حركةٍ من كلمة أو شيء يَجْري لك فهو طائر.

والمرادُ: أن الرؤيا هي التي يُعبِّرها المُعَبِّر الأول ، فكأنَّها كانت على رِجْل طائر فسَقَطتْ ووقَعت حيث عُبِّرت ، كما يَسْقط الذي يكون على رِجْل الطائر بأدْنى حركةٍ[1].

قال ابن سيرين: كان أبو بكر أَعْبَر هذه الأمة بعد النبي ﷺ[2].

●● وقد عَبَر الصديق الرؤيا بين يدي رسول الله ﷺ ، فمن ذلك:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أنَّ رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله ، إني أرى الليلةَ في المنام ظُلَّةً تَنْطِفُ السَّمْنَ والعَسَل ، فأرى الناسَ يتكفَّفُونَ منها بأيديهم ، فالمُسْتَكْثِرُ والمستقلُّ ، وأرى سَبَباً واصلاً من السماء إلى الأرض ، فأَراك أخذتَ به فعَلَوْتَ ، ثم أخذ به رجلٌ من بعدِك فَعَلا ، ثم أَخذ به رجلٌ آخَر فعَلاَ ، ثم أَخذ به رجلٌ آخَر فانقطَعَ به ، ثم وُصِلَ له فَعَلا.

قال أبو بكر: يا رسول الله! بأبي أنتَ ، والله لَتَدَعَنِّي فَلأَعْبُرَنَّها ، قال رسول الله ﷺ: «اعْبُرْهَا». قال أبو بكر: أمَّا الظُّلَّةُ فظُلَّةُ الإسلام ، وأمَّا الذي يَنْطِفُ من السَّمْنِ والعَسَل فالقرآنُ حلاوتُه ولِينُهُ ، وأمَّا ما يتكفَّفُ الناسُ من ذلك فالمُسْتَكْثِر من القرآن والمُسْتَقِلُّ ، وأما السببُ الواصلُ من السماء إلى الأرض فالحقُّ الذي أنتَ عليه ، تأخذُ به فيُعْلِيكَ الله به ، ثم يأخذُ به رجلٌ من بعدِك فيعلُو به ، ثم يأخذُ به رجل آخر فيَعْلُو به ، ثم

(١) النهاية في غريب الحديث: ٢/ ٢٠٤؛ جامع الأصول: ٢/ ٥٢٣.
(٢) ابن عساكر ، ص ٤٤١.

يأخذ به رجل آخرُ فينقطعُ به ثم يُوصَلُ له فيَعْلُو به.. فأَخْبِرْني يا رسولَ الله! بأبي أنتَ، أصبتُ أم أخطأتُ؟ قال رسول الله ﷺ: «**أصبتَ بعضاً وأخطأتَ بعضاً**»، قال: فو الله يا رسول الله، لَتُحدِّثنِّي ما الذي أخطأتُ؟ قال: «**لا تُقْسِمْ**»)[1].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ قال: «**رأيتُ كأني أُوتيتُ بكُتْلَة تمر فَعَجَمْتُها في فمي فوجدتُ فيها نواة آذتْني فلَـفَظْتُها، ثم أخذتُ أخرى فعجمتُها فوجدتُ فيها نواة فلفظتُها، ثم أخذت أخرى فعجمتُها فوجدتُ فيها نواة فلفظتُها**» فقال أبو بكر: دَعْني فلأَعْبُرها، قال: قال: «**اعْبُرْهَا**» قال: هو جيشُك الذي بعثتَ يَسْلَمَ ويغنَمُ، فيلقَوْنَ رجلاً فينشدُهم ذمَّتَك فيَدَعُونه، ثم يلقون رجلاً فينشدهم ذمتك فيدعونه، ثم يلقون رجلاً فينشدهم ذمتك فيدعونه، قال: «**كذلك قال المَلَك**»)[2].

وعن عَمْرو بن شُرَحْبيل رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: «**رأيتُني أُردفت غَنَمٌ سودٌ، ثم أُردفتها غنمٌ بيضٌ حتى ما تُرى السود فيها**»، فقال أبو بكر: يا رسول الله! أما الغَنَم السودُ فالعرب يُسْلِمون ويكثرون، والغنمُ البيضُ الأعاجمُ يُسْلمون حتى لا يُرى العربُ فيهم من

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٠٠) و(٧٠٤٦)؛ ومسلم (٢٢٦٩) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٧٥٩٣)؛ وأبو داود (٤٦٣٢)؛ وأحمد: ١/٢٣٦؛ وابن حبان (١١١)، وغيرهم. **ظلة**: سحابة. **تنطف**: تقطر قليلاً قليلاً. **يتكففون**: يأخذون بأكفِّهم. **سبباً**: السبب الحبل. **واصلاً**: موصولاً.

(٢) أخرجه أحمد: ٣/٣٩٩؛ وذكره الهيثمي في المجمع: ٧/١٨٠ وقال: فيه مجالد بن سعيد وهو ثقة وفيه كلام.

كثرتهم ، فقال رسول الله ﷺ: «**كذلك عَبَرها المَلَك سَحَراً**»)[1].

●● عن عائشة رضي الله عنها: أنها قالت: (رأيتُ كأنَّ ثلاثةَ أقمارٍ سقطْنَ في حُجْرتي ، فقال أبو بكر: إنْ صدقَتْ رؤياكِ دُفِن في بيتك خيرُ أهل الأرض ثلاثة. فلما مات النبي ﷺ قال لها أبو بكر: هذا خيرُ أقمارِك يا عائشة! ودُفن في بيتها أبو بكر وعمر)[2].

ويحدِّث خالد بن الوليد رضي الله عنه عن قصة إسلامه فيقول: (وأَرى في النوم كأنِّي في بلاد ضيِّقة مجدِبة ، فخرجتُ في بلاد خضراء واسعة ، فقلتُ: إن هذه لرؤيا! فلما أن قدِمتُ المدينة ، قلت: لأذكرنَّها لأبي بكر ، فقال: مَخرجُك الذي هداك الله للإسلام ، والضيقُ الذي كنتَ فيه من الشرك)[3].

وعن أبي قِلَابة: (أن رجلاً قال لأبي بكر الصديق: رأيتُ في المنام كأنِّي أبولُ دماً! قال: أنتَ رجلٌ تأتي امرأتك وهي حائِض ، فاستغفرِ الله ولا تَعُدْ)[4].

* * *

---

(١) تاريخ الخلفاء ، ص ١٠٥.

(٢) أخرجه مالك: ١/ ٢٣٢؛ وابن سعد: ٢/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤؛ وذكره الهيثمي في المجمع: ٧/ ١٨٥ ، ٩/ ٣٨ وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، ورجال الكبير رجال الصحيح.

(٣) البداية والنهاية: ٤/ ٢٣٩؛ حياة الصحابة: ١/ ١٦١.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١٢٧٠)؛ والدارمي (١١٠٢).

الفصل الثالث

خصائصه وأولياته وفضائله ومكانته

أولاً: خصائصه:

من تأمَّل سيرةَ أبي بكر الصديق رضي الله عنه مع النبي ﷺ ومواقفه طوال أيام الدعوة الإسلامية، وأمعَنَ النظر في الصحاح والسنن والمسانيد، وأخلَصَ لله قلبه، وأنصفَ في البحث ـ وَجد لأبي بكر من الفضائل والمناقب التي جاءت بالأسانيد الصحيحة الثابتة ما لا يوجد لغيره من الصحابة رضي الله عنهم جميعاً، وكثير منها خصائص لا يُشاركه فيها أحد[1].

ومن هذه الخصائص:

١ ـ هو أول الرجال الأحرار إسلاماً:

كان رضي الله عنه أولَ الرجال الأحرار إسلاماً، كما قدّمناه بدلائله، ومنه قوله على ملأ من الصحابة: (أَلَسْتُ أولَ من أسلمَ؟ ألستُ صاحبَ كذا؟ ألستُ صاحبَ كذا؟)[2].

---

(١) انظر: منهاج السنة: ٤/ ٦١٦ ـ ٦٢٢؛ الفتح: ٨/ ٥٦٤ ـ ٥٧٣ شرح الأحاديث (٣٦٥٢ ـ ٣٦٥٤)، و٩/ ١٢١ ـ ١٢٢ شرح الحديث (٣٩٠٥). وأشرت هنا إلى تخريج الحديث من مصدر واحد، وستأتي بتمامها في (مناقبه) و(استخلافه).

(٢) انظر: ص ٩٦ حاشية (٣) في هذا الكتاب.

٢ ـ دفاعه عن رسول الله ﷺ:

دفاعه عن رسول الله ﷺ عندما أرادت قريش قتْلَه ، وحاول عُقبة بن أبي مُعَيْط خنْقَه! قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (فو الله ما دَنَا منا أحدٌ إلا أبا بكر ، يضرب هذا ، ويدفع هذا ، ويقول: ويلكم! ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ ﴾ [غافر: ٢٨])[١] .

٣ ـ بيتُه كله بيت إيمان وإسلام:

وجميع أفراد بيته خدموا الدعوة في مراحلها المختلفة ، فأسلم أبوه وأمه وأبناؤه وبناته ، وهو وأبوه وابنته أسماء وابنها عبد الله سِبْطه: أربعة صحابيون متناسِلون ، وليس هذا لغيره.

٤ ـ اختصاصه بالصحبة الدائمة التامة ، والنص عليها في القرآن الكريم:

فكان النبي ﷺ في أول الأمر يذهبُ إلى أبي بكر طرفَي النهار ، والإسلام إذ ذاك ضعيف ، والأعداء كثيرة ، وهذا غاية الفضيلة والاختصاص في الصحبة.

واختصاصه في الصحبة الإيمانية بما لم يشركه مخلوق ، لا في قَدْرها ولا في صفتها ولا في نَفْعها ، فإنه لو أُحْصِي الزمان الذي كان يجتمع فيه أبو بكر بالنبي ﷺ ، والزمان الذي كان يجتمع به فيه عثمان أو علي أو غيرهما من الصحابة؛ لَوُجِد ما يختص به أبو بكر أضعافَ ما اختصَّ به واحد منهم ، لا أقول ضِعْفَه!.

---

(١) الفتح: ٩/ ١٦ (٣٨٥٦)؛ وانظر ما ذكرناه: ص ١٠٧ ـ ١٠٨ في هذا الكتاب.

وأيضاً ففي المواضع التي لا يكون مع النبي ﷺ من أكابر الصحابة إلا واحدٌ ، كان يكون هو ذلك الواحد: مثل سفره في الهجرة ، ومقامه يوم بدر في العريش لم يكن معه فيه إلا أبو بكر ، ومثل خروجه إلى قبائل العرب يدعوهم إلى الإسلام كان يكون معه من أكابر الصحابة أبو بكر. وهذا الاختصاص في الصحبة لم يكن لغيره باتفاق أهل المعرفة بأحوال النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: ٤٠] لا يختصّ بمصاحبته في الغار ، بل هو صاحبه المُطلَق الذي كَمُلَ في الصحبة كمالاً لم يشركه فيه غيره، فصار مختصّاً بالأكمليّة من الصحبة[١].

ففي هذه الآية الكريمة خصوصية للصديق ، فقد شهد الله له فيها بأنه صاحبُ نبيه[٢].

كما شهد له النبي ﷺ بذلك في مثل قوله: «**فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟!**».

٥ ـ هو ثاني اثنين بشهادة القرآن الكريم:

كما قال تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠] ، وهي درَّة المفاخر ، ومنقبة المناقب ، وفريدة الفرائد التي لم يشاركه فيها أحد من الخلق.

يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

---

(١) منهاج السنة: ٤/٦٠٢ ـ ٦٠٣ ، ٦١٦ ـ ٦١٧ ، ٦١٩ ، مقتطفات.
(٢) الفتح: ٨/٥٦٦. وانظر: محمد رسول الله ﷺ: ١/٥٢٤ ـ ٥٢٥.

والثانيَ اثنين في الغار المُنِيف وقد طافَ العدوُّ به إذ صَعَّدَ الجَبَلا
وكان حِبَّ رسولِ الله قد عَلِموا من البَرِيَّةِ لم يَعْدِلْ به رجُلا[١]

وقد مر تفصيل ذلك[٢].

٦ ـ المَعيَّة الخاصة:

عن أنس رضي الله عنه، عن أبي بكر رضي الله عنه قال: (قلتُ للنبيِّ ﷺ وأنا في الغار: لو أنَّ أحدَهم نَظَر تحت قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنا! فقال: **«ما ظَنُّكَ يا أبا بكرٍ باثنينِ اللهُ ثالثُهما؟!»**)[٣].

وفي حديث الهجرة الطويل عندما لَحِق بهم سُراقة بن مالك، قال أبو بكر: (هذا الطَّلَبُ قد لَحِقَنا يا رسولَ الله! فقال: **«لا تحزنْ إنَّ الله مَعَنا»**)[٤].

فهذه فضيلة باهرة، وفريدة ظاهرة، وخصوصية ثابتة بنص القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، فأخبر الرسول ﷺ أن الله معه ومع صاحبه، كما قال لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

والمعيَّة في كتاب الله تعالى عامة وخاصة:

فالمعية العامة: كقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وأما المعية الخاصة: فكقوله تعالى لما قال لموسى وهارون: ﴿لَا

---

(١) المستدرك: ٣/ ٧٧ ـ ٧٨؛ سبل الهدى والرشاد: ٣/ ٣٤٣.
(٢) انظر: ص ١٥٦ ـ ١٥٨ في هذا الكتاب.
(٣) البخاري (٣٦٥٣).
(٤) البخاري (٣٦٥٢).

﴿تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، فهذا تخصيصٌ لهما دونَ فرعون وقومه، فهو مع موسى وهارون دون فرعون.

وكذلك لمَّا قال النبي ﷺ لأبي بكر: «**لا تحزنْ إن الله معنا**»، كان معناه: إن الله معنا دون المشركين الذين يعادونهما ويطلبونهما، كالذين كانوا فوق الغار، ولو نظر أحدهم إلى قدمَيْه لأبصرَ ما تحت قدميه.

وقول النبي ﷺ لأبي بكر: «**إنَّ الله مَعَنا**» هي معيَّة الاختصاصِ، التي تدلُّ على أنه معهم بالنصر والتأييد والإعانة على عدوهم، فيكون النبي ﷺ قد أخبر أن الله ينصرني وينصرك يا أبا بكر على عدونا، ويعيننا عليهم[1].

٧ ـ وصفه بالصديق:

وهو لقبٌ تفرَّد به رضي الله عنه، وسمَّاه به النبي ﷺ وأعْلَنَه مراراً، وكان علي رضي الله عنه يحلفُ أن الله تعالى سمَّاه به، واشتَهَر به بين الصحابة وعلى مرِّ التاريخ إلى يومنا وإلى ما شاء الله.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أنَّ النبي ﷺ صَعِدَ أُحُداً، وأبو بكر وعمر وعثمان، فَرَجَفَ بهم، فقال: «**اثْبُتْ أُحُدُ، فإنَّما عليكَ نبيٌّ وصِدِّيقٌ وشهيدانِ**»)[2].

٨ ـ حديث المُخَالَّة:

وهو ما ثَبَت من قول النبي ﷺ: «**لو كنتُ متَّخِذاً خَليلاً لاتَّخَذْتُ**

---

(١) منهاج السنة: ٤/٥٩٣، ٥٩٧. وانظر ما قدمناه: ص ١٥٨ ـ ١٦٠، رقم (٧) في هذا الكتاب.

(٢) البخاري (٣٦٧٥)؛ وانظر ما كتبناه هنا: ص ٢٧ ـ ٢٩ في هذا الكتاب.

أبا بكر خَليلاً ، ولكنَّه أخي وصاحبي ، وقد اتخذَ اللهُ عز وجل صاحبَكم خليلاً»[1].

قال الحافظ: فيه منقبة عظيمة لأبي بكر لم يشاركه فيها أحد[2].

٩ ـ سَدّ الأبواب الشارعة إلى المسجد النبوي غير باب أبي بكر:

وهو ما جاء في قوله ﷺ: «**لا يَبْقَيَنَّ في المسجدِ بابٌ إلا سُدَّ ، إلا بابَ أبي بكر**»[3].

قال الخَطابي وابن بطَّال والنَّووي: (في هذا الحديث اختصاصٌ ظاهر لأبي بكر ، وفيه إشارة قوية إلى استحقاقه للخلافة ، ولا سيما وقد ثَبت أن ذلك كان في آخر حياة النبي ﷺ ، في الوقت الذي أمرهم فيه أن لا يؤمَّهم إلا أبو بكر)[4].

١٠ ـ إنفاقُه أموالَه كلها على الإسلام والنبي ﷺ ، وثناء الرسول ﷺ عليه في ذلك واختصاصه به:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّه ليسَ من الناسِ أحدٌ أَمَنَّ عليَّ في نَفْسِه ومالِه من أبي بكر بن أبي قُحافة**»[5].

وقد أوضحتُ ذلك مفصَّلاً في فصل مستقل[6].

---

(١) مسلم (٢٣٨٣).
(٢) الفتح: ٨/ ٥٧٣ شرح الحديث (٣٦٥٤).
(٣) البخاري (٣٦٥٤).
(٤) الفتح: ٨/ ٥٧٣ ـ ٥٧٤؛ شرح صحيح مسلم، للنووي: ٨/ ١٦٨.
(٥) البخاري (٤٦٧).
(٦) انظر: ص ١١٨ ـ ١٢٩ في هذا الكتاب.

١١ ـ أحبُّ الرجال إلى النبي ﷺ:

عن عَمْرو بن العاص رضي الله عنه: (أنَّ النبيَّ ﷺ بَعَثه على جيش ذات السَّلاسِلِ، فأتيتُه فقلتُ: أيُّ الناس أحَبُّ إليكَ؟ قال: «**عائشةُ**» فقلتُ: من الرجال؟ فقال: «**أَبوها**» قلتُ: ثم مَن؟ قال: «**ثم عمر بنُ الخطاب**» فعَدَّ رِجالاً)[١].

١٢ ـ أمرُ النبيِّ ﷺ الناسَ إذا جاؤوا فلم يجدوه، أنْ يأتوا أبا بكر:

عن جُبَير بن مُطْعِم قال: (أتتِ امرأةٌ النبيَّ ﷺ، فأَمَرها أن ترجِع إليه، قالت: أرأيتَ إنْ جئتُ ولم أجِدْكَ ـ كأنها تقول الموتَ ـ؟ قال ﷺ: «**إنْ لم تجديني فأتي أبا بكر**»)[٢].

١٣ ـ كتابة العهد:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: «**ادْعِي لي أبا بكر وأخاكِ، حتى أكتبَ كتاباً؛ فإني أخافُ أن يتمنَّى مُتَمنٍّ ويقول قائلٌ: أنا أَوْلى! ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»[٣].

قال النووي: (في هذا الحديث دلالة ظاهرة لفضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وإخبار منه ﷺ بما سيقع في المستقبل بعد وفاته، وأن المسلمين يأبَوْن عقْدَ الخلافة لغيره)[٤].

---

(١) البخاري (٣٦٦٢).
(٢) البخاري (٣٦٥٩).
(٣) مسلم (٢٣٨٧).
(٤) شرح صحيح مسلم: ٨/١٦٩.

١٤ ـ انتصار النبي ﷺ للصديق:

ففي حديث مغاضَبَة الشيخين رضي الله عنهما ، قال ﷺ: **«إنَّ الله بَعَثَني إليكم فقلتُم: كذبتَ ، وقال أبو بكر: صَدَقَ ، وواساني بنفسِه ومالِه ، فهل أنتم تارِكُو لي صاحبي؟!»** مرتين. فما أُوذي بعدها[١].

قال الحافظ: (في الحديث فضلُ أبي بكر على جميع الصحابة)[٢].

١٥ ـ كان يفتي بحضرة النبي ﷺ:

كان الصديق رضي الله عنه يبدأ الكلامَ بحضرة النبي ﷺ معاونةً لرسول الله ﷺ ، كما كان يُفتي بحضرتِه وهو يُقرُّه على ذلك ، ولم يكن هذا لغيره[٣].

١٦ ـ موافقته للنبي ﷺ في الشورى وغيرها:

كان رسول الله ﷺ إذا استشار أصحابه أول من يتكلَّم أبو بكر في الشورى ، وربما تكلَّم غيره ، وربما لم يتكلَّم غيره ، فيعمل برأيه وحدَه ، فإذا خالفه غيره اتبع رأيَه دون رأي من يخالفه[٤].

١٧ ـ حديث الخصال التي اجتمعت فيه في يوم واحد:

وقد تقدم الحديث بتمامه[٥].

---

(١) البخاري (٣٦٦١).
(٢) الفتح: ٨/ ٥٩٢.
(٣) منهاج السنة: ٤/ ٦١٢؛ وانظر ما كتبناه: ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ في هذا الكتاب.
(٤) منهاج السنة: ٤/ ٦٠٣، ٦١٢؛ وانظر أمثلة ذلك فيما كتبناه: ص ٢٠٣ ـ ٢٠٧، ٢١٦ ـ ٢٢٣ في هذا الكتاب.
(٥) انظر: ص ٢٦٤ حاشية (٢) في هذا الكتاب.

١٨ ـ وصْفُه بما وُصِف به رسول الله ﷺ:

ففي حديث عائشة عن إرادة الصديق الخروج من مكة مهاجراً ، فلقيه سيد القارَة ابن الدَّغِنَة ، فقال مخاطباً قريشاً : (إنَّ أبا بكر لا يَخْرُجُ مِثْلُه ولا يُخْرَجُ ، أتُخْرِجونَ رجلاً يَكْسِبُ المعدومَ ، ويَصِلُ الرَّحِمَ ، ويَحْمِلُ الكَلَّ ، ويَقْرِي الضَّيفَ ، ويُعِين على نوائب الحقّ؟!)[١] .

وهي خَصِيصة تفرَّد بها أبو بكر ، واشتهر بها بين الصحابة ، وأقرَّت له بها قريش في عِلْية رجالاتها .

١٩ ـ تقديمه إماماً في الصلاة:

في الحديث المتواتر عن جمع من الصحابة : أن النبي ﷺ قال : «**مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس**»[٢] .

وعندما تقدَّم عمر في إحدى الصلوات ، قال ﷺ : «**يأبَى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»! .

فصلى الصديق بالصحابة إماماً أياماً ، ورسول الله ﷺ حيٌّ شاهدٌ راضٍ مسرور بذلك .

قال الحافظ : (فيه تقديمُ أبي بكر وترجيحُه على جميع الصحابة)[٣] .

٢٠ ـ استخلافه أميراً على الحج:

وذلك سنة (٩هـ) ، حيث أقام للناس حجَّهم وعلَّمَهم مناسكَهم[٤] .

---

(١) تقدم الحديث مع التعليق عليه : ص ١٣٠ ـ ١٣٤ ، ٣٣ في هذا الكتاب .

(٢) انظر ما كتبناه : ص ٢٣٥ ـ ٢٣٨ في هذا الكتاب .

(٣) الفتح : ٣/ ٥١ شرح الحديثين (٦٦٤ ، ٦٦٥) .

(٤) انظر تفصيل ذلك : ص ٢٢٣ ـ ٢٢٨ في هذا الكتاب .

٢١ ـ صَبْرُه وثباتُه يومَ وفاة النبي ﷺ، وفي غير ذلك من المواقف:

قال ابن تيمية: (قد عَلم كل مَن عَلِم السيرة أن أبا بكر كان أقوى قلباً من جميع الصحابة، لا يُقاربه في ذلك أحدٌ منهم؛ فإنه من حين بعث اللهُ رسولَه ﷺ إلى أن مات أبو بكر، لم يَزَلْ مجاهداً ثابتاً، مقداماً شجاعاً، لم يُعرف قطُّ أنه جَبُنَ عن قتال عدوّ، بل لما مات رسول الله ﷺ ضَعُفت قلوبُ أكثر الصحابة، وكان هو الذي يثبِّتهم)[١].

٢٢ ـ انقياد الأمة له في المواقف الصعبة المزلزلة:

ويتضح ذلك فيما جرى يوم وفاة النبي ﷺ، ويوم سقيفة بني ساعدة، وفي إنفاذ جيش أسامة، وفي حروب الردة، وفي مسألة ميراث النبي ﷺ.

ومن تأمل ما قدمناه وجد فضائل الصديق التي في الصحاح كثيرة، (ومجموع ما في الصحيح لعليٍّ نحو عشرة أحاديث، ليس فيها ما يختصُّ به، ولأبي بكر في الصحاح نحو عشرين حديثاً أكثرها خصائص.

وهذه النصوص كلها مما تبيِّن اختصاصَ أبي بكر من فضائل الصحبة ومناقبها والقيام بها وبحقوقها بما لم يشركه فيه أحد، حتى استوجَبَ أن يكون خليلَه ﷺ دونَ الخلق، لو كانت المُخالَّة ممكنة. وهذه النصوص صريحة بأنه أحبُّ الخلقِ إليه، وأفضلُهم عنده)[٢].

---

(١) منهاج السنة: ٤/ ٦٨٤.

(٢) المرجع السابق: ٦١٩/٤، ٦٢٢ ـ ٦٢٣.

ثانياً: أولياته:

للصديق أوليات[1] سبق بها الناسَ ، وسطَّرها في صحائف التاريخ ، فكانت من جملة فضائله ومناقبه رضي الله عنه وأرضاه ، فهو:

١ ـ أول مدعوٍّ إلى الإسلام.

٢ ـ وأول من أسلم.

٣ ـ وأول من صلى مع رسول الله ﷺ.

٤ ـ وأول من أظهر إسلامه.

٥ ـ وأول خطيب دعا إلى الله ورسوله.

٦ ـ وأول من دعا إلى الإسلام فدخل فيه على يديه ثُلَّة من شبان الصحابة.

٧ ـ وأول من لُقِّب في الإسلام عتيقاً.

٨ ـ وأول من حج بالناس في حياة النبي ﷺ وعن أمره.

٩ ـ وأول الناس في الشورى ومن يتكلم بين يدي النبي ﷺ.

١٠ ـ وأول من سُمي خليفة رسول الله ﷺ ، وأول الخلفاء الراشدين.

١١ ـ وأول من ولي الخلافة وأبوه حي.

(١) استفدت في هذه الفقرة من المراجع التالية: تاريخ ابن عساكر ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ، ١٣٥؛ تهذيب الأسماء واللغات: ٢/١٩١؛ تاريخ الخلفاء ، ص ٢٣ ، ٧٧ ـ ٧٩؛ محمد رسول الله ﷺ: ١/٥١٤؛ أبو بكر الصديق ، للطنطاوي ، ص ٢٣٠.

١٢ ـ وأول خليفة مات وأبواه حيان.

١٣ ـ وأول خليفة فرض له رعيته العطاء.

١٤ ـ وأول من بعث الجيوش لفتح الشام.

١٥ ـ وأول من اتخذ بيت المال.

١٦ ـ وأول من عهد بالخلافة .

١٧ ـ وأول من جمع القرآن الكريم.

١٨ ـ وأول من سمَّى المصحف مصحفاً .

١٩ ـ وأول من احتاط في قبول الأخبار.

٢٠ ـ وأول من قاءَ تحرُّجاً من الشبهات.

٢١ ـ وأول من غسَّلته زوجته في الإسلام.

٢٢ ـ وأول من ردَّ ما بقي عنده من مال المسلمين إلى بيت المال.

(فالصدِّيق أولٌ في جميع أوليات الإسلام، وهو أسبقُ السابقين في سائر سوابق الإسلام)[١].

ثالثاً: فضائله ومكانته:

الفضائل جمع فضيلة، وهي الخَصْلة الحميدة التي يَحصل لصاحبها بسببها شرفٌ وعلوّ منزلة؛ إما عند الحق وإما عند الخلق، والثاني لا عبرة به إلا إن أوصل إلى الأول.

وقد انعقد الإجماع بين أهل السنة على أن ترتيب الخلفاء الراشدين

(١) محمد رسول الله ﷺ: ١/ ٥٢٣.

الأربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة[1].

وأفضلية أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه ـ وقد فعل ـ على بقية الأربعة هي في الجملة؛ قال الإمام ابن الجزري في ترجمة الصديق: (إنه أفضلُ الصحابة مطلقاً، وإنْ كنا لا ندَّعي له الأفضلية في كل فردٍ فردٍ من سائر الفضائل كما ادَّعَاه غيرنا!)[2].

قلت: وهذا هو الحق؛ فإن لعمر مناقب ليست لأبي بكر، ولعثمان فضائل ليست لهما، وكذلك لعلي خصائص تفرد بها عن الجميع.

وقول الدكتور حامد الخليفة: (كل من يريد أن يقول بأن هناك من أصحاب رسول الله ﷺ مَن تقدَّم على أبي بكر رضي الله عنه في باب من أبواب العمل الإسلامي في حياة النبي ﷺ أو بعد وفاته ﷺ؛ فإنما هو من باب الجهالة أو الضلالة والتضليل...) إلخ[3].

أقول: هذا القول فيه مجازفة، وتألٍّ على الله، ومخالفة لنصوص السنة الكثيرة وأقوال علماء الأمة، وهو يعني أن هذه الأمة أمة ميتة لم تنجب سوى الصديق بتفرده ـ وهو كما قدمنا أهل لكل خير وفضل وفخر وثناء ـ وهذا من أبطل الباطل، فَثَمَّةَ عشرات الصحابة ممن تفردوا بفرائد يجتمع من مجموعها أمة باهرة في جميع أبواب الخير قد صنعها رسول الله ﷺ على عينه.

---

(١) الفتح: ٨/ ٦٠٣ ـ ٦٠٤ شرح الحديث (٣٦٧١)؛ وانظر: كتب علوم الحديث (النوع ٣٩).

(٢) غاية النهاية: ١/ ٤٣١.

(٣) خليفة رسول الله أبو بكر الصديق: ١/ ٢٤٤.

وحَسْبُك من مناقب عمر المتفردة (موافقاته) التي ليست للصديق ، وكذلك قول النبي ﷺ: «**لو كان بعدي نبيٌّ لكان عمر**» ، وأنه محدَّث ، وأن الله جعل الحق على لسانه ، وأن الشيطان يفرُّ من طريقه ، وما حَدَث في عهده من فتوحات وخير وإسلام أمم كثيرة ، وقد شهد له بذلك النبي ﷺ في قوله: «**فلم أرَ عبقرياً يفْرِي فَرِيَّه**»!.

وحسبك من تفرُّد عثمان قول رسول الله ﷺ: «**وأصدقهم حياء عثمان**» ، وقوله: «**ما ضَرَّ عثمانَ ما عمل بعد هذا اليوم**» ، وأنه زوَّجه ابنتيه الطاهرتين ، وقول أبي هريرة رضي الله عنه: (خصلتان لعثمان ليستا لأبي بكر وعمر: صبرُه نفسَه حين قُتل مظلوماً ، وجمعُه الناسَ على مصحف).

وحسبُ عليٍّ: أن النبي ﷺ ألقى عليه الكساء وتلا: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣] ، وحديث: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**» ، وإعطاؤه الراية يوم خيبر ، وصنَّف الإمام النسائي كتاباً في «خصائص علي».

وشاركه عمر في غير منقبة مثل قوله ﷺ: «**أومن بذلك أنا وأبو بكر وعمر**» ، وشاركه بقية الخلفاء بفضائل مثل: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين**» ، وشاركه العشرة المبشرون بالجنة بالبشرى بالجنة ، وبحديث: «**اثْبُت حِراءُ؛ إنه ليس عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد**» ، وغير ذلك.

وانفرد بفرائد: أبو عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص ، وحذيفة ، وابن مسعود ، وابن عمر ، وابن عباس ، وأبو ذر ، وخالد

سيف الله ، والأمر واسع طويل الذيل .

وإنما أشرتُ هنا إشارة للردِّ على مثل تلك الخطب الحامية التي تسيء للصحابة وللأمة من حيث تريد مدح أبي بكر أو الدفاع عنه! .

١ ـ ما نزل في أبي بكر من القرآن الكريم:

أجل مناقب الصديق وفضائله ومفاخره ومآثره ما أكرمه الله تعالى به من تنزيل آيات كريمات فيه ، تثني عليه وتشيد بأفعاله المجيدة وشمائله الحميدة ، وثمة آيات نزلت فيه خصوصاً ، وآيات أخرى كثيرة نزلت فيه وفي غيره على وجه العموم .

أ ـ فمن النوع الأول :

١ ـ قول الله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

قال الحافظ : (في الآية فضلُ أبي بكر الصديق؛ لأنه انفرد بهذه المَنقبة حيث صاحَبَ رسول الله ﷺ في تلك السَّفرة ووقاه بنفسه ، وشهِد الله له فيها بأنه صاحبُ نبيِّه)[١] .

وفي هذه الآية الكريمة مناقب جمة للصديق تقدم تفصيلها[٢] .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وفيه قولان : **أحدهما** : على النبيِّ ﷺ . **والثاني** : على أبي بكر ، قال

---

(١) الفتح : ٨/ ٥٦٦ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب المهاجرين وفضلهم .

(٢) انظر : ص ١٥٦ ـ ١٦٠ في هذا الكتاب .

ابن العربي: قال علماؤنا: وهو الأقوى؛ لأنه خافَ على النبي ﷺ من القوم، فأنزل الله سكينته عليه بتأمين النبي ﷺ، فسَكَن جأشُه وذهب رَوْعُه وحَصَل الأمن[1].

عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ قال: على أبي بكر، لأن النبي ﷺ لم تَزَل السكينة عليه[2].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧ ـ ٢١].

عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: (أنزلت هذه الآيات في أبي بكر: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ إلى قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾)[3].

قال ابن الجوزي: (أجمعوا على أنها نزلت في أبي بكر)[4].

وقد ثبت بالنقل المتواتر أن أبا بكر أنفق مالَه كلَّه في سبيل الله وعلى رسول الله ﷺ، وأنه مقدَّم في ذلك على جميع الصحابة، وكان من أعظم الناس إنفاقاً لماله فيما يرضي الله ورسوله، ومعاونة النبي ﷺ بنفسه وماله وإعتاق العبيد، فحين إنفاقه مالَه يتزكى لم يكن لأحدٍ عنده من نعمة

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ١٣٥؛ وانظر: منهاج السنة: ٤/ ٦٥٧ ـ ٦٥٩.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم وابن عساكر، وذكره الحافظ في الفتح: ٨/ ٥٦٧ وسكت عليه؛ والسيوطي في تاريخ الخلفاء، ص ٤٨.
(٣) أخرجه ابن عساكر، ص ١٦١؛ وتقدمت رواية أخرى للحديث مع تخريجه: ص ١٢٣ ـ ١٢٤ حاشية (١) في هذا الكتاب، وهو حديث حسن بطرقه وشواهده.
(٤) تاريخ الخلفاء، ص ٣٨.

تجزى بل عطاؤه خالص لوجه ربه الأعلى.

وهذه الآيات إذا قُدِّر أنه دخل فيها غيره من الصحابة رضي الله عنهم، فأبو بكر أحق الأمة بالدخول فيها وأوَّلُهم وأَوْلاهم، فهو الأتقى في هذه الأمة، وأكمل الأمة في ابتغاء وجه ربه الأعلى، وإنفاقه أفضل من إنفاق غيره ـ فيُعلم من ذلك أنه أكمل من تناولته الآيات في الصفات المذكورة[1].

فأكْرِمْ بها من فضائل، وأكبِرْ بها من مناقب، وأجمِلْ بها من مفاخر؛ أن يثني الله تعالى على صاحب نبيه ﷺ وصدِّيقه رضي الله عنه في قوله: ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾!.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

في حديث الإفك عن الطاهرة عائشة رضي الله عنها قالت: (قال أبو بكر الصديق ـ وكان يُنفِق على مِسْطَح بن أُثَاثَةَ لقرابتِه منه وفقرِه ـ: والله لا أُنفق على مِسْطَح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال! فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، قال أبو بكر الصديق: بلى والله إني لأحبُّ أن يغفر الله لي. فرَجَع إلى مِسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أَنْزِعها منه أبداً!)[2].

قال الإمام القرطبي: (المشهور من الروايات أن هذه الآية نزلت في

---

(١) انظر: منهاج السنة: ٤/٦٥٩ ـ ٦٦٥.

(٢) أخرجه البخاري وغيره، وقد تقدم تخريجه ص ٢٩٠ حاشية (٢) في هذا الكتاب. **ولا يأتل**: ولا يحلف.

قصة أبي بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه ومِسطح بن أُثاثة)[1].

وجزم به الإمام الحافظ ابن كثير ولم يذكر غيره[2].

فهنيئاً للصديق هذا الثناء من الله تعالى عليه بأنه من (أولي الفضل)! وجلالةُ الصفة فيه تأتي من جلالة قائلها سبحانه الذي يعلم السرّ وأخفى ، فيصف أبا بكر بهذه الصفة الباهرة.

ب ـ ومن النوع الثاني:

١ ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (بَيْنَا النبيُّ ﷺ قائمٌ يوم الجمعة ، إذ قَدِمتْ عِيرٌ إلى المدينة ، فابْتَدَرَها أصحابُ رسول الله ﷺ حتى لم يبقَ معه إلا اثنا عشر رجلاً ، فيهم أبو بكر وعمر قال: ونزلَتْ هذه الآية: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ [الجمعة: ١١])[3].

فهذه شهادة ربانية للصديق بأنه مقبل على ربه ، مستغرق في عبادته ، لا تلهيه تجارة ولا بيع ولا دنيا عن ذكر الله تعالى وطاعته.

٢ ـ عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٢] قالت لعروةَ: يا بنَ أُختي ، كان أبواكَ منهم: الزبير وأبو بكر)[4].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ١٨٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٤٤.

(٣) أخرجه مسلم وغيره؛ وتقدم تخريجه ص ١٦٨ حاشية (٤) في هذا الكتاب.

(٤) تقدم الحديث بتمامه مع تخريجه: ص ١٩٨ حاشية (١) في هذا الكتاب.

وكان هذا في (غزوة حمراء الأَسَد) عقيب غزوة أُحد ، وفي الآية منقبة جليلة للصديق ، وثناء من ربه سبحانه عليه ، وأنه من الذين استجابوا لله والرسول ﷺ ، وأن له أجراً عظيماً.

٣ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما : (في قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] قال : أبو بكر وعمر رضي الله عنهما)[١].

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤].

جاء عن الحسن البصري من طُرق : (في قوله عز وجل : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ قال : هم والله أبو بكر وأصحابه).

وفي رواية أوضح عن الضَّحّاك قال : (هم والله أبو بكر وأصحابه؛ لمَّا ارتدَّتِ العربُ جاهدهم أبو بكر وأصحابه ، حتى ردَّهم إلى الإسلام)[٢].

وثمَّةَ آياتٌ أخرى كثيرة نزلت في عموم المهاجرين والأنصار والمؤمنين من هذه الأمة ، فيها مدحٌ لهم وثناءٌ عليهم ، وأبو بكر أكمل الأمة في الصفات التي يمدح الله بها المؤمنين ، فهو أَوْلاَهم بالدخول فيها ، وأكملُ مَن دخل فيها[٣].

---

(١) أخرجه الحاكم: ٣/ ٧٠ وصححه ، ووافقه الذهبي؛ وذكره ابن كثير في تفسيره: ١/ ٥١٤.

(٢) ابن عساكر ، ص ٤١٥ ـ ٤١٩؛ تفسير القرطبي: ٦/ ٢٠٦؛ تفسير ابن كثير: ٢/ ٩١.

(٣) انظر: منهاج السنة: ٤/ ٦٦٥.

٢ ـ ما جاء في فضائله من أحاديث، ومنزلته من قلب النبي ﷺ:

فضائل أبي بكر واضحة كفَلَق الصبح، راسخة كالجبال الشمّ، سائرة في الأمة مسيرَ الشمس، متنوعة الخيرات والمنافع كالغيث، تواتر نقلُها عن الثقات جيلاً بعد جيل.

وأما منزلته من قلب رسول الله ﷺ فلا تدانيها منزلة واحد من أتباع الرسل في طول عمر الرسالات.

●● ١ ـ عن أبي بَكْرة رضي الله عنه: (أن النبي ﷺ قال ذات يوم: «مَن رأى منكم رؤيا؟» فقال رجل: أنا، رأيتُ ميزاناً نزل من السماء، فوُزِنْتَ أنتَ وأبو بكر فرجحتَ أنت بأبي بكر، ثم وُزِنَ عمر وأبو بكر فرجَحَ أبو بكر، ثم وُزِنَ عمر وعثمان فرجح عمر، ثم رُفِعَ الميزانُ. فرأيتُ الكراهية في وجه رسول الله ﷺ)[١].

٢ ـ وعن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما قال: (خرج علينا رسول الله ﷺ ذات غداةٍ بعد طلوع الشمس، فقال: **«رأيتُ قبيل الفجر كأني أُعطيت المقاليدَ والموازين، فأما المقاليد فهذه المفاتيح، وأما الموازينُ فهي التي تَزِنُونَ بها. فوَضِعْتُ في كفَّة ووُضِعتْ أمتي في كِفّة فوُزِنْتُ بهم فرجحتُ، ثم جيء بأبي بكر فَوُزِنَ بهم فوَزَنَ، ثم جيء بعمر فَوُزِن**

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٨٠٨٠) واللفظ له؛ وأبو داود (٤٦٣٤) و(٤٦٣٥)؛ والترمذي (٢٢٨٧)؛ وابن أبي عاصم (١١٣١ ـ ١١٣٣، ١١٣٥)؛ وأحمد: ٥/ ٤٤، ٥٠؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٣٤٨)؛ والحاكم: ٣/ ٧١ وصححه ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

فوَزَنَ ، ثم جيءَ بعثمانَ فوَزَنَ بهم ، ثم رُفِعَتْ»)[1] .

٣ ـ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنه كان يُحدِّث: (أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أُرِيَ الليلةَ رجلٌ صالحٌ أن أبا بكر نِيطَ برسول الله ﷺ ، ونِيطَ عمرُ بأبي بكر ، ونِيط عثمانُ بعمرَ». فلما قُمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا: أمَّا الرجلُ الصالح فرسول الله ﷺ ، وأما ما ذَكر من نَوْطِ بعضِهم بعضاً؛ فهم ولاةُ هذا الأمر الذي بَعَث الله عز وجل به نبيَّه ﷺ)[2] .

٤ ـ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أنَّ نبيَّ الله ﷺ صَعِدَ أُحداً ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان ، فرَجَفَ بهم ، فضَرَبَهُ برِجْلِه ، وقال: «اثبُتْ ، فإنما عليك نبيٌّ ، وصِدِّيقٌ ، وشهيدان»)[3] .

٥ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (أنَّ رسول الله ﷺ كان على جبلِ حِرَاءٍ ، فتحرَّكَ ، فقال رسول الله ﷺ: «اسكُنْ حِراءُ ، فما عليكَ إلا نبيٌّ أو صِدِّيق أو شهيدٌ». وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم)[4] .

---

(١) أخرجه أحمد: ٢/٧٦؛ وابن أبي عاصم في السنة (١١٣٨ ، ١١٣٩)؛ وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أحمد: ٣/٣٥٥؛ وابن أبي عاصم في السنة (١١٣٤)؛ وأبو داود (٤٦٣٦)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٣٤٧)؛ وصححه ابن حِبان (٦٩١٣)؛ والحاكم: ٣/٧١ ـ ٧٢ وصححه ، ووافقه الذهبي. نِيط: عُلِّق ، والنَّوْط: التعليق.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٧٥)؛ والنسائي في الكبرى (٨٠٧٩)؛ وأبو داود (٤٦٥١)؛ والترمذي (٣٦٩٧)؛ وابن حبان (٦٨٦٥) ، وغيرهم.

(٤) أخرجه مسلم (٢٤١٧)؛ والنسائي في الكبرى (٨١٥٠)؛ والترمذي (٣٦٩٦)؛ وابن حبان (٦٩٨٣) ، وغيرهم.

وجاء هذان الحديثان الصحيحان من رواية جماعة من الصحابة، وفيهما دليل على تعدد القصة في مكة والمدينة، وقواه الحافظ في «الفتح»[1].

٦ ـ وعن أنس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: **«أَرْحَمُ أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدُّهُم في أمر الله عمر، وأَصْدَقُهم حياءً عثمانُ، وأقرؤهم لكتاب الله أُبيّ بن كعب، وأَفْرَضُهم زيدُ بن ثابت، وأَعْلَمُهم بالحلال والحرام معاذ بن جَبَل، ألاَ وإنَّ لكل أمة أميناً، ألاَ وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»**[2].

٧ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال رسول الله ﷺ: **«بينما رجلٌ يسوقُ بقرةً له، قد حَمَل عليها، التفتَتْ إليه البقرة فقالت: إنِّي لم أُخْلَقْ لهذا، ولكنِّي إنما خُلِقْتُ لِلْحَرثِ»!** فقال الناس: سبحانَ الله! تعجُّباً وفَزَعاً، أبقرةٌ تكلَّمُ؟! فقال رسول الله ﷺ: **«فإنِّي أُومنُ به وأبو بكر وعمر»**) الحديث[3].

وحَسْبُ أبي بكر وعمر منزلةً أن النبي ﷺ ضمَّهما إلى نفسه الشريفة، وشهد لهما بصدقِ الإيمان وقوةِ اليقين وكمالِ المعرفة لعظيم سلطان الله وكمال قدرته سبحانه.

---

(١) الفتح: ٨/ ٦١٠، ٦٤٢ شرح الحديث (٣٦٩٩).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٨١٨٥)؛ والترمذي (٣٧٩٠، ٣٧٩١)؛ وابن ماجه (١٥٤)؛ والفسوي: ١/ ٤٧٩؛ وأحمد: ٣/ ١٨٤، ٢٨١؛ وابن حبان (٧١٣١) و(٧١٣٧) و(٧٢٥٢)، وغيرهم؛ وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الشيخان وغيرهما؛ وقد مرَّ بتمامه مع تخريجه: ص ١٦٧ ـ ١٦٨ حاشية (١) في هذا الكتاب.

٨ ـ عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنْ يُطعِ الناسُ أبا بكر وعمر ، فقد أرْشَدُوا**»[(١)].

٩ ـ وعن الأسود بن يزيد قال: (كنَّا عند عائشةَ رضي الله عنها ، فذَكَرنا المواظبةَ على الصلاة والتعظيمَ لها ، قالت: لمَّا مَرِضَ رسول الله ﷺ مرضَهُ الذي مات فيه ، فحضَرتِ الصلاةُ فأُذِّنَ ، فقال: «**مُرُوا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناسِ**») الحديث[(٢)].

قال الحافظ: فيه تقديمُ أبي بكر وترجيحُه على جميع الصحابة[(٣)].

●● ١٠ ـ عن أبي سعيد الخُدْرِي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أَمَنَّ الناسِ عليَّ في صحبتِه ومالِه أبو بكر**»[(٤)].

١١ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما نَفَعني مالٌ قطُّ ما نَفَعني مالُ أبي بكر**» ، فبَكَى أبو بكر رضي الله عنه وقال: ما أَنا ومالي إلا لكَ)[(٥)].

١٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما لأحدٍ عندنا يدٌ إلا وقد كافَيْنَاهُ، ما خلا أبا بكر ، فإنَّ له عندنا يداً يُكافِيه الله**

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٩٠١) واللفظ له؛ وهو قطعة من حديث مطول عند مسلم (٦٨١)؛ وأحمد: ٥/٢٩٨.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٤) وغيره؛ وقد تقدم بتمامه مع تخريجه: ص ٢٣٧ في هذا الكتاب.

(٣) الفتح: ٣/٥١.

(٤) هذا طرف من حديث تقدم بتمامه: ص ٢٣٤ حاشية (١) في هذا الكتاب.

(٥) أخرجه ابن حبان (٦٨٥٨) وغيره؛ وانظر ما قدمناه: ص ١٢٧ ـ ١٢٩ في هذا الكتاب.

بها يومَ القيامة ، وما نَفَعَني مالُ أحدٍ قطُّ ما نَفَعني مالُ أبي بكر ، ولو كنتُ متَّخِذاً خليلاً لاتَّخذتُ أبا بكر خليلاً ، ألا وإنَّ صاحبَكم خليلُ اللهِ»[١] .

١٣ ـ وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : «**أبو بكر صاحبي ومؤنسي في الغار**»[٢] .

١٤ ـ وعن عَمْرو بن العاص رضي الله عنه ، قال : (استعملَني رسول الله ﷺ على جيشِ ذات السَّلاسِلِ ، فأتيتُه ، فقلتُ : يا رسولَ الله! أيُّ الناسِ أحبُّ إليك؟ قال : «**عائشةُ**» قلتُ : من الرِّجال؟ قال : «**أبوها**» قلتُ : ثم مَنْ؟ قال : «**ثم عمرُ**» فَعَدَّ رجالاً)[٣] .

١٥ ـ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : (قال النبي ﷺ : «**إنَّ الله بَعَثَني إليكم ، فقلتُم : كَذَبْتَ ، وقال أبو بكر : صدَقَ ، وواساني بنفسه ومالِه ، فهل أنتم تارِكُو لي صاحبي؟!**» مرتين ، فما أُوذِيَ بعدَها)[٤] .

١٦ ـ وفي حديث خِلاف رَبيعة بن كَعْب مع أبي بكر رضي الله عنهما : (قال النبي ﷺ : «**يا ربيعة! ما لَكَ وللصدِّيق؟**» قلتُ : يا رسولِ الله! كان

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٦١) وقال : حديث حسن غريب ، وصححه الألباني .

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زيادات المسند ، وقال الهيثمي في (المجمع : ٩/ ٤٢) : رجاله ثقات؛ وكذا قال الحافظ في الفتح : ٨/ ٥٦٧ شرح الحديث المعلق الذي قبل (٣٦٥٢)؛ وشعيب الأرنؤوط في تعليقه على شرح السنة : ١٤/ ٧٧؛ وحسنه السيوطي في تاريخ الخلفاء ، ص ٥٧ .

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٦٢)؛ ومسلم (٢٣٨٤)؛ والترمذي (٣٨٨٥)؛ والنسائي في الكبرى (٨٠٦٣)؛ وابن حبان (٦٨٨٥) (٦٩٠٠) ، وغيرهم .

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٦١) وغيره ، وهو طرف من حديث طويل تقدم : ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ حاشية (٢) في هذا الكتاب .

كذا كان كذا ، قال لي كلمة كرهتُها ، فقال لي: قُلْ كما قلتُ حتى يكون قِصاصاً ، فأَبَيْتُ ، فقال رسول الله ﷺ: «**أَجَلْ ، فلا تردَّ عليه ، ولكنْ قُلْ: غَفَر الله لكَ يا أبا بكر**»[1] .

١٧ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال: (خَرج رسول الله ﷺ في مَرَضِه الذي مات فيه عاصِباً رأسَهُ بِخِرْقةٍ ، فقعد على المِنْبر ، فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه ، ثم قال: «**إنَّه ليس من الناس أحدٌ أَمَنَّ عليَّ في نفسه ومالِه من أبي بكر بن أبي قُحافَةَ ، ولو كنتُ متَّخِذاً من الناس خليلاً لاتَّخَذتُ أبا بكر خليلاً ، ولكنْ خُلَّةُ الإسلام أفضَلُ ، سُدُّوا عنِّي كلَّ خَوْخةٍ في هذا المسجدِ غيرَ خَوْخَةِ أبي بكر**»)[2] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ: أنه قال: «**لو كنتُ متَّخذاً خَليلاً لاتَّخذتُ أبا بكر خليلاً ، ولكنه أخي وصاحبي ، وقد اتَّخذَ اللهُ عز وجل صاحبَكم خليلاً**»[3] .

وقد روى (حديث المُخَالة) أيضاً: أبو سعيد الخُدري ، وجُندب البَجَليّ ، وعبد الله بن الزبير ، وكلها أحاديث صحيحة في الصحيحين وغيرهما.

---

(١) أخرجه أحمد: ٤/٥٨ ـ ٥٩ ، وغيره؛ وقد تقدم مطولاً: ص ٢٩٣ ـ ٢٩٥ حاشية (١) في هذا الكتاب.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٧) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٨٠٤٨)؛ وأحمد: ١/ ٢٧٠؛ وابن سعد: ٢/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٠٠١)؛ وابن حبان (٦٨٦٠) ، وغيرهم.

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٨٣) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٨٠٥٠)؛ والترمذي (٣٦٥٥)؛ وابن ماجه (٩٣)؛ وابن حبان (٦٨٥٦) ، وغيرهم.

قال الحافظ: (واختُلف في المودّة والخُلَّة والمحبّة والصداقة: هل هي مترادفة أو مختلفة؟ قال أهل اللغة: **الخُلَّة**: الصداقة والمودَّة، ويقال: الخُلّة أرفَعُ رتبة، وهو الذي يُشعِر به حديث الباب، وكذا قوله عليه السلام: «**لو كنتُ متخذاً خليلاً غير ربي...**»، فإنه يُشعر بأنه لم يكن له خليل من بني آدم، وقد ثبتت محبَّتُه لجماعة من أصحابه كأبي بكر وفاطمة وعائشة والحسنين وغيرهم. ولا يعكّر على هذا اتصافُ إبراهيم عليه السلام بالخُلّة، ومحمد ﷺ بالمحبة، فتكون المحبة أرفعَ رتبة من الخلة؛ لأنه يُجاب عن ذلك بأن محمداً ﷺ قد ثبت له الأمران معاً، فيكون رُجْحانه من الجهتين، والله أعلم).

(ومعنى الحديث: أن حُبَّ الله تعالى لم يَدَعْ في قلبه ﷺ موضعاً لخلَّة غيره، ولو كان هناك مجال لأن يكون أحدٌ خليلَه ﷺ لكان أبا بكر رضي الله عنه، ولكنه ﷺ لم يتخذ أحداً من الناس خليلاً، فسمّى أبا بكر رضي الله عنه أخاً له وصاحباً)[1].

١٨ ـ وعن عبد الله بن حَنْطَب رضي الله عنه، قال: (كنتُ مع رسول الله ﷺ، فنظر إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: «**هذانِ السمعُ والبصرُ**»)[2].

١٩ ـ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قال

---

(١) الفتح: ٨/٥٧٣، ٥٨٧، شرح الحديثين (٣٦٥٤، ٣٦٥٦)؛ شرح صحيح مسلم، للنووي: ٨/١٦٧ ـ ١٦٨؛ فتح الملهم: ٣/٣٥٨، تكملته: ٥/٣٧.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٧١)؛ والحاكم: ٣/٦٩ وصححه، وقال الذهبي: حسن؛ وصححه الألباني في صحيح الترمذي: ٣/٢٠١؛ وصحيح الجامع (٧٠٠٤)؛ وأطال الكلام عليه في الصحيحة (٨١٤).

رسول الله ﷺ: «**أبو بكر وعمر من هذا الدِّين كمنزلةِ السمعِ والبصر من الرأس**»[1].

٢٠ ـ وعن عبد الرحمن بن غَنْم الأشْعريِّ رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «**لو اجْتَمعتُما في مشورةٍ ما خالفتُكما**»[2].

٢١ ـ وعن جُبَيْر بن مُطْعِم رضي الله عنه: (أنَّ امرأةً أتتِ النبيَّ ﷺ تسألُه شيئاً، فقال لها: «**ارْجِعي إليَّ**» فقالت: فإنْ رجعتُ فلم أجِدْكَ يا رسول الله ـ تعرِّض بالموت ـ؟ فقال لها رسول الله ﷺ: «**فإنْ رجعتِ فلم تجدِيني، فالْقَيْ أبا بكر رضي الله عنه**»)[3].

٢٢ ـ وعن ابن أبي مُلَيْكَة رضي الله عنه، قال: (سمعتُ عائشةَ وسُئِلتْ: مَن كان رسول الله ﷺ مَستخلِفاً لو استَخْلَفَه؟ قالتْ: أبو بكر، فقيل لها: ثم مَن بعدَ أبي بكر؟ قالت: عمر، ثم قيل لها: مَن بعدَ عمر؟ قالت: أبو عبيدة بن الجراح. ثم انتَهتْ إلى هذا)[4].

٢٣ ـ وعن حُذيفة بن اليَمان رضي الله عنهما، قال: (كنّا جُلوساً عند

---

(١) أخرجه الطبراني؛ والخطيب في تاريخ بغداد: ٨/ ٤٦٠؛ وابن عساكر في تاريخه، ص ٢١١؛ وحسنه الألباني في الصحيحة (٨١٥).

(٢) أخرجه أحمد وغيره بإسناد لا بأس به، وقد مرّ: ص ٢١٧ حاشية (٢) في هذا الكتاب.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٥٩)؛ ومسلم (٢٣٨٦)؛ والترمذي (٣٦٧٦)؛ وأحمد: ٤/ ٨٢، ٨٣، واللفظ له؛ وابن حبان (٦٦٥٦) و(٦٨٧١) و(٦٨٧٢)، وغيرهم.

(٤) أخرجه مسلم (٢٣٨٥) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٨١٤٥)؛ وأحمد: ٦/ ٦٣؛ وابن سعد: ٣/ ١٨١.

النبي ﷺ فقال: «**إنِّي لا أدري ما قَدْرُ بقائي فيكم؛ فاقْتَدُوا باللَّذَيْنِ من بعدِي**» ـ وأشار إلى أبي بكر وعمر ـ **واهْتَدوا بِهَدْيِ عمَّار، وما حَدَّثكُم ابنُ مسعود فَصَدِّقُوه**»[1].

وثمة أحاديث أخرى مرت في ثنايا هذا الكتاب.

٣ ـ منزلته عند عمر وعلي وآل البيت وعامة الصحابة وجميع الأمة:

ولقد عرفتِ الأمة من لَدُن الصحابة رضي الله عنهم وإلى أيامنا منزلة الصديق رضي الله عنه وأرضاه، وعلِموا علمَ اليقين الأبلج القائم على الأدلة الواضحة الراسخة ثناءَ الله تعالى عليه في كتابه العزيز، ومكانتَه المتفردة من قلب رسول الله ﷺ، فمَشَوْا على السَّنَن البيضاء والمنهج الأقوم، وأنزلوه من أنفسهم بالمكانة التي يستحقها، وبَرْهَنوا على ذلك فعلاً وقولاً؛ ابتداءً من مبايعته ومؤازرته ومناصرته وطاعته، وانتهاءً بإطرائه والثناء عليه ونشر مفاخره.

ولا ينالُ من سيد سادات الصحابة إلا امرؤ قد طَبَع الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٦٢، ٣٦٦٣)؛ وابن ماجه (٩٧)؛ وابن سعد: ٢/ ٣٣٤؛ وأحمد: ٥/ ٣٨٢، ٣٨٥، ٤٠٢؛ والفسوي: ١/ ٤٨٠؛ وابن أبي عاصم في السنة (١١٤٨، ١١٤٩، ١٤٢٤، ١٤٢٥)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (١٢٢٤)؛ وابن حبان (٦٩٠٢)، وغيرهم، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

أ ـ ثناء الفاروق عمر على أبي بكر ونشره فضائله ومآثره:

١ ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: (كان عمر يقول: أبو بكر سيِّدُنا، وأَعْتَقَ سيِّدَنا ـ يعني بلالاً)[١].

٢ ـ وعن عائشة، عن عمر بن الخطاب قال: (أبو بكر سيِّدُنا، وخيرُنا، وأحَبُّنا إلى رسول الله ﷺ)[٢].

٣ ـ وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى: (أن عمر صَعِد المِنْبر فحمدَ الله وأثنَى عليه، ثم قال: ألا إنَّ أفضَلَ هذه الأمة بعد نبيِّها أبو بكر، فمن قال غيرَ ذلك بعد مقامي هذا فهو مفترٍ، عليه ما على المفتري)[٣].

٤ ـ وفي حديث عائشة في أمر النبي ﷺ أبا بكر أن يصلي بالناس: (فأتاهُ الرسولُ فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ يأمُركَ أن تصلِّي بالناس، فقال أبو بكر ـ وكان رجلاً رقيقاً ـ: يا عمر صلِّ بالناس، فقال له عمر: أنتَ أحقُّ بذلك)[٤].

٥ ـ وفي حديث السَّقيفة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن عمر رضي الله عنه، قال: (قال أبو بكر: وقد رضيتُ لكم أحدَ هذين الرجلَيْن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٥٤)؛ وابن سعد: ٣/ ٢٣٣، ٧/ ٣٨٥.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٥٦)؛ وابن حبان (٦٨٦٢)؛ والحاكم: ٣/ ٦٦ وصححه ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: صحيح غريب؛ وأخرجه البخاري (٣٦٦٨) في حديث السقيفة الطويل.

(٣) أخرجه في خبر طويل: ابن عساكر، ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧؛ وابن الأثير في أسد الغابة: ٣/ ٢١٥ ـ ٢١٦؛ واللالكائي كما في حياة الصحابة: ٢/ ٤٦٤. وعقوبة المفتري ثمانون جلدة!.

(٤) أخرجه البخاري (٦٨٧)؛ ومسلم (٤١٨).

فبايعوا أيَّهما شئتم ، فأخذَ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالسٌ بيننا ، فلم أكرَهْ مما قال غيرَها ، كان واللهِ أنْ أُقَدَّمَ فتُضربَ عُنقي لا يُقرِّبني ذلك من إثم أحَب إليَّ من أن أتأمَّرَ على قومٍ فيهم أبو بكرٍ)[1] .

٦ ـ وعن جُبَيْر بن نُـفَيْر : (أن نَفَراً قالوا لعمر بن الخطاب : والله ما رأيْنا رجلاً أقضَى بالقِسط ، ولا أقوَلَ بالحق ، ولا أشدَّ على المنافقين ، منكَ يا أمير المؤمنين ، فأنتَ خيرُ الناس بعد رسول الله ﷺ! فقال عَوْف بن مالك : كذبتُم والله ، لقد رأَيْنا خيراً منه بعد رسول الله ﷺ! فقال : مَن هو يا عوف؟ فقال : أبو بكر ، فقال عمر : صَدَق عوفٌ وكذبتم ، واللهِ لقد كان أبو بكر أطيبَ من ريح المِسْك ، وأنا أضلُّ من بعير أهلي!)[2] . أي : حين كان عمر مشركاً .

وغير ذلك مما سبق ذِكْره في هذا الكتاب ، ومما سيأتي إن شاء الله .

ب ـ شذرات من أقوال علي بن أبي طالب في الصديق رضي الله عنهما وثنائه عليه :

١ ـ عن محمد بن علي المعروف بابن الحَنَفيَّة ، قال : (قلت لأبي : أيُّ الناسِ خيرٌ بعد رسول الله ﷺ؟ قال : أبو بكر ، قلتُ : ثم مَنْ؟ قال : ثم عمر ، وخشِيتُ أن يقول : عثمانُ ، قلت : ثم أنت؟ قال : ما أنا إلا رجلٌ من المسلمين)[3] .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٣٠) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الإمامة ، ص ٢٧٠ (٥٧)؛ وابن عساكر ، ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦؛ وصححه ابن كثير .

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٧١) واللفظ له؛ وأبو داود (٤٦٢٩)؛ وابن أبي عاصم في السنة (١٢٠٤ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧)؛ وابن عساكر من طرق ، ص ٤٦١ ـ ٤٦٥ .

قال ابن تيمية: (قد رواه البخاري عنه في «صحيحه» من حديث الهَمْدانيين الذين هم أَخَصُّ الناس بعليٍّ ، حتى كان يقول:

ولو كنتُ بوَّاباً على باب جَنَّةٍ لقلتُ لهَمْدانَ ادخلوا بسلامِ

ثم قال: وهذا يقوله لابنه بينه وبينه ، ليس هو مما يجوز أن يقوله تقيَّة ويرويه عن أبيه خاصة ، وقاله على المنبر)[(١)].

٢ ـ وعن أبي جُحَيْفَةَ وَهْب السُّوَائي ، قال: (خطبنا عليٌّ رضي الله عنه فقال: مَن خيرُ هذه الأمة بعد نبيِّها؟ فقلتُ: أنت يا أمير المؤمنين! قال: لا ، خيرُ هذه الأمة بعد نبيِّها أبو بكر رضي الله عنه ، ثم عمر رضي الله عنه ، وما نُبْعِدُ أن السكينةَ تنطقُ على لسان عمر رضي الله عنه)[(٢)].

وفي رواية: عن أبي جُحَيفة ، قال: قال علي: (وَيْحَكَ يا أبا جُحيفة! لا يجتمعُ حُبِّي وبغضُ أبي بكر وعمر في قلب مؤمن! ويحكَ يا أبا جحيفة! لا يجتمعُ بُغْضي وحبُّ أبي بكر وعمر في قلب مؤمن)[(٣)].

وعن حبيب بن أبي ثابت ، عن (عَبْد خَيْر الهَمْدانيِّ قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول على المِنْبر: ألا أُخبِرُكم بخيرِ هذه الأمة بعد نبيِّها؟ قال: فذكَر أبا بكر. ثم قال: ألا أخبركم بالثاني؟ قال: فذكَر عمر. ثم قال: لو شئتُ لأنبأتُكم بالثالث، قال: وسكتَ. فرأَيْنا أنه يعني نفسَه. فقلت: أنتَ سمعتَهُ يقول هذا؟ قال: نعم وربِّ الكعبة ، وإلاّ صُمَّتَا!)[(٤)].

---

(١) منهاج السنة: ٣/ ٥٩٩.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زيادته على المسند: ١/ ١٠٦، وصححه أحمد شاكر.

(٣) أخرجه ابن عساكر ، ص ٤٧٠.

(٤) أخرجه أحمد: ١/ ١١٠ ، ١١٣؛ وابنه عبد الله: ١/ ١١٤ ، ١١٥ ـ ١٢٥؛ ١٢٨ ، وابن أبي عاصم في السنة (١٢٠٨)؛ وصححه أحمد شاكر والألباني.

ورواه عن علي أيضاً جماعة من التابعين، منهم: عَلْقمة بن قيس، وزِرّ بن حُبَيْش، وسُويد بن غَفَلَة، وآخرون[1].

ورواه عنه من الصحابة: أبو جُحيفة كما تقدم، وأبو هريرة، وابن عباس، وأنس بن مالك، وعَمْرو بن حريث[2].

وثَبَت عن عبد خير: أن عليّاً قال هذا بعد موقعة الجمل سنة (٣٦ هـ)[3].

وقد أَطْنَب ابنُ عساكر في سوق الأحاديث بأسانيدها[4].

قال ابن تيمية: تواتر عن أمير المؤمنين علي من الوجوه الكثيرة: أنه قاله على منبر الكوفة[5].

وذكر الذهبي هذا الحديث، ثم قال: (هذا واللهِ العظيم قالَه عليٌّ! وهو متواترٌ عنه، لأنه قالَه على مِنْبر الكوفة، فقاتَلَ اللهُ الرافضةَ ما أَجْهَلَهم!)[6].

وقال ابن كثير: ثبت عنه بالتواتر أنه قاله على منبر الكوفة[7].

---

(١) انظر: ابن عساكر، ص ٤٧٦.
(٢) انظر: ابن عساكر، ص ٤٦٥.
(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند: ١/ ١٢٥، وصححه أحمد شاكر.
(٤) ابن عساكر، ص ٤٦٥ـ٤٩٣.
(٥) منهاج السنة: ١/ ٨، ٩، ٣/ ٥٩٩.
(٦) تاريخ الإسلام ـ عهد الخلفاء الراشدين، ص ١١٥.
(٧) البداية والنهاية: ٧/ ٣٣٤.

٣ ـ وعن عَلْقمة بن قيس ، قال: سمعتُ علياً على المِنْبر ـ فضَرب[(١)] بيده على منبر الكوفة ـ يقول: (بَلَغني أن قوماً يفضِّلوني على أبي بكر وعمر! ولو كنتُ تقدَّمتُ في ذلك لعاقبتُ فيه ، ولكنِّي أكره العقوبةَ قبل التقدمة ، مَنْ قال شيئاً من هذا فهو مفترٍ ، عليه ما على المفتري! إنَّ خيرَ الناس رسول الله ﷺ ، وبعد رسول الله ﷺ أبو بكر ، ثم عمر ، وقد أَحْدَثْنا أحداثاً يقضي الله فيها ما أَحبَّ)[(٢)].

٤ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال: (وُضِعَ عمر بن الخطاب على سَريره ، فتكنَّفَهُ الناسُ يَدْعُون ويُثْنون ويُصلُّون عليه ، قبل أن يُرْفَع ، وأنا فيهم ، قال: فلم يَرُعْني إلا برجلٍ قد أَخذ بمَنْكِبي من ورائي ، فالتفتُّ إليه فإذا هو عليٌّ ، فترحَّم على عمر ، وقال: ما خَلَّفْتُ أحداً أَحبَّ إليَّ أن أَلْقَى الله بمثل عملِه منك ، وايْمُ اللهِ ، إنْ كنتُ لأظنُّ أن يجعلَكَ الله مع صاحِبَيْكَ ، وذاكَ أَنِّي كنتُ أَكَثِّرُ أَسْمَعُ رسول الله ﷺ يقول: «**جئتُ أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلتُ أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجتُ أنا وأبو بكر وعمر**». فإنْ كنتُ لأرجو ، أو لأظنُّ ، أن يجعلَكَ الله معهما)[(٣)].

قوله: (**أن يجعلك الله مع صاحبيك**): يريد بصاحبيه: رسول الله ﷺ وأبا بكر رضي الله عنه ، ويَحتمِل أن يكون أراد بكونه مع صاحبيه دفْنَه

---

(١) أي: علقمة ، كما بينته رواية المسند.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٩٩٣) واللفظ له ، وحسنه الألباني؛ وبأخصر منه في زوائد عبد الله بن أحمد على المسند: ١/ ١٢٧ ، وصححه أحمد شاكر.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٧٧)؛ ومسلم (٢٣٨٩) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٨٠٦١)؛ وابن ماجه (٩٨)؛ وأحمد: ١/ ١١٢ ، وغيرهم.

بقُرْب منهما ، ووقع كما ظن . ويَحتمل أن يريد بالمعيَّة ما يؤول إليه الأمر بعد الموت من دخول الجنة ونحو ذلك[١] .

٥ ـ وعن جعفر بن محمد بن علي ، عن أبيه أبي جعفر الباقر ، قال : (جاء رجلٌ من قريش إلى علي بن أبي طالب ، فقال : يا أمير المؤمنين! سمعتُك تقول في خطبتك آنفاً : اللهمَّ أَصلِحْنا بما أصلحتَ به الخلفاء الراشدين المهتدين ، فمن هم؟ قال : فاغرورقت عيناه ثم همَّلهما ، فقال : خَتنايَ وعمَّايَ أبو بكر وعمر ، إماما الهدى ، وشيخا الإسلام ، ورجلا قريش ، والمُقتدى بهما بعد رسول الله ﷺ ، فمن اقتدى بهما عُصِم ، ومن اتبع آثارهما هُدِي إلى صراط مستقيم ، ومن تمسَّك بهما فهو من حزب الله ، وحزبُ الله هم المفلحون)[٢] .

وروى عنه تلميذه سُويد بن غَفَلَة خطبة طويلة جليلة في فضل أبي بكر وعمر ومنزلتهما في الإسلام ، وحبِّه لهما ، وبراءتِه ممن يُضمر البغض لهما[٣] .

٦ ـ وعن قَيْس الخارفِي ، قال : سمعتُ عليّاً يقول : (سَبَق رسول الله ﷺ ، وصَلَّى أبوبكر ، وثَلَّثَ عمر ، ثم خبطَتْنا فتنةٌ ، ويعفو الله عمَّن يشاء)[٤] .

---

(١) الفتح : ٨/ ٦٢٧ ؛ تكملة فتح الملهم : ٥/ ٤٣ .

(٢) ابن عساكر ، ص ٥٠٠ .

(٣) ابن عساكر ، ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣ ؛ حياة الصحابة : ٢/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨ .

(٤) أخرجه ابن سعد : ٦/ ١٣٠ ؛ وأحمد : ١/ ١١٢ ، ١٢٤ ـ ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٤٧ ، وابن أبي عاصم في السنة (١٢٠٩) ؛ وابن عساكر ، ص ٤٩٤ ـ ٤٩٦ ؛ والحاكم : ٣/ ٦٧ ـ ٦٨ ، وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه أحمد شاكر . وفي سباق الخيل : المُجَلّي هو الأول ، والمُصَلّي الثاني ، والثالث المُسَلِّي .

٧ ـ وعن علي رضي الله عنه، قال: (كنتُ إذا سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثاً ينفعني الله بما شاء أن ينفعني، حتى حدثني أبو بكر، وكان إذا حدثني عن النبي ﷺ بعضُ أصحابه استحلفتُه، فإنْ حَلَف صَدَّقْتُه[١]، وإنَّه حدثني أبو بكر وصَدَقَ أبو بكر، عن النبي ﷺ: أنه قال: «**ما مِن عبدٍ يُذنبُ ذَنْباً، ثم يتوضأ، ثم يصلِّي ركعتين، ثم يستغفرُ اللهَ لذلك الذَّنْب، إلا غَفر الله له**»)[٢].

٨ ـ وعن عبد خير، قال: سمعت علياً يقول: (أعظمُ الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أولُ مَن جَمَع بين اللوحين)[٣].

ـ وتقدَّم قولُ علي في الصديق بأنه أشجع الناس.

وكذلك قوله: إن الله سمَّاه صدِّيقاً.

والأخبار عن علي رضي الله عنه في حبِّه أبا بكر وتبجيله وتقديمه وملازمته ونصرته: كثيرة ثابتة ناطقة صريحة لا تقيَّة فيها، وهي تُلجم كلَّ مفترٍ على الله وعلى صحابة نبيه، وتُزهِق أكاذيبَ كل معتد أثيم يتولَّى غيرَ سبيل المؤمنين.

---

(١) هذا من مزيد احتياط علي وتحريه، وصحابة نبينا ﷺ كلهم صادقون عدول أمناء بررة.

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٢١)؛ والترمذي (٤٠٦) و(٣٠٠٦)؛ والنسائي في الكبرى (١٠١٧٥)؛ وابن ماجه (١٣٩٥)؛ وأحمد: ١/٢؛ وابن حبان (٦٢٣)، وغيرهم؛ وحسنه الترمذي، وصححه أحمد شاكر والألباني.

(٣) أخرجه ابن أبي داود في «المصاحف»: ١/١٦٦، وغيرُه، وسيأتي تخريجه: ص ٥٧٣ حاشية (٣) في هذا الكتاب.

ج ـ مما جاء عن بعض آل علي في حب الصديق وتقديمه على جميع الصحابة:

١ ـ عن جعفر بن محمد الصادق، عن أبيه محمد الباقر، عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، قال: (وَلِيَنا أبو بكر الصدِّيق خليفةُ رسول الله ﷺ، فخيرُ خليفةٍ: أَرحمُهُ بنا، وأحناهُ علينا)[1].

٢ ـ وقال أبو حازم المَدَني الأعرج: (ما رأيتُ هاشميّاً أفقهَ من علي بن الحُسين، سمعتُه وقد سُئل: كيف كانت منزلةُ أبي بكر وعمر عند رسول الله ﷺ؟ فأشار بيده إلى القبر، ثم قال: بمنزلتِهما منه الساعة!)[2].

وعن جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي بن الحُسين، قال: (جاء رجلٌ إلى أَبي فقال: أخبِرْني عن أبي بكر؟ قال: عن الصدِّيق تسألُ؟ قال: وتُسَمِّيه الصدّيق؟! قال: ثَكِلَتْكَ أمُّك! قد سمَّاهُ صِدِّيقاً مَن هو خيرٌ منِّي؛ رسول الله ﷺ والمهاجرون والأنصار، فمن لم يُسَمِّه صِدّيقاً فلا صَدَّق الله قولَه! اذهَبْ فأحِبَّ أبا بكر وعمرَ، وتولَّهُما، فما كان من أمرٍ ففي عُنقي)[3].

٣ ـ وروى محمد بن فُضَيل، عن سالم بن أبي حفصة، قال: (سألتُ أبا جعفر وابنَه جعفراً عن أبي بكر وعمر، فقالا لي: يا سالمُ، تولَّهُما

---

(١) أخرجه الحاكم: ٣/ ٧٩، وصححه، ووافقه الذهبي؛ وابن عساكر، ص ٥٠٤ ـ ٥٠٥؛ وعزاه الحافظ في الإصابة: ٢/ ٣٣٥ للبغوي، وجوَّد إسناده.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

(٣) المرجع السابق: ٤/ ٣٩٥.

وابْرَأْ من عدوِّهما ، فإنهما كانا إمامَيْ هُدًى) .

وعلَّق الذهبي هنا فقال : (كان سالمٌ فيه تَشيُّعٌ ظاهر ، ومع هذا فيبُثُّ هذا القولَ الحقَّ ، وإنما يَعرف الفضلَ لأهل الفضلِ ذو الفَضْل ، وكذلك ناقلُها ابن فُضَيل شيعي ثقة! فعثَّر الله شيعةَ زماننا ما أَغْرَقَهم في الجهل والكذب ، فينالون من الشيخين وزيري المصطفى ﷺ ، ويَحمِلون هذا القول من الباقر والصادق على التقيَّة)[1] .

قلت : فكيف لو سمع الذهبي ورأى الرافضة بعد زمانه وإلى أيامنا؟! .

وعن بسّام الصَّيْرَفيِّ ، قال : (سألتُ أبا جعفر عن أبي بكر وعمر ، فقال : والله إني لأتولاَّهُما وأستغفِرُ لهما ، وما أدركتُ أحداً من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما)[2] .

٤ ـ وعن زيد بن علي بن الحسين ، قال : (كان أبو بكر رضي الله عنه إمام الشاكرين ، ثم تلا : ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ، ثم قال : البراءة من أبي بكر هي البراءة من علي)[3] .

وقال عيسى بن يونس : (جاءت الرافضةُ زيداً ، فقالوا : تبرَّأْ من أبي بكر وعمر حتى نَنْصُرَك ، قال : بل أتولاَّهما! قالوا : إذاً نرفُضُك . فمن ثَمَّ قيل لهم : الرافضة ، وأما الزَّيدية فقالوا بقوله وحاربوا معه)[4] .

---

(١) المرجع السابق : ٤/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣ . **أبو جعفر** : هو محمد بن علي بن الحسين بن علي ، المعروف بالباقر . وابنه جعفر بن محمد بن علي ، المعروف بجعفر الصادق .

(٢) سير أعلام النبلاء : ٤/ ٤٠٣ ؛ وانظر : طبقات ابن سعد : ٥/ ٣٢١ .

(٣) سير أعلام النبلاء : ٥/ ٣٩٠ .

(٤) سير أعلام النبلاء : ٥/ ٣٩٠ ؛ منهاج السنة : ١/ ٤٠٤ .

٥ ـ وجعفر بن محمد بن علي بن الحسين، المعروف بجعفر الصادق:

أمُّه هي أم فَرْوة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وأمُّها هي أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، ولهذا كان يقول: وَلَدني أبو بكر الصديق مرتين[1]!.

وعن محمد بن فُضَيل، عن سالم بن أبي حفصة، قال: (سألتُ أبا جعفر وابنَه جعفراً عن أبي بكر وعمر، فقالا: يا سالم تولَّهُما، وابرَأْ من عدوِّهما، فإنهما كانا إمامَيْ هُدًى.

ثم قال لي جعفر: يا سالمُ، أَيَسُبُّ الرجلُ جدَّه؟! أبو بكر جدِّي، فلا نالتْني شفاعةُ محمد ﷺ يومَ القيامة إنْ لم أكن أتولاَّهما وأبرأ من عدوِّهما!)[2].

وهذه الأخبار تُظهِر موقفَ أهل البيت الطاهرين من الخلفاء الراشدين وعلى رأسهم: أبو بكر وعمر، وأنَّ كل ما يُنسب إلى آل البيت من أقوال تخالف ذلك، إنما هو محضُ كذب وافتراء عليهم.

د ـ طرف من أقوال الصحابة في أبي بكر:

١ ـ عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما، قال: (كنَّا نُخَيِّرُ بين الناسِ

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٦/ ٢٥٥.

(٢) سير أعلام النبلاء: ٦/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩؛ تاريخ الإسلام (وفيات ١٤١ ـ ١٦٠هـ)، ص ٩٠ ـ ٩١، وقال الذهبي هنا: هذا إسناد صحيح، وسالم وابن فضيل شيعيان.

في زمنِ النبي ﷺ، فنُخَيِّر أبا بكر، ثم عمرَ بنَ الخطاب، ثم عثمانَ بنَ عفان، رضي الله عنهم)[1].

زاد في رواية عند ابن أبي عاصم والطبراني والإسماعيلي: (فيَسمَعُ رسول الله ﷺ ذلك فلا يُنكره)[2].

٢ ـ عن أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود، قال: (حبُّ أبي بكر وعمر ومعرفةُ فضلهما من السنة)[3].

٣ ـ وعن ابنِ عباس رضي الله عنهما: أنه سُئل عن أبي بكر، فقال: كان والله خيراً كلَّه[4].

وستأتي نصوص كثيرة من أقوالهم وبيان منزلته عندهم في فصول بيعته وخلافته.

هـ ـ من أقوال أئمة التابعين ومن بعدهم:

١ ـ قال مَسْروق بن الأَجْدَع: حبُّ أبي بكر وعمر ومعرفةُ فضلهما من السنَّة[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥٥)؛ وأبو داود (٤٦٢٧)، و(٤٦٢٨)؛ والترمذي (٣٧٠٧)؛ وأحمد: ٢/ ١٤، ٢٦؛ وابن أبي عاصم في السنة (١١٩٠ ـ ١١٩٩)؛ وابن حبان (٧٢٥١)، وغيرهم.

(٢) السنة، لابن أبي عاصم (١١٩٣)؛ الفتح: ٨/ ٥٧٦ ـ ٥٧٧.

(٣) جامع بيان العلم: ٢/ ٢٢٩.

(٤) ابن عساكر، ص ٥٠٣.

(٥) المعرفة والتاريخ: ٢/ ٨١٣؛ جامع بيان العلم: ٢/ ٢٢٩؛ ابن عساكر، ص ٥١١ ـ ٥١٢.

وهو مطابق لقول شيخه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

٢ ـ وعن مُغِيرة بن مِقْسَم ، قال: (قال رجلٌ لإبراهيم النَّخَعِيِّ: عليٌّ أَحَبُّ إِليَّ من أبي بكر وعمر! فقال له إبراهيم: أَمَا إنَّ علياً لو سمع كلامَك لأوجَعَ ظهرك! إذا كنتم تُجالِسوننا بهذا فلا تجالسونا)[١].

انظر إلى هذا الإمام العراقي الكوفي كيف يرفضُ تقديمَ علي في الحب على الشيخين ، فما الظنُّ بالذين يُبغضونهما بل ويسبُّونَهما؟ فتعساً لهم وأضَلَّ الله أعمالهم!.

٣ ـ وقال محمد بن سِيرين: ما أظنُّ أن رجلاً يَنتقص أبا بكر وعمر ، يحبُّ النبيَّ ﷺ[٢].

٤ ـ وقال عبد العزيز بن جعفر اللؤلؤي: (قلتُ للحسن البصري: حُبُّ أبي بكر وعمر سُنَّة؟ قال: لا ، فريضة)[٣].

٥ ـ وقال فُرات بن السائب: (قلت لميمون بن مِهْران: أبو بكر وعمر أفضَلُ أم عليٌّ؟ قال: فارتَعَدَ حتى سقطَتْ عصاه من يده ، ثم قال: ما كنتُ أَرى أن أعيش إلى زمان يَعْدِلُ بهما! هما رأسُ الإسلام ، ورأسُ الجماعة)[٤].

٦ ـ وقال شُعيب بن حرب: (قلتُ لمالكِ بن مِغْوَل: أَوْصِني ، قال:

---

(١) طبقات ابن سعد: ٦/ ٢٧٥.
(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٨٥) ، وصححه الألباني.
(٣) ابن عساكر ، ص ٥١٣.
(٤) ابن عساكر ، ص ١٣٢.

أُوصِيك بحبِّ أبي بكر وعمر ، فو الله ِإني لأَرجو لك على حبِّهما كما أرجو لك في التوحيد!)[1] .

٧ ـ وروى الحَسن بن محمد الزَّعْفَراني ، عن الشافعي ، قال: اضطربَ الناسُ بعد رسول الله ﷺ ، فلم يجدوا تحت أديمِ السماء خيراً من أبي بكر الصديق ، فوَلَّوْه[2] .

ونقل البيهقي في «الاعتقاد» بسنده إلى أبي ثَوْر ، عن الشافعي: أنه قال: أجمع الصحابة وأتباعُهم على أفضلية أبي بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم علي[3] .

وهكذا قال أحمد وأبو زُرعة وإسحاق بن راهَوَيْه وغيرهم من أئمتنا.

والأمر في هذا طويل ، وحسبنا ما قدمناه.

٤ ـ المبشر بالجنة:

ذهب الإمام المجتهد الكبير أبو محمد ابن حزم إلى أن الصحابة جميعاً من أهل الجنة ، وهو قول له أدلَّته ووجاهتُه ، وحسبُ الأصحاب رضي الله عنهم الآيات الكريمة الكثيرة التي زكَّتْهم وأَثْنَتْ عليهم وشهدتْ لهم بالرضوان من الله تعالى ، والأحاديث الصحيحة الكثيرة الشهيرة ، التي نَطقت بفضائلهم وجلائل أعمالهم ، ونَهَتْ أشدَّ النهي عن سَبِّهم أو التعريضِ بهم.

واشْتَهَر جَمٌّ غَفير من الصحابة بأنهم مبشَّرون بالجنة بأعيانهم والنص

---

(١) ابن عساكر ، ص ٥١٥ .

(٢) ابن عساكر ، ص ٤٠٣ .

(٣) الفتح: ٨/ ٥٧٨ شرح الحديث (٣٦٥٥).

على أسمائهم ، وفي غُرَّة هؤلاء: العشرة المبشرون الكبار الذين انتظَمَ أسماءَهم وتبشيرهم بالجنة حديثٌ واحد في نسق واحد ، وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدون الأربعة، وفي طليعة هذه المقدمة صِدِّيق الأمة وثاني اثنين وخليفة رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه وقد فعل .

والأحاديث في هذا كثيرة جليلة ، نشير إليها لإتمام جوانب البحث في مناقبه ومنزلته :

١ ـ عن أبي موسى الأَشْعري رضي الله عنه قال: (كنتُ مع النبي ﷺ في حائطٍ من حِيطان المدينة ، فجاءَ رجلٌ فاسْتَفْتَحَ ، فقال النبيُّ ﷺ: **«افتَحْ له وبشِّرْهُ بالجنّة»** ففتحتُ له فإذا أبو بكر ، فبشّرْتُه بما قال رسول الله ﷺ ، فحمدَ الله. ثم جاء رجل فاستَفْتَح ، فقال النبي ﷺ: **«افتحْ له وبشِّرْهُ بالجنَّة»** ففَتحتُ له فإذا هو عمر ، فأخبرتُه بما قال النبي ﷺ ، فحمدَ الله. ثم استَفْتَحَ رجلٌ ، فقال لي: **«افْتَحْ له وبشِّرْهُ بالجنَّة على بَلْوى تُصِيبُه»** فإذا عثمانُ ، فأخبرتُه بما قال رسول الله ﷺ ، فحمدَ الله ، ثم قال: اللهُ المستعانُ)[(١)].

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْن في سبيل الله من مالِه؛ دَعَتْه حَجَبَةُ الجنَّة: أيْ فُلُ ، هَلُمَّ هذا خيرٌ»** مِراراً ، فقال أبو بكر: يا رسول الله! هذا الذي لا تَوَى عليه ، فقال رسول الله ﷺ: **«أَمَا إنِّي أَرجو أن تَدْعُوكَ الحَجَبَةُ كلُّها»**)[(٢)].

---

(١) أخرجه مطولاً ومختصراً: البخاري (٣٦٩٣) واللفظ له ، وأطرافه في (٣٦٧٤)؛ ومسلم (٢٤٠٣)؛ والترمذي (٣٧١٠)؛ والنسائي في الكبرى (٨٠٧٦ ، ٨٠٧٨)؛ وأحمد: ٤/ ٣٩٣؛ وابن حبان (٦٩١٠ ـ ٦٩١٢).

(٢) أخرجه ابن حبان (٤٦٤١) بهذا اللفظ ، وتقدم بلفظ آخر مع تخريجه: =

قال ابن حِبَّان: «**عسى**» من الله واجبٌ، و«**أرجو**» من النبي ﷺ حقٌّ[1].

٣ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (قال رسول الله ﷺ: «**يَـدْخُلُ الجنَّةَ رجلٌ، فلا يَـبْقى أهلُ دار ولا أهلُ غرفةٍ إلا قالوا: مَرْحَباً مَرحباً، إلينا إلينا**»! فقال أبو بكر: يا رسولَ الله! ما تَوَى على هذا الرجلِ في ذلك اليوم، قال: «**أَجَلْ، وأنت هوَ يا أبا بكر**»)[2].

٤ ـ وعن عبد الرحمن بن عَوْف رضي الله عنه، قال: قال النبيُّ ﷺ: «**عَشْرةٌ في الجَنَّة: أبو بكر في الجنة، وعمرُ في الجنة، وعثمانُ في الجنة؛ وعليٌّ في الجنة، والزبيرُ في الجنة، وطلحةُ في الجنة، وابنُ عوف في الجنة، وسعدٌ في الجنة، وسعيد بنُ زَيْد في الجنة، وأبو عُبيدة بن الجراح في الجنة**»[3].

وروى مثلَه سعيد بن زيد رضي الله عنه[4].

= ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ حاشية (١) في هذا الكتاب. قوله: «**أي فل**» معناه: أي فلان، مُرَخَّم. (**لاتوى عليه**): لا هلاك ولا ضياع ولا خسارة.

(١) صحيح ابن حبان: ٨/ ٢٠٨ حديث (٣٤١٩). وانظر: الفتح: ٨/ ٥٩٦ (٣٦٦٦).

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٨٦٧) واللفظ له؛ والطبراني في الكبير (١١٦٦)؛ وفي الأوسط (٤٨٥)؛ وقال الهيثمي في (المجمع: ٩/ ٤٦): رجاله رجال الصحيح غير أحمد بن أبي بكر السالمي وهو ثقة. وذكر الحافظ في الفتح: ٨/ ٥٩٦ طرفاً منه وسكت عليه.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٨١٣٨)؛ والترمذي (٣٧٤٧)؛ وأحمد: ١/ ١٩٣؛ وابن حبان (٧٠٠٢)؛ والبغوي (٣٩٢٥)؛ وصححه أحمد شاكر والألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٦٤٨ ـ ٤٦٥٠)؛ والترمذي (٣٧٤٨)، (٣٧٥٧)؛ والنسائي=

٥ ـ وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ أهلَ الدرجاتِ العُلَى ليَرَاهُم مَنْ تحتَهم كما ترونَ النجمَ الطالعَ في أُفقِ السماءِ ، وإنَّ أبا بكر وعمرَ منهم ، وأَنْعَمَا**»[1].

٦ ـ وعن أبي جُحَيْفةَ وَهْبِ بن عبد الله السُّوائي رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أبو بكر وعمر سيّدا كُهولِ أهلِ الجنّةِ من الأوَّلين والآخِرين ، إلا النبيين والمرسلين**»[2].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قال: (كنتُ مع رسول الله ﷺ، إذ طَلَعَ أبو بكر وعمر ، فقال رسول الله ﷺ: «**هذانِ سَيِّدا كُهولِ أهلِ الجنَّةِ من الأوّلينَ والآخِرين ، إلا النَّبيين والمرسَلين ، يا عليّ لا تُخْبِرْهُما**»)[3].

٧ ـ وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال: (كنّا عند النبيّ ﷺ ، فقال النبيُّ ﷺ: «**يَطْلُع عليكم رجلٌ من أهلِ الجنَّة**» ،

= في الكبرى (٨١٣٩ ، ٨١٥٣ ، ٨١٦٢)؛ وأحمد: ١/ ١٨٧ ، ١٨٨؛ وابن حبان (٦٩٩٣) وغيرهم؛ وصححه أحمد شاكر والألباني.

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٥٨)؛ وأبو داود (٣٩٨٧)؛ وابن ماجه (٩٦)؛ وابن أبي عاصم في السنة (١٤١٨ ، ١٤١٩)؛ وأحمد: ٣/ ٢٦ ، ٢٧ ، ٥٠ ، ٦١؛ والبغوي (٣٨٩٢)؛ وحسنه الترمذي والبغوي وصححه الألباني. قوله: «**وأنعما**»: أي زادا على تلك الرتبة والمنزلة.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٠٠)؛ وابن حبان (٦٩٠٤)؛ وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٦٤ـ٣٦٦٦)؛ وابن ماجه (٩٥)؛ وأحمد: ١/ ٨٠؛ وابن أبي عاصم في السنة (١٤٢١)؛ وصححه أحمد شاكر والألباني.

فاطَّلَع أبو بكر ، فسلَّم ثم جَلَس»[1].

وثمّة أحاديث أخرى مرَّ بعضُها في ثنايا الكتاب.

٥ ـ أحاديث ضعيفة وواهية وباطلة رويت في فضائله:

لقد أغنى الله صحابةَ رسول الله ﷺ عموماً وأبا بكر الصديق خصوصاً عن الأحاديث الواهية والموضوعة التي رُويت في فضائلهم ، وحَسْبُهم ما جاء في التنزيل الحكيم والسنن الصحيحة الكثيرة السائرة في مناقبهم.

وقد أخطأ كثير من السابقين وجمهرة من الكتَّاب المعاصرين المتكثِّرين في تسويد صحائف الصديق بذِكْر الأحاديث الواهية والموضوعة في سيرته ومناقبه ، وضاهؤوا في ذلك الرافضةَ في اختراعِهم الأحاديثَ في فضائل علي رضي الله عنه!.

وأشير هنا إلى طَرَفٍ من تلك الأحاديث؛ لِنَفْي الدَّغَل والشوائب عن حياض سيرة سيدنا أبي بكر الصافية المتلألئة بكل أنواع المفاخر الثابتة في الأحاديث الصحيحة كما قدمنا.

١ ـ «أبو بكر وعمر خيرُ الأوَّلين ، وخير الآخرين ، وخير أهل السموات ، وخير أهل الأرض ، إلا النبيين والمرسلين». **موضوع**[2].

٢ ـ «إن الله تعالى يَكره فوقَ سمائِه أن يُخَطَّأ أبو بكر الصديق في الأرض». **موضوع**[3].

---

(١) أخرجه الحاكم: ٣/ ٧٣ ، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) ابن عساكر ، ص ٢٧٦؛ ضعيف الجامع (٥٨)؛ الضعيفة (١٧٤٢).

(٣) ضعيف الجامع (١٧٥٧)؛ الضعيفة (٣١٣٦)؛ ابن عساكر ، ص ٢٢٤ ، وشَيَّد عليه الدكتور حامد الخليفة بناءً في كتابه: أبو بكر الصديق: ١/ ٣١٠.

٣ - «إنَّ في السماءِ الدنيا ثمانينَ ألفَ مَلَكٍ يستغفرون الله لمن أَحَبَّ أبا بكر وعمر». **موضوع**[١].

٤ - وعن ابن عُمر رضي الله عنهما قال: (كنتُ عند النبي ﷺ، وعنده أبو بكر الصديق وعليه عباءةٌ قد خَلَّها في صدره بخِلالٍ، فنزل عليه جبريل فقال: يا محمد، ما لي أَرى أبا بكر عليه عباءة قد خلَّها في صدره بخِلاَل؟ فقال: «يا جبريل، أَنفقَ مالَه عليَّ قبل الفتح»، قال: فإن الله عز وجل يقرأُ عليه السلام، ويقول: قُلْ له: أَراضٍ أنتَ عني في فقرك هذا أم ساخِطٌ؟ فقال أبو بكر: أَسْخَطُ على ربِّي؟! أنا عن ربي راضٍ، أنا عن ربي راضٍ، أنا عن ربي راضٍ!). **كذب**[٢].

٥ - «إن الله يتجلى للمؤمنين عامة، ويتجلى لأبي بكر خاصة». **باطل**[٣].

٦ - «أبو بكر منِّي، وأنا منه، وأبو بكر أخي في الدنيا والآخرة». **موضوع**[٤].

(١) تاريخ بغداد: ٧/ ٣٨٤؛ ابن عساكر، ص ٢٤٤ - ٢٤٥، وقد حكم الحافظ الخطيب عليه بالوضع.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية: ٧/ ١٠٥؛ والبغوي في تفسيره: ٤/ ٢٦٩؛ والقرطبي في تفسيره ١٧/ ٢٠٦؛ وابن عساكر، ص ١٦٣، وهو في: حياة الصحابة: ١/ ٣٢٦؛ وضعفه ابن كثير في تفسيره: ٤/ ٣٦٣ - ٣٦٤؛ وقال السيوطي في (تاريخ الخلفاء، ص ٣٩): ضعيف جدّاً؛ وقال الذهبي في (الميزان: ٣/ ١٠٣): هو كذب.

(٣) تاريخ بغداد: ١٢/ ١٩؛ ابن عساكر، ص ٢٥٤ - ٢٥٧؛ قال الخطيب البغدادي: هذا باطل! وحكم الذهبي عليه بالوضع في ذيل المستدرك: ٣/ ٧٨.

(٤) ضعيف الجامع (٥٧)؛ الضعيفة (٢٠٩٠).

٧ ـ «لا يَنْبغي لقومٍ فيهم أبو بكر أن يَؤُمَّهم غيره». **ضعيف جدّاً**[١].

والحديث فيه (عيسى بن ميمون)، وهو متروك.

وقد ذكره ابن تيمية في «منهاج السنة»[٢]، واستشهد به الدكتور حامد الخليفة في مواضع من كتابه عن الصديق[٣]!.

نقول: والحديث مُعارَض بما في «صحيح مسلم» وغيره[٤]، فقد صلى عبد الرحمن بن عوف إماماً بالصحابة وفيهم أبو بكر وعمر، بل اقتدى به النبي ﷺ في تلك الصلاة ـ وهي الفجر ـ فأدرك معه الركعة الثانية!.

٨ ـ «إنَّ لي وزيرينِ من أهل السماء ووزيرين من أهل الأرض: فَوَزيرايَ من أهل السماء: جبريل وميكائيل، ووزِيرايَ من أهل الأرض: أبو بكر وعمر». **ضعيف**[٥].

وذكره الدكتور حامد الخليفة في مناقب الصديق[٦]، وقد أغنى الله أبا بكر عن هذا الحديث الضعيف!.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٧٣)؛ وابن عساكر، ص ٣٥٩؛ وقال الألباني في ضعيف الجامع (٦٣٧١): ضعيف جدّاً.

(٢) منهاج السنة: ٤/ ١٦٢.

(٣) أبو بكر الصديق: ١/ ٢٩٥، ٥٩٣، ٦١٠، ٦٥٥.

(٤) صحيح مسلم (٢٧٤) بعد الحديث (٤٢١)؛ ابن حبان (٢٢٢٤) وفيه تخريجه.

(٥) ضعيف الجامع (١٩٧٢، ٥٢٢٣)؛ الضعيفة (٣٠٥٦)؛ ابن عساكر، ص ٢١٤ ـ ٢١٦؛ والترمذي (٣٦٨٠).

(٦) أبو بكر الصديق: ١/ ٣٦٩.

٩ ـ «حُبُّ أبي بكر وعمر من الإيمان ، وبُغْضهما كُفْر». **ضعيف جدّاً**[١].

واستشهد به حامد الخليفة في بيان فضائل أبي بكر[٢].

١٠ ـ «أوّلُ مَن تنشقُّ عنه الأرضُ أنا ولا فخر ، ثم تنشقُّ عن أبي بكر وعمر ، ثم تنشق عن الحرَمَيْنِ: مكة والمدينة ، ثم أُبْعَثُ بينهما». **ضعيف**[٣].

١١ ـ «إنْ تُوَلُّوا أبا بكر تجدُوه زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة ، وإنْ تُولُّوا عمرَ تجدوه قويّاً أميناً لا تأخذه في الله تعالى لومةُ لائم ، وإنْ تُولوا عليّاً تجدوه هادياً مهدياً يَسلك بكم الطريق». **ضعيف منكر**[٤].

١٢ ـ عن أبي أَروى الدَّوْسيِّ ، قال: (كنتُ جالساً عند النبي ﷺ ، فاطَّلَع أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، فقال رسول الله ﷺ: «الحمدُ لله الذي أيَّدني بِكما»). **واهٍ**[٥].

واستدل به الدكتور حامد الخليفة على ثبوت خلافة أبي بكر في السنة[٦]!.

---

(١) ضعيف الجامع (٢٦٨٠)؛ الضعيفة (٣٤٧٨)؛ ابن عساكر ، ص ٢٣٩.
(٢) أبو بكر الصديق: ١/ ٣٦٩ ، ٣٧٤.
(٣) ضعيف الجامع (١٣١٠) و(٢١٤٤)؛ الضعيفة (٢٩٤٩)؛ الترمذي (٣٦٩٢)؛ المستدرك: ٣/ ٦٨.
(٤) المستدرك: ٣/ ٧٠.
(٥) المستدرك: ٣/ ٧٤.
(٦) أبو بكر الصديق: ١/ ٦٥٦.

وفي معناه حديث آخر موضوع[1].

١٣ ـ «سيكون اثنا عشر خليفة ، منهم أبو بكر الصديق لا يَلبثُ بعدي إلا قليلاً». **ضعيف**[2].

واستدل به الدكتور حامد الخليفة على ثبوت النص على خلافة أبي بكر[3]!.

١٤ ـ «ما قَدَّمْتُ أبا بكر وعمرَ ، ولكنَّ الله قدَّمَهُما». **ضعيف**[4].

١٥ ـ «ما في الجنَّة شجرةٌ إلا مكتوبٌ على كلِّ ورقةٍ منها: لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله ، أبو بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وعثمان ذو النورين». **باطل**[5].

وثمَّةَ أحاديث أخرى موضوعة وواهية وضعيفة ، قد ذكرها من صنَّفَ في «الأحاديث الضعيفة والموضوعة»؛ كابن الجوزي والسيوطي وابن عَرَّاق والألباني.

* * *

---

(١) ضعيف الجامع (١٥٧٤)؛ الضعيفة (٣٠٥٦).
(٢) السنة ، لابن أبي عاصم (١١٥٢) و(١١٦٩) و(١١٧١).
(٣) أبو بكر الصديق: ٢/ ٧٢١ ـ ٧٢٢.
(٤) ضعيف الجامع (٥١٢١).
(٥) تنزيه الشريعة: ١/ ٣٥٠ ـ ٣٥١.



الباب الخامس

خلافة الصديق
وأبرز معالمها وأحداثها ومشكلاتها

- خلافة الصديق بين النص والاختيار.
- يوم السقيفة والبيعة العامة.
- مع السيدة فاطمة الزهراء وآل البيت ومسألة ميراث النبي ﷺ.
- إنفاذ بعث أسامة.
- ردة جائحة وحركات تنبؤ بائرة، والصديق يفقأ عينها.
- جمع القرآن الكريم.
- ملامح دولة الخلافة وأركانها في عهد الصديق.

* * *



الفصل الأول

خلافة الصديق بين النص والاختيار

• توطئة:

(نظام الخلافة) أو (نظام الحكم الإسلامي) يعني إذا أُطْلِق: مجموعَ المبادئ الأساسية التي جاء بها الإسلام في مصدرَيْه الأساسيَّيْن: القرآن والسنة، واستنبطه منهما علماء المسلمين في كل عصر في ميدان الحكم والدولة، أي: هي (النظام السياسي الإسلامي).

واختير لفظ (الخليفة) و(أمير المؤمنين) و (الإمام) للدلالة على منصب رياسة الدولة على الطريقة النبوية لا على الطريقة الكسروية والقيصرية التي كانت عند أمم ذلك العهد.

وأُطْلِق لفظ (خليفة رسول الله) على أبي بكر وحده، وأَطلقوا على عمر (أمير المؤمنين)، ثم أصبحت كلمة (خليفة) تستعمل لكل أمير للمؤمنين من بعد من غير إضافة.

وإسراعُ كبار الصحابة بعد انتقال النبي ﷺ إلى ربه لاختيار خليفة للمسلمين يَخْلُفه في هذه الصفة، وعدمُ إنكار أحد منهم ضرورةَ اختيار خليفة له ﷺ يَخْلُفه في رياسة الدولة ـ دليلٌ واضح لكل ذي عينين ولمن عنده مَسْكَة من عقل؛ على أن إقامةَ الدولة والاضطلاع بالحكم والسلطة جزءٌ ضروري من الإسلام لا يقوم إلا به، ولا يتم إسلام المسلمين من

دونه. ومعلوم أن إجماع الصحابة على أمر من أمور الدين يُعتبر دليلاً وحجّةً على شرعيته[1].

وخلافة الخلفاء الراشدين الأربعة وفي طليعتهم أبو بكر كانت على منهاج النبوة، كما شهدت بذلك الأحاديث الصحيحة والواقع التاريخي التطبيقي لعهدهم وأعمالهم.

عن حُذيفة بن اليَمان رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**تكونُ النبوَّةُ فيكم ما شاءَ الله أن تكونَ، ثم يرفَعُها الله إذا شاءَ أن يرفَعَها.. ثم تكونُ خلافةٌ على مِنهاج النبوة، فتكونُ ما شاء الله أن تكونَ، ثم يرفَعُها إذا شاءَ أن يرفَعَها. ثم تكونُ مُلْكاً عاضّاً**، ...» الحديث[2].

عن سعيد بن جُمْهَان (عن سَفِينةَ مولى النبي ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**خلافةُ النبوة ثلاثون سنةً، ثم يُؤتي اللهُ الملكَ ـ أو: مُلكَه ـ من يشاء**» قال سعيد: قال لي سفينة: أَمْسِكْ عليكَ: أبا بكر سنتين، وعمر عشراً، وعثمان اثنتي عشرة، وعلي ست سنين)[3].

---

(١) نظام الإسلام «الحكم والدولة»، لمحمد المبارك، ص ١٦ ـ ١٧، ٥٥ ـ ٥٧؛ وانظر: «النظريات السياسية الإسلامية» و«الإسلام والخلافة في العصر الحديث»، كلاهما للدكتور ضياء الدين الريس.

(٢) السلسلة الصحيحة (٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٤٦)؛ والترمذي (٢٢٢٧)؛ وأحمد: ٥/ ٢٢٠ ـ ٢٢١؛ وابن أبي عاصم في السنة (١١٨١)؛ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣٣٤٩)؛ وابن حبان (٦٦٥٧) و(٦٩٤٣) وغيرهم؛ وحسنه الترمذي؛ وصححه الألباني. والأحاديث في الباب كثيرة قد أوسعتُها شرحاً في كتابي: «نبوءات الرسول ﷺ ـ دروس وعبر».

ورغم الذهول الذي أصاب أعيانَ الصحابة وعامة المسلمين لوفاة النبي ﷺ ، فإن أهمية إقامة السلطة في الإسلام جعلَتْهم يتحركون في اتجاه اختيار الحاكم قبل أن ينتهوا من تشييع الجسد الشريف ودفنه[1]! .

ورأى أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسائر الصحابة المبادرةَ بالبيعة من أعظم مصالح المسلمين ، وخافوا من تأخيرها حصول خلاف ونزاع تترتب عليه مفاسد عظيمة ، ولهذا أخَّروا دفْنَ النبي ﷺ حتى عقدوا البيعة لكونها كانت أهمَّ الأمور؛ كيلا يقع نزاعٌ في مدفنه أو كفنه أو غسله أو الصلاة عليه أو غير ذلك ، وليس لهم مَن يَفصِل الأمور. فرأوا تقدُّم البيعة أهم الأشياء[2]. مع إدراكهم خطورة الأوضاع المحيطة بالكيان الإسلامي من القبائل المنتشرة في البوادي والصحراء، والدولتين الكبيرتين فارس والروم.

أولاً: الإشارات الناطقة باستخلافه:

الأحاديث التي تشير إلى استخلاف أبي بكر بعد رسول الله ﷺ حتى تكادَ تنطِق ، وتدلّ حتى تكاد تصرِّح ـ هي نصوص كثيرة صحيحة ثابتة كالجبال ، شامخة كالسماء ، مشرقة كالضياء.

وعلَّق الحافظ على حديث «نَزْع الماء من البئر» ، وقوله ﷺ: «**فأَخذ أبو بكر الدَّلْوَ فَنَزع ذَنُوباً أو ذَنُوبين... ثم أَخذَها ابنُ الخطاب من يدِ أبي بكر**»؛ فقال:

---

(١) عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٦.

(٢) شرح صحيح مسلم ، للنووي: ٦/ ٣٢٤ (١٧٥٩)؛ وانظر: الفتح: ١٥/ ٤٤١ (٦٨٣٠).

(فيه إشارة إلى أن عمر وَلي الخلافةَ بعهد من أبي بكر إليه ، بخلافِ أبي بكر فلم تكن خلافته بعهد صريح من النبي ﷺ ، ولكنْ وقعَتْ عدة إشارات إلى ذلك فيها ما يَقْرب من الصريح)[1] .

وهذه الأحاديث كثيرة شهيرة ، وقد فهم الصحابة المخاطبون بها وهم أفصح الفصحاء والمؤتمنون على دين الله المرادَ منها ، فلم يترددوا في تقديم أبي بكر ومبايعته ومؤازرته وطاعته والعمل معه يداً واحدة في تثبيت دولة الإسلام وإبلاغ رسالته للعالمين .

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول : «**بَيْنَا أنا نائمٌ رأَيْتُني على قَليبٍ عليها دَلْو ، فَنَزَعْتُ منها ما شاء الله ، ثم أَخَذَها ابنُ أبي قُحافة فنَزَعَ بها ذَنُوباً أو ذَنُوبَيْنِ ، وفي نَزْعِه ضَعْفٌ واللهُ يغفرُ له ضَعْفَه ، ثم اسْتَحالتْ غَرْباً فأَخذَها ابنُ الخطاب ، فلم أرَ عَبقريّاً من الناس يَنْزِع نَزْعَ عمرَ ، حتى ضَرَبَ الناسُ بعَطَنٍ**» .

وفي رواية : «**فأتاني أبو بكر فأخذَ الدلْوَ من يدِي لِيُرِيحَني**»[2] . لفظ البخاري .

قال العلماء : (هذا المنام مِثالٌ لِما جرى للخليفتين من ظهور آثارهما الصالحة ، وانتفاع الناس بهما ، وكلُّ ذلك مأخوذٌ من النبي ﷺ لأنه

(١) الفتح : ١٦/ ٢٣٣ (٧٠١٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٤) وفيه أطرافه ؛ ومسلم (٢٣٩٢) ؛ والنسائي في الكبرى (٧٥٨٨) ؛ وأحمد : ٢/ ٣٦٨ ، ٤٥٠ ؛ وابن حبان (٦٨٩٨) ، وغيرهم.
وفي الباب عن ابن عمر : أخرجه البخاري (٣٦٣٤) ؛ ومسلم (٢٣٩٣) ؛ والنسائي في الكبرى (٧٥٨٩) ، وغيرهم.

صاحبُ الأمر ، فقام به أكملَ قيام وقرَّر قواعدَ الدين ، ثم خَلَفه أبو بكر فقاتل أهلَ الردة وقطَع دابرهم ، ثم خَلَفه عمر فاتسع الإسلام في زمنه. فشبَّه أمرَ المسلمين بقَليب فيه الماء الذي فيه حياتُهم وصلاحُهم ، وشبَّهَ أميرهم بالمُستقي لهم منها ، وسقيَه هو قيامه بمصالحهم.

وفي قوله: «ليُريحَني» إشارة إلى خلافة أبي بكر بعد موت النبي ﷺ ، لأن في الموت راحةً من كدر الدنيا وتعبها ، فقام أبو بكر بتدبير أمر الأمة ومعاناة أحوالهم.

وأما قوله: «**وفي نزعه ضَعْفٌ**» فليس فيه حطٌّ من فضيلته ، وإنما هو إخبارٌ عن حاله في قِصَر مدة ولايته ، وأما ولاية عمر فإنها لمَّا طالَتْ كَثُر انتفاعُ الناس بها ، واتسعت دائرة الإسلام بكثرة الفتوح وتمصير الأمصار وتدوين الدواوين.

وأما قوله: «**والله يغفر له**» فليس فيه نقصٌ له ولا إشارة إلى أنه وقع منه ذنب ، وإنما هي كلمة كانوا يقولونها يدعمون بها الكلام.

وفي الحديث إعلامٌ بخلافتِهما وصحة ولايتهما وكثرة الانتفاع بهما ، فكان كما قال)[1].

(وقوله: «**ذَنوباً أو ذَنُوبَيْن**» إشارة إلى ما فُتح في زمن الصديق من الفتوح الكبار وهي ثلاثة ، ولذلك لم يتعرض في ذِكْر عمر إلى عدد ما نزعه من الدِّلاء وإنما وَصف نَـزْعَه بالعظمة إشارة إلى كثرة ما وقع في خلافته من الفتوحات.

---

(١) الفتح: ١٦/ ٢٣٤ (٧٠١٩)؛ شرح صحيح مسلم ، للنووي: ٨/ ١٧٨ _ ١٧٩ (٢٣٩٢).

وقد ذكر الشافعي تفسير هذا الحديث في «الأم» فقال بعد أن ساقه: ومعنى قوله: «**وفي نزعه ضعف**»: قِصر مدّته، وعجلةُ موته، وشغلُه بالحرب لأهل الردة عن الافتتاح والازدياد الذي بَلَغه عمر في طول مدته)[1].

٢ ـ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مَرَضِه: «**ادْعِي لي أبا بكر وأخاكِ، حتى أكتبَ كتاباً؛ فإنّي أخافُ أن يتَمنّى مُتمنٍّ ويقولَ قائلٌ: أنا أَوْلَى! ويأبَى اللهُ والمؤمنون إلا أبا بكر**»[2].

وفي رواية عنها، عن النبي ﷺ، قال: «**لقد هَممتُ ـ أو: أردتُ ـ أن أُرسِلَ إلى أبي بكر وابنِه فأعهدَ، أن يقولَ القائلون أو يتمنَّى المتمنُّون، ثم قلتُ: يأبَى اللهُ ويَدْفَعُ المؤمنون، أو يَدْفَعُ الله ويأبَى المؤمنون**»[3].

وفي رواية لأحمد: عنها، قالت: (لمَّا ثَقُلَ رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن أبي بكر: «**ائْتِني بكَتِفٍ أو لوحٍ حتى أكتبَ لأبي بكر كتاباً لا يُخْتَلَفُ عليه**» فلما ذهبَ عبد الرحمن ليقومَ، قال: «**أبَى الله والمؤمنون أن يُختَلَف عليكَ يا أبا بكر**»[4]!.

---

(١) الفتح: ٨/ ٦١١ (٣٦٧٦)؛ وانظر: ١٦/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٧) واللفظ له؛ والنسائي في الكبرى (٧٠٤٤)؛ وأحمد: ٦/ ١٠٦، ١٤٤؛ وابن حبان (٦٥٩٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٦٦)، و(٧٢١٧).

(٤) مسند أحمد: ٦/ ٤٧.

وفي رواية أخرى: عنها، قالت: قال ﷺ: «**دَعِيه، معاذَ اللهِ أن يَختلف المؤمنون في أبي بكر**»[1]!.

قال الإمام النَّووي: (في هذا الحديث دلالةٌ ظاهرة لفضلِ أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وإخبار منه ﷺ بما سيقع في المستقبل بعد وفاته، وأن المسلمين يأبَوْن عقْدَ الخلافة لغيره)[2].

وقد بَوَّبَ الإمام البخاري في (كتاب الأحكام) من صحيحه فقال: (باب الاستخلاف)، وأوردَ هذا الحديث في صدره، ثم ساق أحاديث أخرى.

قال الحافظ: (قوله ﷺ: «**فأَعْهَدَ**»: أي: أعيِّن القائم بالأمر بعدي، هذا هو الذي فهمه البخاري فترجَمَ به وإنْ كان العهد أعمَّ من ذلك، لكن وقع في رواية عروة عن عائشة: «**ادْعي لي أباكِ وأخاكِ حتى أكتبَ كتاباً**» وقال في آخره: «**ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»، وفي رواية لمسلم: «**ادْعِي لي أبا بكر حتى أكتب كتاباً، فإني أخاف أن يتمنَّى متمنٍّ، ويأبَى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»، وفي رواية للبزار: «**مَعاذ اللهِ أن يَختلف الناس على أبي بكر**» ـ فهذا يُرشِد إلى أن المراد: الخلافة)[3].

٣ ـ عن عُبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (لمَّا اشتدَّ بالنبيِّ ﷺ وجَعُهُ قال: «**ائْتُوني بكتابٍ أَكْتُبْ لكم كتاباً لا تَضلُّوا**

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١١٦٣)؛ وابن سعد: ٣/ ١٨٠؛ وأبو نعيم في الإمامة، ص ٢٤٩ (٤١).

(٢) شرح صحيح مسلم: ٨/ ١٦٩.

(٣) الفتح: ١٦/ ٦٠٦ ـ ٦٠٧ (٧٢١٧).

بعده» ، قال عمرُ: إنَّ النبيَّ ﷺ غَلَبه الوجَعُ ، وعندنا كتابُ الله حَسْبُنَا . فاختلَفُوا ، وكَثُر اللَّغَط . قال: **«قُومُوا عنِّي ، ولا يَنبغي عندي التنازعُ»!** فخَرجَ ابنُ عباس يقول: إنَّ الرَّزيَّةَ كلَّ الرَّزِيةِ ما حالَ بينَ رسول الله ﷺ وبين كتابِه)[1] لفظ البخاري.

ونقل الحافظ عن القرطبي وغيره قالوا: («**ائتوني**» أمرٌ ، وكان حق المأمور أن يبادر للامتثال ، لكنْ ظهر لعمر رضي الله عنه مع طائفة أنه ليس على الوجوب ، وأنه من باب الإرشاد إلى الأصلح ، فكرهوا أن يكلِّفوه من ذلك ما يَشُقُّ عليه في تلك الحالة ، مع استحضارهم قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقوله تعالى: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] ، ولهذا قال عمر: حسبنا كتاب الله. وظهر لطائفة أخرى أن الأَوْلى أن يَكتب لِما فيه من امتثال أمره وما يتضمنه من زيادة الإيضاح. ودلَّ أمرُه لهم بالقيام على أن أمْرَهُ الأول كان على الاختيار ولهذا عاش ﷺ بعد ذلك أياماً ولم يعاود أمرهم بذلك ، ولو كان واجباً لم يتركْه لاختلافهم؛ لأنه لم يترك التبليغ لمخالفة من خالف ، وقد كان الصحابة يراجعونه في بعض الأمور ما لم يجزم بالأمر ، فإذا عزم امتثلوا. وقد عُدَّ هذا من موافقة عمر رضي الله عنه.

واختُلف في المراد بالكتاب؛ فقيل: كان أراد أن يكتب كتاباً ينص فيه على الأحكام ليرتفع الاختلاف. وقيل: بل أراد أن ينص على أسامي الخلفاء بعده حتى لا يقع بينهم الاختلاف ، قاله سفيان بن عيينة ،

(١) أخرجه البخاري (١١٤) وفيه أطرافه؛ ومسلم (١٦٣٧)؛ والنسائي في الكبرى (٥٨٢١) ، و(٧٤٧٤)؛ وابن سعد: ٢/ ٢٤٢؛ وأحمد: ١/ ٣٢٤ـ ٣٢٥ ، ٣٣٦؛ وابن حبان (٦٥٩٧) ، وغيرهم.

ويؤيده أنه ﷺ قال في أوائل مرضه وهو عند عائشة: «**ادْعِي لي أباكِ وأخاك حتى أكتبَ كتاباً، فإني أخاف أن يتمنى متمنٍّ ويقول قائل، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**» أخرجه مسلم، وللمصنِّف معناه، ومع ذلك فلم يكتب، والأول أظهر لقول عمر: كتاب الله حسبنا، أي: كافينا، مع أنه يشمل الوجه الثاني لأنه بعض أفراده والله أعلم)[1].

٤ ـ عن محمد بن جُبَيْر بن مُطْعِم، عن أبيه: (أنَّ امرأةً سألتْ رسول الله ﷺ شيئاً، فأمرها أن تَرجِعَ إليه، فقالت: يا رسول الله! أرأيت إنْ جئتُ فلم أجدْكَ ـ قال أَبي: كأنها تعني الموتَ ـ؟ قال: «**فإن لم تجدِيني فأتي أبا بكر**»)[2]. لفظ مسلم.

قال الشافعي: في هذا الحديث دليل على أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر[3].

وقد أورد البخاري هذا الحديث في (باب الاستخلاف)[4] من (كتاب الأحكام)، وهذا من دقة فهمه وشفوف ذهنه وبراعة فقهه.

وكذلك ترجم له ابن حبان فقال: (ذِكْر إخبار المصطفى ﷺ عن خلافة أبي بكر الصديق بعده)[5].

وهذا الحديث كأنه صريحٌ في أن أبا بكر هو الذي يتولى الخلافة بعده

---

(١) الفتح: ١/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥ شرح الحديث (١١٤).
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٩) وفيه أطرافه؛ ومسلم (٢٣٨٦)؛ وأحمد: ٤/ ٨٢، ٨٣؛ وابن حبان (٦٦٥٦، ٦٨٧١، ٦٨٧٢)، وغيرهم.
(٣) الاستيعاب: ٢/ ٢٤٠.
(٤) حديث رقم (٧٢٢٠).
(٥) صحيح ابن حبان: ١٥/ ٣٤.

ﷺ ، وفيه ردٌّ على الشيعة في زعمهم أن النبي ﷺ نصَّ على استخلاف عليّ[1].

٥ ـ عن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يَبْقَيَنَّ في المسجدِ بابٌ إلاَّ سُدَّ ، إلا بابَ أبي بكر»**[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ: أنه قال: **«سُدُّوا عنِّي كلَّ خَوْخَةٍ في هذا المسجد ، غيرَ خَوْخَةِ أبي بكر»**[3].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: (آخِر خطبةٍ خطَبَها رسول الله ﷺ، فقال: **«يا أيها الناس! سُدُّوا الأبوابَ الشارعةَ في المسجد ، إلا بابَ أبي بكر ، فإني لا أعلَمُ امرأً أفضَلَ عندي يداً في الصحبة من أبي بكر»**)[4].

قال ابن كثير: وفي قوله ﷺ: **«سُدُّوا عنِّي كل خوخة غير خوخة أبي بكر»** إشارةٌ إلى الخلافة؛ أي: ليخرجَ منها إلى الصلاة بالمسلمين[5].

وقال الحافظ: (قوله: **«إلا بابَ أبي بكر»** المعنى: لا تُبقوا باباً غير مسدود إلا باب أبي بكر فاتركوه بغير سَدّ. قال الخطّابي وابن بطّال

---

(١) الفتح: ٨/ ٥٨٨ (٣٦٥٩)؛ تكملة فتح الملهم: ٥/ ٤٠.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٤) وغيره ، وقد تقدم مطولاً مع تخريجه: ص ٢٣٤ حاشية (١) في هذا الكتاب.

(٣) تقدم مع تخريجه: ص ٣٥٧ حاشية (٢) في هذا الكتاب. **والخوخة**: الباب الصغير بين البيتين أو الدارين ونحوه.

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٢٤٢) واللفظ له؛ وابن حبان (٦٨٥٧)؛ وغيرهما ، وصححه شعيب الأرنؤوط.

(٥) البداية والنهاية: ٥/ ٢٣٠.

وغيرهما: في هذا الحديث اختصاصٌ ظاهر لأبي بكر ، وفيه إشارة قوية إلى استحقاقه للخلافة؛ ولا سيما وقد ثبت أن ذلك كان في آخر حياة النبي ﷺ ، في الوقت الذي أمرهم فيه أن لا يَؤمَّهم إلا أبو بكر)(١).

٦ ـ عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، قالت: (لمَّا ثَقُلَ رسول الله ﷺ ، جاء بلال يُؤْذِنُه بالصلاة ، فقال: «**مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس**» . . .) الحديث(٢).

وعن عبد الله بن زَمْعَة قال: (لمَّا اسْتُعِزَّ برسول الله ﷺ ، وأنا عندَه في نَفَرٍ من المسلمين ، دعاهُ بلالٌ إلى الصلاة ، فقال: «**مُروا مَنْ يصلي للناس**». فخرج عبد الله بن زمعة ، فإذا عمرُ في الناس ، وكان أبو بكر غائباً ، فقلتُ: يا عمر! قُمْ فَصلِّ بالناس. فتقدَّمَ فكَبَّر ، فلما سَمِع رسول الله ﷺ صوتَهُ ، وكان عمر رجلاً مُجْهِراً ، قال: «**فأينَ أبو بكر؟! يأبَى الله ذلك والمسلمون ، يأبَى الله ذلك والمسلمون**» فبَعَث إلى أبي بكر فجاءَ بعد أن صلى عمر تلك الصلاة ، فصلى بالناس)(٣).

قال ابن الأثير: فيه نوع دلالة على خلافة أبي بكر رضي الله عنه(٤).

وقال النووي: فيه فضيلة أبي بكر وترجيحُه على جميع الصحابة رضي الله عنهم ، وتنبيه على أنه أحقُّ بخلافةِ رسول الله ﷺ من غيره(٥).

---

(١) الفتح: ٨/٥٧٣ ـ ٥٧٤ (٣٦٥٤).
(٢) تقدم مطولاً مع تخريجه: ص ٢٣٧ حاشية (١) في هذا الكتاب.
(٣) تقدم: ص ٢٣٥ حاشية (١) في هذا الكتاب.
(٤) انظر كلامه بتمامه: ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ حاشية (١) في هذا الكتاب.
(٥) شرح صحيح مسلم: ٢/٣٧٨ (٤١٨).

نقول: وإمامة الصلاة من أعمال الخليفة وأمير المؤمنين وقائد الجيش في الفتوح، وعلى هذا مشى المسلمون من لَدُن عصر الرسالة ثم الخلافة الراشدة وهلم جَرّاً، ففي هذه النصوص ترشيح صريح للصديق ليكون خليفة رسول الله ﷺ من بعده.

٧ ـ عن حذيفة رضي الله عنه: (أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إني لا أدري ما قَدْرُ بقائي فيكم، فاقتدوا باللَّذَيْن من بعدي**». وأشار إلى أبي بكر وعمر)[١].

٨ ـ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (قُبِض رسول الله ﷺ ولم يَستخلفْ. قالت: وقال رسول الله ﷺ: «**لو كنتُ مستخلِفاً أحداً؛ لاستخلفتُ أبا بكر وعمر**»)[٢].

وللحديث روايات أخرى[٣].

قال النووي: (هذا دليل لأهل السنة في تقديم أبي بكر ثم عمر للخلافة مع إجماع الصحابة)[٤].

٩ ـ عن سَفينة رضي الله عنه، قال: (لمَّا بَنى رسول الله ﷺ المسجدَ، جاء أبو بكر رضي الله عنه بحجر فَوَضَعَهُ، ثم جاء عمر بحجر فوضعه،

---

(١) تقدم: ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ حاشية (١) في هذا الكتاب.
(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٨٠٦٤).
(٣) انظر ما قدمناه: ص ٣٥٩ حاشية (٤) في هذا الكتاب.
(٤) شرح صحيح مسلم: ٨/ ١٦٩ (٢٣٨٥).

ثم جاء عثمان بحجر فوضعه ، فقال رسول الله ﷺ: «**هؤلاء ولاةُ الأمر من بعدي**»[(١)].

١٠ ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال: (إنكم لَتعلمون أنَّا كنَّا نقول في عهد رسول الله ﷺ: أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، في الخلافة)[(٢)].

وفي رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال: (كنا نقول في عهد النبي ﷺ: أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ـ يعني: في الخلافة ـ)[(٣)].

ففي هذه الأحاديث مجتمعة إشارات صريحة قوية لاستخلاف أبي بكر رضي الله عنه بعد النبي ﷺ.

ثانياً: خلافة الصديق هل كانت بالنص أم بالاختيار؟:

اختلفت أنظار العلماء هل كانت خلافة أبي بكر بالنص أو بالاختيار على ثلاثة أقوال[(٤)]:

أ ـ فطائفة قالوا: إنها ثَبَتتْ بالنص الخفي والإشارة ، وبهذا قال الحسن البصري وجماعة من أهل الحديث وبَكْر ابن أخت عبد الواحد

---

(١) أخرجه الحاكم: ٣/ ١٣ وصححه ووافقه الذهبي؛ والبيهقي في «الدلائل»؛ وقال أبو زرعة: إسناده لا بأس به. انظر: تاريخ الخلفاء ، ص ٨.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١١٤٠)؛ ، وصححه الألباني. وانظر ما تقدم: ص ٣٧٠ ـ ٣٧١ حاشية (١) في هذا الكتاب.

(٣) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ٧/ ٢٠٦ وعزاه للبزار ، وقال: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٤) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٦٩٨ ـ ٧٠٧؛ الفِصَل ، لابن حزم: ٤/ ١٧٦ فما بعدها؛ منهاج السنة: ١/ ٣٠٤ ـ ٣٢٧.

والبَيْهسية من الخوارج ، وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد ، واختيار القاضي أبي يعلى أحد أئمة الحنابلة.

ب ـ وقالت طائفة أخرى: إنها ثبتت بالنص الجليّ ، وذهب إليه جماعة من الأعلام والمحدِّثين والأئمة؛ منهم: الطبري ، وأبو عبد الله الحسن بن حامد شيخ القاضي أبي يعلى وإمام الحنابلة في زمانه ، وإمام الظاهرية المجتهد الكبير أبو محمد ابن حزم.

قال أبو عبد الله بن حامد: (وقد اختلف أصحابنا في الخلافة: هل أُخذت من حيث النصُّ أو الاستدلالُ؟ فذهبت طائفة من أصحابنا إلى أن ذلك بالنص ، وأنه ﷺ ذكر ذلك نَصّاً ، وقَطَع البيان على عَيْنِه حتماً. ومن أصحابنا من قال: إن ذلك بالاستدلال الجليِّ).

قال ابن حامد: (والدليل على إثبات ذلك بالنص أخبارٌ...)[1] وساق الأحاديث التي قدمناها في الفقرة السابقة.

وقال ابن حزم في كتابه «الفِصَل»: (اختَلَف الناس في الإمامة بعد رسول الله ﷺ ، فقالت طائفة: إن النبيَّ ﷺ لم يَستخلِفْ أحداً ، ثم اختلفوا فقال بعضُهم: لكنْ لمَّا استخلَفَ أبا بكر على الصلاة كان ذلك دليلاً على أنه أَوْلاهم بالإمامة والخلافة على الأمر. وقال بعضهم: لا ، ولكن كان أَبْيَنَهم فضلاً فقدَّموه لذلك.

وقالت طائفة: بل نَصَّ رسول الله ﷺ على استخلاف أبي بكر بعده على أمور الناس نصّاً جليّاً).

---

(١) منهاج السنة: ١/ ٣٠٥ ـ ٣٠٨.

قال ابن حزم: (وبهذا نقول؛ لبراهين...)[1]، وساق طرفاً من الأحاديث التي أوردناها.

ج ـ وجمهور أهل السنَّة على أن خلافة الصديق كانت بالاختيار، مع أخذِهم بالاستدلال الجليِّ بالأحاديث الثابتة التي تشير حتى تكاد تصرِّح باستخلافه رضي الله عنه.

والأدلة على ذلك كثيرة، منها:

١ ـ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: (قيلَ لعمرَ: ألا تَستخلِفُ؟ قال: إنْ أَسْتَخلِفْ فقد استخلَفَ مَنْ هو خيرٌ منِّي أبو بكر، وإنْ أَتْرُكْ فقد تَرَكَ من هو خيرٌ منِّي رسول الله ﷺ. فأَثْنَوا عليه، فقال: راغبٌ وراهبٌ، وَدِدتُ أني نجوتُ منها كَفافاً لا لِي ولا علَيَّ، لا أَتحمَّلُها حيّاً ومَيِّتاً!)[2].

وعمر يقول هذا في مشهد جمهور من الصحابة، ولو كان ثَمّة نص صريح لجهروا به.

٢ ـ عن ابن أبي مُلَيْكَة قال: (سمعتُ عائشةَ وسُئِلتْ: مَن كان رسول الله ﷺ مُستخلفاً لو استَخْلَفَه؟ قالت: أبو بكر، فقيل لها: ثم مَن بعد أبي بكر؟ قالت: عمر، ثم قيل لها: مَن بعد عمر؟ قالت:

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل: ٤/١٧٦؛ وانظر: منهاج السنة: ١/٣٠٨ ـ ٣١١.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢١٨) واللفظ له؛ ومسلم (١٨٢٣)؛ وأبو داود (٢٩٣٩)؛ والترمذي (٢٢٢٥)؛ وأحمد: ١/٤٣، ٤٧.

أبو عبيدة بن الجراح. ثم انتهتْ إلى هذا)[١].

٣ ـ عن أبي وائل شَقيق بن سَلَمة قال: (قيلَ لعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا تَسْتخلِفُ علينا؟ قال: ما اسْتَخْلَفَ رسول الله ﷺ فأستخلِف، ولكنْ إنْ يُرِدِ الله بالناسِ خيراً فسيجمعُهم بعدي على خيرِهم، كما جَمعهم بعد نبيِّهم على خيرهم!)[٢].

وعن عَمْرو بن سفيان قال: لمَّا ظهر عليٌّ على الناس يوم الجَمل، قال: أيها الناس! إنَّ رسول الله ﷺ لم يَعهدْ إلينا في هذه الإمارة شيئاً، حتى رأَيْنا من الرأي أن نَستخلِفَ أبا بكر، فأقامَ واستقام حتى مضَى لسبيله. ثم إنَّ أبا بكر رأَى من الرأي أن يَستخلف عمرَ، فأقامَ واستقامَ حتى ضَرَب الدِّين بِجرانه. ثم إنَّ أقواماً طلبوا بهذه الدنيا، فكانت أمورٌ يَقضي الله فيها)[٣].

٤ ـ قول الأنصار رضي الله عنهم يوم السقيفة: (منَّا أميرٌ ومنكم أمير)، فلو كان هناك نص لمَا خَفِي على جميعِهم، ولا خالفوه.

---

(١) أخرجه مسلم وغيره، وقد مرّ: ص ٣٥٩ حاشية (٤) في هذا الكتاب.

(٢) أخرجه الحاكم: ٣/ ٧٩، وصححه ووافقه الذهبي؛ والبيهقي في السنن: ٨/ ١٤٩؛ وفي دلائل النبوة: ٧/ ٢٢٣؛ وابن عساكر، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤؛ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية: ٥/ ٢٥١ وقال: إسناده جيد ولم يخرجوه.

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٢١٨)؛ والبيهقي في الدلائل: ٧/ ٢٢٣؛ وابن عساكر، ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦؛ وذكره الذهبي في تاريخه ـ السيرة، ص ٥٨٤ وقال: إسناده حسن؛ وكذا حسنه السيوطي في تاريخ الخلفاء، ص ٧؛ وأخرجه أحمد: ١/ ١١٤ وفيه رجل لم يُسمَّ، وباقي رجاله رجال الشيخين كما قال الألباني في تعليقه على السنة لابن أبي عاصم، ص ٥٠٧. قوله: (ضرب الدين **بجرانه**): كناية عن ثبات أمره واستقراره.

٥ ـ احتجاجُ أبي بكر عليهم بقوله: (نحن الأمراء وأنتم الوزراء)، وبحديث: «**الأئمة من قريش**».

٦ ـ حصول التنازع يوم السقيفة، ثم الاتفاق على بيعة أبي بكر؛ لأن النبي ﷺ قدَّمه في الصلاة، وللأحاديث التي تشير إلى استخلافه، ولفضائله وتقدُّمِه على جميع الصحابة.

ولو كان ثَمّة نصٌّ لاحتجَّ به أبو بكر، ولَما خفِي على جماهير الأنصار والمهاجرين، ولمَا نازَعَ الأنصار في ذلك. ويؤكد هذا أن خطباءهم لم يَذكروا نَصّاً، بل قدَّموا أبا بكر للاعتبارات التي ذكرناها.

●● قال النووي في شرح حديث عمر (**إنْ أستخلِفْ**...): (في هذا الحديث دليل أن النبي ﷺ لم ينصَّ على خليفة، وهو إجماع أهل السنة وغيرهم)[1].

وقال في شرح حديث عائشة (**مَن كان رسول الله ﷺ مستخلِفاً**...): (فيه دلالة لأهل السنة أن خلافة أبي بكر ليست بنصٍّ من النبي ﷺ على خلافته صريحاً، بل أجمعت الصحابة على عقد الخلافة له وتقديمه لفضيلته، ولو كان هناك نصٌّ عليه أو على غيرِه لم تقع المنازعة من الأنصار وغيرهم أولاً، ولذَكَر حافظُ النص ما معه، ولَرجَعُوا إليه، لكنْ تنازعوا أولاً ولم يكن هناك نصّ، ثم اتَّفَقوا على أبي بكر واستقر الأمر)[2].

---

(١) شرح صحيح مسلم: ٦/٤٤٦.

(٢) المرجع السابق: ٨/١٦٩.

وقال ابن كثير ـ بعد كلامه على حديث السقيفة ـ: (ومَن تأمّلَ ما ذكرناه ظهر له إجماعُ الصحابة المهاجرين منهم والأنصار على تقديم أبي بكر، وظَهر برهانُ قوله ﷺ: «**يأبَى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**». وظَهر له أن رسول الله ﷺ لم ينصَّ على الخلافة عَيْناً لأحد من الناس: لا لأبي بكر كما زعمه طائفة من أهل السنة، ولا لعليّ كما يقوله طائفة من الرافضة، ولكنْ أشار إشارة قوية يفهمها كل ذي لُبٍّ وعقل إلى الصديق كما قدمنا)[1].

وقال مثله القرطبي في «المفهم»، ونقله عنه وأيده الحافظ في «الفتح»[2].

ثالثاً: إرشاد النبي ﷺ ودلالته ورغبته باستخلاف الصديق، وإجماع الصحابة على بيعته:

●● الذي نذهب إليه ما عليه جمهور أهل السنة: أنه ليس ثمّة نصٌّ صريح على أبي بكر بعينِه، ولا على غيره من باب أولى، لكن النبي ﷺ أشار إلى استخلاف الصديق إشارات صريحة، وأحَبَّ ذلك ورغَّب فيه ودلَّ عليه، ولم يَكتبْ لأنه عَلِم أن الصحابة رضي الله عنهم لن يختاروا غيره، ولذلك قال: «**يدفع الله والمؤمنون**» و«**يأبى الله والمسلمون**».

قال الإمام ابن عبد البر في ترجمة أبي بكر: (استخلَفَه رسول الله ﷺ على أمته من بعده، بما أَظهر من الدلائل البيِّنة على محبَّته في ذلك، وبالتعريض الذي يقوم مقام التصريح، ولم يصرِّح بذلك لأنه لم يُؤمَر فيه

---

(١) البداية والنهاية: ٥/ ٢٥٠.

(٢) الفتح: ٨/ ٦٠١ـ٦٠٢ (٣٦٦٨).

بشيء ، وكان لا يصنع شيئاً في دين الله إلا بوحي ، والخلافة ركن من أركان الدين)[1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى»: (والتحقيقُ في خلافة أبي بكر وهو الذي يدل عليه كلامُ أحمد: أنها انعقدتْ باختيار الصحابة ومبايعتِهم له ، وأن النبي ﷺ أخبر بوقوعها على سبيل الحمدِ لها والرضَا بها ، وأنه أَمر بطاعته وتفويض الأمر إليه ، وأنه دلَّ الأمة وأرشدَهم إلى بيعته. فهذه الأوجه الثلاثة: الخبر والأمر والإرشاد؛ ثابتٌ من النبي ﷺ)[2] .

وأورد في «منهاج السنة» الأقوالَ في خلافة أبي بكر هل هي بالنص أو بالاختيار ، ثم قال: (والتحقيقُ أن النبي ﷺ دلَّ المسلمين على استخلافِ أبي بكر ، وأرشَدَهم إليه بأمور متعددة من أقواله وأفعاله ، وأخبر بخلافته إخبارَ راضٍ بذلك حامدٍ له ، وعَزم على أن يكتب بذلك عهداً ، ثم عَلِم أن المسلمين يجتمعون عليه فَتَرك الكتابة اكتفاءً بذلك ، ثم عزم على ذلك في مرضه يوم الخميس ، ثم لمّا حَصَل لبعضهم شكٌّ: هل ذلك القول من جهة المرض ، أو هو قول يجبُ اتباعه؟ ترك الكتابة اكتفاءً بما علم أن الله يختاره والمؤمنون من خلافة أبي بكر رضي الله عنه.

فلو كان التعيين مما يَشتبه على الأمة ، لَبَيَّنَه النبي ﷺ بياناً قاطعاً للعذر ، لكن لمَّا دَلَّتْهم دلالات متعددة على أن أبا بكر هو المتعيِّن ، وفهموا ذلك؛ حصل المقصود. والأحكام يبيِّنها ﷺ تارة بصيغة عامة ،

---

(١) الاستيعاب: ٢/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠.
(٢) مجموع الفتاوى: ٣٥/ ٤٨.

وتارة بصيغة خاصة ، ولهذا قال عمر بن الخطاب في خطبته التي خطبها بمحضر من المهاجرين والأنصار: وليس فيكم مَن تُقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر).

ثم قال: (فخلافةُ أبي بكر الصديق دلَّتِ النصوص الصحيحة على صحتها وثبوتها ، ورضا الله ورسول الله ﷺ له بها ، وانعقَدتْ بمبايعةِ المسلمين له واختيارِهم إياه اختياراً استندوا فيه إلى ما عَلِمُوه من تفضيل الله ورسوله ، وأنه أحقُّهم بهذا الأمر عند الله ورسوله ، فصارت ثابتة بالنص والإجماع جميعاً)[1].

وقال تقي الدين العثماني في شرح قوله ﷺ: «**ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»: (هذا دليلٌ صريحٌ على أن رسول الله ﷺ كان يودُّ استخلافَ أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ثم ترك التصريح بذلك ليقيمَ سنَّة الشورى بين المسلمين ، وكان يعرف أن المسلمين لا يتفقون إلا على أبي بكر رضي الله عنه)[2].

وهذا كلام نفيس ، فرسول الله ﷺ رسَّخَ في حياته مبدأ الشورى الذي أمره به ربه سبحانه بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] ، واستبقاه بعده ، ولو أنه ﷺ نَصَّ صراحةً على أبي بكر أو على غيره ، لقال الطامعون في منابر الحكم: (ولاية العهد) ثابتة بنصِّ رسول الله ﷺ! ودَلَّ أصحابه على أفضلِهم وأكملِهم ، وأرشدهم إلى بيعته وأمرهم بطاعته؛ فجمع بين الخيرين.

---

(١) منهاج السنة: ١/ ٣٢١ ـ ٣٢٢ ، ٣٢٦.

(٢) تكملة فتح الملهم: ٥/ ٤٠ ـ ٤١.

وكان الصحابة رضي الله عنهم عند حسنِ ظنِّه ﷺ ، فحققوا ما تمنَّاه وأرشدهم إليه وربَّاهم عليه ، فأقاموا واجبَ الشورى ، وأجمعوا على الصديق ، فأقَرُّوا عين النبي ﷺ وكانوا أفضلَ قدوة لمن بعدهم من المسلمين ، والحمد لله رب العالمين.

●● عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال: (ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المسلمون سيِّئاً فهو عند الله سيِّئ ، وقد رأى الصحابة جميعاً أن يستخلفوا أبا بكر رضي الله عنه)[١].

ـ وقال أبو بكر بن عيَّاش: (قال لي هارون الرشيد: يا أبا بكر! كيف استخلَف الناس أبا بكر الصديق؟ قلتُ: يا أمير المؤمنين! سكَتَ الله ، وسكتَ رسوله ، وسكتَ المؤمنون. قال: والله ما زِدتني إلا غمّاً! قلتُ: يا أمير المؤمنين! مَرِض النبي ﷺ ثمانية أيام ، فدخل عليه بلال فقال: يا رسول الله! من يصلي بالناس؟ قال: «**مُر أبا بكر يصلي بالناس**». فصلى أبو بكر بالناس ثمانية أيام ، والوحي ينزل ، فسكت رسول الله ﷺ لسكوتِ الله ، وسكت المؤمنون لسكوتِ رسول الله ﷺ. فأعجَبتْه ، فقال: بارك الله فيك)[٢].

ـ وقال الإمام الجُوَيْني: (أمَّا إمامةُ أبي بكر رضي الله عنه فقد ثبتت بإجماع الصحابة)[٣].

ـ وقال أبو الحسن الأشعري: (أثنى الله عز وجل على المهاجرين

---

(١) أخرجه الحاكم: ٣/ ٧٨ ـ ٧٩ ، وصححه ووافقه الذهبي. وهو مطول في مسند أحمد: ١/ ٣٧٩؛ ومنهاج السنة: ١/ ٣٩٢ـ٣٩٣.

(٢) ابن عساكر ، ص ٤٠٣؛ تاريخ الخلفاء ، ص ٦٥.

(٣) الإرشاد ، ص ٣٦١.

والأنصار والسابقين إلى الإسلام ، ونطق القرآن بمدح المهاجرين والأنصار في مواضع كثيرة ، وأثنى على أهل بيعة الرضوان فقال عز وجل: ﴿ ۞ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨]. قد أجمع هؤلاء الذين أثنى الله عليهم ومدحهم على إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وسَمَّوه: خليفةَ رسول الله ، وبايعوه ، وانقادوا له ، وأقرُّوا له بالفضل. وكان أفضَلَ الجماعة في جميع الخصال التي يستحقُّ بها الإمامة: من العلم ، والزهد ، وقوة الرأي ، وسياسة الأمة ، وغير ذلك)[١]. والنصوص في هذا الباب كثيرة.



(١) الإبانة عن أصول الديانة ، ص ٦٦.

الفصل الثاني

يوم السقيفة والبيعة العامة

أولاً: حديث السقيفة وما جرى فيها:

بويع أبو بكر الصديق في السقيفة في بقية يوم الإثنين حين توفي النبي ﷺ في الثاني عشر من ربيع الأول سنة (١١هـ) ، وبويع البيعة العامة في المسجد صبيحة يوم الثلاثاء من غد توفي رسول الله ﷺ[١] .

والسَّقِيفة: ظُلَّة لبني ساعدة كانوا يجلسون تحتها ، وتقع في الشمال الغربي من المسجد النبوي ، وفيها اليوم حديقة غنَّاء ، وهي مجهولة من عامة الناس بسبب عدم الاهتمام بتجديد معالمها[٢]! .

●● عن مالك بن أنس ، عن الزهري ، عن عُبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة : أن ابن عباس رضي الله عنهما أخبره : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطَبَ فقال :

(إنه بَلَغَني أن فلاناً منكم يقول: واللهِ لو قد مات عمرُ لقد بايعتُ فلاناً. فلا يَغُرَّنَّ امرأً أن يقول: إنَّ بيعة أبي بكر كانت فَلْتَةً فَتَمَّتْ ، فإنها

---

(١) ابن عساكر ، ص ٥٨١ ، ٥٨٨ ـ ٥٨٩؛ البداية والنهاية: ٢٤٨/٥؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ٥٢ .

(٢) المعالم الأثيرة ، ص ١٤١ .

قد كانت كذلك ، إلاَّ أن الله وقى شَرَّها ، وليس فيكم مَنْ تُقْطَع إليه الأعناقُ مِثلُ أبي بكر ، وإنه كان من خيرنا حين توفِّي رسولُ الله ﷺ. وإن عليّاً والزبير ومن معهما تخلَّفُوا عنا ، وتَخَلَّفَتِ الأنصار عنَّا بأَسْرِها ، واجتمعوا في سَقيفة بني ساعدة ، واجتمع المهاجرون إلىٰ أبي بكر .

فبينا نحنُ في منزلِ رسولِ الله ﷺ ، إذ رجلٌ ينادي من وراء الجدار : اخرجْ إليَّ يا ابنَ الخطاب ، فقلتُ : إليكَ عنِّي فإنَّا مَشاغيلُ عنك ، فقال : إنه قد حَدَثَ أمرٌ لابدَّ منك فيه ؛ إن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ، فأَدْرِكُوهم قبل أن يُحدِثُوا أمراً ، فيكون بينكم وبينهم فيه حربٌ! فقلتُ لأبي بكر : انطلِقْ بنا إلىٰ إخواننا هؤلاء من الأنصار . فانطلَقْنا نَؤُمُّهم ، فَلقِيَنا أبو عبيدة بن الجراح ، فأخذ أبو بكر بيده ، فمشى بيني وبينه ، حتىٰ إذا دَنَوْنا مِنهم لَقِيَنا رجلانِ صالِحانِ ، فذَكَرَا الذي صَنَعَ القومُ وقالا : أين تريدون يا معشرَ المهاجرين؟ فقلتُ : نريدُ إخوانَنا من هؤلاء الأنصار ، قالا : لا عليكم أنْ لا تَقْرَبُوهُم ، يا معشرَ المهاجرين اقضُوا أمرَكم! فقلتُ : واللهِ لنأتينَّهم .

فانطَلَقنا حتىٰ أتيناهم ، فإذا هم في سقيفة بني ساعدة ، فإذا بين أَظْهُرِهِم رجلٌ مُزَمَّلٌ[1] ، فقلتُ : مَن هذا؟ قالوا : سعد بن عُبادَة ، قلت : فما له؟ قالوا : هو وَجِعٌ . فلما جلسنا ، تكلَّم خطيبُ الأنصار ، فأثنىٰ علىٰ الله بما هو أهلُه ، ثم قال : أما بعدُ ، فنحن أنصارُ الله وكتيبةُ الإسلام ، وأنتم يا معشرَ المهاجِرين رهْطٌ منا ، وقد دَفَّتْ دافَّة[2] من

---

(١) ملَفَّف .

(٢) أي : جاء عدد قليل ، والمعنىٰ : إنكم قوم غرباء مطرودون أقبلتم من مكة إلينا .

قومكم. قال عمر: وإذا هم يريدون أن يَخْتَزِلونا من أَصْلِنا، وأنْ يَحْضُنُونا[1] من الأمر!.

قال: فلما قضَىٰ مقالتَهُ، أردتُ أن أتكلَّم، وكنتُ قد زَوَّرْتُ[2] مقالةً أَعْجَبَتْني، أُريدُ أن أقومَ بها بين يَدَيْ أبي بكر، وكنتُ أُداري من أبي بكر بعضَ الحِدَّة، فلما أردتُ أن أتكلَّم، قال أبو بكر: على رِسْلِكَ، فكَرِهْتُ أن أُغضبَه، فتكلّم أبو بكر، وهو كان أحلمَ منِّي وأوقَرَ، والله ما تَرَكَ من كلمةٍ أعجبتْني في تَزْويري إلا تكلَّم بمثلِها أو أفضَلَ في بَديهَتِهِ حتىٰ سَكَت.

فتشهَّد أبو بكر، وأثنَى علىٰ الله بما هو أهلُه، ثم قال: أمَّا بعدُ، أيها الأنصارُ! فما ذكرتُم فيكم من خيرٍ فأنتم أهلُه، ولن تَعرِفَ العربُ هذا الأمرَ إلا لهذا الحيِّ من قريش، هم أوسطُ العربِ نَسَباً وداراً، وقد رَضِيتُ لكم أحدَ هذين الرجُلَيْن، فبايِعوا أيَّهما شئتُم، فأخذ بيدي وبيدِ أبي عبيدة بن الجراح. فلم أَكْرَهْ من مقالته غيرَها، كان واللهِ أنْ أُقَدَّمَ فتُضْرَبَ عُنقي لا يُقَرِّبُني ذلك إلى إثمٍ؛ أحَب إليَّ من أن أُؤَمَّرَ علىٰ قومٍ فيهم أبو بكر، إلاَّ أن تَغَيَّرَ نفسي عند الموت.

فلما قضَىٰ أبو بكر مقالته، قال قائل من الأنصار: أنا جُذَيْلُها المُحَكَّكُ وعُذَيْقُها المُرَجَّب[3]، منّا أميرٌ ومنكم أميرٌ يا معشر قريش!.

---

(١) **يختزلونا**: يقتطعونا عن الأمر وينفردوا به دوننا. **يحضنونا**: يخرجونا من الإمارة ويستأثروا بها.

(٢) هَيَّأْتُ وحَسَّنْتُ.

(٣) **جذيلها المحكك**: تصغير جِذْل؛ وهو العُود الذي يُنصب للإبل الجَرْبَى لتحتكَّ به، والمعنى: أنا ممن يُستشفىٰ برأيه. **عذيقها المرجب**: تصغير عِذق؛ وهي=

قال عمر: فَكَثُر اللَّغَطُ، وارتفعتِ الأصواتُ، حتىٰ أشفقتُ الاختلافَ، قلتُ: ابْسُطْ يَدَكَ يا أبا بكر! فَبَسَطَ أبو بكر يده، فبايعتُه وبايَعَهُ المهاجرون والأنصار، ونَـزَوْنا علىٰ سعدِ بن عُبادة، فقال قائلٌ من الأنصار: قَتلتُم سعداً! قال عمر: فقلتُ وأنا مُغضَبٌ: قَتَلَ الله سعداً فإنَّه صاحبُ فتنةٍ وشرٍّ! وإنّا والله ما رأَيْنا فيما حَضَر من أمرنا أمراً أقوى من بيعةِ أبي بكر، فخَشِينا إنْ فارَقْنا القومَ قبل أن تكون بيعةٌ، أن يُحْدِثوا بعدنا بيعةً، فإمَّا أن نبايعَهم على ما لا نرضى وإما أن نُخالِفَهم فيكون فساد. فلا يَغترنَّ امرؤٌ أن يقول: إنَّ بيعةَ أبي بكر كانت فَلْتَةً فَتَمَّتْ، فقد كانتْ فلتةً، ولكنَّ الله وقى شَرَّها، أَلاَ وإنَّه ليس فيكمُ اليومَ مِثْلُ أبي بكر.

قال مالك: أخبرني الزهري: أن عروة بن الزبير أخبره: أن الرجُلَيْن الأنصاريين اللذين لقيا المهاجرين، هما: عُوَيْم بن ساعدة ومَعْن بن عدي.

وزعم مالك: أن الزهري سمع سعيد بن المسيِّب يزعم أن الذي قال يومئذ: (أنا جُذيلها المُحَكَّك)، رجلٌ من بني سلمة يقال له: حُبَاب بن المُنذر)[1].

ولأهمية البيعة ووجوب إقامة الخليفة عجَّلَ الصحابة بها، ونقل

= النخلة، **والمرجب**: الذي تبنى إلى جانبه دعامة ترفده لكثرة حمله. والمعنى: أنا داهية عالم في الأمور معظَّم في قومي.

(١) أخرجه البخاري (٦٨٣٠) وأطرافه في (٢٤٦٢)؛ وأحمد: ١/ ٥٥ ـ ٥٦؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٥٧٠ ـ ٥٧٢؛ وابن هشام في السيرة: ٢/ ٦٥٧ ـ ٦٦٠؛ وابن حبان (٤١٣) و(٤١٤) واللفظ له.

الحافظ الاتفاقَ على فرضيتها ، وأن الصحابة تركوا لأجل إقامتها أعظمَ المهمات وهو التشاغل بدفن النبي ﷺ حتى فرغوا منها[1] !.

أخرج الطبري عن عَمْرو بن حُريث : أنه قال لسعيد بن زيد رضي الله عنه : (أشهدتَ وفاة رسولِ الله ﷺ؟ قال : نعم ، قال : فمتى بُويع أبو بكر؟ قال : يومَ مات رسولُ الله ﷺ ، كرِهوا أن يبقَوْا بعضَ يوم وليسوا في جماعة!)[2] .

ويشير إلى ذلك موقف عمر عندما ناداه الرجل أن يخرج إليه ، فقال عمر : (إليك عني فإنا مشاغيلُ عنك) أي : بشأن النبي ﷺ وتجهيزه ودفنه ، فلما أخبره نبأ اجتماع الأنصار في السقيفة ، هبَّ سريعاً وانطلق صحبة أبي بكر ، فإنَّ أمرَ دفنِ الرسول ﷺ يمكن تأخيره يوماً أو بعضَ يوم ، أما بوادر الفتنة إذا ظهرت فلا يُؤمَن تطايرُ شررها المتلظي ، وقد يفوت على الحكماء كبحُها! .

ولقد حدث تنازع حول الخليفة الذي يتولى أمر الأمة ، وقد ألمح النبي ﷺ إلى ذلك في قوله : «**إنِّي أخافُ أن يتمنَّى مُتَّمَنٍّ ويقولَ قائلٌ : أنا أَوْلى! ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**»[3] .

فالأنصار الذين تبوَّؤوا الدار والإيمان ، وأهلُ الإيواء والنصرة ، وهم عَيْبة النبي ﷺ وكَرِشه الذين أيَّدوه ونصروه بأرواحهم ـ يَرون أنهم أحقَّاء بالخلافة ، لمتابعة نصرة الإسلام ، وتمسكوا بذلك بلا هوادة!

---

(١) الفتح : ٨/ ٦٠١ (٣٦٦٨) .
(٢) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٠٧ .
(٣) مسلم (٢٣٨٧)؛ وشرحه ، للنووي : ٨/ ١٦٩ .

فلما بَصَّرَهُم أبو بكر بخطبته الجامعة ، تبصَّروا ضياءَ الحق ولزموه[1] ، وهذا من أفضل فضائلهم على كثرتها .

لقد كان الهيجان والجَيَشان والحيرة تأخذ بالعقول والقلوب لموت رسول الله ﷺ ، فاضطربت المواقف ، وانطلقت الكلمات الحادَّة ، فلمَّا تُليت علىٰ القوم دلائل الحق فاؤوا إلىٰ رشدهم ، واجتمعوا علىٰ ذلك الرجل الذي رشَّحه النبي ﷺ لخلافته في غير موقف وحديث .

إنه ليس بِدْعاً أن تتعارض الأنظار ، وتختلف العقول ، وتتناظر الرجال ، ويتباحث أولو النهى والحل والعقد حول إبرام واحد من أخطر الأمور التي تقرِّر مسيرةَ الدولة ووجهتَها ، ما دام غاية الجميع الحقَّ وحده . فهؤلاء السادة لم يكونوا ملائكة ، ولا طُلب إليهم أن يتجرَّدوا من نوازعهم فلا يختلفوا ، لكن الذي رُبُّوا عليه هو الإخلاص لله ونصرةُ الحق ، وهذا ما كان؛ فإن الاختلاف والفتنة قد كُبح جماحها فلم تقوَ علىٰ الانطلاق من باب السقيفة التي نجمت فيها[2] .

وكان الوفاق وتمت البيعة في بضع ساعات ، وهو أمر يدعو إلى العجب والإعجاب ، لكن لا تَقُلْ هذا فإن هؤلاء الرجال هم صنعةُ النبوة وأملُ رسول الله ﷺ الذي قال: «**يأبى الله والمسلمون أن يختلِفوا على أبي بكر**» ، فكان كذلك! .

●● والمتأمِّل في تاريخ أبي بكر الصديق ، لا يجدُ لديه أدنى رغبة في

(١) انظر: حياة رجالات الإسلام ، ص ٧٩؛ أبو بكر الصديق ، للطنطاوي ، ص ٣٤ .

(٢) انظر: عبقرية الصديق ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .

أن يَحكم الناس ، أو أن يكون خليفة عليهم ، فلقد كان يعيش في ظلال النبوة وعليه سيما التواضع والإخبات ، ولا يتقدم إلا إذا قدَّمه النبي ﷺ ، مع كل ما لَه من مبررات البروز والتقديم. فلما جاء يوم السقيفة كان امتحاناً خطيراً ، فإذا بالصديق يعلو صدر الأحداث ، لا طمعاً ولا رغَباً بل تلبيةً لتبعات إيمانه ومسؤوليات دينه وأمته[1].

فالأنصار الذين بايعوا بيعةَ الإيمان والإيواء والنصرة ، وبذلوا أرواحهم للتمكين لهذا الدين؛ رأَوْا أنهم أحقاء بالإمارة والخلافة ، وتمنَّوا أن يكون لهم الشرف في الاستمرار بالنصرة وقيادة الأمة. والمهاجرون الأولون رأوا أنهم السابقون الذين حَضَنوا الإسلام في مهده ، فهمْ أحقُّ بأن يأخذوا بزمام الأمر. وكادت الفتنة تعود جَذَعَةً ، وكاد الاضطراب يتفاقم في أمر أخطر وأعظم ، ولكن الله تعالى الرحيم بهذه الأمة ادَّخَر لها صدِّيق نبيها لينقذها من مآزقها ، فكما ثَبَّتَها في خَطْب إصابتها بنبيها ﷺ ، فلْيُثَبِّتْها في توجيه حياتها لأداء مهمتها العظمى[2].

فلقد رأى أبو بكر هيجانَ الناس في السقيفة ، وأراد عمر التقدم بالكلام فقال له: عليٰ رِسْلك ، وقام ينشرُ فضائلَ الأنصار ومناقبهم. ولمَّا تكلم خطيب الأنصار بأن منهم أميراً ومن المهاجرين كذلك ، أوضح الصديق بحجته الباهرة أن العرب لا يعرفون القيادة إلا لقريش ، واستدل بحديث النبي ﷺ ووجه الكلام إلى سيد الخزرج سعد بن عُبادة ، فأقروا جميعاً.

فكانت حكمةُ الصديق ونورُ الإيمان الذي ملأ قلبه وحججُه الموفقة؛

(١) خلفاء الرسول ، ص ٨٩.
(٢) حياة رجالات الإسلام ، ص ٧٩.

أبعدَ مدى وأحكم تدبيراً للإسلام ، في أعظم النوازل وأحلكِ المِحن .

والذهول الذي أصاب عامةَ الصحابة لموت النبي ﷺ ، لا تزال آثاره في القلوب والعقول ، فالرسول ﷺ مسجًّى بثوب لمّا يُدفن بعدُ! ولو أن واحداً من الأصحاب جاز أن يبلغ منه الجزع ما بَلَغَ من عمر؛ لكان أبو بكر أولى الناس بذلك ، وهو الذي بكى لمَّا حدَّث النبي ﷺ بقوله: «**إن عبداً خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده ، فاختار ما عنده**» وقال: (فديناكَ بآبائنا وأمهاتنا)! لكن شجاعته النفسية المتفردة لم تُذهِلْه لهولِ المصيبة ، وبقيتْ معه هذه الصفة المتأصِّلة في شخصيته يوم السقيفة ، وأُضيف إليها دقةُ نظره وبراعةُ فهمه للأحداث الواقعة والمستقبل القادم ، فكانت هذه وتلك سندَ الصديق في ساعات السقيفة الحامية المضطربة ، والتي وَقَتْ ـ بفضل الله تعالى وتسخيره أبا بكر لها ـ المسلمين من فتنة ، لولاها لتعرَّضوا لِمِحَنٍ لا يعلم إلا الله ما كان يصيب الدعوة والدولة من جرَّائها[1] .

●● قام خطيب الأنصار الحُبَاب بن المنذر رضي الله عنه ـ وكان بدرياً ـ فقال: (منَّا أمير ومنكم أمير ، فإنَّا والله ما نَنْفَسُ عليكم هذا الأمرَ ، ولكنّا نخافُ أن يليَه أقوامٌ قَتَلْنا آباءهم وإخوتهم! قال: فقال له عمر: إذا كان ذلك فَمُتْ إنِ استطعتَ! قال: فتكلم أبو بكر فقال: نحن الأمراءُ وأنتم الوزراءُ ، وهذا الأمر بيننا وبينكم. قال: فبايع الناس وأولهم بَشير بن سعد والد النعمان)[2] .

---

(١) انظر: الصديق أبو بكر ، لهيكل ، ص ٤٢ .

(٢) أخرجه ابن سعد عن القاسم بن محمد مرسلاً: ٣/ ١٨٢؛ ونقله الحافظ في الفتح: ٩/ ٥٩٩ شرح الحديث (٣٦٦٨) ، ١٥/ ٤٤٦ (٦٨٣٠) وقال: سنده صحيح .

وعن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه قال: (لمَّا توفِّي رسول الله ﷺ قام خطباء الأنصار، فجعل منهم مَن يقول: يا معشرَ المهاجرين! إن رسولَ الله ﷺ كان إذا استعمل رجلاً منكم قَرَنَ معه رجلاً منّا، فنَرى أن يليَ هذا الأمر رجلان، أحدُهما منكم والآخر منا! قال: فتتابعَتْ خطباءُ الأنصار على ذلك. قال: فقام زيد بن ثابت فقال: إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين، وإنما الإمام يكون من المهاجرين، ونحن أنصارُه كما كنّا أنصارَ رسولِ الله ﷺ! فقام أبو بكر فقال: جزاكم الله خيراً من حيٍّ يا معشر الأنصار! وثَبَّتَ قائلكم. ثم قال: والله لو فعلتم غير ذلك لمَا صالحناكم)[1].

وفي آخر «المغازي» لموسى بن عُقْبة: عن ابن شهاب: أن أبا بكر رضي الله عنه قال في خطبته: (وكنَّا معشرَ المهاجرين أولَ الناس إسلاماً، ونحن عشيرته وأقاربه وذَوو رَحِمِه، ولن تَصلح العرب إلا برجل من قريش، فالناس لقريش تبعٌ، وأنتم إخوانُنا في كتاب الله، وشركاؤنا في دين الله، وأحبُّ الناس إلينا، وأنتم أحقُّ الناس بالرضا بقضاء الله والتسليم لفضيلة إخوانكم، وأن لا تحسدوهم على خير)[2].

وعند أحمد: من طريق حُميد بن عبد الرحمن، قال: (توفّي رسول الله ﷺ، وأبو بكر في طائفة من المدينة، قال: فجاء فكشَفَ عن وجهه فقبَّلهُ، وقال: فداكَ أبي وأمي، ما أطيَبَكَ حيّاً وميتاً! مات محمد ﷺ وربِّ الكعبة. فذكر الحديث، قال: فانطلَق أبو بكر وعمر

---

(١) أخرجه أحمد: ٥/ ١٨٥ ـ ١٨٦؛ وابن سعد: ٣/ ٢١٢؛ وبأطول منه الحاكم: ٣/ ٧٦، وإسناده صحيح.

(٢) الفتح: ٨/ ٦٠٠.

يتقاودان حتى أتَوْهم، فتكلَّم أبو بكر ولم يترك شيئاً أُنزل في الأنصار ولا ذَكره رسول الله ﷺ من شأنهم إلا وذَكَره، وقال: ولقد علمتُم أن رسول الله ﷺ قال: «**لو سَلَكَ الناسُ وادياً وسلكتِ الأنصارُ وادياً سلكتُ واديَ الأنصار**». ولقد علمتَ يا سعدُ[1] أن رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد: «**قريشٌ ولاةُ هذا الأمر، فَبَرُّ الناس تَبَعٌ لبَرِّهم، وفاجِرُهم تبعٌ لفاجِرهم**». قال: فقال له سعدٌ: صدقتَ، نحن الوزراء، وأنتم الأمراء)[2].

وكان مما قاله أبو بكر: (إن رسول الله ﷺ قال: «**أوصيكم بالأنصار خيراً: أن تقبلوا من محسنهم، وتتجاوزوا عن مسيئهم**». إن الله سمَّانا الصادقين، وسَمّاكم المفلحين[3]، وقد أمركم أن تكونوا معنا حيثما كنا، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩])[4].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال أبو بكر الصديق: (أَلَسْتُ أحقَّ الناس بهذا الأمر؟ ألستُ أولَ مَنْ أسلَمَ؟ ألستُ صاحبَ كذا؟ ألستُ صاحبَ كذا؟)[5].

---

(١) هو سعد بن عبادة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد: ١/ ٥؛ وبأطول منه عند الطبري في تاريخه: ٣/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣؛ ورجاله ثقات إلا أن حميداً لم يدرك أبا بكر؛ وصححه الألباني بشواهده في الصحيحة (١١٥٦). وحديث «**الأئمة من قريش**»: حديث صحيح، انظر: صحيح الجامع (٢٧٥٧، ٢٧٥٨)؛ والسنن الكبرى، للنسائي (٥٩٠٩).

(٣) في الآيتين (٨، ٩) من سورة الحشر.

(٤) العواصم من القواصم، ص ٦١ ـ ٦٢.

(٥) أخرجه ابن حبان (٦٨٦٣) واللفظ له؛ والترمذي (٣٦٦٧)؛ وذكره الحافظ في الفتح: ١٥/ ٤٤٧؛ وصححه الألباني في صحيح الترمذي: ٣/ ٢٠١.

إلىٰ غير ذلك من الأدلة القوية والأقوال السديدة ، فتذكرت الأنصار ذلك وانقادت إليه .

وناظَرَهُم أيضاً عمر بن الخطاب وأقام عليهم الحجة ، فامتثلوا رضي الله عنهم .

عن سالم بن عُبيد الأَشْجَعيِّ ـ وكان من أهل الصُّفَّة ـ قال : (قالت الأنصار : منَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ ، قال عمر : سيفانِ في غمدٍ واحد! إذاً لا يَصْلُحان ، ثم أخذ بيدِ أبي بكر فقال : مَنْ له هذه الثلاث : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ ﴾ مَنْ صاحِبُه؟ ﴿ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ مَن هُما؟ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] مع مَنْ؟ ثم بايَعَه ، ثم قال : بايِعُوا . فبايَعَ الناس أحسنَ بيعةٍ وأجملَها)[١] .

هذا ما كان من الأنصار على سوابقهم وفضائلهم وإخلاصِهم وطاعتِهم للنبي ﷺ ومتابعتهم لسنّتِه وعملهم بما احتج بِهِ أبو بكر وعمر من صحاح الآثار ، لا كما زعم الأخباري التالف الشيعي المحترق أبو مِخْنَف ـ لا رعاه الله ـ أن الخزرج نزلوا علىٰ خطبة زيد بن ثابت وحجّة الشيخين بسبب خشية إسراع الأوس بالبيعة ، وخشية هؤلاء من تولي الخزرج[٢]! .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (لمَّا قُبض النبي ﷺ قالت الأنصار : مِنَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ ، فأتاهم عمر فقال : يا معشرَ الأنصار!

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٨٠٥٥) واللفظ له ، ومطولاً (٧٠٨١)؛ والترمذي في الشمائل (٣٧٩)؛ وذكره الحافظ في الفتح : ٨/ ٦٠١ ، ١٥/ ٤٥٠ ، وسكت عليه ، وصححه الألباني في مختصر الشمائل .

(٢) انظر : تاريخ الطبري : ٣/ ٢٢١ ـ ٢٢٢ .

ألستُم تعلمون أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يَؤمَّ الناسَ؟ قالوا: بلى، قال: فأيكم تطيبُ نفسُه أن يتقدم أبا بكر؟ قالت الأنصار: نعوذُ بالله أن نتقدَّم أبا بكر).

وفي رواية: (كلُّنا لا تَطيب أنفسُنا، نستغفر الله)[1].

وروى الذُّهْلي في «الزُّهْريات» ـ بسند صحيح كما قال الحافظ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن عمر رضي الله عنه، قال: (قلتُ: يا معشرَ الأنصار! إن أَوْلَى الناس بأمر نبيِّ الله ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ أبو بكر السبَّاق المسنّ!. ثم أخذتُ بيده، وَبَدَرَني رجلٌ من الأنصار فضرَبَ على يدِهِ قبل أن أضربَ على يده، ثم ضربتُ على يدِهِ، وتتابَعَ الناس)[2].

ومع كل هذه الدلائل والشواهد على أحقيّة الصديق بالخلافة، واعترافِ الأنصارِ له بذلك، لم يزكِّ نفسَه ويدعو الناس لبيعته، بل كان كما روى عمر عنه، قال:

(وقد رضيتُ لكم أحدَ هذينِ الرجُلَينِ؛ فبايعوا أيَّهما شئتم! فأخذ بيدي وبيدِ أبي عبيدة بن الجراح، وهو جالسٌ بيننا، فلم أكره مما قال غيرها)[3].

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٨٥٥)؛ وأحمد: ١/ ٢١، ٣٩٦، ٤٠٥؛ وابن سعد: ٢/ ٢٢٤، ٣/ ١٧٩؛ والفسوي: ١/ ٤٥٤؛ وابن الأثير في أسد الغابة: ٣/ ٢٢٢؛ والحاكم: ٣/ ٦٧، وصححه ووافقه الذهبي؛ وحسنه الحافظ في الفتح: ١٥/ ٤٤٦؛ وصححه علي بن المديني كما في البداية والنهاية: ٥/ ٢٤٧.

(٢) البداية والنهاية: ٥/ ٢٤٧؛ الفتح: ١٥/ ٤٤٦.

(٣) البخاري (٦٨٣٠)؛ الفتح: ١٥/ ٤٣٤.

(فقالَ عمر: بل نُبايِعُكَ أنتَ ، فأنتَ سيِّدُنا وخيرُنا وأحَبُّنا إلى رسولِ الله ﷺ. فأَخذ عمر بيده فبايَعَهُ ، وبايَعَهُ الناس)[1].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: (فضَلَ الناسَ عمر بنُ الخطاب بأربعٍ) وذَكر منها: (وبرأْيه في أبي بكر ، كان أَوَّلَ الناسِ بايَعه)[2].

وفي «مغازي» موسى بن عُقبة ، عن ابن شهاب قال: (فقام أُسَيْد بن الحُضير وبَشير بن سعد وغيرهما من الأنصار فبايَعوا أبا بكر ، ثم وَثَبَ أهل السقيفة يبتدرون البيعة)[3].

وأما ما روي عن أبي البَخْتري[4] **، وبنحوه عن إبراهيم التَّيمي ـ واللفظ له ـ قال:** (لمَّا قُبِضَ رسولُ اللهِ ﷺ ، أتى عمر أبا عبيدة بن الجراح فقال: ابْسُطْ يدَكَ فلأُبايعْكَ؛ فإنك أمينُ هذه الأمة على لسان رسولِ الله. فقال أبو عبيدة لعمر: ما رأيتُ لكَ فَهَّةً قبلها منذ أسلمتَ ، أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين؟!)[5]. **فهو خبر ضعيف سنداً ، ومنكر متناً!.**

فأبو البختري لم يدرك عمر فخبره منقطع ، وإبراهيم التيمي ولد في زمن معاوية! ومتنُه شديد النكارة لمعارضته الأحاديثَ الصحاح المتقدمة

(١) البخاري (٣٦٦٨)؛ الفتح: ٨/ ٥٨٢.
(٢) أخرجه أحمد: ١/ ٤٥٦.
(٣) الفتح: ٨/ ٦٠١.
(٤) أخرجه أحمد: ١/ ٣٥.
(٥) أخرجه ابن سعد: ٣/ ١٨١؛ وابن عساكر ، ص ٣٧٢. **الفَهَّة**: السَّقْطة والجَهْلَةُ وضعفُ الرأي.

من مبادرة الفاروق إلى بيعة الصديق ، وهو أعرف الصحابة بمنزلة أبي بكر في الإسلام ، فكيف يقول مثل هذا القول في هذا الموقف العصيب؟! ثم إن أبا عبيدة لا يجترئ علىٰ عمر المحدَّث المُلهَم فيرميه بالجهل والعِيّ والعجز! .

وقد تناقل كثيرون هذا الخبر الواهي ، وشَيَّد الدكتور حامد الخليفة[1] عليه بنياناً لرفعة مقام الصديق ، ومقامه رضي الله عنه وأرضاه في ذروة الرفعة لا يحتاج لمثل هذه الأخبار الواهية .

•• ونخطئ كثيراً إذَا قلَّلنا من فضل الأنصار ودورهم الإيماني الفذ فيما صارت الأمور إليه ، فلقد كان لهم في ذلك مشيئة ظاهرة وفعل رائد شامخ .

لقد كانوا أنصار رسول الله ﷺ والحق والدعوة في كل موطن ، وبقوا على العهد حتى هذه الساعة وإلى ما بعدها ، ولم يكونوا قبل كل شيء طلابَ مُلك ، فلقد علموا جميعاً تقديمَ النبي ﷺ أبا بكر ليؤمَّهم في الصلاة وائتمانَه على أهمِّ ركن من أركان الدين بعد التوحيد ، فكيف لا يؤتمن على الدنيا؟! وكانوا يعلمون أن الله تعالى قدَّم المهاجرين عليهم في كتابه بقوله: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَـٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَـٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠] فلم يكن حرصُهم على السلطان أشدَّ من حرصهم على الدين ومصلحة المسلمين ، ولو كان نزاعهم نزاعاً على الإمارة واستئثار بالخلافة؛ لَبَطَل في هذا النزاع كل تدبير سابق لأبي بكر وصاحبيه. إنما كانوا تبَّاعين للحق ، حُرصَاء علىٰ وحدة الأمة والتزام

(١) في كتابه: أبو بكر الصديق: ٢/ ٧٦٩.

رغبات رسول الله ﷺ ، فشاركوا في إيصال الأمور إلى ما وصلت إليه[1] .

وكان لعمَر وأبي عبيدة وللأنصار قادةً وخطباء وعامة أفضلُ الفضل في وقاية الأمة من شرور متربِّصة وُئِدت تحت سقف السقيفة ، وخرج المسلمون مبايعين للصديق البيعةَ الخاصة ، لينشروا من الغدِ البيعةَ العامة في المسجد النبوي الشريف .

ومن حكمة الأقدار أن يأتيَ الأنصارَ في سقيفتهم ثلاثةٌ فقط من المهاجرين ، ولربما لو جاءَ رهْطٌ كبير لانتشرت الآراء أكثر ، وظنَّ ظانٌّ أن في المسألة حزبين يتمثلان في المهاجرين والأنصار . إنما جاؤوا ثلاثة ناصحين مبصِّرين هادين مرشِدين ، وتمثل في الثلاثة أنواع الخير المنشورة في المهاجرين والأنصار : فأبو بكر من لا يخفى فضله ومكانته عند النبي ﷺ وأصحابه كافة ، وعمر الوزير الثاني الذي يعرف كل أحد صراحتَه وصرامته وحبَّه للحق ونصرته له وجودة رأيه ، وأبو عبيدة وهو مَن نشر النبي ﷺ فضْلَه علىٰ الملأ بأنه (أمين الأمة) .

●● ومع هول المصيبة في موت رسولِ الله ﷺ ، وجيش أسامة معسكِر بالجرف فيه المهاجرون والأنصار يحملون السلاح ، واحتدام الموقف في السقيفة . . . مع كل هذا ، فإن الذي جرى في اجتماع السقيفة لم يتجاوز روايةَ الحوادث وإلقاءَ الخُطب التي تُبودِلت بين الطرفين ، وآلَتْ إلى بيعة الصديق ! .

إن الذين يقدِّرون الحوادثَ قدْرَها يرون ما كان لهذا الاجتماع التاريخي من الأثر في حياة الإسلام ، وأنه يوازي ما كان لبيعة العقبة

---

(١) انظر : عبقرية الصديق ، ص ٢٩ ـ ٣٠ .

الكبرى ، وما كان لهجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة . ويرون فيما كان من أبي بكر وحسنِ تصرفه في الموقف عملَ الرجل السياسي ، بل رجل الدولة بعيد مرمى النظر ، والذي يقدِّر النتائج ويرتب للاحتمالات ، ويوجِّهُ كل جهده إلى الغرض الذي يريد أن يحقق به أعظم الخير ، ويتقي به كل ضرٍّ أو أذى[١] .

وبَلَغَ الخبرُ مكةَ ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : (لمَّا قُبض النبي ﷺ بَلغ أهلَ مكة الخبرُ ، قال : فسمع أبو قحافة الهائِعة ، فقال : ما هذا؟ قالوا : توفي النبي ﷺ ، قال : أمرٌ جليلٌ! فمن قام بالأمر من بعده؟ قالوا : ابنُك ، قال : ورَضِيَتْ بنو مخزوم وبنو المغيرة؟ قالوا : نعم ، قال : اللهمَّ لا واضِعَ لِما رَفعتَ ، وَلا رافِعَ لَما وضعْتَ)[٢] .

●● وبعد ما قدّمناه من حقائق ناصعةٍ ثابتة حول مواقف أصحاب رسول الله ﷺ من مهاجرين وأنصار حول الخلافة والبيعة ؛ فلا تعبأ أيها القارئ بما يَرْجُم به كثير من الكتَّاب بالظنّ ، ويجترُّون كلامَ أصحاب الأهواء من المؤرخين ، ويتقوَّلون على الحقيقة ، ويسيئون من حيث يريدون أو لا يريدون إلى الصحابة والحق والتاريخ! .

يقول أحدهم : (ويبدو أن الدعوة للاجتماع[٣] تمت على عجل دون إعلام المهاجرين ، وكأنَّ الهدف أخذُهم على حِين غِرَّة وخلْق واقعة سياسية!

---

(١) الصديق أبو بكر ، لهيكل ، ص ٤٧ .

(٢) أخرجه الحاكم : ٣/ ٢٤٥ ؛ ونقله عنه السيوطي في تاريخ الخلفاء ، ص ٧٢ . **الهائعة** : الصوت الشديد . وأخرجه عن سعيد بن المسيب دون ذكر أبي هريرة : ابن سعد : ٣/ ١٨٤ ؛ وابن عساكر ، ص ٥٨٩ ـ ٥٩٠ .

(٣) يعني اجتماع السقيفة .

أو أن بعض الأنصار تذاكروا في أمر مَن يخلُف النبي ﷺ خلال مرضه، وأنهم توقعوا وفاته، فلما حصلت الوفاة دَعَوا إلى هذا الاجتماع فاجتمعوا)[1].

ثم قال: (ولمَّا بَلَغ خبر اجتماع السقيفة أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، مضَيَا إلى هناك مسرعَيْن ، بفعل أهمية وخطر الموضوع المطروح من مشكلة الحكم ، والتقيا في طريقهما أبا عبيدة بن الجراح فأخذاه معهما ، وشكَّل هذا الثلاثي جماعة متماسكة ، ربما منذ المرحلة المكية من الدعوة ، فهم ينتمون إلىٰ عشائر قرشية صغيرة ، وكان هذا سبباً لتقاربهم!)[2].

وقال أيضاً: (وهكذا كانت السابقة في جانب المهاجرين من زاوية إسلامية محض ، وكان التفوق في جانبهم أيضاً من وجهة نظر عربية محض ، لأنهم ينتمون إلى قبيلة قريش ، قبيلة النبي ﷺ ، وبالتالي فإن الوراثة في جانبهم!)[3].

وذكر الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه عن الصديق (مهاترات) جرت بين الصحابة ، نقلها عمَّن قبله من أمثال أبي مِخْنَف لوط بن يحيى والمسعودي ، وفيها دعوة الأصحاب بدعوى الجاهلية والتعصب للقوم والعشيرة[4]!.

ولا نطيل بتسويد الصفحات في الردّ علىٰ هذا ، فالصحابة رضوان الله

---

(١) تاريخ الخلفاء الراشدين ، للدكتور محمد سهيل طقوش ، ص ١٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص٢٠ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢١ .
(٤) انظر: الصديق أبو بكر ، ص ٤٩ ـ ٥٢ .

عليهم كانوا يرجعون إلى الإسلام ومصلحة الدين والأمة ، وقد أكرمهم الله بهذا الدين وأذهب عنهم عُبِّيَّة الجاهلية ، وقد علموا وعملوا في حياة النبي ﷺ بالسمع والطاعة لأي أمير يقودهم بكتاب الله ، وأقربُ العهد بذلك أسامة بن زيد وهو شاب طريٌّ قد أمَّره رسول الله ﷺ على جيش فيه سادات المهاجرين والأنصار! فلِمَ لا يبايعون لرجل له من السوابق والخصائص ما ليس لأحد مثله وهو الصديق؟! وما لهم وللعصبية للقبيلة والعشيرة وقد عاشوا للإسلام دون سواه والوحي ينزل عليهم والنبي ﷺ بين ظهرانيهم! وما شأنهم والوراثة في الحكم ولم يبدر من أحد منهم ما يشير إلى ذلك ، ولو كان هذا لكان الأَوْلَى بالخلافة العباس أو علي رضي الله عنهما! .

ثانياً: البيعة العامة:

●● كانت تلك البيعة في سَقيفة بني ساعدة في بقية يوم الإثنين ، فلما كان الغدُ صبيحَةَ يوم الثلاثاء ، اجتمع الناس في المسجدِ فتمت البيعة من المهاجرين والأنصار قاطبةً ، وكان ذلك قبل تجهيز رسولِ الله ﷺ[١] .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه : (أنَّه سَمِعَ خطبةَ عمر الآخِرة[٢] حين جلسَ علىٰ المِنْبَرِ ، وذلك الغدَ من يوم توفِّي النبي ﷺ ، فتشهَّدَ وأبو بكر صامتٌ لا يتكلم ، قال: «كنتُ أرجو أن يعيش رسولُ الله ﷺ حتىٰ يَدْبُرَنَا ـ يريدُ بذلك أن يكونَ آخِرَهُم ـ فإنْ يكُ محمد ﷺ قد ماتَ ، فإنَّ الله

(١) البداية والنهاية: ٥/٢٤٨.

(٢) وخطبته الأولى هي التي كانت يوم وفاة النبي ﷺ ، وقوله في الناس بأنه ﷺ لم يمت.

تعالى قد جعلَ بين أظْهُرِكم نوراً تهتدون به بما هَدَى الله محمداً ﷺ. وإنَّ أبا بكر صاحبُ رسولِ الله ﷺ ثاني اثنين، فإنَّه أَوْلَى المسلمين بأُمورِكم فقُومُوا فبايِعُوه». وكانت طائفةٌ منهم قد بايَعُوه قبل ذلك في سَقيفة بني ساعدة، وكانت بيعةُ العامَّة علىٰ المِنْبر. قال الزهري: عن أنس بن مالك: سمعتُ عمرَ يقول لأبي بكر يومئذٍ: اصْعَد المنبرَ. فلم يَزَلْ به حتى صعِد المنبر، فبايعه الناس عامة[1].

وتتابع الناس على أبي بكر، فبايعه (مئة ألف) من المهاجرين والأنصار جميعاً وعامة المسلمين[2].

فكانت بيعةً في المسجد النبوي عامةً مباركةً مشهودةً مشهورةً، لم يتخلَّف عنها أحد من المسلمين؛ حيث شدُّوا جميعاً بأيْمانهم على يمين الصديق، وأصبح من هذه الساعة يُنادَى بما لم يُنادَ به غيره من قبلُ ولا من بعدُ: (خليفة رسول الله).

وقام أبو بكر على منبر رسولِ الله ﷺ الذي طالَما ألقى السمع عنده لِخُطَبِ الحبيبِ ﷺ، حيث كان يلقي عليه الآيات والأحاديث والمواعظ والتوجيهات الرفيعة، وإذا بالفَلَك يدور دورته ويقف الصديق بنفس المكان ليحمل الأمانة الكبرى، وينطلق مع المسلمين لمتابعة الطريق الذي أضاء الأنوارَ في مطلعه رسولُ الله ﷺ، ومشى أبو بكر على هداه من أول لحظة وحتى آخر نَفَسٍ له في الدنيا.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢١٩) واللفظ له؛ وعبد الرزاق (٩٧٥٦)؛ وابن سعد: ٢/ ٢٧١؛ والطبري في تاريخه: ٣/ ٢١٠؛ وابن حبان (٦٨٧٥)؛ والقسم الأخير من الحديث (٦٦٢٠).

(٢) انظر: الإمامة، لأبي نعيم، ص٢٦٥.

فَلْنُصغِ إلى (خطبة العرش) وخُطبِهِ الأولى ، التي بيَّن فيها (منهج خلافة النبوة) الذي سيسير عليه ، وسيحمل الأمة كلها على انتهاجه .

بعد أن ألقى الفاروق عمر خطبته المتقدمة ، قام أبو بكر في الناس خطيباً .

قال الزُّهْرِيُّ : حدثني أنس بن مالك رضي الله عنه قال : (فتكلم أبو بكر ، فحَمَدَ الله وأثنَى عليه بالذي هو أهلُه ، ثم قال : **أما بعدُ** : أيها الناسُ ؛ فإني قد وُلِّيت عليكم ولستُ بخيرِكم ، فإن أحسنتُ فأعينوني ، وإنْ أسأتُ فقوِّمُوني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريحَ عليه حقَّه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذَ الحقَّ منه إن شاء الله . لا يَدَعُ قوم الجهادَ في سبيل الله إلا ضَرَبَهم الله بالذلّ ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قطُّ إلا عَمَّهُم الله بالبلاء . أطيعوني ما أَطعتُ الله ورسولَه ، فإذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلىٰ صلاتكم يرحمكم الله)[1] .

قال الحسن البصري : هو والله خَيْرُهم غير مُدافَعٍ ، ولكنّ المؤمن يهضم نفسه[2] .

والصديق في هذه الخطبة قد وضع أعظم قاعدة سياسية اهتدت إليها البشرية ، ولم يكن قد قرأ الفلسفة اليونانية ، ولا اطلع على «ديمقراطية»

---

(١) أخرجه ابن هشام في السيرة : ٢/ ٦٦١ ؛ والطبري في تاريخه : ٣/ ٢١٠ ؛ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية : ٥/ ٢٤٨ ، ٦/ ٣٠١ ، وقال : هذا إسناد صحيح .

(٢) ابن عساكر ، ص ٤٠٩ ، ٤١١ . وانظر في هذا كلام الخطابي : غريب الحديث : ٢/ ٣٥ ؛ ابن عساكر ، ص ٤١٠ .

أثينا وإسبرطة ، إنما كان قد قرأ كتاب الله ، وتلقى عن رسول الله ﷺ[1].

وقد تضمّنتْ هذه الخطبة الوجيزة علاقةَ الحاكم بالمحكومين: فبيَّن أن مجيئَه للخلافة بإرادة الأمة ، وبتعاقدٍ واضح: الطاعةُ من الناس مقابل التزام الحاكم بالشريعة ، ورقابة الأمة على سياسته ، وإعانته في الخير ، وتصحيح سياسته إذا انحرف ، كما فيها بيان الالتزام بإقامة العدل ، والجهاد ، وتنظيف المجتمع من الانحراف الخلقي[2].

وسنُفرِد فصلاً مستقلاً نفصِّل فيه القولَ في ملامح الحكم الإسلامي ، وسماتِ دولة الخلافة ومعالمها في عهد الصديق.

●● **ولم يكن أبو بكر حريصاً على منصب الخلافة ، ولا ساعياً إليه ، ولا مزاحماً عليه**، لأن الحكم في نظر المسلم وبخاصة الصحابة الذين تربَّوا على عين النبي ﷺ غُرْم لا غُنْم، وتضحية لا تزكية، وتكليف لا تشريف، ومسؤولية وحساب بين يدي الله على تلك الأمانة أَحَفِظَ أم ضَيَّع. ولولا أن التبعات الجِسام والأحداث الكبار التي أوجبت عليه التصدي لها والقيام بمسؤولياته أمام دينه وأمته؛ لتركها وأوى إلى ركن بعيد.

عن رافع الطائيِّ رفيقِ أبي بكر في غزوة ذات السَّلاسل قال في حديث طويل: (فلما قُبِض رسول الله ﷺ ، وأُمِّر أبو بكر على الناس ، قال: قَدِمتُ عليه ، فقلتُ له: يا أبا بكر! ألم تكُ نهيتَني عن أن أتأمَّر علىٰ رجلين من المسلمين؟ قال: بلى ، وأنا الآن أنهاكَ عن ذلك ، قال: فقلت له: فما حَمَلَكَ علىٰ أن تلي أمر الناس؟ قال: لا أجِدُ من

(١) من قضايا الفكر الإسلامي المعاصر ، ص ٧٥ ـ ٧٦.
(٢) عصر الخلافة الراشدة ، ص ٥٣.

ذلك بُدّاً ، خشيتُ على أمة محمد ﷺ الفُرقة).

وفي رواية: (تَخَوَّفْتُ أن تكونَ فتنةٌ تكونُ بعدها رِدَّةٌ)[1].

وعن عبد الرحمن بن عوف: أنه كان مع عمر ، وقد قام أبو بكر فخطب الناس واعتذر إليهم ، وقال: (والله ما كنتُ حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قطُّ ، ولا كنتُ فيها راغباً ، ولا سألتُها الله عز وجل في سِرٍّ ولا علانية ، ولكني أشفقتُ من الفتنة ، وما لي في الإمارة من راحة ، ولكن قُلِّدتُ أمراً عظيماً ما لي به من طاقة ولا يد إلا بتقوية الله عز وجل ، ولَوَدِدْتُ أن أقوى الناس عليها مكاني اليوم!)[2].

وعن الحسن البصري قال: (لمّا بُويع أبو بكر قام خطيباً ، فلا والله ما خَطَب خُطْبته أحدٌ بعدُ ، فحمدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال: أما بعدُ ، فإني وُلِّيتُ هذا الأمرَ وأنا له كارهٌ ، ووالله لَوددْتُ أن بعضكم كفانيه. أَلا وإنكم إن كلّفتموني أن أعملَ فيكم بمثلِ عملِ رسولِ الله ﷺ ، لم أَقُمْ به ، كان رسول الله ﷺ عبداً أكرمَهُ الله بالوحي وعَصَمه به. أَلا وإنما أنا بَشَرٌ ، ولستُ بخير من أحدٍ منكم فراعوني ، فإذا رأيتُموني استقمتُ فاتَّبعوني ، وإنْ رأيتُموني زِغْتُ فقوِّمُوني. واعلموا أن لي شيطاناً يَعتريني ، فإذا رأيتموني غضبتُ فاجتنبوني ، لا أُؤثِّرُ في أشعارِكم وأَبْشارِكم!)[3].

---

(١) أخرج ابن هشام الرواية الأولى ، وأحمد الثانية ، وتقدم الخبر مطولاً مع تخريجه: ص ٢١٢ ـ ٢١٣ حاشية (١) في هذا الكتاب.

(٢) أخرجه الحاكم: ٣/ ٦٦ ، وصححه ، وأقره الذهبي؛ وأخرجه البيهقي في السنن: ٨/ ١٥٢.

(٣) أخرجه ابن سعد: ٣/ ٢١٢؛ وعبد الرزاق (٢٠٧٠١)؛ وابن عساكر ، =

وقال في خطبة أخرى: (أيها الناس! إنما أنا متَّبع ولستُ بِمُبتدعٍ ، فإن أحسنتُ فأَعِينُوني ، وإنْ زِغْتُ فقوِّموني)[1].

ومدلول قوله: (إنما أنا متبع ولست بمبتدع) أن الحاكم ليس مشرِّعاً ، وإنما هو منفِّذٌ لشريعة إلـٰهية تجسدت في الكتاب والسنة[2].

وقد طعن الرافضي ابن المُطَهَّر الحِلِّي علىٰ أبي بكر الصديق في قوله: (إن لي شيطاناً يعتريني) ، فقال: (وكيف يجوز إمامة من يستعين بالرعية على تقويمه ، مع أن الرعية تحتاج إليه؟!).

وهذا كلامُ جاهلٍ مكابرٍ مبغِضٍ ، فإن كلام الصديق هذا من أكبر فضائله وأدلِّها على أنه لم يكن يريد علوّاً في الأرض ولا فساداً ، والشيطان الذي يعتريه يعتري جميع بني آدم. ومقصود الصديق بقوله هذا: إني لست معصوماً كالرسول ﷺ ، وهذا حق.

وقد ردَّ عليه ـ في هذا وغيره ـ شيخُ الإسلام ابن تيمية بكلام نفيس[3].

●● **وشروط البيعة للخليفة منبثقة من مدلول قول الله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

ويحكي شاهد عيان طريقة البيعة لأبي بكر ، فعن ابن العفيف قال:

= ص٤٠٨ ، والحسن لم يدرك أبا بكر ، لكن يشهد له ويقويه ما رواه أحمد: ١/١٣ ـ ١٤ بأخصر منه ، عن قيس بن أبي حازم ، وحسنه أحمد شاكر.

(١) تقدمت مطولة: ص ٣٢٢ حاشية (٣) في هذا الكتاب.

(٢) نظام الإسلام «الحكم والدولة» ، ص٢٦.

(٣) منهاج السنة: ٣/٤٨٣ ـ ٤٨٦.

(رأيتُ أبا بكر رضي الله عنه وهو يُبـايع الناسَ بعد رسول الله ﷺ ، فيجتمع إليه العصـابـة فيقول: تبايعوني على السمع والطاعة لله ولكتابـه ثم للأمير؟ فيقولون: نعم ، فيبايعُهم. فأقمتُ عنده ساعـة ، وأنـا يومئذ المحتلِمُ أو فوقه ، فتعلَّمتُ شرطَه الذي شرط على الناس ، ثم أتيتُه فقلت وبدأتُه ، قلت: أنا أبايعك على السمع والطاعة لله ولكتابه ثم للأمير ، فصَعَّد فيَّ البصرَ ثم صوَّبَـهُ ، ورأيتُ أني أعجبتُه ، رحمه الله)[١].

وعملية البيعة أو المبايعة هي في جوهرها وأصلها عقد وميثاق بين طرفين: الأمير أو الإمام المرشح لرياسة الدولة ، والجمهور ، أما هو فيبايع على الحكم بالكتاب والسنة والنصح للمسلمين ، وأما الجمهور المبايع فعلى الطاعة في حدود طاعة الله ورسوله. وهذا ما كان يحصل فعلاً في عهد الخلفاء الراشدين في المبايعة[٢].

●● **والذين اختاروا أبا بكر إماماً لهم وخليفة لرسول الله ﷺ هم صفوة الخلق المهاجرون والأنصار** ، وأجمعوا على ذلك ، ورضوا به ، ونادوه بـ (خليفة رسول الله) ، وهم الأمة المختارة المشهود لها بأنها خير الأمم ، ولا تجتمع إلا على حق وهدى[٣].

عن ابن أبي مُلَيْكة قال: (قيلَ لأبي بكر: يا خليفةَ الله! فقال: أنا

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن: ٨/١٤٦؛ والحارث بن أبي أسامة في مسنده بإسناد حسن كما في بغية الباحث ، للهيثمي: ٣/٧٥٣. انظر: عصر الخلافة الراشدة ، ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٢) نظام الإسلام «الحكم والدولة» ، ص٣٠ ، وانظر تتمة كلامه فإنه نفيس.

(٣) انظر: الإمامة ، لأبي نعيم ، ص ٢٥٥.

خليفةُ رسول الله ﷺ ، وأنا راضٍ به ، وأنا راضٍ به ، وأنا راضٍ)[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال: (أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ على كل مؤمن ومؤمنة)[٢].

وقد خاطبه الصحابة بها في مواطن شتى ومناسبات كثيرة جدّاً ، مرَّ في الكتاب بعضها وسيمر كذلك.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال: (أجمع أصحاب النبي ﷺ واستخلَفوا أبا بكر رضي الله عنه)[٣].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (أيها الناس! إنَّ رسول الله ﷺ لم يَعهدْ إلينا في هذه الإمارة شيئاً ، حتى رأَيْنا من الرأي أن نستخلِفَ أبا بكر ، فأقامَ واستقام حتىٰ مضَى لسبيله)[٤].

والنصوص في هذا كثيرة ، وقد أوردنا طرفاً صالحاً من ذلك في فقرة سابقة[٥].

ثالثاً: كشف شبهات وتزييف أباطيل:

جاءت في مطاوي أحاديث البيعة الخاصة في السقيفة والعامة في المسجد النبوي روايات تناقِض الصحيحَ الصافي منها. ووردت أقوال

---

(١) أخرجه أحمد: ١/١٠ ـ ١١ ، وابن سعد: ٣/١٨٣. وضعفه أحمد شاكر لانقطاعه.

(٢) ابن عساكر ، ص ٤٠١.

(٣) أخرجه الحاكم: ٣/ ٨٠ ، وانظر: ٣/ ٧٨ ـ ٧٩.

(٤) مرّ بأطول منه: ص٤٠٠ حاشية (٣) في هذا الكتاب.

(٥) انظر: ص ٣٩٧ ـ ٤٠٦ في هذا الكتاب.

لبعض المتقدمين والمتأخرين يَلوح منها الحَط على الصحابة والطعنُ في صحة البيعة. وكثُرت الأقوال حول تخلُّف طائفة من الأصحاب الكرام عن البيعة ومنافرتهم لإجماع الصحابة وانحيازهم عن مَلَئِهِم ومسيرتهم. وجَنَحَ بعض الكتاب في تفسير النصوص والأحداث.

ولا بدَّ من الإشارة إلى أبرز تلك الشبهات والأباطيل، وبيانِ وجه الحق فيها، بما يوافق الكتاب والسنة والسيرة الناصعة للصحابة الذين تربَّوا على منهجهما تحت قيادة النبي ﷺ، وأقَرُّوا عينَه حيّاً وميتاً بالسير التام الأبلج على ما رَبَّاهم عليه.

١ ـ قول عمر رضي الله عنه في الحديث المطوَّل الذي أثبتناه في الفقرة السابقة: (فلا يغترنَّ امرؤٌ أن يقول: إنما كانت بيعةُ أبي بكر فلتةً وتمَّتْ، ألا وإنها قد كانت كذلك، ولكنَّ الله وقى شَرَّها)[١]:

الفَلْتة: الفجأة، وذلك أنهم لم ينتظروا ببيعة أبي بكر رضي الله عنه ـ يوم السقيفة ـ عامةَ الصحابة، وإنما ابْتَدَرها عمر ومَن تابَعَه[٢].

وقد بيَّن عمر سببَ إسراعهم ببيعة أبي بكرٍ لِما خَشَوا أن يبايع الأنصارُ سعد بنَ عبادة. قال أبو عُبيد: عاجَلوا ببيعة أبي بكر خيفةَ انتشار الأمر وأن يتعلّق به مَن لا يستحقُّه، فيقع الشر[٣].

قال ابن حِبَّان: قول عمر: (**إنَّ بيعةَ أبي بكر كانت فلْتةً ولكنَّ اللهَ وَقَى شرَّها**): يريد أن بيعة أبي بكر كان ابتداؤها من غير مَلأ، والشيءُ الذي

(١) لفظ البخاري (٦٨٣٠).

(٢) جامع الأصول: ٤/ ٩٨.

(٣) الفتح: ١٥/ ٤٤١ (٦٨٣٠).

يكون من غير ملأ ، يقال له: (الفَلْتة) ، وقد يُتَوقَّع فيما لا يجتمِع عليه الملأ الشرُّ ، فقال: (وقى الله شرَّها) ، يريد الشرَّ المتوقع في الفَلَتات ، لا أنَّ بيعة أبي بكر كان فيها شر[1].

واعتمده الحافظ في «الفتح»[2].

وبيعةُ أبي بكر بُودِر إليها من غير تريُّثٍ ولا انتظارٍ؛ لكونه كان متعيِّناً لهذا الأمر ، كما قال عمر: (ليس فيكم من تُقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر). . وكان ظهورُ فضيلة أبي بكر على من سواه ، وتقديمُ رسولِ الله ﷺ له على سائر الصحابة أمراً ظاهراً معلوماً ، فكانت دلالةُ النصوص علىٰ تعيينه تُغني عن مشاورةٍ وانتظارٍ وتريُّثٍ[3]!.

وسبق إلىٰ هذا المعنى الإمام الخطابي[4].

قال الحافظ: (وفيه إشارة إلى التحذير من المسارعة إلىٰ مِثل ذلك حيث لا يكون هناك مثلُ أبي بكر ، لِما اجتمع فيه من الصفات المحمودة: من قيامِه في أمر الله ، ولين جانبه للمسلمين ، وحسنِ خلقه ، ومعرفته بالسياسة ، وورعه التام. فمن لا يوجد فيه مثل صفاته لا يُؤْمَن من مبايعته من غير مشورة الاختلافُ الذي ينشأ عنه الشر)[5].

هذه أقوال الأئمة في معنى هذه العبارة ، وبيان وجه الحق في دلالتها.

---

(١) صحيح ابن حبان: ٢/ ١٥٨.
(٢) الفتح: ١٥/ ٤٤١.
(٣) منهاج السنة: ٣/ ٤٨٧.
(٤) الفتح: ١٥/ ٤٤١.
(٥) الفتح: ١٥/ ٤٤١ ـ ٤٤٢.

وقد زَلَّت في فهمها أقدام وجَمَحت أقلام وطاشَتْ أحلام؛ من ذلك قول عبد الوهاب النجار: (يرى المطلع على الشكل الذي حصلت به بيعة أبي بكر أن الاستشارة في أمرها كانت ناقصة نقصاً ظاهراً! لأن المعقول في مثل هذه الحالة أن يتخذ المسلمون مكاناً يجتمعون فيه، وأن يُؤْذَنَ الناس به من قبل، غير أن حرص عمر بن الخطاب على الإسراع في الأمر والمبادرة إلى لَمِّ شَعَث المسلمين؛ جعله يَـتمّ على هذا الوجه، وقد أُثِر عنه أنه قال: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة، ولكن وقى الله شرها)(١).

وهذا خطأ محض من جهتين:

الأولى: أن الأنصار عامة وفيهم زعماؤهم وأولو الرأي منهم، ومن جاءهم من المهاجرين، لم يغادروا السقيفة إلا وقد بايعوا أبا بكر.

والثانية: أن الصحابة رضي الله عنهم في الغدِ من يوم السقيفة أتموا البيعة العامة في المسجد. وقد أوضحنا أن المهاجرين والأنصار أجمعوا علىٰ بيعته، فأي نقص في هذا؟!.

زد على ذلك المعاني التي قدمناها عن أئمتنا في فهم هذه العبارة.

٢ ـ وقد افترى أعداء الإسلام ومبغضو الصحابة رضي الله عنهم فرية ساقطة تزعم ائتمار أبي بكر وعمر وأبي عبيدة باغتصاب الخلافة، وتداولها فيما بينهم، وتدبير الأمر لاختصاصهم بها!:

والذي يتأمل الأحاديث والأحداث إبَّان (يوم السقيفة) وقبله وبعده، ويدقق النظر الفاحص المخلص في سير هؤلاء الثلاثة الكرام من بين

---

(١) الخلفاء الراشدون، للنجار، ص١٦.

جميع الصحابة ـ يدرك سقوط تلك الفرية العارية البلهاء.

ـ فليس ثَمَّة رواية صحيحة أو مقبولة تُثبت هذا الزعم، سواء ممن بايع أبا بكر مباشرة ولساعته، أو ممن ناقش واحتدَّ في النقاش، أو ممن بايع في اليوم التالي البيعة العامة.

ـ وليس في سِير وأخلاق هؤلاء الثلاثة الأماجد طيلة فترة الرسالة المباركة ما يَشين حياتهم بأدنى شائبة أو شبهة من هذا القَبيل أو غيره، بل كانوا في ذروة ذرا المكارم والفضائل الحميدة.

ـ كذلك لم يَعثر المبغِضون قبل المحبِّين في سيرة الشيخين في مدة خلافتيهما، علىٰ هَنَةٍ أو سَقْطة تنمُّ عن الطمع في الإمارة والرغبة في السطوة والممارسة بالاستئثار وشهوة السلطان!.

ـ بل نجد في مدة ثلاث عشرة سنة ـ هي زمن خلافة الشيخين ـ كلَّ دلائل الولاء لله ولكتابه ولرسوله، واتباع أرفع مناهج النزاهة في الحكم والزهد في الرياسة والخوف من شهوة السلطة.

وتلكم هي سيرتهما فانظروا ورَعَ الصديق فيها، ثم ارتقوا إلى سيرة الفاروق لِتروا كيف أنه أبى أن يسمِّي ابنه عبد الله مع أصحاب الشورى الستة وهو أهل لذلك!.

ـ وساعة وفاة النبي ﷺ لم يكن الصديق في المدينة بل كان بالسُّنْح، ولو كان ثَمَّة تآمرٌ لبقي في بيت ابنته عائشة بجانب النبي ﷺ قريباً من الأحداث، لاسيما وهو يعلم أنه ﷺ قد اقترب أجله.

ـ وعندما توفي رسول الله ﷺ دهش عمر، وأخذ يتهدد من يقول: إن النبي ﷺ قد مات، فرجلٌ هذا حالُه أكان يَخطرُ بباله تآمر على السلطة

واحتيازها مع الصديق؟! أفما كان ينتظر هذه الساعة ليبرِم الأمر الذي يزعم الأفّاكون أنه يدبِّر له؟!.

- ثم إن ذهابَ الثلاثة إلى السقيفة لم يكن عن سابق تدبير، وإنما دعاهم الداعي لحضور مشهد الأنصار، وتدبير الأمور التي يتناقشون فيها بشأن الحكم والخلافة.

- كذلك ما جرى من أحاديث في السقيفة يؤكد براءتهم من تلك الفرية، ومن ذلك: أن عمر يهيِّئ في نفسه كلاماً يظن أن الصديق لن يَبْلُغَه ويداري من حدَّته، وأبو بكر يخاف شدة عمر فيقول له: على رِسْلك، فيسكت عمر خشية أن يغضبه.

وعندما انطلق الشيخان من منزل النبي ﷺ إلى السقيفة لم يكن أبو عبيدة معهما، وإنما انضم إليهما في أثناء الطريق[1].

٣ - وزاد المفترون افتراء آخر؛ فذكروا أن أم المؤمنين الصدِّيقة عائشة قد شارَكَتْهم في هذه المؤامرة:

وقد تواترت الرواية عنه ﷺ: أنه قال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**»، فراجعتْه السيدة عائشة مرة ومرة، ثم أمرتْ حفصةَ أن تراجعه، ففعلتْ، فقال ﷺ: «**إنكن صواحبُ يوسف**».

والسيدة عائشة مسعودة الحظ لا مراء، لأنها لم تخالف النبي ﷺ قطُّ في أمر خطير، وحين خالفَتْه أو تردَّدت في تبليغ كلامه في أمر من أخطر الأمور، كان هذا التَّردد أدلَّ على مكانتها وفضلها وعلى استحقاقها لمنزلة الإيثار في ذلك القلب العظيم.

---

(١) انظر: عبقرية الصديق، ص ٢١ ـ ٢٢.

وهذه الرواية تدل على صفات باهرة عندها ، وأول تلك الصفات فَرْط الذكاء ولطافةُ الحس وحسنُ التقدير؛ فهي قد ترددت لتبرِّئ نفسَها من القالة ، وتَبرِّئَ ذلك الموقف الخطير من المَظِنَّة ، وتبرِّئ الخلافة من أسباب الادعاء ، وقد يكون فيها إضعاف وإيذاء.

إن تردُّدَ عائشة في ذلك الموقف الخطير لم يضرَّ بل نَفَعَ ، وكان أنفَعَ من إسراعها بالتبليغ ، وأولُ ما نَفَعَ به أنه أظهر رغبةَ النبي ﷺ إظهاراً لا مجال للظِّنَّةِ فيه ، فكان ذلك من أدعى دواعي الاتفاق على الاختيار وقطع السبيل على الفتنة والشقاق[1].

٤ ـ بيعة سعد بن عبادة:

يذكر الواقِديُّ في روايته: (أن أبا بكر بعث إلىٰ سعد بن عُبادة: أن أَقْبِلْ فبايعْ فقد بايع الناس وبايع قومُك ، فقال: لا والله لا أبايع حتى أُراميكم بما في كِنانتي وأقاتلكم بمن تبعني من قومي وعشيرتي!).

وبقي سعدٌ كذلك حتى مات أبو بكر ، وجاء عمر فلم يبايعْه أيضاً ، بل جرى بينهما حوار قاسٍ ـ كما تزعم الرواية ـ وأن سعداً هجر عمرَ ، وهاجر إلى الشام فمات بِحَوْرانٍ[2].

ونقل الطبري عن أبي مِخْنَف لوطِ بن يحيى زيادةً على ما سبق ، فذكَر أن سعداً كان لا يصلي بصلاة المسلمين ، ولا يُجَمِّع معهم ، ويحجّ ولا يُفيض بإفاضتِهم، فلم يَزَلْ كذلك حتى توفي أبو بكر رضي الله عنه[3]!.

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩ ـ ٢٠.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ٦١٦ ـ ٦١٧ ، ٧/ ٣٩٠.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣. **لا يجمِّع**: لا يصلي الجمعة مع الجماعة.

●● والروايتان هالكتان؛ فالواقديُّ متروكٌ فلا يُعتمد عليه في مثل هذا الأمر الخطير والذي خالف فيه الروايات الصحيحة. وأبو مِخْنَف أخباري تالِف شيعي محترِق فلا يُلتفت إليه ولا كرامة.

فالبناءُ علىٰ مِثل هذين الراويين بناءٌ علىٰ جُرف هارٍ، واتهامُ صحابي جليل في مكانة سعد سيِّد الخزرج وصاحِب السوابق والفضائل بمثل هذا الكلام هو إساءة إليه، وجناية على الحقيقة، وما تربى عليه أصحاب النبي ﷺ من ورع وتقوى وإخلاص لله تعالى وحرصٍ على وحدة الأمة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولمن أجمَعَ المسلمون على مبايعته! ومثلُ سعد مَن لا يَجهل مكانةَ الصديق وتقديمَ الرسول ﷺ له. ويؤكد ذلك الرواية التي قدمناها ـ وهي صحيحة ـ أن أبا بكر احتج عليه بحديث «**الأئمة من قريش**»، وأن سعداً قال له: صدقتَ، نحن الوزراء وأنتم الأمراء[1].

ثم أين كل تلك الصحبة الطويلة التي لازم فيها سعدٌ رسولَ الله ﷺ، ومبايعته على السمع والطاعة في العسر واليسر والمَنْشط والمَكْره، وما ربَّاهم عليه من عدم طلب الإمارة أو السعي إليها، والبعد عن شقِّ عصا الطاعة وتمزيق وحدة المسلمين... أترى كل ذلك انماع في ساعة السقيفة؟! أفهكذا ربى النبي ﷺ أصحابه؟!.

نعم قد كان سعدٌ في بداية ساعات السقيفة يرى أن للأنصار الحقَّ في الخلافة، وأن قومه أرادوا بيعته، وجرى كلام حادٌّ في ذلك، وهذا أمر طبيعي غير مستنكر في مثل ذلك الجو المحتدِم والأمر الجلل، لكنَّ

(١) انظر: ص٤١٥ ـ ٤١٦ حاشية (٢) في هذا الكتاب.

الجميع لمَّا بُصِّروا بالحق استبصروه ولزموه ، كما قال عمر : (ولكن الله وقى شرها) . وهذا هو الفَيْصل بين من يريد الدنيا والسلطان ، وبين من يطلب وجه الله والدار الآخرة ويحرص على وحدة المسلمين .

أما أن يزعم راوٍ هالكٌ : أن سعداً سعى إلى منابذة إخوانه وإفراغ كِنانته في حربهم ، وأنه كان لا يحضر الجماعة ولا الجمعة معهم ، وأنه يُخالِفهم في حجهم وإفاضتهم ، فهذا يضاهئ عمل الخوارج ، وما يقول بذلك مَن له أدنى مَسْكة من عقل أو أثارة من علم بما كان عليه عامة الصحابة من الدين والتقوى والورع والحرص على وحدة الأمة ، دع عنك السادة الرؤساء النُّجباءَ من أمثال : سعد بن عبادة .

وقد أورد هذه الرواية الساقطة العلامة ريحانة الشام علي الطنطاوي[١] ، ولم يُبهرِجْها سامحه الله وغفر لنا وله .

كذلك أوردها وسلَّم بها الدكتور هيكل باشا في كتابه (الصديق)[٢] ، وله في هذا الكتاب جراحات ومجازفات! وهو مثال لكثيرين ممن لا ينتقدون الروايات ، ولا يَعرِضونها على ما كان عليه الصحابة من ربانية وورع ورجوع إلى الحق ، وهو ميزان يجب أن يرافق كلَّ من كَتَبَ عن الصحابة الكرام .

●● صحيحٌ أنَّ تخلُّفَ سعدِ بن عبادة عن البيعة لا يؤثر في صحتها قيد شعرة ، لكننا أردنا أن نبرِّئَ هذا السيد العَلَم مما اجترحَتْه أيدي المؤرخين والكتاب ـ قديماً وحديثاً ـ بحقِّ تاريخنا وصحابة نبينا ﷺ .

---

(١) انظر كتابه : أبو بكر الصديق ، ص١٦٣ .

(٢) انظر كتابه : الصديق أبو بكر ، ص٥١ ـ ٥٢ .

وقد أورد الذهبي في ترجمة سعد من «السير» رواية الواقدي ، ثم قال : إسنادها كما ترى[1] ! أي : في غاية الضعف .

وقال ابن تيمية : (وأما أبو بكر فتخلَّف عن بيعته سعد ، لأنهم كانوا قد عيَّنُوه للإمارة ، فبقي في نفسه ما يبقى في نفوس البشر ! ولكنْ هو مع هذا رضي الله عنه لم يعارض ، ولم يدفع حقّاً ، ولا أعان على باطل) .

ثم أورد حديث الإمام أحمد الذي قدمناه[2] ، وعقَّب عليه فقال : (وفيه فائدة جليلة جدّاً ، وهي : أن سعد بن عبادة نزل عن مقامه الأول في دعوى الإمارة ، وأذعَنَ للصدِّيق بالإمارة ، فرضي الله عنهم أجمعين)[3] .

وقال ابن كثير في ترجمة سعد : (أما بيعةُ الصديق فقد روينا في مسند الإمام أحمد أنه سلَّم للصديق ما قاله من أن الخلفاء من قريش)[4] .

وأشار الحافظ إلى ضعف الرواية ، فقال في شرح مناقب سعد : (امتنع من بيعة أبي بكر فيما يُقال)[5] .

٥ ـ عمر والحُبَاب بن المنذر:

الذي ثبت في الرواية الصحيحة عند البخاري وغيره أن الحباب رضي الله عنه قال : (أنا جُذَيْلُها المُحَكَّكُ ، وعُذَيْقُها المُرَجَّب ، منّا أميرٌ ومنكم أميرٌ يا معشرَ قريش) .

---

(١) سير أعلام النبلاء : ١/ ٢٧٧ .
(٢) انظر : ص ٤١٥ ـ ٤١٦ حاشية (٢) في هذا الكتاب .
(٣) منهاج السنة : ١/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣ .
(٤) البداية والنهاية : ٧/ ٣٣ .
(٥) الفتح : ٨/ ٧٥٢ (٣٨٠٧) .

وفي مرسَل القاسم بن محمد بسند صحيح: قال الحُبَاب: (منَّا أمير ومنكم أمير، فإنا والله ما نَنْفَس هذا الأمر عليكم أيها الرَّهْط، ولكنَّا نخاف أن يليَهُ أقوامٌ قتَلْنا آباءهم وإخوتهم! قال: فقال له عمر: إذا كان ذلك فَمُتْ إن استطعتَ)[1].

فلما ذكَّرهم عمر بفضائل أبي بكر، وتقديمِ رسول الله ﷺ له، قالوا: (نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر)[2].

هذه أخلاق الصحابة التي تربوا عليها ولزموها إلى أن لقوا وجه ربهم سبحانه، ولا عيبَ فيهم غير أنهم إذا اختلفوا وذُكِّروا بالحق رجعوا إليه واستعصموا به!.

بَيْدَ أن رواية الطبري عن هشام الكلبي أحدِ المتروكين، عن الأخباري الهالك لوط بن يحيى، تنقل عن الحُبَاب: أنه قال: (يا معشرَ الأنصار! املِكُوا علىٰ أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبَوْا عليكم ما سألتموه، فاجْلُوهم عن هذه البلاد، وتولَّوْا عليهم هذه الأمور، فأنتم والله أحقُّ بهذا الأمر منهم، فإنه بأسيافكم دانَ لهذا الدين مَنْ دان ممن لم يكن يدين، أنا جُذيلها المُحكَّك، وعُذيقها المُرَجَّب! أمَا والله لئن شئتم لنُعيدنَّها جَذَعَة! فقال عمر: إذاً يقتلك الله، قال: بل إياك يقتل!)[3].

وعلىٰ هذه الرواية التالفة وأضرابها بنى الدكتور هيكل[4] وأمثاله

---

(١) انظر ما تقدم: ص٤١٤ حاشية (٢) في هذا الكتاب.
(٢) انظر: ص٤١٧ ـ ٤١٨ حاشية (١) في هذا الكتاب.
(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٠ ـ ٢٢١. ومعنى جَذَعة: فتيَّة.
(٤) الصديق أبو بكر، ص ٤٩ ـ ٥٠.

ما جرى بين الصحابة في السقيفة! وليس هذا من أمانة البحث ، ولا من طرائق الإنصاف: أن يتقاعس الكاتب عن تطلُّب الروايات الصحيحة ، ويهرع إلى روايات قريبة المنال ولو كانت ساقطة وفيها حَطٌّ على أطهر جيل عرفته الإنسانية ، وفي الساعات الأولى من حملهم الرسالة ورسول الله ﷺ لمّا يُدفن بعد! .

إنه من الجَوْر الذي لا يُعذر صاحبه أن نؤسس على مثل تلك الروايات ، وإن أمانة الكلمة وشرائط الكتابة توجِب علينا أن ننقب ونتفحص ، ونحقق ونمحِّص ، ولا نرمي الكلام جزافاً. ولعمرُ الحق إن هذا الفعل لمن أكبر طرائق السبِّ والشتم لصحابة رسول الله ﷺ ، وقد نُهينا عن ذلك أشد النهي. أفليس من الإساءة البالغة أن نرميهم بصفات التهالك على الدنيا والمناصب ، والمجازفة بمصير الإسلام ووحدة الكلمة والطاعة لله والرسول وأئمة المسلمين؟! .

وأين الآية الكريمة التي امتدح الله بها الأنصار فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩]؟! أفنُسِخت أم أن المِدْحة كانت مؤقتة بحياة النبي ﷺ؟! وأين عشرات الأحاديث الصحاح التي أثنى فيها الصادق المصدوق ﷺ على الأنصار وأوصى بهم إخوانهم المهاجرين؟! أفيصحّ أن الأنصار الكرام أرادوا طرد إخوانهم المهاجرين من المدينة؟! هذا هو الافتراء على الصحابة والحق والتاريخ.

ويجب الجزم بأن ما جرى بين الصحابة من خلاف يوم السقيفة ، فهو محمول على ما قدّمناه من أنهم كانوا يريدون وجهَ الله وحفظ رسالته ونصرة دعوته والقيام بواجبات دينهم ، ويرون أن لهم في ذلك شرفَ

استمرار النصرة. وإن الحدَّة التي ظهرت في بعض الكلمات كانت نابعة من بشريتهم رضي الله عنهم، لكنهم جميعاً رجعوا إلى الحق من قريب وفي ساعات قليلة.. وكل خلاف بين الطرفين محمول على ما أوضحناه، وتؤكده الروايات الصحيحة وسير الصحابة الأطهار. وما كان خلاف ذلك فهو من كيس الرواة الهالكين.

٦ ـ الزعم بأن جماعة من الصحابة لم يبايعوا:

ذكر اليعقوبي: أنه قد (تخلَّف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار، ومالوا مع علي بن أبي طالب، منهم: العباس بن عبد المطلب، والفَضْل بن العباس، والزبير بن العوام، وخالد بن سعيد بن العاص، والمقداد بن عَمْرو، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأُبيّ بن كعب).

وذهب اليعقوبي إلى أن أبا بكر لقي العباس وعرض عليه أن يجعل له نصيباً من الخلافة يكون له ولعقِبه من بعده، ليوقع بينه وبين علي بن أبي طالب!.

وجاء في كتاب «الإمامة والسياسة» نحو ذلك من تخلّف علي وبني هاشم عن البيعة.

ووصف الدكتور هيكل هذه الرواية بأنها أشهر الروايات[1]! وذكر الروايات الأخرى.

وهذا وذاك من الروايات المفتراة، والصحيح الثابت هو ما قدمناه من أن الصحابة جميعاً بايعوا في المسجد البيعة العامة، وهؤلاء المذكورون

(١) الصديق أبو بكر، ص ٥٣ ـ ٥٦.

من وجوه الصحابة لا يخفى تأخرهم عن البيعة لو كان ذلك ، ولنقله الثقات إلينا .

والصحيح الثابت أيضاً أن أحداً لم يناهض الصديق في طول خلافته من أولها إلى آخرها ، ولا أَنكر عليه ولا مَكَر به .

والثابت كذلك تاريخيّاً أن جميع الصحابة من المهاجرين والأنصار في المدينة ، كانوا مع أبي بكر في بعث أسامة ، وفي حروب الردة ، ثم في فتوح العراق والشام .

ثم إن اليعقوبي شيعي إمامي جَلْد صاحب هوى ، فلا يُركن إلى رواياته التي تحتاج إلى تمحيص ونقد ، وعَرْضِها على صحيح الأخبار وموازين العلم الصحيح .

وكتاب «الإمامة والسياسة» يُنسب إلى ابن قُتيبة خطأً ، فلا يوثق بما فيه .

ولست أدري لماذا يعتمد هيكل وغيره على مثل أبي مِخْنَف واليعقوبي وكتاب «الإمامة والسياسة»! .

وأما بيعة الزبير بن العوام فيأتي الحديث عنها في الفقرة التالية .

رابعاً: بيعة علي بن أبي طالب ، وافتراء الوصية له ، وشهادته بذلك:

الثابت بالروايات الكثيرة الصحيحة عن علي وغيره أنه بايع أبا بكر مع جماعة الصحابة في المسجد النبوي البيعةَ العامة للغدِ من يوم السقيفة ، وهو اللائق بعلي وآله ومكانتهم ودينهم وطاعتهم للنبي ﷺ وحبِّهم وتقديمهم لصدِّيقه رضي الله عنه .

وما يفيده ظاهرُ بعض الروايات الصحيحة ، وما تذهب إليه الروايات الأخرى الضعيفة: من أنه تأخّر عن البيعة ستة أشهر؛ ليس بصحيح ، ويعارضه النقل الصحيح والعقل السليم ، كما سنبينه.

١ـ أدلة بيعة علي والعباس والزبير وغيرهم:

فلقد كان علي والعباس والزبير وعثمان وغيرهم ممن يَمتُّ إلى النبي ﷺ بقرابة قريبة في بيته ﷺ لتجهيزه[1] ، عندما انطلق أبو بكر وعمر إلى السقيفة وتمت البيعة هناك ، فلما كان اليوم التالي بايع علي والزبير في عامة المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ.

وأدلة ذلك كثيرة:

١ـ أخرج الحافظ أبو بكر البيهقي ، عن داود بن أبي هند ، قال: حدثنا أبو نَضْرة ، عن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه قال:

(قُبِض النبي ﷺ ، واجتمع الناس في دار سعد بن عُبادة ، وفيهم أبو بكر وعمر ، قال: فقام خطيب الأنصار فقال: أتعلمون أن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين ، وخليفته من المهاجرين ، ونحن كنّا أنصارَ رسولِ الله ﷺ ، فنحن أنصارُ خليفته كما كنّا أنصارَه.

قال: فقام عمر بن الخطاب ، فقال: صَدَق قائلكم ، أَمَا لو قلتم غير هذا لم نتابعكم. فأخذ بيد أبي بكر ، وقال: هذا صاحبُكم فبايِعوه ، فبايعه عمر وبايعه المهاجرون والأنصار.

قال: فصَعِد أبو بكر المنبر ، فنظر في وجوه القوم فلم يرَ الزبيرَ ،

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ ٢٤٧.

قال: فدعا بالزبير، فجاء، فقال: قلتَ: ابنُ عمَّة رسول الله ﷺ وحواريُّه، أردتَ أن تشقَّ عصا المسلمين! قال: لا تثريبَ يا خليفة رسول الله ﷺ، فقام فبايَعَه. ثم نظر في وجوه القوم، فلم يرَ علياً، فدعا بعلي بن أبي طالب، فجاء، فقال: قلتَ: ابنُ عمِّ رسول الله ﷺ وخَتَنُه على ابنته، أردتَ أن تشقَّ عصا المسلمين! قال: لا تثريبَ يا خليفة رسولِ الله ﷺ، فبايَعَه.

قال أبو علي الحافظ[1]: سمعتُ محمد بن خُزَيْمة يقول: جاءني مسلم بن الحَجَّاج، فسألني عن هذا الحديث، فكتبتُه له في رقعة، وقرأته عليه، فقال: هذا حديث يسوى بَدَنَةً! فقلت: يسوى بَدَنة؟! بل هذا يسوى بَدْرة!)[2].

والبَدْرة: كيس فيه عشرة آلاف درهم!.

قال الحافظ ابن كثير: (وقد رواه البيهقي عن الحاكم وأبي محمد بن حامد المَقَّري، كلاهما عن أبي العباس الأَصمّ... فذكر نحو ما تقدم.

وقد رواه علي بن عاصم، عن الجُرَيْري، عن أبي نَضْرة، عن

(١) هو أحد رجال الإسناد في هذا الحديث، وهو الإمام الحافظ المتقن الحسين بن علي النيسابوري، تلميذ إمام الأئمة ابن خزيمة، وشيخ الحاكم صاحب «المستدرك».

(٢) أخرجه البيهقي في السنن: ٨/١٤٣؛ ومن طريقه: ابن عساكر، ص ٣٧٨ـ٣٧٩؛ وساقه بتمامه ابن كثير في البداية والنهاية: ٥/٢٤٨ ـ ٢٤٩، ٦/٣٠١ ـ ٣٠٢، وصححه؛ وأخرجه الحاكم: ٣/٧٦ دون قول ابن خزيمة الأخير، وصححه وسكت عليه الذهبي.

أبي سعيد الخدري ، فذكر نحو ما تقدَّم[1] ، وهذا إسناد صحيح محفوظ من حديث أبي نَضْرة المنذر بن مالك بن قطعة ، عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سِنَان الخُدْري.

وفيه فائدة جليلة؛ وهي مبايعة علي بن أبي طالب إما في أول يوم أو في اليوم الثاني من الوفاة ، وهذا حقٌّ؛ فإن علي بن أبي طالب لم يُفارِق الصديق في وقت من الأوقات ، ولم ينقطِعْ في صلاة من الصلوات خَلْفه ـ كما سنذكره ـ وخرج معه إلى ذي القَصَّة لما خرج الصديق شاهراً سيفَه يريد قتال أهل الردَّة)[2] .

٢ ـ وأخرج الحاكم والبيهقي من طريقه ، عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف: (أن عبد الرحمن بن عوف كان مع عمر بن الخطاب ، وأن محمد بن مَسْلَمة كَسر سيفَ الزبير ، ثم قام أبو بكر ، فخطب الناسَ ، واعتذر إليهم ، وقال: والله ما كنتُ حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة ، ولا كنتُ فيها راغباً ، ولا سألتُها الله في سرٍّ ولا علانية ، ولكني أشفقتُ من الفتنة ، وما لي في الإمارة من راحة ، ولكنْ قُلِّدْتُ أمراً عظيماً ما لي به طاقةٌ ولا يَدَانِ إلا بتقوية الله ، ولَوَددتُ أن أقوى الناس عليها مكاني عليها اليوم! فقبِل المهاجرون منه ما قال وما اعتذر به.

وقال علي والزبير رضي الله عنهما: ما غَضِبْنا إلا لأنَّا أُخِّرْنا عن المشاورة ، وإنَّا نرى أبا بكر أحقَّ الناس بها بعد رسول الله ﷺ؛ إنه لصاحبُ الغار وثاني اثنين ، وإنا لنعرفُ شرفَه وخيرَه ، ولقد أَمره

(١) ساقه ابن عساكر ، ص٣٨٠.
(٢) البداية والنهاية: ٥/ ٢٤٩.

رسولُ الله ﷺ بالصلاة بالناس وهو حي)[1].

وقول علي والزبير بأنهما غضبا لأنهما أخرا عن المشورة ، يقصدان بذلك يوم السقيفة ولابد ، وليس تأخر علي عن البيعة ستة أشهر كما فهم البعض ، وذلك لتلتئم الروايات الصحيحة في بيعته بالمسجد مع أقواله ومواقفه رضي الله عنه وأرضاه .

وسببُ عَتَبِ عليٍّ أنه مع وجاهته وفضيلته في نفسه في كل شيء ، وقُربِهِ من النبي ﷺ وغير ذلك ، رأى أنه لا يُستَبَدّ بأمر إلا بمشورته وحضوره ، وكان عُذر أبي بكر وعمر وسائر الصحابة واضحاً؛ لأنهم رأوا المبادرةَ بالبيعة من أعظم مصالح المسلمين ، وخافوا من تأخيرها حصول خلاف ونزاع تترتب عليه مفاسد عظيمة[2].

٣ـ وأخرج الطبري عن الوليد بن جُمَيْع الزُّهريِّ قال: (قال عَمْرو بن حُرَيْث لسعيد بن زيد: أشهدتَ وفاة رسول الله ﷺ؟ قال: نعم ، قال: فمتى بُويع أبو بكر؟ قال: يوم مات رسول الله ﷺ ، كرِهوا أن يبقوا بعضَ يوم وليسوا في جماعة. قال: فخالَفَ عليه أحدٌ؟ قال: لا ، إلا مرتدٌّ أو مَنْ قد كاد أن يرتدَّ ، لولا أن الله عز وجل ينقذهم من الأنصار. قال: فهل قعد أحد من المهاجرين؟ قال: لا ، تتابَعَ المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوَهم)[3].

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن: ٨/ ١٥٢؛ والحاكم: ٣/ ٦٦ ـ ٦٧؛ وابن عساكر ، ص ٣٩٠ ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وساقه ابن كثير من رواية موسى بن عقبة في «مغازيه» في موضعين من البداية والنهاية: ٥/ ٢٥٠ وقال: إسناده جيد ولله الحمد والمنة ، و٦/ ٣٠٢.

(٢) شرح صحيح مسلم ، للنووي: ٦/ ٣٢٣ـ ٣٢٤ (١٧٥٩).

(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٧.

وهذا يفيد أن الهاشميين ـ وهم من المهاجرين ـ قد تتابعوا على بيعة أبي بكر ولم يقعد منهم أحد.

٤ ـ وعن سُويد بن غَفَلَة قال: (دخل أبو سفيان على عليّ والعباس فقال: يا علي وأنت يا عباس! ما بالُ هذا الأمر في أذلِّ قبيلة من قريش وأقلِّها! والله لئن شئت لأملأنَّها عليه خيلاً ورجالاً. فقال له علي: لا والله ما أريد أن تملأها عليه خيلاً ورجالاً، ولولا أنَّا رأَيْنا أبا بكر لذلك أهلاً ما خلَّيناه وإياهم. يا أبا سفيان، إن المؤمنين قوم نَصَحَة بعضهم لبعض، متوادُّون وإن بَعُدت ديارهم وأبدانهم، وإن المنافقين قوم غَشَشَة بعضهم لبعض)[1].

ومن الأدلة على بيعة علي مواقفه رضي الله عنه:

٥ ـ فلقد كان علي ملازماً للصديق لم يفارقه في وقت من الأوقات، ولا انقطع عنه في جماعة ولا جمعة، وكان يشاركه في الشورى وتدبير أمور المسلمين[2].

٦ ـ ولمَّا خرج أبو بكر إلى ذي القَصَّة لقتالِ أهل الردَّة، كان علي يقود راحلة الصديق، فسأله الصحابة منهم عليٌّ وغيره وألَحُّوا عليه أن يرجع إلى المدينة، وأن يبعث لقتال الأعراب غيره ممَّن يؤمره من

(١) أخرجه من طرق يشد بعضها بعضاً: عبد الرزاق (٩٧٦٧)؛ والطبري في تاريخه: ٣/ ٢٠٩؛ والحاكم: ٣/ ٧٨؛ وابن عبد البر في الاستيعاب: ٢/ ٢٤٥؛ وابن عساكر كما في حياة الصحابة: ٢/ ٢٠. وأخرج نحوه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: ٦/ ١٨.

(٢) البداية والنهاية: ٥/ ٢٤٩، ٦/ ٣٠٢.

الشجعان الأبطال ، فأجابهم إلى ذلك.

عن عائشة رضي الله عنها ، قالت: (خرج أبي شاهراً سيفَه راكباً راحلته إلى ذي القَصَّة ، فجاء علي بن أبي طالب فأخذ بزمام راحلته ، وقال: إلى أين يا خليفةَ رسولِ الله؟ أقول لك ما قال لك رسولُ الله ﷺ يومَ أُحد: «**شِمْ سيفَك ، ولا تَفجعْنا بنفسك**» ، فوالله لئن أُصِبْنا بكَ لا يكون للإسلام بعدك نظامٌ أبداً! فرجَع ، وأمضَى الجيش)[١].

وروى الدارقطني مثله من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما[٢].

٧ ـ وكان مع أبي بكر في حراسة أنقاب المدينة من هجوم المرتدين ، وكان أحد أمراء الحرس[٣].

٨ ـ وكان مع الصديق عندما جيَّش الجيوشَ لفتح بلاد الشام ، وبشَّره بأن الله سينصره[٤].

كل هذا يؤكد بيعة علي للصدِّيق رضي الله عنهما ، وأنها بيعة صافية صادقة خالصة ، لا مُداهنة فيها ولا تَـقِيَّـة ولا إكراه ولا اضطغان ، وإنَّ وصْفَ بيعته بأي شيء من ذلك ـ من قِبل الرافضة أو غيرهم ـ هو طعنٌ على عليٍّ واتهام له في صدقه وإخلاصه وشجاعته وجراءته وصراحته؛ وهو

---

(١) أخرجه الساجي ومن طريقه ابن عساكر ، ص ٤٦ ، وذكره صاحب حياة الصحابة: ٢/ ٢٢.

(٢) البداية والنهاية: ٦/ ٣١٥.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٤٥؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣١١.

(٤) سيأتي الخبر مطولاً: ص٦٧٣ ـ ٦٧٤ حاشية (١) في هذا الكتاب.

البطل الكرار والفارس المغوار الجريء الشجاع الذي لا يخاف في الله لومة لائم.

ومن الأدلة أيضاً أقوالُ علي في بيعةِ أبي بكر ومبايعتهِ له:

٩ ـ عن عَمْرو بن سفيان قال: (لمّا ظهر علي على الناس يوم الجمل، قال: أيها الناس! إن رسول الله ﷺ لم يَعهدْ إلينا في هذه الإمارة شيئاً، حتى رأَيْنَا من الرأي أن نَستخلِفَ أبا بكر، فأقامَ واستقام حتى مَضى لسبيله)[1].

١٠ ـ وعن النزَّال بن سَبْرَة قال: (قلنا لعليٍّ: يا أمير المؤمنين، أخبِرْنا عن أبي بكر؟ قال: ذاكَ امرؤٌ سَمَّاه الله الصدِّيق علىٰ لسان جبريل، وعلىٰ لسان محمد ﷺ. كان خليفةَ رسول الله ﷺ على الصلاة، رضِيَه لدِيننا، فَرَضِيناه لدُنيانا)[2].

١١ ـ وروى الحسن البصري، عن التابعي الثقة قيس بن عُبَاد قال: (قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنَّ رسول الله ﷺ مرِضَ ليالِيَ وأياماً، يُنادي بالصلاة، فيقول: «**مُروا أبا بكر يصلِّي بالناس**». فلما قُبض رسول الله ﷺ نظرنا: فإذا الصلاة عَلَم الإسلام وقوامُ الدين؛ فرضِينَا لدنيانا مَن رضي رسول الله ﷺ لدِيننا، فبايَعْنا أبا بكر)[3].

---

(١) حديث حسن، وقد مضى بأطول منه مع تخريجه: ص٤٠٠ حاشية (٣) في هذا الكتاب.

(٢) أخرجه ابن عساكر، ص ١٦٥؛ وذكره السيوطي في تاريخ الخلفاء، ص ٣٠ وقال: إسناده جيد.

(٣) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب: ٢/ ٢٤٢؛ وبأطول منه في تاريخ الإسلام «عهد الخلفاء الراشدين»، ص١١ ـ ١٢؛ وأرسله الحسن عن علي: أخرجه ابن سعد: ٣/ ١٨٣؛ وابن عساكر، ص ٣٦٣.

وغير ذلك من الآثار الكثيرة التي جاءت عن علي رضي الله عنه.

ويؤكد ذلك إجلالُ علي أبا بكر، وثناؤه عليه ونشره فضائلَه، وقد تواتر عنه أنه خطب في سلطانه ودار إمارته في الكوفة، فأعلن أن أبا بكر خيرُ هذه الأمة بعد نبيها ﷺ[1].

●● وقد اتفق علماء الأمة وسادتها وفقهاؤها وربانيوها من لدن الصحابة فمن بعدهم على تقديم أبي بكر على علي وعلى جميع الصحابة، وخالف في ذلك الرافضة أبعدهم الله.

ـ عن سفيان الثوري قال: (مَنْ زَعَم أن علياً عليه السلام كان أحقَّ بالولاية منهما، فقد خطّأ أبا بكر وعمر والمهاجرين والأنصار، وما أراه يرتفع له مع هذا عملٌ إلى السماء)[2].

وقال أيضاً: (مَن قَدَّمَ على أبي بكر أحداً، فقد أَزْرَى على اثني عشر ألفاً من أصحاب رسول الله ﷺ، توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ)[3].

وقال عطاء بن مسلم الخَفَّاف: (قلتُ لسفيانَ الثوري: يا أبا عبد الله! ما تقول في رجل يقول: أبو بكر وعمر خيرٌ من علي، ولكنّي لعليّ أشدُّ حبّاً؟ قال: فقال لي: احذر أن تكون! هذا رجل في قلبه غِلٌّ يحتاج إلى شَربة أدرطوس لعلها تسهِّله، فيخرج ما في قلبه!)[4].

---

(١) انظر ما كتبناه: ص٣٦٢ ـ ٣٦٧.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٣٠)، وصححه الألباني؛ وبنحوه عند ابن عساكر، ص ٥١٧.

(٣) أخرجه ابن عساكر، ص ٥١٧.

(٤) أخرجه ابن الأعرابي في «معجمه»؛ وابن عساكر، ص ٥١٧.

ـ وقال سفيان بن عُيَيْنة: (قيل لشَريك: ما تقول فيمن يفضِّل على أبي بكر وعمر غيرَهما؟ فقال: إذاً يُفْتَضح؛ يقول: أخطأ المسلمون)[1].

والأقوال في هذا كثيرة منتشرة.

وقد اتفق أهل الحق وأئمة الهدىٰ جيلاً بعد جيل، ومنهم الشيعة الأوائل الذين كانوا علىٰ عهد علي، علىٰ تفضيلِ أبي بكر وتقديمه علىٰ عمر الفاروق فمن دونه[2].

٢ـ تحقيق القول في تأخر علي عن البيعة ستة أشهر، وبيان وجه الحق في ذلك:

قال البخاري: (حدّثنا يَحْيى بْنُ بُكَيْرٍ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عَنْ عُقَيْلٍ، عَن ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عائِشَةَ: أَنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السّلامُ، بِنْتَ النَّبِيِّ ﷺ، أَرْسَلَتْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْأَلُهُ مِيرَاثَهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، مِمَّا أفاءَ اللهُ عَلَيْه بِالمَدِينَةِ وَفَدَكٍ، وَما بَقِيَ مِنْ خُمُسِ خَيْبَرَ.

فقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لا نورَثُ، ما تَرَكْنَا صَدَقَةٌ، إِنَّما يَأْكُلُ آلُ مَحَمَّدٍ ﷺ في هذَا المَال**». وَإِنِّي وَاللهِ لا أُغَيِّرُ شَيْئاً مِنْ صَدَقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَنْ حَالِهَا الَّتِي كانَتْ عَلَيْهَا في عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلأَعْمَلَنَّ فِيهَا بِمَا عَمِلَ بِه رَسُولُ اللهِ ﷺ.

فأَبَى أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَدْفَعَ إِلَى فَاطِمَةَ مِنْهَا شَيْئاً، فَوَجَدَتْ فَاطِمَةُ عَلىٰ أَبِي بَكْرٍ في ذٰلِكَ، فَهَجَرَتْهُ فَلَمْ تُكَلِّمْهُ حَتَّى تُوُفِّيَتْ، وَعاشَتْ بَعْدَ

---

(١) ابن عساكر، ص ٥١٨.

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية: ١/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧.

النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، فَلَمَّا تُوُفِّيَتْ دَفَنَهَا زَوْجُهَا عَلِيٌّ لَيْلاً ، وَلَمْ يُؤْذِنْ بِهَا أَبَا بَكْرٍ وَصَلَّى عَلَيْهَا.

وكانَ لِعَلِيٍّ مِنَ النَّاسِ وَجْهٌ حَيَاةَ فَاطِمَةَ ، فَلَمَّا تُوُفِّيَتِ اسْتَنْكَرَ عَلِيٌّ وُجُوهَ النَّاسِ ، فَالْتَمَسَ مُصَالَحَةَ أَبِي بَكْرٍ وَمُبَايَعَتَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ يُبَايِعُ تِلْكَ الأَشْهُرَ ، فَأَرْسَلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ: أَنِ ائْتِنَا وَلا يَأْتِنَا أَحَدٌ مَعَكَ ، كَرَاهِيَةً لِمَحْضَرِ عُمَرُ ، فقال عمر: لا وَاللهِ لا تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ وَحْدَكَ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَما عَسَيْتَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا بِي؟! واللهِ لآتِيَنَّهُمْ.

فدَخَلَ عَلَيْهِمْ أَبو بَكْرٍ ، فَتَشَهَّدَ عَلِيٌّ ، فَقَالَ: إِنَّا قَدْ عَرَفْنَا فَضْلَكَ وَما أَعْطَاكَ اللهُ ، وَلَمْ نَنْفَسْ عَلَيْكَ خَيْراً سَاقَهُ اللهُ إِلَيْكَ ، وَلكِنَّكَ اسْتَبْدَدْتَ عَلَيْنَا بالأَمْرِ ، وَكُنَّا نَرَى لِقَرابَتِنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَصِيباً! حَتَّى فاضَتْ عَيْنَا أَبِي بَكْرٍ.

فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ قالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي ، وَأَمَّا الَّذِي شَجَرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنْ هذِهِ الأَمْوَالِ ، فَلَمْ آلُ فِيهَا عَنِ الخَيْرِ ، وَلَمْ أَتْرُكْ أَمْراً رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَصْنَعُهُ فِيهَا إِلاَّ صَنَعْتُهُ.

فَقَالَ عَلِيٌّ لأَبِي بَكْرٍ: مَوْعِدُكَ الْعَشِيَّةُ لِلْبَيْعَةِ.

فَلَمَّا صَلَّى أَبُو بَكْرٍ الظُّهْرَ رَقِيَ عَلَىٰ المِنْبَرِ ، فَتَشَهَّدَ ، وَذَكَرَ شَأْنَ عَلِيّ وَتَخَلُّفَهُ عَنِ الْبَيْعَةِ ، وَعُذْرَهُ بِالَّذِي اعْتَذَرَ إِلَيْهِ.

ثمَّ اسْتَغْفَرَ وَتَشَهَّدَ عَلِيٌّ ، فَعَظَّمَ حَقَّ أَبِي بَكْرٍ ، وَحَدَّثَ: أَنَّهُ لَمْ يَحْمِلْهُ عَلَى الَّذِي صَنَعَ نَفَاسَةً عَلَى أَبِي بَكْرٍ ، وَلا إِنْكاراً لِلَّذِي فَضَّلَهُ اللهُ بِهِ ، وَلَكِنَّا نَرَى لَنَا في هذَا الأَمْرِ نَصِيباً ، فاسْتَبَدَّ عَلَيْنَا ، فَوَجَدْنَا في أَنْفُسِنَا.

فسُرَّ بِذلِكَ المُسْلِمُونَ وَقالُوا: أَصَبْتَ، وكَانَ المُسْلِمُونَ إِلَى عَلِيٍّ قَرِيباً، حِينَ رَاجَعَ ٱلأَمْرَ المَعْرُوفَ)[1].

ما قدمناه أدلة واضحة على أن عليّاً بايع أبا بكر البيعة العامة في المسجد، وكان معه ولم ينقطع عنه، وهذه الرواية التي سقناها رواية صحيحة ثابتة يوهم ظاهرها أن عليّاً تأخر عن البيعة ستة أشهر، فما الجواب في ذلك؟.

نقول: في هذا الحديث إدراج خفي[2] **من كلام الزهري، أدرجه بعض الرواة فاتصل بكلام عائشة، فأوهمَ القارئَ أنه منه. وليس كذلك بل هو مرسَل!** ومرسَلات الزهري ليست بشيء كما قال جهابذة نقاد الحديث كيحيى القطان وابن معين[3].

● فقوله في الحديث: **(ولم يكن بايع تلك الأشهر)**:

أخرجه البيهقي في «السنن»[4] بما لفظه: (قالت عائشة رضي الله

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٤٠، ٤٢٤١) وأطرافه في (٣٠٩٢، ٣٠٩٣)؛ ومسلم (١٧٥٩)؛ وابن حبان (٤٨٢٣) و(٦٦٠٧)، وأخرجه غيرهم مختصراً.

(٢) **المُدْرَج**: هو ما ذُكر في ضمن متن الحديث من قول بعض الرواة الصحابي أو مَن دونه موصولاً بالحديث، من غير فصلٍ بين الحديث وبين ذلك الكلام، أي: من غير أن يذكر قائله، فيؤدي عدم الفصل إلىٰ الالتباس على من لا يعلم حقيقة الحال ويتوهم أن الجميع من أصل الحديث. انظر: منهج النقد في علوم الحديث، ص ٤٤٠.

(٣) انظر: قواعد في علوم الحديث، للتهانوي، ص ١٥٦.

(٤) السنن الكبرى: ٦/ ٣٠٠؛ ونقله عنه الحافظ في الفتح: ٩/ ٥٢٤، ٥٢٦، في شرح الحديث (٤٢٤٠).

عنها: فكان لعليٍّ من الناس وجهٌ حياةَ فاطمة ، فلما توفيت فاطمة انصرف وجوه الناس عنه. عند ذلك قال مَعْمَر: قلتُ للزهري: كم مكَثَتْ فاطمة بعد النبي ﷺ؟ قال: ستة أشهر ، فقال رجل للزهري: فلم يبايعه علي حتى ماتت فاطمة؟ قال: ولا أحدٌ من بني هاشم).

وهذا صريح في أن عائشة رضي الله عنه لم تذكر قعودَ علي رضي الله عنه عن البيعة ، وإنما هو من كلام الزهري ، ولذلك يقول البيهقي رحمه الله بعد رواية هذا الحديث: (وقول الزهري في قعود علي عن بيعة أبي بكر رضي الله عنه حتى توفيت فاطمة رضي الله عنها منقطع) ، يعني: أن الزهري قال ذلك دون أن يُسنِده إلى أحد.

وقال البيهقي أيضاً في كتابه «الاعتقاد علىٰ مذهب السلف»: (والذي رُوي: أن عليّاً لم يبايع أبا بكر ستة أشهر ، ليس من قول عائشة ، وإنما هو من قول الزهري ، فأَدْرَجَه بعضُ الرواة في الحديث عن عائشة في قصة فاطمة ، وحَفِظه مَعْمر بن راشد ، فرواه مفصلاً ، وجعله من قول الزهري منقطعاً عن الحديث)[1].

فثَبَتَ أن قصة قعود علي عن بيعة أبي بكر مرسَلة من الزهري ، ومرسَلات الزهري ليست بشيء ، وقد عارضَتْه روايات موصولة صحيحة عن أبي سعيد الخدري وعبد الرحمن بن عوف وعلي نفسه وغيرهم ، تُبيِّن أن عليّاً رضي الله عنه لم يقعد عن البيعة ، وإنما بايع الصديق بعد قصة السقيفة فوراً[2].

● وقوله: **(كراهية لمحضر عمر)**:

---

(١) الاعتقاد علىٰ مذهب السلف ، ص١٨٠.

(٢) انظر: تكملة فتح الملهم: ٣/ ٦٣.

السبب في ذلك: ما أَلِفُوه من قوة عمر وصلابته في القول والفعل، وكان أبو بكر رقيقاً ليِّناً، فكأنهم خشوا من حضور عمر كثرةَ المعاتبة التي قد تُفضي إلى خلافِ ما قصدوه من المصافاة[1].

● وقوله: (**لم نَنْفَس عليك خيراً ساقه الله إليك**): أي: لم نحسدك على الخلافة.

● وقوله: (**استبددت**): أي: لم تشاورنا في أمر الخلافة، كما في قوله المتقدم: (**ما غضبنا إلا لأنّا أُخِّرنا عن المشورة**).

● وقوله: (**وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله ﷺ نصيباً**): أي: لأجلِ قرابتنا منه ﷺ نرى أن لنا في الخلافة نصيباً، وهذا اجتهاد منه ولا نصَّ فيه.

● وقوله: (**موعدك العشية للبيعة**): فهذه البيعة التي وقعت من علي لأبي بكر بعد وفاة فاطمة رضي الله عنهم؛ بيعة مؤكِّدة للصلح الذي وقع بينهما، وهي ثانية للبيعة التي ذكرناها صبيحة يوم السقيفة. ولم يكن علي مجانباً لأبي بكر هذه الستة الأشهر، بل كان ملازماً له كما أوضحناه[2].

فالسيدة فاطمة لما عتبت على الصديق بشأن ميراث النبي ﷺ ـ كما سنوضحه ـ احتاج علي أن يراعي خاطرها بعض الشيء، فلما ماتت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها ﷺ رأى علي أن يجدد البيعة مع أبي بكر رضي الله عنه[3].

---

(١) الفتح: ٩/ ٥٢٥.
(٢) وانظر: البداية والنهاية: ٥/ ٢٨٦، ٦/ ٣٠٢.
(٣) البداية والنهاية: ٥/ ٢٥٠.

وبسبب ذلك أظهرَ علي رضي الله عنه البيعةَ ثانيةً بعد موت فاطمة عليها السلام؛ لإزالة شبهة من يتوهّم عدمَ الرضا بخلافة أبي بكر[١].

ونتيجة هذه البيعة الثانية توهم بعضهم أن علياً لم يبايع الصديق طوال ستة أشهر[٢]!.

●● أخطاء وهذيانات قيلت حول تأخر علي والهاشميين عن البيعة:

ـ قال الحافظ: (وقد تمسك الرافضة بتأخر علي عن بيعة أبي بكر إلى أن ماتت فاطمة، وهذيانهم في ذلك مشهور)[٣].

وحديث البخاري الذي صدَّرْنا به الفقرة مع الأحاديث والأدلة الكثيرة التي قدَّمناها، تدفع باطلَهم، وتُقيم الحجة على كل من افترى على علي بأنه تأخَّر عن البيعة أو أُكره عليها.

ـ أما ما رُوِي من أن تأخّره كان بسبب انشغاله بجمع القرآن الكريم؛ فقد روى محمد بن سيرين قال: (لمّا توفي النبي ﷺ أقسم عليٌّ أن لا يرتدي برداء إلا لجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف، ففعل. فأرسَلَ إليه أبو بكر بعد أيام: أكرهتَ إمارتي يا أبا الحسن؟ قال: لا والله، إلا أنِّي أقسمتُ أن لا أرتدي برداءٍ إلا لجمعة، فبايَعَه ثم رجع)[٤].

---

(١) الفتح: ٩/٥٢٦.
(٢) تكملة فتح الملهم: ٣/٦٥.
(٣) الفتح: ٩/٥٢٦.
(٤) أخرجه ابن أبي داود في «المصاحف»: ١/ ١٨٠ (٣١)، وغيره، وسيأتي مع تمام تخريجه ص٥٧٣ حاشية (٤) في هذا الكتاب.

فهو خبر مُعْضَل لا تقوم به حجة ولا يعول عليه.

- وأما ما جاء في كتاب «الإمامة والسياسة» المنسوب خطأً لابن قُتيبة، وما ذكره المؤرخ الشيعي اليعقوبي؛ من أن (الهاشميين) اجتمعوا في بيت علي وأبَوا البيعة لأبي بكر، وقيل لعلي: بايع أبا بكر، فقال:

(لا أبايعكم، وأنا أحقُّ بهذا الأمر منكم، وأنتم أَوْلى بالبيعة لي! أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي ﷺ، وتأخذونه منَّا أهلَ البيت غَصْباً! ألستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم لِما كان محمد منكم، فأعطوكم المَقَادة وسلَّموا إليكم الإمارة؟! فإذاً أحتجُّ عليكم بمثل ما احتججتم على الأنصار؛ نحن أولى برسول الله حيّاً وميتاً، فأنصِفونا إن كنتم تؤمنون، وإلا فبوؤوا بالظلم وأنتم تعلمون)، إلى آخر هذا الكذب المفترى![1].

فهذا باطلٌ لا يقولُه علي ولا غيره من الهاشميين الأفاضل، والحقُّ هو ما قدمناه من روايات مسندة ثابتة صحيحة صريحة عند البخاري وغيره من أئمة الهدى والورع، عن بيعة علي وبني هاشم، ومواقفهم المؤيدة للصديق، وطاعتهم له، وقيامهم معه في حماية الدولة وتبليغ الدعوة.

والعجيب من بعض المعاصرين كالدكتور هيكل وغيره أن يقول بعد إيراد رواية «الإمامة والسياسة» واليعقوبي التي أشرنا إليها: (هذا هو المشهور عن موقف علي بن أبي طالب وأصحابه من بيعة أبي بكر! وينكر

---

(١) نقل هذا مطولاً الدكتور هيكل في كتابه: الصديق أبو بكر، ص ٥٤ ـ ٥٦.

بعض المؤرخين هذا المشهور من تخلُّف بني هاشم أو غيرهم من المهاجرين إنكاراً صريحاً)[1].

نقول: بل هذا الذي يُنكِره علي رضي الله عنه، وصرَّح ببطلانه وهو أمير المؤمنين كما قدمنا.

وكذلك (هذا المشهور) هو الذي روى بخلافه أئمة الحديث وجهابذة النقاد الأمناء على الدين وتاريخ صحابة رسول الله ﷺ، كالبخاري ومسلم والبيهقي والذهبي وابن كثير وغيرهم، فأين من هذا النبع الصافي والضياء الأبلج، ظلماتُ روايات اليعقوبي و«الإمامة والسياسة» وغيرهما مما يجري مجراهما؟!..

٣ ـ افتراء الوصية لعلي بالخلافة وشهادة علي بذلك:

● تزعم الرافضة: أنه لمَّا بَعث الله محمداً ﷺ قام بنقل الرسالة، ونصَّ على أن الخليفة بعده علي بن أبي طالب، ثم من بعده على ولده الحسن الزكي، ثم على ولده الحسين الشهيد، ثم على علي بن الحسين زين العابدين، ثم على محمد بن علي الباقر، ثم على جعفر بن محمد الصادق، ثم على موسى بن جعفر الكاظم، ثم على علي بن موسى الرضا، ثم على محمد بن علي الجواد، ثم على علي بن محمد الهادي، ثم على الحسن بن علي العسكري، ثم على الخلف الحجة

(١) الصديق أبو بكر، ص٥٦، وانظر: الخلفاء الراشدون، لعبد الوهاب النجار، ص٢٧؛ وتاريخ الخلفاء الراشدين، للدكتور محمد سهيل طقوش، ص٢٢ ـ ٣٢.

محمد بن الحسن ، عليهم الصلاة والسلام ، وأن النبي ﷺ لم يَمتْ إلا عن وصية بالإمامة[1]! .

واحتجوا بأحاديث ؛ منها :

ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : (قلنا لسلمانَ : سَلِ النبيَّ ﷺ : مَن وَصِيُّه؟ فقال له سلمان : يا رسول الله! مَن وصِيُّك؟ فقال : يا سلمان! مَن كان وصيَّ موسى؟ فقال : يوشع بن نون ، قال : فإن وَصيِّي ووارثي مَن يقضي دَيْني ويُنجز موعدي علي بن أبي طالب) .

قال ابن تيمية بعد أن أورده : هذا الحديث كذبٌ موضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث[2] .

وروي عن النبي ﷺ : أنه قال لعليٍّ : أنتَ أخي ووَصِيِّي وخليفتي من بعدي وقاضي دَيْني .

أورده ابن تيمية نقلاً عن ابن المُطَهَّر الحِلِّي ، ثم قال : هذا الحديث كذبٌ موضوعٌ باتفاق أهل العلم بالحديث[3] .

وقد ذكر ابن المطهر وجوهاً وبراهين للرافضة كثيرة على إمامة علي

---

(١) هذا كلام الرافضي ابن المُطَهَّر الحِلِّي في كتابه «منهاج الكرامة» ، نقله عنه ابن تيمية في كتابه «منهاج السنة» : ١/ ٧٧ ـ ٧٨ . وانظر : الإمامة ، لأبي نعيم ، ص ٢٣٢ ـ ٢٤٩ ؛ منهاج السنة : ١/ ٣١٢ ـ ٣١٥ ، ٣٢٣ ؛ المنتقى ، للذهبي ، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٢ ، ٤٨٣ ـ ٤٨٤ ، ٥٦٠ .

(٢) منهاج السنة : ٣/ ٢١٧ ؛ وأورده ابن الجوزي في الموضوعات : ١/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥ ؛ والسيوطي في اللآلئ المصنوعة : ١/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩ .

(٣) منهاج السنة ٤/ ٢٧٧ ، وانظر : الفوائد المجموعة ٣٤٦ ، تنزيه الشريعة : ١/ ٣٥٣ .

وأحقيته بالخلافة ، وردَّ عليه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه العظيم «منهاج السنة» بكلام طويل جداً فيه نفائس ولآلئ[1].

قال الحافظ أبو يعلى الخَليلي : (قال بعض الحفاظ : تأمّلتُ ما وضَعه أهلُ الكوفة في فضائل علي وأهل بيته؛ فزادَ على ثلاثمئة ألف!).

ونقله عنه ابن القيم وقال : (ولا تستبعد هذا ، فإنك لو تتبعتَ ما عندهم من ذلك لوجدت الأمر كما قال)[2].

● وقد تقدَّم أن النبي ﷺ قال لعائشة في مرض موته : «**ادْعِي لي أباكِ وأخاكِ حتى أكتب كتاباً**» الحديث ، وقد نقلَ عامة أهل السنة في كُتبهم هذا الحديث ، فلو أن الأمة جَحدت النصَّ المعلومَ المشهور على علي ، فلأنْ تكتم كتاباً حضره طائفة قليلة أَوْلى وأَحْرى[3].

ـ وقال النووي في شرح حديث عمر : (إنِّي لَئِنْ لا أَستخلِف فإنَّ رسولَ الله ﷺ لم يستخلِفْ) : (في هذا الحديث دليل أن النبي ﷺ لم ينصَّ علىٰ خليفة ، وهو إجماع أهل السنة وغيرهم).

ـ ثم نقل عن القاضي عِياض قولَه : (وخالَفَ في ذلك بكر ابن أخت عبد الواحد ، فزعم أنه نَصَّ على أبي بكر ، وقال ابن راوندي : نصَّ على العباس ، وقالت الشيعة والرافضة : على عليٍّ! وهذه دعاوى باطلة ، وجَسَارة على الافتراء ، ووقاحة في مكابرة الحس؛ وذلك لأن الصحابة رضي الله عنهم أجمعوا على اختيار أبي بكر ، وعلى تنفيذ عهده إلى

(١) انظر : منهاج السنة : ٤/ ٧ ـ ٣٣٣.
(٢) الإرشاد ، للخليلي : ١/ ٤٢٠؛ المنار المنيف ، لابن القيم ، ص ١١٦.
(٣) انظر : منهاج السنة : ٣/ ٥٣٤.

عمر ، وعلى تنفيذ عهد عمر بالشورى ، ولم يخالِفْ في شيء من هذا أحدٌ ، ولم يَدَّعِ علي ولا العباس ولا أبو بكر وصيةً في وقت من الأوقات ، وقد اتفق علي والعباس على جميع هذا من غير ضرورة مانعة من ذِكْر وصية لو كانت. فمن زعم أنه كان لأحد منهم وصية فقد نَسب الأمةَ إلى اجتماعها علىٰ الخطأ ، واستمرارِها عليه! وكيف يحلُّ لأحد من أهل القِبْلة أن ينسبَ الصحابة إلى المواطأة على الباطل في كل هذه الأحوال؟! ولو كان شيء لَنُقل ؛ فإنه من الأمور المهمة)[1] .

وقال النووي أيضاً: (وأمّا ما تدّعيه الشيعة من النصِّ على عليٍّ والوصيةِ إليه؛ فباطلٌ لا أصلَ له باتفاق المسلمين ، والاتفاقُ على بطلان دعواهم من زمن علي ، وأوَّلُ من كَذَّبهم علي رضي الله عنه؛ بقوله: «ما عندنا إلا ما في هذه الصحيفة» الحديث ، ولو كان عنده نصٌّ لَذَكَرَه ، ولم يُنقل أنه ذكره في يوم من الأيام ، ولا أن أحداً ذكره)[2] .

ـ وقال الذهبي في أحداث سنة (١٣هـ): (وفيها وَلِيَ الخلافة عمر بنصٍّ من أبي بكر ، فلم يختلِف عليه اثنان ، فوالله لو نَصَّ لهم النبي ﷺ علىٰ عليِّ بن أبي طالب كما تفتري الرافضة؛ لَما اختَلَفَ عليه اثنان أيضاً)[3] .

ـ وأورد ابن كثير حديثَ علي رضي الله عنه: (مَن زَعَم أن عندنا شيئاً نقرؤه ليس في كتاب الله وهذه الصحيفة؛ فقد كَذَب) ، وعلّق عليه فقال:

---

(١) شرح صحيح مسلم ، للنووي: ٦/ ٤٤٦ (١٨٢٣).
(٢) المرجع السابق: ٨/ ١٦٩ (٢٣٨٥).
(٣) العبر: ١/ ١٣.

(وهذا الحديث يردُّ على فرقة الرافضة في زعمهم أن رسول الله ﷺ أوصى إليه بالخلافة ، ولو كان الأمر كما زعموا لَما ردَّ ذلك أحدٌ من الصحابة؛ فإنهم كانوا أطوعَ لله ولرسوله في حياته وبعد وفاته من أن يَفتاتوا عليه فيقدِّموا غيرَ من قدَّمَه ، ويؤخروا مَن قَدَّمه بنصِّه ، حاشا وكلا ولمّا! وَمَن ظنَّ بالصحابة رضوان الله عليهم ذلك فقد نَسَبهم بأجمعِهم إلى الفجور والتواطؤ على معاندة الرسول ﷺ ومضادتهم في حكمه ونصِّه!.

ومن وَصَلَ من الناس إلىٰ هذا المقام فقد خَلَعَ رِبْقَةَ الإسلام وكفر بإجماع الأئمة الأعلام ، وكان إراقةُ دمِهِ أَحَلَّ من إراقة المُدَام[1].

ثم لو كان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه نصٌّ فلِمَ لا يحتجُّ به على الصحابة على إثبات إمارته عليهم وإمامتِه لهم؟ فإن لمَ يَـقْدر على تنفيذ ما معه من النص فهو عاجزٌ؛ والعاجز لا يَصلح للإمارة ، وإن كان يقدر ولم يفعلْه فهو خائنٌ؛ والخائِن الفاسق مسلوبٌ معزول عن الإمارة ، وإن لم يَعلم بوجود النص فهو جاهل ، ثم وقد عَرَفَه وعَلِمَه من بعده! هذا مُحَالٌ وافتراءٌ وجهلٌ وضلالٌ.

وإنما يَحسُن هذا في أذهان الجهلة الطَّغَام والمغترين من الأنام ، يزيِّنه لهم الشيطان بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرَّد التحكُّم والهَذَيان والإفك والبهتان)[2].

ـ وقال الحافظ في شرح حديث (الستة أصحاب الشورى) الذين عيَّنَهم عمر ليختاروا أحدهم: (ويُؤخَذ منه بطلانُ قول الرافضة وغيرِهم أن

---

(١) المدام: الخمر.
(٢) البداية والنهاية: ٥/ ٢٥٢.

النبي ﷺ نَصَّ على أن الإمامة في أشخاص بأعيُنِهم ، إذ لو كان كذلك لمَا أطاعوا عمر في جعلها شورى ، ولقال قائل منهم: ما وجْهُ التشاور في أمر كُفيناه ببيان الله لنا على لسان رسوله؟! ففي رضا الجميع بما أمرهم به دليل على أن الذي كان عندهم من العهد في الإمامة أوصافٌ ، من وُجِدت فيه استحقّها ، وإدراكُها يقع بالاجتهاد)[1].

●● **ومن أوضحِ الأدلة وأظهرِها ما جاء من أحاديث صحيحة صريحة ناطقة عن عليٍّ وغيرِه من الصحابة ، تبيِّن أن رسول الله ﷺ لم ينصَّ عليه ، ولا أوصَى إليه ، ولا كتب للأمة عهداً بذلك:**

١ ـ عن أبي جُحَيفة وَهْب بن عبد الله السُّوَائي رضي الله عنه ـ وهو من صغار الصحابة ، وكان من أخصَّاءِ عليٍّ وصاحبَ شرطته ـ قال: (قلتُ لعليٍّ رضي الله عنه: هَلْ عِندكُم شيءٌ من الوَحْي إلا ما في كتابِ الله؟ قال: لا والذي فَلَق الحَبَّةَ وَبَرَأ النَّسَمَةَ ، ما أَعْلَمُه ، إلا فهماً يُعطيه الله رجلاً في القرآن ، وما في هذه الصَّحيفة. قلتُ: وما في الصَّحيفة؟ قال: العَقْلُ ، وفَكَاكُ الأَسير ، وأنْ لا يُقتلَ مسلمٌ بكافرٍ)[2].

ورواه عن عليٍّ غيرُ واحد من الصحابة والتابعين[3].

قال الحافظ: (وإنما سألَه أبو جُحيفة عن ذلك لأن جماعةً من الشيعة

---

(١) الفتح: ١٦/ ٥٩٤ شرح الحديث (٧٢٠٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤٧) واللفظ له ، وأطرافه في (١١١)؛ والترمذي (١٤١٢)؛ والنسائي: ٨/ ٢٣ ـ ٢٤؛ وابن ماجه (٢٦٥٨)؛ وأحمد: ١/ ٧٩ ، وغيرهم. **العقل**: الدية.

(٣) انظر: صحيح ابن حبان (٣٧١٦) و(٣٧١٧)؛ والكبرى ، للنسائي (٤٢٦٤) ، وفيهما التخريج.

كانوا يزعمون أن عند أهل البيت ـ لاسيما عليّاً ـ أشياءَ من الوحي خَصَّهم النبيُّ ﷺ بها ، لم يطلع غيرهم عليها!)[1].

٢ ـ وعن أبي الطُّفَيْل عامرِ بن واثِلَة اللَّيْثي رضي الله عنه ـ وهو آخِرُ الصحابة وفاة ، وكان من شيعةِ عليٍّ ـ قال: (سأل رجلٌ عليّاً: هل كان رسول الله ﷺ يُسِرُّ إليكَ شيئاً دونَ الناس؟ فَغَضِبَ عليٌّ حتى احمرَّ وجْهُه ، وقال: ما كان يُسِرُّ إليَّ شيئاً دون الناس ، غيرَ أنه حدَّثني بأربع كلماتٍ ، وأنا وهو في البيت ، فقال: «**لَعَنَ الله مَن لعنَ والدَه ، ولعنَ اللهُ مَنْ ذَبَح لغيرِ الله ، ولعنَ الله مَن آوَىٰ مُحدِثاً ، ولَعَنَ الله من غيَّر منارَ الأرضِ**»)[2]. لفظ النسائي.

وهذا الحديث الصحيح الصريح فيه إبطالٌ لِما تزعُمه الرافضة والشيعة من أن النبي ﷺ أوصَى إلى علي رضي الله عنه وخصَّه بأشياء لم يُظهرها لغيره. وأي دليل أقوى من اعتراف علي بنفسه؟![3] ولكن الرافضة قوم بُهْت!.

٣ ـ وعن قيس بن عُبَاد قال: (انطلقتُ أنا والأَشتر إلىٰ عليٍّ ، فقلنا: هل عَهِد إليكَ نبيُّ الله ﷺ شيئاً لم يعهدْه إلىٰ الناس عامة؟ قال: لا ، إلا ما كان في كتابي هذا ، فأَخرج كتاباً من قِراب سيفه ، فإذا فيه: «**المؤمنون تتكافأُ دماؤهم ، وهم يدٌ على مَن سِواهم ، ويسعَى بذمَّتِهم أدناهم. ألاّ**

---

(١) الفتح: ١/ ٣٨٨ (١١١).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٧٨) ، والنسائي في الكبرى (٤٤٩٦) ، وفي الصغرى ٧/ ٢٣٢ ، والبخاري في الأدب المفرد (١٧) ، وأحمد: ١/ ١١٨ ، ١٥٢؛ وابن حبان (٥٨٩٦) ، وغيرهم. **منار الأرض**: علامة تميز حدودها.

(٣) شرح صحيح مسلم ، للنووي: ٧/ ١٥٧؛ تكملة فتح الملهم: ٣/ ٣٣١.

لا يُقتل مؤمنٌ بكافرٍ ، ولا ذو عهدٍ في عهده ، مَن أَحْدَث حَدَثاً فعلى نفسه ، أو آوى محدِثاً ، فعليه لعنةُ الله والملائكة والناسِ أجمعين»)[1] .

٤ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه خَرج من عِندِ رسولِ الله ﷺ في وجعِهِ الذي توفي فيه ، فقال الناس: يا أبا حَسن! كيف أصبح رسولُ الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئاً. فأخذ بيدِهِ عباسُ بن عبد المطلب فقال له: أنت والله بعد ثلاثٍ عبدُ العَصا! وإني والله لأرى رسولَ الله ﷺ سوف يُتوفَّى من وجعِهِ هذا ، إني لأعرفُ وجوهَ بني عبد المطلب عند الموت. اذهَبْ بنا إلى رسولِ الله ﷺ ، فَلْنَسأَلْه فِيمن هذا الأمرُ؟ إن كان فينا عَلِمْنا ذلك ، وإنْ كان في غيرنا علمناه ، فأوصَى بنا. قال علي: إنَّا والله لئن سألناها رسولَ الله ﷺ فَمَنَعَنَاها لا يُعطيناها الناسُ بعده ، وإني والله لا أسألُها رسولَ الله ﷺ)[2] .

قال الحافظ: (ورويناه في «فوائد أبي طاهر الذهْلي» بسند جيد ، عن ابن أبي ليلى ، قال: سمعتُ عليّاً يقول: لقيني العباس ـ فذكر نحوَ القصة التي في هذا الحديث باختصار ، وفي آخرها ـ قال: سمعتُ عليّاً يقول بعد ذلك: يا ليتني أطعتُ عباساً ، يا ليتني أطعت عباساً!)[3] .

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦٩١٠) واللفظ له ، و(٨٦٢٨)؛ وفي الصغرى: ٨/ ١٩ ـ ٢٠؛ وأبو داود (٢٠٣٥) و(٤٥٣٠)؛ وأحمد: ١/ ١٢٢ ، وصححه أحمد شاكر والألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٤٧) واللفظ له ، و(٦٢٦٦)؛ وعبد الرزاق (٩٧٥٤)؛ وابن سعد: ٢/ ٢٤٥.

(٣) الفتح: ٩/ ٧٩١ شرح الحديث (٤٤٤٧).

ومن الأحاديث عن غير علي:

٥ ـ عن الأسود بن يزيد قال: (ذَكَروا عند عائشة أن عليّاً رضي الله عنهما كان وَصِيّاً، فقالت: متى أَوْصَى إليه، وقد كنتُ مُسْنِدَتَه إلى صَدْري ـ أو قالت: حَجْري ـ فدَعَا بالطَّسْتِ، فلقد انْخَنَثَ في حَجْري فما شَعَرْتُ أنه قد مات، فمتى أَوْصَى إليه؟!)[1].

٦ ـ وقال طَلْحَةُ بن مُصَرِّف: (سألتُ عبدَ الله بن أبي أَوْفَى رضي الله عنهما: هل كان النبي ﷺ أَوْصَى؟ فقال: لا، فقلتُ: كيف كُتِب على الناس الوصيَّةُ أو أُمِروا بالوصية؟ قال: أَوْصَى بكتابِ الله)[2].

وحسبنا هذا في بيان بطلانِ الوصية إلى علي بالخلافة، وتبرئة الصحابة ومعهم علي رضوان الله عليهم أجمعين؛ من كتمانِ نصِّ رسولِ الله ﷺ، وحاشاهم من ذلك وهم الذين آمنوا بالنبي ﷺ وصدَّقوه ونصروه وفدَوه بأنفسهم وأولادهم وبلدانهم وأموالهم وكل نفيس لديهم، وبقَوْا على عهده وطاعة أمره بعد وفاته وحتى لقوا وجه ربهم راضين مرضيين.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٢٧٤١)؛ ومسلم (١٦٣٦)؛ والنسائي في الكبرى (٦٤١٨)؛ وفي الصغرى: ١/ ٣٢، ٦/ ٢٤١؛ وابن ماجه (١٦٢٦)، وغيرهم. **انخنث**: انكسر وانثنى لاسترخاء أعضائه عند الموت.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٤١)؛ ومسلم (١٦٣٤)؛ والنسائي في الكبرى (٦٤١٤)؛ وفي الصغرى: ٦/ ٢٤٠؛ والترمذي (٢١١٩)؛ وابن ماجه (٢٦٩٦)، وغيرهم.

الفصل الثالث
مع السيدة فاطمة الزهراء وآل البيت
ومسألة ميراث النبي ﷺ

أولاً: خلاصة المسألة[1]:

قال القاضي عِياض في تفسير صدقات النبي ﷺ المذكورة في أحاديث: «**لا نُورَثُ، ما تركنا فهو صدقة**»، قال: صارت إليه بثلاثة حقوق:

أحدها: ما وُهِب له ﷺ، وذلك وصيَّة مُخَيْريق اليهودي عند إسلامه يوم أُحد، وكانت سبع حوائط ـ أي: بساتين ـ في بني النَّضِير، وما أعطاه الأنصار من أرضهم وهو ما لا يبلغه الماء، وكان هذا ملكاً له ﷺ.

الثاني: حقُّه من الفيء من أرض بني النَّضير حين أَجْلاَهم كانت له خاصة، لأنها لم يُوجِف عليها المسلمون بِخَيلٍ ولا رِكاب. وأما منقولات بني النضير فحملوا منها ما حملَتْه الإبلُ غير السلاح كما صالحهم، ثم قسم ﷺ الباقي بين المسلمين، وكانت الأرض لنفسه، ويُخْرِجها في نوائب المسلمين. وكذلك نصف أرض فَدَك، صالَح أهلَها

(١) انظر بتوسع: منهاج السنة: ٢/ ٦٣٧ ـ ٦٧٨؛ ومختصره (المنتقى)، للذهبي، ص ٢٠٦ ـ ٢٢٣.

بعد فتح خيبر على نصف أرضها ، وكان خالصاً له . وكذلك ثلث أرض وادي القُرى ، أخذه في الصلح حين صالح أهلَها اليهود . وكذلك حِصْنان من حصون خيبر ، وهما الوَطيح والسُّلالم ، أخذهما صلحاً.

الثالث: سهمُه من خُمس خيبر ، وما افتتح فيها عَنْوة .

فكانت هذه كلها ملكاً لرسول الله ﷺ خاصة ، لا حَقَّ فيها لأحدٍ غيره ، لكنه ﷺ كان لا يستأثر بها بل يُنفقها على أهله والمسلمين ، وللمصالح العامة . وكل هذه صدقات محرَّمات التملك بعده . والله أعلم[1] .

قال ابن كثير : (فكانت هذه الأموال لرسول الله ﷺ خاصةً ، وكان يَعزل منها نفقة أهله لسنةٍ ، ثم يجعل ما بقي مجعلَ مالِ الله يَصرفه في الكُرَاع ـ أي: الخيل ـ والسلاح ومصالح المسلمين . فلما مات ﷺ اعتقدتْ فاطمة وأزواجُ النبي ﷺ أو أكثرهن : أن هذه الأراضي تكون موروثةً عنه ، ولم يَبلغهنَّ ما ثَبَتَ عنه من قوله ﷺ : «**نحن معشرَ الأنبياء ، لا نُورَث ، ما تركناهُ فهو صدقةٌ**» .

ولمَّا طلبت فاطمة وأزواج النبي ﷺ والعباس نصيبَهم من ذلك ، وسألوا الصديقَ أن يسلِّمَه إليهم ، وذَكَرَ لهم قولَ رسولِ الله ﷺ : «**لا نُورَثُ ، ما تركنا صدقةٌ**» ، وقال : «أنا أَعُولُ مَن كان يَعول رسول الله ﷺ ، والله لقرابةُ رسولِ الله ﷺ أَحَبُّ إليَّ أن أَصِلَ من قرابتي» . وصَدَقَ رضي الله عنه وأرضاه ، فإنه البار الراشد في ذلك التابع للحق .

وطلب العباس وعليٌّ على لسان فاطمة إذ قد فاتهم الميراث : أن يَنْظرا

(١) شرح صحيح مسلم ، للنووي: ٦/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦؛ وانظر: سنن أبي داود (٢٩٦٧) ، وصحيحها: ٢/ ٥٧٤ .

في هذه الصدقة ، وأن يَصرفا ذلك في المصارف التي كان النبي ﷺ يصرفها فيها ، فأبَى عليهم الصديق ذلك ، ورأى أن حقّاً عليه أن يقوم فيما كان يقوم فيه رسول الله ﷺ ، وأن لا يَخرج عن مَسْلكه ولا عن سَنَنِه. فتَغَضَّبَتْ فاطمة رضي الله عنها عليه في ذلك ، ووَجَدتْ في نفسها بعضَ المَوْجِدة ، ولم يكن لها ذلك. . . وتوفِّيت فاطمة رضي الله عنها بعد ستة أشهر ، ثم جدَّد عليٌّ البيعةَ بعد ذلك)[1].

ثانياً: طرف من الأحاديث الواردة في مسألة ميراث النبي ﷺ:

١ ـ عن عروة بن الزبير: أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أخبرته: (أنَّ فاطمةَ عليها السلام ابنةَ رسولِ الله ﷺ سألَتْ أبا بكر الصدِّيقَ بعد وفاةِ رسولِ الله ﷺ أن يَقْسِمَ لها ميراثَها مما تَرَكَ رسولُ الله ﷺ مما أفاءَ الله عليه.

فقال لها أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: «**لا نُورَثُ ، ما تركْنَا صدقةٌ**». فَغَضِبتْ فاطمةُ بنت رسول الله ﷺ ، فَهَجَرَتْ أبا بكر ، فلم تَزَلْ مَهاجِرَتَهُ حتى توفِّيتْ ، وعاشت بعد رسول الله ﷺ ستة أشهر.

قالت: وكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبَها مما ترك رسولُ الله ﷺ من خيبرَ وفَدَكَ وصدقَتَهُ بالمدينة ، فأبَى أبو بكر عليها ذلك وقال: لستُ تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعملُ به إلا عملتُ به ، فإنِّي أخشَى إنْ تَركتُ شيئاً من أمره أن أَزِيغَ ، فأمَّا صدقتُه بالمدينة فَدَفَعَها عمرُ إلى علي وعباس ، وأما خيبر وفَدَكُ فأَمْسَكهما عمرُ ، وقال: هما صدقةُ رسولِ الله ﷺ ،

---

(١) البداية والنهاية: ٤/ ٢٠٣.

كانت لحقُوقِه التي تَعْرُوه ونوائِبِه ، وأمرُهُما إلى مَن وَلي الأمرَ. قال: فَهُمَا على ذلك إلى اليوم).

وفي رواية عن عائشة: (أن فاطمةَ والعباسَ عليهما السلام أتَيَا أبا بكر يَلْتمسانِ ميراثَهما من رسولِ الله ﷺ ، وهما حينئذٍ يَطْلبان أرضَيْهما من فَدَك وسَهْمَهما من خيبرَ.

فقال لهما أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا نُورَثُ ، ما تركنا صَدَقَةٌ ، إنما يأكلُ آلُ محمد من هذا المال**». قال أبو بكر: واللهِ لا أَدَعُ أمراً رأيتُ رسولَ الله ﷺ يصنَعُه فيه إلا صنعتُه. قال: فهجرتْه فاطمة فلم تكلِّمه حتى ماتت)[1].

٢ ـ وعن أبي الطُّفَيْل عامر بن واثِلَة رضي الله عنه ، قال: (لمّا قُبض رسولُ الله ﷺ أرسلَتْ فاطمة إلى أبي بكر: أنتَ وَرِثْتَ رسولَ الله ﷺ أم أهلُه؟ قال: فقال: لا ، بل أهلُه. قالت: فأينَ سهمُ رسول الله ﷺ؟ قال: فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله عز وجل إذا أَطْعَمَ نبيّاً طُعمةً ثم قَبَضَه ، جَعلَه للذي يقومُ به من بعدِه**» فرأيتُ أن أردَّه على المسلمين. فقالت: فأنتَ وما سمعتَ من رسولِ الله ﷺ أعلمُ)[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٢ ، ٣٠٩٣) و(٦٧٢٥ ، ٦٧٢٦) واللفظ له؛ وأبو داود (٢٩٦٨) و(٢٩٦٩) و(٢٩٧٠)؛ وانظر الحديث الذي ذكرناه ص٤٥٣ ـ ٤٥٥ حاشية (١) وتخريجه في هذا الكتاب.

(٢) أخرجه أحمد: ١/ ٤ ، واللفظ له؛ وأبو داود (٢٩٧٣) ، وصححه أحمد شاكر ، وحسنه الألباني. ولفظة: (بل أهله) منكَرة ، كما قال الحافظ في الفتح: ٧/ ٦٦٤ (٣٠٩٢) ، ويمكن تأويلها بأن المراد: أنه لو ورث النبيَّ ﷺ أحدٌ؛ لورثه أهلُه ، ولكن الوراثة عنه منتفية ، فيقوم من بعده بتوليته. انظر: تكملة فتح الملهم: ٣/ ٥٦.

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«لا يَقْتسِمُ وَرَثَتِي ديناراً ولا درهماً ، ما تركْتُ بعدَ نفقةِ نسائي ومُؤْنَةِ عامِلِي فهو صَدَقَةٌ»**. لفظ البخاري[1].

٤ ـ وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت: (إنَّ أزواجَ النبي ﷺ ، حين توفِّي رسول الله ﷺ ، أَرَدْنَ أن يبعثْنَ عثمان بنَ عفان إلى أبي بكر ، فيسأَلْنَه ميراثَهُنَّ من النبي ﷺ ، قالت عائشة لهنَّ: أليسَ قد قال رسول الله ﷺ: **«لا نُورَثُ ، ما تَرَكْنَا فهوَ صَدَقَةٌ»**؟!). لفظ مسلم.

وفي رواية للبخاري: عن عائشة رضي الله عنها ، قالت: (أَرسل أزواجُ النبي ﷺ عثمانَ إلى أبي بكر ، يَسأَلْنَهُ ثُمُنَهُنَّ مما أفاءَ الله على رسولِهِ ﷺ ، فكنتُ أنا أَرُدُّهنَّ ، فقلتُ لهنَّ: أَلا تتَّقِينَ اللهَ! ألم تَعْلَمْنَ أن النبيَّ ﷺ كان يقول: **«لا نُورَثُ ، ما تركنا صدقةٌ** ـ يريد بذلك نفسَه ـ **إنما يأكلُ آلُ محمد ﷺ في هذا المال»**؟! فانتهى أزواجُ النبي ﷺ إلى ما أخبرتُهنَّ).

وفي رواية لأبي داود: (ألمْ تسمعْنَ رسولَ الله ﷺ يقول: **«لا نُورَثُ ، ما تَرَكْنا فهو صدقةٌ ، وإنما هذا المال لآلِ محمدٍ لنائبتِهم ولضَيْفِهم ، فإذا متُّ فهو إلى مَنْ ولي الأمرَ من بعدي»**؟!)[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٧٦)؛ ومسلم (١٧٦٠)؛ وأبو داود (٢٩٧٤)؛ وابن سعد: ٢/ ٣١٤؛ وابن حبان (٦٦٠ ، ٦٦١٠ ، ٦٦١٢) ، وغيرهم.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٣٤)؛ ومسلم (١٧٥٨)؛ وأبو داود (٢٩٧٦) و(٢٩٧٧)؛ وأحمد: ٦/ ٢٦٢؛ وعبد الرزاق (٩٧٧٣)؛ وابن حبان (٦٦١١) ، وغيرهم.

وثمة روايات أخرى كثيرة في الباب ، فحديث: «**لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة**» رواه جماعة من الصحابة؛ منهم ثمانية من العشرة المبشرين بالجنة.

وقد خفي على السيدة فاطمة قبل سؤالها الميراث ، كما خفي على أزواج النبي ﷺ حتى أخبرتهن عائشة بذلك ، ووافقنها عليه.

وليس يُظَنّ بفاطمةَ رضي الله عنها أنها اتهمتِ الصديقَ رضي الله عنه فيما أخبرها به ، حاشاها وحاشاه من ذلك! كيف وقد وافقه على رواية هذا الحديث: عمر ، وعثمان ، وعلي ، والعباس ، وابن عوف ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبو هريرة ، وعائشة ، رضي الله عنهم أجمعين؟! ولو تفرَّد بروايته الصديق رضي الله عنه لوَجَب علىٰ جميع أهل الأرض قَبولُ روايته والانقيادُ له في ذلك[1].

وزعم الدكتور حامد الخليفة أن أبا بكر قد انفرد برواية هذا الحديث ، قال: (قالت الطاهرة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: واختَلَفوا في ميراثه ، فما وجدوا عند أحد من ذلك علماً ، فقال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنا معشرَ الأنبياء لا نُورث ، ما تركنا صدقةٌ**». وهذا ما أخذ به الخلفاء الراشدون من بعد بمن فيهم علي)[2]. وأحال بالخبر على «تاريخ ابن عساكر».

وهو كلامٌ واهٍ بل باطل ، فقد شاركه في روايته عشرةٌ من الصحابة

(١) البداية والنهاية: ٥/ ٢٨٧؛ ومثله في منهاج السنة: ٢/ ٦٣٨ ـ ٦٣٩.
(٢) كتابه: أبو بكر الصديق: ١/ ١٩٦.

منهم الخلفاء الثلاثة ، ولا تقوله عالمةُ نساء الأمة الصدِّيقة عائشة ، وكيف تقول وهي ممن روى ذلك الحديث؟! .

وقد سبقه إلىٰ ذلك ابن المُطَهَّر الحِلِّي ، وردَّ عليه شيخ الإسلام ابن تيمية[1] .

ثالثاً: بين الصديق وفاطمة الزهراء:

●● احتجت السيدة فاطمة أولاً بالقياس ، وبالعموم في الآية الكريمة ، فأجابها الصديق بالنص على الخصوص بالمنع في حق النبي ﷺ ، فسلَّمت له ما قال ، وهذا هو المظنون بها رضي الله عنها[2] .

وأما الحديث الذي رواه أبو سَلَمة بن عبد الرحمن : (**أنَّ فاطمة قالت لأبي بكر : مَن يَرِثُك إذا متَّ؟ قال : ولدي وأهلي . قالت : فما لَنا لا نرثُ النبيَّ ﷺ؟ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : «إن النبي لا يورث» ، ولكنِّي أعُول مَن كان رسول الله ﷺ يَعُول ، وأُنْفِق على من كان رسول الله ﷺ يُنفِق**)[3] .

فهو حديث ضعيف لانقطاعه ، وأبو سلمة لم يدرك أبا بكر ؛ فروايته عنه مرسلة .

وتقدم قريباً ما نقلناه عن أبي بكر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

---

(١) انظر : منهاج السنة : ٢/ ٦٣٨ ـ ٦٣٩ .
(٢) البداية والنهاية : ٥/ ٢٨٩ .
(٣) أخرجه أحمد : ١/ ١٠ ، وضعفه أحمد شاكر لانقطاعه .

(«إنَّ الله إذا أَطعمَ نبياً طُعمةً ثم قبضَه ، جعلَه للذي يقومُ من بعدِه» ، فرأيتُ أن أردَّه على المسلمين. فقالت: فأنتَ وما سمعتَ من رسول الله ﷺ أعلمُ)[1].

فقولُ فاطمة: (فأنتَ وما سمعتَ. . .) هذا هو الصواب والمظنون بها ، واللائق بأمرها وسيادتها وعلمها ودينها ، رضي الله عنها.

وكأنها سألَتْه بعد هذا أن يجعلَ زوجَها ناظراً على هذه الصدقة ، فلم يُجِبْها إلى ذلك ، لأنه وليُّ الأمر وسيعمل فيها بما عمل فيها رسول الله ﷺ ، فتَعتَّبتْ عليه بسبب ذلك ، وهي امرأة من بنات آدم تأسَفُ كما يأسفون ، وليست بواجبة العصمة ، مع وجود نصٍّ رسول الله ﷺ ، ومخالفة أبي بكر الصديق. وقد جاء عن أبي بكر رضي الله عنه أنه ترضَّى فاطمة وتلايَنَها قبل موتها ، فرضيتْ رضي الله عنها[2].

قال ابن قُتيبة: (وأمَّا منازعةُ فاطمة أبا بكر رضي الله عنهما في ميراث النبي ﷺ ، فليس بمنكَر ، لأنها لم تعلَمْ ما قاله رسول الله ﷺ ، وظنَّتْ أنها ترِثُه كما يرِث الأولاد آباءهم ، فلما أخبرها بقوله ، كَفَّتْ.

وكيف يَسوغ لأحدٍ أن يظن بأبي بكر رضي الله عنه أنه مَنَعَ فاطمة حقَّها من ميراث أبيها ، وهو يعطي الأحمر والأسود حقوقهم؟!)[3].

وقال القاضي عِياض: (وفي تَرْكِ فاطمةَ منازعةَ أبي بكر بعد احتجاجه عليها بالحديث التسليمُ للإجماع علىٰ قضية. وأنها لمَّا بلَغها الحديثَ

---

(١) انظر: ص٤٧٢ حاشية (٢) في هذا الكتاب.

(٢) البداية والنهاية: ٥/ ٢٨٩؛ وانظر: منهاج السنة: ٢/ ٦٦٠.

(٣) تأويل مختلف الحديث، ص ٣٦٥.

وبيَّنَ لها التأويلَ تَركتْ رأيها. ثم لم يكن منها ولا من ذرِّيتها بعد ذلك طلبُ ميراث. ثم وَلِي عليٌّ الخلافةَ فلم يَعْدِل بها عما فعله أبو بكر وعمر، رضي الله عنهم)[1].

بل تدلّ بعضُ الروايات في كتب الشيعة أن أبا بكر اعتذر إلى فاطمة بشأن الميراث، وأنها رضي الله عنها قبِلتْ عذر الصديق في ذلك ورضيت عنه، كما ذكر ابن ميثم البحراني في «شرح نهج البلاغة»[2]، وذكر هذه الرواية ابن أبي الحديد في شرحه[3].

●● والحق أن هذه الأموال ليست ملكية للرسول ﷺ، ما دام صرفُها في أوجه يحددها القرآن، بل كان النبي ﷺ يقوم بقسمتها بوصفه رئيساً للدولة، ومجالُ صرفها عام يهدف إلى تحقيق التكافل الاجتماعي بين المسلمين. ومن ثَمَّ فإن الأموال تعود بعد وفاته إلى الدولة، ويتولى مسؤوليتها الخليفة أو من يُنيبه[4].

ولذلك قال أبو بكر لفاطمة رضي الله عنهما: أنا أَعُولُ من كان رسول الله ﷺ يَعُول. فكان أبو بكر يُـنفِق على أهل الرسول ﷺ من الفَيء، وما بقي يضعُه في المصالح الأخرى.

---

(١) شرح صحيح مسلم، للنووي: ٦/ ٣١٩.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٥/ ١٠٧، طبع طهران.
(٣) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: ٤/ ٨٠. وانظر: تكملة فتح الملهم: ٣/ ٥٨ ـ ٥٩.
(٤) كما جاء في نص الحديث المتقدم: ص٤٧٢ رقم (٢)، وص٤٧٣، رقم (٤) رواية أبي داود.

ولم تطالب أزواج النبي ﷺ بميراثهنَّ بعد أن ذكَّرَتْهن عائشة بحديث: **«لا نورث ، ما تركنا صَدَقَةٌ»**[1] .

لذلك لمَّا سألَتْه السيدة فاطمة أن يَنظر عليٌّ في صدقة الأرض التي بخيبر وفَدَك ، لم يُجِبْها إلىٰ ذلك؛ لأنه رأى أن حقّاً عليه أن يقومَ في جميع ما كان يتولاه رسول الله ﷺ ، ويعملَ بما كان يعمله ﷺ ، ولهذا قال: (والله لا أَدَعُ أمراً رأيتُ رسولَ الله ﷺ يصنعه فيه إلا صنعتُه) ، وهو الصادق البار الراشد التابع للحق رضي الله عنه[2] .

رابعاً: الصدِّيق قام بأداء حق آل البيت حسب الشرع:

●● قول النبي ﷺ: **«إنما يأكُل آل محمد ﷺ في هذا المال»**: صريح في أن أبا بكر رضي الله عنه لم يَمنع شيئاً من حق ذوي القربى ، فبذل لهم منافع ذلك المال كما كان يبذلها رسول الله ﷺ ، غير أنه امتنع من أن يملِّكهم إياها بطريق الوراثة لقوله ﷺ: **«لا نُورَث»** .

وقوله في رواية مسلم: (ولأَعْملنَّ فيها بما عَمِلَ به رسولُ الله ﷺ) ، وفي رواية للبخاري: (والذي نَفْسي بيدِه لَقرابةُ رسولِ الله ﷺ أَحَبُّ إليَّ أن أَصِلَ من قرابتي)[3] ! .

هذا من أصرح الروايات على أن أبا بكر رضي الله عنه قام بأداء حق آل البيت حسب أوامر الشرع ، ولم يَعْدِل فيه عن الصواب[4] .

---

(١) الفتح: ٧/ ٦٦٤ ـ ٦٦٦ (٣٠٩٢، ٣٠٩٣)؛ عصر الخلافة الراشدة، ص ٢٢٥ .

(٢) انظر: البداية والنهاية: ٥/ ٢٤٩ ، ٢٨٧ .

(٣) تقدم الحديث مطولاً: ص٤٥٣ ـ ٤٥٥ حاشية (١) في هذا الكتاب .

(٤) تكملة فتح الملهم: ٣/ ٥٤ .

وإذا كان أبو بكر منع ذلك ، فيكون قد منع ابنته عائشة أيضاً من هذا الإرث ، فلو جرى مع ميله الفطري لأحب أن ترث ابنته[1]!.

ثم إن أبا بكر وعمر قد أعطيا علياً وأولاده من المال أضعافَ ما خلَّفه النبي ﷺ من المال. والمال الذي خَلَّفه ﷺ لم يَنتفع واحد منهما منه بشيء ، بل سلَّمه عمر إلى علي والعباس رضي الله عنهم يليانه ويفعلان فيه ما كان النبي ﷺ يفعله. وهذا مما يوجب انتفاءَ التهمة عنهما في ذلك.

وأبو بكر لا يمنع يهودياً ولا نصرانياً حقه ، فكيف يمنع سيدة نساء العالمين حقها؟! فإن الله تعالى ورسوله ﷺ قد شهدا لأبي بكر أنه يُنفِق مالَه لله ، فكيف يمنع الناس أموالهم[2]؟!.

خامساً: عمل الصديق هو السنة ، وأجمع عليه الصحابة ، وامتدحه آل البيت:

●● مما تقدم من أحاديث يتبين أن أبا بكر عمل بنصِّ رسول الله ﷺ ، وسنَّته ، والتزم منهجه ، وكان يقدِّم نفقةَ نساء النبي ﷺ وغيرها مما كان يصرفه ، فيصرفه من خيبر وفَدَك ، وما فَضَل من ذلك جعله في المصالح ، وعمل عمر بعده بذلك.

ويشهد لصنيع أبي بكر حديثُ أبي هريرة المرفوع: «**ما تركتُ بعدَ نفقةِ نسائي ومُؤْنة عاملي؛ فهو صدقةٌ**»[3] ، فقد عمل أبو بكر وعمر

---

(١) العواصم من القواصم ، ص ٥٧ ، ٦٦.

(٢) منهاج السنة: ٢/ ٦٥٣ ، ٦٦٨.

(٣) تقدم الحديث: ص٤٧٣ رقم (١) في هذا الكتاب.

بتفصيل ذلك بالدليل الذي قام لهما[1].

وكون النبي ﷺ لا يورث ثبت بالسنة المقطوع بها وبإجماع الصحابة ، وذلك أن هذا الخبر رواه غير واحد من الصحابة في أوقات ومجالس ، وليس فيهم من يُنكره ، بل كلهم تلقّاه بالقبول والتصديق. ولهذا لم يُصِرَّ أحدٌ من أزواجه ﷺ على طلب الميراث ، ولا أصرَّ العم على طلب الميراث ، بل مَن طلب مِن ذلك شيئاً فأُخبِر بقول النبي ﷺ رجع عن طلبه. واستمر الأمر على ذلك على عهد الخلفاء الراشدين إلى علي ، فلم يغيِّر شيئاً من ذلك ولا قَسَم له تركة[2].

- وأخرج عمر بن شَبَّة ، عن محمد بن إسحاق ، قال: (سألتُ أبا جعفر محمد بن علي - الباقر -: أرأيتَ حين وَلِي عليٌّ العراقَيْن - أي: الكوفة والبصرة - وما ولي من أمر الناس ، كيف صنع في سهم ذوي القربى؟ قال: سَلَكَ به طريقَ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، قلت: وكيف؟ ولِمَ؟ وأنتم تقولون! قال: أَمْ واللهِ ما كان أهلُه يَصدرون إلا عن رأيه ، قلت: فما منعه؟ قال: كان والله يكره أن يُدَّعَى عليه خلافُ أبي بكر وعمر رضي الله عنهما)[3].

- وروى ابن أبي الحديد بسنده إلى ابن عائشة ، عن أبيه ، عن عمه: (أن أبا بكر قال لفاطمة: فَلَكِ عليَّ اللهُ أن أصنَعَ فيها كما يصنع فيها أبوك ، قالت: الله لتفعلنَّ؟ قال: اللهِ لأفعلنَّ ، قالت: اللهم اشهد.

---

(١) الفتح: ٧/٦٦٦.

(٢) منهاج السنة: ٢/٦٥٣ ، وانظر: ٣/٥١٨.

(٣) تاريخ المدينة ، لابن شبة: ١/٢١٧.

وكـان أبو بـكر يأخذ غلَّتها فيدفع إليهم منها ما يَكفيهم ، ويَقْسِم الباقي. وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك ، ثم كان علي كذلك)[1].

فهذا صريحٌ في أن عليّاً رضي الله عنه فعل في فَدَك ما فعل فيه أبو بكر ، ولو كان قضاء أبي بكر خطأً لغيَّره علي في عهد خلافته.

وقد روى ابن أبي الحديد في موضع آخر من شرحه رواية عن المرتضى علَم الهدى عند الشيعة ، رواها بسنده إلى ابن عائشة ، قال فيها: (فلما وصل الأمر إلى علي بن أبي طالب عليه السلام ، كُلِّم في رَدِّ فَدَك ، فقال: إني لأستحيي من الله أن أردَّ شيئاً مَنَع منه أبو بكر ، وأمضاه عمر!)[2].

ـ وأخرج عمر بن شَبَّة ، عن كَثير النوَّاء قال: (قلتُ لأبي جعفر ـ الباقر ـ: جعلني الله فداءَكَ ، أرأيتَ أبا بكر وعمر هل ظلماكم من حقكم شيئاً أو ذهبا به؟ قال: لا ، والذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، ما ظلمانا من حقنا مثقالَ حبة من خردل. قلت: جُعِلت فداكَ ، فأتولاَّهما؟ قال: نعم ، وَيْحكَ! تولَّهما في الدنيا والآخرة ، وما أصابك ففي عنقي. ثم قال: فعل الله بالمغيرة وتبيان ، فإنهما كذبا علينا أهلَ البيت!)[3].

ـ وقـال زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طـالب: (أمَّـا أنـا

---

(١) شرح نهج البلاغة: ٤/ ٨٠.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٤/ ٩٤؛ تكملة فتح الملهم: ٣/ ٥٩.
(٣) تاريخ المدينة ، لابن شبة: ١/ ٢٠١؛ وفاء الوفا ، للسمهوري: ٣/ ١٠٠١؛ شرح نهج البلاغة: ٤/ ٨٢.

فلو كنتُ مكان أبي بكر لحكمت بما حكم به أبو بكر في فَدَك)[1].

سادساً: رواية هجرانِ السيدة فاطمة أبا بكر مُدْرَجَةٌ في الحديث وهي مرسَلَة ضعيفة:

جاء في الحديث الذي قدمناه في أول هذا الفصل: (فقال لها أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: «**لا نُورَثُ، ما تركنا صدقةٌ**». فغَضِبتْ فاطمةُ بنتُ رسولِ الله ﷺ، فهَجَرتْ أبا بكر، فلم تَـزَلْ مُهاجِرتَه حتى توفِّيتْ). لفظ البخاري.

وفي رواية مسلم: (فأبَى أبو بكر أن يَدفَعَ إلى فاطمة شيئاً، فوَجَدتْ فاطمةُ على أبي بكر في ذلك. قال: فَهَجرَتْهُ، فلم تكلِّمْه حتىٰ توفِّيتْ).

ـ قوله: (**فأبَىٰ أبو بكر أن يَدفعَ إلى فاطمة شيئاً**): يعني من ميراث رسول الله ﷺ تمليكاً لها، وإلا فقد ثبت بالروايات الماضية: أنه كان يعولها وينفق عليها من صدقات رسول الله ﷺ.

ـ وقوله: (**فوَجَدَتْ فاطمةُ على أبي بكر في ذلك**)، وفي رواية البخاري: (**فَغَضِبَتْ فاطمة**. . .)، قال العلامة الكَنكَوهي: (هذا ظنٌّ من الراوي، حيث استنبط من عدم تكليمها إياه أنها غضبت عليه!)[2].

ويؤيد ما قاله الشيخ أن هذه الزيادة غير مذكورة في كثير من الروايات، فقد ذكر أبو داود هذا الحديث من طريق عُقيل وشعيب بن أبي حمزة وصالح بن كَيْسان، كلهم يرويه عن الزهري، ولكن لم يذكر

---

(١) أخرجه البيهقي، ونقله عنه ابن كثير في البداية والنهاية: ٥/ ٢٩٠.
(٢) لامع الدراري، للكَنكَوهي: ٢/ ٥٠٠.

هذه الزيادة في شيء من رواياتهم[١].

وكذلك أخرجه البخاري في «الفرائض» من غير هذه الزيادة[٢].

وأخرجه البيهقي بما يدل على أن هذه الزيادة مُدْرَجَةٌ من الراوي، وليس من كلام عائشة رضي الله عنها، ولفظه في «كتاب قَسْم الفيء» من سننه: (قال: فغضبت فاطمة رضي الله عنها، فهجرتْه فلم تكلّمه حتى ماتت)[٣]، وهذا صريح في إدراجه من الراوي.

ـ وقوله: **(قال: فَهَجَرَتْه فلم تكلِّمه حتىٰ توفيت)**: هذا أيضاً مُدْرَجٌ من الراوي، وليس من كلام عائشة رضي الله عنها، كما يدل عليه لفظ **(قال)** في أوله.

وقد حقق العلامة محمد نافع في كتابه القيم «رحماء بينهم»؛ أن قصة مراجعة فاطمة أبا بكر رضي الله عنهما مروية بستة وثلاثين طريقاً: وإن أحدَ عشر طريقاً منها مروية عن غير الزهري، وليس في واحد منها أدنى ذِكْر لغضب فاطمة، أو هجرانها لأبي بكر رضي الله عنه. وإن خمسة وعشرين طريقاً تدور على الزهري، التسعة منها خالية عن ذِكْر الغضب والهجران، وإنما ورد ذِكْر الغضب والهجران في ستة عشر طريقاً كلها تنتهي إلى الزهري[٤].

فالظاهر من هذا التتبع أن قصة الغضب والهجران مُدْرَجَةٌ في هذا

---

(١) سنن أبي داود (٢٩٦٨، ٢٩٦٩، ٢٩٧٠).
(٢) البخاري (٦٧٢٦).
(٣) السنن الكبرى، للبيهقي: ٦/ ٣٠٠.
(٤) تكملة فتح الملهم: ٣/ ٥٥، ومنه استفدت في كتابة هذه الفقرة بطولها.

الحديث من قِبَل الزهري ، وقد عُرف من عادة الزهري أنه كان ربما أدرج في الحديث شيئاً من رأيه .

يقول الحافظ في «النكت على ابن الصلاح»: (وكذا كان الزهري يفسِّر الأحاديث كثيراً وربما أَسقط أداةَ التفسير ، فكان بعض أقرانه ربما يقول له : افصل كلامك من كلام النبي ﷺ)[١] . وساق الحافظ قبله عدة أمثلة من إدراجات الزهري .

وقد أخرج الخطيب البغدادي في كتابه «الفقيه والمتفقه» عن الليث قال : (قال ربيعة لابن شهاب : يا أبا بكر ! إذا حدَّثْتَ الناسَ برأيك فأخبِرْهم أنه رأيُك ، وإذا حدَّثتَ الناس بشيء من السنّة فأخبرهم أنه سُنّة ، فلا يظنون أنه رأيك)[٢] .

فلما ثبت كونه مُدْرَجاً من الزهري : فإما أن يكون ظنّاً منه ، فلا حجة فيه . وإما أن يكون قد سرد ما سمعه من بعض الناس من دون إسناد ، وغايته أن يكون إرسالاً منه ، وإن مراسيل الزهري ضعيفة عند المحدثين[٣] .

قال يحيى بن سعيد القطان وابن معين والشافعي : إرسال الزهري ليس بشيء[٤] .

---

(١) النكت علىٰ كتاب ابن الصلاح : ٢/ ٨٢٩ .

(٢) الفقيه والمتفقه : ٢/ ١٤٨ ، وربيعة : هو المعروف بربيعة الرأي .

(٣) تكملة فتح الملهم : ٣/ ٥٥ .

(٤) شرح علل الترمذي ، لابن رجب : ١/ ٥٣٥؛ قواعد في علوم الحديث ، للتهانوي ، ص ١٥٦ .

وقال أحمد بن سنان: كان يحيى بن سعيد لا يرى إرسالَ الزهري وقتادة شيئاً، ويقول: هو بمنزلة الريح[1]!.

ومع كون هذا مدرجاً في الحديث، وهو من إرسال الزهري، ومرسله ليس بشيء، فقد عارضه عدة روايات:

١ ـ ما قدمنا من رواية أبي الطفيل: (قال أبو بكر: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله عز وجل إذا أَطعم نبياً طُعمة ثم قَبَضه، جعلَه للذي يقوم من بعده**» فرأيتُ أن أردَّه على المسلمين، فقالت: فأنتَ وما سمعتَ من رسول الله ﷺ أعلمُ)[2].

فقول فاطمة رضي الله عنها للصديق: (فأنت وما سمعت...) نص واضح على أنها سلَّمت له، فلِمَ تتغضَّب عليه بعد ذلك وتهجره؟!.

٢ ـ وأخرج عمر بن شَبَّة حديثَ مراجعة فاطمة لأبي بكر من طريق مَعْمَر عن الزهري، ولفظه في آخره: (فلم تكلِّمْه في ذلك المال حتى ماتت).

وهذا صريح في أن تَرْكَ كلامها مع أبي بكر لم يكن مطلَقاً، وإنما لم تكلمه في ذلك المال فقط[3].

٣ ـ وأخرج البيهقي في «سننه» عن الشعبي قال: (لمَّا مرِضَتْ فاطمة رضي الله عنها، أتاها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فاستأذن عليها،

---

(١) تهذيب التهذيب: ٩/٣٩٨.
(٢) انظر: ص٤٧٢ حاشية (٢) في هذا الكتاب.
(٣) تاريخ المدينة، لابن شبة: ١/١٩٧؛ وتكملة فتح الملهم: ٣/٥٦.

فقال علي رضي الله عنه: يا فاطمة ، هذا أبو بكر يستأذن عليكِ ، فقالت: أتحبُّ أن آذَنَ له؟ قال: نعم ، فأَذِنَتْ له ، فدخل عليها يترضاها ، وقال: والله ما تركتُ الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ومرضاة رسوله ، ومرضاتكم أهلَ البيت. ثم ترضَّاها حتى رَضِيتْ)[1].

وقال البيهقي بعد إخراجه: هذا مرسَل حسن بإسناد صحيح.

وذكره ابن كثير في «البداية النهاية» عن البيهقي ، ثم قال: وهذا إسناد جيد قوي ، والظاهر: أن عامر الشعبي سمعه من علي ، أو ممن سمعه من علي[2].

وذكره الحافظ في «الفتح» وقال: مرسل صحيح ، ثم قال: (فإنْ ثَبَت حديثُ الشعبي أزال الإشكال ، وأَخْلِقْ بالأمر أن يكون كذلك ، لِما عُلِم من وفورِ عقلها ودينها عليها السلام)[3].

والذي يتلخص من هذه الروايات أن فاطمة رضي الله عنها لم تهجر أبا بكر للأبد ، وما توفيت وهي عليه غضبى ، كما يبدو في رواية الزهري في الباب ، والذي يظهر أنها في أول الأمر طلبت الميراث ، فلما أخبرها أبو بكر رضي الله عنه بالحديث المعروف في أن الأنبياء لا يُوَرَّثون ، سلَّمَتْ له ما قال ، ولكنها طلبتْ تولية أراضي رسول الله ﷺ لنفسها أو لعليٍّ رضي الله عنه ، ولكن أبا بكر امتنع من ذلك واحتجَّ

---

(١) السنن الكبرى: ٦/ ٣٠١؛ وطبقات ابن سعد: ٨/ ٢٧.

(٢) البداية والنهاية: ٥/ ٢٨٩.

(٣) الفتح: ٧/ ٦٦٤ شرح الحديث (٣٠٩٣).

بمـا رواه عن النبي ﷺ: «**إن الله إذا أطعم نبياً طُعمة ثم قبضه ، جعله للذي يقوم من بعده**» فسكتت فاطمة وقالت: (فأنتَ وما سمعت من رسول الله ﷺ أعلمُ) ، ولكن بقي في نفسها شيء من الانقباض نشأ من اختلاف في الآراء ، فلم تبقَ في قلبها بشاشةٌ كاملة للصديق ، وليس ذلك من المعاداة ولا من الهجران ، وكان أبو بكر يشعر بذلك ، فأراد أن يزول هذا الانقباض أيضاً ، فذهب إليها في مرضها ، وترضَّاها حتى رضيتْ ، وعادت بينهما البشاشة الكاملة ، ولله الحمد[1].

سابعاً: أبو بكر وآل البيت:

١ ـ عن عُقْبة بن الحارث قال: (خرجتُ مع أبي بكر الصديق من صلاة العصر ، بعد وفاة النبي ﷺ بليالٍ ، وعلي يمشي إلى جَنْبه ، فمرَّ بحسن بن عليٍّ يلعب مع غِلمانٍ ، فاحتمله على رقبته وهو يقول:

وَا بـأبـي شِبـهُ النبـيّ ليـس شبيهـاً بعلـيّ

قال: وعلي يضحك)[2].

٢ ـ وروى ابن عمر ، عن أبي بكر رضي الله عنهم قال: (ارقُبُوا محمداً ﷺ في أهلِ بيتِهِ)[3].

يخاطب أبو بكر بذلك الناسَ ويوصيهم به ، والمراقبة للشيء

(١) تكملة فتح الملهم: ٣/ ٥٧ بتصرف يسير؛ وانظر: البداية والنهاية: ٥/ ٨٩.
(٢) أخرجه البخاري (٣٥٤٢) و(٣٧٥٠)؛ وأحمد: ١/ ٨ ، واللفظ له.
(٣) أخرجه البخاري (٣٧١٣) و(٣٧٥١).

المحافظة عليه، يقول: احفظوه ﷺ فيهم فلا تؤذوهم ولا تسيئوا إليهم[1].

٣ ـ وتقدَّم في حديث البيعة والميراث قول أبي بكر يخاطب عليّاً: (والذي نفسي بيده ، لَقَرابةُ رسولِ الله ﷺ أَحَبُّ إليَّ أن أَصِلَ من قرابتي)[2].

ومثل ذلك ما قاله لفاطمة عليها السلام وهو يترضاها.

٤ ـ وعن عبد الرحمن بن الأصبهاني قال: (جاء الحَسن بن علي إلى أبي بكر وهو على مِنْبر رسولِ الله ﷺ ، فقال: انزل عن مجلس أبي[3]! قال: صدقتَ ، إنه مجلس أبيك. ثم أجلَسَه في حَجْرِه ، ثم بكى ، فقال علي: واللهِ ما هذا عن أمري ، فقال: صدقتَ ، والله ما اتَّهَمْتُك)[4].

وكان الحسن في خلافة الصديق ابن نحو عشر سنين.

وآل البيت جميعاً وفي مقدمتهم علي على تعظيم أبي بكر وتفضيله والثناء عليه وتوليه والتبرؤ ممن يعاديه ، وقد مرت شواهد كثيرة في هذا الكتاب على مصداق ذلك.

وعلي رضي الله عنه قد سمى ثلاثة من أبنائه بأسماء إخوانه الخلفاء الثلاثة قبله: أبو بكر ، وعمر ، وعثمان.

---

(١) الفتح: ٨/ ٦٧٥.
(٢) انظر: ص٤٥٣ ـ ٤٥٥ حاشية (١) في هذا الكتاب.
(٣) يريد جدَّه النبي ﷺ.
(٤) ابن عساكر ، ص٤١٣ ـ ٤١٤؛ تاريخ الخلفاء ، ص٨٠.

واعتنى بمحمد بن أبي بكر الصديق ، وجعله من أمرائه ، وسيَّره على إمرة مصر ، فما تمَّ له ذلك.

هذه علاقة أبي بكر بآل البيت الكرام ، وعلاقة سادات آل البيت بسيد المسلمين صدِّيق رسول الله ﷺ وخليفته على أمته من بعده. ولكن الرافضة قوم بُهْت ، يفترون الأكاذيب ويروِّجون الأباطيل في اضطغان آل البيت على عامة الصحابة ولاسيما أبا بكر! والرفض داءٌ عُضال لا يُرجى برؤه ، والحقائق لها نور تعلن عن نفسها بنورها.



الفصل الرابع
إنفاذ بعث أسامة

أولاً: تنفيذ وصية النبي ﷺ بإنفاذ بعث أسامة:

●● في العام الثامن من الهجرة سيَّر النبي ﷺ جيشاً قوامه ثلاثة آلاف صحابي إلىٰ (مُؤتة) ، وعليه الأمراء الثلاثة الذين استُشهدوا جميعاً ، وأخذ الراية سيف الله خالد في معركة هائلة مع الروم ونصارى العرب.

وفي السنة التاسعة للهجرة (٦٣٠م) قاد النبي ﷺ بنفسه الشريفة (غزوة تبوك) ، فأظهر للروم وحلفائهم من العرب الغساسنة قوةَ المسلمين.

فكان ذلك إيذاناً بانطلاق الفتح الإسلامي جهة بلاد الشام.

وفي سنة (١١هـ ـ ٦٣٢م) أعدَّ ﷺ جيشاً من المسلمين ، وعَقَد الراية لقائده الشاب أسامة بن زيد للتعرض لقوات الروم وحلفائهم ، وأمره أن يُوطِئَ الخيلَ تُخوم البَلْقاء والدَّارُوم[1] من أرض فلسطين. فتجهَّز الناس ، وأَوْعَب مع أسامة المهاجرون الأوَّلون. وهو آخر بعث بعثه رسول الله ﷺ.

---

(١) **البَلْقاء**: هي عند المتقدمين تنتظم أكثر مدن الأردن من إربد إلى مَعَان ، وهي اليوم إحدى محافظات الأردن ، قاعدتها السَّلْط. **الداروم**: مدينة دير البلح اليوم ، في قطاع غزة.

غير أن النبي ﷺ توفي ، والجيش لا يزال معسكراً بالجُرْف قبيل انطلاقه إلى وجهته[1] .

عن عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما قال: (بَعث النبي ﷺ بَعْثاً وأمَّر عليهم أسامةَ بن زيد ، فطَعَنَ بعضُ الناس في إمارته ، فقال النبي ﷺ: «إنْ تَطْعُنُوا في إمارته فقد كنتم تَطْعُنون في إمارة أبيه من قبلُ! وايْمُ اللهِ إنْ كان لخَليقاً للإمارة ، وإنْ كان لَمِن أحبِّ الناس إليَّ ، وإنَّ هذا لمن أحَبِّ الناس إليَّ بعدَه»)[2] .

وكان تجهيز جيش أسامة يوم السبت قبل موت النبي ﷺ بيومين ، وكان ابتداء ذلك قبل مرض النبي ﷺ ، فنَدَبَ الناسَ لغزو الروم في آخر صفر ، ودعا أسامة فقال:

«سِرْ إلى موضع مقتلِ أبيكَ فأَوْطِئهمُ الخيلَ ، فقد ولَّيْتُكَ هذا الجيش ، وأغِرْ صباحاً على أُبْنى[3] ، وحرِّق عليهم ، وأسرِع السير تسبق الخبر ، فإن ظَفَّرك الله بهم فأقِلَّ اللبثَ فيهم» .

فبدأ برسول الله ﷺ وجَعُه في اليوم الثالث ، فعقد لأسامة لواء بيده ،

---

(١) انظر عن بعث أسامة: طبقات ابن سعد: ٢/ ١٨٩ ـ ١٩٢ ، ٢٤٨ ـ ٢٥٠ ، ٤/ ٦٦ ـ ٦٨؛ السيرة ، لابن هشام: ٢/ ٦٤١ ـ ٦٤٢ ، ٦٥٠؛ تاريخ الطبري: ٣/ ١٨٤ ، ٢٢٣ ـ ٢٢٧ ، ٢٣١ ـ ٢٤٣؛ البداية والنهاية: ٥/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣ ، ٦/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٣٠) واللفظ له ، وفيه أطرافه؛ ومسلم (٢٤٢٦)؛ والنسائي في الكبرى (٨١٢٥)؛ والترمذي (٣٨١٦)؛ وابن حبان (٧٠٤٤ ، ٧٠٥٩) وغيرهم.

(٣) موضع بناحية البلقاء قرب مؤتة.

فأخذه أسامة فدفعه إلى بُريدة بن الحُصَيْب ، وعَسْكَر بالجُرْف ، وكان ممن انتدب مع أسامة كبار المهاجرين والأنصار[١] .

وطَعن الناس في إمرة أسامة لصِغر سنِّه ، فقد كان ابن عشرين سنة[٢] ، فغضب النبي ﷺ ، وخطب في الناس وذكر الحديث الذي قدمناه ، وقال أيضاً : «**أيها الناس ، أنفِذوا بَعْثَ أسامة . . .**» قال أسامة : (فلما ثَقُل رسول الله ﷺ ، هبطتُ من معسكري وهبط الناس معي ، وقد أُغمي على رسول الله ﷺ فلا يتكلَّم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يَصُبُّها عليَّ ، فأعرِفُ أنه يدعو لي)[٣] .

ثم دخل يوم الإثنين ، وأصبح رسول الله ﷺ مُفِيقاً ، فقال لأسامة : «**اغْدُ على بركة الله**» فودَّعَه أسامة وخرج إلى معسكره فأمر الناسَ بالرحيل ، فبينا هو يريد الركوب إذ رسولُ أمِّه أم أيمن قد جاءه يقول : إن رسول الله يموت! فأقبلَ وأقبل معه عمر وأبو عبيدة ، فانتهوا إلى رسولِ الله ﷺ وهو يموت ، فتوفي صلى الله عليه صلاة يحبُّها ويرضاها حين زاغت الشمس يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول .

ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجُرْف إلى المدينة ، ودخل بُريدة بن الحُصَيْب بلواء أسامة معقوداً ، حتىٰ أتى بابَ رسول الله ﷺ فغَرزَه عنده[٤] .

---

(١) الفتح : ٩/ ٨٠١ ـ ٨٠٢ شرح الحديث (٤٤٦٨) .
(٢) وتذكر بعض الروايات أنه كان ابن (١٨) سنة ، انظر : ابن سعد : ٤/ ٦٦ . والراجح ما ذكرته ، انظر : قادة فتح الشام ومصر ، ص٤٥ .
(٣) طبقات ابن سعد : ٢/ ٢٤٩ ، ٤/ ٦٨ .
(٤) المرجع السابق : ٢/ ١٩١ .

وتذكر بعض الروايات أن أبا بكر كان في جيش أسامة ، وتذكر روايات أخرى أنه لم يكن في ذلك الجيش ، وهذا هو الصواب الذي نرجِّحه ، ورجَّحه أكابر العلماء؛ منهم: ابن تيمية[1] ، وابن كثير؛ فقال: (وقد انتدب كثير من الكبار من المهاجرين الأولين والأنصار في جيشه ، فكان من أكبرهم عمر بن الخطاب. ومن قال: إن أبا بكر كان فيهم ، فقد غَلِط ، فإن رسول الله ﷺ اشتد به المرض وجيشُ أسامة مخيِّم بالجُرْف ، وقد أمر النبي ﷺ أبا بكر أن يصلي بالناس ، فكيف يكون في الجيش وهو إمام المسلمين بإذن الرسول من رب العالمين؟! ولو فُرض أنه كان قد انتدب معهم ، فقد استثناه الشارع من بينهم بالنص عليه للإمامة في الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام. ثم لما توفي ﷺ استَطْلَق الصديق من أسامة عمرَ بنَ الخطاب ، فأَذِن له في المقام عند الصديق ، ونفذ الصديق جيش أسامة)[2].

ثم إن أبا بكر قُبيل وفاته ﷺ بساعات استأذنه أن يذهب إلى أهله بالسُّنْح ، فأَذِنَ له ، وكان أسامة آنئذٍ معسكِراً في جيشه بالجرف ، وهذا يدل أيضاً على أن الصديق لم يكن في ذاك البعث.

وقد كان تعداد الجيش (٣٠٠٠) رجل ، وفي رواية (٧٠٠) رجل ، والأول أشهر.

نقول: والقول الأول أَوْلى ، وهو اللائق بهذا الجيش وبمجريات الأحداث: لأنه لمَّا حدثت الردَّة ، أراد عامة الصحابة من أبي بكر أن

---

(١) منهاج السنة: ٣/ ١٣ ـ ١٤.
(٢) البداية والنهاية: ٥/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣. وانظر: الفتح: ٨/ ٨٠٢ (٤٤٦٨).

يوقف هذا البعث ليستعين به ، وهذا يدل على ضخامته ، إذ إن (٧٠٠) رجل يذهبون بعيداً لا يُحدِثون أمراً كبيراً مثل الذي يحدثه (٣٠٠٠) رجل في قلوب المرتدين. وكذلك فإن مسيرة (٣٠٠٠) مقاتل إلى تخوم الشام يكون أشدَّ وقعاً في قلوب الأعداء والمتربصين ، وهذا ما كان؛ فقد كانوا يعجبون كيف يخرج من عند المسلمين مثل هذا الجيش في تلك الظروف!.

●● عن عروة بن الزبير قال: (لمّا فرغوا من البيعة ، واطمأن الناس ، قال أبو بكر لأسامة: امضِ لوجهك الذي بعثك له رسول الله ﷺ. فكلّمه رجال من المهاجرين والأنصار وقالوا: أمسِكْ أسامةَ وبَعْثَه ، فإنّا نخشى أن تميل علينا العرب إذا سمعوا بوفاة رسول الله ﷺ! فقال أبو بكر ـ وكان أحْزَمَهم أمراً ـ: أنا أحبس جيشاً بعثه رسول الله ﷺ؟! لقد اجترأتُ على أمر عظيم! والذي نفسي بيده ، لأن تميل عليَّ العرب أحَبُّ إليَّ من أن أحبس جيشاً بعثه رسول الله ﷺ! امضِ يا أسامة في جيشك للوجه الذي أُمرتَ به ، ثم اغزُ حيث أمرك رسول الله ﷺ من ناحية فلسطين ، وعلى أهل مؤتة ، فإن الله سيكفي ما تركتَ ، ولكن إنْ رأيتَ أن تأذن لعمر بن الخطاب فأستشيره وأستعينُ به ، فإنه ذو رأي ومناصحٌ للإسلام ، فافعل ، ففعل أسامة. ورجع عامة العرب عن دينهم ، وعامة أهل المشرق وغَطَفان وبنو أسد ، وعامة أشْجَع ، وتمسكت طَيِّئ بالإسلام)[1].

وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت: (لمَّا قُبض رسول الله ﷺ ،

---

(١) ابن عساكر ، ص ٤٢١ ـ ٤٢٥؛ تاريخ الإسلام «عهد الخلفاء الراشدين» ، ص ٢٠ ـ ٢١؛ حياة الصحابة: ١/٤٢٨ ـ ٤٢٩.

ارتدت العرب ، واشْرأَبَّ النفاق ، والله لقد نزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لَهاضَها ، وصار أصحابُ محمد ﷺ كأنهم معزى مَطيرة في حُشّ في ليلة مَطيرة بأرض مُسْبِعة! فوالله ما اختَلفوا في نقطة إلا طار أبي بحظِّها وغَنَائهاوفَضْلها. ثم ذكرتْ عمرَ ، فقالَت: مَن رأى عمر عَلِمَ أنه خُلق غِنًى للإسلام ، كان والله أَحْوَذياً نسيجَ وحدِه قد أَعدَّ للأمور أقرانها)[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (والله الذي لا إلـٰه إلا هو لولا أن أبا بكر استُخلف ما عُبِد الله ، ثم قال الثانية ، ثم قال الثالثة! فقيل له: مَهْ يا أبا هريرة! فقال: إن رسول الله ﷺ وجَّه أسامة بن زيد في سبعمئة[٢] إلى الشام ، فلما نزل بذي خُشُب ، قُبض النبي ﷺ ، وارتدت العرب حول المدينة ، فاجتمع إليه أصحاب رسول الله ﷺ ، فقالوا: يا أبا بكر! رُدَّ هؤلاء ، توجِّهُ هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة؟! فقال: والذي لا إلـٰه إلا هو ، لو جَرَّتِ الكلاب بأرجل أزواج رسول الله ﷺ ما رددتُ جيشاً وجَّهه رسول الله ﷺ ، ولا حَلَلْتُ لواءً عقده رسول الله ﷺ. فوجَّه أسامة ، فجعل لا يمرُّ بقَبيل يريدون الارتداد إلا قالوا: لولا أن لهؤلاء قوةً ما خرج مثلُ هؤلاء من عندهم ، ولكنْ نَدَعُهم حتىٰ يلقَوا الروم. فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ، ورجعوا سالمين ، فثبتوا على الإسلام)[٣].

---

(١) البداية والنهاية: ٥/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥. **حش**: بستان. **مسبعة**: كثيرة السباع. **أحوذياً**: عبقرياً.

(٢) تقدم أن الرواية الأشهر والأصوب: (٣٠٠٠).

(٣) أخرجه البيهقي؛ وابن عساكر ، ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦؛ وذكره ابن كثير في البداية=

وقال أبو بكر أيضاً بحزم وعزم وثبات حفِظه له التاريخ في مثل هذه الملمَّات العصيبة: (والذي نفسُ أبي بكر بيده ، لو ظننتُ أن السباع تخطَفني لأنفذتُ بَعْثَ أسامة كما أَمر به رسول الله ﷺ ، ولو لم يبقَ في القرى غيري لأنفذتُه!)[1].

ولا ريب أن هذا الرأي المخالف من الصحابة له وجاهته وقيمته ومبرراته ، حيث أُحيط بالمسلمين ومدينتهم ، تتهدّدهم قوى المرتدين والمتربصين. لكن الصديق كان له منطق آخر قد مشى عليه منذ دخل الإسلام ، وثَبت عليه واستعصَم به واستبسل في سبيله إلى آخر حياته؛ وهو الالتزام التام بكل ما أمر به رسول الله ﷺ وأبرمه ووجَّه إليه. فما دام النبي ﷺ قال في آخر ساعات حياته: «**أنفِذوا بَعْث أسامة**» ، فلن يكون في ذلك إلا الخير والسداد والمصلحة ، وهكذا كان ، وهكذا فعل أبو بكر.

وكانت طائفة من الصحابة طلبوا إلىٰ عمر أن يكلِّم أبا بكر في أن يولي عليهم غيرَ أسامة ، فجاءه عمر فقال: (إن الأنصار أمروني أن أبلغك ، وإنهم يطلبون إليك أن تولِّي أمرَهم رجلاً أقدمَ سنّاً من أسامة. فوثب أبو بكر ـ وكان جالساً ـ فأخذ بلحية عمر ، فقال له: ثكلتْكَ أمُّك وعدِمَتْك يا ابنَ الخطاب ، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزِعَه! فخرج عمر إلى الناس ، فقالوا له: ما صنعتَ؟ فقال: امضُوا ، ثكلَتْكم

= والنهاية: ٦/ ٣٠٥؛ والمتقي الهندي في كنز العمال: ٣/ ١٢٩ وقال: سنده حسن. ذو خشب: واد على مسافة (٣٥كم) من المدينة.

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٥؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٠٤.

أمهاتُكم ، ما لقيتُ في سبيلكم من خليفة رسول الله!)[1].

وهذا موقف آخر للصديق في الاتباع التام وتنفيذ كل ما أراده النبي ﷺ.

ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم في معسكرهم بالجرف ، فأشخَصَهم وشيَّعهم ، وهو ماشٍ وأسامة راكب ، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر ، فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله! والله لتركبنَّ أو لأنزلنَّ! فقال: والله لا تنزل ، ووالله لا أركب ، وما عليَّ أن أغبِّر قدميَّ في سبيل الله ساعة؛ فإن للغازي بكل خطوة يخطوها سبعمئة حسنة تكتب له ، وسبعمئة درجة ترتفع له ، وتُرفع عنه سبعمئة خطيئة! حتى إذا انتهى قال: إنْ رأيتَ أن تُعينني بعمر فافعل ، فأَذِنَ له)[2].

ثانياً: وصية أبي بكر لأسامة وجيشه:

●● ثم قال أبو بكر: (أيها الناس ، قِفوا أوصِكُم بعشر فاحفظوها عني:

لا تخونوا ، ولا تَغُلُّوا ، ولا تَغْدِروا ، ولا تمثِّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقِروا نخلاً ولا تحرِّقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة ، وسوف تمرون بأقوام قد فرَّغوا أنفسَهم في الصوامع فدَعُوهم وما فرَّغوا أنفسهم له ، وسوف تقدَمُون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٦.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٦؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٠٥.

الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء ، فاذكُروا اسمَ الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفِقوهم بالسيف خَفْقاً)[1].

وقال أبو بكر لأسامة: (اصنَعْ ما أَمرك به نبي الله ﷺ ، ابدأْ ببلاد قُضاعة ، ثم ائتِ آبِل ، ولا تقصرنَّ في شيء من أمر رسول الله ﷺ ، ولا تعجلنَّ لِما خلَّفتَ عن عهده)[2].

ثالثاً: وقائع المعركة وآثارها:

●● وسار أسامة في ثلاثة آلاف رجل ، يقطع البِيدَ في أيام شديدة الحرِّ من شهر حزيران (يونيو) ، وبعد مسيرة عشرين يوماً نزل بجيشه ، فأغار على (آبِل) الواقعة شمال (مؤتة) ، وبثَّ خيولَه في قبائل قُضاعة ، وأحلافهم ، تلك القبائل التي ظاهرت الروم على جيش المسلمين في (عزوة مؤتة) ، وقضى على كل مقاومة صادفها هناك ، فما رُئي جيش كان أسلمَ من ذلك الجيش.

وعاد أسامة إلى المدينة بجيشه الظافر ، فتلقاه أبو بكر في جماعة من الصحابة وتلقاه أهل المدينة ، فدخل المدينة والناس من حوله يرددون قول النبي ﷺ عنه: «**إنَّه خَليقٌ للإمارة ، وإن كان أبوه لَخَليقاً لها**».

لقد كان أثر هذه الغزوة عظيماً في المرتدين وغيرهم ، فقد شاع في

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/٢٢٦ـ٢٢٧. **فحصوا أوساط رؤوسهم**: كشفوها بحلق شعرها.

(٢) المرجع السابق: ٣/٢٢٧. **وآبل**: تسمىٰ آبل الزيت ، بلدة بالأردن من مشارف الشام.

الجزيرة العربية خبرها ، فكانت لا تمرُّ بقَبيل يريدون الارتداد إلا تخوفوا وسكنوا وقالوا فيما بينهم: لو لم يكن المسلمون على قوة ، لما خرج من عندهم هؤلاء[1].

رابعاً: وقفات وعبر:

١ ـ في موقف أبي بكر الحازم الحاسم من إنفاذ بعث أسامة ، التزامه التام بأوامر النبي ﷺ واتباع منهجه الذي لا يتحقق في غيره. وقد أثبتت الأحداث صواب هذا الرأي ، ويُمن الاتباع والالتزام بهدي النبوة.

٢ ـ في قولة الصديق: (والذي نفسُ أبي بكر بيده لو ظننتُ أن السباع تخطَفني لأنفذتُ بعث أسامة...): معلمةٌ سامقة على بروزه على جميع الصحابة ، وأنه ينزع من منبع النبوة ، ويأتسي بموقف الرسول ﷺ وقولته في بداية أمر الدعوة بمكة لعمِّه أبي طالب عندما ظنَّ فيه الضعف عن نصرته: **«يا عمّ ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري عليٰ أن أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهره الله أو أَهْلِك دونه»**[2].

فهذا الموقف النبوي ضياء هذا الموقف الصديقي.

٣ ـ في ساعات العُسْرة ومواقف الشدة والأزمات العظام تُعرف معادن العظماء! فالعظائم كفؤها عزمات أولي العزم من أكابر الرجال؛ وهكذا

(١) بين العقيدة والقيادة ، ص ٢٣٢؛ قادة فتح الشام ومصر ، ص ٤٢ ـ ٤٣؛ تاريخ الطبري: ٣/٢٢٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٧؛ طبقات ابن سعد: ٤/٦٨؛ البداية والنهاية: ٦/٣٠٤.

(٢) انظر: حياة رجالات الإسلام ، ص ٨٤ ـ ٨٥.

كان الصديق في هذا المحكِّ الصعب ، تماماً كما كان في مواقف كثيرة سبقت الإشارة إليها.

لقد كان في إيمانه ويقينه وثباته ورسوخه يملأ الزمان والمكان والأنفس وصفحات التاريخ بمذهبه الفريد وموقفه الرشيد.

٤ ـ إن الصديق في تصميمه على إنفاذ جيش أسامة وردّ الرأي المخالِف من جمهرة من الصحابة؛ لم يكن مُفتاتاً على الشورى ، لأن القضية ليست مما يُعرض للشورىٰ بعد أن أبرم النبي ﷺ فيها الأمر بقوله: «**أنفِذوا بعث أسامة**» ، وأمره ﷺ واجبُ الاتباع ، وهذا ما أصرَّ الصديق عليه ، وأيقظ الصحابة ونبَّهَهم عليه.

٥ ـ ولو أن أبا بكر استجاب لرأي الصحابة بإرجاء بعث الجيش ، أو تغيير أميره أسامة؛ لكان سَنَّ لهم مخالفةَ أمر النبي ﷺ ، وفَتَحَ للناس من بعده باباً لا يُرأب صَدْعُه ، ولا يُؤمَنُ شرُّه وضرُّه! فكان في موقفه ذاك كل الحكمة والخير والرشاد.

(لقد رأى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن العصمةَ حق العصمة في رأي واحد لا رأي قبله ولا بعده ، وهو الطاعة في غير تردُّد ولا هوادة ولا إبطاء)[1].

٦ ـ وفي موقف الصديق من تشييعه الجيش ، وهو ماشٍ وأسامة راكب ، ثم استئذانه في أن يستبقي عمر عنده؛ درس كبير من دروس الصديق: (فهو قد أراد أن يُريهم في نفسه مقدار تعظيمه لأسامة؛ لأن رسول الله ﷺ ولاه قائداً. وهو قد أراد أيضاً أن يرغِّب المؤمنين ويقوي

(١) بين العقيدة والقيادة ، ص ٢٣٠ ، وانظر: ص ٢٢٩.

نفوسهم على الجهاد ، لتتمحَّض بالإخلاص رغبةً فيما عند الله وتجافياً عن الدنيا . ثم هو يزيد في إظهار قَدْر أسامة في نظر جنده وفيهم كثرة من جِلّة الصحابة ، فيستأذنه في أن يترك عمر يستعين به لأنه كان جندياً من جنود أسامة فيأذن له فيه ، وفي ذلك بيان لقيمة قائد الحرب العسكرية في نظر الإسلام)[1] .

٧ ـ وكان بعثُ أسامة في إبَّانه العنوانَ الأول لسياسة عامة في الدولة الإسلامية هي في ذلك الحين خيرُ السياسات؛ حيث شاع في أرجاء الجزيرة خبر ذلك الجيش: فالمتربصون الذين يريدون الارتداء تخوَّفوا وخَنَسوا وسكنوا! والثابتون الذين يخشَون بطْش المرتدين زادهم ذلك ثباتاً واطمئناناً! ودفع الخائفين إلى الانضمام إلى دولة الإسلام عن طواعية . وهادَنَ المسلمين من أوشك أن ينقلب عليهم ، وتفرَّقت جموع من اجتمع على حربهم . وزُرعت لهم الهيبة في أطراف الجزيرة[2] ، حتى قالت الروم: ما بالى هؤلاء بموت صاحبهم أن أغاروا على أرضنا[3]! وتمَّ بذلك أيضاً تأمينُ طريق (الحجاز ـ الشام) للمسلمين.

٨ ـ ولم يكن إرسال الجيش مغامرة من أبي بكر كما قال من قال ، فالمغامرة هي الإقدام على أمر مشكوك في نجاحه ، وليس عند أبي بكر شكٌّ في نجاح شيء فعله رسول الله ﷺ ، ذلك سرّ من أسرار الإيمان لا يعرفه إلا من ذاقه[4] .

---

(١) حياة رجالات الإسلام ، ص ٨٥ ـ ٨٦ .
(٢) انظر: عبقرية الصديق ، ص ٨٨ ، ٩٥ .
(٣) طبقات ابن سعد: ٤/ ٦٨ .
(٤) أبو بكر الصديق ، للطنطاوي ، ص ١٨٢ .

٩ ـ إن الاستعصام بكتاب الله وهدي رسوله فيه الخير كله والفوز في الدنيا والآخرة ، وهذا ما تحقق للصحابة في هذا الموقف ، حيث لزموا أمر النبي ﷺ ، وجاء لهم الخير من مسيرة هذا الجيش بوأْدِ كل حركات المتربصين ، أو ما كانت دولة الرومان توسوس به من تأليب القبائل على المسلمين في ذاك الظرف العصيب.

١٠ ـ وفيه جلالة الصحابة وفقههم وورعهم وطاعتهم لله ولرسوله ، فما إن ذكَّرهم الصديق بأمره ﷺ الذي أبرمه بشأن أسامة وجيشه؛ حتى رجعوا إليه مسرعين ولزموه ونصروه واستبسلوا في تحقيقه.

١١ ـ وفيه كذلك آداب الإسلام الرفيعة التي تتجلى بوصايا الصديق للجيش في معاملة الناس الذين يلقاهم في طريقه ، أو الذين ذهب ليؤدِّبهم ويقطع شرور فتنتهم. (تلك الوصايا التي ما عرفتها الإنسانية من قبلُ ، كأنما نظر بنور الله إلى المستقبل البعيد ، الذي تتقدم فيه الإنسانية حتى تعرف قواعد الحرب وتسعى لتطبيقها)[١].

* * *

(١) أبو بكر الصديق ، للطنطاوي ، ص ١٨٢.

الفصل الخامس
ردة جائحة وحركات تنبؤ بائرة
والصِّدِّيق يفقأ عيونها

أولاً: توصيف الواقع:

١ ـ تعريف الردة وبيان أنواعها:

الردة: هي الكفر بعد الإيمان، **والمرتد**: هو الذي آمن ثم كفر مرة ثانية، وحُكْم المرتد في ديننا أشد من حكم الكافر.

فالكفار من أهل الكتاب يجوز أن نعاشرهم بالحسنى ما لم نكن معهم في حالة حرب، ويجوز أن نتزوج بناتهم. أما المرتدون فمهلتُهم ثلاثة أيام، ليرجِعوا إلى الإسلام، ويتوبوا ويُعلنوا البراءة من الكفر، فإن أَبَوْا وجب الحكم عليهم بعقوبة الموت.

والردَّة علىٰ وجهين: ردَّة كاملة بأن يَخرج المرتد من الإسلام جملة واحدة، وردَّة بحكم الكاملة وهي أن يُنكِر جزءاً من الإسلام.

فمن أنكر جزءاً من الإسلام؛ كأن يرفض آية من القرآن، أو يجحد كلمة منه، أو يستحلَّ محرَّماً ويقول: إنه ليس بحرام، أو ينكر واجباً ويقول: إنه ليس بواجب ـ كان حكمه حكم المرتد.

أما المرتدون من العرب على أثر وفاة الرسول ﷺ فكانوا فريقين:

أ ـ فريق ـ وهم الأقل ـ كفروا بالدين كله ، وآمنوا برسالة الشيطان إلى أنبيائه : مُسَيْلِمة والأسود وطُليحة وسَجَاح . . .

ب ـ وفريق ـ وهم الأكثر ـ لبثوا على إيمانهم بنبوة محمد ﷺ وإقامة الصلاة والحج وتلاوة القرآن ، لكنهم مَنَعوا الزكاة ، فاعتبرهم أبو بكر مرتدين بمنع الزكاة[1].

وذكر الخَطّابي وعياض وغيرهما : أن أهل الردة ثلاثة أصناف :

أ ـ صنف تبعوا مُسَيْلِمة والأسود العَنْسي ، وكان كل منهم ادعى النبوة ، فصدَّقَ مسيلمةَ بنو حنيفة وغيرهم ، وصدَّق الأسودَ أهلُ صنعاء وغيرهم .

ب ـ وطائفة أخرى : ارتدوا عن الدين ، وأنكروا الشرائع ، وتركوا الصلاة والزكاة وغيرهما ، وعادوا إلى ما كانوا عليه في الجاهلية .

ج ـ والصنف الآخر : هم الذين فرَّقوا بين الصلاة والزكاة ، فأقَرُّوا بالصلاة وأنكروا فَرْضَ الزكاة ووجوبَ أدائها إلى الإمام . وهؤلاء هم الذين ناظر أبو بكر عمرَ في قتالهم[2] .

وقد بدأت حركةُ الردة وادعاءُ النبوة واتباعُ الناس لها في آخر أيام عصر الرسالة ، وكان رأسَ ذلك الكذابان الأَسْود العَنْسي ومُسَيْلِمة ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ الإشارة إليهما .

---

(١) أبو بكر الصديق ، للطنطاوي ، ص ١٣ ـ ١٤ ، وانظر : أحكام المرتد ، لنعمان السامرائي .

(٢) انظر : سنن أبي داود : ٢/ ١٩٩ ـ ٢٠٨ ؛ وللخطابي فيه كلام نفيس ؛ وشرح صحيح مسلم ، للنووي : ١/ ٢٣٦ ـ ٢٤٠ ؛ فتح الملهم : ١/ ٣٧٢ ـ ٣٧٩ ؛ الفتح : ١٦/ ٢٣ شرح الحديث (٦٩٢٤) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه: (أن رسولَ الله ﷺ قال: «**بينما أنا نائمٌ رأيتُ في يَدَيَّ سِوَارَيْن من ذَهَب، فأَهَمَّني شأنُهما، فأُوحِي إليَّ في المنام أن انْفُخْهُما، فَنَفَختُهما، فطَارَا. فأَوَّلْتُهما كذَّابَيْنِ يَخرجان بَعْدِي**». فكان أحدُهما العَنْسيَّ، والآخرُ مُسَيْلِمةَ الكذَّابَ صاحبَ اليَمامَة)(١).

٢ ـ أسباب الردة ودوافعها(٢):

شكَّلت حركات الارتداد الهائلة تحدياً كبيراً لهيبة الدولة الإسلامية الناشئة، وأوّلَ اختبار للمجتمع الإسلامي الجديد، وأولَ شَرْخٍ يصيب هذا المجتمع الموحد في إطار الدين الإسلامي، كما كانت المواجهة الحاسمة للخليفة حين وضعت كفاءته أمام الامتحان الصعب!.

وترجع أسباب الردة التي حدثت بعد وفاة النبي ﷺ، ووقع في حَمْأتها كثير من القبائل العربية في أصقاع الجزيرة، إلى عدة عوامل يمكن إجمالها في الأمور الرئيسة التالية:

أ ـ عدم رسوخ الإيمان:

حيث كثير من هذه القبائل تأخَّر إسلامُها وعاشت مدة قصيرة في عصر

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٢١) واللفظ له؛ ومسلم (٢٢٧٤)؛ والنسائي في الكبرى (٧٦٠٢)؛ والترمذي (٢٢٩٢)؛ وابن حبان (٦٦٥٤)، وغيرهم. وقد أوسعت الكلام عليه في كتابي: نبوءات الرسول ﷺ، نبوءة رقم (١١٢).

(٢) انظر: حركة الردة، لعلي العتوم، ص ١١٠ ـ ١٣٧؛ الصديق أبو بكر، لهيكل، ص ٦٢ ـ ٦٣؛ عبقرية الصديق، للعقاد، ص ٩١ ـ ٩٣؛ عصر الخلافة الراشدة، للعمري، ص ٣٩٢؛ تاريخ الخلفاء الراشدين، لطقوش، ص ٣١ ـ ٣٧؛ أبو بكر الصديق، للصلابي، ص ٢٠٩.

النبوة ، ولم يَتَّفِق لأهلها من صحبة النبي ﷺ ما يَصقل جواهر نفوسهم ويصفّي دخائل قلوبهم وينقّيها من رواسب الجاهلية وأخلاقها ، فلم يتغلغل الإيمان في أفئدتهم مثلما تأصّل في أنفس أهل مكة مهبط الوحي ، وأهل المدينة ذوي الإيواء والنصرة ، ونفوسِ العرب في المناطق المجاورة والقريبة كالطائف وغيرها.

ويشهد لذلك أحاديث الوفود التي تقاطرت إلى المدينة من أصقاع الجزيرة ، فالإسلام لم ينتشر ويستقر في الأصقاع النائية عن مكة والمدينة من شبه الجزيرة إلا بعد فتح مكة وغزوة حنين وحصار الطائف ، وهي مُدَيْدة قصيرة قياساً بعمر الرسالة.

ب ـ العصبية القبلية:

التي لا زالت عميقة في أنفس أهل تلك البلدان النائية ووسط نجد ، حيث ترى القبائل أنفسَها أنها أضخم عدّة وعدداً من قريش ، وبالتالي فهي أولى بالزعامة ، وعلى الأقل لم ترضَ بالرضوخ لِقريش!.

ويعبِّر عن ذلك قول طَلحة النَّمَرِيّ لمسيلِمة: (أشهدُ أنك كذّاب ، وأن محمداً صادقٌ ، ولكن كذابَ ربيعة أحبُّ إلينا من صادِقِ مُضَر!)[1].

ج ـ خلائق الأعراب ذوي الجهالة:

أولئك الذين وصفهم القرآن بقوله: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ [التوبة: ٩٧] ، وقال عنهم: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ [الحجرات: ١٤].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/٢٨٦.

فما عَرف التاريخ قطُّ أناساً منقطعين للبداوة الأولى إلا عرف منهم الاستعداد لأمثال هذا الانتقاض ، كائناً ما كان الدين الذي ينتحلونه والزمن الذي قضوه في انتحاله ، فلا يُستغرب أن ينقلب بعض أهل البادية على الإسلام ودولته ولمّا ينقضِ على دخولهم فيه الزمن اليسير .

د ـ ضعف الفهم للإسلام وفقه رسالته :

فالمناطق الكثيرة التي دخلها الإسلام بعد فتح مكة ، كان أهلها لا يدركون تمام الإدراك ولا يعلمون حق العلم؛ ما يفرضه الإسلام من أركان وفرائض وواجبات والتزامات. وبهتت في نفوسهم تعاليم الدين الحنيف وخاصة الزكاة التي اعتبروها ضريبة مهينة يُسامُون أداءها ، كما يَسوم الجبابرة من الملوك رعاياهم أداءَ الضرائب وحمل المغارم! كما استثقلوا الصلاة والعبادات الأخرى وضاقوا بها ذَرْعاً ، ورأوها تتعارض مع حريتهم الشخصية والجماعية .

ورأوا أن الإسلام مرتبط بشخص رسول الله ﷺ ، وهذا ما عبَّر عنه قائلهم :

أَطَعْنا رسولَ الله ما كانَ بيننا ... فيا لَعِبادِ اللهِ ما لأبي بكرِ[1]!

هـ ـ طموح الزعامات والتقليد :

فثَمَّة زعماء طموحون تطلعوا إلى القيادة ومُضَاهاة منزلة النبوة والاستقلال عن هيمنة قريش. وفيهم أُسر مُعرِقة في الحكم تتداوله تارة بسلطان الحبشة ، وتارة بسلطان فارس ، وحيناً بين هذا وذاك بسلطان أهل البلاد .

(١) تاريخ الطبري: ٣/٢٤٦ .

فادَّعَىٰ بعضهم النبوة كما فعل مُسيلِمة والعَنْسي وطُليحة وسَجَاح ، وآخرون طمعوا في الزعامة وقيادة قومهم وأنفوا من التبعية لسلطان الإسلام وخليفته ، كما يظهر ذلك في حركات قيس بن مَكْشوح والأشعث بن قيس ومالك بن نُويرة .

وكان أتباع هؤلاء من الجماهير الغفيرة تبَّاعين لهم في قُرْبهم من الإسلام وخضوعهم له ، ثم في انقلابهم عليه وارتدادهم عنه! .

و ـ الكِهانة والشعوذة :

وهؤلاء المشعوذون لم يفهموا الإسلام ولم يعقلوا قطُّ أنه دعوة إصلاح لخير الناس ، وكل ما عقلوه أنه حيلة كاهِن أفلحتْ ، فحقَّ لهم أن يَطمعوا في الفلاح لأنهم كهّان لا تعوزهم وسائل السحر وحبائل الخديعة . فتطلعت رؤوس الفتنة من هنا وهناك والنبي ﷺ بقيد الحياة[1] .

مثلما فعل الأسود العنسي ومسيلمة وسَجَاح ، وتابعهم الرَّعَاع من أقوامهم الذين اشتعلت بفتنتهم أرض الجزيرة .

ز ـ أسباب جغرافية :

تتمثل في البعد عن مركز الدولة وحاضرة الرسالة وعاصمة الخلافة ، فالذين قَصَتْ ديارُهم عن المدينة كانوا أكثر إلحاحاً في رِدّتهم ، وكان أكثرهم يتابعون رجالاً منهم ادَّعَوا النبوة : كطُليحة في بني أَسَد ، وسَجَاح في بني تميم ، ومُسَيْلِمة في اليمامة ، وذي التاج لَقيط بن مالك في عُمَان . هذا إلى ما كان من اتّباع طائفة كبيرة من أهل اليمن للأَسود

---

(١) عبقرية الصديق ، ص ٩٢ .

العَنْسي ، ومتابعتهم إياه إلى حين مقتله ، ثم إمعانهم بعد ذلك في الفتنة والانتقاض إلى آخر حروب الردة[1] .

ح ـ عوامل خارجية :

فشمال شبه الجزيرة العربية المتصل بالشام والقريب من دولة الروم ، وجنوب شبه الجزيرة المتصل بالفُرس والقريب من الحبشة ؛ كانا متأثِّرَين بسلطان إمبراطوريتي فارس والروم ، بل كانت فيهما مناطق نفوذ لهما وإمارات تابعة لحكمهما! فلا عجبَ أن يحاول أصحاب هذا النفوذ وهذا الحكم مناوأة الدين الجديد بشتى الأساليب: بالدعاية السياسية للاستقلال الذاتي ، وبالدعاية الدينية للمسيحية ولليهودية وللوثنية العربية[2] .

هذه هي الخطوط العريضة والأُطر العامة التي انتظمتْ حركاتِ الارتداد الواسعة المرعبة ، وبالرغم من تباين أهداف المرتدين ومسالكهم ، لكن تلك الحركات التقت جميعاً على كلمة سواء ، واندمجت كلها في إطار واحد هي الخروج على الإسلام والارتداد عنه ومناوأة المسلمين ورفض الدَّينونة لسلطانهم ، والسير في مركز خلافتهم لمقارعتهم واستئصالهم .

ولهذا تجمع المصادر الإسلامية العَقَدية والفقهية والتاريخية على تسمية الجميع بالمرتدين ، كما أن خطة الخليفة الصديق وأصحابه كانت واحدة في مجابهتهم ومراغمتهم وإخضاعهم وإرجاعهم للحق .

---

(١) الصديق أبو بكر ، لهيكل ، ص ٦٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص٦٣ .

٣ - جغرافية الدولة الإسلامية ، وحجم الردة وخطورتها:

المتأمل في خارطة شبه الجزيرة العربية يرى أن الردة اشتعلت في شمالها وجنوبها وشرقها ، فقد انتشر المرتدون والخارجون والمتنبئون من مشارف الشام شمالاً حتى حضرموت ومَهْرة واليمن في الجنوب ، ومن البحرين[١] وعُمان والخليج العربي شرقاً حتى شاطىء البحر الأحمر غرباً ، بالإضافة إلى قلب الجزيرة العربية ومشارف الحجاز وأبواب المدينة.

وثبت على الإسلام أهل مكة والمدينة والطائف وجماعات كثيرة متفرقة في أصقاع الجزيرة تشكل بؤراً مضيئة وسط طوفان الردة المُدْلَهِمّ المتربص.

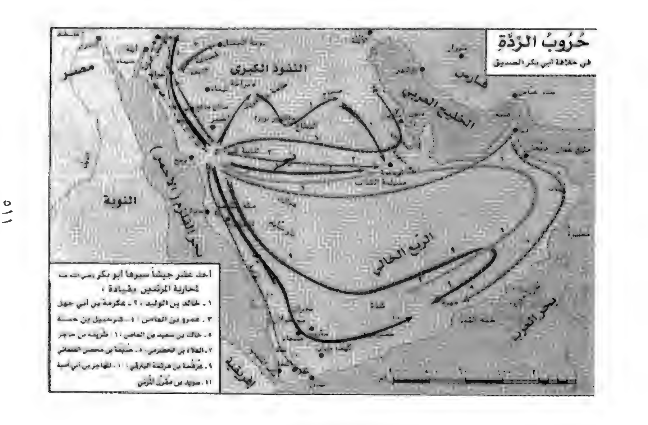
يقول قتادة: (لمَّا توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب كلها إلا ثلاثة مساجد: مكة والمدينة والبحرين ، فقالوا: أما الصلاة فإننا سنصلي ، وأما الزكاة فوالله لا تُغصب أموالنا منا)[٢].

وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (لما توفَّى الله نبيه ﷺ ارتد في كل ناحية من جزيرة العرب مرتدُّون ، عامة أو خاصة)[٣].

فارتدت بنو حَنيفة في اليمامة والتفوا حول مُسَيْلِمة الكذاب ، والتفَّت بنو أَسَد وغَطَفان وطيئ حول طُليحة بن خويلد الأسدي ، وارتد بنو يَرْبُوع

---

(١) هي اليوم منطقة (الأحساء) في السعودية.
(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ، نقلاً عن: أبو بكر الصديق ، للطنطاوي ، ص ١٧٥ - ١٧٦.
(٣) تاريخ ابن عساكر ، ص ٤٢٤.


حُرُوبُ الرِّدَّةِ
في خلافة أبي بكر الصديق
فارس
الخليج العربي
النفود الكبرى
مصر
النوبة
بحر القلزم (الأحمر)
الربع الخالي
بحر العرب
أحد عشر جيشاً سيرها أبو بكر رضي الله عنه لمحاربة المرتدين بقيادة:
١ ـ خالد بن الوليد ٢ ـ عكرمة بن أبي جهل
٣ ـ عمرو بن العاص ٤ ـ شرحبيل بن حسنة
٥ ـ خالد بن سعيد بن العاص ٦ ـ طريفة بن حاجز
٧ ـ العلاء بن الحضرمي ٨ ـ حذيفة بن محصن الغلفاني
٩ ـ عرفجة بن هرثمة البارقي ١٠ ـ المهاجر بن أبي أمية
١١ ـ سويد بن مقرن المزني

من تميم بزعامة المتنبئة سَجَاح ، في حين التفَّ آخرون من تميم حول مالك بن نُويرة وكان قد امتنع عن دفع الزكاة لأبي بكر ، وتحالف بنو عطارد التميميون مع مسيلمة.

وارتد قسم من قبيلة سُليم في عالية نجد قرب خيبر ، وتحالفت فَزارة بنجد مع طليحة الأسدي ، وارتدت فروع من بني بكر بن وائل بالبحرين.

وانقسمت الأَزْد في عُمان ودَبَا ؛ فمنهم من ثبت على الإسلام ، ومنهم من ارتد واتبع المتنبئ ذا التاج لَقيط بن مالك وكانت الغلبة لهم.

كذلك التفَّت بعض قبائل حضرموت من كِنْدة والسَّكاسك والسَّكُون حول الأشعث بن قيس الذي امتنع عن دفع الزكاة.

وهكذا توسعت حركات الردة في مطلع خلافة أبي بكر في شمال الجزيرة وشرقها وجنوبها حتى كادت أن تقضي على الدولة الإسلامية الفتية[1] !.

والمتمعن بالخارطة المرفقة (ص ٥١١) يرى حجم الردة الهائل والذي أحاط بمركز الدولة من أطرافها.

لكن الذي يجب التأكيد عليه أن الردة لم تنتظم كل القبائل ، ولا كانت شاملة لعموم رقعة شبه الجزيرة العربية شمولاً جغرافيّاً ، بل في كل ناحية ومنطقة ظهرت فيها الردة كان هناك زعماء وقادة وجماعات وقبائل ثبتوا على الإسلام واستعصموا به ونافحوا عنه وضحوا في سبيله ؛ بحيث إن الدولة الإسلامية اعتمدت على قاعدة صلبة تمثَّلت فيهم ،

---

(١) انظر: تاريخ الطبري: ٣/ ٢٤٢ ـ ٢٤٦ ؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣١١ ـ ٣١٢ ؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

وكانوا سنداً قوياً لها في قمع حركة المرتدين منهم[1].

وكلمة السيدة عائشة كلمة دقيقة عبقرية؛ حيث تقول: (ارتد في كل ناحية من جزيرة العرب مرتدون: عامة أو خاصة).

وكان مركز الثبات على هيئة مثلث من الأرض رأسه المدينة وقاعدته مكة والطائف[2]:

وهذه المدن الثلاث شكلت قطب الرحى ومحور الصراع والدفاع عن الإسلام وتثبيت أركانه، وساعدهم في ذلك الثابتون على الإسلام في مواقع متفرقة في مناطق الردة نفسها.

ففي قلب دولة الإسلام ومركز الثبات كان هناك الأنصار والمهاجرون وبقية قريش وثَقيف ومُزينة وغِفار وجُهينة وبَليّ وأشْجَع وأسلم وكعب.

وفي نجد ثبت على الإسلام طوائف من بني سُليم وطيئ وهُذيل وتميم ـ ثبت من بطونها: عوف والأبناء والرباب ـ.

وقد كان لثبات قبائل ذي مَرَّان وذي الكَلاَع وذي ظُليم وبَجيلة وزَبيد والنَّخَع وجُعفي والأبناء وبعض قبائل السَّكون والسَّكاسك على الإسلام أثره في إحباط ردَّة الأسود العنسي. كما كان في القبائل المرتدة مثل بني عقيل وعَكّ وخَثْعم طوائف من المسلمين ثبتت على الإسلام ووقفت ضد الأسود، بل إن قبيلة مَذْحِج التي ينتسب إليها الأسود ثبت عدد كبير من رجالها على الإسلام وحاربوا الأسود.

كذلك ثبتت قبيلة عبد القيس بزعامة الجارود في البحرين، وطائفة

---

(١) الثابتون علىٰ الإسلام أيام فتنة الردة، للدكتور مهدي رزق الله، ص١٩.

(٢) الصديق أبو بكر، ص١٣٨؛ عصر الخلافة الراشدة، ص ٤٠٤.

من الأَزْد في عُمان ودَبَا بقيادة جَيْفر وعبَّاد ابني الجُلَنْدى ، وقسم من كِندة والسكاسك والسكون وبايعوا الوالي زياد بن لبيد البياضي[(١)] .

وتذكر بعض الروايات أن بعض ضعفاء الإيمان هَمَّ بالارتداد ، فقام الصحابي الشريف سُهيل بن عَمْرُو فثبَّتهم على الإسلام ، وخطب الناس فقال : (إنَّ ذلك لم يَزِد الإسلام إلا قوة ، فمن رابَنا ضربنا عنقه) .

وحدث مثل ذلك في الطائف ، فثبَّتَهم أميرهم عثمان بن أبي العاص وقال : (يا أبناء ثَقيف ، كنتم آخرَ من أسلم فلا تكونوا أولَ من ارتد)[(٢)] .

●● واجتمعت مجموعة من القبائل وبعثوا وفوداً فقدِموا المدينة ، فنزلوا على وجوه الناس فأنزلوهم ، وأنابوهم في أن يكلِّموا أبا بكر أن يقبل منهم أن يقيموا الصلاة وأن لا يؤتوا الزكاة ، فقال الصديق : لو مَنَعوني عِقالاً لجاهدتُهم عليه! فردَّهم ، ورجع وفدهم فأخبروا عشائرهم بقلَّة أهلِ المدينة ، وأطمعوهم فيها[(٣)] .

وأمرُ هؤلاء هيِّن إذا قِيس بالقبائل البعيدة عن مركز الدولة ، وأولئك الذين تابعوا المتنبئين الكذابين من أمثال الأسود ومسيلمة .

وكذلك الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية الذي كان يشكل خطراً مستطيراً ، فالردة فيه قوية ومشبوبة ، ذلك أنه يشكِّل نحوَ نصف بلاد العرب ، كما أنه يُعتبر خطراً استراتيجيّاً لأنه يُشاطِئ الخليجَ العربي

---

(١) تاريخ الطبري : صفحات كثيرة ، ولخصها الدكتور أكرم العمري في كتابه : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٨٧ ـ ٣٨٩ ، ٤٠٣ .

(٢) الصديق أبو بكر ، ص ٦١ ـ ٦٢ ؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٠٤ .

(٣) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥ ؛ البداية والنهاية : ٦/ ٣١٢ .

فخليج عدن فالبحر الأحمر إلى شمال اليمن ، وتقع فيه ممالك : البحرين ومَهْرة وعُمَان وحضرموت وكِنْدة واليمن! ولا يستطيع المرء أن يتخطى هذه الممالك من الشرق إلى الغرب أو من الغرب إلى الشرق إلا أن يخترقها جميعاً ؛ فكلُّها تقع تباعاً على شاطئ الخليجين والبحر الأحمر. وكلها فيما خلا اليمن قليلة العرض ، فما بين حدودها والشاطئ أميال معدودة. أما سائر الجنوب من شبه الجزيرة مما تحيط به هذه الممالك وتفصله عن الماء: فبادية الدَّهْناء ، هذه الصحراء المَخُوفة يوم ذاك ، والمخوفة إلى يومنا الحاضر ، والتي يُطلق عليها اليوم اسم (الربع الخالي)[(1)]!.

والذين انضووا تحت ألوية المتنبئين كانت أعدادهم كثيفة واقتصادهم قويّاً وعُدّتهم وافرة ، فكان القتال معهم أعتى وأشرس واستغرق مدة أطول ، مما كان مع أولئك جاحدي الزكاة.

ثانياً: مواقف الصحابة وصمود الصديق واجتماعهم على رأيه:

●● عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لمَّا توفي النبي ﷺ واستُخْلِفَ أبو بكر ، وكَفَرَ من كَفَرَ من العرب ، قال عمر: يا أبا بكر ، كيفَ تُقاتِلُ الناسَ وقد قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرتُ أنْ أُقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إلـه إلا الله ، فمن قال: لا إلـه إلا الله ، عَصَمَ مني مالَه ونفسَه إلا بحقِّه وحِسابُه علىٰ الله**»؟.

قال أبو بكر: واللهِ لأقاتِلَنَّ مَن فَرَّقَ بين الصلاة والزكاة ، فإنَّ الزكاةَ حقُّ المال. والله لو مَنَعُوني عَنَاقاً كانوا يُؤَدُّونَها إلى رسول الله ﷺ

(1) الصديق أبو بكر ، ص ١٣٨.

لَقاتَلْتُهم على مَنْعِها! قال عمر: فوالله ما هو إلاَّ أنْ رأيتُ أنْ قد شَرَحَ الله صدرَ أبي بكر للقتالِ، فعرفتُ أنه الحقّ).

وفي رواية: قال أبو بكر: (والله لو مَنَعوني عقالاً كانوا يُؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتُهم علىٰ مَنْعِه)[١]. لفظ البخاري.

العَنَاق: الأنثى من ولد المعز. **والعِقال**: الحبل الذي يُعقل به البعير.

أراد الصديق أنهم متى مَنَعوا شيئاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ ولو قلَّ؛ فقد مَنَعوا شيئاً واجباً، إذ لا فرقَ في مَنْع الواجب وجحده بين القليل والكثير[٢].

قال النووي: (وفي استدلال أبي بكر واعتراضِ عمر رضي الله عنهما دليلٌ على أنهما لم يحفظا عن رسول الله ﷺ ما رواه ابن عمر وأنس وأبو هريرة من زيادة الصلاة والزكاة في الحديث، وكأن هؤلاء الثلاثة سمعوا هذه الزيادات التي في رواياتهم في مجلس آخر؛ فإن عمر رضي الله عنه لو سمع ذلك لَمَا خالفَ، ولما كان احتج بالحديث، فإنه بهذه الزيادة حجة عليه، ولو سمع أبو بكر رضي الله عنه هذه الزيادة لاحتجَّ بها، ولما احتج بالقياس، وعموم قوله: «**إلا بحق الإسلام**»)[٣].

وتابعه الحافظ فقال في شرح قول أبي بكر: (**فإن الزكاة حق المال**):

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٢٤، ٦٩٢٥) وأطرافه في (١٣٩٩، ١٤٠٠)؛ ومسلم (٢٠)؛ وأبو داود (١٥٥٦)؛ والترمذي (٢٦٠٧)؛ والنسائي في الكبرى (٢٢٣٥)؛ وفي الصغرى: ٥/ ١٤، ٧/ ٧٧، وغيرهم.

(٢) الفتح: ١٦/ ٢٦ ـ ٢٧ شرح الحديث (٦٩٢٤).

(٣) شرح صحيح مسلم: ١/ ٢٤٠؛ فتح الملهم: ١/ ٣٧٧.

(لو كان سمع في الحديث: «**ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة**» ـ كما في رواية ابن عمر وغيره ـ لما احتاج إلى هذا الاستنباط ، لكنه يَحتمِل أن يكون سمعه واستظهر بهذا الدليل النظري)[1] .

نقول: وهذا الاحتمال الأخير هو الصواب؛ فقد روى أنس رضي الله عنه ، قال: (لمَّا توفي رسول الله ﷺ ، ارتدَّتِ العربُ ، فقال عمر: يا أبا بكر ، كيف تقاتلُ العربَ؟ فقال أبو بكر: إنما قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرتُ أن أقاتِلَ الناسَ حتىٰ يشهدوا أنْ لا إلـٰه إلا الله وأني رسولُ الله ، ويُقيموا الصلاة ، ويُؤتوا الزكاة**». واللهِ لو مَنَعُوني عَنَاقاً مما كانوا يُعطون رسولَ الله ﷺ لقاتَلْتُهم عليه. قال عمر: فلما رأيتُ رأْيَ أبي بكر قد شُرِح علمتُ أنه الحقُّ)[2] .

وجادل أبا بكر في ذلك كثيرٌ من الصحابة الذين رأوا أن اللِّين أَوْلى ، وأن الأرض قد زُلزلت بالردة فما يُطاق تثبيتها.

عن عمر رضي الله عنه، قال: (لما اجتمع رأيُ المهاجرين ـ وأنا فيهم ـ حين ارتدت العرب فقلنا: يا خليفة رسول الله! اترك الناسَ يُصلُّون ولا يؤدون الزكاة ، فإنهم لو قد دخل الإيمان في قلوبهم لأقرُّوا بها! فقال أبو بكر: والذي نفسي بيده لأن أقعَ من السماء أحبُّ إليَّ من أن أترك شيئاً قاتل عليه رسول الله ﷺ ألاَّ أقـاتِلَ عليه! فقاتلَ العربَ حتىٰ رجعوا إلى الإسلام! فقال عمر: والذي نفسي بيده لذلك اليوم خيرٌ من آل عمر)[3] .

---

(١) الفتح: ١٦/ ٢٦؛ فتح الملهم: ١/ ٣٧٧.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٣٤١٧)؛ وفي الصغرى: ٦/ ٦ ـ ٧ ، ٧/ ٧٦ ـ ٧٧؛ والدار قطني (١٨٨٣) ، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٣) أخرجه العدني ، وهو في كنز العمال: ٣/ ١٤١؛ وحياة الصحابة: ١/ ٤٣٤.

وأما ما روي أن أبا بكر قال لعمر رضي الله عنهما: (رجوتُ نُصرتَكَ وجئتني بخذلانك! جبَّاراً في الجاهلية خوَّاراً في الإسلام؟!...)، فهو خبر باطل فيه رجل مجهول ليس بثقة كما قال الحافظ الذهبي[1].

وقد أشرتُ إلى هذا الخبر لشهرته بين العامة، ولأن كثيرين يحتجون به قديماً وحديثاً، بل بنى الدكتور حامد الخليفة[2] عليه بنياناً لإبراز جلالة الصديق وحزمه، وأبو بكر في غِنًى عن هذه الأخبار الواهية لإثبات تفوقه، وحاشاه أن يواجه عمر بمثل هذا، وحاشا فاروق الإسلام أن يكون خوَّاراً!.

ـ قال العلامة شِبِّير أحمد العثماني: (وبالجملة: فقد احتجَّ الصديق على الفاروق رضي الله عنهما بالنصِّ الصريح، وبالعموم المستفاد من قوله ﷺ: «**إلا بحقِّه**»، وبالمقايسة بين الصلاة والزكاة، وبكونهما قرينتين في كتاب الله تعالى)[3].

وأوضح أبو بكر: أن الصلاة حقُّ النفس، والزكاة حقُّ المال، فمن صلَّى عَصَمَ نفسَه، ومن زكى عَصم مالَه، فإن لم يصلِّ قُوتِل على ترك الصلاة، ومن لم يزكِّ أُخذت الزكاة من ماله قهراً، وإن نَصَبَ الحرب لذلك قوتل[4].

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام ـ السيرة النبوية، ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.

(٢) كرره في مواضع من كتابه: أبو بكر الصديق، مثلاً: ١/ ٧٢، ١١٩، ١٢٢. وغفر الله للشيخ علي الطنطاوي فقد رجح هذا الخبر بأحاديث النسائي والصحيحين فأوهم أنه فيها. انظر كتابه: أبو بكر الصديق، ص١٧٧.

(٣) فتح الملهم: ١/ ٣٧٧.

(٤) الفتح: ١٦/ ٢٦.

وإنما أراد عمر ومن معه من الصحابة الترفق في معاملة مانعي الزكاة ، والتفرغ لأهل الردة الشاملة ممن عادوا إلى عبادة الأوثان أو اتبعوا أدعياء النبوة ، فرفض الخليفة الكبير ذلك بصرامة لا تردد فيها ، وكان أن انشرحت صدور الصحابة رضي الله عنهم للقتال وعرفوا أنه الحق.

قال **عمر**: (فوالله ما هو إلا أن رأيتُ أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال ، فعرفتُ أنه الحق).

(**شرح الله صدر أبي بكر**): أي: فتح قلبه بالإلهام غيرةً على أحكام الإسلام.

(**فعرفت أنه الحق**): أي: ظهر له من صحة احتجاجه ، لا أنه قلّده في ذلك[1].

وهذا إنصاف من عمر ورجوع إلى الحق عند ظهوره ، مع أنه مظهرُ نطقِ الحق ومنبعُ عين الصدق. وبهذا يظهر كمالُ الصديق رضي الله عنه ، والفرق بينه وبين الفارق رضي الله عنه ، حيث سلك الصديق التدقيق وسبيل التحقيق على وفق التوفيق[2].

وفي رواية عن عمر: أنه عَمَّ جميعَ الصحابة فقال: (فقاتَلْنا معه ، فرأَيْنا ذلك رُشْداً)[3].

●● صلابة أبي بكر:

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: (توفي رسول الله ﷺ ،

---

(١) الفتح: ١٦/ ٢٨؛ فتح الملهم: ١/ ٣٧٩.
(٢) فتح الملهم: ١/ ٣٧٩.
(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٣٤١٩)؛ والصغرى: ٧/ ٧٧؛ وأحمد: ١/ ١١؛ وصححه أحمد شاكر والألباني.

فوالله لو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي لَهاضَها ، اشرأَبَّ النفاق ، وارتدَّتِ العرب ، فوالله ما اختَلَفوا في نقطة إلا طار أبي بحظِّها وغَنائها في الإسلام)[1].

هذا هو أبو بكر: واضح الرؤية ، صائب الرأي ، صلب العزيمة ، ميمون النَّقيبة ، شديد المَضَاء ، قد صِيغ من الإيمان وصِيغ للإسلام في مدلهمَّات الظلام!.

(وقوة الإيمان إذا صادفت رجولية حركت الجبال الرواسي ، ولو أن ما نزل بالمسلمين في أول خلافة الصديق نزل بأعظم الدول وأقواها لعَصَفَ بها ، ولكن أبا بكر انتهض للأمر فجدَّد الدين وأرسى قواعده ، ووجَّه الجيوش بعد ذلك للفتح والهداية)[2].

لقد استحال أبو بكر قوة روحية دفّاقة لا سلطانَ لشيء في الحياة عليها ، فهي لا تعرف الضعف ولا التردد ، ولا ترضى بدون الثبات والكمال بديلاً.

(وقابَلَ الصديق فتنةَ الردة بأحزم ما تُقابل به من مبدئها إلى منتهاها ، وعالجها علاجها في كل خطوة من خطواتها وكل ناحية من نواحيها. فبادرها بالحزم من صيحتها الأولى ، وتعقَّبها بالحزم يوماً بعد يوم وساعة

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٥٧٤؛ تاريخ خليفة ، ص ١٠٢؛ تاريخ ابن عساكر ، ص ٤٢١ ـ ٤٢٥ من طرق؛ وذكره الهيثمي في المجمع: ٩/ ٥٠ ، وقال: رواه الطبراني في الصغير والأوسط من طرق ورجال أحدها ثقات.
هاضَها: كسرها. **الحظ**: النصيب من الفضل. **الغَنَاء**: النفع.

(٢) حياة رجالات الإسلام ، ص ٨٦.

بعد ساعة ، حتى أسلَمتْ مَقادَها وثابَتْ إلى قرارها)[1] .

وليس هذا غريباً من الصديق ولا طَريفاً ، بل هو هو في ساعات العسرة وخلال الأزمات العظام؛ يُخرِج خَبْأه الباهر ليدهش القلوب ويحيِّر العقول! كذلك كان أبو بكر يوم الجهر بالدعوة ، وأيام الهجرة ، وساعة وفاة النبي ﷺ ، وفي سقيفة بني ساعدة ، وعند بعث أسامة! .

هكذا هو رضي الله عنه ، **فماذا يفعل الصديق بعد هذه الصلابة وذلك الحزم؟!** .

قام في الناس خطيباً ، فقال: (الحمد لله الذي هدى فكفى ، وأعطى فأغنى. إن الله بعث محمداً ﷺ والعلمُ شريدٌ ، والإسلام غريبٌ طريدٌ ، قد رَثَّ حبْلُه ، وخَلُق عهدُه ، وضلَّ أهله منه. . . إنَّ مَن حولكم من العرب مَنَعوا شاتهم وبعيرَهم ، ولم يكونوا في دينهم - وإن رجعوا إليه - أزهدَ منهم يومهم هذا ، ولم تكونوا في دينكم أقوى منكم يومكم هذا ، على ما قد فقدتم من بركة نبيكم ﷺ. ولقد وَكَلكُم إلى الكافي الذي وجده ضالاً فهداه ، وعائلاً فأغناه ، ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. والله لا أَدَعُ أن أقاتِلَ على أمر الله حتىٰ يُنجزَ الله وعدَه ، ويوفي لنا عهدَه ، ويُقتل مَن قُتل منا شهيداً من أهل الجنة ، ويبقى من بقي منا خليفته ، وورثته في أرضه. قضاء الله الحق ، وقوله الذي لا خُلْفَ له: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]). ثم نزل رحمه الله[2] .

---

(١) عبقرية الصديق ، ص ٩٥ .

(٢) أخرجه ابن عساكر ، ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨ ، وقد اختصرت بعضه ، ٤٣٠؛ وهو في البداية والنهاية: ٦/ ٣١١ ـ ٣١٢؛ وحياة الصحابة: ١/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤ .

وفي رواية عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن أبا بكر رضي الله عنه قال في خطبته : (والله لو منعوني عِقالاً مما كانوا يعطون رسولَ الله ﷺ ، ثم أقبل معهم الشجر والمَدَر والجن والإنس ؛ لجاهدتُهم حتى تلحق روحي بالله! إن الله لم يفرِّق بين الصلاة والزكاة ثم جمعهما . فكبَّر عمر وقال : والله قد علمتُ ، والله حين عزم الله لأبي بكر على قتالهم، أنه الحق)[١] .

●● لقد كانت حروب الردة واحدة من مفاخر الصديق الكبرى غير مُدَافَع ، بل هي من مفاخره الخاصة التي انفرد بها في تاريخ الدعوة الإسلامية بغير شريك[٢] .

إن هذا الموقف من الصديق فتح في الإسلام عظيم ، فتحه الله على أبي بكر ، ليكون معجزة من معجزات النبوة ، أمدَّ الله أبا بكر بقوة من عنده ، فاستطاع أن يقف أمام هذه الجزيرة الهائجة المائجة بالقبائل المرتدة ، وقد انفجرت كما ينفجر البركان ، وأَخذتْ عليه كلَّ سبيلٍ ، وهتفت به متمردة ثائرة تقول :

أَطَعْنا رسولَ الله إذ كان بيننا فيا لَعباد الله ما لأبي بكر!
أيورِثها بكْراً إذا مات بعدَه وتلك لعمرُ الله قاصمةُ الظهرِ[٣]

يقول الشيخ العلامة علي الطنطاوي رحمه الله تعالى :

(لقد قال الصديق الكلمة الحاسمة في التاريخ الإنساني ، والكلمة التي أنشأت الحضارة الإسلامية ، الكلمة التي بَنَت دولاً وهدَّت دولاً

---

(١) كنز العمال: ٣/ ١٤٢؛ حياة الصحابة: ١/ ٤٣٣ .
(٢) عبقرية الصديق ، ص ٨٨ .
(٣) أبو بكر الصديق ، للطنطاوي ، ص ١٨١ .

وثبَّتَ الله بها الإسلام ، فكانت من آيات الله الباهرة على نبوة محمد ﷺ ، ومرَّ عليها إلى اليوم ألف وثلاث مئة وواحد وأربعون عاماً[1] ، ولم تفقد بعد روعتها ، بل هي جديدة حيَّة في نفس كل مسلم كأنَّما نطق بها الصدِّيق الأعظم أمس.

قال: والله لو منعوني عِقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه بالسيف ، ولو تخليتم عني لجاهدتهم وحدي!.

ثمَّ خرج إليهم بنفسه ، ورتب الجيوش لقتالهم ، فلم تكن إلاَّ هُنيَّات حتى خضعت الجزيرة المرة الثانية في التاريخ ، ثم أَخضعت ـ إذ خضعت للحق ـ العالمَ.

أمَا إني لست أعرف فيما قرأتُ من كتب التاريخ عظيماً من العظماء في أمة من الأمم وقف مثل موقف أبي بكر ، وقد يقف رجل وحده أمام أمة يقاتلها وتقاتله باللسان والقلم ثم لا يبالي ، أظفرت به أم ظفر بها ، وقد يُقْدِم فارس شجاع على جيش كبير ، فيقاتل مستميتاً ثم يُقتل ولا يصنع شيئاً ، أمَّا أن يقف رجل واحد أمام أمة ثائرة على مبدأ من المبادئ تدافع عن عقيدة استقرت في نفوسها ، وخالطت دمها ولحمها ، وجرَّدت للدفاع عنها سيوفها وألسنتها ، وباعت في سبيلها حياتها ، ثم تكون له الغلبة على أجسامها حتى تخضع له ، وعلى قلوبها حتى ترجع عن عقيدتها . . . فأمر لم يقع ـ بعد الأنبياء والمرسلين ـ إلا لأبي بكر!.

وقد يكون في أمة رجال أشداء ، ذوو صلابة وعزم ، ومَضاء وحزم ، يُقْدِمون على العظائم ، ويصمدون للشدائد ، ولكني لا أعرف عظيماً

(١) يقول هذا وقت تأليف كتابه.

من العظماء في أمة من الأمم ، ينازل وحده أمة ، ويغلبها ويقوى عليها ، ويَنزل به ما لو نزل بالجبال الراسيات لَهاضَها ، فلا ينال منه ولا يميله! حتى إذا زالت الشدة وأصبح سيد الجزيرة والشام والعراق؛ غدا فرعى غنم أهله ، وحَلَبَ للحي أغنامهم وقال للجارية التي ظنت أنَّه لن يفعل: بلى لعمري لأحلبنَّها لكم ، وإني لأرجو أن لا يغيِّرني ما دخلت فيه!.

رحمك الله يا أبا بكر ورضي عنك ، فإنك عظيم من العظماء ، وإنما العظيم عظيم في الناس)[١].

لقد كان الصديق منحةً ربانية لهذه الأمة ، حمل الأمانة الكبرى بعد صاحب الرسالة ﷺ ، وتحوَّلت المِحن على يديه إلى مِنح ، وأضاءَ السبيل ، وثبَّت أعلام الهداية ، ورسَّخ أركانَ الدين.

ثالثاً: الدفاع عن مركز الدولة وتجييش الجيوش:

●● اجتمعت قبائل عَبْس وذُبيان ومن انضم إليهم من بني كِنانة وغطفان وفَزارة وأقاموا على مقربة من المدينة ، ثم انقسموا فرقتين: أقامت إحداهما بالأبْرق من الرَّبَذة ، وسارت الأخرى إلى ذي القَصَّة[٢] أقرب محلة من المدينة على طريق نجد.

وأرسل رؤساء هذه الجموع وفوداً نزلوا على وجوه الناس ، وتحمَّلوا بهم على أبي بكر على أن يقيموا الصلاة وألاَّ يؤتوا الزكاة ، فكان جواب أبي بكر: والله لو منعوني عِقالاً لجاهدتُهم عليه[٣].

---

(١) أبو بكر الصديق ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.

(٢) **ذو القصة**: موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٤٤؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣١٢.

ورجعت هذه الوفود إلى من بعثوهم ، بعدما اطلعوا على عورة المدينة وعرفوا أنها مكشوفة ، وأخبروهم بقلَّة أهل المدينة وأطمعوهم فيها!.

وأدرك الصديق منهم ذلك ، وقرأ في وجوههم الغدر ، فجعل على أنقاب المدينة نفراً: عليّاً والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود ، وأمر أهلَ المدينة بحضورِ المسجدِ ، وقال لهم: إن الأرض كافرة ، وقد رأى وفدُهم منكم قلّة ، وإنكم لا تدرون أَلَيْلاً تُؤْتَون أم نهاراً ، وأدناهم منكم علىٰ بريد[1] . وقد كان القوم يأمُلون أن نقبل منهم ونوادِعَهم ، وقد أبينا عليهم ، ونبذنا إليهم عهدَهم ، فاستعِدوا وأعدوا[2] .

١ ـ خطة الصِّدِّيق:

ووضع الصديق الخطة على الوجه التالي:

١ ـ ألزم أهل المدينة بالمبيت في المسجد؛ حتى يكونوا على أكمل استعداد للدفاع.

٢ ـ نظَّم الحرس الذين يقومون على أنقاب المدينة ، ويبيتون حولها؛ حتى يدفعوا أي غارة قادمة.

٣ ـ عيَّن على الحرس أمراء ، هم: علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، رضي الله عنهم.

---

(١) البريد: يساوي (٢٢ كم) تقريباً.
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٤٥.

٤ ـ بعث الصديق إلى من كان حوله من القبائل التي ثبتت على الإسلام ، من أَسْلَم وغِفار ومُزينة وأَشْجَع وَجُهينة وكعب؛ يأمرهم بجهاد أهل الردة. فاستجابوا له حتى امتلأت المدينة المنورة بهم ، وكانت معهم الخيل والجمال التي وضعوها تحت تصرف الصديق. ومما يدل على كثرة رجال هذه القبائل وكبر حجم دعمها للصديق: أن جُهينة وحدها قدِمت في أربعمئة من رجالها ومعهم الظَّهر والخيل ، وساق عَمْرو بن مرة الجهني مئة بعير لإعانة المسلمين ، فوزعها أبو بكر في الناس[1] .

ولم يُخطِئ أبا بكر حَدْسُه ، فلم يلبث أهل المدينة إلا ثلاثاً ، حتى زحف عليهم مانعو الزكاة يريدون أن يُضعضعوا من عزمتهم للقتال ، فيتجاوز الخليفة عن هذا الفرض من فروض الإسلام. وأحس العسسُ المقيمون على مداخل المدينة مأتى القوم ، فنبهوا عليّاً والزبير وطلحة ومن معهم من الرجال. وأرسل هؤلاء إلى أبي بكر بالخبر ، فأجابهم أن الزموا أماكنكم ، وخرج في أهل المسجد على الإبل حتى بَلَغهم ، ثم خرجوا جميعاً يواجهون هؤلاء الذين يريدون أن يَلبسوا الليل للغدر بهم. ولم يكن يدور بخواطر أهل تلك القبائل أن سيقاومهم أحدٌ بعد الذي عرفوا من أمر المدينة وأهلها. فلما فاجأهم أبو بكر ومن معه ، أُخذوا فولّوا الأدبارَ ، فاتبعهم المسلمون حتى بلغوا ذا حُسًى! وكانت القبائل المرتدة قد تركت في هذه المحلّة مدداً من الرجال لعلهم يحتاجون إليهم ، وشعر هذا المدد بمجيء القوم منهزمين وباتباع المسلمين إياهم ، فوقف دون هؤلاء وأولئك ، ودار بين الفريقين في غَسَقِ الليل قتال لم

(١) الثابتون على الإسلام أيام فتنة الردة، للدكتور مهدي رزق الله ، ص٢١ ؛ أبو بكر الصديق ، للصلابي ، ص٢١٦ .

يتكشف لأحد منهم أثره. وكان الذين أقاموا بذي حُسًى من القبائل المرتدة قد جاؤوا بأنحاء[1] نفخوها وربطوها بالحبال ودفعوها بأرجلهم في وجوه إبل المسلمين وهم عليها ، ولم تكن هذه الإبل إبلَ حرب أَلِفَتْ مكايدَ القتال ، ولذلك نَفَرت براكبيها حتى دخلت بهم المدينة[2].

وظن القوم المرتدون بالمسلمين الوهَن ، فبعثوا إلى من بذي القَصَّة يخبرونهم بما حدث ، فأقبل أهل ذي القصة عليهم ، وتبادلوا وإياهم الرأي ، وعزموا على أن لا يذروا المدينة حتى يوادعهم أبو بكر على ما أرادوا.

أما أبو بكر والمسلمون معه فلم يغمض لهم تلك الليلة جفن ، بل بات يتهيأ ، فعبَّى الناسَ ، ثم خرج على تَعْبِيَةٍ من أعجاز ليلته يمشي ، وعلى ميمنته النُّعمان بن مُقَرِّن ، وعلى ميسرته عبد الله بن مقرِّن ، وعلى الساقة سُويد بن مقرِّن معه الرِّكاب ، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد. فما سمعوا للمسلمين هَمْساً ولا حِسّاً حتى وضعوا فيهم السيوف ، فاقتتلوا أعجازَ ليلتهم ، فما ذَرَّ قَرْن الشمس حتى ولَّوهم الأدبار ، وغلبوهم على عامة ظَهْرِهم[3] ، وقُتل حِبال[4] ، واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القَصَّة ، وكان أول الفتح.

قال زياد بن حنظلة التميمي :

---

(١) **الأَنْحاء**: جمع نِحْي ، وهي أوعية من جلود.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/٢٤٥؛ البداية والنهاية: ٦/٣١٣؛ الصديق أبو بكر ، ص ٨٤. **ذو حسى**: واد بأرض عبس وغطفان.

(٣) **الظهر من الدوابّ**: ما يُحمل عليه الأثقال أو يُركب عليه.

(٤) هو أخو طُليحة الأسدي.

أَقَمْنا لهم عُرْضَ الشّمالِ فَكُبْكِبوا ... كَكَبْكَبَةِ الغُزّى أَنَاخُوا علىٰ الوَفْرِ
فما صَبَرُوا للحربِ عند قيامِها ... صبيحةَ يَسْمو بالرِّجالِ أبو بكرِ
طَرَقْنا بَني عَبْسٍ بأَدْنى نِبَاجِها ... وَذُبْيَانَ نَهْنَهْنَا بقاصمةِ الظَّهْرِ[1]

٢ ـ نزول النصر، وتراجع بعض القبائل عن ردَّتهم ومجيء صدقاتهم:

كانت تلك الوقعة من أكبر العون علىٰ نصر الإسلام وأهله؛ وذلك أنه عز المسلمون في كل قبيلة، وذلَّ الكفار في كل قبيلة، ورجع أبو بكر إلى المدينة مؤيداً منصوراً سالماً غانماً[2].

وطَرقتِ المدينة في الليل صدقاتُ بعض القبائل يؤدون الزكاة إلى خليفة رسول الله ﷺ، إثر انتصاره بذي القصة! فكان أول الذين أقبلوا يؤدون الزكاة صفوان والزِّبْرِقان من زعماء بني تميم، وعدي بن حاتم عن قومه طيئ، وذلك على رأس ستين ليلة من متوفى رسول الله ﷺ ومخرج جيش أسامة.

وقدِم أسامة بعد ذلك بأيام، فدخل البِشْر على المسلمين من جهتين، وتضافرت الأقدار على عزة الإسلام والمسلمين بنصر ذي القصة ومجيء جيش أسامة يحمل رايات العزة والنصر، فاستخلفه أبو بكر علىٰ المدينة، قال له ولجنده: أَريحوا، وأريحوا ظَهْركم[3].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣١٣ ـ ٣١٤.
(٢) البداية والنهاية: ٦/ ٣١٤.
(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٤٧؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣١٤.

٣ ـ أبو بكر يخرج تارة أخرى لقتال مانعي الزكاة:

ورأى الصديق في حصافته وشجاعته ودقة تقديره للأمور؛ أن لا يُريح أعداءه، وأن يضاعف ذِلَّتهم، فاستخلَف أسامة على المدينة، ونادى في رجاله الأولين بالخروج معه إلى ذي القَصَّة!.

فقال له المسلمون: نَنْشُدكَ الله يا خليفةَ رسول الله أن تعرِّض نفسك، فإنك إنْ تُصَبْ لم يكن للناس نِظام، ومقامُك أشدُّ على العدو، فابعث رجلاً، فإن أُصِيب أمَّرتَ آخر، فقال: لا والله لا أفعلُ، ولأواسِينّكم بنفسي!.

فخرج في تعبيته إلى ذي حُسًى وذي القَصَّة، والنعمان وعبد الله وسويد بنو مقرِّن على ما كانوا عليه، حتى نزل على أهل الرَّبَذة بالأَبْرق، فاقتتلوا، فهزم الله الحارث وعوفاً، وأُخِذ الحطيئةُ أسيراً، فطارت عَبْس وبنو بكر. وأقام أبو بكر على الأبرق أياماً، وقد غلب بني ذُبيان على البلاد، وقال: حرام على بني ذُبيان أن يتملكوا هذه البلاد إذ غَنَّمنَاهَا الله! وأجْلاَها.

ولحِقتْ فلول عَبْس وذُبيان بطُليحة بن خويلد الأسدي وقد نزل على بُزَاخةٍ[1].

وبعدما جَمَّ جيش أسامة واستراحوا، ركب الصديق أيضاً في الجيوش الإسلامية شاهراً سيفه مسلولاً، من المدينة إلى ذي القصة، وعلي بن أبي طالب يقود براحلة الصديق رضي الله عنهما، فسأله الصحابة، منهم علي وغيره، وألَحّوا عليه أن يرجع إلى المدينة، وأن

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣١٤.

يبعث لقتال الأعراب غيره ممن يؤمِّره من الشجعان الأبطال ، فأجابهم إلى ذلك ، وعقد لهم الألوية لأحد عشر أميراً[1].

عن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها قالت: (خرج أبي شاهراً سيفَه راكباً على راحلته إلى ذي القَصَّة ، فجاء علي بن أبي طالب فأخذ بزمام راحلته ، فقال: إلى أين يا خليفة رسول الله ﷺ؟ أقولُ لك ما قالَ لكَ رسولُ الله ﷺ يوم أُحد: «**شِمْ سيفَك ، ولا تَفْجَعْنا بنفسك**» ، فوالله لئن أُصِبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبداً. فرجع ، وأمضى الجيش)[2].

هكذا كان هذا الخليفة العظيم ، رجلٌ قد بلغ الحادية والستين من عمره ، يلقي بنفسه في قلب المعركة ، والأرض كافرة ، والغدر يحيط بهم من كل مكان ، فلا يأبه بذلك ، ويخرج على رأس جيش من شبان الصحابة ، وكهولهم وشيوخهم ثلاث مرار ، في غَسَقِ الليل ووضح النهار ، ليقارع المرتدين ويثبت أركان الدين.

٤ ـ الصديق يعقد الألوية ويسيِّر الجيوش للحرب الشاملة:

بعد أن انكسرت القبائل التي منعت الزكاة والتي كانت قريبة من المدينة المنورة وطامعة فيها ، وأَلْقَت عصا الطاعة صاغرةً ، وأَرسلتْ صدقاتها بعد ذلك طائعة ـ توجَّه عزم الخليفة إلى الحرب الشاملة للمرتدين ومقارعتهم في ديارهم. فأبقى في المدينة قوة تحميها ، حيث أضحت في مأمنٍ من غارة المغيرين ، وكيف تسوِّل لأحد نفسه أن يغير

---

(١) البداية والنهاية: ٦/ ٣١٤ ـ ٣١٥.

(٢) أخرجه ابن عساكر وغيره ، وقد تقدم مع تخريجه: ص٤٥٠ في هذا الكتاب. شِمْ: أَغمِد.

على المدينة وقد عَلِمَ ما عليه جند صحابة النبي ﷺ من الأَيْد والبسالة؟! زِدْ على هذا أن الجيوش تخرج منها إلىٰ كل صوب!.

وزَّع الصديق جنده أحد عشر جيشاً على كل منها أمير، وأصدر أمره إلى كل منهم أن يستنفر من يمرُّ به من المسلمين، وينضم إليه الثابتون على الإسلام في كل صُقْع وقبيلة.

ووزّع أبو بكر هذه الجيوش توزيعاً يجعلها تتناسب في عددها وشكيمة أمرائها مع قوة القبائل التي وجهها إليها ومبلغ عنادها وإلحاحها في الردة؛ فخصَّص ثمانية ألوية للجنوب والشرق بسبب تركز غالبية المرتدين والمتنبئين وكثافتهم العددية في تلك الأصقاع، في حين وجّه ثلاثة جيوش إلى شمال المدينة[1]:

١ ـ **جيش بقيادة خالد بن الوليد**: توجَّه إلى طُليحة بن خُويلد الأَسَدي وقومه، ثم إلى مالك بن نُويرة مع بني تميم، ثم إلى مُسَيْلِمة وبني حَنيفة في اليَمَامة (قرب مدينة الرياض حاليّاً).

٢ ـ ٣ ـ **عِكْرِمة بن أبي جهل وشُرَحْبيل بن حَسَنة**: إلى مسليمة الكذاب في اليمامة.

٤ ـ **عَمْرو بن العاص**: إلى جماع قُضَاعة ووديعة والحارث، شمال غرب السعودية قريباً من دُومة الجَنْدل.

٥ ـ **خالد بن سعيد بن العاص**: إلى مشارف الشام.

٦ ـ **طُرَيْفة بن حاجز**: إلى بني سُليم ومن معهم من هوازن، شرقي مكة والطائف.

---

(١) انظر: الخارطة: ص٥١١.

٧ ـ **العلاء بن الحَضْرمي**: إلى البحرين ، وهي المنطقة الشرقية في السعودية (الأحساء) ، وفيها الظَّهْران والقَطِيف ودارين وغيرها.

٨ ـ **حُذيفة بن مِحْصَن الغَلْفاني**: إلى دَبَا وصُحَار من عُمَان ، على بحر العرب.

٩ ـ **عَرْفَجة بن هَرْثمة**: إلى مَهْرة ، في حَضْرَموت قرب مدينة مِرْباط العُمانية على بحر العرب.

١٠ ـ **المُهاجِر بن أبي أمية**: إلى الأَسْود العَنْسي في اليمن جنوب نَجْران ، ومن ثم إلى حضرموت.

١١ ـ **سُويد بن مُقَرِّن**: إلى تِهامة اليمن ، وهي المناطق الغربية من اليمن المحاذية للبحر الأحمر ، مجتازاً عَكّ والمَخَا إلى تَعزّ[١].

وأرسل أبو بكر إلى سائر المرتدين كتاباً عامّاً ذا نصٍّ واحدٍ واضحٍ محدَّد ، سبقت الرسلُ به الجيوشَ ، تضمَّن تذكيراً ونُصحاً وترهيباً ، وأَمر بنشره على أوسع نطاق ممكن ، في أوساط مَن ثبتوا على الإسلام ومن ارتدوا عنه جميعاً ، قبل تسيير قواته لمحاربة الردَّة ، وبعث رجالاً إلى محل القبائل وأَمَرهم بقراءة كتابه في كل مجتمعٍ ، وناشَد من يصله مضمون الكتاب بتبليغه لمن لم يصل إليه ، وحدَّد الجمهورَ المخاطَب به بأنه: العامة ، والخاصة من أقام على إسلامه ، أو رجع عنه[٢].

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٤٩؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣١٥؛ كتابي: نبوءات الرسول ﷺ ، نبوءة رقم (٢٣).

(٢) الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام ، للسيد عمر ، ص٢٦٢؛ أبو بكر الصديق ، للصلابي ، ص ٢٢٩.

والكتاب طويل نجتزئ منه بالمقصود:

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبي بكر خليفة رسولِ الله ﷺ إلى مَن بَلَغه كتابي هذا من عامَّةٍ وخاصَّةٍ ، أقام على إسلامه أو رجع عنه: سلامٌ على من اتبع الهدى ، ولم يرجِع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى ، فإني أحمدُ إليكم الله الذي لا إلـه إلا هو ، وأشهدُ أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، نُقِرُّ بما جاء به ، ونُكفِّر من أبى ، ونجاهِدُه. **أما بعدُ**:

فإن الله تعالى أرسل محمداً بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، لِينذرَ من كان حيّاً ويَحقَّ القولُ على الكافرين. . .

وقد بَلَغني رجوعُ مَن رجع منكم عن دينه بعد أن أقرَّ بالإسلام وعمل به ، اغتراراً بالله ، وجهالةً بأمره ، وإجابةً للشيطان ، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠] ، وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦].

وإني بعثتُ إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وأمرتُه ألا يقاتلَ أحداً ولا يقتلَه حتى يدعوَه إلى داعية الله ، فمن استجابَ له وأقرَّ وكَفَّ وعملَ صالحاً؛ قَبِلَ منه وأعانه عليه ، ومَنْ أبى أمرتُ أن يقاتِلَه على ذلك ، ثم لا يُبقي على أحدٍ منهم قَدَرَ عليه ، وأن يُحرِّقهم بالنار ، ويقتلَهم كلَّ قِتْلةٍ ، وأن يَسبي النساء والذراريّ ،

ولا يقبل من أحد إلا الإسلامَ ، فمن اتَّبعه فهو خيرٌ له ، ومن تركه فلن يُعجز الله .

وقد أمرتُ رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم ، والداعية الأذان : فإذا أَذَّنَ المسلمون فأَذَّنُوا؛ كُفُّوا عنهم ، وإنْ لم يؤذِّنوا؛ عاجِلوهم ، وإنْ أذَّنوا اسأَلُوهم ما عليهم ، فإن أَبَوْا؛ عاجِلوهم ، وإنْ أقرّوا قَبِل منهم وحَمَلَهم على ما ينبغي لهم)[1] .

كذلك حدَّد أبو بكر للقادة والجند أهدافاً واحدة واضحة ومنهجاً سديداً؛ يهتدي الجميعُ بهُداه وينضبطون بضوابطه ، كما يقتضيه هديُ الكتاب العزيز وعملُ النبي ﷺ في جهاده وحروبه .

وجاء في نص كتابه إلى قادة جيوش المسلمين :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا عهدٌ من أبي بكر خليفةِ رسولِ الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام ، وعهِدَ إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سرِّه وعلانيته ، وأمره بالجدِّ في أمر الله ، ومجاهدة مَن تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان ، بعد أن يعذِر إليهم فيدعوَهم بداعية الإسلام ، فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شنَّ غارته عليهم حتى يُقِرُّوا له . ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم ، فيأخذ ما عليهم ، ويعطيهم الذي لهم ، لا يُنظِرهم ، ولا يردّ المسلمين عن قتال عدوهم ، فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقرَّ له ، قَبِلَ ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف . وإنما يُقاتَل مَن كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله ، فإذا أجاب الدعوة

(١) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٥٠ ـ ٢٥١؛ البداية والنهاية : ٦/ ٣١٥ ـ ٣١٦.

لم يكن عليه سبيل ، وكـان الله حسيبَه بعد فيما استسرَّ بـه ، ومَنْ لم يجب داعية الله قُتل وقوتل حيث كـان ، وحيث بلغ مُراغَمه . لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام ، فمن أجابه وأقرَّ قَبِلَ منه وعلَّمه ، ومن أبى قاتله ، فإن أظهره الله عليه قتل منهم كلَّ قِتْلة بالسلاح والنيران ، ثم قسم ما أفاء الله عليه ، إلا الخمس فإنه يُبلِّغناه . وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وألا يُدخل فيهم حَشْواً حتى يَعرفهم ويعلم ما هم؛ لا يكونوا عيوناً ، ولئلا يؤتى المسلمون من قِبَلهم ، وأن يقتصد بالمسلمين ويَرفُق بهم في السير والمنزل ، ويتفقّدهم ، ولا يُعجِل بعضَهم على بعض ، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصحبة ولينِ القول)[1] .

وهذان الكتابـان سبق المسلمون بهما الـعـالم في تحديد صفـات القتال وشرائطه وضوابطه ، وحقوق الناس المدعوِّين إلى الإسلام ولو كـانوا مرتدين ، وإنظـارهم للتفكير والمراجعة وتقليب الآراء والنزوع عن البـاطـل ، واحتـرام الـدمـاء ، والبعـد عـن الفسـاد فـي الأمـوال والثروات ، وواجبات القادة والجنود الفاتحين ، وانضباطهم بميزان الشرع .

وهذا ما لم يعرفه الناس آنذاك ، وحتى بعد صدور (ميثاق حقوق الإنسان) الذي يخـالـفـه كثير من واضعيه والموقعين عليه في كثير من بلدان العالم وخـاصة بلاد العرب والمسلمين كمـا نرى ونسمع كل يـوم! .

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٥١ ـ ٢٥٢ . حشواً: طائفة من الناس نأوا ناحية وانعزلوا ، فهم غير معروفين .

رابعاً: بيان موجز لحركات الارتداد والتنبؤ ومجاهدتها ووأدها وإطفاء نارها:

١ ـ فتنة الأَسْوَد العَنْسيّ وردَّة اليمن:

الأسود: اسمه عَبْهَلَة بن كعب بن غوث بن صعب بن مالك بن عَنْس العَنْسي المَذْحجي المتنبِّئ الكذّاب[١].

●● كانت اليمن حين بُعث النبي ﷺ تابعةً لكسرى، ولمَّا كَتب رسول الله ﷺ الكتب إلى الملوك والرؤساء، بَعث بكتاب إلى كسرى، فمزَّقه وأَمر عامله على اليمن واسمه (باذام) ـ وبعضهم يقول: (باذان) ـ أن يُرسِل رجلين إلى المدينة ليأخذا النبي ﷺ مقيداً ويبعثه إلى كسرى! هكذا بغطرسته الحمقاء، وكبريائه! لكن (باذام) كان أميراً عاقلاً، فسيَّر رجلين وأمرهما أن يَنظرا في أمر رسول الله ﷺ. فلما وفدا إليه، وجدا من هَدْيه ما سَلَب لبَّهما، فعادا إلى باذام بالخبر.

فوقع الإسلام في قلب باذام، وقُتل كسرى، وقام بالأمر بعده ابنُه شِيرويه، وكتب إلى باذام: أن خُذْ لي البيعة ممن قِبَلك، واعْمِد إلى ذلك الرجل ـ يعني: النبي ﷺ ـ فلا تُهِنْه، وأكرِمْه. فدخل الإسلام في قلب باذام وذريته من أبناء فارس ممن باليمن، وبعث إلى الرسول ﷺ بإسلامه، فبعث إليه رسولُ الله ﷺ بنيابة اليمن بكمالها، فلم يعزله عنها حتى مات، فلما مات استناب ﷺ ابنَه شهر بن باذام على صنعاء وبعض

---

(١) انظر أخباره في: تاريخ الطبري: ٣/ ٢٢٧ ـ ٢٤٠؛ تاريخ الإسلام ـ عهد الخلفاء الراشدين، ص١٤ ـ ١٩؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٠٥ ـ ٣١٠. وقد لخصتها في كتابي: نبوءات الرسول ﷺ، نبوءة رقم (١١٢).

مَخَاليف اليمن ، وبَعث طائفة من أصحابه نواباً على مَخَاليف أخر[١].

ومن أولئك الصحابة: أبو موسى الأشعري ، ويعلى بن أمية ، والطاهر بن أبي هالة ، وخالد بن سعيد بن العاص ، ومعاذ بن جبل وكان معلِّماً لأهل اليمن وحضرموت.

●● فبينما هم كذلك نَجَمَ هذا اللعين الأسود العَنْسي ، وادَّعَى النبوة في بلد يُقال له: (كَهْف خُبَّان) ، وتهدَّد المسلمين قائلاً: أيها المتورِّدون علينا ، أَمْسِكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ، ووفِّروا ما جمعتم ، فنحن أولى به ، وأنتم على ما أنتم عليه[٢].

وراسلَه نصارى نَجْران وناصروه ، فركب إليهم فأخذ نَجْران ، ثم قصد إلى صنعاء في (سبعمئة فارس) سوى الرُّكْبان ، فخرج إليه شهر بن باذام فتقاتلا ، فغلبه الأسود وقتله وتزوَّج امرأته ، وكَسَرَ جيشه من الأَبْناء[٣] ، واحتل صنعاء. وجعل أمرُه يستطير ويستغلظ حتى استوسَقَتْ له بلاد كثيرة ، وامتدَّ سلطانه حتى غلب على ما بين مَفَازة حضرموت إلى الطائف إلى الأحساء إلى عدن[٤]!.

واشتدَّ مُلْكه واستغلَظ أمرُه ، وارتدَّ خلق من أهل اليمن ، وعامَلَه المسلمون الذين هناك بالتَّقِيَّة! وكان خليفته على مَذْحِج عَمْرو بن مَعْدِي

---

(١) البداية والنهاية: ٦/٣٠٧. **والمخاليف**: جمع المِخْلاف ، وهو الكُورة ، كالمديرية أو المحافظة الآن.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/٢٢٩؛ البداية والنهاية: ٦/٣٠٧.

(٣) تزوَّج الفرس الذين كانوا باليمن بالنساء اليمانيات ، فسُمِّي أولادهم: الأبناء.

(٤) انظر: تاريخ الطبري: ٣/٢٢٩ ـ ٢٣٠.

كَرِب ، وأَسند أمرَ الجُنْد إلى قيس بن عبد يَغُوث ، وأسند أمر الأبناء إلى فيروز الدَّيْلمي وداذَوَيْه ، وتزوَّج بامرأة شهر بن باذام ، وهي ابنة عمِّ فيروز الديلمي ، وكانت امرأة حسناء جميلة ، وهي مؤمنة بالله ورسوله ﷺ ومن الصالحات[1].

●● وحين بَلَغَ خبرُ الأسود رسولَ الله ﷺ بعث كتاباً إلى الصحابة يأمر المسلمين الذين هناك بمقاتلة الأسود ومصاولته. فقام معاذ بن جبل بهذا الكتاب أتم القيام ، وكان تزوج امرأة من (السَّكُون) فحَدَبُوا عليه وناصروه وقاموا معه في ذلك ، وبلَّغوا هذا الكتاب إلى عمال النبي ﷺ ومن قدروا عليه من الناس ، واتفق اجتماعُهم بقَيْس بن عبد يَغُوث أمير الجُنْد ـ وكان قد غَضِب عليه الأسودُ ، واستخفَّ به ، وهَمَّ بقتلِه ـ وكذلك كان أمرُ فيروز الدَّيْلَمي قد ضَعُف عنده أيضاً ، وكذا داذَوَيْه ، فتوافقوا جميعاً على الفتك بالأسود وتعاقدوا عليه[2].

واتفق الرَّهْط: قَيْس بنُ مَكْشُوح وفيروز وداذَوَيْه مع امرأة الأسود المسلمة الصالحة على قتله ، ومَالأتْهم هذه المرأة ووطَّأتْ لهم السبيل لتحقيقه.

فاجتمعوا بها ، والحرس محيطون بالقصر يحفظون الأسود ، فدَلَّتْهم على باب ليدخلوا منه وَيَنْقُبوا عليه ، وهيَّأت لهم سِراجاً ، فجاؤوه بالليل وقد نام وله غَطيط شديد ، فعاجَلَه فيروزُ الديلمي وأخذ برأسه ودقَّ عنقه

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٣٠؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٠٨. **وقيس بن عبد يغوث**: هو المعروف بقيس بن مَكْشُوح.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٣٠ ـ ٢٣٢؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٠٨.

ووضع ركبتيه في ظهره حتى قتله ، وأراد أن يحتَزَّ رأسه فحرَّكه الشيطان ، فجلس اثنان على صدره ، وأمرَّ الشَّفْرة على حَلْقه فخارَ كالثور ، فابتدر الحرس البابَ وهم حول المقصورة ، فقالوا: ما هذا؟! ما هذا؟! فقالت المرأة: النبي يُوحى إليه! فخَمَدَ.

وفي الصباح نادى قيسٌ بشعارِهم ، فاجتمع المسلمون والكافرون ، ثم نادى بالأذان وقال: أشهد أن محمداً رسولُ الله ، وأن عَبْهلة كذَّاب ، وألقىٰ إليهم رأسه!.

فانهزم أصحابه ، وتبعهم الناس يأخذونهم ويَرصدونهم في كل طريق يأسِرونهم ، وظهر الإسلامُ وأهلُه ، وتراجَعَ نوَّاب رسول الله ﷺ إلى أعمالهم ، واتفقوا على معاذ بن جبل يصلي بالناس ، وكتبوا بالخبر إلى رسول الله ﷺ.

ووصلَ الرسولُ بالكتاب إلى المدينة النبوية وقد قُبض النبي ﷺ صبيحة تلك الليلة.

وكانت مدة مُلْك هذا الخبيث وفتنته منذ ظهر إلى أن قُتل أربعة أشهر[1].

●● ولما بَلَغَ اليمنَ خبرُ موت النبي ﷺ ، طمع قيس بن مَكْشُوح بالإمرة ، فعمل لذلك ، وارتدَّ عن الإسلام ، وتابعه عوام أهل اليمن ، وعمل على قتل فيروز وداذويه!.

وكتب أبو بكر إلى الأمراء والرؤساء من أهل اليمن أن يكونوا عوناً لفيروز والأبناء على قيس بن مَكْشُوح ، حتى تأتيهم جنوده سريعاً.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٣٢ ـ ٢٣٦؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٠٨ ـ ٣١٠.

وحَرِص قيسٌ علىٰ قتل فيروز وداذَوَيْه ، فلم يقدر إلا على داذَوَيْه واحترز منه فيروز الديلمي ، وذلك أنه عمل طعاماً وأرسل إلى داذَوَيْه أولاً ، فلما جاءه عجل عليه فقتله ، ثم أرسل إلى فيروز ليحضر عنده ، فلما كان ببعض الطريق سمع امرأة تقول لأخرى: وهذا أيضاً والله مقتول كما قُتل صاحبه! فرجع من الطريق وأخبر أصحابه بقتل داذَوَيْه.

وخرج فيروز إلى أخواله (خَوْلان) فتحصَّن عندهم ، وساعدتْه: بنو عُقَيْل وعَكّ وخلقٌ ، وعمد قيس إلى ذراريِّ فيروز وداذويه والأبناء فأَجْلاَهم عن اليمن ، وأرسل طائفة في البر وطائفة في البحر! فقام فيروز في حربه وتجرَّد لها ، فخرج في خلق كثير ، والتقى هو وقيس ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فهزم قيساً وجنده من العوام وبقية جند الأسود العنسي ، فهزموا في كل وجه[1].

وكان عَمْرو بن مَعْدِي كَرِب قد ارتدَّ ، وانضم إلى قيس بن مَكْشُوح واتحدا ، ثم تنازعا واختلفا.

وقَدِم عِكْرِمة بن أبي جهل من عُمان سائراً نحو اليمن في بشر كثير ، وكذلك انحدر إليها المهاجر بن أبي أمية من المدينة ، وانضم إليهما الثابتون على الإسلام، وقاما بتطهير اليمن من المرتدين في معارك كثيرة.

وأقبل عَمْرو بن مَعْدِ يكَرِب على المهاجر مستجيباً فأوثقه ، وتمكَّن من قيس بن مَكْشوح كذلك ، فأوثقهما المهاجرُ وَبعث بهما إلى الصديق ، فقَدِما عليه أسيرين ، فعنَّفَهما وأنَّبهما ، فاعتذرا إليه ، فقبِل

(١) انظر: تاريخ الطبري: ٣/ ٣٢٣ ـ ٣٣٠؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٣١.

منهما علانيتهما ، ووكل سرائرهما إلى الله تعالى ، وأطلق سراحهما وردَّهما إلى قومهما .

ورجعت عمال رسول الله ﷺ الذين كانوا باليمن إلى أماكنهم التي كانوا عليها في حياته ﷺ[1] .

وتخلصت اليمن من مظاهر التنبؤ والردة ، وأصبحت من ركائز الدولة الإسلامية في الجهاد والعلم والإيمان .

٢ ـ فِتنةُ طليحة الأَسَدي والقضاء على ردته ، وعودتُه إلى الإسلام[2] :

كانت قبيلة غَطَفان التي تسكن شرقي خيبر تسيطر على شمال الحجاز بتحالفها مع قبيلة طيئ ويهود خيبر ، فلما سقطت خيبر سنة (٧هـ) بيد رسول الله ﷺ ، وأخذ الرسول ﷺ يوجِّه الحملات نحو الشمال ، ضَعُف نفوذ غَطفان ، وحاول طُليحة بن خُويلد الأَسَدي أن يسيطر على شمال شبه الجزيرة عن طريق المحالفات بين قبيلة أَسَد وطيئ وفَزَارة ـ وهي أهم فروع غطفان ـ[3] .

وكان طليحة قد أسلم سنة (٩هـ) ، وقدِم مع وفد قومه على النبي ﷺ .

وفي آخر عهد النبوة ارتد طليحة فظَلَم نفسه ، ثم غالى فادعى النبوة ، ورُويت عنه في ذلك أَسْجاع لا نرى صحتها .

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/ ٣٢٨ ـ ٣٣٠ ؛ البداية والنهاية : ٦/ ٣٣١ .

(٢) انظر : تاريخ الطبري : ٣/ ٢٥٣ ـ ٢٦١ ؛ البداية والنهاية : ٦/ ٣١٧ ـ ٣١٩ ؛ سير أعلام النبلاء : ١/ ٣١٦ ـ ٣١٧ .

(٣) عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٠٠ .

وطليحة بطل فذٌّ يُعَدّ بألف فارس! وقد تعاظم أمره في أول خلافة الصديق ، فاجتمعت عليه أَسَد وغطفان وطيئ ، وكذلك بنو عَبْس وذُبيان الذين هُزموا في (ذي القَصَّة) انضموا إليه حيث هو في(البُزَاخَة).

ووجَّه أبو بكر خالد بن الوليد للقضاء على طليحة ، وبعث الصديق بين يدي خالد عديَّ بن حاتم إلىٰ قبيلته طيِّئ ليحاول إرجاعها إلى الحق.

فأسرع عديٌّ ودعا قومه وخوَّفهم ، فقالوا له: استقبِلْ خالداً فَنَهْنِهْه عنَّا ثلاثاً حتى نستخرج مَن لحق بالبُزَاخة منا ، فإنا إن خالفنا طليحة وهم في يده قتلهم أو ارتهنهم. فاستقبل عدي خالداً وهو بالسُّنْح ، وقال له: أَمْسِك عني ثلاثاً يجتمع لك خمسُمئة مقاتل تضرب بهم عدوك ، ففعل خالد. وأرسلت طيئ إلى إخوانهم ، فعادوا من بُزَاخة كالمدد لهم ، ولولا ذلك لم يتركوا ، وبذلك عادت طيئ إلى الإسلام.

وتوجه خالد ومن انضم إليه من طيئ وعددهم ألف راكب تلقاء بُزَاخة، وأرسل عُكَّاشة بن مِحْصَن وثابت بن أَقْرم طليعةً لقواته ، فقتلا أحدَ إخوة طليحة ، فلما بَلَغه مصرعُ أخيه خرج ومعه أخوه سلمة ، فقتلا عكاشة وثابتاً ثم رجعا. ومرَّ خالد في طريقه إلى بزاخة بعكاشة وثابت قتيلين!.

ثم سار خالد حتىٰ نزل بـ (أَجَا وسَلْمى)[1] ، فعبَّى جيشه هنالك ، والتقىٰ مع طليحة الأَسَدي بمكان يُقال له: (بُزَاخة) ، ووقفت أحياء كثيرة من الأعراب ينظرون على مَن تكون الدائرة. وجاء طليحة فيمن معه من قومه ومن التف معهم وانضاف إليهم ، وقد حضر معه عُيَينة بن حَصْن في سبعمئة من قومه بني فَزَارة ، واصطفَّ الناس للقتال ، وحمي وَطيسُ

---

(١) هما جبلان لطيئ ، يسمَّيان الآن: جبلا الشمّر ، وشمّر فخذٌ من طيئ.

المعركة ، وأيقنُ عُيينة بكذِب طليحة فنادى في قومه: يا بني فَزارة انصرِفوا فهذا والله كذاب! فانصرفوا ، وانهزم الناس عن طليحة! فلما جاءه المسلمون ركب على فرس كان قد أعدَّها له ، وأركب امرأته (النَّوَار) على بعير له ، ثم انهزم بها إلى الشام ، وتفرَّق جمعُه.

ثم عاد طليحة إلى الإسلام بعد ذلك ، وذهب إلى مكة معتمراً أيام الصديق واستحيى أن يواجهه مدة حياته! وقد رجع فشهد القتالَ مع خالد ، وكتب الصديق إلى خالد: أن استشره في الحرب ولا تؤمِّرْه! يعني معاملته له بنقيض ما كان قصده من الرياسة في الباطن ، وهذا من فقه الصديق رضي الله عنه وأرضاه[١].

٣ ـ ردة بني تميم ومقتل مالك بن نويرة وقصتهم مع سَجَاح[٢]:

كان رسول الله ﷺ قد أمَّر على بطون تميم أمراء ، منهم: الزِّبْرقان بن بدر ، ووكيع بن مالك ، ومالك بن نُويرة ، فلما توفي النبي ﷺ: كان منهم من ظل على الوفاء بما عاهد عليه الله فأرسل الزكاة إلى أبي بكر ، ومنهم من منعها كمالك بن نُويرة ، ومنهم المتردِّد في الأمر.

فبينما هم كذلك إذ أقبلَتْ سَجَاح بنت الحارث ، وهي تميمية من بني يَرْبُوع ، وأخوالها من بني تغلب بالعراق ، وقد تنصَّرت ، ثم ادَّعَت

(١) البداية والنهاية: ٦/ ٣١٧ ـ ٣١٨.

(٢) انظر: تاريخ الطبري: ٣/ ٢٦٧ ـ ٢٨٠؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٢١ ـ ٣٢٣؛ تاريخ أبي الفداء: ١/ ١٥٧ ـ ١٥٨؛ أباطيل يجب أن تمحىٰ من التاريخ ، ص ١١٦ ـ ١٢٢؛ قادة فتح العراق ، ص ١٠٣ ـ ١٠٩؛ خالد بن الوليد ، لمحمد الصادق عرجون ، ص ١٥٥ ـ ١٧٣.

النبوة! وجاءت معها جنودها من بني تغلب ومن التفَّ بهم ، وقد عزموا علىٰ غزو أبي بكر الصديق. فلما مرَّت ببلاد بني تميم في نَجْدٍ دَعَتْهم إلىٰ أمرها ، فاستجاب لها عامتهم ، وكان ممن استجاب لها : مالك بن نُويرة وعُطَارِد بن حاجب وجماعة من سادات أمراء بني تميم ثم توجهت إلىٰ اليمامة واصطلحت مع مُسَيْلِمة ، ويقال : إنها تزوجت به.

ولما فرغ خالد بن الوليد من طليحة ومن معه ، سار يريد مالك بن نُويرة في (البُطاح)[1] ، فلما وصلها بجيشه لم يجد فيها أحداً ، لأن مالك بن نويرة فرَّق رجالَه ونهاهم عن الاجتماع ، فبث خالد السرايا وأمرهم بداعية الإسلام وأن يأتوه بكل من لم يُجب داعي الحق ، فإذا امتنع قتلوه ، عملاً بوصية أبي بكر وما أوضحه في كتبه[2].

وجاءت السرية بمالك وصحبه ، فقال لخالد : أنا آتي بالصلاة دون الزكاة ، فقال خالد : أما علمتَ أن الصلاة والزكاة معاً ، لا تُقبل الواحدة دون الأخرىٰ؟! فقال مالك : قد كان صاحبكم يقول ذلك! فقال خالد : أَوَ ما تراه لك صاحباً؟! والله لقد هممتُ أن أضرب عنقك! ثم تجادلا في الكلام ، فقال خالد : إني قاتلك! فقال مالك : أَوَ بذلك أمرك صاحبك؟ قال : وهذه بعد تلك؟! ثم أمر بقتله.

واشترى خالد زوجة مالك من الفيء وأعتقها ، ثم تزوجها بعد أن حلّت[3].

---

(١) ماء لبني تميم.

(٢) انظر ما تقدم : ص٥٣٣ ـ ٥٣٥ في هذا الكتاب.

(٣) انظر : تاريخ الطبري : ٣/ ٢٧٨ ؛ تاريخ أبي الفداء : ١/ ١٥٨ ؛ البداية والنهاية : ٦/ ٣٢٢.

وقد رُويت في ردَّة مالك وبني يَرْبُوع روايات كثيرة متهافتة ، وسيقت أخبار واهية ، ونُسجت أكاذيب سمجة ، قد صنعتْها أيدي الكذابين ولم يأتِ منها شيء بسند متصل فضلاً عن أن يكون مروياً برجال ثقات[1].

وروَّج لهذه الروايات صاحبُ «الأغاني» واليعقوبي وغيرهما من القدامى ، وكثير من الكتَّاب المعاصرين! وقد تعرَّض لها غير واحد بالنقد والتمحيص ، وأفضل مَن بَهْرَجَها وبيَّن وَهاءَها ووضعها في سياقها التاريخي الصحيح العلامة الناقد المؤرخ محمد الصادق عرجون[2] ، ولا نطيل بذكرها لأنها بسيرة خالد أَلْيَق وأَلْصَق.

لسنا نشك أن الروايات المقبولة تدين مالكاً وتبرِّر قتله في نفر من أصحابه ، وتبرئ خالداً من دمائهم.

لنتذكر ماضي مالك بن نويرة القريب : ماضيه بعد وفاة رسول الله ﷺ؛ فقد منع الزكاة بعد وفاة النبي ﷺ، وأغار على إبل الصدقة، وفرَّق ما كان بيده منها ، وأنشد الشعر الذي أظهر به الردَّة عن الإسلام ، ووادع سَجَاحَ بنت الحارث التي ادعت النبوة ـ كل ذلك يدل على أنه ارتد عن الإسلام[3].

ونحن هنا على أمر في غاية الخطورة يتعلق بسيرة أبي بكر ، بل يسيء إليها ، بما اقترفتْه أيدي بعض الكتاب قديماً وحديثاً ، ومن هؤلاء الدكتور هيكل في كتابه «الصديق أبو بكر» ، وإنما ذكرناه مثالاً للباقين لِما لكتبه من سيرورة بين الناشئين والمثقفين ، ولِما يبدو في كتبه من فتنة

---

(١) كما يقول العلامة الكوثري في مقالاته ، ص٣١٢.

(٢) انظر كتابه : خالد بن الوليد ، ص ١٥٥ ـ ١٧٣.

(٣) قادة فتح العراق ، ص ١٠٧ ، وله تتمة جيدة.

بمنهج المستشرقين ، واتكائه على كتب الأدب والأَسْمار ونحوها ممن لا يوثق بأصحابها ولا بنقلهم.

ولقد زلَّ قلمه زلاّت قبيحة في حق سيف الله خالد ، وكفانا مؤنة الردِّ عليه العلامة محمد الصادق عرجون[1]. ونكتفي بتزييف ما قاله في حق الصديق وموقفه من قتل خالد مالكاً ، وزواجه بامرأته ، واختلاف أبي بكر مع عمر في الموقف من ذلك.

قال الدكتور هيكل: (أما أبو بكر فكان يرى الموقف أخطرَ من أن يُقام فيه لمثل هذه الأمور وزنٌ. وما قَتْلُ رجلٍ أو طائفة من الرجال لخطأ في التأويل أو لغير خطأ؟! والخطر محيط بالدولة كلها، والثورة ناشبة في بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها! وهذا القائد الذي يُتَّهم بأنه أخطأ من أعظم القوى التي يُدْفَع بها البلاء ويُتَّقى بها الخطر! وما التزوجُ من امرأة على خلاف تقاليد العرب، بل ما الدخولُ بها قبل أن يتم طُهْرها؛ إذا وقع ذلك من فاتح غزا، فَحُقَّ له بحكم الغزو أن تكون له سَبَايا يصبحن ملكَ يمينه؟! إن التزمُّتَ في تطبيق التشريع لا ينبغي أن يتناول النوابغَ والعظماء من أمثال خالد، وبخاصة إذا كان ذلك يضرُّ بالدولة أويعرِّضها للخطر!)[2].

هكذا يجنح فكر هيكل وقلمه فيجعل من الصديق رجلاً لا يبالي بإقامة حدود الله تعالى ، بل جعله رجلاً يهدر كرامة الشريعة الإسلامية ، ويعبث بحدودها! فهو ـ في نظر هيكل ـ يرى أن تطبيق الشريعة لا يتناول النوابغ

(١) انظر: كتابه خالد بن الوليد، ص ٢٩٧ ـ ٣١٨.

(٢) الصديق أبو بكر، ص ١٢٢. وقال نحو ذلك عبد الوهاب النجار في كتابه: الخلفاء الراشدون، ص٣٩، ووصف ذلك بأنه سياسة حكيمة، وهي سياسة الأمم العريقة في الاستعمار!.

والعظماء ، وإنما يطبق علىٰ العامة والدهماء.

أَفَنصدِّق أحدَ الخُلعاء من رواة أبي الفرج في «أغانيه» ، ونتهم خالداً بما نُسب إليه من قتل مالك ـ وهو على الإسلام ـ وأنه نزا على امرأته! ثم نتخطى خالداً ونتطاول بالاتهام إلى الخليفة الأعظم بأنه أَهْدر حدودَ الله وعطَّل أحكام الشريعة؟! فماذا أبقينا لخليفة رسول الله ﷺ ولقائده سيف الله؟! إنَّ كل فضيلة وراء هذا التصوير تنتهي إلى رذيلة[1]!.

أبو بكر الذي شهدَتْ كلُّ سِني عمره الالتزامَ التام والاتباعَ الفذ لكل أمر رباني ونبوي ، يصدر منه مثل هذا؟! سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم!.

لقد جاء الإسلام بحفظ الدماء ، وحماية الأعراض ، وصيانة الشرف ، ولم يتهاون في ذلك ولا فيما هو دونه ، فكيف يجوز لنا أن نجازف بالحقائق لنبرِّر ما ساقته أخبار ساقطة في حق أعظم رجلٍ في الإسلام بعد النبي ﷺ؟!.

٤ ـ ردة أهل عُمَان ومَهْرة[2]:

كانت عُمَان على عهد النبي ﷺ خاضعة لفارس ، ثم أسلم أهلها ، وكان أميرها جَيْفَر بن الجُلَنْدى ، فأرسل النبي ﷺ إليهم عَمْرو بن العاص يعلمهم الإسلام ويجمع الزكاة ، واتفق عمرو مع جيفر على قسمة أموال الزكاة بين فقراء بلاده.

فلما توفي ﷺ نَبَغَ فيهم ذو التاج لَقيط بن مالك الأَزْدي ، وادعى

---

(١) انظر: خالد بن الوليد ، لعرجون ، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٧.
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٣١٤ ـ ٣١٧؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٢٩ ـ ٣٣١.

النبوة ، وارتدَّ أهل عمان وتابعوه ، فتغلب عليها ، وقهر جَيْفراً وعبَّاداً ابني الجُلَنْدى ، ففرّا إلى الجبال ، وبعث جيفر إلى الصديق يخبره ، ويستعين به على ذي التاج .

وتشير بعض الروايات إلى تذمُّر أهل عُمان من الزكاة ، فقد قال قرَّة بن هُبيرة لعمرو بن العاص منصرفَه من عمان : (يا هذا! إن العرب لا تطيبُ لكم نفساً بالإتاوة ، فإن أنتم أعفيتموها من أخذِ أموالها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم!)[1] .

فوجَّه أبو بكر حُذيفة بن مِحْصَن الغَلْفاني إلى عُمان ، وعَرفَجة بن هَرْثَمة إلى مَهْرة ، وأمرهما أن يجتمعا ويتفقا ويبتدئا بعُمان ، وحذيفة هو الأمير ، فإذا ساروا إلىٰ مَهْرة فعرفجة هو الأمير .

وكان عِكْرِمة بن أبي جهل واجه مُسَيْلِمة الكذاب فنُكِب ، فلامَهُ الصديق على تعجُّله ، ثم أمره أن يلحق بحذيفة وعرفجة . فسار عكرمة لِما أمره به الصديق ، فلحق حذيفة وعرفجة قبل أن يصلا إلى عُمان ، وقد كتب إليهما الصديق أن ينتهيا إلى رأي عكرمة بعد الفراغ من السير من عمان أو المقام بها ، فساروا فلما اقتربوا من عمان راسلوا جَيْفراً .

وبَلَغَ لقيطَ بن مالك مجيءُ الجيش ، فخرج في جموعه فعسكر بمدينة يقال لها : (دَبَا)[2] ، وهي حاضرة تلك البلاد وسوقها العظمى ،

(١) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٥٩ .

(٢) هي الآن مدينة في دولة الإمارات العربية المتحدة في الجهة الشرقية على شاطئ خليج عمان ، وتبعد عن إمارة الفجيرة نحو (٦٠كم) .

وجعل الذراريَّ والأموال وراء ظهورهم ، ليكون أقوى لحربهم ، واجتمع جَيْفر وعبَّاد بمكان يقال له: (صُحَار)[1] ، فعسكرا به ، وبعثا إلى أمراء الصديق فقدِموا على المسلمين ، فتقابل الجيشان في (دَبَا) ، وتقاتلوا قتالاً شديداً ، وابتُلِي المسلمون وكادوا أن يولّوا ، فمنَّ الله بكرمه ولطفه أن بعث إليهم مَدَداً في الساعة الراهنة من بني ناجية وعبد القيس في جماعة من الأمراء ، فلما وصلوا إليهم كان الفتح والنصر ، فولّى المرتدون مدبرين ، وركب المسلمون ظهورهم ، وقضوا على ردتهم[2].

ولما فرغوا من أقصى الشرق من عُمان ، سار عكرمة بالجيش نحو الغرب إلى بلاد (مَهْرَة) ، حيث ارتد أهلها؛ فلما وصلهم وجَدَهم منقسمين على جندين: أحدهما عليه (شخريت) ، وعلى الآخر (المصبَّح) ، فاستمال عكرمةُ شخريتَ فرجع بمن معه إلى الحق وانضم إلى عكرمة ، وأصرَّ المصبَّح بمن معه على ردَّتهم ، فسار إليه عكرمة واقتتلوا قتالاً عنيفاً ، ثم فتح الله على المسلمين بالظفر والنصر. وجمع عكرمة أهل تلك النواحي فبايعوه على الإسلام ، وأرسل للصديق بخمس الغنائم ، وبشَّره بما فتح الله عليهم.

ثم تابع عكرمة بمن معه نحو حضرموت واليمن للتعاون مع المهاجر بن أبي أمية في القضاء على الردة هناك.

---

(١) هي منطقة كبيرة من سلطنة عمان تشاطئ خليج عمان ، وفيها مدينة صحار الساحلية ، وتمتد أراضيها لتتصل بإمارة الفجيرة شمالاً.

(٢) البداية والنهاية: ٦/ ٣٣٠.

٥ ـ ردة البحرين[(١)]:

كان بنو بكر وبنو عبد القيس من قبائل ربيعة يقيمون بالبحرين ، وكان ملكهم المنذر بن ساوَى العَبْدي ، وكان النبي ﷺ أرسل إليهم العلاء بن الحَضْرمي سنة (٩هـ) ، فأسلم المنذر وقومه وأقام فيهم الإسلام.

كذلك قدِم الجارود بن المُعَلّى ـ وهو سيد عبد القيس ـ على النبي ﷺ وأسلم ، وكان صلباً في دينه.

ومات رسول الله ﷺ ، ومات بعده بقليل في نفس الشهر المنذر رضي الله عنه ، فارتدَّ أهل البحرين إلا ما كان من عبد القيس حيث ثَبَّتهم سيِّدُهم الجارود ، فثبتوا على الإسلام جميعاً.

وملَّك أهلُ البحرين عليهم المنذر بن النعمان بن المنذر الملقَّب بالغَرور ، وتزعَّم حركة الردة الحُطَم بن ضُبَيْعة واستغوى كثيراً ممن يسكنون القَطِيف وهَجَر[(٢)] ، وحاصروا الجارود وقومه في بلدتهم (جُوَاثَى) ، وشددوا عليهم الحصار ، فثبتوا.

وفي أثناء ذلك جاء إلى البحرين العلاء بن الحَضْرمي على رأس جيش من الجيوش الأحد عشر التي سيَّرها الصديق لقتال المرتدين ، ولحِق بالعلاء حين مرَّ باليمامة ثُمَامةُ بن أُثَالٍ في جمع كبير من بني حَنيفة الذين آبوا إلى الإسلام. ولمّا دنا من البحرين انضمَّ إليه كثير من أمراء النواحي في أقوامهم ، واجتاز بادية الدَّهْناء (هي الربع الخالي الآن) وحصلت لهم

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٠١ ـ ٣١٣؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٢٧ ـ ٣٢٩. وقد مرّ التعريف بالمراد من (البحرين) الآن: ص٢٥٠ رقم (٧).

(٢) هي (الهفوف) اليوم.

هناك كرامة جليلة ذكرها أهل التواريخ.

ووصلوا البحرين واتصلوا بالجارود، وكان المرتدون في جمع عظيم، فقاتلوا الحُطَم شهراً دون التحام فاصل، وذات ليلة عَرف المسلمون أن المرتدين سَكِروا، فهاجموهم واصطدموا في قتال هائل، وقُتل الحُطَم، وفرَّ بعض المرتدين إلى (جزيرة دارين)[1] وهربوا على السفن، فلحِق بهم المسلمون واقتحموا (الخليج العربي) على خيولهم وجمالهم! فأكرمهم الله بالسير على وجه الماء حتى وصلوا الجزيرة وصادموا المرتدين فيها، وقضوا علىٰ ردَّتهم، وضَرب الإسلام بجِرانه، وعزَّ أهله وسلطانه.

٦ ـ ردة حَضْرَمَوْت وكِنْدة[2]:

مات النبي ﷺ وأمراؤه علىٰ حضرموت: زياد بن لَبيد البَيَاضي على حضرموت، وعُكاشة بن مِحْصَن على السَّكاسِك والسَّكُون، والمهاجر بن أبي أمية على كِنْدة.

وكانت كِندة لقُربها من اليمن استجابت للأسود العَنْسي لما قام وادعى النبوة، وارتد الأشعث بن قيس في ناس من كندة، وارتد أهل حضرموت، ومَنَعَ بنو عَمْرو بن معاوية بقيادة ملوكهم الأربعة الزكاةَ واعتصموا بمَحَاجِرهم[3]، وخرج من بقي على الإسلام إلى الأمير زياد بن لَبيد الذي واجه الردة هناك.

---

(١) جزيرة في الخليج العربي جنوب الظهران، تقابل مملكة البحرين الآن. انظر الخارطة: ص٥١١.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٣٠ ـ ٣٣٩؛ عصر الخلافة الراشدة، ص ٤١٢.

(٣) **المَحَاجِر**: ج المَحْجِر، وهي الحظائر والحدائق حول النخل.

وأمر أبو بكر المُهاجر بنَ أبي أمية وعِكْرِمة أن يُنجدا زياداً ، فانحدر المهاجِر من (صنعاء) ، وسار عكرمة من (أَبْيَن) ، فالتقيا بمأرِب ، ثم اجتازا المَفَازة حتىٰ اقتحما بجندهما حضرموت .

وحدثت صدامات طويلة بين الأمراء الثلاثة في جندهم وبين المرتدين ، وكذلك مع الأشعث في كندة ، وتمكن المسلمون من القضاء على حركة الردة ، وعلى فتنة الأشعث الذي انهزم ثم طلب الأمان! فبعثه المهاجر إلى أبي بكر مع السَّبْي ، وهناك طلب من الصديق العفو ، فعَفَا عنه ، وعاد إلى الإسلام من جديد رضي الله عنه وسامحه .

٧ ـ فتنة مُسَيْلِمَة الكذّاب وردَّة بني حَنيفة[1] :

●● مُسَيْلِمَة بن ثُمامَة بن كَبير بن حَبيب بن الحارث ، من بني حَنيفة ، ويكنى أبا ثُمامة .

ادَّعى النبوة سنة عشر للهجرة ، وكان يُقال له : رحمان اليمامة! .

وُلد ونشأ في اليمامة ، في القرية المسماة اليوم بالجبيلة بقرب (العُيينة) بوادي حنيفة في نجد ، وبها قُتل .

وحَنيفة هو لُجَيمْ بن صَعْب بن علي بن بَكْر بن وائل ، وهي قبيلة شهيرة ينزلون اليمامة ، وكان وفد بني حنيفة في سنة (٩هـ) ، وكانوا سبعة عشر رجلاً فيهم مسيلمة[2] .

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٨١ ـ ٣٠٠ ؛ البداية والنهاية : ٦/ ٣٢٣ ـ ٣٢٧ ؛ كتابي : نبوءات الرسول ﷺ ، نبوءة (١١٢) .

(٢) الفتح : ٩/ ٧٠٠ شرح الأحاديث (٤٣٧٣ ـ ٤٣٧٥) .

●● لمَّا رجع الوفد إلى اليمامة ارتدَّ عدو الله مسيلمة وادعى النبوة ، وقال : إني أُشْرِكت في الأمر مع محمد! وتابعه قومه بنو حنيفة .

وكَتَبَ مسيلمةُ إلى رسول الله ﷺ : (من مُسَيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلامٌ عليك ، فإني قد أُشْرِكت في الأمر معك ، وإن لنا نِصْفَ الأرض ، ولقريش نصفَ الأرض ، ولكنَّ قريشاً قوم يعتدون!)[1] .

فكتب النبي ﷺ إلى مسيلمة : (بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، السلامُ على مَن اتبع الهدى ، **أما بعدُ** : فإن الأرض لله يُورثها مَن يشاء من عباده ، والعاقبةُ للمتقين) . وكان ذلك في آخر سنة عشر[2] .

●● كان بنو حنيفة في نحو (٤٠ ألف مقاتل) ، فبعث إليهم أبو بكر عِكْرمة بن أبي جهل على رأس جيش ، وأَتْبَعه بآخر عليه شُرَحْبيل بن حَسَنة ، فعجَّل عكرمة قبل مجيء شُرحبيل وصادم بني حنيفة وناجزهم ، فنكَبوه! .

وكَتب أبو بكر إلى شُرَحْبيل يأمُره بالمقام حتى يأتيه أمره ، وسيّر إليهم خالد بن الوليد ، لكنَّ شُرحبيل عَجَّل وفَعل فِعل عِكرمة ، وبادر خالداً بقتال مسيلمة قبل قدوم خالد عليه ، فَنُكِب ، فلما قَدِمَ عليه خالد لامَهُ[3] .

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/ ١٤٦ .
(٢) تاريخ الطبري : ٣/ ١٤٦ ؛ السيرة ، لابن هشام : ٢/ ٦٠٠ ـ ٦٠١ .
(٣) تاريخ الطبري : ٣/ ٢٨١ ـ ٢٨٢ .

وكان خالد قد فرَغ من القضاء على ردّة بني تميم ، فاتجه بعدها بأمر الصديق إلى اليمامة للقضاء على نبوءة مسيلمة وردَّة قومه .

فلما سمع مسيلمة بقدوم خالد ، عَسْكَر بمكان يُقال له : (عَقْرباء) في طرف اليمامة ، والريفُ وراء ظهورهم ، ونَدَب الناسَ وحثَّهم .

واجتمع جيش المسلمين في نحو (١١ ألف مقاتل) ، فيهم ألفان وخمسمئة من المهاجرين والأنصار ، وبقيتهم من أهل البوادي ممَّن ثَبتوا على الإسلام[١] .

●● تقدم المسلمون حتى نزل بهم خالد على كثيب يُشرف على اليمامة فضرب به عسكره ، ورايةُ المهاجرين مع سالم مولى أبي حذيفة ، وراية الأنصار مع ثابت بن قيس بن شَمَّاس ، والعرب على راياتها ، واصطدم المسلمون والكفار فكانت جولة[٢] وانهزمتِ الأعراب حتى دخلت بنو حنيفة خيمةَ خالد بن الوليد! .

ثم تَذَامَرَ[٣] الصحابة بينهم ، وقال ثابت بن قيس : بئس ما عوَّدتم أقرانكم ، وقال خالد : أيها الناس امتازوا ، لنعلمَ بلاءَ كل حيٍّ ، ولنعلمَ من أين نُؤتى! .

وحمي البراء بن مالك ـ أخو أنس ـ وثار كما يثور الأسد ، وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يُعهد مثله ، وجعل الصحابة يتواصَوْن بينهم ويقولون :

---

(١) البداية والنهاية : ٦/٢٦٨؛ تاريخ الخميس ، للدياربكري : ٢/١٦٠؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ٤٠٧ .

(٢) **جال القوم في الحرب جولة** : فرُّوا ثم كرّوا .

(٣) أي : تلاوموا .

يا أصحابَ سورة البقرة ، بَطَلَ السحر اليوم! وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه ، وهو حامل لواء الأنصار بعدما تحنَّط وتكفَّن ، فلم يَزَل ثابتاً حتىٰ قضى شهيداً! .

وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة: أتخشى أن نُؤتى من قِبَلك؟ فقال: بئسَ حاملُ القرآن أنا إذاً![1] .

وقال زيد بن الخطاب: أيها الناس ، عَضّوا على أضراسكم ، واضربوا في عدوكم ، وامضوا قُدُماً! وقال: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجَّتي ، فقُتل شهيداً! .

وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن! زيِّنوا القرآن بالفِعال ، وحمل على الأعداء حتى استُشهد .

وحمل خالد بن الوليد واخترق العدو ، وسار لحيال مسيلمة وجعل يترقب أن يصل إليه فيقتله ، ثم رجع ثم وقف بين الصفَّين ودعا إلى البراز ، ونادى بشعار المسلمين ـ وكان شعارهم يومئذٍ: يا محمداه ـ وجعل لا يبرز له أحد إلا قتله ، ولا يدنو منه شيء إلا أكله! .

ودارت رحى المسلمين[2] ، ثم اقترب خالد من مسيلمة فعَرَض عليه الرجوعَ إلى الحق ، فجعل شيطان مسيلمة يلوي عنقه ، وكلما أراد مسيلمة يقارب الأمر صرفه عنه شيطانه ، فانصرف عنه خالد ، وقد ميَّز القبائل على راياتها حتى يعرف الناس من أينَ يُؤْتَون .

وصبرت الصحابة في هذا الموطن صبراً لم يُعهد مثله ، ولم يزالوا

(١) كان رضي الله عنه أحد حفظة القرآن .
(٢) أي: النصر .

يتقدمون إلىٰ نحور عدوهم حتى فتح الله عليهم ، وولَّى الكفار الأدبار ، واتبعوهم يقتلون في أقفائهم حتى ألجؤوهم إلى (حديقة الموت) فدخلوها وفيها مسيلمة ، وأغلقتْ بنو حنيفة الحديقة عليهم ، وأحاط بهم الصحابة ، وقال البراء بن مالك: يا معشر المسلمين! أَلْقوني عليهم في الحديقة! فاحتملوه فوق تروسٍ من جلد ورفعوها بالرماح حتى ألقوه عليهم من فوق سورها ، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتىٰ فتحه! ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها يقتلون من فيها من المرتدة من أهل اليمامة حتى خَلَصُوا إلى مسيلمة ، وإذا هو واقف في ثُلْمة جدارٍ كأنه جمل أَوْرَق[1] ، وهو مُزْبِدٌ متساندٌ لا يَعقل من الغَيْظ ، فتقدَّم إليه وحشي بن حرب فرماه بحربته فأصابه وخرجت من الجانب الآخر ، وسارع إليه أبو دُجَانة فضربه بالسيف فسقط ، وأُبِير مَن في الحديقة.

فكان جملة من قتل المسلمون في الحديقة وفي المعركة قريباً من عشرة آلاف مقاتل ، واستُشهد من المسلمين نحو خمسمئة منهم زُهاء خمسين نفساً من حفظة القرآن ، رضي الله عن الجميع وأرضاهم[2] .

خامساً: دلالات حروب الردة وملامحها:

١ ـ إن بوادر الفتنة ونُذُر شرورها كانت تذرُّ قَرْنها قبيل وفاة النبي ﷺ ، على أيدي الأسود العَنْسي الذي امتد سلطانه من أقصى الجنوب عند حضرموت إلى قريب من مكة والطائف ، وكذلك تربُّص مُسَيْلِمة في بني

(١) **الأَوْرَق من الإبل**: ما في لونه بياضٌ إلىٰ سواد. **والأورق من الناس**: الأسمر.

(٢) باختصار من: البداية والنهاية: ٦/ ٣٢٤ ـ ٣٢٦؛ وانظر: تاريخ الطبري: ٣/ ٢٨٦ ـ ٢٩٧.

حنيفة. ومناطق هؤلاء كانت أكثر بلاد شبه الجزيرة حضارة وأضخمها ثروة وأشدها ببلاد فارس اتصالاً.

٢ ـ عدم رسوخ الإسلام في قلوب أولئك المفتونين، وجفوة الأعراب وجهالتهم، وتمازج ألوان باهتة من الديانات الأخرى والوثنيات ـ كل ذلك ساعد المتنبئين ومحبِّي الزعامات على تأليب الدهماء وقيادة الرَّعَاع إلىٰ تلك الردة الجائحة.

٣ ـ النعرة القومية، ودعوىٰ الجاهلية، وتبرُّم المتعصبين للعشيرة والقبيلة بقيادة قريش ـ زَلزلَ حداثةَ العهد بالإسلام عند كثيرين، وسهَّل قيادهم للسعي في الردة والمُضي بها إلى أجل معلوم[1].

٤ ـ فتنة الرؤوس الكبيرة والمراكز الضخمة ـ كالأسود ومسيلمة وطليحة في أقوامهم ـ جَرّأ المناطقَ المجاورة والأعرابَ في البوادي وزعماءاتهم المتربصة على الارتداد، فقد كان الكثيرون يخشون سلطان المدينة وبأس المسلمين، فلما تداعى المتنبئون والطامحون للزعامة، فُتحت أبواب الشرور الموصَدة في مناطق كثيرة، فالتهبت أرض الجزيرة ناراً، كما قال أبو بكر: (إن الأرض كافرة)!.

٥ ـ شكَّلت مراكز الارتداد الكبيرة مخاطرَ مخوفةً على الإسلام ودولته؛ لاتساع نطاقها الجغرافي في الجنوب والشرق والشمال، والكثافة السكانية، وكثرة الموارد المادية والقوة الاقتصادية، ووجود المفازات المهولة كالربع الخالي ـ كل ذلك شكل صعوبات بالغة وعقبات

---

(١) انظر: الصديق أبو بكر، ص ٧٢ ـ ٧٤.

كأداء أمام المهمة الجليلة التي أُلقيت على كاهل الخليفة وأمرائه وجنده[1].

٦ ـ من أسباب النصرِ التي ادخرها القدر الحكيم لأوليائه وجنده أن أهل الردة متفرقون لا تؤلِّف بينهم وحدة معلومة المقاصد والأهداف في السياسة ولا في الدين[2] ولا في الخطة والمنهج؛ فبعضهم ضاهَى النبوة، وآخر نَفِس على قريش زعامتها، وصنف ثالث تبرَّم بتكاليف الدين الجديد، وغير ذلك.

٧ ـ غيابُ المنهجية وعدمُ تحقيق أركان الدولة في عامة حركات الارتداد، فليس عند أي قَبيل منهم منهج أو تشريع أو مبدأ أو قانون يركنون إليه، ويتحاكمون عنده، ويستبسلون لحمايته، وما رُوي من أَسْجاع الأسود ومُسَيْلِمة وسَجَاح ما هي إلا مخرقات وتهويمات لا تنشئ مجتمعاً ولا تقيم دولة ولا تحمي حقوقاً. ثم هي ساذجة سخيفة حتى ولو قلنا بثبوتها تاريخيّاً، ودون ذلك وقفة طويلة للعقل والتأمل.

٨ ـ الرقعة الضخمة التي اشتعلت فيها حركات الردة، والمسالك الصعبة في الوصول إليها، والمفازات المهلِكة التي تحول دونها، ووسائل الدفاع والمقاومة والكثافة العددية ـ كل ذلك يشيد بالجهود الجبارة التي بذلها أصحاب رسول الله ﷺ في مقارعة المرتدين وتثبيت أركان الدين، حيث قطعوا آلاف الكيلومترات، واجتازوا الفيافي

---

(١) انظر: عصر الخلافة الراشدة، ص ٣٩٢؛ تاريخ الخلفاء الراشدين، لطقوش، ص ٤٠ ـ ٤١.

(٢) انظر: عبقرية الصديق، ص ٩٤.

والقفار، واحتملوا الأهوال، وجابوا أطراف الجزيرة وعمقها شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، جبالاً ووديانا وبوادي وأمواه، وحسبك بالربع الخالي مهلكة... ثم قارعوا المرتدين في عُقر ديارهم، حتى أعادوهم إلى صوابهم.

سادساً: نتائج حروب الردة وآثارها (دروس وعبر):

١ ـ صلابة القيادة وثباتها ونفاسة معدن المجاهدين:

أبرز ما يتجلى في مواجهة الردة منذ لحظة ظهورها وإلى أن طفئت نارها: صلابةُ الخليفة العظيم، وثباته، ودقة فهمه، وبُعْد نظره في تصميمه على مقاتلة من فَرَّق بين ركن وآخر من أركان الدين، وأن الإسلام كلٌّ لا يتجزأ، وثباتُ جَنانه في قولته السائرة: (والله لو منعوني عِقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على مَنْعه).

وفيه كذلك نفاسة معدن الجيل العظيم الذي رباه النبي ﷺ، والذي التفَّ حول الخليفة وخاض الأهوال لتثبيت أركان الإسلام.

٢ ـ روائع أبي بكر وقت الأزمات:

فحياةُ الصديق مليئة بجلائل الأعمال طيلة عصر الرسالة، وأبرز ما كانت تتجلى خصائصه وفرائده وقت الأزمات والأحداث الحازبة: فهو في وقفته أمام طوفان الردة، تماماً كما هو في مواقفه يوم الهجرة، وفي العريش ببدر، ويوم الوفاة النبوية، ويوم السقيفة، وعند بعث أسامة... هو هو أبو بكر الذي حمل مسؤولياته بإيمان وإخلاص وأمانة وقوة، والذي شَدَهَ العقولَ، وأملَى على التاريخ أن ينقش في فؤاده أروعَ ملاحم الثبات والسداد والرشاد في المواقف الصعاب.

٣ ـ حماية المبدأ مقدَّمة على كل شيء:

وفي موقف الخليفة وأصحابه درسٌ بليغ في المحافظة على أركان الإسلام وحماية مبادئه ، وصيانة خصائص التصور الإسلامي عن إصابتها بالنقصان ، أو أن يعتريها تشويه ، أو تحريف ، أو إضعاف من شأنها .

والجهود الضخمة التي بُذلت ، والمتاعبُ الكبيرة التي تحمّلَتْها الدولة وعامة المسلمين ، والدماء الزكية التي قُدِّمت في سبيل الحفاظ على أركان الدين ومبناه ومعناه ـ تدلِّل على القيمة الفذة للعقيدة في قلوب أصحابها ، وتُبرهِن على التربية الصحيحة الراسخة التي تخرَّج بها هؤلاء الرجال في مدرسة النبوة .

٤ ـ القاعدة الصلبة لدولة الخلافة:

شكَّل مركزُ الدولة الإسلامية متمثلاً بالمدينة ومكة والطائف : القلبَ النابض الثابت والقاعدة الصلبة للدولة وحمايتها ، وكذلك الفهم السديد لمفاهيم الإسلام وغاياته ، والذي امتاز به الصحابة الذين تولوا قيادة حركات الجهاد والمناهَضة والمناضلة والدعوة .

نقول: هذا وذاك كانا العامل الأساسي في كفكفةِ جماح الارتداد ، ووأْدِ السَّفَه والشَّطط ، وإعادة الحق إلى نِصابه ، وإخضاعِ كل الأطراف لهيمنة القلب وفهم أهله ، حتى ثَبَت الإسلام وقرَّتْ أركانُه .

٥ ـ التأصيل لفقه الواقع:

فقهُ الردّة وأهدافها وغاياتها ووسائلها وأساليبها ، وحسنُ فهم الخليفة والصحابة لكل ذلك ، والتعامل معه بجدّية وواقعية وشمولية ـ أَصَّلَ ذلك

كله لفهمٍ عملي وفقهٍ للواقع ، مهَّدَ لبحوث ودراسات قيمة وإبداع أبواب في كتب التشريع الإسلامي ، ضَمَّت تفصيلات تشريعية دقيقة عن أحكام الردة ، ثم صار عملُ الصحابة في هذا سابقةً فقهية تؤخذ بالاعتبار عند الاجتهاد وتطبيق الحكم فيما بعد[1] .

٦ ـ دور الثابتين على الإسلام:

الثابتون على الإسلام في الأصقاع والبلدان والقبائل سواء كانوا قيادات أو جماعات ، كان لهم دور بارز في مواجهةِ الردة وإحباطها من الداخل ، وتثبيتِ القلوب على الإسلام ، وعونِ ألوية الجهاد القادمة من المدينة على أداء مهمتها . وهكذا فكل مسلم على ثغرة يجب أن لا يؤتى الإسلام من قِبله فيها .

٧ ـ الصبر عند الصدمة الأولى والخير والبركة فيها:

فثباتُ الصديق ثم الصحابة معه ، والأرضُ تموج بالمرتدين ، وجيشُ أسامة على مشارف الشام ، والصحابةُ في قلّة من العدد والعدّة ، ومع ذلك صادموا المرتدين الذين هاجموا المدينة ، وردوهم على أعقابهم خاسرين .

ولو أن أبا بكر قبِل من عمر ومن معه مهادنةَ المرتدين ومساومتهم في إرجاء أداء الزكاة؛ لَزادت المسَاومات والتنازلات ، وكَثُر الطامحون والطامعون ، وشَكَّكَ الأسود ومسيلمة وطليحة وغيرهم بصدق نبوة رسول الله ﷺ ، ولَوَثَبتِ القبائل على مَن فيها من الثابتين على الإسلام ،

---

(١) انظر : دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة ، للدكتور عبد الرحمن الشجاع ، ص٣٢٩؛ أبو بكر الصديق ، للصلابي ،ص ٣٢٧.

ولَفُتِحت على المسلمين أبوابٌ يصعب إغلاقها ، ولَحَدَثَتْ خروقٌ لا يمكن رَتْقُها[1] .

٨ ـ الإعداد والاستعداد واليقظة:

الذي تربى عليه الصحابة وفهموه وأدركوه من وقائع السنين طيلة عمر الرسالة : أن الغَلَب للحق والنصرَ للإسلام ، ما دام المسلمون معتصمين بدينهم ، مع الإعداد وسْعَ الطاقة . وهذا ما فعلوه أيام الردة ؛ فإن الخليفة كان في قلب الأحداث ، ورأى غدر الوافدين إلى المدينة ليكتشفوا عوراتها ، فأقام على أنقابها حراساً ، وجمع المقاتلين بالمسجد وأمرهم أن يبقوا على تعبئة ، فلما دَهَمهم العدو وجدهم أيقاظاً مستعدين ، فأُسقط في أيدي المرتدين وولوا مدبرين .

وأرسل الخليفة كتبه إلى الأصقاع والقبائل المرتدة ، واختار القادة الأكفاء ، وعقد الألوية للجيوش ، وزوَّدهم بالوصايا والأوامر ، وكان دائمَ الصلة بهم والتوجيه لهم وإمدادهم هنا وهناك ، واستَنْهَض معهم الثابتين على الإسلام ، ووجَّه لكل قوم من المرتدين ما يكافئهم من العدد والعدة وبأس القادة .

وهذا ينبئ عن وعي تام ، وخطط حكيمة ، وفهم سديد لأحوال الناس ومواقفهم وجغرافية بلدانهم وحجم قوتهم ، وغير ذلك .

٩ ـ الإسلام يقدم المؤمنين به والمخلصين له مهما كانت أجناسهم:

فالأبناء من الفرس الذين أسلموا وعلى رأسهم باذام وفيروز الدَّيْلمي ؛

(١) انظر : الصديق أبو بكر ، ص ٨٥ ـ ٨٦ .

قد أجلَّهم النبي ﷺ ومن بعده خليفتُه أبو بكر رضي الله عنه ، فأقام فيروز أميراً على صنعاء وفيها العرب الأقحاح ، لأن فيروزاً وذَوِيه قد ثبتوا على الإسلام وقاوموا المرتدين ، وأعلنوا الولاء لله ولخليفة المسلمين ، حيث تضرَّمت نار الردة في بلادهم ، فثَبَتوا وثَبَّتوا الناس حتى استقرت أمور الإسلام هناك.

١٠ ـ عودة الإسلام والاستقرار إلى أرض الجزيرة عامة:

فمنذ الأيام الأولى عندما كسر الصديق جموع المرتدين المهاجمين ، هرعت القبائل لأداء الزكاة وفاؤوا إلى الحق. وأخذت الهزائم تتوالى بالمرتدين وتستمر معها عودة الناس إلى دينهم ، واستمر ذلك نحو السنة ، فابتدأ بعيد وفاة النبي ﷺ في ربيع الأول سنة (١١هـ) وبقي إلى مطالع سنة (١٢هـ) ، وعاد الاستقرار إلى عامة أرض الجزيرة ، وأرسل الصديق الولاة على أمصارها.

١١ ـ حجم حروب الردة وأهميتها:

مثَّلتْ حروب الردة مرحلةً وسيطة من حيث الحجمُ بين غزوات النبي ﷺ وبين الفتوح الكبرى التي حدثت فيما بعد في العراق والشام.

وأفادت القادة والجند خبرات جمَّة في الإعداد والحشد والتعبئة والمباغتة والهجوم والالتحام والجاسوسية والحصار ، وغير ذلك.

كما أبرزت قيادات وكفاءات كثيرة فذة كان لها الدور الكبير في حركة الفتوحات فيما بعد[1].

---

(١) انظر: الطريق إلى المدائن ، لأحمد عادل كمال ، ص١٨١ ـ ١٨٥.

١٢ ـ التمهيد للفتوحات:

استقرار أرض الجزيرة العربية بالإسلام، والانتصار في حروب الردة: مهَّد لحركة الفتوحات الإسلامية المباركة في العراق والشام؛ ذلك أن الجزيرة كانت مركز الدولة والقاعدة الصلبة التي احتشدت فيها كل الطاقات، بعدما توفَّرت لها الوحدة السياسية والقيادية.

وقد قضى الله عز وجل بأن يُظهر دينَه على الدين كله، وادَّخر سبحانه تحقيق تلك الآية للصديق وأصحابه؛ كي يُطالعوا الناسَ بما أراد الله تعالى وقدَّر، فكان الانتصار على الردة إيذاناً بانطلاق الإسلام وانتشاره في الخافقين[١].

١٣ ـ أبو بكر المجدد الأول في الإسلام:

من نظر نظرة صادقة في التاريخ؛ لا يتردَّد في أن أبا بكر مجدِّد دين الإسلام وممسكُ رمقِه بإذن الله في ذلك الوقت الذي عمَّ فيه الذهول وغَلَبت الدهشة على العقول[٢]!.

وحُقَّ لِعُمَر وللصحابة أن يقفوا من الصديق ذلكم الموقف الذي رواه أبو رجاء العُطَارِدي، فقال: (أتيتُ المدينةَ فإذا الناس مجتمعون، وإذا في وسطهم رجلٌ يقبِّل رأس رجل، ويقول: أنا فداك! لولا أنت هلكنا. فقلت: مَن المُقَبِّل، وَمَن المُقَبَّل؟ قالوا: عمر بن الخطاب يقبِّل رأس أبي بكر في قتالِه أهلَ الردة إذ منعوا الزكاة حتى أَتَوا بها صاغرين)[٣].

---

(١) انظر: الصديق أبو بكر، ص ٩٦.
(٢) الخلفاء الراشدون، للنجار، ص ٤٦.
(٣) صفة الصفوة: ١/ ٢٥٠؛ الرياض النضرة: ١/ ١٣٠؛ حياة الصحابة: ٢/ ٤٩٨.

فأبو بكر صاحبُ الشرف الأول بين ذوي الرأي وذوي العمل في تلك الحروب ، وكأنما عمر قد وَضَع بشفتيه شفاهَ المسلمين جميعاً على ذلك الرأس الجليل يوم انحنى عليه بالتكريم والتقبيل[1]! .

١٤ ـ وأخيراً:

فإن أعداداً كبيرة من أصحاب رسول الله ﷺ ذهبوا شهداء في معارك الجهاد ضد الوثنيين والمرتدين ، وقتلوا الكذابين المَفْلوكين من المتنبِّئِين وأتباعهم من الرَّعَاع ، ووأدوا الفتنة وغسلوا الجزيرة العربية من كل تلك الأقذار .

(والدارس المحايدُ يرى آثارَ النبوة في شمائل أولئك الرجال الشجعان ، إن محمداً ﷺ مات يقيناً ، غير أن روحه بقيتْ يتحرك بها أصحابه ، فما غرسه في دمائهم لم يذهب سُدًى .

لقد أُشربوا منه حبَّ الله ، وطلبَ رضاه ، والتمهيدَ للقائه ، والشوق إلى جنته ، فأَقْدَرَتْهم هذه العواطف الجياشة على تهديم أسوار الباطل وكانت عالية .

ولم يكن الطريق سهلاً ، فإن رَعَاع العرب داخل الجزيرة حاولوا إعادةَ الليل المدبر وإحياءَ الجاهلية المسحوقة . . . غير أن الجيل الذي ربَّاه محمد ﷺ كان صلبَ المعدن ، شديدَ البأس ، جمع بين الصرامة والكرامة ، فلم تَلِنْ قناتُه ، ولم يَضْرَعْ أمام قوى الباطل ، إنه نازلها كلَّها حتى كَسَر شوكتها وأسقط دولتها!)[2] .

---

(١) عبقرية الصديق ، ص ٩٨ .

(٢) علل وأدوية ، فصل «المعالم الأولىٰ في عظمة محمد ﷺ» ، ص١٤٤ ـ ١٤٥ ، مقتطفات .

الفصل السادس
جمع القرآن الكريم

أولاً: حفظ القرآن الكريم وكتابته في عهد رسول الله ﷺ:

كانت مدة نزول القرآن الكريم (٢٣ سنة) منجَّماً مفرَّقاً ، فكانت تنزل السورة مرة ، وتنزل الآية أو الآيات مرة أخرى ، فيقول الرسول ﷺ: ضعوا هذه الآية في موضع كذا من سورة كذا ، حتى تمَّ نزول هذا الكتاب الكريم قُبيل وفاة النبي ﷺ[1] .

وكان سيد الحفاظ وأولهم الرسول ﷺ ، الذي (فرّق) الله عليه القرآن ليقرأه على الناس ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ ، والذي تكفل له بحفظه وجمعه في صدره؛ فقال تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٧] .

وقد كان سبيل حفظه ممهداً أمام النبي ﷺ ، وأمام الصحابة كذلك ، واعتمادهم في الأصل إنما هو على الذاكرة دون الكتابة؛ بوصفهم أمة أمية لهم كل خصائص الفطرة النقية ، والذكاء الأصيل[2] .

بل إن حِفظَ النبي ﷺ كان يجري عليه لونٌ من ألوان الزيادة في الاطمئنان والتثبُّت ، وذلك بأن يقرأه النبي ﷺ على جبريل عليه السلام

---

(١) مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه ، للدكتور عدنان زرزور ، ص ٨٦ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

في كل عام مرة؛ كما روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان النبي ﷺ أجودَ الناس بالخير ، وأجود ما يكون في شهر رمضان ، لأن جبريلَ كان يَلْقاه في كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخَ ، يَعْرِض عليه رسولُ الله ﷺ القرآن ، فإذا لَقِيَه جبريلُ كان أجودَ بالخير من الريح المرسَلة)[1].

وعارضه بالقرآن مرتين في العام الذي قُبض فيه ﷺ[2].

وتكفَّل الله تعالى ﷺ لرسوله بحفظه؛ فقال: ﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ٦][3].

ثم يأتي دور الصحابة الذين كانوا يتسابقون في حفظ القرآن واستظهاره؛ يهجرون من أجل تلاوته في الأسحار نومَهم وراحتهم ، حتى ليمرّ الشخص ببيوت الصحابة في غَسَق الدُّجى فيسمع فيه دويّاً كدويِّ النحل بالقرآن[4].

وكان عدد الحفَّاظ من الصحابة كبيراً ، ويكفي أن نعلم أنه قُتل منهم يوم بئر مَعُونة ويوم اليمامة؛ أربعون ومئة.

والذين اشتَهروا من الصحابة بحفظ القرآن: الخلفاء الأربعة ، وطلحة ، وسعد ، وحذيفة ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وابن مسعود ، وابن عُمر ، وابن عباس ، وعَمْرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير ،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٩٧) ، وأطرافه في رقم (٦)؛ ومسلم (٢٣٠٨).
(٢) أخرجه البخاري (٤٩٩٨) من حديث أبي هريرة ، و(٣٦٢٤) من حديث عائشة عن فاطمة رضي الله عنهما.
(٣) مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه ، ص ٩١.
(٤) المرجع السابق ، ص ١٠٨.

ومعاوية ، وعائشة ، وحفصة . كما حفظه من الأنصار في حياة النبي ﷺ : أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو الدرداء ، وأنس بن مالك ، وكثيرون وغيرهم[1] .

ثانياً: ترتيب الآيات والسور:

قال السيوطي : (الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك)[2] .

وموضوع التوقيف في ترتيب الآيات في السورة الواحدة مما لا يُتَصوَّر فيه خلاف ، بعد هذا ، ولأن مسألة (النَّظم) القرآني التي تشكل أبرزَ دلائل الإعجاز في القرآن تعود إلى ذلك الترتيب ، مما يدلّ علىٰ أنه من عمل الوحي يقيناً[3] .

أما ترتيب السور في المصحف على ما هو عليه؛ فقد ذهب جمهور العلماء إلى أنه توقيفي كترتيب الآيات سواء بسواء[4] .

وقد قرر الحافظ في «الفتح» وغيره من الأئمة والعلماء قديماً وحديثاً أن : ترتيب السور على ما هو عليه في المصحف الآن كان في عهد النبي ﷺ[5] .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٩ ، وانظر : الفتح : ١١/ ٢٦١ ـ ٢٦٤ شرح الحديثين (٥٠٠٣ ، ٥٠٠٤).

(٢) الإتقان : ١/ ١٠٤؛ وانظر : الفتح : ١١/ ٢٤٥ شرح الحديث (٤٩٩٣)؛ الزيادة والإحسان : ٢/ ٦ ـ ١٢ .

(٣) مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه ، ص ١٣٧ .

(٤) المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

(٥) الفتح : ١١/ ٢٤٨ .

وقد ثبت أنه ﷺ كان يَعرض القرآن كله في رمضان على جبريل مرة واحدة كل عام ، فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه القرآن مرتين[١] .

فالقرآن على هذا الترتيب آياتُه وسوره؛ هكذا أُنزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ورتَّبه النبي ﷺ بإشارة جبريل على وَفْقِ ما هو باللوح المحفوظ ، وحفظَتْه الصحابة رضي الله عنهم على هذا الترتيب[٢] .

وقرَّر العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه «النبأ العظيم» أن ترتيب السور والآيات توقيفي ، ثم قال كلمته العبقرية : (إنْ كانت بعد تنزيلها قد جُمعت عن تفريق ، فلقد كانت في تنزيلها مفرَّقة عن جَمْع ؛ كمثل بنيان كان قائماً على قواعده ، فلما أُريد نقلُه بصورته إلى مكانه ، قُدِّرت أبعاده ورُقِّمت لَبِناتُه ، ثم فُرِّق أنقاضاً ، فلم تلبثْ كل لَبِنة منه أن عرفت مكانَها المرقوم ، وإذا البنيان قد عاد مرصوصاً يشدُّ بعضه بعضاً كهيئته أول مرة)[٣] .

وأما الاحتجاج بما روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه : أن وَضْعَ سورة (براءة) بعد (الأنفال) وقَرْنَها بها من غير (بسملة) ؛ كان باجتهاد منه .

فلا حجة فيه لأنه حديث ضعيف : ضعَّفَه العلامة محمد رشيد رضا ، وأحمد شاكر وقال : ضعيف جدّاً ، والألباني في «ضعيف سنن

---

(١) انظر : شرح السنة : ٤/ ٥٢١ ـ ٥٢٣ ؛ فضائل القرآن ، لابن كثير ، وتعليقات محمد رشيد رضا عليه ، ص ٢٠ ـ ٢١ ؛ الفتح : ١١/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨ ؛ الزيادة والإحسان : ٢/ ١٢ ـ ١٧ ؛ مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه ، ص ١٣٧ ـ ١٤٠ .

(٢) الزيادة والإحسان : ٢/ ١٣ .

(٣) النبأ العظيم ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .

أبي داود» ، وشعيب الأرنؤوط في تعليقه على «صحيح ابن حبان»[1] .

وإذا كان حِفظُ القرآن ـ بمعنى جمعِه في الصدور ـ وكتابتُه على الأوراق المختلفة المتفرقة قد تمَّ في عهد النبي ﷺ ، فإن جَمْعَه ـ بمعنى جمع أوراقه المكتوبة في مصحف واحد ـ قد تمَّ في عهد الخليفة الصديق. ثم (نُسخ) من هذا المصحف عدَّة نُسَخٍ بُعثت إلى الأمصار زمن عثمان ، رضي الله عنهما[2] .

ثالثاً: عمر يشير على الصديق أن يجمع القرآن الكريم:

تمخَّضت عن حروب الردة أحداثٌ جِسام من أشدِّها خطراً على الإسلام موتُ حَفَظَةِ القرآنِ في (معركة اليمامة). ففزع عمر لذلك ، فالصحابة قد انتشروا في البلدان يبلّغون الناس الدعوة ، والشهادة أمنية كل واحد منهم ، والقرآن محفوظ في صدورهم ، مما يجعل موتهم سبباً في ذهاب كثير من القرآن! فأسرع عمر إلى أبي بكر يشاوره في جمع القرآن في مصحف[3] .

عن زَيْد بْن ثَابِتٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قالَ: (أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ ، مَقْتَلَ أَهْلِ الْيَمامَةِ ، فَإِذَا عُمَرُ بْن الخَطَّابِ عِنْدَهُ ، قالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّ

---

(١) انظر: مسند أحمد وتعليق العلامة المحدث أحمد شاكر عليه وهو نفيس جدّاً: ١/١٩٧ ـ ١٩٩ حديث (٣٩٩)؛ وتعليق العلامة المحدث شعيب الأرنؤوط علىٰ صحيح ابن حبان (٤٣)؛ وضعيف سنن أبي داود (٧٨٦) ، للعلامة المحدث الألباني؛ وهامش فضائل القرآن ، لابن كثير ، ص ٢٠ ـ ٢١ من كلام محمد رشيد رضا؛ وهامش الزيادة والإحسان: ٢/ ١٥ ـ ١٧ .

(٢) مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه ، ص ١٠٥ .

(٣) أعلام الحفاظ والمحدثين: ١/ ١٣٩ .

عُمَرَ أَتَانِي فقَالَ: إن الْقَتْلَ قَدِ اسْتَحَرَّ يَوْمَ اليَمَامَةِ بِقُرَّاءِ الْقُرْآنِ ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ بِالمَوَاطِنِ ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ الْقُرآنِ. قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ تَفعَلُ شَيْئاً لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قالَ عُمَرُ: هذا واللهِ خَيْرٌ ، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُني حَتَّى شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِذَلِكَ ، وَرَأَيْتُ فِي ذٰلِك الَّذِي رَأَى عُمَرُ.

قالَ زَيْدٌ: قالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عاقِلٌ لا نَتَّهِمُكَ ، وَقَدْ كَنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ الله ﷺ ، فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ. فَوَاللهِ لَوْ كَلَّفُونِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجبالِ ما كانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ.

قلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلُونَ شَيْئاً لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ؟ قالَ: هُوَ وَاللهِ خَيْرٌ ، فَلَمْ يزل أَبُو بَكْرٍ يُرَاجِعُنِي حَتَّى شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا.

فتتبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ العُسُبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجالِ ، حَتَّى وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ مَعَ أَبِي خُزَيْمَةَ الأنْصَارِيِّ ، لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾ حَتَّى خاتِمَةِ بَرَاءَةٍ ، فَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما)[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨٦) واللفظ له، وأطرافه في (٢٨٠٧)؛ والترمذي (٣١٠٣)؛ والنسائي في الكبرى (٧٩٤١)؛ وابن حبان (٤٥٠٦) و(٤٥٠٧) ، وغيرهم. قوله: **(استحر)**: اشتد وكثر. **(بالمواطن)**: هي المواضع التي سيغزو فيها المسلمون ، والمعارك التي تكون بينهم وبين أعدائهم. **(العُسُب)**: جمع عَسِيب ، وهو جريد النخل العريض. **(اللِّخاف)**: جمع لَخْفَة ، وهي حجارة بيضاء رقيقة.

وقوله: (**إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقراء القرآن**): أي: اشتد وكثر، وهو يشير إلى كثرة عدد من استُشهد من حفظة القرآن، فذكر بعضهم أنهم بلغوا (سبعين نفساً)، وذكر ابن كثير وغيره أنهم نحو (٥٠٠ نفس)[١]!.

ويتلخص منهج الجمع الذي رسمه أبو بكر لزيد بن ثابت وأمره بتنفيذه؛ في وجوب الاعتماد على مصدرين:

أولهما: ما كُتب بين يدي النبي ﷺ.

ثانيهما: ما كان محفوظاً في صدور الرجال[٢].

ومن أبرز ما تضمنه حديث زيد السابق: أن الصُّحف التي جُمع فيها القرآن - بين لوحين أو أجزاء متفرقة - كانت عند أبي بكر الخليفة رضي الله عنه، ثم آلَتْ إلى سيدنا عمر من بعده، ثم صارت إلى حفصة بنت عمر أمير المؤمنين[٣]، ولم تُوضع عند عثمان بن عفان لأن عمر ترك الخلافة شورى من بعده في ستة، فلا يَحسُن دفْعُ هذه الصحف إلى واحد منهم، ولعله لو فعل ذلك لَفُهم على أنه من أمارات الترجيح! يضاف إلى ذلك أن حفصة رضوان الله عليها هي زوجة النبي ﷺ وأم المؤمنين، وكانت متمكنة من القراءة والكتابة، فضلاً عن حفظها للقرآن الكريم عن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١/ ٨٥؛ فضائل القرآن، لابن كثير، ص ١٥؛ قادة فتح العراق، ص ١١٥.

(٢) مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، ص ١١٣.

(٣) كانت حفصة رضي الله عنها وصية أبيها عمر من أولاده على أوقافه وتركته. انظر: فضائل القرآن، لابن كثير، ص١٧.

ظهر قلب ، فبقيت هذه الصحف عندها إلى أن طلبها منها الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه[١] .

وكان الجمعُ الذي تمَّ في عهد الصديق إذاً جمعاً عامّاً ، أو (جمعاً رسميّاً) قام به الخليفة ، وشارك فيه جمهور الصحابة أو جماعة المسلمين : الحافظ بحفظه ، والكاتب بكتابته[٢] .

وهذا الجمع العَلَني في مجتمعِ فَضْل وعلمٍ ودينٍ وتثبُّتٍ واستيثاقٍ؛ هو الذي دفع علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يقول : (أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، إن أبا بكر كان أوَّلَ مَن جمع القرآن بين اللوحين)[٣] .

وأما ما رواه محمد بن سيرين قال : (لمَّا تُوفي النبي ﷺ أَقْسَم عليٌّ أن لا يرتدي برداءٍ إلا لجمعة ، حتى يَجمع القرآن في مصحف ، ففعل)[٤] .

فهو حديث مُعْضَل ضعَّفَه ابن كثير والحافظ السيوطي .

وهذا العمل من جلائل أعمال الصِّدِّيق رضي الله عنه ، وهو يُضارِع

---

(١) مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه ، ص ١١٥ ـ ١١٦ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٦ .

(٣) أخرجه ابن أبي داود في «المصاحف» من طرق : ١/ ١٦٥ ـ ١٦٧ ؛ وابن أبي شيبة : ٧/ ١٩٦ ؛ وأبو عبيد في فضائل القرآن ، ص ٢١٧ ؛ وابن سعد : ٣/ ١٩٣ ، وغيرهم؛ وصححه ابن كثير في «فضائل القرآن» ، ص ١٥ ، وحسنه الحافظ في الفتح : ١١/ ٢٠٧ (٤٩٨٦) .

(٤) أخرجه ابن أبي داود في المصاحف : ١/ ١٨٠ ؛ وابن أبي شيبة : ٧/ ١٩٧ ؛ وابن سعد : ٢/ ٣٣٨ ، وغيرهم . وانظر : سير أعلام النبلاء : ١٤/ ٢٢ ؛ وفضائل القرآن ، لابن كثير ، ص ٢٥ ؛ والفتح : ١١/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

قيامَه بحرب المرتدين ، وتجييشه الجيوش للفتوحات ونشر الإسلام .

وقد وصف ابن كثير هذا العمل الجليل بأنه (من أحسنِ وأجلِّ وأعظمِ ما فعله الصديق رضي الله عنه)[1] .

* * *

(١) فضائل القرآن ، ص ١٤ .

الفصل السابع

ملامح دولة الخلافة وأركانها في عهد الصديق

● **توطئة:**

مدة خلافة الصديق سنتان هجريتان وثلاثة أشهر وعشرة أيام ، أي (٨٠٨) أيام ، قضى قريباً من شطرها في مواجهة الردة وتثبيت أركان الدولة ، ومع ذلك فإنه بفضل الله تعالى طُوع له أن يُتِم في تلك المدة الوجيزة ما لا يتمه غيره من الكبار في السنين الطوال.

فهو رضي الله عنه الذي يؤم المسلمين ويخطبهم ويعلِّمهم ويرعى شؤونهم ، ويبعث الولاة ويتابعهم ، ويجيِّش الجيوش ويعقد للقادة الألوية والرايات ويوجه حركة الفتوحات ، ويتلقى الغنائم ويقسمها بين المسلمين وينظم شؤون المال ، وغير ذلك من أمور الدولة والأمة.

فلا مريةَ أن خلافته كانت لَبِنة عبقرية وركناً شامخاً أكمل الصرحَ الفريد والمكانة السامقة التي اقتعدها أبو بكر عند النبي ﷺ وفي قلوب جميع المسلمين.

والدولة الإسلامية في عهد الصديق خصوصاً وبقية الخلفاء الراشدين الأربعة عموماً؛ كانت تتصف بسمات خاصة نتيجة حركة الفتوحات وتوسع رقعة الدولة وتسيير الولاة ودخول الناس أفواجاً في دين الله من

مختلِف الأديان والجنسيات والأعراق واللغات والعادات. وهذا ما يَفرض على الدولة مسؤوليات كبيرة ومرونة مناسبة إزاء التحولات العقدية واللغوية والحضارية، والهيمنة عليها في نظام إسلامي شامل في الحكم والإدارة، يتكيف مع الظروف والمتغيرات دون المساس بالأصول العامة للحكم الإسلامي[1].

هذا مع ملاحظة بالغة الأهمية والدقة، وهي: حالة التحول والانتقال الحضاري الذي شهده العالم آنذاك:

فالقوتان الأعظم الفُرس والروم اللتان كانتا تصطرعان على مدى سبعة قرون، قد شاخَتْ قواهما، وقد خَطّ القدر الأعلى في لوحه الانتقالَ الحضاري الذي لم يكن منه بدّ، وهو قيام الدولة العربية الإسلامية الناهضة، وارثة الحضارات ومعيدة بنائها على أسس ربانية، ومن ثم قيادة العالم والشهود عليه![2].

هذه النقلة الهائلة وضع أساسَها رسولُ الله ﷺ، وأخذ أبو بكر برفع بنائها ما قُدِّر له، ثم جاء عبقري الإسلام عمر فأتمَّ البنيان.

وأهم أركان الدولة والحضارة وأسس قيامها: العقيدة الصحيحة التي توائم الفطرة، والعدل، والكرامة الإنسانية، والحرية العقلية، ويقظة الضمير، والعلم الصحيح، والطمأنينة ـ كل هذا جاء الإسلام به، وجاء أبو بكر ليرسخ أركانه ويشيد بنيانه.

وشاءت الأقدار أن تدخر للصديق ذلك الشرفَ الأسمى؛ حيث

---

(١) انظر: الولاية علىٰ البلدان، ص ٦ ـ ٧.

(٢) انظر: الصديق أبو بكر، ص ٢٩٠ ـ ٢٩٨.

سارت جيوشه الفاتحة إلى مدائن العراق وبلاد الشام ، لتكنس ظلمات الفرس والروم التي رانت على القلوب والعقول والديار ، ولتضيء ربوعَها بأنوار الهداية الربانية . . .

لقد كان الصديق رائد تلك الأعمال الجليلة في تحقيق عالمية الرسالة ومدِّ رُوَاق الإسلام وواضعَ أسس أركان الدولة الإسلامية العالمية .

ولا ريب أن العهد الفاروقي العظيم مَدِينٌ لعهد الصديق ومتمِّمٌ له، كدَيْن خلافة الصديق لعهد الرسالة وإتمامها له في بناء الدولة الإسلامية[(١)] .

أولاً: الخليفة والخلافة ونظام الحكم:

بعد أن تمت البيعة العامة لأبي بكر ، قام فألقى (خطبة العرش) وحدَّد فيها معالمَ الخلافة وصفات الخليفة ، حيث صعد المنبر فحمدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال :

(أما بعدُ: أيها الناس! فإنِّي قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيرِكم ، فإنْ أحسنتُ فأعينوني ، وإن أسأتُ فقوِّموني ، والصدقُ أمانة ، والكذبُ خيانة ، والضعيفُ فيكم قوي عندي حتى أُريح عليه حقَّه إن شاء الله ، والقويُّ فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يَدَعُ قوم الجهادَ في سبيل الله إلاَّ ضربهم الله بالذلّ ، ولا تشيعُ الفاحشة في قوم قطُّ إلا عَمَّهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله ، فإذا عصيتُ الله ورسوله فلا طاعةَ لي عليكم . قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله)[(٢)] .

---

(١) انظر : الصديق أبو بكر ، ص ٢١ .

(٢) أخرجه ابن هشام وغيره بإسناد صحيح ، وقد تقدم مع تخريجه والتعليق عليه : ص٤٢٦ حاشية (١) في هذا الكتاب .

هذه الكلمات القليلة المعدودات ضمَّنَها الخليفة الأعظم مبادئَ الشورى العادلة، وأسسَ الحكومة الفاضلة، ووضَّح فيها واجب الرعية وحقَّها على الراعي، وبيَّن واجب الراعي وحقه على الرعية، وحدَّد سلطة الحاكم بدستور الطاعة لله ولرسوله.

فهل يدلُّنا المتشدِّقون من المولعين بالسياسة وأنظمة الحكم، على نظام حكومي في أية دولة من هذه الدول المتمدنة، يعلِن فيه رئيس الدولة حق الأمة في هذه الصورة الباهرة كما أعلنه أول خليفة للأمة الإسلامية في كلمته الخالدة؟! وهل يدلُّنا علماء الاجتماع على أسسٍ لتربيةِ الحيوية في الأمة وغرسِ مبادئ الرجولية في أفرادها أفضل من قول أبي بكر رضي الله عنه: (لا يَدَعُ قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل)[١]؟!.

إنه يبين لهم أن الحكم وظيفة لا استعلاء، وتكليف لا تشريف، ومسؤولية لا مفاخرة، وأن الحاكم فرد في أمة وليس أمة في فرد، وأنه يجب على الشعب أن يملأ الفراغ الكبير ويقوم بدوره الجليل فيكون موقفه من الحاكم مشاركاً بصيراً لا تابعاً ضريراً ذليلاً، يُعِينه إذا أحسن، ويقوِّمه إذا أساء! ويؤكد لهم أنه متبع لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، لا مبتدع ولا مفتئت[٢].

فالحاكم مسؤول أمام الله تعالى مسؤولية يلقى نتائجها يوم الحساب والجزاء، ومسؤول كذلك مسؤولية دنيوية أمام الأمة والناس الذين ائتمنوه على دينهم وأموالهم وديارهم واختاروه لإدارة أمورهم.

(١) حياة رجالات الإسلام، ص ٨٣.
(٢) انظر: خلفاء الرسول، ص ١١٢ ـ ١١٣.

والأمة قوَّامة على الخليفة (رئيس الدولة) ورقيبة عليه ، تناصحه وتحاسبه ماليّاً وسياسيّاً ، وكان هذا شائعاً في صدر الإسلام الزاهر[(١)].

وقد أثبتت أيامُ خلافة الصديق المباركة أصدقَ الدلائل على التزامه التام الفذ بكل كلمة قالها في هذه الخطبة ، وبكل وعدٍ قَطَعَه على نفسه وألزم به أمته ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما قدمناه من مواقفه: يوم وفاة النبي ﷺ ، ويوم السقيفة ، وعند بعث أسامة ، ومسألة ميراث رسول الله ﷺ ، وحروب الردّة ، وجمع القرآن الكريم. . . ولنتابع بقية الأحداث والدلائل:

●● لقد قام الصحابة رضي الله عنهم بفَرْض راتب للخليفة مقداره ألفا درهم ، فقال: زيدوني ، فإن لي عيالاً وقد شغلتموني عن التجارة ، فزادوه خمسمئة!.

ويبدو أنه راتب سنوي ، وأنه أخذ من الدولة خلال خلافته ستة آلاف درهم ، فيكون راتبه الشهري (٢٥٠) درهماً! كما جعلوا له شاة في كل يوم يُطعمها لضيوفه ، ويبقى رأسها وأركاعها لأهل بيته! كما جعلوا له شيئاً من السمن واللبن ، ودابة ـ وهي تقابل السيارة في عصرنا ـ واحدة يركبها ، وثوبين يلبسهما[(٢)]!.

عن عطاء بن السائب قال: (لمّا استُخلف أبو بكر ، أصبح غادياً إلى

---

(١) نظام الإسلام ـ الحكم والدولة ، لمحمد المبارك ، ص ٣٧ ـ ٤٠ ، وانظر: ص ١٠٥ ـ ١٠٧ ، ١٢٢.

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩٣؛ الأموال ، لأبي عبيد ، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

السوق وعلى رقبته أثوابٌ يتَّجِرُ بها ، فلَقِيه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فقالا: أينَ تريدُ يا خليفة رسول الله؟ قال: السوق ، قالا: تصنعُ ماذا وقد ولِّيتَ أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أُطعم عيالي؟ قالا له: انطلِقْ حتى نَفْرِضَ لك شيئاً. فانطلق معهما ففرضوا له كلَّ يوم شطْر شاة ، وماكَسُوه في الرأس والبطن!)[1].

وعن حُميد بن هلال قال: (لمّا وُلِّي أبو بكر قال أصحاب رسول الله ﷺ: افرضوا لخليفة رسول الله ما يُغنيه ، قالوا: نعم ، بُرْداه إذا أَخْلَقَهما وضعهما وأخذ مثلَهما ، وظَهْره إذا سافر ، ونفقتُه على أهله كما كان يُنفِق قبل أن يُستخلَف. قال أبو بكر: رضيت)[2].

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، قالت: (لمَّا استُخلف أبو بكر الصديق قال: لقد عَلِم قومي أن حِرفتي لم تكنْ تَعْجِزُ عن مَؤُونة أهلي ، وشُغِلت بأمرِ المسلمين ، فسيأكلُ آلُ أبي بكر من هذا المالِ ، وأَحْترِف للمسلمين فيه)[3].

---

(١) أخرجه ابن سعد: ٣/ ١٨٤؛ وابن عساكر ، ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣؛ وذكره الحافظ في الفتح: ٦/ ٩٢ شرح الحديث (٢٠٧٠) ، وقال: مرسل رجاله ثقات. **ماكسوه**: نقصوه ولم يعطوه.

(٢) أخرجه ابن سعد: ٣/ ١٨٤؛ وبنحوه عند ابن عساكر ، ص ٤٣٢ ، وهو مرسل صحيح. **والظَّهر**: الدابة.
وانظر خبراً مطولاً في: طبقات ابن سعد: ٣/ ١٨٦؛ تاريخ الطبري: ٣/ ٤٣٢؛ ابن عساكر ، ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥.

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٧٠)؛ وابن سعد: ٣/ ١٨٥؛ وأبو عبيد في الأموال ، ص ٢٨٠ رقم (٦٥٨).

ومعنى (**أحترف للمسلمين**): اشتغاله بشؤون خلافة المسلمين، ونظره في أمورهم، وتمييز مكاسبهم وأرزاقهم[1].

هذا هو الفهم الباهر للإسلام والتطبيق السديد له، والكرامة الشامخة للحاكم والأمة، والرقابة الواعية الرشيدة لتصرفات الحاكم، فمجلس الشورى هو الذي يحدِّد (راتب رئيس الدولة)، ويراقبه ويقوِّمه ويحاسِبه، لا الذي يصفِّق له و(يبصم) على قراراته الرئاسية السامية!.

أَفيحِقّ لمتشدِّق أن يقول: إنما كانت حكومة الراشدين حكومة بدوية استبدادية لا نظام فيها ولا مبدأ؟!.

إن ما فعله الصحابة منذ أربعة عشر قرناً لم تبلغْه الدولة المتمدنة إلا منذ عهد قريب، و(مفرطحو الرؤوس) من قومنا لا يزالون يتخذونها قِبلةً ومحجَّةً ويصرفون قلوبَ أبناء الأمة عن سادات المسلمين وأساتذة البشرية في فنون الحكم والعدالة والمساواة والشورى والكرامة والعزة!.

منذ عهد قريب كان (لويس الخامس عشر) يقول: أنا الدولة، والدولة أنا! لقد كان لويس تاجرَ غلالٍ معروفاً يتَّجر في قوت أمته وهي تتضوَّرُ جوعاً، ثم لا يرى أحد في ذلك شيئاً من العار... أليس هو الأصل، والأمة فرعٌ عنه[2]؟!.

ثانياً: مع الرعية:

كان (أبو بكر الخليفة) يؤمُّ الناس في صلاتهم ويخطُبهم ويعلِّمهم

---

(١) الفتح: ٦/ ٩٢.

(٢) أبو بكر رجل الدولة، لمجدي حمدي، ص٣٥؛ أبو بكر، للصلابي، ص١٦٣.

أمور دينهم ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويقيم بين الناس العدل ، ويَقسم عليهم أموال الغنائم والفيء ، ويوصي ولاته وقادته بالناس خيراً ورحمة وعدلاً ، بل ويتعاهد العجائز ويحلب للقوم أغنامهم! .

عن أبي عبد الله الصُّنَابِحي قال: (قَدِمتُ المدينةَ في خلافة أبي بكر الصديق ، فصلَّيتُ وراءه المغربَ ، فقرأَ في الركعتين الأولَيَيْن بأمِّ القرآن وسورةٍ سورةٍ من قِصار المُفَصَّل. ثم قام في الثالثة ، فدنوتُ منه حتى إنَّ ثيابي لتكادُ أن تَمَسَّ ثيابَه ، فسمعتُه قرأ بأمِّ القرآن وبهذه الآية: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨])[(١)] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (كان أبو بكر رضي الله عنه يعلِّمنا التشهدَ على المنبر كما يعلِّم المعلم الغِلمان في المكتب)[(٢)] .

وعن قيس بن أبي حازم قال: (دخل أبو بكر على امرأةٍ من أَحْمَسَ يُقال لها: زينب ، فرآها لا تَكلَّمُ ، فقال: ما لَها لا تكلَّمُ؟ قالوا: حَجَّتْ مُصْمِتةً! قال لها: تكلَّمي ، فإن هذا لا يَحِلُّ ، هذا من عمل الجاهلية. فتكلَّمت فقالت: مَن أنتَ؟ قال: امرؤ من المهاجرين ، قالت: أيُّ المهاجرين؟ قال: من قريش ، قالت: من أي قريشٍ أنت؟ قال: إنكِ لَسَؤولٌ ، أنا أبو بكر. قالت: ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ: ١/ ٧٩ ، وقال عبد القادر الأرنؤوط: إسناده صحيح. انظر: جامع الأصول: ٥/ ٣٤٧. و(**المفصل**): هو من سورة (قٓ) إلى آخر المصحف الشريف.

(٢) أخرجه مسدَّد والطحاوي كما في كنز العمال: ٤/ ٢١٧؛ وحياة الصحابة: ٤/ ١٧٩ ـ ١٨٠.

الله به بعد الجاهلية؟ قال: بقاؤكم عليه ما استقامتْ بكم أئمتُكم ، قالت: وما الأئمةُ؟ قال: أمَا كان لقومكِ رؤوسٌ وأشرافٌ يأمرونهم فيُطِيعونهم؟ قالت: بلى ، قال: فهم أولئكِ على الناس)[1].

وسمَّاها ابن سعد في روايته: (زينب بنت المُهاجر الأَحْمَسيّة) ، وعنده: أنها قالت لأبي بكر: (يا خليفة رسول الله. . .) الحديث[2].

وعن قيس بن أبي حازم قال: (قام أبو بكر فحمدَ الله عز وجل وأثنى عليه ، فقال: يا أيها الناس! إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ إلى آخر الآية [المائدة: ١٠٥] ، وإنكم تَضعُونها على غير موضعها ، وإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّ الناسَ إذا رأَوا المنكر ولا يغيِّروه ، أَوْشَكَ اللهُ أن يَعُمَّهُم بعقابه**» قال: وسمعت أبا بكر يقول: يا أيها الناس! إياكم والكذبَ ، فإن الكذب مُجانِبٌ للإيمان)[3]. لفظ أحمد.

وعن أنس رضي الله عنه قال: (قال أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ ، لعمرَ: انطلِقْ بنا إلى أمِّ أيمنَ نَزُورُها كما كان رسولُ الله ﷺ يَزُورها. فلما انتهيْنَا إليها بَكَتْ ، فقالا لها: ما يُبكيك؟ ما عندَ الله خيرٌ لرسولِهِ ﷺ! فقالت: ما أَبْكي أنْ لا أكون أعلمُ أن ما عِندَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٣٤) واللفظ له؛ والدارمي: ١/ ٨٢ (٢١٢). **وأَحْمَس**: قبيلة من بَجِيلة.

(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ٤٧٠.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)؛ والترمذي (٢١٦٨) و(٣٠٥٧)؛ وابن ماجه (٤٠٠٥)؛ وأحمد: ١/ ٥؛ وابن حبان (٣٠٤) و(٣٠٥) ، وغيرهم ، وقال الترمذي: حسن صحيح ، وصححه أحمد شاكر والألباني وشعيب الأرنؤوط.

الله خيرٌ لرسوله ﷺ ، ولكنْ أبكي أنَّ الوحيَ قد انقطعَ من السماء! فَهَيَّجَتْهُما على البكاءِ ، فجَعَلا يَبكيانِ معها)[1] .

وعن محمد بن يحيى بن حَبَّان قال: (جُرِحَتْ أم عُمَارةَ بأُحُد اثني عشر جرحاً ، وقُطِعَتْ يدُها باليمامة ، وجُرِحت يوم اليمامة سوى يدها أحدَ عشر جُرحاً! فقَدِمت المدينة وبها الجِراحة ، فلقد رُئي أبو بكر يأتيها يسألُ بها ، وهو يومئذٍ خليفة)[2] .

وأم عمارة هي نَسِيبة بنت كعب الأنصارية ، واحدة من مفاخر نساء الإسلام! .

وعن أبي صالح الغِفاري: (أن عمر بن الخطاب كان يتعاهَدُها عجوزاً كبيرة عمياءَ في بعض حواشي المدينة من الليل ، فيستقي لها ، ويقوم بأمرها ، فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها ، فأَصْلح ما أرادتْ. فجاءَها غيرَ مرةَ كي لا يُسبق إليها، فرَصَده عمر ، فإذا هو بأبي بكر الصديق الذي يأتيها ، وهو يومئذٍ خليفة ، فقال عمر: أنت هو لعمري!)[3] .

وعن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما: (أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قام يوم جمعة فقال: إذا كان بالغداة فاحضروا صدقات الإبل نَقْسِم ، ولا يَدخلْ علينا أحد إلا بإذن. فقالت امرأةٌ لزوجها: خُذْ هذا الخِطام لعل الله يرزقنا جملاً! فأتى الرجلُ فوجد أبا بكر وعمر رضي الله

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٥٤) واللفظ له؛ وابن ماجه (١٦٣٥).

(٢) طبقات ابن سعد: ٨/٤١٦؛ سير أعلام النبلاء: ٢/٢٨١.

(٣) ابن عساكر ، ص ٤٣٤؛ حياة الصحابة: ٢/٨٤ ـ ٨٥. **حواشي المدينة:** جوانبها وأطرافها.

عنهما قد دخلا إلى الإبل ، فدخل معهما ، فالتفَتَ أبو بكر فقال: ما أَدخلك علينا؟! ثم أَخذ منه الخِطام فضربَه! فلما فَرغ أبو بكر من قَسْمِ الإبل ، دعا بالرجل فأعطاه الخِطام ، وقال: اسْتَقِدْ! فقال له عمر: والله لا يَستقيد ، لا تجعلْها سُنَّةً! قال أبو بكر: فمن لي من الله يوم القيامة؟ فقال عمر: أَرْضِه. فأمر أبو بكر غلامه أن يأتيه براحلةٍ ورَحْلِها وقَطِيفة وخمسة دنانير ، فأرضاه بها)[1].

وروىٰ شُعبة ، عن حبيب بن عبد الرحمن ، عن عمته أُنَيسة قالت: (نزل فينا أبو بكر ثلاثَ سنين ، سنتين قبل أن يُستخلفَ ، وسنةً بعدما استُخلِف ، فكان جواري الحيِّ يأتينَهُ بغَنَمِهِنَّ ، فيحلُبُهنَّ لهنَّ!)[2].

وفي رواية عن ابن عُمر وعائشة وغيرِهما: (أن أبا بكر كان يَحلِبُ للحيِّ أغنامَهم ، فلما بُويع له بالخلافةِ قالت جاريةٌ من الحي: الآنَ لا تُحْلَبُ لنا منائحُ دارنا ، فسمعها أبو بكر فقال: بلى ، لَعَمْري لأَحلُبَنَّها لكم ، وإني لأرجو ألاَّ يُغيِّرني ما دخلتُ فيه عن خُلُق كنتُ عليه. فكان يحلُب لهم ، فربَّما قال للجارية من الحي: يا جاريةُ ، أَتُحِبِّينَ أن أَرْغِي لكِ ، أو أُصَرِّحَ؟ فربما قالت: أَرْغِ ، وربما قالت: صَرِّحْ ، فأيّ ذلك قالت فَعَل!)[3].

لله درُّ الصديق! كم كانت حظوظُ المسلمين موفورةً وسعادة البشرية

---

(١) كنز العمال: ٣/ ١٢٧؛ حياة الصحابة: ٢/ ٩٣. **والقطيفة**: كساء له خمل.

(٢) ابن عساكر ، ص ٤٣٣.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٨٦ ، ابن عساكر ، ص ٤٣٥؛ صفة الصفوة: ١/ ٢٥٨. **منائح**: جمع مَنيحة ، وهي الغنم ذوات اللبن. **أرغي**: أحلُب مع الرغوة للحليب. **أصرِّح**: أحلبُ بدون الرغوة.

كبيرةً حين تولّى الحكم هذا القوي الأمين.

أبو بكر الذي غَلَبَ بثباته الفذ وعزيمته الصادقة الجزيرةَ العربية، وأخضعها لدين الله بعد أن كَسَر المرتدين جميعاً. ثم بَعث بجنده فقاتلَ بهم الدولتين الكبيرتين فغلبهما... أبو بكر هذا يحلُب لجواري الحي أغنامهنَّ! ويقول: أرجو أن لا يغيِّرني ما دخلتُ فيه عن خُلُقٍ كنت عليه! وليس الذي دخل فيه بالأمر الهيِّن؛ إنه خلافة رسولِ الله ﷺ، وسيادةُ العرب قاطبة، وقيادةُ الجيوش لتقلع الجبروت الفارسي وتحطم العظمة الرومانية، وتزرع مكانهما الحق والخير وتشيد صرح العدل والحرية والعلم والحضارة... كل هذا ولم يغيِّر أبا بكر عن أخلاقه التي اقتبسها من نور النبوة.

هذه هي العظمة والجلالة والعدل والرحمة... العظمةُ: قوةٌ على الجبابرة والمتغطرسين حتى يَصرعهم بالحق الذي يحمله ويحميه، ورحمة وتواضع ولِينٌ للضعفاء والمساكين، حتى يُطيِّب قلوبهم ويجبر كسرهم ويُعلي كرامتهم.

وعندما قدِمَ أبو بكر مكة معتمراً، وجاءه وجوه الناس يسلِّمون عليه قائلين: سلامٌ عليكَ يا خليفة رسولِ الله! وصافَحوه جميعاً، فجعل أبو بكر يبكي حين يذكرون رسول الله ﷺ، ثم سلَّموا على أبي قحافة. فقال أبو قحافة: يا عَتيق! هؤلاء الملأ فأحسِنْ صحبتهم، فقال أبو بكر: يا أبتِ، لا حول ولا قوة إلا بالله، طُوِّقتُ عظيماً من الأمر لا قوة لي به ولا يَدانِ إلا بالله.

وجلس قريباً من دار الندوة فقال: هل من أحد يتشكى من ظُلامة

أو يطلب حقّاً؟ فما أتاه أحد ، وأثنىٰ الناس على واليهم خيراً[1] .

وتتجلى حسن سياسة الصديق لرعيته ، واهتمامه بالناس وحرصه على سعادتهم وسلامتهم وحيواتهم وأموالهم ، والرأفة بهم ، وتحقيق العدل بينهم ـ من كتبه وأوامره ووصاياه للولاة والأمراء والقادة والفاتحين في جميع الحالات ومختلفِ أحوال الشدة والرخاء ، كما سيتضح في ثنايا الحديث عن الولايات والفتوحات .

وتحقق في عهد أبي بكر المجتمع الفاضل الذي يتصف بأرفع الأخلاق ، ويحمي المبادئ ويحرس الفضائل ويحارب الرذائل ، ويحقق الأمن والطمأنينة ، وينهي الفوضى والخوف ، فكان مجتمعاً على مثال ما أنشأه النبي ﷺ في عصر الرسالة .

وساعد أبا بكر في ذلك جيلٌ ضخم من الولاة والقادة والأمراء والعلماء والفاتحين والدعاة الهادين المهديين ، الذين حققوا صفات التمكين كما وصفهم الحق بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١] ، وقال فيهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

عن الحسن البصري : أنه قرأ هذه الآية فقال : هم والله أبو بكر وأصحابه[2] .

---

(١) طبقات ابن سعد : ٣/ ١٨٧ ؛ ابن عساكر ، ص ٤٣٦ .

(٢) أخرجه ابن عساكر من وجوه ، ص٤١٥ ـ ٤١٦ ، ٤١٨ ـ ٤١٩ .

ثالثاً: الشؤون الإدارية والسياسة الداخلية:

توضحت في عهد الصديق ملامح الدولة التي تضم عدداً من (الأمصار) أو (الولايات) ، أقام على كل منها أميراً والياً ، يَسوس أهلها ويرعى شؤونها ، وتكونت مؤسسات بما يشبه (الوزارات) في عصرنا ، عهِدَ الخليفة بإدارتها إلىٰ ثُلّة من الصحابة الكبار الذين كانوا يديرون معه دفة الحكم.

ـ فمجلس الشورى (مجلس الأمة ـ البرلمان): ضم عدداً مِن عِلْية الصحابة؛ أمثال: عمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير . . .

ـ والقضاء (وزارة العدل): تولاه الفاروق عمر أيام خلافة الصديق كلها[١].

ـ وشؤون المال والجزية (وزارة المالية): كان يديرها أمين الأمة أبو عبيدة.

ـ وتولى زيد بن ثابت الكتابة (وزارة البريد والمواصلات). وكان يكتب له أيضاً: عثمان بن عفان ، وحنظلة بن الربيع ، وعبد الله بن أرقم ، وغيرهم[٢].

ـ وهناك ولاة الأمصار ، وقادة الجيش ، وأمراء السرايا ، والمسؤولون في الجيش عن الغنائم والأقباض.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٤٢.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٢٦ ، ٦/ ١٧٩؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ١٥١.

ـ لمّا فَرض أعيان الصحابة راتباً للخليفة ، قال عمر: إليَّ القضاء ، وقال أبو عبيدة: إليّ الفَيْء.

قال عمر: فلقد كان يأتي عَليَّ الشهرُ ما يختصِم إليَّ فيه اثنان[1]!.

وروى الطبري: أن عمر مكث سنة لا يأتيه رجلان[2].

لقد كان الناس على مستوى عالٍ من الوعي الإسلامي ، وكانوا يتعاملون بالمروءات ، فتقلّ بينهم الخصومات ، مما خفَّف الأعباء على القضاة[3].

هذا في المدينة ، وأما في الأمصار: فكان الولاة يتولون شؤون القضاء ، ومن أولئك: معاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري[4].

ـ وكان الأمير على الموسم (وزارة الحج): عبد الرحمن بن عوف[5].

ـ وعمال الصدقات: أنس بن مالك ، وسعد بن أبي وقاص ، وعمرو بن العاص[6].

● وكان القضاء في عهد الصديق امتداداً لصورته في العهد النبوي

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٨٤.
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٢٦؛ أخبار القضاة ، لوكيع: ١/ ١٠٤.
(٣) عصر الخلافة الراشدة ، ص ١٦٠.
(٤) الولاية على البلدان ، ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ١٥٧ ، ١٧١.
(٥) تاريخ خليفة ، ص ١٢٣؛ تاريخ الطبري: ٣/ ٣٤٢.
(٦) عصر الخلافة الراشدة ، ص ١٥١.

بالالتزام به والتأسي بمنهجه مع مواجهة المستجدات المتنوعة. وساهمت تلك الحقبة من تاريخنا في ظهور مصادر جديدة للقضاء، وأصبحت مصادره تتمثل في: القرآن الكريم، والسنة النبوية، والإجماع، والقياس، والسوابق القضائية، والرأي الاجتهادي مع المشورة[1].

وكان القاضي يجلس في المسجد غالباً، ولم تكن الأقضية تُسجَّل لقلَّتها وسهولة حفظها[2].

- وكان له (خاتم التصديقات) يَخْتِم به الكتب والمراسلات والتعيينات وغير ذلك.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (أراد رسول الله ﷺ أن يكتب إلى بعض الأعاجم، فقيل له: إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا بخاتَم، فاتَّخَذَ خاتَماً من فِضة، ونقش فيه: «**محمد رسول الله**». فكان في يده حتى قُبض، وفي يدِ أبي بكر حتى قُبض، وفي يد عمر حتى قُبض، وفي يد عثمان، فبينما هو عند بئر إذ سقط في البئر، فأمر بها فَنُزِحت، فلم يقدر عليه)[3].

- ومن أبرز المعالم في سياسته الداخلية حفاظُه على وحدة الدولة وسلامة كيانها، وتجلى ذلك في صلابة موقفه من المتنبئين والمرتدين الذين هدَّدوا الدولة بالتفكك، فأرسل عليهم بأسَه العادل وأعاد الدولة موحدة متماسكة.

---

(١) تاريخ القضاء في الإسلام، للدكتور محمد الزحيلي، ص ١٥٧ ـ ١٥٨.

(٢) عصر الخلافة الراشدة، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢١٤، ٤٢١٥)؛ وصححه الألباني. وانظر: ابن حبان (١٤١٤) وتخريجه.

رابعاً: الشورى:

إن مبدأ الشورى ورد في نص القرآن بصيغة الأمر الموجَّه للرسول ﷺ نفسه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فغيره من باب أَوْلى، كما ورد وصفاً للمؤمنين: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

وهو ما طبقه الرسول ﷺ في حياته وتصرفاته العامة ـ فيما سوى الوحي ـ كما طبقه من بعده الخلفاء الراشدون، ولاسيما في كبريات القضايا كالحرب وتقسيم الأراضي وغيرها.

إن اتخاذ هذا المبدأ قاعدة في الحكم وتصرفات الحاكم التشريعية والسياسية يقابل ويلغي قاعدة استبداد الحاكم برأيه وتصرفه بهواه[١].

والأخذ بالشورى ليس تفضُّلاً من الحاكم ولا للاستئناس، كما أن الشورى ليست (مُعْلِمة) كما يقول البعض، بل هي (مُلْزِمة). وقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ جاء بصيغة الأمر، وليس في القرآن قرينةٌ تصرفه عن الوجوب إلى النَّدْب، ولم نجد في السيرة النبوية نصّاً صحيحاً يدلّ على صرف الأمر بالشورى عن الوجوب إلى الندب[٢].

وتطبيق مبدأ الشورى من المعالم البارزة الواضحة في دولة الخلافة في عهد الصديق، ومن الجوانب المضيئة في تاريخ الإسلام وبخاصة في عهد الخلفاء الراشدين:

١ ـ عن القاسم بن محمد: (أن أبا بكر الصديق كان إذا نزل به أمرٌ

---

(١) نظام الإسلام ـ الحكم والدولة، لمحمد المبارك، ص ٣٤.

(٢) انظر: عصر الخلافة الراشدة، ص ٩٧.

يريد فيه مشاورة أهلِ الرأي وأهلِ الفقه ، ودَعَا رجالاً من المهاجرين والأنصار ؛ دعا عمر وعثمان وعلياً وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأُبيّ بن كعب وزيد بن ثابت ، رضي الله عنهم)[(١)].

وعن ميمون بن مِهْران قال: (كان أبو بكر الصديق إذا وردَ عليه أمرٌ ؛ نظر في كتاب الله ؛ فإنْ وجد فيه ما يقضي به قضى بينهم ، وإنْ عَلِمَه من سنة رسول الله ﷺ قضى به ، وإن لم يعلم خرج فسأل المسلمين عن السنَّة ، فإن أَعْياه ذلك دعا رؤوس المسلمين وعلماءهم واستشارهم)[(٢)].

٢ ـ ومبايعة الصديق واستخلافُه كان بعد حوار صريح من المجتمعين وجُلُّهم من الأنصار ، فتمَّت البيعة الخاصة في السقيفة ثم البيعة العامة في المسجد ، شورى.

٣ ـ وفي إنفاذ جيش أسامة لم يَستمع أبو بكر لرأي الأكثرية ؛ لأن عنده نصّاً وأمراً نبويّاً: «أَنْفِذوا بعثَ أسامة» ، ولمّا طلبوا إليه تغييرَ أمير الجيش قال: (لا أَحلُّ لواءً عقده رسول الله ﷺ بيده)!.

وليس هذا نكولاً عن الشورى ، لوجود النص الصحيح الصريح الواضح ، ولا شورى مع وجود النص. ومع ذلك بيَّن لهم الصديق رأْيَه حتىٰ اقتنعوا به ، وعَلِموا فيما بعدُ صوابه ورشاده.

٤ ـ وفي حروب الردّةِ جَمع وجوهَ المهاجرين والأنصار واستشارهم

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٥٠؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ١٠٠.

(٢) ذكره الحافظ في الفتح: ١٧/ ٢٠٠ ـ كتاب الاعتصام ، باب (٢٨) ، وصححه ، وقد تقدم مطولاً مع تخريجه: ص٣١٨ـ٣١٩ حاشية (١) في هذا الكتاب.

في الموقف من الذين مَنَعوا الزكاة ، فتكلَّم عمر وعثمان وعلي وغيرهم ، ورأَوا أن يتألَّف الناس حتى تسكن ثورتهم؛ فهم حديثو عهدٍ بإسلام! فأبى عليهم ولم يرضَ برأْيهم (ولم يَلتفتَ إلى مشورتهم؛ إذ كان عنده حكمُ رسول الله ﷺ في الذين فرّقوا بين الصلاة والزكاة وأرادوا تبديلَ الدينِ وأحكامِهِ ، وقال النبي ﷺ: «مَن بدَّلَ دينَه فاقتلوه»)[1].

ومع ذلك ناظرهم وبيَّن لهم حججه ودلائله ، فاقتنع الصحابة بذلك وعبَّر عنه عمر بقوله: (فو اللهِ ما هو إلا أنْ رأيتُ أنْ قد شَرَحَ الله صدرَ أبي بكر للقتالِ ، فعرفتُ أنه الحق).

وفي رواية: (فقاتَلْنا معه ، فرأَيْنَا ذلك رُشْداً).

فمع خطورة الموقف ، وكثرةِ الأعداء ، وتهديدهم مركز الخلافة ، والمسلمون في حالة حرب داهمة؛ لم يُهمل خليفة رسول الله ﷺ مبدأَ الشورى ، ولا أَعلنَ ما يُسمَّى (حالة الطوارئ) ، ولا ألغى أيَّ رأي معارِض ، ولا اضطهد مَن يخالف رأيه! فالشورى مبدأ لا يجوز المَساس بقدسيَّته ، وهو في ساعات الحرب والأزمات أَوْلى بالاحترام منه في السلم والرخاء!.

٥ ـ وعن عبد الله بن أبي أَوْفَى قال: (لمّا أراد أبو بكر رضي الله عنه غزوَ الروم[2]؛ دعا عليّاً وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وأبا عبيدة بن الجراح ، ووجوه المهاجرين

---

(١) هذا من كلام البخاري في «صحيحه» ، انظر: الفتح: ١٧/ ١٩٥ ، كتاب الاعتصام ، باب (٢٨).
(٢) أي: فتح بلاد الشام.

والأنصار من أهل بدر وغيرهم ، فدخلوا عليه ـ قال عبد الله بن أبي أوفى : وأنا فيهم ـ) .

فقال بعد أن حمدَ الله وأثنَى عليه : (قد رأيتُ أن أستنفِر المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ليؤيِّد الله المسلمين ، ويجعل الله كلمته العليا ، مع أن للمسلمين في ذلك الحظ الأوفر ، لأنه من هَلَك منهم هلك شهيداً وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش عاش مدافعاً عن الدين مستوجِباً على الله ثواب المجاهدين . وهذا رأيي الذي رأيتُه ، فَلْيُشِر امرؤ عليَّ برأيه) .

فتكلّم عمر وعبد الرحمن بن عوف وعثمان وعلي ، وبعد أن أصغى لآرائهم ، وما أجمعوا عليه ؛ أَمر الجند بالتجهز للتوجه لِما أُمروا به[١] .

٦ ـ كذلك استشارهم في قضية جليلة خطيرة وهي (جمع القرآن الكريم) ، وتبادلَ الرأي مع عمر وزيد بن ثابت ، ثم عزم على الأمر ، وأعانه عامة الصحابة ، وجُمع القرآن على ملأ منهم جميعاً .

٧ ـ ولمَّا أراد استخلافَ عمر استشار عبد الرحمن بن عوف وعثمان وسعيد بن زيد وأُسيد بن الحُضَير ، وغيرهم من المهاجرين والأنصار[٢] .

٨ ـ وأمر ولاة الأمصار وقادة الجند بالشورى ، وألزمهم بها ، وكتب لهم في ذلك[٣] .

٩ ـ وكان يستشير أعيانَ الصحابة عند اختيار أحد الأمراء سواء على

---

(١) مختصر ابن عساكر : ١/ ١٨١ ـ ١٨٢ ؛ تاريخ فتوح الشام ، للأزدي ، ص٢ ؛ حياة الصحابة : ١/ ٤٣٧ ـ ٤٤٠ .

(٢) سيأتي تفصيل ذلك : ص٧١٥ ـ ٧٢٠ في هذا الكتاب .

(٣) انظر مثلاً ما سيأتي : ص٦٣٨ ـ ٦٤١ في هذا الكتاب .

البلدان أو على الجند. بل ويشاور الشخص نفسه الذي يريد توليته قبل أن يعيِّنه، وبخاصة إذا أراد أن ينقله من ولاية إلى أخرى، كما فعل مع عمرو بن العاص عندما أراد نقله من ولايته التي ولاه عليها النبي ﷺ إلى ولاية جند فلسطين[1].

وستأتي أمثلة وشواهد أخرى على تطبيق مبدأ الشورى في خلافة الصديق.

خامساً: الفتوحات ومعالم التخطيط الحربي:

من المعالم البارزة التي تميز دولةَ الخلافة في عهد الصديق انطلاقُ جيوش الفتح إلى العراق وبلاد الشام؛ لتحريرها من الهيمنة الفارسية والرومانية، ومدُّ رُوَاقِ الإسلام في ربوعها، وتحقيقُ عالمية رسالة الإسلام.

وأبو بكر مع إخوانه الصحابة الكرام والتابعين بإحسان هم الذين خَطُّوا السطور البارزة الأولى في ذلك الحدث الجليل.

ونظراً لأهميته وجلالته وآثاره الباقية أبدَ الدهر؛ فقد أفردنا له باباً مستقلاً، وأشرنا إليه هنا لأنه من أسس الدولة وأركانها، وهو السبب المباشر لاتساع سلطانها وتعدد ولاياتها كما سنبين في الفقرة التالية.

سادساً: الأمصار والولاة:

١ ـ تعريف الولاية وأهميتها:

الولاية: هي تكليف الخليفة شخصاً مختاراً ليقوم بسياسة إقليم معين

---

(١) تاريخ الطبري ٣/ ٣٨٩، وسيأتي نص الكتاب: ص٦٤٣ حاشية (٢) في هذا الكتاب.

وتدبير أموره وإدارة شؤونه في أعمال محدودة ومعروفة ، ويسمى: أمير الإقليم ، أو عامله ، أو واليه[1].

وللإمارة والولاية أهمية جليلة؛ فهي (من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيامَ للدين إلا بها؛ فإن بني آدم لا تتمُّ مصلحتُهم إلا بالاجتماع ، لحاجةِ بعضهم إلى بعض ، ولا بدّ لهم عند الاجتماع من رأس. . . فالواجبُ اتخاذُ الإمارة دِيناً وقُرْبةً يُتقرَّب بها إلى الله تعالى)[2].

٢ ـ أسس اختيار الولاة:

اختيار الوالي ليس مقيَّداً بأفضلية في الدين أو أسبقية في الإسلام ، وإنما النظر إلى المصلحة العليا للأمة.

وتقتضي السياسة الشرعية المستمدة من السيرة النبوية استعمالَ الأصلح في الولايات وإنْ كان في الرعية من هو أفضل منه في العلم والإيمان.

وقد وضح القرآن أهم صفتين لتولي الأعمال: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

والقوة تختلف بحسب تنوع الولاية؛ فحاجة الولاية العسكرية إلى الشجاعة والخبرة بالحرب ، وحاجة الولاية السياسية إلى العلم بالعدل ومعرفة أحكام الشرع والقدرة على تنفيذها.

واجتماع القوة والأمانة في الناس قليل ، لذلك يحتاج الخليفة إلى

(١) الولاية على البلدان ، ص ١٨ ـ ٢٠.
(٢) السياسة الشرعية ، لابن تيمية ، ص ١٦١ ـ ١٦٢؛ الولاية على البلدان ٣٧ ـ ٣٨.

الاستقصاء عنهم ، وهو مكلَّف بتعيين الأمثل فالأمثل إن لم يجدْ من تتوفر فيه الصفتان.

ومرجعُ التعيين هو الخليفة أو رئيس الدولة ، إلا أن الخلفاء الراشدين كانوا في الغالب يستشيرون ذوي الرأي من الصحابة فيمن يبعثونهم من العمال[1].

ويلاحظ أن جميع الولاة في عهد أبي بكر كانوا من الصحابة؛ وذلك لتحلِّيهم بصفات ومؤهلات من ناحية ، ولثقة الخليفة بهم ، واحترام الناس لهم مما يجعلهم يطيعونهم ويؤازرونهم ، وأيضاً لاشتهارهم بالزهد والورع ، وأنهم لم يطلبوا الولاية لأنفسهم لورود النهي الشرعي عن طلبها[2].

٣ ـ واجبات الولاة:

واجبات الولاة كثيرة ، أبرزها:

١ ـ إقامة الصلاة وإمامة الناس في الجُمع والجماعات.

٢ ـ تعليم الناس أمور دينهم ، ونشر الإسلام في ربوع البلدان التي يتولونها.

٣ ـ الجهاد وحماية الولاية من الأعداء المتاخمين لولاياتهم.

٤ ـ تحصين الثغور وشحنها بالجنود.

---

(١) السياسة الشرعية ، ص ٦ ، ١٤ ـ ١٥ ، ١٨؛ نظام الإسلام ـ الحكم والدولة ، لمحمد المبارك ، ص ٩٣ ـ ٩٥؛ الولاية على البلدان ، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ١١٥.

(٢) انظر: عصر الخلافة الراشدة ، ص ١١٥ ـ ١١٦.

٥ ـ تدريب الصبيان على الفروسية والرمي والسباحة وفنون القتال.

٦ ـ تجهيز المجاهدين والمتطوعين وإمداد الخليفة بهم للمشاركة في الفتوحات.

٧ ـ تعيين القضاة والعمال والموظفين في أقاليمهم ومحاسبتهم.

٨ ـ إقامة الحدود وتأمين البلاد.

٩ ـ مشاورة أهل الرأي في شؤون أقاليمهم.

١٠ ـ أخذ البيعة للخليفة.

١١ ـ الإشراف على الشؤون المالية في الولاية.

١٢ ـ تدبير شؤون العمران من حفر الأنهار، وبناء الجسور، وتخطيط المدن، وتعبيد الطرق، وتأمين المياه، وبناء المساجد والأسواق، وإحياء الأرض المَوات لتوسيع الأراضي الزراعية[١].

٤ ـ الملامح العامة لاختيار الولاة في عهد الصديق:

ـ أَقَرَّ جميع عمال النبي ﷺ الذين توفي ﷺ وهم على ولاياتهم، ولم يعزل أحداً منهم إلا ليعيِّنه في مكان آخر أكثر أهمية من موقعه الأول ويرضاه، كما فعل مع عمرو بن العاص[٢].

(١) انظر: الولاية على البلدان، ص ٨٢ ـ ٨٥؛ عصر الخلافة الراشدة، ص ١٧؛ فتوح البلدان، للبلاذري، ص ١٥٥، ٢٧٣، ٣٥١، ٣٥٢.

(٢) الولاية على البلدان، ص ٧٦.

وكان أبو بكر يقول: (ما أحدٌ أحقَّ بالعملِ من عمال رسولِ الله ﷺ)[1].

ـ يستشير الصحابة في اختيار الولاة، وفي مقدمة مستشاريه عمر وعثمان وعلي وابن عوف.

ـ يستشير الشخص الذي يريد توليته قبل تعيينه، وبخاصة إذا أراد أن ينقل ذاك الشخص من ولاية إلى أخرى.

ـ عَمِلَ بسنَّة النبي ﷺ في تولية بعض الناس على أقوامهم، إذا وجد فيهم من يصلح للعمل.

ـ يكتب للأمير عهداً على المنطقة التي ولاه عليها.

ـ يعتمد على وجود الخبرات لدى بعض الولاة، فيصدر أمراً بنقل بعضهم من منطقة لأخرى حسبما تقتضيه المصلحة العامة للدولة.

ـ ضم بعض الولايات إلى بعض، مثل ضم كِنْدة إلى حَضْرَموت، والأمير زياد بن لَبِيد البياضي.

ـ معاملته للولاة تتسم بالاحترام المتبادل، ولم تسجَّل في عهده أي حادثة عزل.

ـ اتصال دائم بين الخليفة والوالي فيما فيه مصلحة الولاية ومهام العمل.

ـ التواصل بين الولاة إما بالرسائل والرسل، أو اللقاءات المباشرة، كما كان يجري بين ولاة اليمن وحضرموت.

---

(١) المستدرك: ٣/ ٢٤٩.

ـ اختلطت الولاية بإمارة الجيش والفتح في كثير من الحالات ، كما هو الحال في العراق والشام ، فكان الوالي هو أمير الجُنْد[1] .

وعلى العموم فإنه يَصعب التفرقة في عهد الصديق بين الأمراء على الجهاد (أمراء الجند) وبين أمراء الأمصار (الولاة على البلدان)؛ لأن كلاً منهما كان يقوم بنفس عمل الآخر ، بسبب الظروف التي اكتنفت الدولة من حروب الردة ثم حركة الجيوش للفتوحات ، مع ملاحظة قِصَر مدة عهده التي لم تتجاوز (١٥) شهراً بعد الفراغ من الردة[2] .

والذي يدعو للإعجاب أن أولئك الأمراء والولاة لم تأتِ عليهم شكوى واحدة من مختلِف أفراد الرعية أو الجند ، رغم قساوة الأحداث ، وكثرة الأهوال التي خاضوها وأداروها، وتنوع البلدان التي فتحوها وحكموها! .

٥ ـ تسمية الولاة والولايات[3]:

١ ـ عتَّاب بن أَسِيد (مكة) .

٢ ـ عثمان بن أبي العاص الثقفي (الطائف) .

٣ ـ العلاء بن الحَضْرمي (البحرين)[4] .

---

(١) الولاية على البلدان ، ص ٧٦ ـ ٨١ ، باختصار .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٣) انظر : تاريخ خليفة ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ؛ تاريخ الطبري : ٣/ ٤٢٧ ؛ الولاية على البلدان ، ص ٥٢ ـ ٧٣ ، ٥٠٢ ـ ٥٠٤ ؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص١٢١ ـ ١٢٢ .

(٤) تقدم التعريف بها : ص٥٣٢ رقم (٧) في هذا الكتاب .

٤ ـ حُذيفة بن مِحْصَن الغَلْفَاني (عُمَان).

٥ ـ سَمُرة بن عَمْرو العَنْبَري (اليمامة).

٦ ـ زياد بن لَبيد البياضي (كِنْدة وحضرموت).

٧ ـ معاذ بن جبل (اليمن ـ مشرف عام على الولاة بالإضافة إلى إدارة ولاية الجند).

٨ ـ المهاجر بن أبي أمية (صنعاء وأعمالها، وأحياناً الصَّدِف وكِنْدة).

٩ ـ جرير بن عبد الله البجلي (نَجْران).

١٠ ـ فَرْوة بن مُسَيْك المُرادي (مراد ومَذْحِج).

١١ ـ عُكَّاشة بن مِحْصَن الأَسَدي (السَّكاسك والسَّكُون).

١٢ ـ خالد بن الوليد (العراق).

١٣ ـ المثنىٰ بن حارثة الشيباني (العراق).

١٤ ـ الزِّبْرقان بن بدر (الأَنْبار).

١٥ ـ عياض بن غَنْم (دُومَة الجَنْدل).

١٦ ـ يعلى بن أمية (خَوْلان).

١٧ ـ أبو موسى الأشعري (زَبيد ورِمَع وعَدَن وساحل اليمن).

١٨ ـ أبو عبيدة بن الجراح (أمير أمراء الشام مع ولاية حِمص خاصة).

١٩ ـ سَلِيط بن قيس (اليمامة).

٢٠ ـ عبد الله بن ثَوْر (جُرَش)[١].

٢١ ـ خالد بن الوليد (أمير أمراء الشام).

٢٢ ـ عَمْرو بن العاص (فِلَسطين).

٢٣ ـ شُرحبيل بن حَسَنة (الأردن).

٢٤ ـ يزيد بن أبي سفيان (دمشق).

و(المدينة المنورة) كان فيها الخليفة، فإذا خرج منها استخلف عليها، فعندما خرج إلى ذي القَصَّة استخلف سِنان الضَّمْري، وعندما حجَّ سنة (١٢هـ) استخلف عليها قتادة بن النعمان الظَّفَري[٢].

سابعاً: السياسة المالية:

١ ـ بيت المال:

لما استُخلف أبو بكر قال لعمر ولأبي عبيدة: إنه لا بدَّ لي من أعوان، فقال له عمر: أنا أكفيكَ القضاء، وقال أبو عبيدة: أنا أَكْفيك بيتَ المال[٣].

كان هذا في المدينة، أما في الولايات فقد بقي الوضع فيها على ما هو عليه أيام النبي ﷺ حيث كانت ولاية الأموال موكلة إلى الوالي كغيرها من الولايات[٤].

---

(١) بلدة شمال نَجران في أعلى وادي بِيشة قرب خَميس مشيط.

(٢) تاريخ خليفة، ص ١٠١، ١٢٣.

(٣) أخبار القضاة، لوكيع: ١/ ١٠٤.

(٤) النظم المالية في الإسلام، لعيسى عبده، ص ١٣٢؛ الولاية على البلدان، ص ٤٤٠.

ولم يكن في الولايات ـ في عهد أبي بكر ـ بيوت مال خاصة ، وإنما كان ما يَـفيض منها يُرسَل إلى الخليفة بالمدينة.

وذكر ابن سعد بإسناده: (أن أبا بكر الصديق كان له بيت مال بالسُّنْح معروف ليس يَحرسُه أحد ، فقيل له: يا خليفة رسول الله ﷺ ، ألا تجعلُ على بيت المال من يحرسه؟ فقال: لا يُخاف عليه ، قلت: لِمَ؟ قال: عليه قُفْل! قال: وكان يعطي ما فيه حتى لا يَبقى فيه شيء ، فلما تحول أبو بكر إلى المدينة حَوّلَه ، فجعل بيت ماله في الدار التي كان فيها)(١).

٢ ـ مصادر الأموال:

أ ـ الجِزية:

وأول جزية قبضها أبو بكر من أهل نَجْران ، وكذلك جاءت الجزية من مدن وقرى المناطق المفتوحة من العراق ، وكانت الجزية المفروضة علىٰ الحِيرة أول مال حُمل إلى المدينة من العراق. ووردت الجزية أيضاً من بعض مدن الشام مثل: مآب وبصرى وتدمر وغيرها(٢).

ب ـ الغنائم:

وهي ما غَلَب عليه المسلمون من أموال أهل الحرب حتى يأخذوه عَنْوة.

وقد أرسل قادة الجيوش وأمراء الفتح وولاة الأمصار أموالاً جزيلة إلى المدينة ، من جَرّاء حروب الردة والفتوحات؛ فجاءت الأموال من

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٢١٣؛ ابن عساكر ، ص ٤٣١.
(٢) عصر الخلافة الراشدة ، ص ١٨١ ـ ١٨٤.

الأنعام والدراهم وفداء الأسارى من البحرين وعُمان ومَهْرة وغيرها ، ومن الفتوح في الشام والعراق[1] .

ج ـ الزكاة :

قامت الدولة الإسلامية في عهد الصديق بجباية أموال فريضة الزكاة عن طريق إرسال المُصَدِّقين إلى أرجاء الجزيرة التابعة لها ، وقد أعاقت حركة الردة هذا العمل وخفضت من هذا المورد ، ولمّا ثابت القبائل إلى رشدها وعادت إلى دينها دفعت زكاة أموالها ، فصبَّت في بيت مال المسلمين[2] .

وكان أبو بكر يأخذ الزكاة من الأموال الظاهرة والباطنة ، ومن كان عنده مال وجبت فيه الزكاة استقطعها من عطائه .

قال القاسم بن محمد : (كان أبو بكر إذا أعطى الناس أَعْطِياتهم ، يسألُ الرجلَ : هل عِندك من مالٍ وجبتْ عليك فيه الزكاةُ؟ فإذا قال : نعم ، أَخَذَ من عطائه زكاةَ ذلك المال ، وإنْ قال : لا ، أَسلَم إليه عطاءه ولم يأخذ منه شيئاً)[3] .

وأخذ كذلك أموالاً جزيلة من (معادن)[4] القَبَلِيّة وجُهينة وبني سُليم[5] .

---

(١) عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٧ .
(٢) المرجع السابق : ٢٠٩ ـ ٢١٢ .
(٣) أخرجه مالك في الموطأ : ١/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦ ، وفيه انقطاع لكنه يتقوى بشواهده ، انظر : جامع الأصول : ٤/ ٦٢٩ ـ ٦٣٠ .
(٤) أي : مناجم ذهب .
(٥) طبقات ابن سعد : ٣/ ٢١٣ .

٣ ـ عمال الصدقات:

ذكرت المصادر أسماء عمال الصدقات في عهد أبي بكر ، وهم[1]:

١ ـ أنس بن مالك (البحرين).

٢ ـ سعد بن أبي وقاص (هوازن).

٣ ـ عمرو بن العاص (قُضَاعة).

٤ ـ الوليد بن عقبة (قضاعة).

٥ ـ سعد بن أبي ذباب الدَّوسي (دَوْس).

٦ ـ عدي بن حاتم الطائي (طيئ).

٧ ـ الزِّبْرقان بن بدر التميمي (الرِّباب وعوف والأبناء من تميم).

٨ ـ قيس بن عاصم (مَقاعِس والبُطون من تميم).

٩ ـ صفوان بن صفوان (بَهْدَى من تميم).

١٠ ـ سَبْرة بن عمرو (خَضَّم من تميم).

١١ ـ سُعير بن خفاف التميمي (بطون تميم).

١٢ ـ الهيثم السلمي (بنو سُليم).

وعمل أبو بكر بكتاب الصدقات الذي تركه رسول الله ﷺ:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أنَّ أبا بكر رضي الله عنه كَتب له هذا الكتابَ لمَّا وجَّهَه إلى البحرين: «بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه

(١) عصر الخلافة الراشدة ، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

فريضةُ الصَّدَقةِ التي فَرَض رسول الله ﷺ على المسلمين ، والتي أَمَرَ اللهُ بها رسولَه ، فمَن سُئِلَها من المسلمين على وَجْهِها فَلْيُعْطِها ، ومَنْ سُئِلَ فوقَها فلا يُعْطِ» . . .) الحديث بطوله[١] .

وقد بعث أبو بكر أنساً إلى البحرين (مُصَدِّقاً) . **والمُصَدِّق** : هو الذي يأخذ صدقات المسلمين .

٤ ـ نفقات الدولة ومصارف بيت المال:

مصارف الزكاة حددها القرآن الكريم بالأصناف الثمانية في قوله سبحانه : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٠] .

ـ وقد توسَّع الصديق في الصرف على الصنف السابع (في سبيل الله) من زكاة قبائل أَسْلَم وغِفار ومُزينة وجُهينة ، ولعل أموالاً من الزكاة صُرفت على حركة الفتح في العراق والشام[٢] . فكان يشتري الإبل والخيل والسلاح فيحمل في سبيل الله[٣] .

ـ وأخذت الأسهم الأخرى نصيبها من أموال الزكاة ، وأحياناً أشرف الخليفة بنفسه على توزيعها على الفقراء[٤] .

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٤) ، وأطرافه في (١٤٤٨)؛ وأبو داود (١٥٦٧)؛ والنسائي في الكبرى (٢٢٣٩)؛ وفي الصغرى : ٥/ ١٨ ؛ وابن ماجه (١٨٠٠) .

(٢) عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢٢١ .

(٣) طبقات ابن سعد : ٣/ ٢١٣ .

(٤) السنن الكبرى ، للبيهقي : ٨/ ٤٩ .

ـ وكان يَصرف للولاة رواتبهم ، وعندما شكوا إليه أنها لا تكفيهم ، استشار الصحابة فوافقوا على زيادتها[1] .

ـ **العطاء**: وهو مرتب سنوي تدفعه الدولة للناس ، وقد ساوى أبو بكر بين الناس في العطاء ، دون النظر إلى تفاضلهم في السابقة والجهاد ، وعمل بذلك ولاته ، فأعطى الكبير والصغير والحرَّ والمملوك والذكر والأنثى .

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : (قَسَمَ أبي أول عامِ الفَيْءَ ، فأعطى الحرَّ عشرة وأعطى المملوكَ عشرة والمرأةَ عشرة وأَمَتها عشرة . ثم قسم في العام الثاني فأعطاهم عشرين عشرين)[2] .

ـ واشترى عاماً قطائفَ أتى بها من البادية ، ففرَّقها في أرامل أهل المدينة في الشتاء[3] .

ثامناً: التخطيط والعمران:

يظهر في هذا المجال بدايات استصلاح الأرض وإعمارها ، وتخصيص أراضٍ لصالح الدولة وما يهمّ المسلمين :

١ ـ إقطاع الأراضي لاستصلاحها:

مضى أبو بكر في تطبيق السياسة النبوية في إقطاع الأراضي للناس طلباً لاستصلاحها ؛ فقد أقطعَ الزبير بن العوام أرضاً مواتاً ما بين الجُرْف

(١) فضائل الصحابة ، لأحمد : ١/ ٢٩٢ ، عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢٢٩ .
(٢) طبقات ابن سعد : ٣/ ١٩٣ ؛ وانظر : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢٢٩ .
(٣) طبقات ابن سعد : ٣/ ٢١٣ . **والقَطِيفة** : كساء له خَمْل .

وقناة ، وأقطع مُجّاعة بن مُرارة الحَنَفي : الخِضْرِمة (قرية كانت باليمامة)[1] .

٢ ـ الحِمَى:

وهي أراضٍ خُصصت لرعي الإبل والخيل التي تملكها الدولة .

وقد استمرت حماية (وادي النَّقيع) في خلافة أبي بكر وعمر ، حيث كان النبي ﷺ قد حماه للخيل ، وطوله (٨٠كم) ، ويبدأ جنوب المدينة بـ(٤٠كم)[2] .

٣ ـ الإنفاق على العمران:

تمَّ في عهد الصديق تجديدُ سقف المسجد النبوي وسواريه ، دون أن تتم توسعته[3] .

تاسعاً: التعليم:

لم يحفظ لنا التاريخ ما يكفي لتصوير واقع التعليم في المنطقة الواسعة التي حكمها الإسلام في عصر الرسالة والخلفاء الراشدين ، والتي يتنوع سكانها ما بين عرب وفرس وكرد وأرمن وغيرهم ، وتتنوع ثقافاتهم وأديانهم .

لكن الذي هو معروف ومشهور أن الصحابة نشروا علم الكتاب الكريم

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٠٤؛ التاريخ الكبير: ١/ ٣٧٦؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

(٢) عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

(٣) سنن أبي داود (٤٥٢)؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

والسنة الشريفة واجتهادات الخلفاء وفقهاء الصحابة ، ونقلوها للتابعين .

وكان يفتي في عهد أبي بكر : عمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وزيد بن ثابت وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري وعائشة أم المؤمنين وغيرهم[١] .

عاشراً: السياسة الخارجية:

يمكن تلمس معالم السياسة الخارجية في عهد أبي بكر من خلال النقاط التالية[٢] :

١ -زَرْع هيبةِ الدولة في أنفس الأمم المجاورة وحماية تخوم الدولة:

وتحقق ذلك بتثبيت أركان الدولة الإسلامية عندما قضتْ على حركات الردة وادعاء النبوة ، فعادت الجزيرة كلها لهيمنة عاصمة الخلافة في المدينة . وقد سارت أخبار هذه الانتصارات إلى فارس والروم وكل من تسوِّل له نفسه بتهديد الدولة الإسلامية أو التأليب عليها .

وكذلك الأثر العميق الذي تركه جيش أسامة عندما وطِئ أطراف الشام ، فأعاد هيبة المسلمين وقضى على وساوس المتربصين؛ (فكان بعث أسامة العنوان الأول لسياسة عامة في الدولة الإسلامية هي في ذلك الحين خير السياسات)[٣] .

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢/٣٤٠ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٧٥؛ مسند أحمد: ١/٣٩ (٢٧٣) .

(٢) انظر : أبو بكر الصديق ، للصلابي ، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٩ .

(٣) عبقرية الصديق ، ص ٨٦ .

٢ ـ تحقق عالمية الدعوة:

فأبو بكر يدرك أن الإسلام جاء رسالة للناس كافة ، وقد شهِدَ النبيَّ ﷺ وهو يبعث الرسل والكتب للملوك والرؤساء يدعوهم إلى دين الله ، وقد توفي ﷺ بعد أن نشر الإسلام في ربوع الجزيرة ، فقام الصديق الخليفة ليتابع تعميمَ الرسالة للعالمين.

فنَدبَ الناسَ إلى الجهاد والفتوحات لتحرير الشعوب من رِبْقة الوثنيات والشرك بالله وعبادة الطواغيت ، ولبَّى الصحابة والتابعون بإحسان فكانوا رسلَ هداية للبشرية.

وكتب أبو بكر أبرز سطرين في تحقيق (عالمية الإسلام): الأول على الجبهة الفارسية في العراق ، والثاني على الجبهة الرومية في الشام.

٣ ـ معاملة أهل البلاد المفتوحة بالعدل والرفق والرحمة:

كان الصحابة هم قادة الجيوش الفاتحة ، ثم أصبحوا ولاة الأمصار بعد فتحها ، وقد تربَّوا في مدرسة النبوة على أرفع الأخلاق وأسمى المبادئ من العدل والرأفة والرحمة والإحسان والدعوة بالحسنى. . . وزادهم الخليفة تأكيداً على هذه الثوابت ، فأوصاهم بها وكتب لهم الكتب بذلك ، كما وجَّه كتباً إلى أهالي تلك البلاد التي ترزح تحت وطأة العبودية والظلم ، وقد تبرهن لهم عدلُ الإسلام ورحمةُ الفاتحين ، فدخلوا في دين الله أفواجاً ، كما سنبين في (باب الفتوحات).

٤ ـ لا إكراه في الدين:

فالرسالة التي يحملها المسلمون إلى الناس هي إخراجُهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام ،

ولا إكراه لأحد على ترك دينه والدخول في الإسلام: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

والمسلمون لا يقاتلون إلا مَن حالَ بينهم وبين إبلاغهم دينَ الله للناس، فإذا رُفع الظلم والاستعباد عنهم، عُرض عليهم الإسلام، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. ووقائع التاريخ تؤكد ذلك، ووجود النصارى وغيرهم في كل البلاد التي فتحها الإسلام أكبر دليل على أن الفاتحين لم يُكرِهوا أحداً على الدخول في دينهم، وعاشوا في ظل الدولة الإسلامية آمنين ما داموا محافظين على عهودهم ومواثيقهم.

* * *



الباب السادس

الفتوحات واتساع دولة الإسلام

- أحوال العالم قبل الفتح الإسلامي.
- الفتوحات: الإشارة إليها ودوافعها وأركانها وأسسها.
- بين الخليفة والقادة والمجاهدين الفاتحين.
- موجز عن الفتوحات.
- الفتوحات: معالمها وعوامل النصر فيها وثمراتها.

* * *



الفصل الأول

أحوال العالم قبل الفتح الإسلامي

كان البشر عند مجيء الإسلام وقت الفتوحات منتشرين في العالم وبخاصة في القارات الثلاث: آسية وإفريقية وأوروبة ، وهم أجناس متعددة وأديان شتى من الشرك والوثنيات المتنوعة ، وتتحكم بمعظم العالم القوتان الكبيرتان: الفرس والروم ، لكنهما غير قادرتين على توجيه البشرية نحو الدين الخالص والعدالة والفضيلة ، لأنهما لا تملكان ذلك.

وقد عمَّتِ الناسَ المظالم والأخلاق الفاسدة والاستعباد والقسوة ، وغابت معالم العدل والحرية والكرامة والرحمة والإنسانية الرفيعة. وكان الناس بحاجة إلى من يرفع عنهم إصْرَهم والأغلالَ التي ضُربت عليهم ، ويحرر قلوبهم وعقولهم وأفكارهم ويضع الجميع أمام ميزان واحد هو: العدلُ والمساواةُ ونفيُ عبودية غير الله.

وهذه المهمة الجليلة هي التي أُنِيطت بالعرب الذين اختارهم الله لحمل خاتمة رسالاته ، وقد أسس رسول الله ﷺ الأمة التي صنعها على عينه ، وأقام لها الركيزة الراسخة في جزيرة العرب ، وخطَّ لها السطور الأولى في تعميم نور الرسالة ، وترك بقية العمل واجباً في عنق مَن

يخلُفه ، فكان الصديق أول من حمل الراية وكتب أوائل سطور الفتح وتحقيق عالمية الإسلام[1].

ولنلقِ نظرة فاحصة مركزة مختصرة على أحوال العالم أيام انطلاق الفتوحات الإسلامية ، ونخص دولتي فارس والروم لأنهما مسرح الفتوحات في عهد الخلفاء الراشدين ، وهما الدولتان اللتان تسيطران على معظم العالم.

أولاً: دولة الفرس[2]:

١ ـ الحالة الدينية والفكرية:

لم تنتشر بين الفرس الأديان السماوية التي سبقت الإسلام إلا في نطاق محدود جدّاً ، وكان أكثرهم على المجوسية ، فمنذ القرن الثالث الميلادي صارت (الزرادشتية) ديناً للدولة.

وتقوم العقيدة الزرادشتية علىٰ الثَّنَوِيّة ؛ أي : وجود إلـٰهين في الكون ؛ هما : إلـه النور (اهورامزدا) وإلـه الظلام (اهريمن) ، وهما يتنازعان السيطرة على الكون ، ويقف البشر الأخيار مع إلـه الخير ، والأشرار مع إلـه الظلام.

وتقدِّس الزرادشتية النار ، وقد أُقيمت معابد النيران في أرجاء الدولة ، ويُعرف رجال الدين الزرداشتيون بـ(الموابذة) ، وكل منهم

---

(١) انظر : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ٥٦ ـ ٦١ ؛ قادة فتح العراق ، ص ١٤ ـ ١٥ ؛ قادة فتح بلاد فارس ، ص ١٢ ـ ٧٧ «بحث مفصل» ؛ الولاية على البلدان ، ص ٣٠ ـ ٣٢ ، عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٣١ ـ ٣٣٤.

يرأس مجموعة يسمون (الهرابذة) وهم الذين يخدمون نار المعبد في كل قرية.

٢ ـ الحالة الاجتماعية والأخلاقية:

تقوم الحياة في فارس على أساس طبقي، وكان ملوكهم (الأكاسرة) يدَّعون أنه يجري في عروقهم دمٌ إلـهي، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة، ويرون أنهم فوق القانون وفوق الانتقاد وفوق البشر.

كذلك يعتقد الفرس في البيوتات الروحية والأشراف من قومهم أنهم فوق العامة في طينتهم، وفوق مستوى الناس في عقولهم ونفوسهم ولهم سلطةٌ لا حدَّ لها.

وكان المجتمع الإيراني مؤسساً على اعتبار النَّسَب والحِرَف، وكان بين طبقات المجتمع هوَّة واسعة لا يقوم عليها جسر ولا تصل بينها صلة.

وعامة الناس في مجالس الأمراء والأشراف يقومون على رؤوسهم كأنهم جماد لا حراك لهم، ويجلسون مزجَر الكلب مع الاستكانة والخضوع لسادتهم. وملوكهم الأكاسرة يعيشون في ترف عظيم وإسراف شديد في الملابس والمطاعم، ويجمعون أكوام الكنوز والذخائر ويلبسون تيجان الذهب والجواهر، ويضربون على المزارعين والعامة الضرائب المُبْهِظة.

وتقوم الأسرة على أساس تعدد الزوجات، وشاع بينهم نكاحُ المحارم حتى إن (يَزْدَجِرْد الثاني) الذي حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي تزوج بنتَه ثم قتلها، وأن (بهرام جوبين) الذي تملك في القرن السادس كان متزوجاً بأخته!.

وكان وضع المرأة يشبه وضع الرقيق؛ حيث بإمكان الزوج أن يتنازل عنها لزوج آخر دون رضاها! وانتشرت عادة التبني للأولاد ، وشاعت الإباحية ، وعَمَّ الفساد الخلقي والاجتماعي خاصة عندما انتشرت (المزْدَكيَّة) التي دعا إليها مَزْدَك. و(مزدك) هذا كما يقول الشهرستاني: (أَحَلَّ النساءَ وأباحَ الأموالَ ، وجعل الناس شركةً فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ!)[1].

٣ ـ الحالة السياسية والاقتصادية:

بَسطت الدولة الساسانية سلطانها على إيران ، وأَخضعت لحكمها التركَ في بلاد ما وراء النهر ، والعربَ في العراق. وحدودها الغربية مع الدولة الرومانية غير مستقرة ، والحرب بينهما سِجَال.

وكان نظام الحكم كسرويّاً مطلَقاً ، على رأسه الملك ولقبه (كسرى) ، وصلاحياته مطلقة ويوصف بصفات الألوهية ، وقد وصف (كسرى أبرويز) نفسه بأنه (الرجل الخالد بين الآلهة ، والإلـه العظيم جدّاً بين الرجال)!.

ويساعده حكام الولايات وهم المسمَّون بـ(المَرازِبة) ، إضافة إلى بعض الأمراء في الأقاليم وهم ملاَّك الأراضي الواسعة ويُسمَّون (الدَّهَاقين) الذين يؤدون أعمالاً إدارية تخدم الدولة ، ويجمعون الضرائب من الفلاحين والعمال ويرسلونها إلى خزينة الدولة.

ومن الناحية الاقتصادية فقد انهمك الملوك والأشراف والأقوياء في ملذات حياتهم ، واحتكروا الثروة ومصادرها ، وزادوا من ثرائهم بالربا

---

(١) الملل والنحل: ١/ ٢٩٥.

الفاحش والضرائب الثقيلة التي فرضوها على الضعفاء من الفلاحين والعامة. وكان العامة من سكان المدن يدفعون الجزية كالفلاحين، ويشتغلون بالتجارة والحِرف، وهم أحسن حالاً من الفلاحين الذين كانوا تابعين للأرض، ومجبرين على السخرة، ويُجَرُّون إلى الحروب بغير أجر ولا إرادة.

٤ ـ الجيش الفارسي[1]:

كان لدولة فارس جيش منظَّم قوي، يشكِّل الفرسان الدارعون فيه القوة الضاربة، ويتوقف النصر على مدى شجاعتهم واندفاعهم وبخاصة الفرقة المعروفة باسم (الخالدين)، وتتكون من عشرة آلاف فارس.

وتتخذ الفيلة مكانها خلفَ الفرسان وكأنها حصونٌ، وتشكل عاملَ رعبٍ لخيل العدو، ومصدرَ ثقة لأفراد الجيش الفارسي، تُحمل عليها أبراج من الخشب مشحونة بالمقاتلين والسلاح ورماة النِّبال وحاملي الرايات.

ويشكل المشاة مؤخرة الجيش، وهم الحراثون الخاضعون للنظام الإقطاعي، يستدعون بدون أجرة وهم غير مَهَرة بالقتال.

كذلك يعتمد الجيش علىٰ المُرْتَزِقَة، وهم من الشعوب القاطنة في أطراف الدولة.

يقود الملك ـ عادة ـ الجيش في المعارك، ويُنصب العرش الملكي

---

(١) قادة فتح بلاد فارس، ص ٤٦ ـ ٥٠؛ إيران في عهد الساسانيين، لآرثركريستنسن، ص ١٩٨ ـ ١٩٩؛ تاريخ الخلفاء الراشدين، لطقوش، ص ٩٨ ـ ٩٩.

وسط الجيش ، ويحيط به خدمه وحاشيته وفرقة من الجند المكلَّفة بحراسته. وإذا كان الملك غائباً جلس مكانه على العرش قائد الجيش ، كما فعل رُسْتَم ـ مثلاً ـ في القادسية.

ثانياً: دولة الروم (الإمبراطورية البيزنطية)[1]:

١ ـ الحالة الدينية والفكرية:

بالرغم من أن الدولة البيزنطية تدينُ بالنصرانية ، لكن ما جاء به المسيح عليه الصلاة والسلام قد تلاشى ضياؤه ولم يبقَ منه إلا أثارات؛ بسبب عمل داعية النصرانية الشهير (بولس) ، الذي طَمس نورها وطعَّمها بخرافات الجاهلية التي انتقل منها ، والوثنية التي نشأ عليها ، وقضى (قسطنطين) على البقية الباقية ، حتى أصبحت النصرانية مزيجاً من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والأفلاطونية المصرية والرهبانية ، اضمحلَّت في جَنْبها تعاليم المسيح البسيطة كما تتلاشى القطرة في اليَمِّ! وأصبحتْ على تعاقب العصور ديانة وثنية لا تغذي الروح ولا تمدُّ العقل ولا تُشعِل العاطفة ولا تحلُّ معضلات الحياة ، وتَحُول بين الإنسان والعلم والفكر.

وتَبَنَّت الدولة (مذهبَ الملكانية) الذي يرى أن للمسيح طبيعتين: إلـٰهية وبشرية ، في حين انتشر (مذهب اليعاقبة والمنفوستية) في بلاد الشام ومصر ، وهو يرى أن للمسيح طبيعة واحدة إلـٰهية ، وقد أدى هذا

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ٤٨ ـ ٥٦؛ قادة فتح الشام ومصر ، ص ١٢ ـ ٢٣؛ الولاية على البلدان ، ص ٣٢ ـ ٣٤؛ عصر الخلافة الراشدة ص ٣٣٤ ـ ٣٣٨.

الاختلاف إلى شقاق عنيف بين الدولة ورعاياها.

وأدى ذلك إلى الانحدار الفكري والعَقَدي الذي أصاب شعوب الإمبراطورية.

وكانت طبقات المجتمع جميعاً تؤمن بالتنجيم، والتنبؤ بالغيب، والعرافة، والاتصال بالشياطين، والتمائم.

٢ ـ الحالة الاجتماعية والأخلاقية:

كان الإمبراطور وقادة الجيش وكبار رجال الكنيسة يعيشون في أعلى السلَّم الاجتماعي، في حين يَقْبَع آلاف العبيد في المزارع الضخمة حيث يعانون من سوء التغذية وتدني مستوى المعيشة، ويقترب من مستواهم المعيشي الأحرارُ الذين يشتغلون في الصناعات. وهذه الطبقات من الفقراء كانوا يحسّون بسوء حالهم، وكثيراً ما حاولوا القيام بثورات لم يوفَّقوا فيها.

والطبقية والإقطاع وفقدان العدالة الاجتماعية كانت تطبع المجتمع الروماني، كما كانت القسوة والعنف والتعصب والجهل والخرافة تطبع حياة الأفراد[1].

وبلغ الانحلال الاجتماعي والخُلقي غايته، وذابت الفضيلة وانهارت دعائم الأخلاق، حتى صار الناس يفضِّلون العزوبة على الحياة الزوجية ليقضوا مآربهم في حرية! وكان العدل يُباع ويُساوم مثل السِّلَع، وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع[2]!.

---

(١) قصة الحضارة: ١٤/١٧٣ ـ ١٧٥، ١٨٧ ـ ١٨٨.

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ٥٠.

٣ ـ الحالة السياسية والاقتصادية:

كانت الإمبراطورية الرومانية تضم الروم في آسية الصغرى (تركية حالياً) ، وتتوسَّع لتُدخِل تحت نِيرها أكثرَ الأمم الشرقية ، فتحتلّ الأقطار الواقعة على حوض البحر المتوسط الشرقي والجنوبي ، فكانت الشام ومصر وشمال إفريقية من الولايات التابعة لها ، فجمعت أجناساً عديدة من العرب والقبط والبربر إلى جانب الروم.

وكان نظام الحكم مَلَكيّاً مطلَقاً ، والفكرة السائدة التي تدعمها الكنيسة: أن الله اختار الإمبراطور لهذا المنصب! فأضحى بذلك موطنَ تبجيل وتقديس من رعاياه في أمور السياسة والدين ، وكانت الطقوس والمراسيم تجري في البلاط بمشاركة الكنيسة ورجال البلاط ، فإذا طلع الإمبراطور ركعوا أمامه جميعاً[١].

وكان الإمبراطور الذي عاصر ظهور الإسلام هو (هِرَقْل).

ويساعده في عمله لجنة فرعية تعمل معه ، وأما حكم المقاطعات فكان حكماً عسكريّاً في الغالب.

وأما الحالة الاقتصادية: فإن الربا والاحتكار هما أساس النظام الاقتصادي! وفُرضت على الأهالي الإتاوات ، وتضاعفت الضرائب على الأنفس والأراضي والحيوانات والممتلكات ، وأُصيبت الدولة بانحطاط هائل كانت نتيجته المغالاة في المكوس والضرائب ، والانحطاط في التجارة ، وإهمال الزراعة ، وتناقص العمران في البلدان.

---

(١) الدولة البيزنطية ، للباز العريني ، ص ٢٦.

وعلى شدة الحاجة إلى الاقتصاد في الحياة ، أسرف الناس فيه ووصلوا في التبذُّل إلى أحطِّ الدرجات ، وأصبح الهمُّ الوحيد اكتسابَ المال من أي وجه ، ثم إنفاقه في التظرُّف والترف وإرضاء الشهوات .

٤ ـ الجيش الروماني[١] :

لما نشأت دولة الروم اقتبست (نظام الكتائب) عن اليونان ، وأدخلَتْه في جيشها الذي يتألف من عدَّة فِرق ، وكل فِرْقة تُقسم ثلاثة صفوف من المشاة ، ويُلحق بكل فرقة كوكبة من الفرسان .

ثم اعتمد الروم في تنظيم جيشهم على تقسيم الفرق إلى (كَرَاديس) بلا تقييد بالصف ، وكل فرقة تضم عشرة كراديس ، يتألف كل كُرْدُوس من نحو (٦٠٠) جندي ، وتضم الفِرَق : الفرسان والمشاة . وبقي الجيش على هذا النظام حتى الفتح الإسلامي .

وتشكِّل **فرقة الفرسان** الثقيلة عمادَ الجيش ، ويرتدي الفارس قميصاً معدنيّاً من رقبته حتى الفخذين ، ويحمل درعاً مستديراً ، كما يرتدي قلنسوة على رأسه ، وقفازاً طويلاً يغطي اليدين إلى ما بعد الرسغين ، وينتعل حذاء من الصلب . وزُوِّدت جِياد الضباط وقوات الخط الأمامي بمقدمة من حديد لحمايتها ، وجُهِّزت الجياد بسروج مريحة ، ورِكاب حديدي .

يستخدم الفارس أثناء القتال سيفاً عريضاً وخِنْجَراً وقوساً ، ويحمل

(١) قادة فتح الشام ومصر ، ص ٢٠ ـ ٢٣ ؛ الحرب عبر التاريخ ، لمونتغمري ، ص ١٩٤ ـ ٢٠٢ ، تاريخ الخلفاء الراشدين ، لطقوش ، ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

جَعْبة مملوءة بالسهام وحربة طويلة ، ويثبِّت بلطة في سرج جواده أحياناً .

وهذا اللباس بثقله وقيوده كان يشكل عبئاً على المقاتلين ، ويحدُّ من حرية حركتهم ، أمام المقاتلين المسلمين الذين امتازوا بخفة الحركة .

وأما المشاة فيُقْسَمون إلىٰ قسمين :

ـ فِرقة المشاة الثقيلة : يرتدي أفرادها رداء معدنيّاً ودرعاً للساقين وخوذة ، ويحملون دروعاً مستديرة كبيرة ، وسلاحهم الهجومي هو الرمح والسيف والبلطة .

ـ وفرقة المشاة الخفيفة : تقتصر مهمتها العسكرية على الدفاع عن الممرات والمناطق الجبلية وحماية المدن والقلاع ، ويشكل الرماة عماد هذه الفرقة .

أما القادة: فيقود كل عشرة آلاف جندي (بِطْريق) ـ يشبه قائد الفرقة ـ، وبإمرته ضابطان يسمَّى كل واحد (طومرخان) ـ يشبه آمر اللواء ـ ، تحت إمرته خمسة آلاف جندي ، ويعاونه خمسة ضباط كل واحد منهم يقود ألف رجل ، وهذا الضابط تحت إمرته خمسة ضباط كل منهم يقود (٢٠٠) رجل ، ثم كل ضابط من هؤلاء بإمرته ضباط صفّ يقود كل منهم عشرة رجال .

وعند ظهور الإسلام ومجيء الفتح الإسلامي كان الجيش الروماني قد وهَى وضَعُف ، لأن مناصبه الكبرى أصبحت تمنح للمحاباة بعد أن كان وفقاً للكفاءة والخدمة الطويلة .

ثالثاً: بقية العالم:

تلك حال الدولتين الكبيرتين ، وأما بقية الشعوب والأمم: ففي

الصين واليابان والهند والتبت وكوريا وكمبوديا وما والاها؛ فتدين بالبوذية؛ وهي ديانة وثنية ترمز لآلهتها بالأصنام الكثيرة وتقيم لها المعابد، وتؤمن بخلود الحياة في دورة لا نهائية من تناسخ الأرواح!.

وفي الهند تزاحم الديانةَ البوذيةَ الديانةُ البرهميةُ التي تقوم على نظام الطبقات وزعامة البراهمة وتقديس البقرة وتناسخ الأرواح، وآلهتها تعدّ بالملايين.

رابعاً: حروب الدولتين:

كانت الحروب بين الفرس والروم قائمة لا تخمد على مدى سبعة قرون، وهما في نزاع دائم على مناطق التخوم بينهما، وميدان الصراع هو بلاد الشام والعراق، ينتصر الفرس تارة ويغلب الروم تارة أخرى، وآخر تلك الحروب عند مجيء الإسلام ما ذكره القرآن في صدر سورة الروم: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ١ ـ ٦].

حيث انتصر الفرس على الروم وفعلوا بهم الأفاعيل وغلبوهم، وأوغلوا في بلاد الشام ووصلوا القدس وأخذوا (الصليب الأعظم)، وتابعوا إلى مصر حتى غلبوا على الإسكندرية. ثم أُدِيلَ عليهم وخاض الروم تحت قيادة (هرقل) مع الفرس معارك عنيفة وأَجْلَوهم عن ممالكهم، وذلك سنة (٦٢٤م) في الوقت الذي انتصر فيه المسلمون على المشركين في معركة بدر سنة (٢هـ).

خامساً: تنبيه:

يدَّعي كثير من المستشرقين أن ضَعْفَ الدولتين الفارسية والرومانية هو أهم الأسباب التي أدَّت للفتوحات الإسلامية وكَسْرِ الدولتين العظيمتين[١]!.

وروَّج لهذه الدعوى بعضُ الكتَّاب من بني جلدتنا[٢].

وهم يريدون بذلك تجريدَ الفاتحين المسلمين من أهليتهم وتحقيقهم لأسباب النصر ، وقبل ذلك التهوينَ من أصالة الدين الجديد وعوامل النصر التي يقوم عليها ، ليهيمن على الدين كله ولو كره الكافرون.

والإجابة على هذه الفِرية سهلة ميسورة:

● فملوك الهياطلة في شرق فارس ، وخاقان الترك في شمالهم ، وهم أممٌ لهم مُلْك متسق وعدد وعدَّة وثروة وَمَدَد ومطامع في الفتح؛ ما فكَّروا بمثل ما قام به المسلمون.

● ثم إن واحدة من الدولتين المتصارعتين لم تستطع أن تحسِم الأمر لصالحها ، ولم تغلب الأخرى غلبة نهائية لا رجعة فيها على مدى سبعة

---

(١) انظر مثلاً: حضارة العرب ، لغوستاف لوبون ، ص ١٦٥؛ العرب في التاريخ ، لبرنارد لويس ، ص ٤٩؛ تاريخ الشعوب الإسلامية ، لبروكلمان ، ص ٩٠؛ قصة الحضارة ، لديورانت: ١٢/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥ ، ١٣/ ٧٢.

(٢) انظر مثلاً: تاريخ الإسلام ، للدكتور حسن إبراهيم حسن: ١/ ١٧٦ ـ ١٧٨؛ الدولة العربية ، لعبد المنعم ماجد ، ص ١٦٠ ـ ١٦٢؛ التمدن الإسلامي ، لجرجي زيدان ، ص ٦٦ وما بعدها؛ تاريخ الخلفاء الراشدين ، للدكتور محمد سهيل طقوش ، ص ٩١ ـ ٩٢.

قرون ، بعكس ما فعلَتْه الفتوحات الإسلامية التي مزَّقت الدولة المجوسية وقهرت الروم.

● وثالثاً: كانت كل من الدولتين تحشد جيوشاً جرارة في مواجهة المسلمين ، وهم أضعاف قوة المسلمين في العدد والعدَّة ، كما يتضح من المعارك الضخمة التي وقعت[1].

(إن الأسباب التي قَضَت علىٰ الفرس والروم بالهزيمة كائنة ما كانت ، ليست هي الأسباب التي قضت للعرب بقيام دولة وانتشار عقيدة ، لأن استحقاق أناس للزوال لا يُنشئ لغيرهم حقَّ الظهور والبقاء)[2].

إن ثمة عوامل كثيرة لانتصار المسلمين سيأتي توضيحها في فصل مستقل إن شاء الله.

سادساً: وقفة وتعقيب:

إن الحالةَ التي كان العالم يعيشها ، والتي قدَّمنا صورةً موجزةً عنها ، وما اعترى البشرية من عقائد باطلة انحطَّت بالإنسان إلى الحضيض ، وتفشي الظلم والانحلال الخلقي ، وسوء الأحوال في الآداب والمعاملات ، وشيوع المحرمات والفواحش والإباحية ، واستعباد الإنسان في النظام الطبقي الأحمق ، وغير ذلك من الموبقات التي رانت

---

(١) انظر: عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٣٨؛ الخلفاء الراشدون ، للنجار ، ص ٤٨ ؛ دواعي الفتوحات الإسلامية ، ص ٧٤.

(٢) قادة فتح الشام ومصر ، ص ٢٥.

على قلوب الناس وصَفَّدتهم بالأغلال... كل ذلك كان يستوجبُ الرحمةَ وتدخلَ القدر الأعلى لإصلاح البشرية واستنقاذها من براثن البهيمية والضياع ، والارتقاء بها في مدارج الكمال الإنساني؛ وهذا ما جاء به الإسلام ، وهذا ما حمله الفاتحون المسلمون لأمم الأرض.

* * *

الفصل الثاني

الفتوحات: الإشارة إليها، ودوافعها وأركانها وأسسها

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بَيْنَا أنا نائمٌ رأيتُ أنّي على حوضٍ أَسقي الناسَ ، فأتاني أبو بكر فأخذَ الدَّلوَ من يدي لِيُريحَني ، فَنَزَعَ ذَنُوبَيْنِ وفي نَزْعِهِ ضَعْفٌ ، واللهُ يغفرُ لهُ . فأتى ابنُ الخطاب فأخذَ منه ، فلم يَزَلْ يَنْزِعُ حتى تَولَّى الناسُ ، والحوضُ يَتفجَّرُ**»[1] .

وقوله: «**فنزع ذَنُوبَيْن**»: إشارة إلى ما فُتح في زمانه من الفتوح الكبار ، وهي ثلاثة: قتال أهل الردَّة وكَسْرهم ، وفتوح في العراق ، وفتوح في الشام[2] .

وعن نافع بن عُتْبَة بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**تَغْزُونَ جزيرةَ العرب فَيَفْتَحُها الله عليكم ، ثم تغزون فارسَ فيفتحُها الله عليكم ، ثم تغزون الرومَ فيفتحُها الله عليكم ، ثم تغزونَ الدَّجَّالَ فيفتحُه الله عليكم**»[3] .

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٢٢) ، وغيره ، وقد تقدم مع شرحه: ص٣٨٨ ـ ٣٩٠ في هذا الكتاب.

(٢) وقد شرحت الحديث في كتابي: نبوءات الرسول ﷺ ، نبوءة رقم (٦٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٠٠)؛ وابن ماجه (٤٠٩١)؛ وأحمد: ١/ ١٧٨ ، ٤/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨؛ وابن أبي شيبة: ٨/ ٦٥٥؛ وابن حبان (٦٦٧٢) واللفظ له؛ والحاكم: ٤/ ٢٢٦.

والمراد بغزو جزيرة العرب: حروب الردة وتثبيت الإسلام في الجزيرة ، وغزو فارس والروم هو ما بدأه الصديق وأتمَّه الفاروق[١] .

وثَمَّةَ أحاديث أخرى؛ مثل: هلاك كسرى وقيصر وإنفاق كنوزهما في سبيل الله ، وقد أوضحت ذلك في كتابي «نبوءات الرسول ﷺ - دروس وعبر» الفصل الثاني: في الغزوات والفتوحات.

●● لقد مكثت الأمة العربية أزمنة طويلة محصورة في جزيرتها ، قواها متفانية في حروب بين قبائلها ، ودولتا فارس والروم قد ملكت عليهم أمرهم ، وإن كان للعرب مُلْك أو رياسة فعلى أنهم عاملون لغيرهم من الفرس والروم ، وهما الدولتان الكبيرتان العريقتان في القوة والعز والبطش واستبحار العمران واستحكام الملك وعز السلطان.

حتى إذا جاء الإسلام جعل العربَ خلقاً آخر ، وأبرزَهم على مسرح الأحداث ، وجَرَّأَهم على فارس والروم ، وهذا ما عبَّر عنه ملوكُ الدولتين وقادتهما باستغراب واستنكار ممزوج بالاستخفاف والاستحقار باديَ الأمر! فما الذي حدث؟.

لقد سمع أبو بكر الأحاديث التي ذكرناها قبل قليل ، فوعاها وعلِمَ مرادها ومرماها ، وسمع قبل ذلك أيامَ الهجرة بُشرى النبي ﷺ لِسُراقة بأنه سيلبس سِوَاري كسرى بن هُرْمُز ، فأيقن الخليفة الكبير أن ذلك كائن لا محالة ، فَلْيَفُزْ هو بتحقيق بشريات النبي ﷺ.

وعاش كذلك مع النبي ﷺ وحضر مجالسه وهو يوجِّه الرسلَ والكتبَ إلى الملوك والعظماء والأمراء يدعوهم بدعاية الإسلام ، وأدرك حقيقة

(١) انظر شرح الحديث في كتابي: نبوءات الرسول ﷺ ، نبوءة رقم (٢٣).

الرسالة بأنها للعالمين؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

فليكن له الشرف الباذخ بكتابة السطور الأولى في تحقيق هذا الهدف الأسمى.

لذلك نَهَد الصديق بمن حوله من تلاميذ النبوة، بعد أن فرغوا من ترسيخ الإسلام والأمان في جزيرة العرب، فألقى ببصره إلى الدولتين الأعظم، ثم رماهما بفريقين من جند الإسلام في آن واحد فحقق المعجزة التي أدهشت التاريخ والمؤرخين.

قوم يخرجون من جزيرة العرب مع رقة أحوالهم، وخشونة عيشهم، وقلَّة عددهم، وضَعْفِ عدَّتهم وَمَدَدهم، ونقصٍ في الوسائل والعوامل المادية التي يعتمدها الآخرون عواملَ للنصر والظفر... يخرجون مع كل هذا وبعد حروب طويلة مع المرتدين وأدعياء النبوة، لينازلوا من؟ فارس والروم!.

أي دماءٍ أصبحت تجري في أجسام هؤلاء، وأية قلوبٍ تنبض في جوانحهم، وأية عزائم تحمِلُهم إلى المهالك، وأية أرواح وآمال تحلِّق بهم لمقارعة ذوي البأس الشديد من الفرس والروم؟!.

إنه الإسلام والقرآن وتربية محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، والهدف الأعلى هو: إخراجُ الناس من جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام، ومن العقائد الباطلة إلى التوحيد الخالص.

هذا الشعب قد أصبح الآن خَلْقاً آخر بما جاءه من هداية السماء، فأصبح الجميع المتناحرون إخواناً قد ألَّف القرآن بين قلوبهم، فأصبحتْ حياتهم له، وحميَّتُهم لأجلِه، وغايتُهم نشرَه وزَرْعَ قيمه وتشييدَ حضارته في آفاق الأرض.

ولقد أكرم الله البشرية والمسلمين وأبا بكر بأن جعل بدايات الفتح في عهده وعلى يديه، فهو الذي فتح للمسلمين أبواب العراق والشام، وجيَّش الجيوشَ لحرب الكفر والظلم والطغيان والجهل، وهو الذي رسم الخِطط وعيَّن القادة وتابَعَ الزحوف ووجَّه الكتب، ورأى ألويةَ النصر ودخولَ الناس في هاتيك الأمصار في دين الله، وقد تمَّ في زمانه الشيء الكثير.

والرسالة الإسلامية عندما نزلت على رسول الله ﷺ في مكة لم يكن مقصدها الاقتصار على تلك الرقعة من الأرض، إنما هي ركيزة الرسالة ومنطلق الدعوة؛ لأن (تحرير الإنسان من الخضوع لغيرِ الله خضوعاً مطلقاً ـ وهو معنى التوحيد الخالص ـ هو الهدف الأكبر للدولة الإسلامية، ويشتمل على تحرير الإنسانية كلها من أنواع العبودية لغير الله)[1].

فالفتوحات ليست استعماراً كما يفتري بعض الأعداء ويوسوس به بعض التبَّاعين لهم من بني جِلْدتنا؛ لأن: (من أهم أهداف الإسلام ودولته تحرير البشر من الاستعباد والظلم، وإقامة العدل بينهم، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين. وهذا يقتضي أن يكون للدولة قوة، وأن تستعمل هذه القوة في الجهاد لإزالة الظلم والاستعباد بين البشر وإقامة

(١) نظام الإسلام ـ الحكم والدولة، لمحمد المبارك، ص ٢٢.

العدل وحماية الكرامة الإنسانية وإخضاع الناس لنظامها الإنساني العادل ، سواء أدخلوا في الإسلام أو بقوا على دينهم ودخلوا تحت لواء نظامها وحكمها.

ومن أهداف الإسلام ودولته كذلك نشرُ الإسلام والدعوة إليه عقيدةً ونظاماً بالحجة والدليل والتعليم والحوار على الصعيد العالمي. وهذه الدعوة السلمية نفسها قد تصادف مَن يمنعُها ويكافحها ، وهنا لا بُدَّ للدولة الإسلامية من حماية دعوتها بالقوة والسلاح ومجاهدة من يقف في سبيلها.

هذان الهدفان؛ وهما:

أ ـ مَنْعُ الظلم بإقامة العدل ، ومنْعُ الاستعباد بالتحرير لبني الإنسان.

ب ـ وحمايةُ نشرِ الدعوة إلى الإسلام ونظامه.

هما هدفا الجهاد الأساسيان)[1].

فالجهاد والفتوحات ليست لإرغام الناس على الحق ، بل لتحقيق حرية الحق في عرضه على الناس دونما إكراه ، فما اعترض سبيله من قوة طاغية أو ظلم يحول دون العامة واختيارهم؛ فإنه يقاتل لا ليرغم على الحق ، وإنما لأنه يمنع بلاغ الحق.

قال ابن تيمية: (وإذا كان أصل القتال المشروع وهو الجهاد ، بقصدِ

---

(١) نظام الإسلام ـ الحكم والدولة ، لمحمد المبارك ، ص ٩٢ ـ ٩٣.

أن يكون الدين كله لله ، وأن تكون كلمة الله هي العليا ، فمن مَنَعَ ذلك قُوتل باتفاق المسلمين)[1].

والرسالة التي حملتها الفتوحات للعالمين تتمثل في تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى ، والكرامة الإنسانية ، والحرية بشمولها ، والعلم والعدالة والمساواة ، والتوازن بين العقل والروح والجسد ، والآداب والأخلاق ، والمسؤولية أمام الله والأمة ، والشورى ، للإنسان الذي يتجه إليه الخطاب الإسلامي في مطلق الزمان والمكان[2].

* * *

---

(١) السياسة الشرعية ، ص ١٨.

(٢) انظر : عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٤٩.

الفصل الثالث

بين الخليفة والقادة والمجاهدين الفاتحين

ما دامت الفتوحات الإسلامية ذاتَ أهدافٍ سامية تصدُر عنها وتسعى لتحقيقها ، فلا بدَّ أن تكون الوسائل والأساليب مكافئة لها في طُهرها وسموِّها ، كما يتوجَّب أن يكون حَمَلَتُها مكافئين لتلك الرسالة التي انطلقوا بها لبلاغها للعالمين ، ومن نافلة القول أن يكون أيضاً القيِّم على مسيرتها ـ وهو الخليفة ـ موازياً في دينه وأخلاقه وملكاته زحوفَها وأعمالَها ومتابعتها وتسديدَ مسارِها .

وهذا ما سنجلِّيه في هذا الفصل .

أولاً: وصايا جيوش الفتح:

●● كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد ومن معه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، بعد الذي منَّ الله به عليهم من النصر في حروب الردة ، فقال :

(الحمدُ لله الذي أنجزَ وعْدَه ، ونصر عبدَه ، وأعز وليَّه ، وأذلَّ عدوَّه ، وغلب الأحزاب فرداً . . . وإن الله فرض الجهاد على المؤمنين فقال : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ . . .﴾ [البقرة : ٢١٦ ـ ٢١٨] حتىٰ فرغ من الآيات؛ فاستتِمُّوا بوعد الله إياكم ، وأطيعوه فيما فرض عليكم وإن عَظُمت فيه المؤونة ، واستبدَّت الرزيَّة ، وبَعُدت المشقة ،

وفُجعتم في ذلك بالأموال والأنفس ، فإن ذلك يسير في عظيم ثواب الله ، فاغزوا رحمكم الله في سبيل الله ﴿ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٤١].

ألا وقد أمرت خالد بن الوليد بالمسير إلى العراق ، فلا يبرحها حتى يأتيه أمري ، فسيروا معه ولا تتثاقلوا عنه؛ فإنه سبيل يعظِّم الله فيه الأجر لمن حَسُنت فيه نيتُه ، وعَظُمت في الخير رغبتُه ، فإذا وقعتم في العراق فكونوا بها حتى يأتيكم أمري. كفانا الله وإياكم مهمات الدنيا والآخرة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)[١].

- وكتب إلى خالد يقول له: (تألَّفْ أهلَ فارس ومَن كان في مُلْكِهم من الأمم)[٢].

- ولما وجَّه خالد بن الوليد وعياض بن غَنْم لفتح العراق ، أوصاهما فقال: (واستعينوا بالله واتقوه ، وآثِروا أمر الآخرة علىٰ الدنيا يجتمعا لكم ، ولا تؤثروا الدنيا فتُسلبوهما. واحذروا ما حذَّركم الله بترك المعاصي ومعالجة التوبة ، وإياكم والإصرار وتأخير التوبة)[٣].

●● وعن سعيد بن المسيِّب: (أن أبا بكر رضي الله عنه لمَّا بعث الجنود نحوَ الشام ، أمَّر يزيد بن أبي سفيان وعَمْرو بن العاص وشُرَحْبيل بن حَسَنة ، ولمّا ركبوا مشى أبو بكر مع أمراء جنوده يودِّعُهم

---

(١) السنن الكبرى ، للبيهقي: ٩/ ١٩؛ حياة الصحابة: ١/ ٤٣٧. الرزية: المصيبة.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٤٣.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ٣٧٢.

حتىٰ بَلَغ ثنيَّة الوداع ، فقالوا: يا خليفة رسول الله ، تمشي ونحن راكبان؟! فقال: إني أَحتسبُ خُطايَ هذه في سبيل الله. ثم جعل يوصيهم فقال:

أوصيكم بتقوى الله ، اغزوا في سبيل الله ، فقاتلوا مَن كفر بالله ، فإن الله ناصر دينه. ولا تَغلُّوا[1] ، ولا تغدِروا ، ولا تجبُنوا ، ولا تُفسدوا في الأرض ، ولا تعصوا ما تؤمرون. فإذا لقيتم العدوَّ من المشركين إن شاء الله فادْعُوهم إلى ثلاثٍ ، فإن هم أجابوكم فاقبلوا منهم وكُفُّوا عنهم: ادعوهم إلى الإسلام ، فإنْ هم أجابوكم فاقبلوا منهم وكُفُّوا عنهم. ثم ادعوهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، فإنْ هم فعلوا فأخبروهم أن لهم مثلَ ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين. وإن هم دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم على دار المهاجرين ، فأخبروهم أنهم كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكمُ الله الذي فرض على المؤمنين ، وليس لهم في الفيء والغنائم شيء حتى يجاهدوا مع المسلمين. فإنْ هم أَبَوا أن يدخلوا في الإسلام ، فادْعُوهم إلى الجزية ، فإن هم فعلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم ، وإنْ هم أَبَوا فاستعينوا بالله عليهم فقاتلوهم إن شاء الله.

ولا تَعْزِقُنَّ[2] نخلاً ولا تَحرِقُنَّها ، ولا تَعْقِروا البهيمة ، ولا شجرةً مثمرةً ، ولا تهدِموا بِيْعة[3] ، ولا تقتلوا الولدان ولا الشيوخ ولا النساء. وستجدون أقواماً حَبَسوا أنفسهم في الصوامع ، فَدَعُوهم وما حَسبوا

---

(١) **الغلول**: السرقة من الغنيمة قبل القسمة.

(٢) أي: لا تَقْطَعُنَّ.

(٣) هي المعبد للنصارى واليهود.

أنفسهم له. وستجدون آخرين اتخذوا للشيطان في أوساط رؤوسهم أفحاصاً[١]، فإذا وجدتُم أولئك فاضرِبوا أعناقهم إن شاء الله)[٢].

ـ وكتب ليزيد بن أبي سفيان وصية طويلة رائعة فيها ألوان من فنون القيادة وأساليب الحرب، وطرق اختبار الجند، ومعاملة العدو، وآداب الإسلام في كل ذلك، وقد وضع فيها قواعد السياسة والحرب وعمود الحكم العادل في الحكومة القوية.

قال في وصيته له حين وجَّهه لفتح الشام: (إني قد ولَّيتك لأبلوك وأجرِّبك وأخرِّجك[٣]، فإن أحسنتَ رددتُك إلى عملك وزدتُك، وإن أسأتَ عزلتُك. فعليك بتقوى الله فإنه يرى من باطنك مثلَ الذي يرى من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدُّهم تولياً له، وأقربَ الناس من الله أشدُّهم تقرباً إليه بعمله.

وقد ولَّيتُك عمل خالد[٤]، فإياك وعُبِّيَّـةَ الجاهلية[٥]؛ فإن الله يبغضها ويبغض أهلها.

---

(١) أي: كَشَفوها بحَلْق شعرها، فكأنَّ الشيطان قد استوطن رؤوسَهم فجعلها له مَفَاحصَ، كما تستوطن القطا مَفاحصَها! وهو من الاستعارات اللطيفة لأن من كلامهم إذا وصفوا إنساناً بشدَّة الغَيِّ والانهماك في الشرِّ؛ قالوا: قد فَرَّخ الشيطان في رأسه وعَشَّش في قلبه. النهاية: ٣/ ٤١٦.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: ٩/ ٨٥؛ وابن عساكر ـ مختصره: ١/ ١٨٨.

(٣) أي: أُدرِّبك.

(٤) هو خالد بن سعيد بن العاص.

(٥) أي: كِبْرَها وفَخْرَها.

وإذا قدِمتَ على جندك فأحسِنْ صحبتهم ، وابدَأْهم بالخير ، وعِدْهم إياه ، وإذا وعظتَهم فأوجِزْ فإن كثير الكلام يُنسي بعضُه بعضاً .

وأصلح نفسك يصلح لك الناس ، وصلِّ الصلواتِ لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها .

وإذا قدِم عليك رسلُ عدوِّك فأكرِمْهم ، وأقلِلْ لُبْثَهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون ، ولا تريِّثْهم فيروا خلَلَك ويَعلموا عِلمَك ، وأنزِلْهم في ثروة[1] عسكرك ، وامنَعْ مَن قِبَلك من محادثتهم ، وكن أنت المتولي لكلامهم . ولا تجعل سرَّك كعلانيتك فيختلط أمرُك .

وإذا استشرتَ فاصدقِ الحديث تُصدق المشورة ، ولا تَخْزُن عن المشير خبرَك فتؤتى من قِبل نفسك .

واسْمُر بالليل في أصحابك تأتِك الأخبار ، وتنكشف عندك الأستار .

وأكثر حرسَك وبدِّدْهم في عسكرك ، وأكثِر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك ، فمن وجدتَه غفل عن محرسه فأحسِنْ أدبه وعاقبه في غير إفراطٍ ، وأعقِبْ بينهم بالليل ، واجعل النوبة الأولى أكثر من الأخيرة فإنها أيسرُهما لقُربها من النَّهار .

ولا تخفْ من عقوبة المستحق ولا تَلُجَّنَّ فيها ولا تُسرع إليها ، ولا تتخذ لها مدفعاً .

ولا تغفُل عن أهل عسكرك فتفسده ، ولا تجسَّس عليهم فتفضحهم ، ولا تكشِف الناس عن أسرارِهم واكتفِ بعلانيتهم ، ولا تجالِس

---

(١) الثروة : الكثرة ، وذلك ليروا كثرة الجند وقوتهم .

العبَّاثين ، وجالِسْ أهل الصدق والوفاء ، واصْدُقِ اللقاء ، ولا تجبُن فيجبن الناس.

واجتنب الغُلول فإنه يقرِّب الفقر ويدفع النصر.

وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع ، فدَعْهُم وما حَبَسوا أنفسَهم له).

روى هذه الوصية ابن الأثير ، وعلق عليها فقال: (وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعاً لولاة الأمر)(١).

ـ وأوصى شُرَحْبيل بن حَسَنة قائدَ أحد الجيوش ـ وقد أصبح خالد بنُ سعيد من جنده وكان أميراً من قبل ـ فقال: (فإذا نزل بك أمرٌ تحتاج فيه إلى رأي التقيِّ الناصح؛ فليكن أولَ من تبدأ به أبو عبيدة بن الجراح ومعاذُ بن جبل ، وليكُ خالد بن سعيد ثالثاً ، فإنك واجدٌ عندهم نُصحاً وخيراً ، وإياكَ واستبدادَ الرأي عنهم أو تطوي عنهم بعض الخبر)(٢).

ـ ووجَّه عمرو بنَ العاص على رأس جيش إلى الشام ، وأوصاه قائلاً:

(يا عمرو! اتَّقِ الله في سرائرك وعلانيتك واستحْيِه ، فإنه يراك ويرى عملك ، وقد رأيتَ تقديمي إياك على مَنْ هم أقدمُ سابقةً منك ، ومن كان أعظمَ غِنًى عن الإسلام وأهله منك. فكن من عمال الآخرة ، وأرِدْ بما تعمل وجهَ الله ، وكن والداً لمن معك ، ولا تكشفنَّ الناس عن أستارهم واكتفِ بعلانيتهم. وكن مجدّاً في أمرك ، واصْدُقِ اللقاءِ إذا لقيتَ

(١) الكامل في التاريخ: ٢/ ٦٤ ـ ٦٥.
(٢) طبقات ابن سعد: ٤/ ٩٨.

ولا تجبُن ، وتقدَّمْ في الغُلول[1] وعاقِبْ عليه. وإذا وعظتَ أصحابك فأوجِزْ ، وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك)[2].

وهذا باب طويل يكفي فيه ما أوردناه.

وفي وصايا الصديق دُرر وعِبر وفوائد وتوجيهات ، ودروس بارعة في فنون السياسة والقيادة والحرب ومعاملة الجند وأهل البلاد المفتوحة ، تركناها لذكاء القارئ حتى لا نطيل بذكرها.

ثانياً: وقفات مع عبقرية الصديق في معاملة القادة:

كان من سياسة أبي بكر مع قادة الجيوش وأُمراء الجهاد ورؤوس المجاهدين الفاتحين إلزامهم بالطاعة للخليفة أولاً ، وللقائد الأمير ثانياً ، وتطاوع الأمراء فيما بينهم ثالثاً ، ثم الرأفة بالجند ومشاورتهم وعدم تعريضهم للمهالك ، وإفساح أوقات الاستجمام والراحة لهم ، وإصلاح شؤونهم وأسلحتهم وخيولهم ، فكان الجميع على قلب واحد.

وأفسح لأمراء الفتح مجالاً رحباً من حرية التصرف أمام الأزمات الحازبة والمستجدات في أراضي المعارك ، فكثيراً ما يتطلب الأمر سرعة الاستجابة دون تمكّث لإرسال البريد للخليفة وانتظار أوامره وتوجيهاته ، ولربما كان القائد الميداني أدرى من الخليفة بمصالح الجيش وسياسة الفتح ومعاملة الأعداء.

(لقد كان أبو بكر في أيام حكمه يعطي حرية كاملة لعماله وقادة

---

(١) أي: انهَ عن الغُلول.

(٢) كنز العمال: ٣/ ١٣٣؛ حياة الصحابة: ٢/ ١١٥.

جيوشه ، وكان لا يخفى عليه شيء من عملهم. لذلك كان بإمكان خالد بن الوليد وأمثاله من الذين يتحملون المسؤولية كاملة ، ويقررون قرارات حاسمة ، ويبتُّون بأهمِّ الأمور وأخطرها على مسؤولياتهم الخاصة ، ويتمتعون بمزية الإبداع الذاتي ـ أن يعملوا بسهولة مع أبي بكر الذي يفسح لهم المجال واسعاً للعمل)[١].

وكان عند أبي بكر مقدارٌ كبير من (اللامركزية) في إدارة حركة جيوش الفتح ، مع احترام شديد لشخصية القائد وأهليته وحسنِ تدبيره وقيادته ، ومعرفةٍ واعية لكل ناحية من البلدان المفتوحة ليرسل إليها من يكافئها من عباقرة القادة وحجم الجند. كذلك فهو على اتصال دائم ومتابعة مستمرة للجيوش ، وإرسال الأمداد ، وتوجيه الكتب والأمراء والوصايا والنصائح.

والصديق قد مَنَح عمره المتبقي في أيام خلافته لله وللإسلام وللناس أجمعين ، من ساعة مغادرة الجند أرضَ المدينة حتى يعودوا إليها سالمين ظافرين ، أو ينتقلوا إلى جبهة أخرى.. فكان هو (القائد الأعلى للقوات المسلحة) ، يشرف على العمليات من عاصمة خلافته عن طريق الكتب والرسل والمشورة مع كبار الصحابة في المدينة وذوي الرأي في ساحات الجهاد والفتح.

● وجَّه أبو بكر خالد بن الوليد وعياض بن غَنْم لفتح العراق ، فأمر خالداً أن يدخلها من أسفلها ، وأمر عياضاً أن يدخلها من أعلاها ، ثم يستبقا إلى الحِيرةِ ، فأيُّهما سَبَق إلى الحيرة فهو أميرٌ على صاحبه ،

---

(١) قادة فتح العراق ، ص ١٥٧.

وقال: (إذا اجتمعتُما بالحيرة ، وقد فَضَضْتُما مسالحَ فارس ، وأمِنْتُما أن يُؤتى المسلمون من خَلْفهم ، فليكن أحدُكما رِدْءاً للمسلمين ولصاحبه بالحيرة ، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارَهُم ومستقرَّ عزِّهم : المدائن)[1].

● وكان عمرو بن العاص مقيماً بقُضَاعة مذ قضى على الردة فيها ، فبعث إليه أبو بكر يخيِّره أن يبقى حيث هو أو يسير إلى الجهاد في الشام ، وكتب إليه :

(وقد أحببتُ ـ أبا عبد الله ـ أن أفرِّغك لِما هو خير لك في حياتك ومعادك منه ، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحبَّ إليك) .

فكتب إليه عمرو : (إني سهمٌ من سهام الإسلام ، وأنت بعد الله الرامي بها ، والجامعُ لها؛ فانظر أشدَّها وأخشاها وأفضلَها فارمِ به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي!) .

(وكتب إلى الوليد بن عُقْبة بنحو ذلك ، فأجابه بإيثار الجهاد)[2] .

● وعندما وجَّه الجيوشَ الأربعة إلى الشام ، أمر كلَّ أمير أن يسلك طريقاً غير طريق الآخر ، لِما لحظ في ذلك من المصالح ، وكأن الصديق اقتدى في ذلك بنبي الله يعقوب عليه السلام حين قال لبنيه : ﴿ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف : ٦٧][3] .

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/ ٣٤٧ ، ٣٧٢ .

(٢) تاريخ الطبري : ٣/ ٣٨٩؛ البداية والنهاية : ٧/ ٢ .

(٣) البداية والنهاية : ٧/ ٣ .

فخرجت الجيوش في طرق متباعدة نسبيّاً ، فكانت على شكل رؤوس حِراب أو على شكل مروحة ، وهو عادة ما يعرف (بحركة الانتشار) في الجيوش الحديثة[1] .

● ولمَّا اجتمعت الروم في أعدادها الهائلة في اليرموك ، كتب أمراء الجيوش للخليفة بالأمر ، فكتب إليهم :

(أن اجتمعوا فكونوا عسكراً واحداً ، والقَوْا زحوفَ المشركين بزحف المسلمين؛ فإنكم أعوانُ الله ، والله ناصرٌ مَن نصره ، وخاذلٌ من كَفَره ، ولن يؤتى مثلُكم من قلّة ، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أُتوا من تلقاء الذنوب ، فاحترسوا من الذنوب ، واجتمعوا باليرموك متساندين ، وليصلِّ كل رجل منكم بأصحابه) .

واستمده المسلمون ، فقال : خالدٌ لها ، فبعث إليه وهو بالعراق وعزم عليه واستحثَّه في السير ، فقدِم إليهم على رأس جيش ، فكان هو أمير الأمراء[2] .

● وكانت لخالد اجتهادات في حروبه تقتضيها عبقريته المتفردة ، وربما أخطأ في الاجتهاد ـ كما يرى عمر أو غيره ـ فكان أبو بكر لا يسمع لرأي عمر في عزله ، لما يرى من المصلحة الكبرى في قيادة خالد[3] ، ويقول : لا أَشيم سيفاً سلَّه الله على أعدائه . وللصديق في هذا العمل أسوة

---

(١) الفن العسكري الإسلامي ، للدكتور ياسين سويد ، ص ٨٩؛ أبو بكر الصديق ، للصلابي ، ص ٣٩١ .

(٢) تاريخ الطبري : ٣/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣؛ البداية والنهاية : ٧/ ٥ .

(٣) انظر : السياسة الشرعية ، لابن تيمية ، ص ١٨ ؛ الولاية على البلدان ، ص ٣٧٦ .

برسول الله ﷺ ومواقفه المشهورة مع سيف الله خالد.

● وكان لا يأذَنُ لمرتدٍّ أن يشارك في الفتوح والجهاد ، وأوصى قادته أن لا يُكرِهوا أحداً على السير معهم للجهاد ، ولربما طلبوا منه المددَ فيوجِّه إليهم ذوي النجدات وأولي البأس والخبرة والحِنكة.

كتب إلىٰ خالد وعياض: (وَأْذَنَا لمن شاء بالرجوع ، ولا تَستفتحا بمُتكارِه)[١].

واحتاج هذان القائدان إلى الإمدادات (فاستمدَّا أبا بكر ، فأمَدَّ أبو بكر خالداً بالقعقاع بن عَمْرو التميمي ، فقيل له: أَتُمِدُّ رجلاً قد ارفَضَّ عنه جنودُه برجل؟! فقال: لا يُهزم جيشٌ فيهم مثل هذا! وأمدَّ عياضاً بعبد بن عوف الحِمْيَري. وكتب إليهما أن استنفِرا مَن قاتلَ أهلَ الردَّة ، ومن ثَبَت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ ، ولا يَغزونَّ معكم أحدٌ ارتد حتى أَرى رأيي. فلم يشهد الأيام مرتد)[٢].

● وفي أثناء فتوح خالد بالعراق ، وجَّه جيشَه نحو الحيرة ، ويَمَّمَ هو شطر مكة فحجَّ على جناح السرعة ، ولحِقَ بالجيش عندما وافى الحيرةَ ، دون علم الخليفة! فتناهى الخبر إلى الصديق؛ فكتب إليه يَلومُه ويهنِّئُه وينصحه ، وكتب إليه كتاباً صادفه وهو قافلٌ من حجِّه: (أنْ سِرْ حتى تأتي جموعَ المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شَجُوا وأَشْجَوا[٣] ، وإياكَ أن

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٤٦.
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧؛ قادة فتح العراق ، ص ٣٣٢.
(٣) **أشجاه قِرْنُه**: قَهَره حتى شَجِيَ به. **والشَّجَا**: ما اعترَض ونَشِب في الحَلْق من عَظْم أو نحوه.

تعودَ لمثلِ ما فعلتَ؛ فإنه لم يُشْجِ[1] الجموعَ من الناس بعونِ الله شَجَاك ، ولم يَنزع الشَّجَى من النـاسِ نَزْعَكَ! فَلْيهنِكَ أبا سليمان النيَّة والحُظْوة ، فأَتْمِمْ يُتِمِمِ الله لك ، ولا يَدْخُلنَّك عُجْبٌ فتخسر وتُخْذَل ، وإياك أن تُدِلَّ بعمل ، فإنَّ الله له المَنُّ ، وهو وليُّ الجَزاء)[2] .

لله درُّ الخليفة ودَرّ خالد! وأنعِمْ بها من أمة فيها أمثال هؤلاء السادة الأماجد ، وعلى مثل هذه الأخلاق النبيلة .

● ووكل أمور إدارة المعارك لقادة الجيوش ، وحدَّد لهم خطوطاً رئيسة ، وأمرهم بالتعاون والتطاوع والطاعة ، ومما قاله لهم :

(يا أبا عبيدة ويا معاذ ويا شُرَحْبيل ، أنتم من حماة هذا الدين ، وقد فوَّضْتُ إليكم أمر هذه الجيوش ، فاجتهدوا في الأمر ، واثبتوا ، وكونوا يداً واحدة في مواجهة عدوِّكم. . . فإذا قدِمتم البلدَ ولقيتم العدوَّ واجتمعتم على قتالهم؛ فأميرُكم أبو عبيدة بن الجراح ، وإن لم يَلْقكم أبو عبيدة وجمعتْكم حربٌ فأميرُكم يزيد بن أبي سفيان)[3] .

● وكتب إلى المُثنَّى بن حارثة: (أما بعدُ: فإني قد بعثتُ إليك خالد بن الوليد إلى أرض العراق ، فاستقبلْه بمن معك من قومك ، ثم ساعِدْه ووازِرُه وكانِفْه ، ولا تعصينَّ له أمراً ، ولا تخالفنَّ له رأياً. . . فما أقام معك فهو الأمير ، فإن شَخَصَ عنك فأنت على ما كنتَ عليه ، والسلام عليك)[4] .

---

(١) أي: لم يقهر الجموعَ أحدٌ قَهْرَك .
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥ ، ٤٠٧ .
(٣) فتوح الشام ، للأزدي ، ص ٧ .
(٤) مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٣٧١ .

● وعلِمَ أن خالد بن سعيد بن العاص وهو بتَيْمَاء قد تجمَّع عليه الأعداء ، فكتب إليه : (أقدِمْ ولا تقتحمنَّ حتى لا تُؤتى من خَلْفك!)[1] .

وكتب إلىٰ أبي عبيدة ويزيد : (وأمر كلَّ واحدٍ منهما بالغارة ، وألاَّ تُوغِلوا حتى لا يكون وراءكم أحدٌ من عدوِّكم)[2] .

وكان خالد بن الوليد في انتصاراته بالعراق يؤمِّن الجنود أن يُؤْتَوا من خَلْفهم ، ويقول : (بذلك أَمَرنا الخليفةُ ، ورأيُه يعدِل نَجْدةَ الأمة!)[3] .

هذه ومضات كاشفة عن سياسة الصديق في إدارة دفة الفتوحات ، وتعامله مع القادة والجند وأهل البلاد المفتوحة ، تنبئ عن عبقرية فذة ، وعلم بـ (استراتيجيات) الحروب ، وجغرافية البلدان ، وأساليب القتال والكيد والزحف والمواجهة ، واختيار الأكفاء ، واحترام شخصيات الأمراء ، وتقدير الكفاءات واستخراج الطاقات الكامنة ، مع الربانية في كل ذلك ، والمتابعة الدؤوبة والتوجيه والمحاسبة ، فيما فيه مصلحة الإسلام والأمة .

●● ولنختم هذا الفصل بذِكر قائمة بأسماء قادة الفتوحات وأمراء الحرب وعباقرة الفتح في عهد أبي بكر :

١ ـ خالد بن الوليد .

٢ ـ المثنىٰ بن حارثة الشَّيباني .

٣ ـ عياض بن غَنْم .

٤ ـ أبو عبيدة بن الجراح .

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/ ٣٨٩ .
(٢) المرجع السابق : ٣/ ٤٠٨ .
(٣) المرجع السابق : ٣/ ٣٧٣ .

٥ ـ يزيد بن أبي سفيان .

٦ ـ معاوية بن أبي سفيان .

٧ ـ شُرَحْبيل بن حَسَنة .

٨ ـ عَمْرو بن العاص .

٩ ـ خالد بن سعيد بن العاص .

١٠ ـ القَعْقاع بن عَمْرو .

١١ ـ عِكْرمة بن أبي جهل .

١٢ ـ أبو أُمامة الباهلي .

١٣ ـ أبو الأَعْورِ السُّلَمي .

١٤ ـ هاشم بن عُتْبة المعروف بالمِرْقَال .

١٥ ـ ضِرار بن الخطَّاب بن مرداس الفِهْري .

١٦ ـ قُطْبة بن قتادة السَّدوسي .

١٧ ـ الوليد بن عُقْبة بن أبي مُعَيط .

١٨ ـ ضِرار بن الأَزْوَر .

١٩ ـ عدي بن حاتم .

٢٠ ـ حَبيب بن مَسْلَمة .

٢١ ـ عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وهو مثل أبيه ، وكان أمير أحد الكراديس في معركة اليرموك ، وهو ابن (١٨) سنة !.

* * *

الفصل الرابع
موجز عن الفتوحات

أولاً: فتوحات العراق:

١ ـ توطئة: الجيش ونظام القتال:

لم يظهر الجيش النظامي في عصر الخلفاء الراشدين بالصفة التي نجدها في الدولة العباسية ، بل كانت الأمة كلها مقاتلة مجاهدة ، فكلُّ مَن كان قادراً على الجهاد ومسجلاً في ديوان العطاء يهبُّ للانخراط في الحملة العسكرية. واعتمدت جيوش الفتح على المتطوعين الذين يتدربون باستمرار على الفروسية والرماية والمبارزة والسباحة؛ مما وفر للدولة أعداداً كبيرة من القادرين على القتال العارفين بأساليبه وفنونه.

ولقد أرسى الرسول القائد ﷺ القواعد العسكرية الإسلامية ، ووضع تعاليمها النظرية والتطبيقية ، وَحَذَا الخلفاء الراشدون حذوَه ، فاستطاعوا تحقيق أكبر الانتصارات على أقوى جيوش فارس والروم.

وكانت (القبيلة) هي الوحدة العسكرية في ميدان القتال ، وعَرف الجيش الإسلامي عدة رُتَب تتمثل في: أمير الجيش ، ونائبه ، وأمراء الكراديس ، وأمراء التعبئة ، والنقباء ، والعرفاء ، وكان الجيش يرفع لواء ، وراية للقبائل ونحوها.

والمقاتلون (فرسان) و(مشاة) ، وحرصت الدولة على تربية الخيول

وحدَّدت لها (الحِمَى) ، والفارس يُعطى من الغنيمة سهمين والراجل سهماً واحداً.

وتعتمد (التعبئة) على نظام (الصفوف) ونظام (الكَرَاديس) ونظام (الخَميس) فكان الجيشُ يُقسم إلى خمسة أقسام: المَيْمنة ، والمَيْسرة ، ويُطلق عليهما: الجناحان ، والقلب ، والساقة ، والمؤخرة. وكل قسم يضمُّ عدة كراديس ، ويتألف كل كُردوس من ألف مقاتل وله قائده وحاشيته وراياته. وبين كل كردوس وآخر فسحة من الأرض مناسبة تسمح للمقاتلين بحرية الحركة والقتال.

وكانت الدولة تموِّن الجيش بما يلزمه من الطعام والسلاح والخيول والجمال[1].

٢ ـ البدايات:

في القسم الجنوبي من العراق كانت تسكن قبيلة بني شَيْبان؛ ومن أشهر زعمائها: المثنى بن حارثة الشيباني ، وقبيلة سَدُوس؛ ومن زعمائها قُطْبة بن قتادة السَّدُوسي.

وكان المثنى الطليعةَ الميمونةَ لفتوح العراق ، وهو أول مَن أضاءَ شعلة الجهادِ في ربوعه ، وجرَّأ العربَ على مهاجمة الدولة الساسانية وفي عُقْر دارها ، وكان ميمونَ النَّقيبة يشبه خالد بن الوليد في مزاياه ، وخاض معارك هائلة كان النصر حليفَه فيها جميعاً ، ولم تُهزمَ له راية ، تماماً مثل سيف الله خالد[2]!.

---

(١) انظر: عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٧٩ ـ ٣٨١ ، مع هوامشه.

(٢) قادة فتح العراق ، ص ٢٩ ـ ٣٠ ، ٤٩.

وقد شجَّعَ الخليفةَ العظيم أبا بكر على الفتح والبدء بالعراق: تحقيقُ عالمية الرسالة والدعوة والدولة، والبشرياتُ بالفتوح التي أَسْرجَها رسولُ الله ﷺ في قلوب أمته عامة وقادتها خاصة، وتَضَعْضُعُ دولة فارس في هزيمتهم أمام الروم، واختلافُ أشرافهم على الملك واصطراعهم عليه، وتناقصُ سلطانهم على العرب كاليمن وما والاه بعد حروب الردة، وأعمالُ المثنى التي ترامت للناس فتساءلوا: مَنْ هذا القائد الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه؟ فأجاب قيس بن عاصم المِنْقري: هذا رجل غير خامل الذِّكر، ولا مجهول النَّسب، ولا ذليل العِماد؛ هذا المثنى بن حارثة الشيباني!.

وحضر المثنى إلى المدينة المنورة، وسأل أبا بكر أن يؤمِّره على رجال قومه ليهاجم بهم الفرس في العراق، فقال: (يا خليفةَ رسول الله! استعملْني على قومي، فإن فيهم إسلاماً، أقاتل بهم أهل فارس، وأكفيك أهلَ ناحيتي من العدو). فكتب له أبو بكر الصديق رضي الله عنه بذلك عهداً، فهو الذي أطمع أبا بكر والمسلمين في الفرس وهوَّن أمر الفرس عندهم[1].

٣ ـ أبو بكر يرسل الجيوش ويضع لهم الخطة:

بعد أن فرغ سيف الله خالد من معركة اليمامة قدم إلى المدينة، فقال له أبو بكر: تهيأ حتى تخرج إلى العراق[2].

(١) أسد الغابة: ٤/ ٢٩٩ ـ ٢٠٠؛ الإصابة: ٣/ ٣٤١؛ تاريخ الطبري: ٣/ ٣٤٤؛ قادة فتح العراق، ص ٣٢ ـ ٣٣.
(٢) قادة فتح العراق، ص ١٢٠.

وكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد إذ أمَّره على حرب العراق أن يدخلَها من أسفلها ، وإلى عياض بن غَنْم إذ أمَّره على حرب العراق أن يدخلَها من أعلاها ، ثم يَستبِقا إلى الحيرة ، فأيُّهما سَبق إلى الحيرة فهو أميرٌ على صاحبه . وقال: إذا اجتمعتُما بالحيرة ، وقد فَضَضتُما مسالحَ فارس وأمِنتُما أن يُؤتى المسلمون من خَلْفهم ، فليكن أحدكما رِدْءاً للمسلمين ولصاحبه بالحيرة ، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارَهم ومستقرَّ عزِّهم: المدائن[1] .

توجه خالد إلى العراق في المحرم من سنة (١٢هـ)[2] ، وسار في (ألفي رجل) وانضمت إليه (ثمانية آلاف) من ربيعة ومُضَر تحشدت في مناطقها والتحقت به في طريقه إلى العراق ، كما انضم إليه (ثمانية آلاف) كانوا مع المثنى بن حارثة الشيباني والقادة الآخرين في العراق؛ فكان مجموع جيش خالد الذي لقي به العدو في أول معركة (ثمانية عشر ألفاً)[3] .

وبدأ خالد معاركه من منطقة (البصرة): لأن قوات المثنى بن حارثة كانت تقاتل في تلك المنطقة ، وهي القوة الرئيسة التي تقاتل في العراق ، ولأن قوات خالد الأصلية في اليمامة وهي أقرب إلى منطقة البصرة ، ولأن أبا بكر أمر خالداً أن يبدأ (بالأُبُلَّة)[4] ، وأمر عياض بن غَنْم أن يبدأ (بالمُضيَّح)؛ أي: إن خالداً يهاجم العراق من جنوبه وإن عياضاً يهاجمه

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٤٧ ، ٣٧٢ . **المسالح**: القوم المُسَلَّحون .
(٢) المرجع السابق: ٣/ ٣٤٣.
(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٤٧؛ قادة فتح العراق ، ص ١١٩ .
(٤) مدينة تقع جنوب البصرة بمسافة (١٥ ميلاً) ، في زاوية الخليج العربي .

من شماله؛ وهذا قرار صحيح من الناحية العسكرية: لتفريق قوات العدو من جهة، ولتضليل الفرس عن اتجاه التعرض الرئيسي لقوات المسلمين من جهة أخرى[1].

أ ـ في معركة ذات السلاسل:

لما قدِم خالد(الأُبُلّة) فرّق جنده ثلاث فِرق ولم يحملْهم على طريق واحدة، وكان على مقدمته المثنى بن حارثة الشيباني، وبعده عدي بن حاتم الطائي، وجاء خالد بعدهما وواعدهما (الحُفَيْر) وهو من أقوى مناطق الفرس وأشدِّها شوكة، وكان صاحبه (هُرْمُز) من أبرز قادة الفرس يحارب العرب برّاً وبحراً.

وتعجَّل هرمز إلى (الكواظم) بقواته الخفيفة، فسمع أن المسلمين تواعدوا (الحُفير) فسَبَقهم إليه ونزل به واتخذ تشكيلات القتال، واقترن رجاله بالسلاسل[2] لئلا يفرُّوا، فلما علم خالد بأخبار الفرس مالَ بالناس إلىٰ (كاظِمة)[3] فسبقه هرمز إليها. وجاء خالد ونزل على غير ماء، وقال لأصحابه: (لَيَصيرنَّ الماء لأصبرِ الفريقين، وأكرم الجُنديْن).

وبعد اصطدام الجمعين، خرج (هرمز) فدعا خالداً للمبارزة مبيِّتاً الخيانة، ونزل خالد فالتقيا واختلفا ضربتين، فاحتضنه خالد، ولكن حامية هرمز حملت غدراً على خالد، فما شغله ذلك عن قتل هرمز! وهنا تحققت فراسة أبي بكر الصديق في القعقاع بن عمرو حين أمدَّ به وحده

---

(١) قادة فتح العراق، ص ١٢١.

(٢) لذلك سميت المعركة بذات السلاسل.

(٣) هي الآن في الكويت.

خالداً ، فقد حمل على أهل فارس حين رآهم يحملون على قائده خالد وهو مشغول بمبارزة هرمز ، حتى كشفهم ومكَّنَ خالداً من قتل القائد الفارسي! وحمل القعقاع واستلحم حماةَ هرمز فأناموهم ، وانهزم أهل فارس وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل(١) .

واستحوذ المسلمون علىٰ أمتعتهم وسلاحهم فبلغت وِقْر (ألف بعير) ، ونَفَّل أبو بكر خالداً (قَلَنْسُوة هرمز) ، وكانت قيمتها مئة ألف درهم ؛ وهي مرصعة بالجوهر(٢)! .

وبعث خالد الأمراء يميناً وشمالاً يحاصرون حصوناً هنالك ، ففتحوها عَنْوة وصُلحاً ، وأخذوا منها أموالاً جمَّة ، ولم يكن خالد يتعرَّض للفلاحين ـ مَن لم يقاتل منهم ـ ولا لأولادهم ، بل للمقاتلة من أهل فارس(٣) .

ب ـ وقعة المَذَار (الثِّنْي)(٤) :

كتب هُرْمز إلى (كِسرى أَرْدَشِير) بخبر خالد ومسيره إليهم من اليمامة ، فأمدَّه بـ (قارن) فخرج من (المدائن) حتى انتهى إلى (المَذَار) ، وفيها بلغه مقتلُ (هرمز) واندحار جيشه ، فضَمَّ (قارن) فلولَ جيش هرمز إلى قواته وعسكر (بالمذار) واتخذ تشكيلات القتال ، وعلى ميمنته (قُبَاذ) وعلى ميسرته (أنوشجان) .

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩ ؛ قادة فتح العراق ، ص ١٢٢ ـ ١٢٣ ؛ خالد بن الوليد ، للصادق عرجون ، ص ٢١١ .

(٢) تاريخ الطبري : ٣/ ٣٤٩ ؛ البداية والنهاية : ٦/ ٣٤٤ .

(٣) البداية والنهاية : ٦/ ٣٤٤ .

(٤) **المذار** : تقع بين البصرة وواسط . **الثني** : النهر .

فلما نزل خالد (المذار) ، التقى الطرفان هناك ، فاقتتلوا على حَنَقٍ وحَفِيظة ، وخرج (قارن) يدعو للبراز ، فبرز له خالد وأبيضُ الركبان مَعْقِل بن الأعشى بن النبَّاش ، فسبقه إليه معقلٌ وقتله ، وقتلَ عديُّ بن حاتم قُبَاذَ ، وقتل عاصمُ بن عمرو الأنوشجانَ ، وقتلوا من الفرس مقتلة عظيمة ، وغرِق منهم الكثير ، ولولا المياه التي منعت المسلمين من طلبهم لما أُفلت من الموت منهم أحد[١] .

ج ـ معركة الوَلَجة :

كَبُر على الفرس تلاحقُ الهزائم التي حلَّت بجيوشهم ، وقتلُ أشجع أبطالهم على أيدي هؤلاء العرب الذين كانوا لا يَجرؤون قبل اليوم على مواقفتهم! فأرسلوا جيشاً كثيف العدد قوي العدَّة بقيادة بطل من أبطالهم يدعىٰ : (الأَنْدَرْزَغر)[٢] ، وقد جمع إلى جند فارس عربَ الضاحية ومتنصِّرة بكر بن وائل ، ثم أمدُّوه بجيش عليه (بَهمن جاذَوَيْه)[٣] ، واجتمع الجيشان بمكان يقال له : (الوَلَجة) ، وأَعجب قائدَ الفرس ما رأى من كثرة جنده ، وتمام أسلحتهم .

وبلغ خالداً تجمُّعُهم فنهض إليهم ، وخلَّف سويدَ بن مقرِّن المزني وأمره بلزوم (الحُفَيْر) ليحمي ظهره ، وقسم جيشه إلى ثلاث فِرق سار على رأس فرقة منها لملاقاة العدو ، وجعل من فرقتين كميناً بقيادة بُسْر بن أبي رُهْم ، وسعيد بن مرّة ، وهذه خطة حربية ماهرة ، تبين حِذْقَ خالد

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/ ٣٥١ ـ ٣٥٢؛ البداية والنهاية : ٦/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥؛ قادة فتح العراق ، ص ١٢٣ .

(٢) معناه : كلب الصيد .

(٣) معناه : أحسن ساحر .

ودهاءَه في إدارة دفة الوقائع وملاقاة الأعداء مهما تكاثَفَ عددُهم.

التقى الجمعان واستعرت نار الحرب بينهم، وطال الأمر على الناس، وعَظُم الخَطْب على الفريقين حتى نَفَذَ الصبر منهما، وإذا (بالكمين الخالدي) يفاجئ العدوَّ فيكتنفهم من جوانبهم، وخالد بفرقته يأخذُهم من بين أيديهم، حتى دارت عليهم الدائرة فولَّوا الأدبار منهزمين، ومضى قائدهم (الأَندرزغر) على وجهه من الرعب لا يلوي على شيء، فمات عطشاً[1].

د ـ معركة أُلَّيْس:

قتل خالد يوم (الولجة) طائفةً من بكر بن وائل من نصارى العرب ممن كانوا مع الفرس، فغضب لهم قومهم وكاتبوا الفرس على أن يكونوا معهم يداً واحدةً على المسلمين.

فكتب (أَرْدَشِير) إلى (بَهْمَن جاذَوَيْه): أنْ سِر حتى تقدم (أُلَّيس) بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب. فقدَّم (جاذويه) أمامه (جابان)، فلما نزل (أليس) اجتمعت إليه المسالح[2] التي كانت بإزاء المسلمين، وانضم إليه النصارى من بكر بن وائل وتَيْم الَّلات وضُبَيْعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة.

وصلت قوات خالد، فوجدت القوات الفارسية تتناول طعامها، فما كادت قواتُه تحطُّ أثقالها حتى عاجَلَ الفرسَ بالقتال. وبرز خالد أمام

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٤٥؛ قادة فتح العراق، ص ١٢٤؛ خالد بن الوليد، للصادق عرجون، ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٢) **المسالح**: جمع مَسْلَحة، وهي القوم المُسَلَّحون. وتُطلَق على موضع السلاح، وعلى الثَّغْر.

الصف وهو ينادي قادة العرب النصارى للبراز ، وما كاد يخرج إليه أحدُهم إلا وقتله بسرعة خاطفة ، فترك الأعاجم طعامهم وصبروا للمسلمين على أمل ورود المَدد إليهم.

وضَيَّق خالد الخِناق على الفرس حتى انهزموا ، فأمر خالد مناديه فنادى في الناس: (الأسرَ ، الأسرَ ، لا تقتلوا إلا من امتنع) ، فأقبلتِ الخيول بهم أفواجاً مستأسِرين يُساقون سَوْق النَّعَم[1]!.

هـ ـ يوم أَمْغِيْشَيا:

واندفع خالد بجيشه إلى الأمام حتى بَلَغ (أمغيشيا) ، وهي مِصْرٌ كالحيرة ، وكانت (أُلَّيْس) من مسالِحها ، فخشي خالد أن يكون للفرس وحلفائهم من متنصِّرة العرب جموعٌ بها ، فأراد بتقدُّمه هذا القضاءَ على مظانّ المقاومة ، ولم يَكد يطأ بجيوشه (أَمْغِيْشَيا) ، حتىٰ جَلاَ أهلُها عنها وتفرَّقوا في (السَّواد) ، وتركوا كل شيء من الأموال والأثاث وعتاد الحرب ، فعَظُمت غنيمة المسلمين حتى بلغ سهم الفارس (١٥٠٠) درهم سوى الأنفال[2].

●● وكان خالد في كل موقعة يبعث إلى الخليفة بالبشارة والفتح وخمس الغنائم ، ولما جاءت أبا بكر البشارة والغنائم ، خطَبَ الناس فقال: (يا معشرَ قريش! إنَّ أسَدَكم قد عَدَا على الأسَد فغَلَبه على خَرَاذِيله!

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٥٥ ـ ٣٥٨؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧؛ قادة فتح العراق ، ص ١٢٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٥٨؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٤٦؛ خالد بن الوليد ، للصادق عرجون ، ص ٣١٥.

عجزتِ النساء أن يلدنَ مثلَ خالد بن الوليد)[١].

و ـ في الحيرة:

قدَّر مَرزُبان الحيرة (الآزاذبه) أن خالداً لن يتركه، وأنه سيركب إليه (نهر الفرات)، فخرج بجيوشه حتى عسكر خارج الحيرة، وأَمَر ابنَه أن يتقدَّم فيسدَّ الفرات ليفجِّر الماء إلى الأنهار المتفرعة من الفرات، حتى تقف السفن التي تحمل جيوش المسلمين. وتمت هذه الخديعة! ولكن لفتة من لفتات العبقرية الخالدية ووثبة من وثبات سيف الله كفيلة بتفريج هذه الأزمة السانحة!.

حمل خالد رجالَه في السفن وسار شمالاً باتجاه الحيرة، فلم يَفجأ المسلمين إلا السفن جوانح، فقال الملاَّحون: إن الفُرس فجَّروا الأنهار فسلك الماء غير طريقه! فتعجَّل خالد في (جَريدة)[٢] من الخيل نحو ابن صاحب الحيرة، فباغَتَ خيلَه على فم (العَتيق)[٣] وهم آمنون من الغارة في تلك الساعة، فاقتتلوا بموضع (المَقْرِ)[٤] حتى هزمهم بعد أن قَتل ابنَ صاحب الحيرة، وأعاد الماء يجري في النهر، فعادت سفنُ المسلمين إلى المسير!.

وقصد خالد (الحيرة)، فوجد أهلها متحصِّنين داخلها، وقد فرَّ

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/٣٥٩؛ البداية والنهاية: ٦/٣٤٧. قوله: **(أسدكم)**: يعني خالداً. **(الأسد)**: الفُرس، والعرب تطلق على فارس اسم: **الأسد**. **خزاذيله**: هي قطع اللحم.

(٢) **جريدة**: خيل لا رَجَّالة فيها.

(٣) **العتيق**: نهر، فيه مصب الفرات الأصلي.

(٤) **المقر**: فم نهر العتيق.

صاحبها بعدما علم بموت (أَرْدَشِير) ، وقَتْل ابنِه ، فعسكر خالد بين (الغريَّيْن)[1] والقصر الأبيض ، وأجال خيلَه في عَرَصَاتهم ، ووكل لكل قصر قائداً يحاصِرُ مَن فيه ويقاتلهم ، وعهد إلى أولئك القادة: أن يدعوهم ، فإن لم يقبلوا أجَّلُوهم يوماً ، ثم ناجَزُوهم.

وبعد قتال افتتح المسلمون الدور والديرات وأكثروا القتل ، فنادى القسيسون والرهبان: يا أهل القصور ، ما يقتلنا غيركم! فنادى أهل القصور: يا معشر العرب ، قد قبلنا واحدة من ثلاث ، فكُفُّوا عنَّا حتى تبلِّغُونا خالداً ، فَكَفّوا عنهم وأرسلوهم إلى خالد.

وخلا خالد بأهل كل حصن على حِدَةٍ ولامَهُم ، وقال: اختاروا واحدة من ثلاث: أن تدخلوا في ديننا فلكُم ما لنا وعليكم ما علينا ، أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة ، فقالوا له: بل نعطيك الجزية ، فقال خالد: (تبّاً لكم ، ويحكم! إن الكفر فلاةٌ مَضَلَّةٌ[2]؛ فأحمقُ العرب مَن سلكها ، فلقيه دليلان: أحدُهما عربيٌّ فتركَه ، واستدلَّ الأعجميَّ!).

وعقد خالد معاهدة صلح بينه وبين أهل الحيرة ، وبذلك فَتحت الحيرة أبوابها للمسلمين.

ولما استقر خالد في الحيرة ، صالحه صاحبُ (قُسّ الناطف) ـ موضع قريب من الكوفة ـ ودهاقينُ البلاد على قرى السَّوَاد حتى (هُرْمُز جِرْد) ـ ناحية بأطراف العراق ـ وجعل خالد (الحيرة) مقرّاً لقيادته ،

(١) **الغريّان**: بناءان كالصومعتين بظاهر الكوفة.
(٢) مضلة: أرضٌ مَضِلَّةٌ ومَضَلَّةٌ: يُضَلُّ فيها ولا يُهتدى فيها للطريق.

فكانت أول عاصمة إسلامية خارج بلاد العرب[1].

وكان أهل الحيرة صالحوا خالداً على (تسعين ومئة ألف) وأهدوا له الهدايا، فأرسلها مع البشرى بالفتح إلى أبي بكر الصديق، فقَبِلَها أبو بكر على أن تكون من الجزية! وكتب إلى خالد أن احسب لهم هديتَهم من الجزية، وخُذْ بقية ما عليهم فقوٍّ به أصحابك.

●● يُعتبر (فتح الحيرة) عملاً حربيّاً عظيمَ القيمة؛ لمكان هذا البلد الجغرافي والأدبي من العراق والمملكة الفارسية، فقد اتخذها خالد مقرّاً لقيادته تتلقى منه جيوش الإسلام أوامر الهجوم والدفاع والإمداد، كذلك جعلها قاعدة للتدبير والسياسة لشؤون البلاد المفتوحة.

وكان لهذا الفتح أثره البالغ في أنفس العرب المغلوبين مع حُماتهم من أهل فارس، فأوهَنَ عزائمهم وخَضَد شوكتَهم.

كذلك كان له شأن عظيم في نفوس المسلمين؛ فقوّى عزائمهم وشَدَّ أَزْرَهم وأطمَعَهم في عامة دولة الفرس.

●● وكَتَبَ خالد إلى ملوك الفرس كتاباً هذا نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس، أما بعدُ: فالحمدُ لله الذي حَلَّ نظامَكم، ووهَّن كَيدَكم، وفرَّق كلمَتكم، ولو لم يفعل ذلك

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/٣٥٩ ـ ٣٦٥؛ البداية والنهاية: ٦/٣٤٧ ـ ٣٤٨؛ قادة فتح العراق، ص ١٢٦ ـ ١٢٩؛ خالد بن الوليد، للصادق عرجون، ص ٢١٦ ـ ٢٢٢.

بكم كان شرّاً لكم! فادخُلوا في أمرنا نَدَعْكم وأرضَكم ، ونَجُوزكم إلى غيركم ، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غَلَبٍ ، على أيدي قومٍ يحبُّون الموت كما تحبون الحياة!)[1] .

ز ـ إلى الأنبار (ذات العيون) :

استخلَف أبو سليمان على (الحيرة) فارسَ الأبطال: القعقاع بن عَمْرو ، وسار بتعبئته لغياثِ عياض بن غَنْم الذي أمره الصديق أن يبدأ فتح العراق من الشمال ويلتقي بخالد القادم من الجنوب.

سار خالد في تعبيةٍ إلى (الأنبار) وعلى مقدمته الأَقْرَع بن حابس ، فلما بَلَغها طاف بها ، فرأى أهلَها قد تحصَّنوا وخندقوا عليها وأشرفوا من حصونهم ، فأنْشَب خالد القتالَ وكان قليل الصبر عنه! وتقدَّم إلى رُماتِه فأوصاهم قائلاً: (إني أرى أقواماً لا علمَ لهم بالحرب ، فارْمُوا عيونَهم ولا توخَّوا غيرها). فرموهم ففقؤوا (ألفَ عين) يومئذٍ؛ فسمِّيت تلك الوقعة باسم: (وقعة ذات العيون).

فلما رأى صاحب الأنبار ـ وهو فارسي ـ ذلك ، راسَلَ خالداً في الصلح على أمر لم يرضَه خالد ، فردَّ رسلَه ، ونَحر من الإبل كلَّ ضعيفٍ وألقاه في خندقهم ، ثم اقتحم الخندق! فأرسل قائد الأنبار إلى خالد وَبَـذَل له ما أراده ، فقبِل منه على أن يُخليه ويُلْحِقه بمأمنٍ وليس معه من المتاع والمال شيء.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٧٠.

وبعد أن استقرَّ خالد في الأنبار ، صالَحَ من حولها ، فاطمأنَّ له الأمر في تلك المناطق[1] .

ح - في عين التمر :

استخلف خالد على (الأنبار) الزِّبْرِقانَ بن بدر ، وقصدَ (عينَ التمر) وفيها يومئذٍ (مِهْران بن بهرام) الفارسي في جموع من العجم ، وبقايا العرب الموالين للفرس من قبائل النَّمِر وتَغْلِب وإياد ومن انضم إليهم ، وعليهم (عَقَّة بن أبي عَقّة) .

فلما دنا خالد ، قال عَقَّةُ لِمهرانَ : إن العرب أعلمُ بقتال العرب ، فَدَعْنا وخالداً ، فقال له : دونكم وإياهم ، وإن احتجتم إلينا أعنَّاكم . فلامَتِ العجمُ أميرَهم على هذا ، فقال : دعوهم ، فإنْ غَلبوا خالداً فهو لكم ، وإن غُلبوا قاتَلْنا خالداً وقد ضَعُفوا ونحن أقوياء ، فاعترفوا له بفضل الرأي عليهم .

وسار خالد وتلقاه عَقَّة ، فلما تواجهوا قال خالد لِمُجَنِّبَتَيْه : احفظوا مكانكم فإني حاملٌ ، وأمر حماية أن يكونوا من ورائه ، وحَمَل على (عَقَّة) وهو يسوي الصفوف فاحتَضَنَه وأَسَرَه! وانهزم جيشُ عقَّة من غير قتال ، فأكْثَروا فيهم الأسْر .

وقصد خالد (حصنَ عين التمر) ، فلما بَلَغ مهرانَ هزيمةُ عقة وجيشه ، نزل من الحصن وهرب وتركه ، ورجعتْ فُلاَّل نصارى

(١) تاريخ الطبري : ٣/ ٣٧٣ ـ ٣٧٥؛ البداية والنهاية : ٦/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩؛ قادة فتح العراق ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

الأعراب إلى الحِصن فوجدوه مفتوحاً فدخلوه واحتموا به. فجاء خالد وأحاط بهم وحاصرهم أشدَّ الحصار، فلما رأوا ذلك سألوه الصلح، فأبَى إلا أن يَنزلوا على حكم خالد، فنزلوا على حكمه فَجُعِلوا في السلاسل وتسلَّم الحصنَ، ثم أمر فضُربت عنق عقة ومَن كان أُسر معه والذين نزلوا على حكمه أيضاً أجمعين[1].

●● وكان في الكنيسة التي في الحصن أربعون غلاماً يتعلمون الإنجيل، فأخذهم خالد وفرَّقهم في الأمراء وأهل الغَنَاء؛ منهم (سِيرين) والد (محمد بن سيرين) أحد سادات التابعين علماً وعملاً، و(نُصير) والد (موسى بن نُصَيْر) القائد الأموي العظيم[2]! فللَّه دَرُّ الفتح كم جَلَب للبشرية من الخير والهدى والعلم والفضل ونشر الإسلام شرقاً وغرباً.

انظر: غلامٌ يُؤخذ أسيراً، فيعتني به المسلمون، ويُنجِب ولداً يكون في قادم الأيام (فاتح الأندلس)!.

ط ـ إلى دُومَة الجَنْدَل:

أرسل خالدٌ الوليدَ بن عقبة بفتح عَيْن التَّمر و بالأخماس إلى الصديق، فوجَّه أبو بكر الوليد مدداً لعياض بن غَنْم، فقدِمَ عليه وهو محاصِر (دُومةَ الجَنْدل)، وأهلها محاصِروه وقد أخذوا عليه الطريق، فقال الوليد لعياض: (الرأيُ في بعض الحالات خيرٌ من جند كثيف،

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٤٩ـ٣٥٠؛ قادة فتح العراق، ص ١٣٠ ـ ١٣١.
(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٧٧؛ خالد بن الوليد، للصادق عرجون، ص ٢٢٩.

ابعث إلى خالد فاستمدَّه). ففعل عياض.

وقدم رسول عياض على خالد بعد وقعة (عين التمر) مستغيثاً، فعجَّلَ خالد إلى عياض بكتابه المشهَّر في التاريخ والأدب، قال:

(من خالد إلى عياض؛ إياكَ أُريد.

لبِّثْ قليلاً تأتِكَ الحَلائِبُ يَحْمِلْنَ آساداً عليها القاشِبُ
كتائبٌ يَتْبَعُها كَتَائِبُ!)[1]

وخرج خالد علىٰ تعبيةٍ يُسرع السيرَ جهدَه، فلما بَلَغ أهلَ (دُومة) مسيرُ خالد إليهم بُهتوا، ثم اختلف زعماؤهم فيما يصنعون، وكان عليهم رئيسان: أُكَيْدر بن عبد الملك والجُوديّ بن ربيعة، فقال أُكيدر: (أنا أعلمُ الناس بخالد! لا أحدَ أيمنُ طائراً منه، ولا أحدُّ في حرب، ولا يَرى وجهَ خالدٍ قومٌ أبداً قَلُّوا أو كَثُروا إلا انهزَموا عنه، فأطيعوني وصالحوا القوم). فأَبَوْا عليه!.

واتخذ خالد خطة الالتفاف حول أهل (دُومة) ومشايعيهم من بَهْراء وكَلْب وغسَّان وتَنُوخ، فجعلهم جميعاً بين (فَكَّي كَمَّاشة) ذراعها الأولى عسكره، والثانية عسكر عياض بن غَنْم.

وتواجه المسلمون مع أهل دُومة وعليهم الجوديُّ بن ربيعة، وكل قبيلة مع أميرها من الأعراب، وافترق الأعراب فرقتين: فرقة نحو خالد، والثانية نحو عياض. وحمل خالد على مَن قِبَله وأخذ الجُوديَّ

(١) **الحلائب**: جمع، مفرده حَلُوبة: وهي الناقة المحلوبة اللبن. **والقاشِب**: من قولهم: سيف قَشِيب أي حديثُ عهدٍ بالجَلاء!.

أخذاً وانهزم جيشه ، وهزم عياضٌ من يليه ، وفرَّتِ الأعراب نحو الحصن فملؤوه وبقي منهم خلق ضاق عنهم.

وأطاف خالد بباب الحصن ، فأَمر به فاقتُلع ، واقتحم المسلمون على من فيه ، فقتلوا المقاتلة كافة ، إلا أُسارى بني كلْب فقد أَمَّنهم الأقرع بن حابس وعاصم بن عمرو[1].

وبفتح (دُوْمَة الجَنْدَل) أصبح للمسلمين (موقع استراتيجي) ذو أهمية فريدة؛ لأن (دومة الجندل) تقع على ملتقى الطرق إلى ثلاث جهات: فشبه الجزيرة العربية من الجنوب ، والعراق من الشمال الشرقي ، والشام من الشمال الغربي[2].

ي ـ ك ـ في الحَصِيد والخَنَافس:

أقام خالد بدومة الجندل ، وردَّ الأقرعَ بن حابِس إلى الأنبار ، فكانت إقامته مدعاةً لطمع الأعاجم وظنِّهم به الظنون ، وكذلك ظَنَّها عربُ الجزيرة[3] فرصة سانحة؛ فكاتبوا الأعاجم ليكونوا معهم على خالد غضباً لعَقَّة بن أبي عَقَّة الذي لم ينسوا مصرعه بعد!.

فبعث خالد القعقاعَ بن عمرو إلى (الحَصيد) ـ في أطراف العراق من

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٧٧ ـ ٣٧٩؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٥٠ ـ ٣٥١؛ قادة فتح العراق ، ص ١٣١ ـ ١٣٢؛ خالد بن الوليد ، للصادق عرجون ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣١.

(٢) أبو بكر الصديق ، للدكتور نزار الحديثي والدكتور خالد الجنابي ، ص ٥٤؛ أبو بكر ، للصلابي ، ص ٣٥٣؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ٣٥٥.

(٣) هي الأرض الواقعة بين نهري دجلة والفرات.

جهة الجزيرة ـ فقضى على قوات الفرس وحلفائهم فيها. وبعث أبا ليلى بن فدكي إلى (الخَنَافس) ـ في طرف العراق قرب الأنبار ـ فهربت قوات الفرس وحلفاؤهم[1].

ل ـ م ـ ن ـ في المُصَيَّح والثَّنِيّ والزُّمَيْل :

لما انتهى الخبر إلى خالد بمصاب أهل (الحصيد)، كتب إلى قادة جيوشه وواعدهم ليلة وساعة يجتمعون فيها في (المُصَيَّح)[2] ـ قرب الكوفة ـ فتوافوا إليها في موعدهم، وبَيَّتوا عدوَّهم من ثلاثة اتجاهات، فقتلوا أكثرهم، وفرَّ الباقون.

وعَلِم خالد بتحشُّد بعض القبائل في (الثَّنِيّ) ـ في الجزيرة قرب الرَّقَّة ـ و(الزُّمَيْل) ـ في ديار بَكْر شرقي الرُّصَافة ـ استعداداً لقتال المسلمين، فباغَتَهم خالد في (الثَّني) من ثلاثة اتجاهات، ثم قصد المحتشدين في (الزُّمَيْل) فباغَتَهم أيضاً من ثلاثة أوجه، وأوقع بالعدو هنا وهناك مقتلة عظيمة وشتت جموعهم[3]!.

س ـ إلى الفِرَاض :

لما بَسط خالد رُوَاقَ الإسلام على قسم كبير من العراق، واستسلمت

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٨٠؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٥١؛ قادة فتح العراق، ص ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٢) اضطربوا في ضبطه وتحديده، وما ذكرته عن البكري في: معجم ما استعجم: ٢/ ١٢٣٦، وهو الأقرب للواقع الجغرافي، ومن قال: هو بين حَوْران والقَلْت، فقد أبعد النُّجْعَة، فأين حوران من سورية من أرض الجزيرة بالعراق؟!.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٨١ ـ ٣٨٣؛ قادة فتح العراق، ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

له قبائل العرب وهي صاغرة ، توجَّه إلى (الفِرَاض) ـ وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة شرقي الفرات ـ ليحمي ظهره ، ويأمن من أن تكون عورة وراءه عند اجتيازه أرض (السَّوَاد) إلى فارس ، وأفطر خالد بها رمضانَ لاتصال الغزوات.

فلما اجتمع المسلمون (بالفِراض) ، غَضِب الروم وهاجوا وحشدوا قواتهم واستعانوا بمن يليهم من مَسَالح الفرس فأعانوهم ، واجتمع معهم تَغْلب وإياد والنَّمِر وساروا جميعاً إلى خالد ، فلما بلغوا الفرات قالوا له : إمَّا أن تعبرَ إلينا ، وإما أن نعبرَ إليكم ، فقال خالد : اعبروا ، فقالوا : تنحَّ عن طريقنا حتى نعبر ، فقال : لا أفعل ، ولكن اعبروا أسفل منا ، فعَبَروا أسفل من خالد ، وعَظُم في أعينهم. وقال الروم وفارس بعضهم لبعض : احتسبوا مُلْكَكم ، هذا رجل يقاتل على دين ، وله عقل وعلم!.

فعَبروا أسفل من خالد ، وذلك للنصف من ذي القعدة سنة (١٢هـ) ، فلما تتامُّوا قالت الروم : امتازوا حتى نعرف مَن يثبت ممن يولِّي ، ففعلوا.

ونشب القتال بين الجمعين بشدة وعنف ، فانهزم الروم ومن معهم ، فأمر خالد ألا يُرَفِّهوا[١] عنهم ، فقتل منهم في المعركة والطلب مقتلة عظيمة. وأقام خالد بالفِراض عشرة أيام ، ثم أذن بالرجوع إلى الحِيْرة.

وأَظْهَر خالد أنه في الساقة ، ولكنه ترك العراق سرّاً إلى الحجاز ليؤدي فريضة الحج ، فأتى مكة فحجَّ ورجع ، فما توافى جندُه إلى الحيرة حتى وافاهم مع صاحب الساقة ، ولم يعلم بحجَّتِه غيرُ مَن أعلمهم هو بذلك ، ولم يعلم أبو بكر الصديق بأمره هذا إلا بعد رجوعه ، فعَتَبَ

---

(١) أي : ألاَّ يُمْهِلوهم ولا يُخَفِّفوا عنهم ، بل يطاردونهم بتماسٍّ شديد دون هوادة.

عليه وهنَّأه وأمره ألا يعود لمثلها أبداً[1]!.

٤ ـ وقفة وعبرة:

استمرت فتوحات سيف الله خالد سنة وشهرين فقط، من المحرم سنة (١٢هـ) إلى صفر سنة (١٣هـ)، قاتل فيها جموعَ الفرس والأعراب والروم، في خمس عشرة معركة، لم ينبُ له فيها سيف، ولم تُخطِئ له خطّة، ولم تسقط له راية، ولم يُنكَب له جيش، بل تراه يسير من نصر إلى نصر، والرعبُ يسبقه إلى قلوب الأعداء! فهنيئاً للمسلمين هذا القائد العظيم، وبورك لأبي بكر ذاك الاختيار الميمون.

٥ ـ خالد إلى الشام والمثنى في العراق[2]:

أمر الخليفة أبو بكر خالداً أن يسرع بنجدة جيوش الشام لمواجهة الروم، وأن يأخذ نصف الناس، ويستخلِف المثنى بن حارثة الشيباني على العراق في نصف الناس.

وأراد خالد أن يستأثِر بالصحابة في جيشه، فرفض المثنى وقال: (والله لا أُقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر، وبالله ما أرجو النصر إلا بأصحاب النبي ﷺ!). فلما رأى خالد ذلك أرضاه.

وودَّع المثنى خالداً حين سفره من العراق إلى الشام حتى تخوم

---

(١) تاريخ الطبري: ٣/ ٣٨٣ ـ ٣٨٥؛ البداية والنهاية: ٦/ ٣٥٢؛ قادة فتح العراق، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٤١١ ـ ٤١٤؛ البداية والنهاية: ٧/ ١٦ ـ ١٧؛ الكامل في التاريخ: ٢/ ١٥٦؛ فتوح البلدان، ص ٢٥٠؛ قادة فتح العراق، ص ٣٥ ـ ٣٧.

البادية ، ولمَّا آنَ لهما أن يفترقا ، قال خالد للمثَّنى : (ارجعْ رحمكَ الله إلى سلطانِك غيرَ مقصِّر ولا وانٍ) .

وطمع الفرس بالمثنى بعد ذهاب خالد في شطر الجيش ، وحشدوا له حشوداً ضخمة يقودهم (هُرْمُز جاذَوَيْه) ، فسار إليهم المثنى ، والتقى الجيشان على أطلال مرتفعات بابل ، وجرى قتال شديد ، وأوقع المثنى فيهم هزيمة منكَرة ، وطاردهم إلى أبواب (المدائن)! .

ونزلت أنباء الهزيمة بكسرى نزول الصاعقة ، فَحُمَّ ، فمات! وبعد موته عاد الاضطراب إلى بلاط فارس ، فأراد المثنى انتهازَ هذه الفرصة السانحة ، فكتب إلى الصديق يخبره بانتصاره ، ويستأذنه في الاستعانة بمن ظهرت توبتُهم من أهل الردة! .

●● واستبطأ المثنى مجيءَ الأمداد من الخليفة لانشغالِه بأهل الشام ، فأغَذَّ السيرَ إلى المدينة ، فوجد أبا بكر على فراش الموت ، فعرض عليه الأمر وواقع حال العراق ، فاستقبله الخليفة بالإكبار والترحاب واستمع إليه واقتنع برأيه ، وأوصى عمرَ بنَ الخطاب ـ وكان استخلَفَه ـ وكان مما قال له :

(اسمعْ يا عمر ما أقول لك ، ثم اعمل به : إني لأرجو أن أموت من يومي هذا ـ وذلك يوم الإثنين ـ فإنْ أنا مِتُّ ، فلا تُمسِينَّ حتى تندُبَ الناس مع المثنى ، وإن تَأَخَّرْتُ إلى الليل فلا تُصْبِحنَّ حتى تندُبَ الناس مع المثنى! ولا تشغلنَّكُم مصيبةٌ وإن عَظُمتْ عن أمر دينكم ، ووصية ربكم . وقد رأيتني متوفَّى رسول الله ﷺ وما صنعتُ ، ولم يُصَب الخلقُ بمثله! وبالله لو

أَنِّي أَنِي[1] عن أمر رسوله لَخَذَلنا ولعاقَبَنا، فاضطرمتِ المدينة ناراً[2]. وإنْ فَتح الله على أمراء الشام ، فارددْ أصحابَ خالد إلى العراق؛ فإنهم أهلُه وولاةُ أمره وحدُّه وأهلُ الضراوة بهم والجراءة عليهم)[3].

هذا هو أبو بكر الخليفة العظيم؛ افتتح خلافته بالجهاد فأَنْفَذ جيشَ أسامة وقارَعَ أهل الردة ، واختتمها بالجهاد في فتوحاته المباركة ، وأوصى باستمرار الجهاد وانتدابِ الكتائب لحماية المسلمين والبلاد المحرَّرة ومتابعة الفتوحات.

ثانياً: فتوحات الشام:

١ ـ توطئة وتمهيد:

●● كان رسول الله ﷺ هو كتب السطور الأولى في غزو الروم وفتح الشام؛ حيث بعث جيش (مُؤْتة)[4] سنة (٨هـ) ، وعليه القادة الثلاثة: زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة ، واستُشهدوا جميعاً ، وقبورهم لا تزال معروفة في قرية (المزار) قرب مؤتة.

وفي سنة (٩هـ) خرج النبي ﷺ ومعه ثلاثون ألفاً ، وسار إلى (تَبُوك) لغزو الروم ، فلم يلقَ قتالاً ، وعاد بالمسلمين سالمين غانمين ، و(تبوك) في أقصى الشمال الغربي للسعودية وقريبة من حدود الأردن الجنوبية.

---

(١) أقَصِّر وأَضعُف وأفتُر.

(٢) كناية عن استبسال أهلها وإقبالهم على الجهاد.

(٣) تاريخ الطبري: ٣/ ٤١٤؛ الكامل في التاريخ: ٢/ ١٦٠.

(٤) تقع في الأردن إلى الشرق على مسافة (١١كم) جنوب الكرك ، وهي الآن مدينة عامرة بالسكان.

وفي سنة (١١هـ) قُبيل وفاته ﷺ عقد اللواء لأسامة في جيش ، ومات النبي ﷺ فأنفذ أبو بكر الجيش الذي غزا الأردن ودير البَلَح في قطاع غزة وجنوب غرب فلسطين.

فلما قام الصديق بالخلافة وفرغ من أهل الردَّة واستقام له العرب ؛ عزم على إتمام ما بدأه رسول الله ﷺ وعَنَاه من غزو الروم وتحرير بلاد الشام من هيمنتهم.

●● وقد بشَّر النبي ﷺ أصحابَه بفتح بلاد الشام ، وحَضَّهُمْ على سُكناها ، والجهادِ فيها ، وامتدح أهلَها وبعضَ مدائنها.

ـ عن زيد بن ثابت رضي الله عنه ، قال: (سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**يا طُوبَى للشام ، يا طُوبى للشام ، يا طُوبى للشام**»! قالوا: يا رسول الله ، وبِمَ ذلك؟ قال: «**تلك ملائكةُ الله باسِطو أجنحتها على الشام**»)[١].

ـ وعن عبد الله بن حَوَالة رضي الله عنه ، قال: (قال رسولُ الله ﷺ: «**سَتُجَنِّدونَ أَجْناداً: جُنْداً بالشام ، وجنداً بالعراق ، وجنداً باليمن**» قال عبد الله: فقمتُ فقلتُ: خِرْ لي يا رسول الله ، فقال: «**عليكم بالشام ، فمن أبَى فَلْيَلْحَقْ بِيَمَنِهِ ، ولْيَسْتَقِ من غُدَرِه؛ فإنَّ الله عز وجل قد تكفَّل لي بالشام وأهلِه**»)[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٩٥٤)؛ وأحمد: ٥/١٨٤؛ والفسوي: ٢/٣٠١؛ وابن حبان (٧٣٠٤)؛ والحاكم: ٢/٢٢٩ ، وغيرهم ، وقال الترمذي: حسن غريب ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط.

(٢) أخرجه أحمد: ٤/١١٠ ، ٥/٣٣ ـ ٣٤؛ والفسوي: ٢/٢٨٨ ، ٣٠٢؛ =

والأحاديث في هذا كثيرة[1] ، وقد أوردت طائفة منها مع شرحها في كتابي «نبوءات الرسول ﷺ ـ دروس وعبر»[2] .

٢ ـ أبو بكر يستشير الصحابة في غزو الروم وتحرير الشام:

عن عبد الله بن أبي أَوْفَى الخُزاعي رضي الله عنه ، قال: (لمَّا أراد أبو بكر غزوَ الروم ، دعا عليّاً وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وأبا عبيدة بن الجراح ، ووجوهَ المهاجرين والأنصار من أهل بدر وغيرهم ، فدخلوا عليه ، قال عبد الله ابن أبي أوفى: وأنا فيهم). فقال أبو بكر بعد أن حمدَ الله وأثنىٰ عليه:

(وقد رأيتُ أن أستنفِرَ المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ليؤيد الله المسلمين ، ويجعلِ الله كلمته العليا ، مع أن للمسلمين في ذلك الحظ الأوفر؛ لأنه مَن هَلَكَ منهم هلك شهيداً وما عند الله خيرٌ للأبرار ، ومَن عاش عاش مدافعاً عن الدين مستوجباً على الله ثوابَ المجاهدين. وهذا رأيي الذي رأيتُ ، فَلْيُشِر امرؤٌ عليَّ برأيه.

فقام عمر بن الخطاب فقال: الحمد لله الذي يخصُّ بالخير من شاء من خلقه ، والله ما استبقنا إلى شيء من الخير قطُّ إلا سبقتنا إليه ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١]. قد والله أردتُ

= وأبو داود (٢٤٨٣)؛ وابن حبان (٧٣٠٦)؛ والحاكم: ٤/ ٥١٠ وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني وشعيب الأرنؤوط. **والغُدَر**: جمع الغَدير ، وهي حِياض الماء.

(١) انظر: فضائل الشام ودمشق ، للربعي.

(٢) انظر مثلاً: فصل الفتوحات ، والنبوءة رقم (٢٢) و(٦٩).

لقاءك بهذا الرأي الذي رأيتَ ، فما قُضِي أن يكون حتى ذكرتَه ، فقد أصبتَ أصابَ الله بك سبيلَ الرشاد ، سَرِّبْ[1] إليهم الخيلَ في إثر الخيل ، وابعثِ الرجال بعد الرجال ، والجنودَ تتبعها الجنود؛ فإن الله ناصرٌ دينَه ، ومعزٌّ الإسلامَ وأهله).

وتكلم عبد الرحمن بن عوف.

ثم تكلم عثمان وأيَّده طلحة والزبير وسعد وأبو عبيدة وسعيد بن زيد ومَن حَضَر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار؛ قالوا: (ما رأيتَ من رأيٍ فأَمْضِه ، فإنَّا لا نُخالِفُك ولا نتَّهِمُك).

(وعليٌّ في القوم لم يتكلَّم ، فقال أبو بكر: ماذا ترى يا أبا الحسن؟ فقال علي: أرى أنكَ إنْ سِرتَ إليهم بنفسك أو بعثتَ إليهم؛ نُصِرت عليهم إن شاء الله. فقال: بَشَّرَكَ الله بخير! ومن أين علمتَ بذلك؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يزالُ هذا الدينُ ظاهراً على كل من ناوَأَه حتى يقوم الدين وأهلُه ظاهرون**»[2]. فقال: سبحانَ الله ، ما أحسنَ هذا الحديث! لقد سَررتَني به سرَّكَ الله.

ثم إن أبا بكر رضي الله عنه قام في الناس فذكر الله بما هو أهلُه وصلى على نبيه ﷺ ، ثم قال: أيها الناس ، إن الله قد أنعمَ عليكم بالإسلام ، وأكرمَكم بالجهاد ، وفضَّلَكم بهذا الدين على أهل كل دين ، فتجهَّزوا عبادَ الله إلى غزو الروم بالشام ، فإني مؤمِّرٌ عليكم أمراء ، وعاقدٌ لكم

---

(١) أي: أرسِلْ قِطْعة قطعة.

(٢) هذا حديث الطائفة المنصورة ، وهو في الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة ، وقد ذكرتُ رواياته وشرحتُه بتوسع في كتابي: نبوءات الرسول ﷺ ، نبوءة رقم (١١٠).

ألوية ، فأطيعوا ربَّكم ولا تُخالفوا أمراءَكم ، لِتَحْسُنْ نِيَّتُكم وأشربتُكم وأطعمتكم، فـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨])[1].

٣ ـ الصديق يبادر بتجييش الجيوش:

●● بدأ أبو بكر بتوجيه الحملات إلى الشام في مطلع سنة (١٣هـ) بعد أن رجع من الحج ، فوجَّه خالد بن سعيد بن العاص إلى (تَيْماء) ليتخذَها معسكراً يستنفر الناس إليها ، وأَمَره ألاَّ يبرحَها. فأقام خالد فاجتمع إليه جموع كثيرة ، وبلغ الرومَ عِظَمُ ذلك ، فجهز إليه (هِرَقْل) جيشاً من الروم ، وانضم إليهم أتباعهم من العرب من (بَهْراء وكَلْب وسَلِيح وتَنُوخ ولَخْم وجُذَام وغسَّان) في جيش ضخم عليه القائد الرومي (باهان). فاستمدَّ خالد أبا بكر ، فأمدَّه بالوليد بن عقبة في جيش وبعكرمة بن أبي جهل في جيش آخر ، وأمره بالحذر وأن يحمي ظهره ، فقال في كتابه: (أَقْدِمْ ، ولا تقتحمنَّ حتى لا تُؤتى من خَلْفك)! وبَلَغَ خالداً مجيءُ المدد ، فطمع بالنصر على العدو ، فاقتحم بمن معه على الروم ، وأَعْرى ظهرَه وتوغَّل في أرضهم ، وتمكن (باهان) من استدراج خالد وهو يتظاهر بالتراجع إلى (دمشق) ، حتى طوَّقه وقاتله في موقعة (مَرْج الصُّفَّر)[2] وقتل ابنَه سعيد بن خالد الذي كان طليعة على رأس كتيبة من العسكر ، وبلغ الخبرُ خالداً وأنه أُحِيط به ، ففرَّ في كتيبة من

(١) ابن عساكر ، مختصره: ١/ ١٨١ ـ ١٨٣؛ حياة الصحابة: ١/ ٤٣٨ ـ ٤٤٠.

(٢) مرج الصفر: سهل واسع على مسافة (٣٧كم) جنوب دمشق ، ما بين مدينتنا الكُسْوة وغَبَاغِب ، وشرقي قرية شَقْحَب ، ويشمل أراضي قرى: شقحب وركِيس والزريقية.

أصحابـه ، وتراجع عكرمة بالجيش وأنقذه من الهلاك ، حيث انضم إلى الجيوش التي وجهها أبو بكر إلى الـشـام[1] .

●● وقام الصديق باستنفار الناس وحشدِ الجيوش لمواجهة الروم ، وقال : (أَلَا أكتبُ كتاباً إلى أهل اليمن ندعوهم به إلى الجهاد ونرغِّبهم في ثوابه؟) . . فرأى ذلك جميع أصحابه فقالوا : نِعْمَ ما رأيتَ ، افعل . فكتب :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، من خليفة رسول الله ﷺ إلى مَنْ قُرِئ عليه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن : سلام عليكم ، فإني أحمدُ إليكم الله الذي لا إله إلا هو .

أما بعد: فإن الله تعالى كتب على المؤمنين الجهاد ، وأمرهم أن يَنْفِروا خِفافاً وثِقالاً ويجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . والجهاد فريضة مفروضة ، والثواب عند الله عظيم . وقد استنفَرْنا المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ، وقد سارعوا إلى ذلك ، وقد حَسُنت في ذلك نيَّتُهم وعَظُمت حِسبتُهم ؛ فسارعوا عبادَ الله إلى ما سارعوا إليه ، ولتحسُنْ نيتكم فيه ، فإنكم إلى إحدى الحُسنيين : إما الشهادة ، وإما الفتح والغنيمة ، فإن الله تبارك وتعالى لم يرضَ من عباده بالقول دون العمل ، ولا يزال الجهاد لأهل عداوته حتى يَدينوا بدين الحق ، ويُقِرُّوا بحكم الكتاب . حَفِظَ الله لكم دينكم ، وهدى قلوبكم ، وزكَّى أعمالكم ، ورزقكم أجر المجاهدين الصابرين) .

---

(١) تاريخ الطبري : ٣/٣٨٨ ـ ٣٨٩ ، ٣٩١ .

وبعث بهذا الكتاب مع أنس بن مالك رضي الله عنه[1] .

فاستجاب أهل اليمن لنداء الصديق ، وكانت أكثر الجيوش التي غزت بلاد الشام منهم .

ثم نَهَد أبو بكر لتجييش الجيوش ، فعقد الألوية لكبار أمراء الجهاد لفتح الديار الشامية .

قال علي بن ماجدة السَّهْمي : (حَجّ علينا أبو بكر في خلافته سنة ثنتي عشرة ، فلما قفل أبو بكر من الحج جهَّز الجيوش إلى الشام : عمرو بن العاص ، ويزيد بن أبي سفيان ، وأبا عبيدة بن الجراح ، وشُرَحْبيل بن حَسَنة) .

ثم قام أبو بكر فخطب الناسَ ورغَّبهم في الجهاد ، ثم أمر بلالاً فأذَّن في الناس : انْفِروا أيها الناس إلى جهاد عدوِّكم الروم بالشام .

وتتابع الناس مستجيبين ، فنفروا من كلّ فَجٍّ يطلبون الجهاد في هذا الوجه ، وعقد أبو بكر الألوية للأمراء ، وأوعب معه الناس . وكان معسكر الجيش الذي يجتمع فيه المجاهدون قبل الانطلاق إلى الوجهة المقصودة في أرض تسمَّى «الجُرْف» في الطرف الشمالي من المدينة المنوَّرة[2] .

واستَنْفَر الصدّيق أمراءَ جيوشه ، فجاؤوا ملبِّين طائعين راغبين مستبسلين ، فقال لهم : (إني باعثُكم في هذا الوجه ـ الشام ـ ومؤمِّركم على هذه الجنود ، وأنا موجِّهٌ مع كل رجل منكم من الرجال ما قدرتُ

---

(١) ابن عساكر ، مختصره : ١/ ١٨٣ ـ ١٨٤ ؛ حياة الصحابة : ١/ ٤٤١ ـ ٤٤٢ .

(٢) **الجرف** : الآن حي من أحياء المدينة النبوية ، فيه زراعة وسكان .

عليه ، فإذا قدمتُم البلد ، ولقيتم الجنود واجتمعتم على قتالهم ، فأميركم أبو عبيدة بن الجراح ، وإن لم يَلْقَكم أبو عبيدة وجمعَتْكم حربٌ فأميرُكم يزيد بن أبي سفيان).

●● وعقد أبو بكر لواءً ليزيد بن أبي سفيان ، وجعل له (دمشق) ، وأوصاه ووعظه ، وكان مما قاله له: (أوصيك بأبي عبيدة بن الجراح خيراً ، فقد عرفتَ مكانه من الإسلام).

وسار بجيشه متجهاً إلى الشام عن طريق تبوك ، واستقرَّ في البلقاء بالأردن.

وعقد لواءً لشُرَحْبيل بن حَسَنة ، وكان أقبل من عند خالد بن الوليد من العراق ، وأمَّره على جيش ، وبَعَثه إلى الشام ، وأوصاه قائلاً: (فإذا نزل بك أمرٌ تحتاج فيه إلى رأي التقي الناصح ، فليكن أولَ من تبدأ به أبو عبيدة بن الجراح).

وسيَّره للأردن ، فسلك نفس الطريق التي سلكها يزيد ، لكنه سار بعده بثلاثة أيام ، وهذا من حسن التدبير وفنون الحرب.

وعقد لواءً لأمين الأمة أبي عبيدة وجعل وجهه (حِمْص) ، وجعله أمير الناس إن اجتمعوا. وعسكر أبو عبيدة خارج المدينة يصلّي بجنده ، وينتظر حتى يُسَرِّحه أبو بكر ، حتى قَدِمَتْ عليه جموع العرب بقادتها وفرسانها ، فلما تتامَّ حشْدُهم خرج أبو بكر في رجال من المسلمين على رواحلهم حتى أتى معسكر أبي عبيدة ، فماشاه إلى ثنية الوداع وأوصاه وناصحه ، وأوصاه بقيس بن مَكْشُوح المرادي ، وكان من فرسان العرب المؤلفة قلوبهم.

ثم قال له يرشده ويوصيه: (اسمع سماعَ من يريد أن يَفهم ما قيل له، ثم يعمل بما أُمر به، إنك تخرج في أشراف الناس، وبيوتات العرب، وصلحاء المسلمين، وفرسان الجاهلية، كانوا يقاتلون إذ ذاك على الحميَّة، وهمُ اليوم يقاتلون على الحِسْبة والنية الحسنة، أَحْسِن صحبة مَن صَحِبك، وليكن الناس عندك في الحقّ سواء، واستعن بالله، وكفى بالله معيناً).

وعقد لواءً لعمرو بن العاص بعد أن استقدمه من (عُمان)، وكان والياً عليها من قِبَل رسول الله ﷺ، وقال له: (وقد أحببتُ ـ أبا عبد الله ـ أن أفرّغَك لِما هو خيرٌ لك في حياتك ومعادِك منه، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحبَّ إليك). فكتب إليه عمرو: (إني سهمٌ من سهام الإسلام، وأنتَ بعدَ الله الرامي بها، والجامعُ لها، فانظُرْ أشدَّها وأخشنَها وأفضَلَها، فارْمِ به).

وكان عمرو بن العاص يرغب في الإمارة العامة على جيوش الإسلام في الشام كلها، فأبى عليه ذلك أبو بكر.

فصار للمسلمين أربعةُ جيوش في الشام: جيش أبي عبيدة، وجيش يزيد، وجيش شُرَحْبيل، وجيش عمرو، والقائد الأعلى للجيوش هو أبو عبيدة. وخصَّ أبو بكر كلَّ جيش بقطاع من أرض الشام: فأبو عبيدة لحمص، ويزيد لدمشق، وشُرَحْبيل للأردن، وعمرو لفلسطين.

●● انطلق أبو عبيدة بجيشه من المدينة حتى مرَّ بوادي القرى، ثم طلع إلى الحِجْر ـ وهي مدائن صالح ـ ومنها إلى ذات المنار إلى زيزا،

ثم سار إلى (مَآبَ)[1] ، فتصدَّت له قوة من الروم ، فقاتلهم المسلمون ، وألجؤوهم إلى مدينتهم وحاصرهم فيها ، فطلب أهلُ (مَآبَ) الصلح ، فصالحهم أبو عبيدة ، ثم سار إلى الجابية ودنا منها .

قال الطبري : (فأول صُلْح كان بالشام صلح مَآبَ) .

وسارت جيوش المسلمين حتى نزل كلّ جيش منها مكاناً يُشْرف على الروم ، وتسامعت الروم بنزول المسلمين بساحتهم ، وبلغتْ أخبارهم هِرَقْلَ ، وكان مقيماً ببيت المقدس بعد انتصاره على الفرس وتحريره من نيرهم .

ولمَّا أتى هرقلَ الخبرُ بقدوم جيوش المسلمين وقُرْبهم منه ، جمع إليه خاصته وأصحاب مجلسه ، وفيهم أخوه «تذراق» فقال لهم : (أرى من الرأي ألا تقاتلوا هؤلاء القوم ، وأن تصالحوهم ، فوالله لأن تعطوهم نصف ما أخرجت الشام وتأخذوا نصفاً وتقرَّ لكم جبال الروم ؛ خيرٌ لكم من أن يَغلبوكم على الشام ويُشاركوكم في جبال الروم!) . فأبَوا عليه رأيه ، وردُّوا عليه قولَه ، وتغلبت العامة على الخاصة وذوي الرأي ، وأخذتهم العزة بالإثم ، فاضطرَّ هِرقل أن ينزل على رأيهم ، ويسير بهم لقتال المسلمين . فنزل حمصَ ، واجتمع له فيها جيش كثيف فرَّقه كتائب ، وجعل في وجه كلّ أمير من أمراء المسلمين جيشاً يفوق عددُه عددَ جيش الإسلام وتزيد عدَّتُه على عدَّتِه .

(١) مآب : ذكر الطبري أنها قرية من البلقاء ، وترسمها كتب التاريخ في العصر الحديث : (مؤاب) ، وكانت تقع مملكة مؤاب في شرقي الأردن ، ومن مدنها القديمة : (قير حارسة) ، وتقوم على بقعتها اليوم (مدينة الكرك) .

وعن هاشم بن عُتْبة بن أبي وقاص قال: لمَّا مَضَت جُنودُ أبي بكر إلى الشام بَلَغَ ذلك هِرقلَ ملكَ الروم وهو بفلسطين، وقيل له: قد أتتك العرب وجمعَتْ لك جموعاً عظيمة، وهم يزعمون أن نبيَّهم الذي بُعث إليهم أخبرهم أنهم يَظهرون على أهل هذه البلاد، وقد جاؤوك وهم لا يشكُّون أن هذا يكون، وجاؤوك بأبنائهم ونسائهم تصديقاً لمقالة نبيِّهم، يقولون: لو دخلناها وافتتحناها نزلنا بأولادنا ونسائنا! فقال هِرَقل: ذلك أشدُّ لشوكتهم، إذا قاتلَ القومُ عن تصديق ويقين فما أشدَّ على من يُكابِرهم أن يُزيلَهم عن رأيهم أو يَصُدَّهم عن أمرهم!.

واستنفرَ هرقلُ الروم من أطراف مملكته، وبَعث إلى الناس يطلب حشودهم، فتقاطروا إليه، واجتمعوا في جيش عَرَمْرَم، وبَلغتِ المسلمين أخبارُ تجمع جَحَافِل عدوهم، فاشتوروا في ذلك، وكتب أبو عبيدة كتاباً إلى أبي بكر قال فيه: (فإِنَّه بَلَغَني أنَّ هرقلَ ملك الروم نزل قرية من قرى الشام تُدعى أَنطاكية، وأنه بعث إلى أهل مملكته فحشَرهم إليه، وأنهم نفروا إليه على الصَّعْب والذَّلُول، وقد أحببتُ أن أُعْلمك ذلك فترى فيه رأيك).

فردَّ عليه الصدّيق بكتاب، وثَبَّتَه فيه، وذكَّره بالاستنصار بالله سبحانه، وبَشَّره بالنصر على عدوِّه، وأَرسَلَ إليه المدد، فدعا هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وأَمَره أن يسير بمن تبعه من المسلمين وينضمَّ إلى جند فتح الشام، وخَطَب في الناس وحضَّهم على الجهاد في ذلك الوجه. فخرج هاشم بمن معه إلى أبي عبيدة، فتباشر المسلمون بمقدمه وسُرُّوا به.

وسارت الجيوش الإسلامية الأربعة إلى وجهتها، ونزلت في

القطاعات التي خصصها لها أبو بكر في حمص ودمشق والأردن وفلسطين ، وقيادتها العامة لأبي عبيدة.

●● ووقعت معركة صغرى بين المسلمين وبين الروم ، هي الأولى في تاريخ فتح الشام ـ بعد وقعة مؤتة وبعث أسامة ـ فبعد أن نزل يزيد بن أبي سفيان البَلْقاء ، وأبو عبيدة الجابية ، وشُرَحْبيل نواحي بُصْرى ، دفع الروم بثلاثة آلاف مقاتل إلى وادي العَرَبة[1] من غور فلسطين جنوب البحر الميت ، وهذه القوة تهدِّد جيوش المسلمين التي تقدَّمت على الطريق الشرقي ـ امتداد الطريق التَّبُوكية ـ التي رابطت على امتداده حتى جنوب دمشق بنحو خمسين كيلومتراً عند الجابية ، وهذه القوة الرومية تأتي المسلمين من خلفهم فباستطاعتها قطع طريق الإمداد إليهم من المدينة والجزيرة العربية ، مع وجود قوة رومية أخرى في بُصْرى.

فكانت المعركة في وادي عَرَبة في مكان يسمى «الغَمْر» ، فانهزم الروم ، وتبعهم المسلمون إلى مكان يسمى «الدُّبَيَّة» علىٰ نحو (١٦ كيلو متراً) جنوب شرق مدينة رَفَح ، ومنها هرب الروم إلى «داثِن»[2] ، فلحق بهم المسلمون ، وانتصروا عليهم ، وبذلك فتحوا جنوب فلسطين ، وهو الآن منطقة غَزَّة.

والذي قهر الروم في هذه الجولة والبداية المبشِّرة المباركة هو جيش

---

(١) **وادي عربة**: أرض ملحية شديدة الحرارة ، وهو ما استطال من الغور إلى خليج العقبة ، ويبلغ طوله نحو (١٧٩كم) ، ويتراوح عرضه بين (٦كم) و(٢٢كم) ، وعلىٰ مسيرة نحو (١٣٠كم) من جنوب البحر الميت ، ويصل مستواه إلى مستوى البحر.

(٢) **داثن**: تقع شرقي دير البلح في جنوب غزة بنحو (٢٠كم).

الأمين أبي عبيدة ، فيما يرويه لنا صحابي جليل كان أحدَ أركان جيشه والمجاهدين تحت رايته ، هو أبو أمامة الباهلي؛ حيث يقول: (كنتُ ممن سَرَّح أبو بكر مع أبي عبيدة في نَفَر من قومي ، فكانت أول وقعة يوم العَرَبة والداثنة ، وليسا من الأيام العظام ، فخرجَتْ إلينا ستة قواد من الروم مع كل قائد خمسمئة رجل ، فكانوا ثلاثة آلاف رجل ، فأقبلوا حتى انتهوا إلى العَرَبة ، فبعث يزيد بن أبي سفيان إلى أبي عبيدة يُعْلمه ذلك ، فبعثني إليه في خمسمئة رجل ، فلما أتيتُه بعث معيَ رجلاً في خمسمئة رجل ، وأقبل يزيد في آثارنا في الصف ، فلما رأيْنا الرومَ حملنا عليهم فهزمناهم ، وقتلنا قائداً من قوَّادهم ، ثم مَضَوا ، واتَّبعناهم ، فجمعوا لنا بالداثنة ـ من قرىٰ غزَّة ـ فَسِرنا إليهم ، فقدَّمني يزيدُ وصاحبي في عُدَّتنا ، فهزمناهم ، فعند ذلك فزِعوا واجتمعوا وأَمَدَّهم مَلِكُهم).

٤ ـ بدايات معركة اليَرْموك وإمرة خالد على الجيوش:

●● ولما رأىٰ أمراء المسلمين اجتماع الروم لهم ، رأوا أن يتشاوروا فيما يصنعون ، فكان فيما أشار عليهم عمرو بن العاص: (إنَّ الرأي لمثلنا الاجتماع ، وذلك أنَّ اجتماع مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلّة). وكتبوا إلى أبي بكر ، ثم اتعدوا جميعاً «اليرموك» ليجتمعوا به ، ووافاهم كتاب أبي بكر على مثل ما أشار به عمرو بن العاص ، فقال لهم: (أن اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً ، والقَوْا زحوف المشركين بزحف المسلمين ، فإنكم أعوان الله ، والله ناصرٌ من نَصَره ، وخاذِلٌ من كَفَره ، ولن يُؤتى مثلُكم من قِلَّة ، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أُتُوا من تِلْقاءِ الذُّنوب ، فاحترِسوا من الذنوب ، واجتمعوا باليرموك متسانِدين ، وليُصلِّ كل رجل منكم بأصحابه).

واجتمع الروم ونزلوا وادياً عسكروا على ضفّته ، وجعلوه خندقاً بينهم وبين المسلمين ، فحصرهم المسلمون شهر صفر من سنة ثلاث عشرة وشهرَيْ ربيع ، ولا يقدِرُ أحدٌ من الفريقين أن ينال نَيْلاً من الآخر ، فلما طال الأمر على المسلمين كتبوا إلى الخليفة يخبرونه بجموع الروم وكثرتهم ويستمدونه. ولم يَكَدْ كتاب الأمراء يقع إلى أبي بكر حتى طاف بخاطره فاقئ عين الردّة وفاتحُ العراق ومدوِّخ فارسَ ، سيفُ الله وسيفُ رسوله القائد المظفر خالد بن الوليد ، فاستنار وجه أبي بكر لهذا الخاطر ، وقال يخاطب نفسه : (خالدٌ لها ؛ واللهِ لأُنْسِيَنَّ الرومَ وساوسَ الشيطان بخالدِ بن الوليد)!.

وكتب الصدّيق إلى خالد مرجعَه من حجته التي غامر فيها ، يُعاتبه ويُهنِّئُه ويذكِّرُه ويَعِظُه ، ثم يستفزُّه إلى غَوْث إخوانه أمراءِ الشام ، فوافى خالداً كتابُ أبي بكر بالحيرة منصرفَه من حجِّه : (أن سِرْ حتى تأتي جموع المسلمين باليَرْموك ، فإنهم قد شَجُوا وأَشْجَوْا[1] ، وإياك أن تعودَ لمثلِ ما فعلتَ ، فإنه لم يُشْجِ[2] الجموعَ بعون الله أحدٌ من الناس شجيك ، ولم يَنزع الشجيَ أحدٌ من الناس نَزْعَك. فَلْيَهْنِكَ أبا سليمان النية والحُظْوة[3] ، فأَتمِمْ يُتَمِّمِ الله لك ، ولا يَدخلنَّكَ عُجْبٌ فتخسرَ وتُخْذَل ، وإياك أن تُدِلَّ بعملٍ ، فإنَّ الله عزَّ وجل له المَنُّ ، وهو وليُّ الجَزاء).

---

(١) **أشجاه قِرْنُه**: قَهَره حتى شَجِيَ به. **والشَّجَا**: ما اعترَضَ ونَشِب في الحَلْق من عَظْم أو نحوه.

(٢) **لم يشج**: أي لم يَقهر الجموعَ أحدٌ قَهْرَك.

(٣) **الحظوة**: المكانة.

ثم قال له: (دَعِ العراقَ واخْلُفْ أهلَه فيه الذين قَدِمْتَ عليهم وهم فيه، ثم امضِ مخفَّفاً في أهل قوة من أصحابنا الذين قدِموا معك العراقَ من اليَمامة، وصحبوك من الطريق، وقدِموا عليك من الحجاز، حتى تأتي الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين، فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة، والسلام عليك ورحمة الله).

وفي رواية: أنَّ أبا بكر أمر خالداً بالخروج في شَطْر الناس، وأن يُخلِّف على الشطر الثاني المثنى بن حارثة الشيباني.

●● فنهض خالد للسمع والطاعة، وخَلَّف على العراق المثنّى، وفَصَل بمن معه من أبطال الإسلام وجنده من الحِيرة[1] إلى دُومة الجندل[2]، ثم طعن في البرية، وطلب حُذَّاق الأدلاَّء، وقال لهم: (كيف لي بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم؟ فإني إن استقبلتُها حبستْني عن غياث المسلمين! فكلُّهم قالوا: لا نعرف إلا طريقاً لا يَحمل الجيوش، يأخذه الفذّ الراكب، فإياك أن تغرِّر بالمسلمين!). فأبى خالد إلا أن يُنْفِذ رأيه، وطلب الهادي الخِرِّيت، فدُلَّ على رافع بن عُميرة الطائي، وقام خالد في الناس ليشحذَ عزائمهم ويقوي إيمانهم، فقال: (لا يختلفنَّ هَدْيُكم، ولا يضعُفَنَّ يقينُكم، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية، والأجر على قدر الحِسْبة، وإن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله له. فقالوا له: أنت رجلٌ قد جَمع الله لك الخير، فشأنَكَ. فطابَقُوه، ونووا

---

(١) **الحيرة**: تقع بين النجف والكوفة.

(٢) **دومة الجندل**: قرية في شمال الجزيرة العربية، تقع شمال تيماء على مسافة (٤٥٠كم).

واحتسَبوا ، واشتهوا مثل الذي اشتهى خالد).

وسار خالد ومعه (٩٥٠٠) مقاتل ، ودليلُه رافع بن عميرة ، وسلك به أراضيَ لم يَسلكْها قبله أحد ، فاجتابَ البراري والقِفار ، وقطع الأودية ، وتصعَّد في الجبال ، وسار في غير مَهْيَع[١]. وجعل رافعٌ يدلّهم في مسيرِهم على الطريق وهو في مفاوز معطِشة ، ووصل ـ ولله الحمد ـ في خمسة أيام ، فخرج على الروم من ناحية «تَدْمُر»[٢] فصالح أهلها ، ومرَّ بقرية «عَذْراء»[٣] ، وخرج من شرقي دمشق ، ثم سار حتى وصل إلى قناة «بُصْرى» ، فوجد الصحابة تحاربها ، فصالحه صاحبها وسلَّمها إليه.

وهذه المَفَازةُ التي غامرَ سيفُ الله بنفسه وجيوشه في قَطْعها من العراق إلى الشام ، ليخرج على الروم فلا يحبسه دونهم شيء هي المعروفة الآن ببادية الشام ، وهي اليوم طريق السيارات بين دمشق وبغداد ، وهو زُهاء (١٣٧٠كم)[٤] تقطعه السيارات في نحو عشرين ساعة مع الاستراحة! فرمى خالد بنفسه وجيشه في هذه البادية المخوفة المهلكة التي لا ماء فيها ، وقطعها في خمسة أيام ، وأتى الروم من مأمنهم ، وفَجِئَهم بما لم يحتسبوا.

حقّاً إنّ العبقريات لا تعرف الحدود ، ولا تعترف بقيمة الحواجز المادية التي تصادفها في طريقها إلى غاياتها النبيلة.

---

(١) طريق مَهْيَع: واضِحٌ واسِعٌ بيِّنٌ.

(٢) تَدْمُر: مدينة في البادية السورية ، تقع شمال شرق دمشق على مسافة (٢٤٠كم).

(٣) عَذْراء: قرية شرقي دمشق على مسافة (٢٥كم) منها ، وتسمى الآن (عدرا).

(٤) الطريق الحديثة الآن اختصرت المسافة ، فبين دمشق وبغداد (٨٠٠كم).

●● وأراد خالد رضي الله عنه أن يكون وصولُه مع جيشه لغياثِ إخوته من جيوش الشام وبُشْراهم بإمدادِه لهم؛ رسولَ سكينة إلى قلوبهم، وعنوانَ إكبارٍ لقائدهم أبي عبيدة، وأنه إذ أرسله الخليفة مدداً لهم وقائداً عامّاً لجيوشهم؛ فهو يعرف لأكابر أصحاب النبي ﷺ منزلتهم وفضْلَهم وسابقَتَهم، ويُشعِر أبا عبيدة أنه أعرف بمكانته وقدره بين المسلمين، فبعث بين يديه بكتابين أحدهما إلى عامة المسلمين بالشام يقول لهم فيه: (**أما بعد**: فإن كتاب خليفة رسول الله ﷺ أتاني بالمسير إليكم، وقد شَمَّرتُ وانكمشتُ[1]، وكأنْ قَدْ أَظَلَّتْ عليكم خَيْلي ورَجِلي، فأَبْشِروا بإنجازِ موعودِ الله وحُسنِ ثواب الله، عَصَمَنا الله وإياكم باليقين، وأثابنا أحسن ثواب المجاهدين).

وأرسل ثانيهما إلى أبي عبيدة خاصة، يقول فيه: (**أما بعد**: فإني أسأل الله لنا ولك الأمنَ يومَ الخوف، والعصمةَ في دار الدنيا من كل سوء، وقد أتاني كتاب خليفة رسول الله ﷺ يأمرني بالمسير إلى الشام، وبالقيام على جندها والتولي لأمرها، واللهِ ما طلبتُ ذلك قط، ولا أردتُه إذ وليته، فأنت على حالك التي كنتَ عليها، لا نعصيك ولا نُخالِفُك، ولا نقطع أمراً دونك، فأنت سيد المسلمين، لا نُنكِرُ فضْلَكَ، ولا نستغني عن رأيك، تمَّمَ الله ما بنا وبك من إحسان، ورحمنا وإياك من صلي النار، والسلام عليك ورحمة الله).

ولمَّا قرأ أبو عبيدة كتاب خالد قال: (باركَ اللهُ لخليفةِ رسولِ الله فيما رأى، وحَيَّا الله خالداً)!.

---

(١) **الانكماش**: الجدّ في الأمر والسرعة في طلبه.

٥ ـ منازل الفريقين وأعدادهم، ووقت المعركة ومجرياتها ، ودحر الروم:

●● أمر هِرَقْلُ بطارقتَه وجندَه أن ينزلوا بالروم منزلاً واسع العَطَن ، واسع المطَّرَد ، ضيقَ المهرَب ، ففعلوا ونزلوا الواقوصة[١] ، وهي على ضفة اليرموك[٢] ، وصار الوادي خندقاً لهم.

ويذكر بعضهم أنَّ الروم نزلوا فيما بين دير أيوب وما يليه من نهر اليرموك.

وانتقل المسلمون من منزلهم الذي كانوا فيه ، فنزلوا قريباً من الروم في طريقهم الذي ليس لهم طريق غيره ، فقال عمرو بن العاص: أيها الناس ، أَبْشِروا ، حُصِرت والله الروم ، وقلَّما جاء محصور بخير!.

وأشار أبو سفيان على المسلمين بأن يتجزأ الجيش ثلاثة أجزاء: فيسيرُ ثلثُه فينزلون تجاه الروم ، ثم تسير الأثقال والذراري في الثلث الآخر ، ويتأخر خالد بالثلث الآخر ، حتى إذا وصلت الأثقال إلى أولئك سار بعدهم ونزلوا في مكان تكون البَرِّيَّة من وراء ظهورهم ، لتصلَ إليهم البُرُود والمَدَد. فامتثَلوا ما أشار به.

---

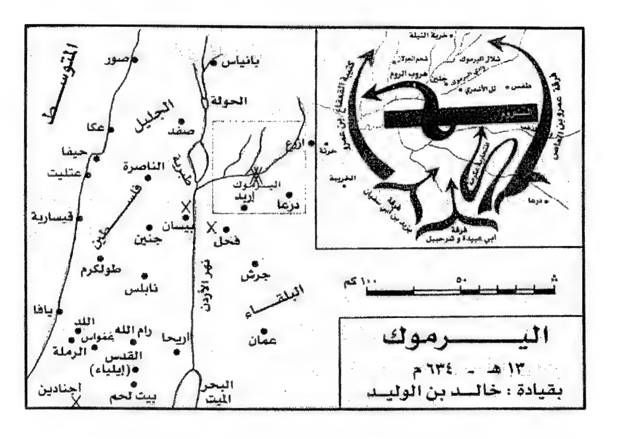
(١) **الواقوصة**: قرية في الجولان يبدأ عندها وادٍ يسمى باسمها ، وتشرف جنوباً على وادي اليرموك.

(٢) نهر اليرموك طوله (٥٧كم) ، وهو أكبر روافد نهر الأردن ، ينبع من مرتفعات حوران السورية ويلتقي مع نهر الأردن في جنوب بحيرة طبرية على بعد (٦كم) منها ، ويطلق اسم اليرموك على الأرض والوادي والنهر. ومن الأودية التي تصب في اليرموك: وادي الرقّاد ووادي العلاّن اللذان يرويان سهول الجولان ، ووادي الحرير ووادي الزيدي في حوران.

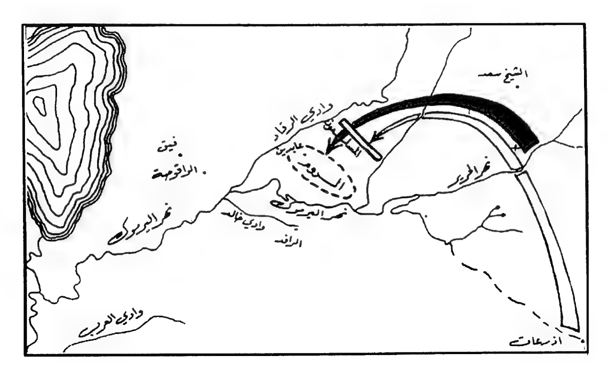
فنزل المسلمون من وراء النهر من الجانب الآخر ، وأَذْرِعات (درعا) خَلْفهم ، ليصل إليهم المَدد من المدينة .

وهذا الوصف يعطي تحديداً تقريبيّاً للمكان الذي جرتْ فيه المعركة ، وهو في السهل الممتد بين درعا ووادي الرقاد ـ وهو من روافد اليرموك ـ الذي يقع غربي مدينة درعا على بعد (٢٠كم) منها .

والخرائط التالية تبين حدود أرض المعركة ومنازل المسلمين والروم :



اليرموك
١٣ هـ - ٦٣٤ م
بقيادة : خالد بن الوليد
المتوسط
الجليل
فلسطين
البلقاء
صور
عكا
حيفا
عتليت
قيسارية
يافا
اللد
الرملة
عمواس
رام الله
القدس
(إيلياء)
بيت لحم
اجنادين
اريحا
البحر الميت
نهر الأردن
طولكرم
نابلس
جنين
بيسان
الناصرة
طبرية
صفد
الحولة
بانياس
فحل
جرش
عمان
اليرموك
اربد
درعا
اذرع
الروم
١٠٠ كم
٥٠


الشيخ سعد
وادي الرقاد
نهر الحرير
الواقوصة
نهر اليرموك
نهر اليرموك
وادي خالد
اذرعات

●● **أما تعداد الفريقين**: فجيشُ الروم وصل بتكامل الأمداد إلى (٢٤٠) ألفاً ، وأما جيش المسلمين فبعد وصول عِكْرِمة بن أبي جَهْل بمن معه وخالد بجيشه ، أصبح الجيش (٣٦) إلى (٤٠) ألفاً ، فيهم ألف من الصحابة؛ منهم مئة ممن شهد بدراً.

وأما تاريخ المعركة: فإنَّ جيوش المسلمين أقاموا بإزاء الروم يجمعون صفوفهم شهر صفر من سنة (١٣هـ) والرَّبيعين ، ينتظرون المَدد ومجيءَ خالد الذي جاء في ربيع الآخر ، وحَدثت المعركة في جمادى الآخرة ، حيث مات أبو بكر للنصف من هذا الشهر قبل الفتح بعشر ليال.

قدِمَ خالدٌ «اليَرْمُوك» في عشرة آلاف ـ كما تقول بعض الروايات ـ فتمَّ بهم عددُ المسلمين أربعين ألفاً ، وكان المسلمون قبل قدوم خالد عليهم يقاتِلون أعداءهم متساندين ، كل أمير منهم يَـقْصِد إلى ناحية ليغزوها ، ويبثُّ غاراته فيها ، وكانوا إذا اجتمع لهم العدو اجتمعوا له ، وصلَّى كل أمير بأصحابه وجُنْده ، وإذا احتاجَ أحد الأمراء إلى مُعاضَدة من أحد إخوانه سارَعَ إلى إنجاده.

ولكنّ خالداً رضي الله عنه لمّا وصل إليهم بجيش العراق ، ورأى كثرة الروم ، واجتماعَهم وخروجهم على تَعْبية لم يَر الناس مثلَها ، لم يشأ أن يفتح على الأمراء باباً ربما لم يقع من أنفسهم ـ باديءَ الرأي ـ موقعَ الرضا والتسليم ، ذلك أن يَفْرِض عليهم إمارته العامة التي ولاَّه الخليفة إياها ، واكتفى بإعلام أبي عبيدة لأنه بمنزلة أمير الأمراء قبل ورود خالدٍ عليهم ، فقد قال لهم أبو بكر عند بَعْثِهم: (فإذا قدِمْتُم البلد ، ولقيتُم الجنودَ واجتمعتم على قتالهم ، فأميركم أبو عبيدة بن الجراح). بل لجأ خالد

إلىٰ أسلوب يُمكِّنه من الإشراف التام علىٰ إدارة الحرب ، ويَرْضَى عنه أصحابُه ، فيمضون معه قُدُماً في عزائم صارمة ، فقال لهم: (هل لكم يا معشرَ الرؤساء في أمرٍ يُعِزُّ الله به الدين ، ولا يَدخل عليكم معه ولا منه نقيصةٌ ولا مكروه؟) قالوا: نعم. فخطب الناس بعد أن استأنس من رضاء الأمراء بصفة عامة ، فقال: (إنَّ هذا يومٌ من أيام الله ، لا ينبغي فيه الفخر ولا البَغْيُ ، أخلِصوا جهادكم ، وأريدوا اللهَ بعملكم ، فإنَّ هذا يوم له ما بعده ، ولا تُقاتِلوا قوماً على نظام وتَعْبِية[1] على تَسَانُدٍ[2] وانتشار ، فإنَّ ذلك لا يَحلُّ ولا ينبغي ، وإن مَنْ وراءكم لو يعلم عِلْمَكم حالَ بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما تُؤْمَرون به بالذي ترون أنه الرأي من واليكم ومحبَّته).

قال الأمراء: فهاتِ؛ فما الرأيُ؟ قال خالد: (إنَّ أبا بكر لم يبعثْنا إلا وهو يرى أنا سنتياسَرُ ، ولو عَلِمَ بالذي كان ويكون لقد جَمَعَكم ، إنّ الذي أنتم فيه أشدُّ على المسلمين مما قد غَشِيهم ، وأنفعُ للمشركين من أمدادِهم ، ولقد علمتُ أن الدنيا فرّقت بينكم ، فاللهَ اللهَ ، فقد أُفْرِدَ كلُّ رجل منكم ببلد من البلدان ، لا ينتقصه منه إن دانَ لأحدٍ من أمراء الجنود ، ولا يزيده عليه إنْ دانُوا له ، إن تأميرَ بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ ، هَلُمُّوا فإنَّ هؤلاء قد تهيَّؤوا ، وهذا يوم له ما بعده ، إنْ ردَدْنَاهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردّهم ، وإن هَزمونا لم نُفلح بعدها ، فهلُمُّوا فلْنَتَعاوَر الإمارة ، فليكن عليها بعضُنا

(١) **تعبية الجيش**: تجهيزه وتهيئته للقتال.

(٢) **التساند**: أن يقاتل الجيش تحت رايات شتى لا تجمعهم راية أمير واحد.

اليوم ، والآخَرُ غداً ، والآخَرُ بعد غدٍ ، حتى يتأمر كلكم ، ودَعُوني أَلِيْكُم اليوم).

رضي الأمراء هذا الرأيَ فأمَّروا خالداً عليهم ، وهم يرون أنها كخَرْجَاتهم إذ كانوا على تَسَانُدِهم ، وأن الأمر أطولُ مما صاروا إليه ، وأنَّ مَن لم يكن منهم أميراً اليوم فسيكون أميراً غداً.

تسلَّم خالد بن الوليد زِمام القيادة ، ورأى الروم قد خرجت على تعبية لم يَـرَ الراؤون مثلَها قط ، فخرج لهم في تَعْبِيَة لم تُعَبِّها العرب قبل ذلك ، فجعل الجيشَ كَراديس[١] ، فخرج في ستة وثلاثين كُرْدُوساً إلى الأربعين ، وقال لجنوده: (إنَّ عدوَّكم قد كَثُر وَطَغَى ، وليس من التعبية تعبية أكثر في رأي العين من الكَرَاديس).

فجعل القَلْبَ كراديس وأقام عليه أبا عبيدة ، وجعل المَيْمَنَة كَرَاديس وعليها عَمْرو بن العاص وفيها شُرَحْبيل بن حَسَنة ، وجعل المَيْسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان. وأقام على كلّ كُرْدُوس بطلاً من شجعان المسلمين وفرسانهم من أضراب القعقاع بن عمرو ، وعِكْرمة بن أبي جهل ، وعياض بن غَنْم ، وهاشم بن عُتْبة بن أبي وقاص ، وحَبيب بن مَسْلَمة ، وعبد الرحمن بن خالد ، وكان عبد الرحمن يومئذٍ ابنَ ثماني عشرة سنة!.

وأقام على القضاء أبا الدرداء ، وعلى القصص[٢] أبا سفيان بن

---

(١) الكَرَاديس: الكتائب ، قال في القاموس: وكَرْدَسَ الخيلَ: جعلها كتيبة.

(٢) **القصص هنا**: لون من الوعظ التاريخي يقصد منه تحميس الجند ، وبث الحمية في قلوبهم.

حرب ، وأَمَرَ المقدادَ بقراءة سورة الجهاد وهي سورة الأنفال ، فكان أبو سفيان يسير في الكراديس ويقف عليها وهو يقول: (اللهَ اللهَ ، إنكم ذَادَةُ العرب وأنصارَ الإسلام ، وإنهم ذَادة الروم وأنصارُ الشِّرك ، اللهمَّ إنّ هذا يومٌ من أيامك ، اللهمَّ أَنْزِل نصرَكَ علىٰ عِبادِك).

وسمع خالد رجلاً من صفوف الناس يقول: ما أكثَرَ الرومَ وأقلَّ المسلمين! فزَجَرَه خالد وردَّ عليه ردّاً يجعلُ كلَّ جندي من جنود الإسلام جيشاً في إهاب رجل ، فقال: (بل ما أقلَّ الرومَ وأكثَرَ المسلمين! إنما تَكْثُر الجنود بالنصر وتقلُّ بالخُذْلان ، لا بعددِ الرجال. والله لَوَدِدْتُ أنَّ الأشقَرَ براءٌ من تَوَجّيه[1] ، وأنهم أَضْعَفوا في العَدد!).

وأَمَرَ خالدٌ عكرمةَ والقعقاعَ فأَنْشَبا القتال ، فالتحم الناسُ ، وتطارَدَ الفرسان ، واقتتلوا قتالاً شديداً لم يَـرَ الناسُ مثلَه.

وقام أبو عبيدة يحمِّس المسلمين فوعظهم قائلاً: (عبادَ الله! انصُروا الله يَنْصُرْكم ويُـثَـبِّت أقدامَكم ، يا معشرَ المسلمين اصبروا فإنَّ الصبرَ منجاةٌ من الكفر ومرضاة للربّ ومَدْحَضة للعار ، ولا تبرَحُوا مَصَافَّكم ، ولا تَخطوا إليهم خطوة ، ولا تبدؤوهم بالقتال ، وأشْرِعوا الرِّماح ، واستتِروا بالدَّرَق ، والْزَموا الصَّمت إلا من ذِكْر الله في أنفسكم ، حتى آمُرَكم إن شاء الله تعالى).

وفعل مثلَه في إذْكاء روح الجهاد والحَضّ على الاستبسال للفوز بالنصر أو الجنة: معاذ بن جبل، وعمرو بن العاص، وأبو هريرة، وغيرهم.

---

(١) **الأشقر**: هو فرس خالد ، **وتوجّيه**: حَفَاؤه من شدة المشي ووعورة الطريق ، وكان قد حَفِي في قَدْمَتِه من العراق.

قال الطبري وتابعه ابن الأثير: (فإنهم على ذلك إذ قَدِمَ البريدُ من المدينة ، فأخذَتْه الخيول ، وسألوه الخبر ، فلم يُخبرهم إلا بسلامة ، وأخبرهم عن أمداد ، وإنما جاء بموت أبي بكر رحمه الله وتأميرِ أبي عبيدة ، فأبْلَغوا خالداً ، فأخبره خبَرَ أبي بكر أَسَرَّه إليه ، وأخبره بالذي أَخبر به الجند ، فقال له خالد: أحسنتَ فقِفْ ، وأخذ الكتاب وجعله في كِنانته ، وخاف إن هو أظهر ذلك أن ينتشر له أمرُ الجند ، فوقف مَحْمِيَّة بن زُنيم ـ وكان هو الرسول ـ مع خالد).

وفي حَوْمَة الوغى خرج (جَرَجَة) ـ وهو قائدٌ رومي ـ ونادى: لِيخرج إليَّ خالد ، فخرج إليه خالد ، وجرى بينهما حوار رائع طريف أسلم على آثارِه (جَرَجة) ، ووقف مع سيف الله خالد يقاتِل معه في الصف!.

وحملت الروم مع انقلاب جَرَجة إلى خالد ، وهم يَرَوْن أنها حملةٌ من قائدهم ، فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلا المحامية ، وكان عليهم عِكْرِمة والحارث بن هشام. وركب خالد ومعه جَرَجة ، والروم خلال المسلمين ، فتنادى الناس وتابوا ، وتراجعتِ الروم إلى مواقفهم. فزَحف خالد بالمسلمين على الروم حتى تصافَحُوا بالسيوف ، فضَرب فيهم خالد وجَرجة من لَدُن ارتفاع النهار إلى جُنُوح الشمس للغروب ، ثم أُصيب جَرَجَة ولم يصلِّ صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلَم عليهما ، وصلَّى الناسُ الظهر والعصر إيماءً ، وتضعضعَ الروم.

ونَهَد خالد بالقَلْب حتى كان بين خَيْلِهم ورَجلهم ، وكان مُقاتَلُهم واسعَ المُطَّرد ، ضيقَ المَهْرَب ، فلما وجدَتْ خيلُهم مَذْهباً ذهبتْ وتركوا رَجلهم في مَصَافِّهم ، وخرجَتْ خيلُهم تشتدُّ بهم في الصحراء ، وأخَّر الناسُ الصلاةَ حتىٰ صلَّوا بعد الفتح.

ولمَّا رأى المسلمون خيلَ الروم توجَّهت للهرب ، أَفْرَجوا لها ولم يحرِّجوها ، فذهبت فتفرَّقَتْ في البلاد ، وأقبل خالد والمسلمون على الرَّجل ففَضُّوهم ، فكأنّما هُدِم بهم حائطٌ ، فاقتحَمُوا في خندقهم ، فاقتحمَه عليهم ، فعَمَدوا إلى الواقوصة ، حتى هوى فيها المقترِنون بالسلاسل وغيرُهم ، فمَنْ صَبَرَ من المقترِنين للقتال هوى به من جَشِعَتْ نفسه ، فيهوي الواحد بالعشرة لا يُطيقونه ، كلما هوى اثنان كانت البقية أضعفَ ، فتهافَتَ في الواقوصة عشرون ومئة ألف ، ثمانون ألف مقترِن وأربعون ألف مُطْلَق ، سوى من قُتل في المعركة من الخَيْل والرَّجل ، فكان سهمُ الفارس يومئذ ألفاً وخمسمئة.

وتجلَّل قائد الروم (الفيقار) وتجلَّل معه أشرافٌ من أشرافِ الروم بَرانِسَهم ، ثم جلسوا وقالوا: لا نحبُّ أن نَرى يوم السَّوْء إِذْ لم نستطع أن نرى يومَ السرور ، وإذ لم نستطعْ أن نمنع النصرانية ، فأُصيبوا في تَزَمُّلِهم.

وهَزم الله الرومَ هزيمة منكرة ، وقُتلت صَناديدُهم ورؤوسهم وفرسانهم ، وانتهت الهزيمة إلى هِرقِل وهو دون مدينة حمص[1].

٦ ـ وقفات وعبر مع أبي بكر وقادة جيوش فتح الشام:

كان أبو بكر خبيراً بالرجال ، مستبطِناً لِمَنازع العبقرية فيهم ، قديراً

---

(١) ما كتبته في هذه الفقرة اختصرته وهذبته من المراجع التالية: تاريخ خليفة ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ ؛ تاريخ الطبري: ٣/ ٣٩٧ ـ ٤١٩ ؛ البداية والنهاية: ٧/ ٢ ـ ١٥ ، قادة فتح الشام ومصر ؛ خالد بن الوليد ، للصادق عرجون ، ص ٢٣٩ ـ ٢٧١ ؛ كتابي: العشرة المبشرون بالجنة ، ص ٢٩٤ ـ ٣١٦.

على توجيهها إلى حيث تملك مجالها في الحياة ، فعقد لأولئك الأمراء ألوية في فتح الشام ، واختار لتلك المهمة الجليلة أقدرَ رجالات الإسلام وأشجَعَهم وأَدْهاهم وأعلَمهم بمداخل الغمرات في الحروب ، وتقدَّم إلى الجميع بنصائحه وتوجيهاته.

فتقدَّم إلى شرحبيل يأمره باستشارة أبي عبيدة ومعاذ وخالد بن سعيد ، فقال له: (إنك واجدٌ عندهم نُصحاً وخيراً ، وإياك واستبداد الرأي عنهم أو تطوي عنهم بعض الخبر).

وأوصى يزيد بن أبي سفيان برعاية جانب أبي عبيدة ومعاذ والاستنارة برأيهما ، فقال له: (فلا تقطَعْ أمراً دونهما ، وإنهما لن يألُوَا بك خيراً).

وأراد الصدّيق بذلك إبرازَ مكانة أصحاب الفضل والسابقة من الصحابة ، وأن يكون الأمراء متعاونين متعاضدين لتحقيق الخير والنجاح لجيوشهم وتجنب المسلمين التفرّد بالرأي والاستبداد بالقرار ، وإقامة منارات الأسوة والقدوة للأمة في اتّباع هَدْي سَلَفها بالتزام منهج الشورى الرشيد في السلم والحرب ، والشدة والرخاء ، فالاستبداد بالرأي يُورِد الأممَ في المهالك ، ويقتل فيها مَلَكات ذوي الحِجَى والألباب.

وكان عمرو بن العاص يتمنّى أن يكون أميراً على الناس جميعاً في الشام ، واستأنس لذلك بما تقدَّم له في عهد النبي ﷺ حيث أمَّره في (ذات السلاسل) على سَرَاة المهاجرين والأنصار ، فارتفعت نفسه لينالَ ذلك الشرف الرفيع في الإمارة العامة على جيوش الشام ، فيُثنّي بهذا ما سَبَقَ له من النبي ﷺ ، ويضمّ إلى تزكيةِ رسول الله ﷺ له تزكيةَ أبي بكر! فتلطّف إليه الصدّيق ، وولاّه على جيشٍ كثيف ، لـكنـه مَنَعه من أن يكون أميراً

في هذا الوجه على رجل قال فيه الرسول ﷺ: «**أمين هذه الأمة أبو عبيدة**».

(قال عمرو: يا خليفة رسول الله! أنا والٍ على الناس؟ فقال: نعم، أنت الوالي على مَن أبعثُ معك من ههنا، قال: لا، بل والٍ على من أَقْدَم عليه من المسلمين! قال: لا، ولكنك أحدُ الأمراء، فإنْ جمعَتْكم حربٌ فأبو عبيدة أميرُكم. فسكَتَ عنه، ثم خرج فعسكر، فاجتمع إليه ناس كثير، وكان معه أشراف قريش).

وفي هذا الموقف الفذ من أبي بكر، بطلِ الإسلام الكبير، والحافِظِ لعهد النبي ﷺ في إنفاذِ بَعْث أسامة، والمتصدِّي الأول للردّة ومُخْضِد شوكتها، والرجل المبارك الذي بثَّ جيوش الإسلام في أراضي الإمبراطوريتين الرومية والفارسية، فكتب بذلك السطور الأولى من نَعْيهما، الرجل الذي امتدحه الخليفة المُلْهَم عمر بقوله: رحمَ اللهُ أبا بكر لقد كان أَعلَمَ بالرجالِ منّي!.

نقول: إنّ إبعادَ أولئك الأشراف الكبار عن منصب القيادة العامة وإمارة أمراء جيوش الشام، وإناطتَهُ بأبي عبيدة؛ له مدلول كبير يُنبئ عن معرفة أبي بكر التامة والعميقة بما حَبَا اللهُ به أبا عبيدة من خصائص العبقرية ومقومات القيادة التي يتفرّد بها آحاد الرجال.

وأما سيفُ الله خالد فكان يمينَ أبي بكر في حروب الردَّة، ففقأ عينَها وَبَسَط سلطان الإسلام على الجزيرة العربية. وبعد ذلك رمى به الصديق دولةَ الفرس، فتصدى لمجموعهم ورَعْبَلَها، وهزمهم شرَّ هزيمة، وأقام راية الإسلام في العراق.

وحينما رأى أبو بكر تذامُرَ الروم وتجمُّعَهم وتكاثفَ جيوشهم، يرى

أن أكفأ الناس لمواجهة ذلك هذا الذي (لا ينام ولا يترك أحداً ينام)!
وواجبات الحاكم المسلم أن يختار الأكفأ والأقوى والأعلم في قيادة الحروب ، وهو من النصح الواجب عليه للإسلام والمسلمين. وقد أثبتت وقائعُ الأحداث ومجريات المعارك صِدْقَ فراسة الصديق وبَصَرَه التام بالرجال ، وخبرتَهُ بالعبقريات ، وقد حقق الله له جميع ما أَمَّله في (سيف الله خالد) ، فكان اختياره موفَّقاً مسدَّداً حينما جعله (أميرَ أمراء الشام) وولاَّه (الإمارة العامة) على أبي عُبيدة وسواه.



الفصل الخامس

الفتوحات: معالمها وعوامل النصر فيها وثمراتها

أولاً: معالم الفتوحات:

المتأمل لِما سطَّره علماؤنا عن تاريخ عهد الخلفاء الراشدين، وما حدث فيه من معجزات تاريخية في تثبيت دولة الإسلام واتساعها، والمتدبِّر لِما أوجزناه في هذا الباب عن الفتوحات في عهد أبي بكر الصديق ـ يدرك ذلك الانقلاب الضخم الذي وقع في التاريخ في صعود الأمة العربية الإسلامية وإمساكها بزمام قيادة العالم، وهبوط أمم ودول مُعْرِقة في السيادة والريادة وانحلال عقدها وخبوّ جَذْوتها. ويرى التغيير الهائل في موازين القوى والواقع الجغرافي الذي أَذِن بامتداد دولة الإسلام واتساع رقعتها، وانتقاص دولتي فارس والروم من أطرافهما. ويدهش لتلك الانتصارات الكبيرة المتلاحقة والامتداد المطَّرِد للدولة الإسلامية. ثم يعجب لاستسلام تلك الشعوب للفاتحين المسلمين ودخولهم في دينهم أفواجاً عن رضاً وسعادة، لم يلبثوا بعدها أن صاروا من حملة الرسالة وحماتها وناشريها المنافحين عنها.

ذلك كله كان أغربَ ما حدث في التاريخ البشري والمجتمع

الإنساني؛ فهو غريب في سرعته ، وغريب في عمقه ، وغريب في شموله ، وغريب في وضوحه[1] .

دولة ناشئةَ في قلب الجزيرة العربية ، ينقلب عليها الأعراب وأدعياء النبوة من أطرافها ، فتثبُت لهم وتُخمِد ذِكْرهم ، ثم تمدُّ ذراعيها القويين الناهضين شرقاً وشمالاً فتصارع دولتي فارس والروم وتزرع الإسلام في كثير من ربوعهما . . . كل ذلك يحدث في سنتين على يدي رجل قد تخطَّى الستين من عمره مع رجال صنعهم الله عز وجل على عينه في مدرسة نبيه ﷺ !.

ما هي أسرار ذلك كله؟!.

نحاول في هذا الفصل تلمس العوامل للإجابة على تلك العجائب وهذا السؤال[2] .

ثانياً: عوامل النصر في الفتوحات وثمراتها:

١ ـ أثر العقيدة في نفوس القادة والجند:

فالفاتحون الذين قادوا حركات الجهاد والفتح المظفرة رباهم رسول الله ﷺ على أخلاق القرآن وهدي النبوة ، فكانوا أصحابَ رسالة

(١) انظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ١٠٤ .

(٢) استفدت هنا من الكتب التالية : تاريخ الطبري؛ البداية والنهاية؛ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؛ كتب محمود شيت خطاب : بين العقيدة والقيادة ، قادة فتح : العراق ، الشام ، فارس؛ من قضايا الفكر الإسلامي المعاصر ، لمحمد قطب؛ عصر الخلافة الراشدة ، للعمري؛ الخلفاء الراشدون ، للنجار؛ الصديق أبو بكر ، لهيكل؛ أبو بكر ، للطنطاوي؛ أبو بكر ، للصلابي.

وأخلاق عالية ، أمناء أعفَّة ، خاشعين متواضعين ، مخلصين لدينهم وإمامهم وقادتهم ، حريصين على إبلاغ الهداية للعالمين ، وإعلاء كلمة الله تعالى ، يدفعهم إلى الجهاد حبُّ الله ورسوله. إنه الإيمان الذي ملأ قلوبهم في مبدأ سيرهم ونهايته ، وصَحِبَهم في فتوحاتهم هذه وما يليها من فتوحات مشرِّقين ومغرِّبين.

٢ ـ الأسس والقيم والمبادئ الإسلامية التي كان الفاتحون يبنون عليها وينطلقون منها:

والدرجة العالية المذهلة من روعة الأداء والتطبيق لتلك الأسس والقيم والمبادئ.

إنه التلاحم الفذّ بين رفعة المبادئ وروعة التطبيق عند أولئك الفاتحين. إنهم لم يسيروا في الأرض ابتغاءَ المُلك والسلطان والجبروت، ولكن دعاة دين وشرع قويم وخلق كريم ، ورسل عدل ورحمة وأخوة ومواساة.

إنهم باختصار: أمة مبادئ لا يحيدون عنها لا في السراء ولا في الضراء[(١)].

٣ ـ اعتقادهم الجازم بعقيدة القضاء والقدر:

فقد رسَخ هذا في قلوبهم أعظمَ رسوخ ، وآمنوا إيماناً لا تُزلزله فوادحُ المِحن بصدقِ ما جاء في التنزيل الحكيم: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ [التوبة: ٥١] ، ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

---

(١) من قضايا الفكر الإسلامي المعاصر ، ص ٨٧ ـ ٨٠.

فكانوا لا يأبهون بكثرة عدوّ ولا بضخامة عدَّة ولا بزحوف الأخطار؛ فأَبْدَوا فنوناً من الشجاعة والإقدام والاستبسال لا يذكر التاريخ لغيرهم مثيلاً لها[1].

٤ ـ شغفهم بالآخرة والأجر والتضحية وعدم تلفتهم للدنيا وحطامها:

فلقد أيقنوا بوعد الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١].

فكانوا يجدون ريحَ الجنة في المعركة، ويطلبون الشهادة فتُوهَب لهم الحياة! ولم يُنازِعوا الأمر أهلَه، ولا تنازعوا على قيادة في أرض المعركة، وكانوا يناضلون بنفس الطاقة سواء أكانوا قادة أم جنوداً. ورأوا مُلْكَ كسرى وقيصر فلم يَبهرهم، ووطِئوا فُرُشَهم وزخارفهم دون أن تحرك فيهم شعرة من إكبار أو انبهار!.

٥ ـ تعلق القلوب بالله والبعد عن الغرور أو العجب بالنصر الكبير:

فالفاتحون كانوا يبذلون أرواحهم وأبناءهم وأموالهم في سبيل الله ولإعلاء كلمته، لا يغرُّهم النصر، ولا يَقعد بهم علوُّ المرتبة ورفعتُها.

فهولاء كبار الصحابة يجاهدون تحت إمرة عمرو بن العاص وهو أحدثهم بالإسلام عهداً. وهذا خالد يمشي النصر في ركابه، فيكتب له

(١) الخلفاء الراشدون، للنجار، ص ٥١.

الصديق: (أَتْمِم يُتمم الله لك ، ولا يَدخلنّك عُجْبٌ فتخسَر وتُخْذَل ، وإياك أن تُدِلَّ بعملٍ فإن الله عز وجل له المنّ وهو وليّ الجزاء). وهذا أمين الأمة أبو عبيدة يكون أمير أمراء الشام فيأتيه أمر الصديق بالانضواء تحت لواء خالد ، فيقول: باركَ الله لخليفة رسول الله ﷺ فيما رأى ، وحيَّا الله خالداً.

واستمع قولة سيف الله خالد وهو يغامر بجيشه في قطع (بادية السَّمَاوة): (لا يختلفنَّ هديُكم ، ولا يضعُفَنَّ يقينُكم ، واعلموا أن المعونة تأتي على قدر النية ، والأجر على قدر الحِسْبة ، وأن المسلم لا ينبغي له أن يكترث بشيء يقع فيه مع معونة الله له)! فيقول أهل الجيش: (أنت رجل قد جمع الله لك الخير ، فشأنَك).

٦ ـ التقوى والفضائل واجتناب الذنوب:

كان الفاتحون في أيام جهادهم يقومون الليل ويصومون النهار ويتلون القرآن ، ولا ينسون الصلاة عند الالتحام بالعدو ، ويصلُّون صلاة الفتح بعد تمام النصر ، ويتلون سورة الأنفال وآيات الجهاد في المعركة. وكان من وصية أبي بكر لقادته وجنده: (استعينوا بالله واتقوه ، وآثِروا أمر الآخرة على الدنيا يجتمعا لكم ، ولا تؤثروا الدنيا فتُسلَبوهما ، واحذروا ما حذَّركم الله بترك المعاصي ومعاجلة التوبة).

وهم كما وصفهم أعداؤهم: (أمَّا الليل فَرُهبان ، وأما النهار ففُرسان ، يَريشون النَّبل ويَبرونها ، ويثقفون القنا ، لو حدثتَ جليسك حديثاً ما فهمه عنك لِما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر)[١]!.

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ١٥ ـ ١٦؛ تاريخ الطبري: ٣/ ٤١٨.

٧ ـ عالمية الرسالة والدعوة:

فالصحابة والتابعون لهم بإحسان كانوا مستيقنين بعالمية الإسلام ووجوب حمل رسالته للعالمين ، وبذلِ النفس والنفيس في سبيل ذلك ، بالحجة والبيان لمن فتح عقله وقلبه ، وبالجهاد والسِّنان لمن حال دون وصول الدعوة للآخرين. وقد عبَّر أحد الصحابة عن ذلك فقال: جِئنا لنخرجَ العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضِيق الدنيا إلى سَعة الدنيا والآخرة.

٨ ـ الروح المعنوية العالية:

فالجيوش الفاتحة بقياداتها وجندها كانوا على جانب عظيم من المعنويات العالية التي تؤجِّجها العقيدة الراسخة والإيمانُ بالقضاء والقدر والشغفُ بالآخرة والفوز برضا الله وجنته ، وتحقيقُ أمره بنشر الرسالة ، ثم وجود القيادة في قلب المعركة. . . فكان الجميع كتلة ضخمة واحدة من المعنويات المتحركة ، جعلت النصر يسبقهم على أجنحة الرعب الذي ملأ قلوب الأعداء عن بُعْد؛ حتى إن انتصارات المسلمين في العراق بلغت الشامَ فتضعضع لها هِرقلُ ملك الروم!.

٩ ـ في الجيوش خيار الصحابة من المهاجرين والأنصار:

هؤلاء الذين تنزَّل القرآن بمدحهم ، وأشرقت أنوار النبوة في جوانحهم ، فكانوا مصدر إلهام لاستنزال النصر الذي حرص عليه أكابر القادة ، حتى اختلف خالد والمثنى بن حارثة بالاستئثار بهم فقال المثنى: (والله ما أرجو النصر إلا بأصحاب النبي ﷺ). فلما رأى خالد ذلك ، أرضاه.

وكانوا هم قادة الفتوح ومحاور المعارك إذا قامت الحرب على ساق ، وكان أبو بكر وعمر لا يؤمِّران إلا الصحابة.

١٠ ـ الجرأة النادرة والاستبسال الفذ عند المواجهة:

فالقادة والجنود كانوا مستبسلين في جهادهم ، يندفع الواحد منهم لا يلوي على شيء ، وإنما هي إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.

والشواهد على ذلك تفوت الحصر ، وحسبك بأمثال خالد والمثنَّى وأبي عُبيدة ويزيد وعَمْرو وشُرَحْبيل والقعقاع وعكرمة وعياض. . .

في (معركة الوَلَجة) بارز خالد رجلاً من الفرس يعدل ألفَ رجل ، فقتله ، فلما فرغ منه اتكأ عليه ودعا بغدائه! وفي (اليرموك) نادى عِكْرِمة: مَن يبايع على الموت؟ فلبَّاه (٤٠٠) بطل ، حملوا على صفوف الروم فزلزلوهم!.

١١ ـ صلاحية العرب لحمل الرسالة:

فالعرب كانوا وقت نزول الرسالة أصلحَ الناس لتلقِّيها وحملها ونشرِها في الأرض ، فلقد كانوا أقربَ الناس إلى الفطرة ، لم تُفْسِد فطرتَهم الحضارات المادية ، وعندهم فضائل جَمَّة مما يحبُّه الإسلام قد لَوّثَتْها الجاهلية فطَهَّرها الإسلام وصوَّبَ مسارها: فيهم الشجاعة والإقدام ، والكرم والسخاء ، والأَنَفة التي تأبى الضَّيْم ، والقدرة الجميلة على عدم الالتصاق بالأرض ، وقدرة على الانخلاع منها حين تقتضي الظروف ، ونصرة المظلوم ، وإغاثة الملهوف والغيرة والنجدة. . . كل ذلك صاغه الإسلام بقوته القاهرة وروحه الوثابة التي سارت بهؤلاء

الرجال في أرجاء الأرض فاتحين[1].

١٢ ـ دربة العرب على فنون الفروسية والمبارزة والمطاردة وقلة مؤونة المقاتلين:

وقدرة ممتازة على خفة الحركة في ميادين القتال ، ثم خبرة ممتازة آخذة بالنمو مع الزمن على فنون القتال والمواجهة والكَرّ والفَرّ والكمائن والمباغتة وغيرها مما اكتسبوه طيلة فترة الجهاد بالمدينة والغزوات مع النبي ﷺ وحرب المرتدين.

١٣ ـ ثروة العرب بالرجال الأشداء والقادة الأفذاذ:

أولئك الذين أَلِفوا الحروبَ قبل الإسلام وأيام النبوة في الغزوات ثم في حروب الردة ، ومن أبرع الأمثلة على ذلك : أن خالد بن الوليد اختار في معركة اليرموك (مئة من الفدائيين) من المهاجرين والأنصار ، كان شُرَحْبيل بن حَسَنة واحداً منهم ، وكل فارس يردّ جيشاً ، وأنشَبَ بهم القتال ليفتَّ في أعضاد الروم.

وعندما استمد خالد أبا بكر ، أمدَّه بالقعقاع ، وقال : لا يُهزم جيش فيه مثل هذا.

وقد أحصى محمود شِيت خطاب عددَ القادة الفاتحين الذين حملوا رايات المسلمين شرقاً وغرباً أيام الفتح الإسلامي (١١ ـ ٩٤هـ)؛ فبلغوا (٢٥٦) قائداً ، منهم (٢١٦) من الصحابة ، و(٤٠) من التابعين[2].

---

(١) من قضايا الفكر الإسلامي المعاصر ، ص ٧٣ ـ ٧٥.

(٢) بين العقيدة والقيادة ، ص ١٣٨.

١٤ ـ القادة في قلب المعركة والجيش على قلب واحد:

وهو من عوامل النصر الهامة في الفتوحات ، فالقائد لا يَضنُّ بنفسه وبنيه ، ويلقي بجنده في قلب الردى! ولقد كان أبو بكر أبرزَ الأمثلة على هذا عندما خاض بنفسه حروبَ الردة في بداياتها. وكذلك فعل كل القادة الذين بعثهم للفتوحات ، فكل منهم كان على رأس جيشه ، بل إن خالد بن الوليد كان دوماً في مقدمة الكتائب والمبارزين ، وفي اليرموك كان قائدَ (القلب) ، وأقام ابنَه عبد الرحمن على رأس كُردوس يقود ألفاً من المجاهدين. . ومثلُه خالد بن سعيد بن العاص وقد أرسل ابنه طليعة لجيشه فاستشهد ، ومثلهما فعل عكرمة بن أبي جهل!.

وفي اليرموك أصيب عكرمة وابنُه عَمْرو حتى أَثْبَتَتْهما الجِراح ، فأخذهما خالد سيف الله (أمير الأمراء) ، فوضع رأسَ عكرمة على فخذه ورأس عمرو على ساقه ، وجعل يَمسح عن وجهيهما ويقطر في حلقيهما الماء حتى استُشهدا!.

١٥ ـ تطاوع الأمراء في وجه العدو:

وهذا عنصر في غاية الأهمية للحفاظ على وحدة الصف واجتماع الكلمة وتلاحم الجند ، وقد تجلى ذلك في كل المعارك التي خاضها المسلمون في عهد الصديق ، ولم يحفظ التاريخ مثالاً واحداً شَذَّ عن هذه القاعدة الجليلة.

١٦ ـ ما كانت عليه أحوال دولتي فارس والروم:

من العقائد الفاسدة ، والاستعباد والإذلال ، والظلم والعدوان ، واحتقار الكرامة الإنسانية بنظام الطبقات ، والضرائب المُبْهِظة ، وفساد

الأخلاق والحياة الاجتماعية ، والتنافس على المُلك ، والتنازع بين الدولتين الكبيرتين . . . وشعور شعوبهما بما عليه الحال عندهم ، ومقارنته بما هو عند المسلمين من أخلاق ونُبْل وعدل ومساواة ورحمة . . . مما فَتَّ في أعضَادِهم على الصمود والاستمرار في المقاومة ، وشجعهم على الدخول في الإسلام .

١٧ ـ رحمة الفاتحين وعدلهم ورفعة مبادئ الإسلام في الحرب:

فالفاتحون المسلمون كانوا دعاة لا غزاة ، ولقد تمثلوا مبادئ دينهم في الحرب وعند استسلام العدو: فلا عدوان على الأعراض ، ولا تخريب للمدن ، ولا استلاب للأموال ، ولا إذلال للكرامات ، ولا اندفاع وراء الثأر والانتقام ، وإنما هو الإصلاح والتحرير والعدالة ونشر الخير ومكافحة الشر[1] .

لمّا فتح خالد الحِيرة وصالحه أهلُها ، أهدى القوم إليه هدايا ، فبعث بها إلى الخليفة مع الخمس ، فأجاز الصديق المعاهدة وقبِل الهدايا لكنه احتسبها من الجزية وكتب إلى خالد بذلك ، خشية أن يَظلم أهل الذمة أو يكلِّفهم شطَطاً .

١٨ ـ ومن أروع ثمرات الفتح: أن المسلمين فتحوا البلاد بإيمانهم ، وفتحوا القلوب بعدلهم ، وفتحوا العقول بعلمهم:

وطبّقوا في مطلع القرن الهجري الأول (السابع الميلادي) قواعدَ الحرب الإنسانية التي علمت بها أوروبة في القرن التاسع عشر وحاولت

---

(١) بين العقيدة والقيادة ، ص ١٢٤ .

تطبيقها في القرن العشرين ، وداستها بأقدامها في أواخره وفي مطالع القرن الحادي والعشرين!.

لقد حمل المسلمون للبلاد التي فتحوها العلم والهدى والعدل والغِنى. إننا إذا فتحنا بلداً لا نَخُون ولا نَغدر ، ولا نَغُلّ ولا نُمثِّل ، ولا نَقتل رسولاً ، ولا ننازِل عزَّلاً ، ولا نُهيِّج معتزلاً ، ولا نمسُّ عابداً متبتلاً ، ولا نقتُل امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً ، ولا نقطع شجراً مثمراً ولا نقتل حيواناً إلا لمأكلة!.

وإذا صالحنا قوماً ودخلوا في ذِمَّتنا حميناهم مما نحمي منه أولادنا وأهلينا ، فإذا أسلموا صاروا إخواننا لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا[1].

١٩ ـ ومن نتائج الفتوحات الجليلة: أن كتاب المسلمين الفاتحين (القرآن) كان قوة هائلة دَفعتْ باللغة العربية خارِجَ حدودِها:

فعرَّبتِ الفتوحات العراق والشام ـ ثم مصر وسائر بلاد إفريقية الشمالية فيما بعد ـ فلقد كان العرب قبل الفتح الإسلامي ينزحون من الجزيرة العربية إلى البلاد المجاورة ، لكنهم كانوا يفقدون صِلاتهم مع موطنهم الأصلي ويندمجون بسكان البلاد التي يستوطنونها ، بعكس ما حدث بعد الفتوحات؛ حيث اندمجت تلك الشعوب بالإسلام ولغة القرآن[2].

---

(١) أبو بكر ، للطنطاوي ، ص ٣١ ـ ٣٣.
(٢) مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه ، ص ٢٥ ـ ٢٦.

٢٠ ـ والفتوحات الإسلامية أنشأت حضارة لم يحلم بها التاريخ:

فإذا فتح المسلمون بلداً تركوا أهله أحراراً في دينهم ومعابدهم ، أحراراً في قضائهم ونظمهم ، أحراراً في أموالهم وأولادهم ، وأسعدوهم بالعدل والكرامة الإنسانية ، وبسطوا عليهم ظلال الأمن ، ونشروا لواء الحضارة والمدنية.

٢١ ـ وكانت الغلبة الحضارية للفاتحين الجدد بعكس المألوف في التاريخ:

فالأمم البدوية إذا اكتسحت الحضارات ، سرعان ما تنحلُّ عصبيَّتُها وتذوب روحُ المقاومة فيها ، لكن العرب المسلمين فعلوا غير ذلك! فلقد تغلَّبوا على الحضارتين الساسانية والرومانية ، وكانت لهم الغلبة الحضارية المتمثلة في سيادة الإسلام وانتشار لغته (العربية) ، وهذا أكبر من النصر العسكري السريع[١].

إن الأمة الإسلامية هي أولُ أمة في التاريخ تذوب فيها فوارقُ الجنس واللون واللغة والعِرق لتحقيق المعنى الحقيقي للأمة ، إن لم نقل (إنها الأمة الوحيدة في التاريخ)[٢]!.

٢٢ ـ ومن فضائل الفتوحات وأطايب ثمراتها: أنها عَزَلت الأمم المريضة عن زعامة الإنسانية التي استغلَّتْها واستعبدتها وأساءت معاملتها:

وسار الفاتحون المسلمون بالإنسانية سيراً حثيثاً متزناً عادلاً نحو

---

(١) عصر الخلافة الراشدة ، ص ٧ ـ ٩.

(٢) من قضايا الفكر الإسلامي المعاصر ، ص ٨٩.

الربانية ، وقد توفَّرت فيهم الصفاتُ التي تؤهِّلهم لزعامة البشرية .

لقد ظهرت على مسرح التاريخ حكومةٌ راقية إنسانية تَسُود فيها المُثُل الخُلقية العليا ، وتحكِّم معاييرَ الأخلاق الفاضلة في حياة الناس ونظام الحكم[1] !.

٢٣ ـ الفتح الإسلامي نَسِيجُ وحْدِه في تاريخ البشر:

إنه فتح فريد لا يُشْبهه فتحٌ ولا يدانيه ولا يُقاس به؛ لأنه في نهايته لم ينجلِ عن غالبين ومغلوبين ، وإنما انجلَى عن أمة واحدة ، لها رب واحد ونبي واحد وقرآن واحد وسنة واحدة! .

لهذا استقر الفتح الإسلامي وخَلَد ، وبقيت البلاد المفتوحة للإسلام ، فكان هذا الفتح (فتحاً مستداماً) ، لأنه كان فتحَ خيرٍ وبركةٍ وهدايةٍ[2] .

* * *

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ١٢٧ ، ١٣١ .

(٢) بين العقيدة والقيادة ، ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

الباب السابع

مع الصديق في أيامه الأخيرة

- استخلافه الفاروق عمر .
- وصايا أبي بكر ووفاته ودفنه بجوار حبيبه ﷺ .

* * *



الفصل الأول

استخلافه الفاروق عمر

منزلة عمر عند أبي بكر لا تدانيها منزلةُ أحدٍ من الصحابة رضي الله عنهم جميعاً ، وقد شهدتْ أيامُ خلافة الصديق بأن عمر كان مساعدَه الأيمن ، ومستشاره المقدَّم ، ووزيره الأول ، فلا يكاد أبو بكر يُبرم أمراً دون مشورة عمر وعونه وتأييده ، كما تجلى ذلك في مواقف كثيرة مرت في هذا الكتاب .

وقد رأى الصدِّيق أن النبي ﷺ لم ينصَّ صراحة على أحدٍ بعينه في الخلافة ، ومع ذلك اجتهد هذا الاجتهاد باستخلاف عمر! .

فلعلَّ مما دفَعَه إلى ذلك خشيتُه على المسلمين أن يختلفوا بعده على منصب الخلافة ، وهو قد رأى ما حدث يوم السقيفة ، ثم إن جيوش المسلمين على جبهتي فارس والروم ، فأيُّ نزاعٍ بينهم قد يُنذِر بشرٍّ مستطير؛ فأراد النصح للأمة ودلالتها على ما يحفظ وحدتها ويقوي استمرارها في الفتوحات وإبلاغ الدعوة .

وهو قد عَجَمَ عيدانَ الصحابة وبَلاَ إمكاناتِهم وطاقاتهم ومواهبهم ومواقفهم وسوابقهم ، طيلة مدة الدعوة بمكة ثم في المدينة وبعدها في أيام خلافته ـ فلم يجد أكفأَ من الفاروق ولا مَنْ يُدانيه في ملكاته ومناقبه وتفرُّدِه ومنزلته عند النبي ﷺ وجميع الأمة .

ثم هو قد رأى حبَّ الرسول ﷺ لعمر ، وثناءَه العريض عليه ، ومكانته في قلبه ، فلَطَالما كان يقول: «**أُومِن بهذا أنا وأبو بكر وعمر**» ، «**هذان السمع والبصر**» ، «**اقتدوا باللذين من بعدي ـ وأشار إلى أبي بكر وعمر**» ، ومواقفه الفذة في عصر الرسالة وبمشهد النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم.

وإنك لتلمح أنه الرجل الثاني بعد الصديق بشهادة الصحابة وإقرارهم: ففي مرض النبي ﷺ قال: «**مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس**» ، فخرج عبد الله بن زَمْعَة فلم يجدْ أبا بكر ، فقال: (يا عمر! صلِّ بالناس). وقالت أم المؤمنين عائشة للنبي ﷺ: (إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يُسمِع الناس من البكاء ، فَمُرْ عمرَ فليصلِّ بالناس). وفي رواية: (أن أبا بكر قال: يا عمر! صلِّ بالناس ، فقال عمر: أنت أحق بذلك). وفي حديث السقيفة قال أبو بكر للأنصار: (فبايعوا عمر أو أبا عبيدة).

أولاً: مراحل الاستخلاف:

●● ومع كل ما قدمناه فإن أبا بكر لم يستبدَّ برأيه في مثل هذا الأمر الجَلَل ، فهو كان يستشير الصحابة فيما هو دون ذلك خطورة ، فمن البداهة أن يَلزم هنا هديَ القرآن والنبوة في الشورى.

أخرج ابن عساكر وابن الجوزي من مرسَل الحسن البصري ، قال:

(لمَّا ثَقُل أبو بكر رضي الله عنه واستبان له في نفسه[1] ، جمع الناس إليه فقال لهم: إنه قد نزل بي ما قد ترون ، ولا أظنني إلا لِمماتي ، وقد

---

(١) أي: ظهر له أنه سيموت.

أَطلق الله تعالى أَيْمانكم من بيعتي ، وحلَّ عنكم عَقْدي ، وردَّ عليكم أمرَكم فأمِّروا عليكم من أحببتم ، فإنكم إنْ أمَّرْتُم في حياة مني كان أجدرَ أن لا تختلفوا بعدي. فقاموا في ذلك وخَلَّوه تخلية فلم تستقم لهم ، فرجعوا إليه فقالوا: رَهْ لنا يا خليفة رسول الله! فقال: فلعلكم تختلفون! قالوا: لا ، قال: فعليكم عهدُ الله على الرضا؟ قالوا: نعم ، قال: فأَمْهِلوني أنظر لله ولدينه ولعباده. فأرسل أبو بكر إلى عثمان فقال: أَشِرْ عليَّ برجل ، فوالله إنك عندي لها[1] لأهلٌ وموضع ، فقال: عمر! فقال: اكتب ، فكتب حتى انتهى إلى الاسم فَغُشِي عليه فأفاق ، فقال: اكتب عمر)[2].

●● ثم وَسَّع الصديق دائرة الشورى ، فاستمع لآراء جماعة من أكابر الصحابة:

عن أبي سَلَمة بن عبد الرحمن وغيره: (أن أبا بكر الصديق لما استُعِزَّ به[3] ، دعا عبد الرحمن بن عوف فقال: أخبرني عن عمر بن الخطاب؟ فقال عبد الرحمن: ما تسألُني عن أمر إلا وأنت أعلمُ به مني ، فقال أبو بكر: وإنْ ، فقال عبد الرحمن: هو والله أفضَلُ مَنْ رأيُكَ فيه[4]. ثم دعا عثمان بن عفان ، فقال: أخبرني عن عمر؟ فقال: أنت أخبرُنا فيه ، فقال: على ذلك يا أبا عبد الله ، فقال عثمان: اللهمَّ عِلْمي به أن سريرته

---

(١) أي: للمشورة.

(٢) مناقب عمر بن الخطاب ، لابن الجوزي ، ص ٥٢؛ حياة الصحابة: ٢/٢٨؛ عصر الخلافة الراشدة ، ص ٥٥.

(٣) أي: اشتد به المرض وأشرف على الموت.

(٤) أي: هو أفضل من تراهم أهلاً للخلافة.

خيرٌ من علانيته ، وأنه ليس فينا مثلُه! فقال أبو بكر: يرحمك الله ، والله لو تركتُه ما عَدَوْتَكَ. وشاور معهما سعيد بن زيد أبا الأعور ، وأُسَيد بن الحُضَيْرِ ، وغيرَهما من المهاجرين والأنصار. فقال أُسَيْد: اللهم أعلمُه الخَيْرَةَ بعدك ، يَرْضَى للرضا ويَسْخَطُ للسُّخْط ، الذي يُسِرُّ خيرٌ من الذي يُعلن ، ولم يلِ هذا الأمر أحدٌ أقوى عليه منه.

وسمع بعض أصحاب النبي ﷺ بدخول عبد الرحمن وعثمان على أبي بكر وخَلْوَتِهما به ، فدخلوا على أبي بكر ، فقال له قائل منهم: ما أنتَ قائلٌ لربِّك إذا سألك عن استخلافك عمرَ علينا وقد ترى غِلْظَتَه؟! فقال أبو بكر: أَجْلِسُوني ، أبالله تُخَوِّفونني؟! خابَ مَن تَزَوَّدَ من أمرِكم بظُلْم! أقولُ: اللهمَّ استخلفتُ عليهم خيرَ أهلِك. أبلِغْ عني ما قلتُ لك مَنْ وراءَكَ. ثم اضطجع ، ودعا عثمان بن عفان فقال: اكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عَهِد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها ، وعند أوَّلِ عهدِه بالآخرة داخلاً فيها ، حيث يؤمنُ الكافر ، ويُوقِنُ الفاجر ، ويَصْدُقَ الكاذِبُ: إني استخلفتُ عليكم بعدي عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا ، وإني لم آلُ[1] الله ورسولَه ودينَه ونفسي وإياكم خيراً ، فإنْ عَدَلَ فذلك ظنِّي به وعلمي فيه ، وإنْ بَدَّلَ فلكلِّ امرِئٍ ما اكتسب من الإثم ، والخيرَ أردتُ ، ولا أعلمُ الغيبَ ، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] ، والسلام عليكم ورحمة الله.

ثم أمر بالكتاب فختمه. ثم قال بعضهم: لمَّا أمَلى أبو بكر صَدْر هذا

---

(١) يعني: لم أقصِّر.

الكتاب بقي ذِكْرُ عمر ، فَذُهِبَ به[1] قبل أن يسمِّي أحداً ، فكتب عثمان: إني قد استخلفتُ عليكم عمر بن الخطاب. ثم أفاق أبو بكر فقال: اقرأ عليَّ ما كتبتَ ، فقرأ عليه ذِكر عمر ، فكبَّر أبو بكر وقال: أراك خِفْتَ إن أفْتُلِتَتْ[2] نفسي في غشيتي تلك فيختلف الناس! فجزاك الله عن الإسلام وأهلِه خيراً ، والله إن كنتَ لها لأهلاً.

ثم أمره فخرج بالكتاب مختوماً ، ومعه عمر بن الخطاب ، وأُسَيْد بن سَعْيَة القُرظي ، فقال عثمان للناس: أتبايعون لمن في هذا الكتاب؟ فقالوا: نعم ، وقال بعضهم: قد علمنا به ـ قال ابن سعد: عليٌّ القائلُ ـ وهو عمر! فأقَرُّوا بذلك جميعاً ، ورضوا به ، وبايعوا.

ثم دعا أبو بكر عمر خالياً فأوصاه بما أوصاه ، ثم خرج من عنده ، فرفع أبو بكر يديه مَدّاً فقال: اللهم إني لم أُرِدْ بذلك إلا صلاحَهم ، وخفتُ عليهم الفتنة ، فعملتُ فيهم بما أنت أعلم به واجتهدتُ لهم رأيي ، فولَّيتُ عليهم خيرَهم ، وأقواهم عليهم ، وأحرصَهم على ما أرشدهم. وقد حَضَرني من أمرك ما حضر؛ فاخلُفْني فيهم ، فهم عبادك ونواصيهم بيدك ، أصلِحْ لهم واليهم ، واجعلْه من خلفائِك الراشدين ، يتبعْ هَدْي نبي الرحمة وهَدْي الصالحين بعده ، وأصلِحْ له رَعيَّته)[3].

---

(١) أي: أُغمي عليه.

(٢) أي: متُّ فجأةً.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٩٩ ـ ٢٠٠؛ تاريخ الطبري: ٣/ ٤٢٨ ـ ٤٢٩؛ مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٥٧٤؛ الإمامة ، لأبي نعيم ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٧؛ ثقات ابن حبان: ٢/ ١٩١ ـ ١٩٣؛ تاريخ المدينة ، لعمر بن شبة: ٢/ ٦٦٥ ـ ٦٦٩؛=

والروايات في هذا كثيرة ، وهي ضعيفة ، لكنها جاءت من طرق متعددة يشد بعضها بعضاً ويحصل من مجموعها قوة ، ويؤيدها إجماع الصحابة على بيعة عمر ، فلم يمتنع من بيعته أحد ولله الحمد.

ثانياً: بركة استخلافه:

قال ابن مسعود رضي الله عنه: (أفرسُ الناس ثلاثةٌ: أبو بكر حين استخلف عمر ، وصاحبة موسى حين قالت: استأجِرْه ، والعزيز حين تفرَّس في يوسف فقال لامرأته: أكرِمي مَثْواه)[1].

وقال الإمام أبو بكر بن العَربي يمتدح فعل الصديق هذا: (ثم استخلَف عمرَ ، فظهرت بركة الإسلام)[2].

وقال الإمام النَّووي ـ وهو يعدِّد أعمالَ الصديق الجليلة ـ: (ثم خَتم ذلك بمهمٍّ من أحسنِ مناقبه وأجلِّ فضائله وهو استخلافُه على المسلمين عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه ، وتفرسُه فيه ووصيتُه له واستيداعُه اللهَ الأمةَ ، فخَلَفَه الله عز وجل فيهم أحسنَ الخِلافة ، وظهر لعمر الذي هو حسنة من حسناته وواحدة من فعلاته: تمهيدُ الإسلام ، وإعزازُ الدين ، وتصديقُ وعد الله تعالىٰ بأنه يظهره علىٰ الدين كله)[3].

= ابن عساكر ، ص ٥٣٤ ـ ٥٣٦؛ واللفظ لابن سعد.

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٢٧٣؛ المستدرك: ٢/ ٣٤٥؛ تاريخ الخلفاء ، للسيوطي ، ص ٨٣.

(٢) العواصم من القواصم ، ص ٦٨.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات: ٢/ ١٨٢.

ثالثاً: تنبيه:

إن ولاية العهد من قِبَل الخليفة القائم بالسلطة إنما هو حقّ ترشيحٍ فحسب ، وليس حقّاً بتعيين الإمام رئيسَ الدولة الذي سيأتي بعده.

ويرى ابن تيمية أن عمرَ إنما صار إماماً بمبايعة الناس له بعد موت أبي بكر ، لا بمجرد عهد أبي بكر إليه بالخلافة.

فالعبرة في تعيين (رئيس الدولة) إنما هو في اختيار أهل الحَلّ والعَقْد ومبايعتهم له وليس في ولاية العهد ، ولو أنهم خالفوا الرأيَ في ولي العهد واختاروا غيره لكان لهم ذلك[1].

وهذا هو الحق الذي يتفق مع روح الإسلام وهَدْيه في الحكم وتأصيله مبدأَ الشورى ، ويؤكِّده واقع التاريخ وما جرَّت أحداثُه على المسلمين من كوارث وبلاءات وخلل وخروق وفتوق بسبب ولاية العهد ، وبخاصة للأولاد أو الإخوة.

والصديق لم يستبدّ برأيه ، ولا عَهِد لابنه أو أحدِ أقاربه ، ومع هذا فإن عمر الفاروق (إنما ولي الخلافة باتفاق أصحاب الحَلّ والعقد وإرادتهم ، فهم الذين فوَّضوا لأبي بكر انتخابَ الخليفة ، وجعلوه نائباً عنهم في ذلك ، فشاور ثم عيَّن الخليفة ، ثم عَرض هذا التعيين على الناس فأقَرُّوه ، وأمضوه ووافقوا عليه ، وأصحاب الحل والعقد في الأمة هم النواب الطبيعيون عن هذه الأمة ، وإذن فلم يكن استخلاف عمر رضي الله عنه إلا على أصح أساليب الشورى وأعدلها)[2].

---

(١) نظام الإسلام ـ الحكم والدولة ، لمحمد المبارك ، ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) أبو بكر الصديق ، للطنطاوي ، ص ٢٣٩.

الفصل الثاني

وصايا أبي بكر ووفاته ودفنه بجوار حبيبه ﷺ

أولاً: وصيته في متابعة الفتوحات:

لمّا تكالَب الفرس على المثنى بن حارثة في العراق ، جاء إلى المدينة يطلب المَدد ، فوجد أبا بكر على فراش الموت ، فأخبره بالأمر ، فأوصى الصديق عمرَ قائلاً: (إنْ أنا متُّ فلا تمسينَّ حتىٰ تندُبَ الناس مع المثنى ، وإن تأخَّرتُ إلى الليل فلا تصبحنَّ حتى تندُبَ الناس مع المثنىٰ. . . وإن فتح الله على أمراء الشام فاردُدْ أصحابَ خالد إلى العراق؛ فإنهم أهلُه وولاة أمره وحدُّه ، وأهل الضراوة بهم والجراءة عليهم)[1].

إن العظمة لا تعرف الحدود ولا القيود ، وإرهاصات الموت ودنو الأجل لا تنسي العظماء واجبات المسؤولية أمام الله والدين والأمة والتاريخ. . . فالصديق قد تجلت عظمته عند إسلامه ، وعند هجرته ، وعند وفاة النبي ﷺ ، وعند الاستخلاف ، وعند الردة والفتوح ، وعند الوفاة! ابتدأ عهده بجهاد المرتدين ، وتوسطه بالفتوحات ، وختمه

(١) تقدم الخبر بتمامه: ص٦٦٩ ـ ٦٧٠ حاشية (١) في هذا الكتاب.

بالوصية بمتابعتها ليترك الآثار الحميدة مع أنفاسه الأخيرة!.

ثانياً: وصيته لابنته عائشة:

عن عروة، عن عائشة زوج النبي ﷺ: أنها قالت: (إنَّ أبا بكر الصديق كان نَحَلَها جادَّ عشرين وَسْقاً من مالِه بالغابة، فلما حَضرتْهُ الوفاة قال: واللهِ يا بنيَّةُ ما من الناس أحدٌ أحبَّ إليَّ غِنًى بعدي منك، ولا أَعَزَّ عليَّ فقراً بعدي منك، وإني كنتُ نَحَلْتُكِ جادَّ عشرين وَسْقاً، فلو كنتِ جَدَدْتِيه واحْتَزْتِيه كان ذلكِ. وإنما هو اليومَ مالُ وارثٍ، وإنما هما أخواكِ وأختاكِ، فاقتسِمُوه على كتاب الله. قالت عائشة: فقلتُ: يا أبتِ، واللهِ لو كان كذا وكذا لتركتُه، إنما هي أسماءُ فمنِ الأُخرى؟ فقال أبو بكر: ذُو بَطْنِ بنتِ خارجة، أُرَاها جاريةً!)[1].

ثالثاً: تركته ووصيته في ماله:

ترك أبو بكر لورثته مالاً كما تدل عليه الرواية الصحيحة السابقة، وكذلك ما يدل عليه أنه أوصى بخمس ماله، وأن أباه ورثه ثم ردَّ نصيبه على ولده.

عن عروة بن الزبير قال: (لأَنْ أُوصي بالخُمس أحبُّ إليَّ من أن

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ: ٢/ ٧٥٢؛ وصححه عبد القادر الأرنؤوط في جامع الأصول: ١١/ ٦٢١: وهو عند ابن عساكر، ص ٥٥٢، وفي صفة الصفوة: ١/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦؛ وابن سعد: ٣/ ١٩٥؛ قوله: **(جاد عشرين وسقاً)**: أي أعطاها نخلاً يقطع من ثمرته عشرون وسقاً، والوسق = ١٣٠ كيلو جرام (ذو بطن بنت خارجة أراها جارية): بنت خارجة هي حبيبة زوجته، كانت حاملاً فظن أبو بكر أن الذي في بطنها أنثى، فكان كما ظن، وسمَّوها أم كلثوم.

أوصي بالربع ، ولأَنْ أُوصي بالربع أحبُّ إليَّ من أن أوصي بالثلث ، ومَن أوصى بالثلث لم يترك شيئاً).

وقال قتادة: (قال أبو بكر: لي من مالي ما رضي ربي من الغنيمة. فأوصى بالخمس)[1].

وقد ورث أبو قحافة من ابنه أبي بكر السدسَ ، ثم قال: (قد رددتُ ذلك على ولد أبي بكر)[2].

رابعاً: وصيته في مال المسلمين:

عن مسروق بن الأَجْدع ، عن عائشة رضي الله عنها قالت: (لمَّا مرض أبو بكر مرضَه الذي مات فيه ، قال: انظروا ما زاد في مالي منذ دخلتُ الإمارة فابعثوا به إلى الخليفة من بعدي ، فإني كنتُ أستحلّه جَهْدي ، وكنتُ أُصِيب من الوَدَك نحواً ممَّا كنت أصيب في التجارة. قالت عائشة: فلما مات نظرنا فإذا عبدٌ نوبي كان يحمل صبيانه ، وإذا ناضِحٌ كان يَسقي بستاناً له. قالت: فبعثْنا بهما إلى عمر. قالت: فأخبرني جدِّي أن عمر بكى ، وقال: رحمة الله على أبي بكر لقد أتعبَ من بعده تعباً شديداً)[3].

وعن القاسم بن محمد ، عن عمَّته عائشة رضي الله عنها: (أن أبا بكر حين حضَره الموت قال: إني لا أعلمُ عند أبي بكر من هذا المال شيئاً غيرَ

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٩٤ ، ١٩٩.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٢١٠.

(٣) أخرجه ابن سعد: ٣/ ١٩٢؛ وذكره الحافظ في الفتح: ٦/ ٩١ (٢٠٧٠) وصححه. **والناضح**: البعير يُستقى عليه الماء. **الوَدَك**: الدُّهن.

هذه اللِّقْحة وغيرَ هذا الغلام الصَّيْقَل كان يعمل سيوف المسلمين ويخدمنا ، فإذا متُّ فادفعيه إلى عمر . . فلما دفعته إلى عمر قال: رحمَ الله أبا بكر لقد أتعبَ مَنْ بعده)[١] .

وفي رواية: أن الذي ردُّوه إلىٰ عمر هو: (لَقوح ، وعَبْد صَيْقل ، وقَطيفة ما تساوي خمسة دراهم)[٢] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (أَطَفْنا بغرفة أبي بكر الصديق في مَرْضَتِهِ التي قُبض فيها ، فقلنا: كيف أصبح ـ أو: كيف أمسى ـ خليفة رسولِ الله ﷺ؟ قال: فاطّلَع علينا اطلاعة ، فقال: ألستُم ترضون بما أصنَعُ؟ قلنا: بلى قد رضينا ، قال: وكانت عائشة هي تمرِّضُه ، قال: فقال: أما إني قد كنتُ حريصاً على أن أوفِّر للمسلمين فَيْئَهم ، مع أني قد أصبتُ من اللحم واللبن ، فانظروا إذا رجعتم مني فانظروا ما كان عندنا فأَبْلِغوه عمر . قال: فذاك حيث عرفوا أنه استخلف عمر . قال: وما كان عنده دينار ولا درهم ، مـا كـان إلا خادم ولِقْحة ومِحْلَب . فلما رأى ذلك عمر يُحمل إليه قال: يرحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده)[٣] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (لمَّا حُضِر أبي دَعاني ، فقال: يا بُنيَّة ، إني كنتُ أتجرَ قريشٍ ، وأكثرَهم مالاً ، فلما شغلتني الإمارةُ رأيتُ أن أُصيب من المال! ثم قال: العباءة القَطَوانيَّة وحِلاَبٌ وعبد ، فإذا

---

(١) أخرجه ابن سعد: ٣/ ١٩٢ . **اللقحة**: الناقة الحلوب . **الصيقل**: شَحَّاذ السيوف وجلاَّؤها .

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٨٧ ؛ ابن عساكر ، ص ٤٣٥ .

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٩٢ ـ ١٩٣ ؛ ابن عساكر ، ص ٥٥٥ ـ ٥٥٦ .

قُبضت فأسرِعي به إلى ابن الخطاب)[1] . .

وهذه الروايات متكاملة؛ كل واحدة منها حفظ راويها شيئاً.

انظروا ماذا يشغل بال الصديق وهو في سياق الموت! إن الذي يشغله هو ما أخذه من مال المسلمين رواتب (سبعة وعشرين شهراً) فرضها له المسلمون ، وبعض أشياء تلزم عامة الناس في خدمته ومعاشه مع أهل بيته.

إنها تؤرِّقه لأنها أموال الأمة ، وهو قد نَفَض يديه من رئاستها فلم يَعُدْ له حق فيما بين يديه ، فألحَّ وهو يرى الموت ويرنو إلى الدار الآخرة أن يردوا ذلك إلى خزانة الدولة . . .

ترى ما هذا الأثاث والمتاع وما مقداره؟ :

١ ـ عبد يخدُمه.

٢ ـ غلام سيَّاف يصنع السيوف للمسلمين ويخدمه.

٣ ـ بعير ينَضح عليه الماء ليسقي بستانه.

٤ ـ ناقة يشرب منها اللبن.

٥ ـ مِحْلب يحلب فيه.

٦ ـ عباءة.

٧ ـ كساء قد انْجَرَدَ خَمْلُه! .

---

(١) ابن عساكر ، ص ٥٥٧ ـ ٥٥٨ . **القَطَوانية**: نسبة إلى قَطَوان ، موضع بالكوفة. **حِلاَب**: ما يحلب فيه.

كم تساوي هذه الأشياء مجتمعة يا ترى؟!.

إنها تساوي الكثير عند الرجال الأمناء الذين ربَّاهم رسول الله ﷺ، وعلموا عبءَ الأمانة وحصانةَ مال الأمة.

إنها تعني الكثير عند من يستشعر قيمةَ المسؤولية والوقوفَ بين يدي الله تعالى فيلقاه خليفة أميناً لا رئيساً خؤوناً.

إنها تعني الكثير عند النفوس المرهَفة التي تعلم أن الحرام القليل والكثير سواء، فمن يستسهل أكل اللُّقيمات الحرام لن يَصعُب عليه اختلاسُ الكثير لأنَّ رانَ المعصية قد غلَّف قلبه.

وكيف للصديق أن تداني سيرته شبهة وهو ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾؟! وهو الرجل الذي أنفق مالَه خدمةً لرسول الله ﷺ وفي سبيل الله وتحرير العبيد... رجل قد بَسط يمينَه بالنفقة طيلة ثلاث وعشرين سنة، أترضى نفسه أن يأخذ من مال المسلمين شيئاً أو يستبقيه عنده أو ينسى الوصاية بردِّه عند الرحيل؟!.

لكن يجب ألا ننسى أننا نتحدث عن الصديق وليس عن رجل آخر... إن عظمة الورع الذي نسجِّله في هذه الأخبار تناسِب عظمةَ هذا الخليفة، ولا يصح البتة أن يكون غير ذلك؛ ليُعلِم السامعين وكلَّ من يتلو صحائف سيرته الطاهرة أن الإنسان كلما ازداد فضلاً وعلماً ومنصباً ومسؤولية؛ يجب أن يزداد بما يكافئ ذلك زهداً وورعاً وتقوى وتواضعاً ونُبْلاً.

هذا هو منهج الصديق، وهذا ما حمله على تسطير ذلك الموقف الشامخ الذي رواه محمد بن سيرين قال: (توفي أبو بكر وعليه ستة آلاف

كان أخذها من بيت المال ، فلما حضَرَتْه الوفاة قال: إنَّ عمر لم يَدَعْني حتىٰ أصبتُ من بيت المال ستة آلاف درهم ، وإنَّ حائطي الذي بمكان كذا وكذا فيها! فلما توفي ذُكِر ذلك لعمر ، فقال: يرحمُ الله أبا بكر لقد أحَبَّ أن لا يَدَعَ لأحدٍ بعده مقالاً ، وأنا والي الأمر من بعده ، وقد رددتُها عليكم)[1].

وفي رواية: (قال أبو بكر: انظروا كم أنفقتُ منذ وُلِّيت من بيت المال ، فاقضوه عنِّي. فوجدوا مبلَغَه ثمانية آلاف درهم في ولايته)[2].

وهذا المال كما يتضح من الروايتين هو المال الذي تقاضاه أبو بكر رواتب مدة خلافته ، فأراد أن يكون عمله احتساباً لوجه الله تعالى.

هكذا ودَّعَ الصديق (منصب الخلافة) ورعاً زاهداً مطمئناً نزيه اليد راضيَ القلب طاهرَ النفس ، خفيفَ الحمل من أموال المسلمين ودمائهم وأعراضهم ، ثقيلَ الأعمال الصالحة والأعمال المجيدة ، رضي الله عنه وأرضاه.

خامساً: مرضه ووفاته:

●● عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان أولُ بَدْء مرضِ أبي بكر أنه اغتسل يوم الإثنين لسبعٍ خَلَوْن من جمادى الآخرة ، وكان يوماً بارداً ، فَحُمَّ خمسةَ عشر يوماً لاَ يخرج إلى صلاة ، وكان يأمر عمر بن الخطاب يصلي بالناس ، ويَدخُل الناس عليه يعودونه ، وهو يَثْقُل كل يوم ، وهو

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٩٣؛ ابن عساكر ، ص ٥٦٦.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٣٣؛ السنن الكبرى: ٦/ ٣٥٣؛ حياة الصحابة: ٢/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦.

نازلٌ يومئذٍ في داره التي قَطَع له النبي ﷺ وِجاهَ دار عثمان بن عفان اليوم ، وكان عثمان أَلزَمَهم له في مرضه).

وتوفِّي أبو بكر رحمه الله مساءَ ليلة الثلاثاء لثماني ليالٍ بقين من جمادى الآخرة ، سنة ثلاث عشرة من مُهاجَر النبي ﷺ ، فكانت خلافتُه سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال.

وتوفي رحمه الله وهو ابنُ ثلاثٍ وستين سنة ، مُجْمَعٌ على ذلك من الروايات كلها ، استوفىٰ سِنَّ رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر وُلد بعدَ الفيل بثلاث سنين[1].

وعن عروة ، عن عائشة رضي الله عنها قالت: (دخلتُ على أبي بكر رضي الله عنه ، فقال: في كَمْ كَفَّنْتُمُ النبيَّ ﷺ؟ قالت: في ثلاثة أثوابٍ بيضٍ سَحُولِيَّةٍ ليس فيها قميصٌ ولا عِمامة ، وقال لها: في أيِّ يوم توفِّي رسولُ الله ﷺ؟ قالت: يومَ الإثنين ، قال: فأيُّ يومٍ هذا؟ قالت: يومُ الإثنين ، قال: أرجو فيما بيني وبين الليل. فنَظَرَ إلى ثوب عليه كان يُمَرَّضُ فيه ، به رَدْعٌ من زَعْفَران ، فال: اغسلوا ثوبي هذا وزيدوا عليه ثوبين فكفِّنوني فيهما ، قلتُ: إنَّ هذا خَلَقٌ! قال: إنَّ الحيَّ أحقُّ بالجديد من المَيِّت ، إنما هو لِلمُهْلَةِ. فلم يُتَوفَّ حتى أمسى من ليلة الثلاثاء ، ودُفن قبل أن يُصْبح)[2].

---

(١) طبقات ابن سعد: ٣/ ٢٠٢؛ تاريخ الطبري: ٣/ ٤٢٩ ـ ٤٣٠؛ المستدرك: ٣/ ٦٣؛ ابن عساكر ، ص ٥٣٣.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٨٧) واللفظ له ، وأطرافه في (١٢٦٤)؛ وأحمد: ٦/ ٤٥؛ وابن سعد: ٣/ ٢٠١. **سَحُولية**: منسوبة إلى سَحول مدينة باليمن. رَدْع: لَطْخ لم يعمَّه كله. **خَلَق**: غير جديد. **المهلة**: الصَّديد.

قال الزين بن المنير: (الحكمةُ في تأخُّرِ وفاته عن يوم الإثنين، مع أنه كان يحب ذلك ويرغَب فيه؛ لكونه قام في الأمر بعد النبي ﷺ، فناسَبَ أن تكون وفاته متأخِّرةً عن الوقت الذي قُبِض فيه رسول الله ﷺ)[1]. وهو كلام في غاية اللطف.

●● عن عائشة رضي الله عنها قالت: (حضرتُ أبي وهو يموت، وأنا جالسةٌ عند رأسه، فأخذتْه غَشيةٌ، فتمثَّلتُ ببيت من الشعر:

مَـن لا يـزالُ دمعُـه مُقنَّعـاً فـإنـه لا بـدَّ مـرةً مَـدْفُـوقُ!

قالت: فرفع رأسه، فقال: يا بنية ليس كذاكِ، ولكن كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩][2].

وفي رواية أنها تمثَّلت بقول الشاعر:

لعَمرُكَ ما يُغني الثراءُ عن الفتى إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصدرُ

فردَّ عليها الصديق بمثل ما سبق[3].

وكان آخر ما تكلم به: رب ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١][4].

هذه هي الخاتمة السعيدة للصديق، وزادها سعادة تلك البشارة التي تتلقاه بها ملائكة الرحمة.

---

(١) الفتح: ٤/ ٤١١ (١٣٨٧).

(٢) أخرجه ابن سعد: ٣/ ١٩٧؛ وابن أبي الدنيا في «المحتضرين»، ص ٥٢ رقم (٣٨)؛ وابن حبان (٣٠٣٦)؛ وابن عساكر، ص ٥٥٤، وصححه شعيب الأرنؤوط.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٩٦.

(٤) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٢٣.

عن سعيد بن جُبير قال: (قرأ رجلٌ عند النبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . . .﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]، فقال أبو بكر: ما أحسنَ هذا يا رسول الله! فقال النبي ﷺ: «**إنَّ المَلَك سيقولُها لك يا أبا بكر**»)[١].

●● توفي رضي الله عنه بين المغرب والعشاء، وغسَّلَتْه زوجتُه الصحابية الجليلة أسماء بنت عُميس.

قالت أسماء بنت عُميس رضي الله عنها: (قال لي أبو بكر: غسِّليني، قلتُ: لا أُطيق ذلك، قال: يعينُك عبد الرحمن بن أبي بكر، يصبُّ الماء)[٢].

قال الزُّرْقَاني: ولا خلافَ في جواز تغسيل المرأة لزوجها، وأما تغسيلُه لها فأجازه الجمهور والأئمة الثلاثة لأن علياً غسَّل فاطمة[٣].

وحُمل على السرير الذي حمل عليه رسول الله ﷺ، وهو سرير عائشة، من خشبتي ساج منسوج بالليف، فبيع في ميراث عائشة بأربعة آلاف درهم، فاشتراه رجل من موالي معاوية، فجعله للناس[٤].

وصلى عليه عمر بن الخطاب في المسجد النبوي، بين القبر الشريف

---

(١) تفسير الطبري (٣٧٢١٣)؛ وذكره القرطبي: ٢٠/ ٥٣؛ وابن كثير: ٤/ ٦٠٦، وقال: مرسل حسن. ووصله بذكر ابن عباس: ابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في «المختارة»؛ وابن عساكر، ص ٥٦١ عن ابن أبزى.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٤٢١؛ وانظر: ابن سعد: ٣/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤، ٨/ ٢٨٤؛ الموطأ: ١/ ٢٢٣؛ ابن عساكر، ص ٤٦٥.

(٣) شرح موطأ مالك: ٢/ ٥.

(٤) ابن عساكر، ص ٥٧٤.

والمنبر ، وكبر عليه أربعاً ، ودفنوه ليلاً ، ثم دخل عمر المسجد فأوتر بثلاث[1].

سادساً: القبور الثلاثة:

دُفن أبو بكر الصديق بجوار سيدنا رسول الله ﷺ في حُجرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

عن عروة بن الزبير والقاسم بن محمد قالا: (أوصى أبو بكر عائشة أن يُدفن إلى جَنْب رسول الله ﷺ. فلما توفي ، حُفِر له وجُعل رأسُه عند كَتِفَيْ رسول الله ﷺ ، وأُلْصِق اللَّحْدُ بقبرِ رسول الله ﷺ ، فقُبِر هناك)[2].

وعن القاسم بن محمد قال: (دخَلت على عائشة فقلت: يا أمَّه ، اكشِفي لي عن قبر النبي ﷺ وصاحِبَيْه ، فكشفَتْ لي عن ثلاثة قبور لا مُشْرِفَةٍ ولا لاطِئَةٍ مبطوحةٍ ببطحاءِ العَرْصَة الحَمراء. قال: فرأيتُ قبرَ النبي ﷺ مقدَّماً ، وقبرَ أبي بكر عند رأسه ، ورأسَ عمر عند رِجْلِ النبي ﷺ)[3].

سابعاً: تاريخ وفاته ومبلغ سنِّه ومدة خلافته:

- توفي رضي الله عنه على الصحيح لثمان ليالٍ بقين من جمادى الآخرة ، سنة (١٣هـ).

---

(١) ابن سعد: ٣/ ٢٠٦ - ٢٠٨؛ ابن عساكر ، ص ٥٧٤ - ٥٧٩؛ الفتح: ٤/ ٣٤٠ ، شرح الحديث (١٣٤٠).

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ٢٠٩؛ ابن عساكر ، ص ٥٧٦.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/ ٢٠٩ - ٢١٠؛ وأبو داود (٣٢٢٠)؛ والحاكم: ١/ ٣٦٩ - ٣٧٠ ، وصححه ووافقه الذهبي. **مبطوحة**: أي أُلقي عليها البَطْحاء وهو الحَصَى الصغار.

ـ ولم يختلف المؤرخون أنه استكمل سنَّ النبي ﷺ ، فمات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

ـ وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام[١].

ثامناً: حزنهم عليه وبعض ما قيل فيه:

ارتجَّتِ المدينة لموت الصديق ، وطار النبأ في الآفاق ، ووصل مكة المكرمة فاضطرب أهلها لوفاته رضي الله عنه وأرضاه.

عن سعيد بن المسيب قال: (سمع أبو قُحافة الهائِعة بمكة ، فقال: ما هذا؟ قالوا: توفِّي ابنُك ، قال: رُزْءٌ جليلٌ! مَن قام بالأمر بعده؟ قالوا: عمر ، قال: صاحبُه)[٢].

فأبو قحافة الذي أدركه الهرمُ ، سمع النبأَ الموجع فأسكَتَه ولم يزدْ على تلك العبارة المتصبِّرة المتوجعة: (رُزْءٌ جليل)! فتجلَّد للمصاب وقد انهدَّ ركنه وتداعَت حياته ، ودَعَتْه الأقدار من قريب ليلحقَ بابنه إلى دار الكرامة ، فتوفي بعده بستة أشهر.

ووقفت السيدة عائشة على قبر أبيها ورَثَتْه بكلام بليغ ، ومما قالت:

(نَضَّرَ الله وجْهَك ، وشَكر لك صالحَ سعيك ، فلقد كنتَ للدنيا مُذِلاً بإعراضك عنها ، وللآخرة معزّاً بإقبالك عليها. ولئن كان أجلُّ الحوادث

---

(١) تاريخ خليفة ، ص ١٢١ ـ ١٢٢ ؛ طبقات ابن سعد: ٣/ ٢٧٤ ، ٢٠١ ـ ٢٠٢ ؛ تاريخ الطبري: ٣/ ٤١٨ ـ ٤٢٠ ؛ ابن عساكر ، ص ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٥٧٦ ، ٥٧٩ ـ ٥٨٩ ؛ صحيح مسلم (٢٣٤٨) و(٢٣٥٢).

(٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ٢١٠ ؛ ابن عساكر ، ص ٥٨٩. **الهائعة**: الصوت الشديد المفزع. رُزْء: مصيبة.

بعدَ رسول الله ﷺ رُزْءَك ، وأعظمُ المصائب بعده فَقْدَك ؛ إن كتاب الله لَيَعِد بالعزاء عنك حسنَ العوضِ منك ، فأنا أنتجزُ من الله موعودَه فيك بالصبر عليك ، وأستعيضُه منك بالدعاء لك ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . عليك السلام ورحمة الله ، توديعَ غير قاليةٍ لحياتك ، ولا زاريةٍ على القضاء فيك)(١) .

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

إذا تذكَّرْتَ شَجْواً من أخي ثِقةٍ	فاذْكُرْ أخاكَ أبا بكر بما فَعَلا
خيرَ البريَّةِ أتقاها وأعدَلَها	بعد النبيِّ وأوْفَاها بما حَمَلا
الثانيَ التاليَ المحمودَ مشهدُه	وأوَّلَ الناسِ منهم صَدَّق الرُّسُلا(٢)

* * *

---

(١) ابن عساكر ، ص ٥٧٢ ، أبو بكر ، للطنطاوي ، ص ٢٤٨ .

(٢) ابن عساكر ، ص ١٢٩ ـ ١٣١ ، ٥٧٢ .

* والمرثية الطويلة التي رويت عن علي بن أبي طالب هي مكذوبة موضوعة ، وقد رواها مطولة صاحب نهاية الأرب ، وابن عساكر ، والمحب الطبري ، ونقلها عنهم الشيخ علي الطنطاوي ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨ ؛ والدكتور علي الصلابي ، ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥ ، رواها (عمر بن إبراهيم الهاشمي) كذاب وضاع ، كما ذكر الهيثمي في مجمع الزوائد: ٩/ ٤٧ ـ ٤٨ ؛ وقال الذهبي في (الميزان: ٣/ ١٨٠): يشهد القلب بوضع ذلك!.

الخاتمة

إلى هنا انتهى بنا المَطاف ، وأجدُني مرغَماً على أن أكبح رغبة القلم في الاستمرار والاسترسال في تدوين صحائف النور والمفاخر والفضائل في حياة الصديق الأعظم. . . فلقد مات ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾.

ولحكمةٍ عليا وفضلٍ غامر وتكرمةٍ فريدة أن الله تعالى جمع بين رسوله ﷺ وبين أبي بكر قبل الإسلام فكانا خليلين صفيَّين ، ثم جمع بينهما في الساعة الأولى من مشرق الرسالة ، وجمع بينهما في الغار ، وجمع بينهما في المصاهرة ، ثم ختم الله له بأن جمع بينهما في الحياة البرزخية في حجرة أم المؤمنين عائشة ، وستتم عليه النعمة حيث يجمع الله بين رسوله وصِدِّيقه في أعلى فراديس الجنة. . . نِعَمٌ تترى ومكرمات تتوالى ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

نعم لقد مات ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ وخليفة رسول الله ﷺ ، ولكنه ليس كموت الآخرين ، بل هو موت الخالدين. . . فلئِنْ فارَقَ شخصُه الحبيب دنيانا فإن روحه الطاهرة وخصاله الطيبة وشمائله الكريمة وأعماله المجيدة وسيرته المضيئة وآثاره الحميدة؛ خالدةٌ في القلوب وفي التاريخ وفي الزمان وفي المكان ، وتلك هي الحياة بمعناها الرفيع الرحيب.

إن سيرته المشرِقة وأعمالَه المباركة وهَدْيه الفذّ أكبرُ من عوامل المحوِ

وأقوى من عوارض النسيان وأبقى من الزمان والمكان. . . فكل مسلم يعرف سيرة رسول الله ﷺ ويتلو صحائفها المنيرة ، لا ينفكُّ يذكُر معها سيرة صاحبه الأمين وصدِّيقه الجليل أبي بكر .

إن الصديق عند الله تعالى وعند رسوله ﷺ وفي قلوبنا أكبرُ مما كتب عنه الكاتبون وأشاد به المؤرخون .

إن الصديق في يقيننا أرفَعُ وأجلُّ وأعظمُ مما كتبناه عنه ومما سطَّره الكتَّاب والمصنفون من قبلنا وما سوف يكتبونه في قابل الأيام .

حَسْبه ذِكْرُهُ الخالد في القرآن : ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ ، وحسبه ثناءاتُ الرسول ﷺ وإجلالُ خيرة أصحابه له رضوان الله عليهم أجمعين .

فليس للزمان ولا لعوارض النسيان على سيرة الصديق من سبيل ! .

لقد بدأ الصديق حياته في الإسلام بأمر جليل : فأسلَم أولَ الناس ، وجاء من الغدِ بثلّة من شبان قريش فانضموا معه إلى ركب الدعوة فكانوا أسبقَ السُّبَّق إلى الإسلام .

وتوسَّط حياته في الدعوة بأمر جليل : يوم الهجرة وما فيها من المآثر والمفاخر .

وختم حياته مع النبي ﷺ بأمر جليل : عند وفاته ﷺ حيث ثبَّتَ الله به المؤمنين واستنقذهم من فتنة عارمة .

ثم انتقل إلى المرحلة الثانية من حياته في الإسلام في عهد خلافته فافتتحها بأعمال ضخام؛ فاستلم منصب الخلافة وقعَّد للناس قواعد

الحكم الإسلامي ، وأنفَذَ أمر النبي ﷺ بتسيير جيش أسامة ، وصَمَد للردة فقهرها وكسر فَقَارَها وثبَّت الإسلام في الجزيرة.

وتوسَّط خلافته بعمل شامخ: حيث كتب السطور الأولى في عالمية الرسالة وابتدأ الفتوحات ونعى للناس مُلك كسرى وقيصر ، وعلَّم الإنسانية المبادئ المدنية الرفيعة في الحروب.

ختم خلافته بأعمال باهرة فاستخلَف عمر على المسلمين وأوصاه بأن لا يصبح الصباح إلا ويَنْدُب الناس مع مثنَّى بني شَيْبان لمتابعة الفتوحات في العراق.

دخل أبو بكر الإسلام غنياً فأنفق ماله كلَّه في سبيل الله ، **وخرج من الدنيا وقد أمر بردٍّ ما عنده من متاع زهيد إلى الخليفة من بعده** ، وأوصى ببيع بستانه وردِّ ثمنه إلى بيت مال المسلمين عوضاً عما أخذه من رواتب طيلة (٢٧) شهراً ، وترك في بيت المال وراءه درهماً واحداً!.

استلم الدولة وليس ثابتاً على الإسلام إلا ثلاث قرى: مكة والمدينة والطائف ، وسلَّمها لخليفته بعد أن ثبت الدين واستقر في الجزيرة وبَسَط رُواقه فيها وضَرب خيامَه في قلب فارس والروم.

هذا هو أبو بكر وتلكم سيرته وأعماله ، لا ندري أيّاً منها نقدِّم ونجعل له المقام الأول في الرتبة؛ فكلُّ أعمالِه أمجاد ، وكل أمجاده سوابق ، وكل سوابقه مفاخر.

رجلٌ قد اصطَلَحت عليه الملمَّات: موتُ النبي ﷺ ، وإرادةُ الأنصار مبايعة رجل منهم خليفةً ، وبعثُ أسامة في جيشه إلى أطراف الشام ، ومسألة ميراث الرسول ﷺ ومطالبة فاطمة وعلي به ، وارتدادُ قبائل

العرب ، وظهورُ أدعياء النبوة ، وأطماعُ الفرس والروم بدولة الإسلام الناشئة . . . كل ذلك يحدث والمسلمون حديثو عهد بدولة في جزيرة العرب تتهدَّدُها الخطوب المدلهمَّة! .

لكن الله اللطيف الخبير قد ادَّخَر لدينه ورسالته وعباده مَن يَخْلُف رسوله ﷺ أحسنَ الخَلَف ، ويقوم بالأعباء الجسام خير قيام. فنهض الصديق ومعه رجال محمد ﷺ فصارعوا تلك المحن ونازلوا تلك الأمم ، فكانت لهم الغلبة في النهاية .

لقد استطاع الصديق أن يأخذ بزمام التاريخ ويُملي على قلمه الصادق ليسطِّر مناقبه وشمائله وعبقرياته وجلائل أعماله. وتمكن من أن يجعل خلافته وما جرى فيها من أحداث ضخام محاورَ كبرى يتمحور التاريخ حولها، ويتناولها الكتاب بالتأريخ والعرض والسرد والتحليل والاستنباط .

وهذا المجهود الضخم الذي قام به لا يمكن أن ينهض به إلا رجل قد أوتي من توفيق الله ومعونته وتأييده ما لا يُؤْتَاه إلا الصدِّيقون! وهذا ما آمن به الصديق وأيقنَ به حق اليقين ، فنقش على خاتمه ما يذكِّره دائماً بذلك وكتب عليه : (نِعْمَ القادرُ الله)! .

هذا هو أبو بكر بدأ حياته بإسلام الصديقين ، وختمها بقوله : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ .

وإني لأرجو أن يكون هذا الكتاب قد جلا صحائف سيرة الصديق وخصائصه ومزاياه وحياته وأحداث عصره ومسيرة خلافته ودولته .

وأرجوه سبحانه أن يتقبله مني وينفعني والمسلمين به ، ويجعله في

سلك العمل الصالح الذي لا ينقطع أجره ، وأن يكون لي ذخراً يوم ألقى وجهه الكريم .

والحمدُ لله أولاً وآخراً على نعمائه وفضله وتوفيقه ، وما أَنعم به وهدى إليه ، وأزكى الصلاة وأتم السلام على رسولنا الكريم سيدنا محمد ﷺ ، وعلى صاحبه في الغار وخليفته على المسلمين وحامل الراية من بعده ، وعلى جميع الصحابة والعِتْرة الطاهرة والتابعين لهم بإحسان لهم إلى يوم الدين .

عبد الستار الشيخ

مساء الجمعة المبارك ٩/ شعبان/ ١٤٣٠هـ

٣١/ ٧/ ٢٠٠٩م

دولة الإمارات العربية المتحدة ـ دبي



المراجع

١ ـ **أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ** ، د. إبراهيم علي شعوط ، المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٢ ـ **أبو بكر الصديق** ، د. حامد محمد الخليفة ، عمّان.

٣ ـ **أبو بكر الصديق** ، د. علي محمد محمد الصلابي ، دار ابن كثير ـ دمشق.

٤ ـ **أبو بكر الصديق** ، علي الطنطاوي ، دار المنارة ـ جدة.

٥ ـ **أخبار القضاة** ، محمد بن خلف (وكيع) ، عالم الكتب ـ بيروت.

٦ ـ **الأدب المفرد** ، الإمام البخاري ، باعتناء محمد هشام البرهاني ، الإمارات.

٧ ـ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ، ابن عبد البر ، طبع مع الإصابة ، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٨ ـ **أسد الغابة في معرفة الصحابة** ، ابن الأثير ، دار الفكر ـ بيروت.

٩ ـ **الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة** ، ملا علي القاري ، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٠ـ **الأسامي والكنى** ، الحاكم الكبير ، تحقيق يوسف بن محمد الدخيل ، مكتبة الغرباء الأثرية ـ المدينة المنورة.

١١ـ **الإصابة في تمييز الصحابة** ، ابن حجر ، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

١٢ـ **أعلام الحفاظ والمحدثين** ، عبد الستار الشيخ ، دار القلم ـ دمشق.

١٣ـ **الإمامة والرد على الرافضة** ، أبو نعيم الأصبهاني ، مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة.

١٤ـ **الأموال** ، أبو عبيد القاسم بن سلام ، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١٥ـ **البداية والنهاية** ، ابن كثير ، مكتبة المعارف ـ بيروت.

١٦ـ **بين العقيدة والقيادة** ، محمود شيت خطاب ، دار القلم ـ دمشق.

١٧ـ **تأويل مختلف الحديث** ، ابن قتيبة ، تحقيق محمد الأصفر ، المكتب الإسلامي ـ بيروت.

١٨ـ **تاريخ الإسلام** ، الذهبي ، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

١٩ـ **تاريخ بغداد** ، الخطيب البغدادي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٠ـ **تاريخ الخلفاء** ، السيوطي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

٢١ ـ **تاريخ الخلفاء الراشدين** ، د. محمد سهيل طقوش ، دار النفائس ـ بيروت.

٢٢ ـ **تاريخ خليفة بن خياط** ، تحقيق د. أكرم ضياء العمري ، دار طيبة ـ الرياض.

٢٣ ـ **تاريخ دمشق** ، ابن عساكر «أبو بكر عبد الله بن عثمان» ، تحقيق سكينة الشهابي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.

٢٤ ـ **تاريخ الطبري** ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ـ مصر.

٢٥ ـ **تذكرة الحفاظ** ، الذهبي ، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي ، دار الباز ـ مكة المكرمة.

٢٦ ـ **تفسير القرآن العظيم** ، ابن كثير ، دار ابن كثير ـ دمشق.

٢٧ ـ **تنزيه الشريعة** ، ابن عَرَّاق ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف وعبد الله محمد الصديق ، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٨ ـ **تهذيب الأسماء واللغات**، النووي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٢٩ ـ **تهذيب التهذيب** ، ابن حجر ، دار الفكر ـ بيروت.

٣٠ ـ **تهذيب الكمال** ، المزي ، تحقيق د. بشار عواد معروف ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٣١ ـ **الثقات** ، ابن حبان ، تحقيق محمد عبد المعين خان ، دار الفكر ـ بيروت.

٣٢ـ **جامع الأصول** ، ابن الأثير ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، دار الفكر ـ بيروت .

٣٣ـ **جامع بيان العلم وفضله** ، ابن عبد البر ، دار الفكر ـ بيروت .

٣٤ـ **الجامع الصحيح** ، البخاري ، الطبعة السلطانية عن النسخة اليونينية ، دار الجيل ـ بيروت وطبعات أخرى .

٣٥ـ **الجامع لأحكام القرآن** ، القرطبي ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، مكتبة الرشد ـ الرياض .

٣٦ـ **جمهرة أنساب العرب** ، ابن حزم ، تحقيق عبد السلام هارون ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٣٧ـ **حلية الأولياء**، أبو نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي ـ بيروت .

٣٨ ـ **حياة رجالات الإسلام** ، محمد الصادق عرجون ، دار القلم ـ دمشق .

٣٩ـ **حياة الصحابة** ، محمد يوسف الكاندهلوي ، تحقيق نايف العباس ومحمد علي دولة ، دار القلم ـ دمشق .

٤٠ ـ **خالد بن الوليد**، محمد الصادق عرجون، دار الأندلس ـ بيروت .

٤١ ـ **الخلفاء الراشدين** ، عبد الستار الشيخ ، دار القلم ـ دمشق .

٤٢ ـ **الخلفاء الراشدون** ، عبد الوهاب النجار ، دار الأرقم ـ بيروت .

٤٣ ـ **خلفاء الرسول** ، خالد محمد خالد ، دار الكتاب العربي - بيروت.

٤٤ ـ **دواعي الفتوحات الإسلامية** ، د.جميل عبد الله المصري ، دار القلم ـ دمشق.

٤٥ ـ **الرقة والبكاء** ، ابن أبي الدنيا ، تحقيق محمد خير يوسف رمضان ، دار ابن حزم ـ بيروت.

٤٦ ـ **الرياض النضرة**، المحب الطبري، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٤٧ ـ **الزيادة والإحسان في علوم القرآن** ، لابن عقيلة المكي ، الإمارات ـ جامعة الشارقة.

٤٨ ـ **سبل الهدى والرشاد** ، محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ـ القاهرة.

٤٩ ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة** ، محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ـ الرياض.

٥٠ ـ **سلسلة الأحاديث الضعيفة** ، محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف ـ الرياض.

٥١ ـ **السنة** ، لابن أبي عاصم ، تحقيق وتخريج الألباني ، المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٥٢ ـ **السنن الأربعة** ، للأئمة أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

٥٣ ـ **السنن الكبرى** ، البيهقي ، وبذيله: **الجوهر النقي** ، دار المعرفة ـ بيروت.

٥٤ ـ **السنن الكبرى** ، النسائي ، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٥٥ ـ **السياسة الشرعية** ، ابن تيمية ، دار المعرفة ـ بيروت.

٥٦ ـ **سير أعلام النبلاء** ، الذهبي ، تحقيق جماعة من أهل العلم ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٥٧ ـ **السيرة النبوية** ، ابن هشام ، تحقيق مصطفى السقا وزميله ، مؤسسة علوم القرآن ـ دمشق.

٥٨ ـ **شرح الزرقاني على موطأ مالك** ، الإمارات ـ وزارة الأوقاف.

٥٩ ـ **شرح السنة** ، البغوي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وزهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٦٠ ـ **شرح صحيح مسلم** ، النووي ، دار أبي حيان ـ القاهرة.

٦١ ـ **شرح العقيدة الطحاوية** ، ابن أبي العز الدمشقي ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، دار عالم الكتب ـ الرياض.

٦٢ ـ **شرح مشكل الآثار** ، الطحاوي ، تحقق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٦٣ ـ **صحاح السنن الأربعة** ، محمد ناصر الدين الألباني ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ـ الرياض.

٦٤ـ **صحيح الجامع الصغير** ، الألباني ، المكتب الإسلامي ـ بيروت .

٦٥ـ **صحيح ابن حبان** ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

٦٦ـ **صحيح مسلم** ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

٦٧ـ **الصديق أبو بكر** ، د. محمد حسين هيكل ، المكتبة العصرية ـ صيدا ، بيروت .

٦٨ـ **صفة الصفوة** ، ابن الجوزي ، تحقيق محمود فاخوري ، دار المعرفة ـ بيروت .

٦٩ـ **ضعيف الجامع الصغير** ، الألباني ، المكتب الإسلامي ـ بيروت .

٧٠ـ **طبقات الفقهاء** ، أبو إسحاق الشيرازي ، دار القلم ـ بيروت .

٧١ـ **الطبقات الكبرى** ، ابن سعد ، دار الفكر ـ بيروت .

٧٢ـ **العبر في خبر من عبر** ، الذهبي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٧٣ـ **عبقرية الصديق** ، عباس محمود العقاد ، المكتبة العصرية ـ صيدا ، بيروت .

٧٤ـ **العشرة المبشرون بالجنة** ، عبد الستار الشيخ ، دار القلم ـ دمشق .

٧٥ـ **عصر الخلافة الراشدة** ، د. أكرم ضياء العمري ، العبيكان ـ الرياض.

٧٦ـ **علل وأدوية** ، محمد الغزالي ، دار القلم ـ دمشق.

٧٧ـ **العواصم من القواصم** ، ابن العربي ، تحقيق محب الدين الخطيب ، دار الجيل ـ بيروت.

٧٨ـ **عون المعبود شرح سنن أبي داود** ، شمس الحق العظيم آبادي ، دار الحديث ـ القاهرة.

٧٩ـ **غاية النهاية في طبقات القراء** ، ابن الجزري ، تحقيق ج برجستراسر ، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٨٠ـ **فتح الباري** ، ابن حجر ، دار أبي حيان ـ القاهرة.

٨١ـ **فتح الملهم وتكملته ـ شرح صحيح مسلم** ، شبير أحمد العثماني ومحمد تقي العثماني ، دار القلم ـ دمشق.

٨٢ـ **فتوح البلدان** ، البلاذري ، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٨٣ـ **فتوح الشام** ، الأزدي ، بعناية عبد المنعم عامر ، مؤسسة سجل العربي ـ القاهرة.

٨٤ـ **فتوح الشام** ، الواقدي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٨٥ـ **فصل الخطاب في مواقف الأصحاب** ، محمد صالح الغرسي ، دار القلم ـ دمشق.

٨٦ـ **فضائل القرآن** ، ابن كثير ، دار الأندلس ـ بيروت.

٨٧ـ **قادة فتح (بلاد فارس ، الشام ومصر ، العراق والجزيرة)** ، محمود شيت خطاب ، دار الفكر ـ بيروت .

٨٨ـ **قواعد في علوم الحديث** ، ظفر أحمد العثماني التهانوي ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب .

٨٩ـ **الكامل في التاريخ** ، ابن الأثير ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

٩٠ـ **الكامل في ضعفاء الرجال** ، ابن عدي ، دار الفكر ـ بيروت .

٩١ـ **الكشف الإلـٰهي عن شديد الضعيف والموضوع والواهي** ، محمد بن محمد الحسيني الطرابلسي ، تحقيق د.محمد محمود أحمد بكار ، مكتبة الطالب الجامعي ـ مكة المكرمة .

٩٢ـ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس** ، إسماعيل العجلوني ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت .

٩٣ـ **لسان العرب** ، ابن منظور ، دار صادر ـ بيروت .

٩٤ـ **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** ، أبو الحسن الندوي ، الدار الشامية ـ بيروت .

٩٥ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد** ، الهيثمي ، باعتناء حسام الدين القدسي ، دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٩٦ـ **مجموع الفتاوى** ، ابن تيمية ، جمع وترتيب ابن القاسم ، السعودية .

٩٧ ـ **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة** ، محمد حميد الله ، دار النفائس ـ بيروت .

٩٨ ـ **محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية** ، محمد الخضري ، دار المعرفة ـ بيروت .

٩٩ ـ **محمد رسول الله ﷺ** ، محمد الصادق عرجون ، دار القلم ـ دمشق .

١٠٠ ـ **مختصر تاريخ ابن عساكر** ، ابن منظور ، دار الفكر ـ دمشق .

١٠١ ـ **مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه** ، د.عدنان زرزور ، دار القلم ـ دمشق .

١٠٢ ـ **المستدرك** ، الحاكم ، دار الكتاب العربي ـ بيروت .

١٠٣ ـ **مسند أحمد** ، تحقق أحمد شاكر ، مكتبة التراث الإسلامي ـ القاهرة ، ومسند أحمد ، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ، ومسند أحمد ، المكتب الإسلامي ـ بيروت .

١٠٤ ـ **مسند الحميدي** ، تحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي ، عالم الكتب ـ بيروت .

١٠٥ ـ **مسند الطيالسي** ، دار المعرفة ـ بيروت .

١٠٦ ـ **المصاحف** ، ابن أبي داود ، تحقيق د.محب الدين واعظ ، وزارة الأوقاف ـ قطر .

١٠٧ ـ **مصنف ابن أبي شيبة** ، باعتناء سعيد محمد اللحام ، دار الفكر ـ بيروت .

١٠٨ ـ **مصنف عبد الرزاق** ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، المكتب الإسلامي ـ بيروت.

١٠٩ ـ **المصنوع في معرفة الحديث الموضوع** ، علي القاري ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب.

١١٠ ـ **المعارف** ، ابن قتيبة ، تحقيق د. ثروت عكاشة ، دار المعارف ـ مصر.

١١١ ـ **المعالم الأثيرة في السنة والسيرة** ، محمد محمد حسن شراب ، دار القلم ـ دمشق.

١١٢ ـ **معجم البلدان** ، ياقوت الحموي ، دار الفكر ـ بيروت.

١١٣ ـ **المعرفة والتاريخ** ، يعقوب بن سفيان الفسوي ، تحقيق د. أكرم ضياء العمري ، مكتبة الدار ـ المدينة المنورة.

١١٤ ـ **المقاصد الحسنة** ، السخاوي ، تحقيق محمد عثمان الخشت ، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

١١٥ ـ **المنار المنيف في الصحيح والضعيف** ، ابن القيم ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية ـ حلب.

١١٦ ـ **المنتظم** ، ابن الجوزي ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

١١٧ ـ **المنتقى من منهاج الاعتدال** ، الذهبي ، تحقيق محب الدين الخطيب ، دار عالم الكتب ـ الرياض.

١١٨ ـ **من قضايا الفكر الإسلامي المعاصر** ، محمد قطب ، دار الشروق ـ القاهرة.

١١٩ ـ **منهاج السنة النبوية** ، ابن تيمية ، تحقيق د. محمد رشاد سالم ، دار الفضيلة ـ الرياض.

١٢٠ ـ **منهج النقد في علوم الحديث** ، د. نور الدين عتر ، دار الفكر ـ دمشق.

١٢١ ـ **موطأ مالك** ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

١٢٢ ـ **ميزان الاعتدال** ، الذهبي ، تحقيق علي محمد الجباوي ، دار المعرفة ـ بيروت.

١٢٣ ـ **النبأ العظيم** ، د. محمد عبد الله دراز ، دار القلم ـ الكويت.

١٢٤ ـ **نبوءات الرسول ﷺ ـ دروس وعبر** ، عبد الستار الشيخ ، دار القلم ـ دمشق.

١٢٥ ـ **نسب قريش** ، مصعب الزبيري ، تحقيق ليفي بروفنسال ، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة.

١٢٦ ـ **نظام الإسلام ـ الحكم والدولة** ، محمد المبارك ، دار الفكر ـ دمشق ، بيروت.

١٢٧ ـ **النكت علىٰ كتاب ابن الصلاح** ، ابن حجر ، تحقيق د. ربيع ابن هادي عمير ، دار الراية ـ الرياض.

١٢٨ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر** ، ابن الأثير ، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي ، المكتبة العلمية ـ بيروت.

١٢٩ ـ الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين ، د. عبد العزيز إبراهيم العمري ، دار إشبيليا ـ الرياض.

وغير ذلك كثير من كتب الحديث ، وشروحه ، ومصطلحه ، والرجال ، والتفسير ، والتاريخ والأدب ، ومعاجم اللغة.

* * *



الفهرس

الباب الأول

نبعة الصديق ونشأته وأسرته ومكونات شخصيته

الباب الثاني

مع رسول الله ﷺ في مكة المكرمة (من الإسلام إلى الهجرة)

الباب الثالث

مع رسول الله ﷺ في المدينة المنورة وبناء الدولة

الباب الرابع

عبادة الصديق وأخلاقه وعلمه ومناقبه ومكانته

الباب الخامس

خلافة الصديق وأبرز معالمها وأحداثها ومشكلاتها

الباب السادس

الفتوحات واتساع دولة الإسلام

الباب السابع

مع الصديق في أيامه الأخيرة

* * *